



الأمير

القصة السريّة للأمير الأكثر إشارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان

وليام سيمبسون

مع مقدمتين بقلم نيلسون مانديلا ومارغريت تاتشر

الأمير

الفصحة السريفة للأمير الأكر إشارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان

الأمير

القصة السريّة للأمير الأكثر إشارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان

The Prince

تأليف

وليام سيمبسون

مع مقدمتين بقلم نيلسون مانديلا ومارغريت تاتشر

William Simpson

ترجمة

عمر سعيد الأيوبي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Prince

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Regan

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2006 by William Simpson

All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-151-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



المحتويات

| | |
|----------|--|
| 9..... | تقديم بقلم نلسون مانديلا |
| 11..... | تقديم البارونة مارغريت تاتشر |
| 13..... | ملاحظة على المصادر |
| 15..... | تمهيد |
| 17..... | مقدمة |
| 25..... | الفصل الأول: من هو الأمير بندر؟ |
| 49..... | الفصل الثاني: الأمير طيار حربي |
| 85..... | الفصل الثالث: رأس جبل الجليد |
| 123..... | الفصل الرابع: سنوات المكيدة |
| 165..... | الفصل الخامس: بندر تاجر السلاح |
| 205..... | الفصل السادس: نظام عالمي جديد |
| 225..... | الفصل السابع: الخليج ينفجر |
| 283..... | الفصل الثامن: السلام في الشرق الأوسط |
| 313..... | الفصل التاسع: السفير الذي لا يقهر |
| 357..... | الفصل العاشر: 9/11: الكارثة |
| 389..... | الفصل الحادي عشر: الأصدقاء وحاشية السفر |
| 421..... | الفصل الثاني عشر: الحياة الخاصة بالأمير بندر |
| 451..... | الفصل الثالث عشر: بندر: الكشف عن اللغز |
| 477..... | الفصل الرابع عشر: حياة جديدة |
| 485..... | الهوامش |

تقديم

بقلم نلسون مانديلا

غالباً ما تكون الصداقات في عالم السياسة عابرة أو دبلوماسية، وبالتالي لا تقاس إلا من خلال اللياقة أو الضرورة. والحال ليست كذلك حتماً بيني وبين الأمير بندر بن سلطان: فأنا أنعم بصداقة شخصية دائمة وقوية مع الأمير بندر، وهو شخصية تتحلّى بدفء وذكاء وإخلاص غير عاديّ. فقد قدّم إليّ بندر دعمه الراسخ على مرّ السنين بعدّة طرائق، وكان دائماً مخلصاً وكرماً بقدر ما أتوقّع من رجل دولة بهذه المكانة العظيمة.

لقي وليام سمبسون تحدياً هائلاً في كتابة السيرة الذاتية للأمير بندر، إذ إنّه تمكّن من الإحاطة بجوهر هذا الرجل - اللغز. فالتعامل مع المنعطفات والتحوّلات في هذه الحياة المدهشة إنجاز بحدّ ذاته، وكذا تحديد العوامل التي أنشأت هذا الرجل البارع ذا الحضور المؤثّر الذي أفخر أن أعرفه كصديق وثيق.

لقد كان للأمير بندر تأثير مدهش في أثناء العقدين الماضيين كصانع سلام دوليّ متحوّل، يعمل في الخلفيّة بشكل رئيسيّ، ولا يسعى البتة وراء التقدير العامّ ونادراً ما تقبّل تصفيق نظرائه. لذا لا نعجب نحن الذين نعرفه عن كثب من الاحترام الملحوظ الذي يكتّنه للأمير بندر العديد من رؤساء الدول والحكومات ورجال الدولة وصنّاع الرأي في كلّ أنحاء العالم، لكنّ دوره المركزيّ بقيّ طيّ الكتمان إلى حدّ كبير حتى الآن.

الأمير بندر رجل متميّز - شخصية ساحرة وفصيحة، ومع ذلك متواضعة - وغالباً ما وجّه نمط الأحداث العالميّة. وإنّه ليسعدني أن أتمكّن من المساهمة في كتاب أعرف أنه مليء بالحويّة والمرح، وتخلله قصص بندر الخاصّة - المبالغ فيها دائماً - فهو قاصّ لا نظير له.

في الختام، تستحق إنجازات الأمير بندر اعترافاً دولياً. فقد عمل من دون كلل من أجل السلام، وأنا أصفّق له من دون شروط كرجل مبادئ، ودبلوماسي ذي قدرات مدهشة، وواحد من صانعي السلام العظام في زماننا.

نلسون مانديلا

تقديم

بقلم البارونة مارغريت تاتشر

كنت شاهدة على المواهب المتميزة للأمير بندر كدبلماسي ورجل أفعال بلدة
تزيد عن العشرين سنة. فهو بوصفه طياراً حربياً سابقاً جريء وحاسم، ورجل كما
يهوى قلبي. إنه يصنع الأحداث بدلاً من أن ينتظر حدوثها. وقد لعب بالطبع دوراً
مركزياً في العلاقات بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، بالإضافة إلى
المملكة المتحدة. كما مكنته قدرته غير العادية على الفوز باحترام وثقة القادة العالميين
من خدمة حكومته في العديد من المهمات الأخرى التي لا تقل حساسية في الشرق
الأوسط والصين وروسيا. وأذكر على وجه التحديد دوره الحاسم في بناء الائتلاف
لمقاومة احتلال صدام حسين الكويت في سنة 1990. إن هذا الكتاب يروي قصة رجل
في عصرنا يقف في قلب أحداث العالم منذ عقدين من الزمن، وأفخر بأن أدعوه
صديقاً.

مارغريت تاتشر

ملاحظة على المصادر

على الرغم من تشديد الأمير بندر على أن تكون هذه السيرة الذاتية "غير رسمية"، فإنه منحني مع ذلك فرصة الوصول غير المقيد إلى عائلته وأصدقائه. وبذلك أتاح لي الاستفادة مباشرة من الذاكرة الجماعية لأقرب معارفه. وبندر، كما يشهد الذين يعرفونه، راوي أخبار مميّز، وقد روى عدّة مرّات على مرّ السنين على هؤلاء الأصدقاء أحداثاً دبلوماسية مذهشة. وبمقابلة هؤلاء الأصدقاء، تمكّنت من جمع روايات وطرائف شخصيّة مفصّلة، مع المطالبة الصارمة بإغفال الأسماء في الغالب. وقد جمعت كل الاقتباسات المباشرة والحوارات والمحادثات والقصص من دائرة الأصدقاء هذه، ما لم يُذكر خلاف ذلك. ونزولاً عند طلب المحافظة على السريّة من بعض المصادر، لم يتمّ في الغالب الإشارة إلى مصادر الروايات الحوارية للاجتماعات والأحداث المنسوبة إلى الأمير بندر في هذه السيرة الذاتية؛ لكنّها دقيقة مع ذلك.



تمهيد

في سنة 1986، كنت جالساً حول نار المخيم ذات ليلة من ليالي الصحراء العربية، فالتمعت بجرّة الدرب اللبنيّة وسطعت في عتمة الليل. وفرقت النار وتموّرت. كان رفاقي، الذين جلسوا متربّعين على الرمل معي، ضباطاً ورتباء شبّاناً في سلاح الجوّ الملكيّ السعوديّ. وقد أكلنا ملء بطوننا من لحم الماعز المشويّ الطازج والأرز، وها هي القهوة بالهال تقدّم إلى الجميع في فناجين صغيرة.

كنّا جميعاً نعرف بعضنا بعضاً، وفيما استرخى الجميع تحوّلت الجلسة لسبب ما إلى الحديث عن الأمير بندر. لم تكن لدى زملائي أي فكرة عن صلاتي الماضية بالأمير بندر، وفاجأني ما سمعته. فقد أظهروا شدة محبتهم واحترامهم الحقيقيين النابعين من القلب له. فرووا مآثره، وكثير منها مبالغ فيه من دون شكّ، وتفاخروا بإنجازاته. لم يكن ذلك للعرض فحسب - لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك في ظل تلك الظروف. من الواضح أنّ الأمير بندر يحظى باحترام ومحبة كبيرين، لا كجنديّ وطيار فحسب، وإنّما لشخصه كرجل أيضاً.

لقد تمكّن الأمير بندر من الوصول إلى كل هؤلاء الرجال المتحلّقين حول نار المخيم في تلك الليلة والتأثير فيهم، مع أنّ جميعهم لم يلتقوا به قطّ. كانت تلك شهادة لن أنساها لهذا الرجل، ولولا المقادير لبقيت غير مدوّنة إلى الأبد.

- مارتن شوري

السرب السادس والتسعون د،

سلاح الجوّ الملكيّ كرانول

(ضابط وحدة درّب أفراد سلاح

الجوّ الملكيّ السعوديّ في المملكة)

مُقَدِّمَةٌ

"وفي النهاية، لا يعتدّ بالسنين في حياتك، وإنما بالحياة في تلك السنين".

أبراهام لنكولن (1861 - 1865)

"أحبّ انعدام الأمن الذي يحيط بي. إذا جرححتي أنزف. وإذا وجّهت إليّ كلاماً نابياً، أنزعج وأتألم. وإذا كان عليّ أن أواجه الخطر أو التحدّي، فإننا جميعاً مدرّبون على الخروج سالمين وفعل ما يجب علينا فعله... إنني لست آمناً، وغير آمن، لكنني لا أسمح لانعدام الأمن الذي يحيط بي بأن يمنعني من عمل ما يجب عمله".

الأمير بندر بن سلطان ابن

عبد العزيز آل سعود

في مارس 1949، عقق صقر يخلّق عالياً في السماء معلناً عن ولادة أمير بدويّ، أمير سيكون له تأثير عميق في العالم بعد ذلك بعدة عقود. لكن كان على هذا الصبيّ في طفولته أن يكافح كي يتمكن من المثول أمام والده. ومضت فترة قبل أن تعترف به العائلة المالكة السعوديّة في نهاية المطاف، فقد وُلد الأمير بندر بن سلطان من معاشرة والده، الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، وزير الدفاع والطيران، أمةً شابّة تُدعى خيزران.

في السنوات الثماني الأولى من العمر، كان اتصال الأمير بندر بوالده قليلاً. لكنّ جدّته النافذة، الأميرة حصّة بنت أحمد السديريّ، وهي زوجة أثيرة للملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود، الذي يعرف في الغالب باسم ابن سعود، لمحت نبوغ الصبيّ وسعت لإدخاله كنف العائلة المالكة. وهي التي لاحظت النضوج المبكر لهذا الولد البشوش والذكيّ وواسع الخيلة، وأتمت المصالحة اللاحقة مع والده.

وعلى مرّ السنين صار الأمير الشاب يطمح إلى أن يغدو طياراً. وبدافع من حافز فطريّ كي يثبت ذاته - أمام أبيه على وجه الخصوص - كذب بندر بشأن سنه وتمكّن

من الالتحاق بكلية كرانول، الأكاديمية العسكرية الأولى التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني. في كرانول، تبلورت أحلام الأمير بأن يصبح طياراً حربياً. وهناك تعلم النجاح بالاعتماد على مزاياه الخاصة، فطرح لقب الأمير جانباً، واستوعب عالماً جديداً غريباً، على الرغم من استمراره بالتمسك بالتقاليد العربية وبتقافته البدوية. وفي هذه البيئة الغربية، أتقن لغة جديدة، ونال احترام أقرانه المطلق، وتعلم اجتياز الهوة الثقافية التي تفصل بين الشرق والغرب. وأحاط نفسه أيضاً بمجموعة من زملائه الطلاب في الكلية الحربية، بمن فيهم أنا، الذي لا تزال صداقتي معه، بعد مرور تسعة وثلاثين عاماً، على أشدها.

عقب التخرج في كرانول، شهد العقد التالي نضوج بندر كطيّار حربيّ في سلاح الجو الملكي السعودي، وخلال تلك الفترة شرع في مهمّات تدريبية متتالية مع سلاح الجو الأميركي. كان ذلك بمثابة الصدام الثقافي المطلق. أمير سعودي، ترعرع في صحاري شبه الجزيرة العربية السعودية وتعلّم في ريف لينكولنشير، وها هو الآن منغمس في الأخلاق والعادات الأميركية في تكساس. لكن ذلك بشرّ بالاكتمال الثقافي لدى الأمير الشاب. فاحتضن نمط الحياة الجديد، وأصبح من المعجبين المتحمسين برعاة البقر في دالاس، ونسج صداقات جديدة، وطوّر فهماً عميقاً للمجتمع الأميركي، ودأب في الوقت نفسه على تحسين مهاراته اللغوية، متقبلاً اللغة العامية بحماسة، وما يتخللها من قصص رمزية يقصها "فرسان" الطائرات النفاثة.

عيّن الأمير بندر قائداً لسرب من طائرات "أف - 5"، ثم قائداً لوحدة التحويل العملاقية لطائرات "أف - 5"، فعمد إلى تدريب الكثير من أبناء الجيل الحالي من طياري مقاتلات سلاح الجو السعودي. غير أن أيامه في سلاح الطيران وصلت إلى ختامها فجأة في سنة 1977 عندما حاول الهبوط بطائرة "أف - 5" تعطلت عجلاتها. خلفت له هذه الحادثة مشكلات دائمة في عموده الفقري، وأدّت إلى إنهاء مهنة الطيران التي كان يعوّل عليها ويتدرّب من أجلها. لكن مهنته التالية، المهنة التي شغلت السنوات الأربع والعشرين التالية من حياته، وجعلت منه أسطورة على المسرح الدبلوماسي العالمي، كانت على وشك أن تبدأ.

تدخل القدر مرة أخرى، وأمسك بزمام حياة الأمير في سنة 1978 عندما كان الأمير تركي الفيصل في واشنطن في ذلك الوقت، يمارس ضغوطاً لبيع المملكة العربية

السعودية ستين طائرة من طراز "أف - 15". فلما كان الأمير تركي يدرك خيرة بندر كطيّار، وإتقانه اللغة الإنكليزية، وتقبّله الثقافة الأميركية، فقد طلب المساعدة منه. استمتع بندر بتلك المهمة، فانبرى يساعد الرئيس جيمي كارتر المثقل بالأعباء، ليس فقط في تمرير بيع الطائرات إلى المملكة العربية السعودية في مجلس الشيوخ المتردد حياها، وإثماً أيضاً في تأمين تمرير مشروع قانون معاهدة قناة بنما، الذي تقدّم به كارتر إلى الكونغرس.

نجح الأمير الشاب في هذا المضمار السياسي غير المألوف منذ البداية. فقد أقنعت حماسة بندر، ومعرفته المهنية كطيّار محنّك، وموهبته الدبلوماسية الفطرية التي لم تكن ظاهرة حتى ذلك الحين، كثيراً من أعضاء مجلس الشيوخ، وأسفرت عن الهزيمة المدوية للجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (أيباك) التي لا تُقهر. وقد قلل لاحقاً من شأن هذا الإنجاز وغيره من الأحداث المماثلة بالقول المأثور الشائع "خير لي أن أكون محظوظاً من أن أكون ذكياً في أي يوم".¹

أدى النجاح في التغلب على المقاومة الضارية من اللوبي اليهودي المعادي والموالي لإسرائيل، خلال المعركة على طائرات "أف - 15" في سنة 1978، ونجاحه لاحقاً في تمرير صفقة البيع الضخمة لطائرات الإنذار المبكر والقيادة (أواكس)، إلى جانب مشاركته البارعة في التوسّط لتحقيق وقف لإطلاق النار في لبنان بعد ذلك بوقت قصير، إلى اكتسابه تقدير الملك فهد وامتنانه العميقين. وسرعان ما توالى المهمّات بعد نجاحه في الكونغرس الأميركي، فعُيّن بندر ملحقاً عسكرياً في واشنطن، ثم أصبح موفداً خاصاً للملك، وأخيراً عُيّن سفيراً للمملكة العربية السعودية إلى الولايات المتحدة، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والثلاثين.

في الأعوام الثلاثة والعشرين التي تلت تعيين بندر سفيراً، يمكن القول إنه أصبح الجسر الأساسي بين الشرق الأوسط وواشنطن للرؤساء: جيمي كارتر، ورونالد ريغن، وجورج إيتش دبليو بوش، وبيل كلينتون، وجورج دبليو بوش. وقد لاحظ الرئيس كارتر أنّه: "... من بين كل الأشخاص الشرقيين الذين عرفتهم، الجسر الأنسب بين ثقافتنا وثقافة الشرق الأوسط".² لقد كان الرجل الطبيعي الذي يُلجأ إليه³ في جميع الأمور المتعلقة بالمملكة العربية السعودية، وما لبث أن أصبح ذا تأثير لا يقبل الجدل. وكعميد نافذ للسلك الدبلوماسي، كان محط اهتمام في واشنطن بوصفه

"الطبقة الخامسة" الفعلية⁴. الرؤساء يأتون ويذهبون، أمّا بندر فيبقى الشخصية الدبلوماسية المهيمنة والمتجذرة عميقاً داخل دائرة صنع القرار في واشنطن.

مع ذلك، لم يحصر بندر علاقته بواشنطن فحسب. فقرار الملك فهد منح المملكة المتحدة مشروع "اليمامة" الضخم، وهو عقد جار بقيمة هائلة تبلغ 60 مليار دولار لحيازة وصيانة مجموعة كاملة من الطائرات، والسفن، ومعدات أخرى، ما هو إلا صفقة أسلحة قام بندر بهندستها والتفاوض بشأنها. وهي صفقة تشاء المصادفة أن يطلبها الرئيس رونالد ريغن في الأصل، ويقرّها سلاح الجو الأميركي، لكن مجلس الشيوخ رفضها في آخر الأمر. كانت الهيكلية المبتكرة التي ابتدعها بندر لتمويل مشروع "اليمامة" بارعة، وقد وطّدت علاقته الودية مع رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر. فالآلية المالية للصفقة، التي أثارت انتقادات حمة في وسائل الإعلام، توفرّ مجالاً مدهشاً للمرونة والتضليل، ما يعود بفائدة عظيمة على المملكة العربية السعودية وبريطانيا العظمى على السواء. ومن مشروع "اليمامة" نشأت علاقة بين بندر وتاتشر تقوم على الإعجاب المتبادل وكانت ذات قيمة لا تقدّر إبان حرب الخليج سنة 1990. أجبر الكونغرس الأميركي، برفضه بيع مقاتلات إضافية للمملكة العربية السعودية، السعوديين على طلب المعدات العسكرية من خارج الولايات المتحدة. غير أن ذلك لم يفسد علاقة المملكة بالولايات المتحدة. بل ازدادت علاقتها قوةً بالرئيس ريغن على وجه الخصوص. وشهد عقد الثمانينيات تعاون السعوديين والأميركيين مراراً وتكراراً لمؤازرة السياسة الخارجية الأميركية، لا سيّما البرنامج المعادي للشيوعية المعروف بمبدأ ريغن. وفي أفغانستان، وتشاد، ونيكاراغوا، وإيطاليا، كانت الشراكة السعودية عنصراً أساسياً من عناصر النجاح الأميركي.

وفي حين اعترفت إدارة ريغن الممتنة بالدور الذي أدته المملكة العربية السعودية، فإنه نادراً ما استرعى اهتمام الرأي العام. فانسجاماً مع التقليد العريق المتبع في الشرق الأوسط، عمل بندر بعيداً عن الأضواء، وكان صلة الوصل الأساسية بين المملكة والبيت الأبيض.

بيد أن مثل هذا النجاح لم يكن بمنأى عن الجدل، وأصبح بندر متورطاً بشدة في قضية إيران - كونترا. وفي حين أن مقدار مشاركته في أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) السريّة موضع تخمين فحسب، فإن اتساع نطاق أنشطته

الدبلوماسية يثير الدهول: التفاوض على وقف إطلاق النار في لبنان، وإنهاء الحرب الإيرانية العراقية، والانسحاب السوفياتي من أفغانستان، ومتابعة إجراءات حرب الخليج، وحل مسألة الطائرة الأميركية المنفجرة فوق لوكربي، كل ذلك يدلّ بوضوح على بصمات بندر.

لعلّ أهمّ ما قام به بندر - مع أن نتيجته في المناخ القائم حالياً تكتنفها كثير من الشكوك - جهوده لإحلال السلام في الشرق الأوسط، وبخاصة بين إسرائيل والفلسطينيين. فقد خلف بندر بهذا العمل أثراً لا يُمحى على المسرح العالمي كمهندس للسلام والحرب وقوة هائلة للاعتدال في الشرق الأوسط.

وحينما عمل الرئيس بيل كلينتون على توطيد موقعه في التاريخ عن طريق تحقيق خرق في القضية الفلسطينية - الإسرائيلية في أواخر عهده، بذل بندر جهداً دؤوباً لإقناع ياسر عرفات المتشدّد بقبول صفقة لم تكن واردة حتى ذلك الحين. فالعروض التي قدّمها رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك في كامب ديفيد وأخيراً في طابا أعطت الزعيم الفلسطيني 98 في المئة مما كان يأمل به، ومع ذلك، رفضها عرفات. وإذا وجد بندر نفسه غير قادر على الإفصاح علانية عما يجول في نفسه، اعترف لي والإحباط يعتريه: "ما حدث ليس مأساة - إنه جريمة!".

لدى تناولي هذه السيرة الذاتية، كان عليّ أن أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف أستطيع أن أصوّر بدقة رجلاً يشكّل لغزاً في جوهره؟ هل هو رجل سلام - كما سارع الرئيس مانديلا إلى القول - رجل مبادئ وضمير وصواب خُلقي؟ أم يتعين تصويره، كما قد يشيخ بعضهم، بالنظر إلى دبلوماسيته السرية، في الكواليس، كأمر ميكيفيلّي - مجرد من الأخلاق السياسية، ومدفوع بخدمة مصلحته الشخصية فقط، ماكر، وداهية ولا يستند إلى المبادئ الأخلاقية في سلوكه ونشاطه⁵ - رجل يمكن القول عنه إنه عجلّ في وقوع حرب الخليج وسهّل أيضاً جهود إدارة بوش الاستباقية وغزو العراق؟ الصفحات التالية، بما تحتويه من معلومات عميقة عن الأمير بندر الغامض، تتيح للقارئ إيجاد الإجابة عن هذه الأسئلة.

أقبلتُ على هذه السيرة بأسلوب غير عادي. فقبل ثلاثة أعوام، تلقيت من بندر دعوة مشوّقة للانضمام إلى بعض الرفاق العسكريين القدامى بغية لمّ الشمل. وكان احتمال تجديد الصداقات القديمة لا يقاوم. ورغبة منّي في رؤية أصدقاء قدامى منذ أيام

كرانول، عبرت المحيط الأطلسي إلى مزرعة بندر في أسين. وهي مسكن فاخر مساحته 55 ألف قدم مربعة في جبال روكي التي يعجر عنها الوصف. أمضيت مع خمسة عشر شخصاً آخر عطلة نهاية أسبوع رائعة استرجعنا فيها ذكريات الأيام الخوالي. كنت وبندر في القيد نفسه والسرب نفسه - 96D. وكنا نتشاطر حب المبارزة بالسيف، كان يمارس تلك الرياضة بالحسام، وكنت أفضل الشيش. وعندما انتهت عطلة نهاية الأسبوع، ودّعنا بعضنا بعضاً وعدنا أدراجنا إلى ضغوط حياتنا اليومية.

بعد ذلك بعامين، وعقب متاعب صحية غير مطمئنة، استقلت من عملي كمدير تنفيذي لشركة إنترنت، ورحت أقلب أمور الحياة من جميع وجوهها. وإذا أدهشتني القصص التي سمعتها في مزرعة بندر في أسين، وبما أن لديّ اهتماماً في الكتابة، تساءلت عما إذا كانت سيرته قد كتبت من قبل؛ كلا لم تكتب. أثارت الاحتمالات اهتمامي، فاتصلت بروب ديكون إليوت، وهو من الزملاء في كرانول المقربين جداً من بندر. أوضحت له ما أفكر فيه، وسألته إذا كان يعتقد أن الأمير سيوافق.

لم أكن أدري، في تلك اللحظة بالذات، أن ديكون إليوت مقيم في الواقع مع بندر في الرباط، في المغرب. وبالصدفة، وصلت رسالتي الإلكترونية فيما كان كلاهما يستعدان للمغادرة. وقد أوضح لي ديكون إليوت في ما بعد، "بما أن بندر كان يهيم بركوب طائرته باتجاهه، وكنت أذهب باتجاه آخر، لم تسنح لي الفرصة لمناقشة الأمر معه، نقلت له رسالتك الإلكترونية كما هي وقلت: "أرسل بيل سمبسون لي هذه الرسالة. رافقتك السلامة، اقرأها عندما يتسنى لك ذلك". رأيت بندر بعد ذلك بأسابيع قليلة وسألته: "ما رأيك؟". قال بندر: "أرى أن ينضم بيل إلينا في جولتنا في أميركا. فنحن لم نلتق كما ينبغي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لتر كيف تمضي بنا الأمور".

وهكذا انضمت إلى بندر في جولة خطابات في الولايات المتحدة الأميركية ناقشنا خلالها أفكاره بشأن الكتاب لمدة أربعين دقيقة لا أكثر. لكن سرعان ما عادت صداقتنا القديمة إلى وهجها. وعندما عدنا أخيراً إلى واشنطن، قدّمني بندر إلى زوجته، الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز آل سعود، فأثارت فكرة السيرة الذاتية حماسها. لم أكن أعرف وقتذاك أن بندر يفكر في الاستقالة من منصبه كسفير إلى الولايات المتحدة: لقد كان توقيت طرحي للفكرة مصادفة.

حينما اهتمكت في أبحاثي عن قصة حياة بندر، وأجريت مقابلات مع زعماء وسياسيين ورجال دولة بارزين في العالم، أخذتني الدهشة. "إنها قصة ساحرة، إنها قصة رائعة"، قال لويس فريه، المدير السابق لمكتب التحقيقات الاتحادي (أف بي آي)⁶. تكررّت تعليقات فريه مراراً على ألسنة أشخاص آخرين. مع ذلك لم أدرك سوى القليل من مقدار تأثير الأمير في المسرح الدولي. ومرّة بعد أخرى، أصابني المعلومات الجديدة بالذهول. واتضح أنه مارس نفوذاً بخفّة وسريّة، راسماً في الواقع اتجاه أحداث العالم من وراء الستار.

إلا أن مثل هذا النفوذ لا يمكن ممارسته من دون حدوث متاعب، وفي حين يثني كثير من قادة العالم على عمل بندر، يردّ آخرون على النفوذ الذي مارسه بتهكم. وعندما تحدّث الصحافيّ الكنديّ مات ولش عن قدرته وموهبته في تدبير المكائد، ولاحظ أنّ الأمير تورّط في كثير من أحداث السي آي آيه القائمة في العالم، كتب يقول: "هذه الحماسة، والتحفّظ الانتقائي، والقدرة على الوصول إلى نظام حكم من القرون الوسطى، تجعل بندر تاجراً متجولاً ذا جاذبيّة كبيرة، عندما يشعر رئيس أميركي ما بأنه مكبل اليدين بأمر مزعجة كالقوانين، أو الصحافيين، أو الحشمة"⁷. وتعرّض بندر أيضاً لانتقادات قاسية من عميل السي آي آيه السري السابق روبرت بير، الذي تذرّ قائلاً: "كان بوسع بندر أن يجول في البيت الأبيض وفي الكونغرس لإجراء محادثات متى يشاء. لقد لزمني أسابيع كي أحصل على موعد مع موظف صغير في مجلس الأمن القومي، وسيكون الحظ حليفي إذا حصلت حتى على دقائق قليلة. دعك من الكلام الفارغ عن الديمقراطية، وعن عاصمة العالم الحر. لقد كانت واشنطن أشبه بمدينة شركة، ولبندر مقعد في مجلس إدارتها. وإذا أردتَ ولوج المشارف الخارجيّة لفلنك، فمن الأفضل لك أن تلعب وفق قواعده"⁸.

مع ذلك كان لأسلوبه الصريح وقع حتى في نفوس أشدّ منتقديه. ففي حين كانت العديد من الجماعات اليهوديّة في الولايات المتحدة عازمة على تقويض موقعه والقضية العربية عموماً، فإنّها كانت تصف بندر على غير رضى بأنّه "يحمل كل الصفات التي يُتوقّع أن يتصف بها الدبلوماسي: جذاب، ولطيف، وسريع الخاطر، وغامض"⁹. بل إنّه يحظى باحترام صريح حتى داخل المجتمع اليهودي، الذي تلقى الهزيمة في مناسبتين لا واحدة، عندما رعى بندر أولاً بيع مقالات "أف - 15" إلى المملكة

العربية السعودية في عهد كارتر، ولاحقاً بيع تكنولوجيا طائرات الإنذار المبكر والقيادة (أواكس) في عهد ريغن. فقد قال هنري سيغمان، المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي الأميركي: "إنه لا يقع في فخ مناقشة الحاجات القديمة للنزاع العربي - الإسرائيلي. إنه دبلوماسي مختلف على نحو يبعث البهجة في النفس، إنه ليس إيديولوجياً، وإنما براغماتي إلى حد بعيد"¹⁰.

خلال إقامة بندر في واشنطن، جمعت وسائل الإعلام قاموساً من الأوصاف والتشبيهات، معززة باستهزاء وهم الخداع الذي يحيط به. ثمة كثيرون يرون فيه حرباء سياسية، بينما يثير ثراؤه الفاحش، وكرمه اهتمام آخرين. ويرى بعضهم أن موهبته في ممارسة النفوذ في واشنطن وقدرته التي لا نظير لها على الوصول تميزانه كشخص ينظر إليه بعين الحسد والرغبة. ويركز آخرون على حماسته للسلام. بيد أن آخرين يشيرون إلى اقترانه بالفضائح والمؤامرات. في بدايات العمل بهذا الكتاب، بهرتني قصة حياة بندر، وارتقاؤه من طفولة مشؤومة كنجل لأمة، إلى طيار حربي ورجل دولة. غير أن طبيعة شخصيته المحيرة وشديدة التعقيد هي التي استهوتني أيما استهواء في النهاية. وأعتقد أن هذه التعقيدات هي التي تجعله رجل دولة قوياً وناجحاً. غير أن إخلاصه ودفاه وسخاءه هي الصفات التي تجعل منه رجلاً مرموقاً حقاً. إنني أعتبر بندر صديقاً، وأعتبر نفسي محظوظاً لأنني أشغل حيزاً في حياته، ولأنه يشغل حيزاً في حياتي. إنه شخصية رائعة ذات حضور طاغ، وأنا على قناعة تامة أن حتى من لا يعرفه سيشد إلى مسار حياته المدهش والتأثير الاستثنائي الذي بلغته إنجازاته.

بيل سمبسون

يوليو 2006

من هو الأمير بندر؟

"كل الناس يحلمون، لكن ليس على سوية واحدة. فمن يحلمون ليلاً في تجاويف عقولهم الرمادية يستيقظون في النهار ليجدوا أن أحلامهم باطلة. لكن حالمي النهار أناس خطرون، إذ قد يؤتّون أحلامهم بعيون مفتوحة كي تتحقّق".

تي. إي. لورانس

"أعمدة الحكمة السبعة"¹

قبل سبع وخمسين سنة، في خيمة تقليدية بدويّة، أنجبت أمة شابة طفلها الوحيد، وكان ذكراً. ولولا جزئيّة واحدة لما عنت ولادة طفل لأمّ شابة ذات منزلة متواضعة، شيئاً سوى لنفر قليل. بيد أن تلك الجزئيّة كانت مهمّة، لأن والد الطفل هو الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، أحد أفراد الأسرة المالكة، ونجل مؤسس المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (ابن سعود).

في ذلك الوقت، كانت المملكة العربية السعودية نفسها في مهدها، إذ إن ابن سعود لم يتمكّن سوى في سنة 1932 من توحيد المناطق القبلية على اختلافها في وسط شبه الجزيرة العربية، وإعادة تسمية البلاد باسم المملكة العربية السعودية، وتعيين نفسه أول ملك عليها.

لم يكن تكوين المملكة العربية السعودية يسيراً. ففي بداية القرن التاسع عشر، حكم أفراد من قبيلة آل سعود نجد، وهي منطقة وسطى معزولة جغرافياً، كانت الدرعيّة عاصمتها. في سنة 1811، طلب السلطان العثماني من محمد علي، حاكم مصر، التي كانت آنذاك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، خلع آل سعود. فأرسل محمد علي اثنين من أبنائه لغزو نجد، وفي سنة 1818، استولى ابنه

الثاني، إبراهيم باشا، على الدرعية. نُفي حاكمها، عبد الله بن سعود، إلى القاهرة أولاً ثم إلى اسطنبول، حيث قُطع رأسه. وبموته، ماتت أيضاً الدولة السعودية الأولى.

نشأت دولة سعودية ثانية في سنة 1824، عندما طرد تركي بن عبد الله ابن سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود، المصريين من نجد، واتخذ الرياض عاصمة له. وعلى الرغم من أن هذه الدولة الثانية ازدهرت في أول الأمر، فإن النزاعات الداخلية أدت إلى انتقال القيادة داخل العائلة حتى آلت إلى فيصل بن تركي في سنة 1843، فاستتبّ النظام. غير أن الفوضى والصراع عادا إثر وفاته في سنة 1865. وفي سنة 1891، هزمت قبيلة الرشيد العثمانية قبيلة آل سعود، ما أجبر زعيمها، عبد الرحمن - جدّ الملك الحالي عبد الله وأبو جدّ الأمير بندر - على الفرار إلى ما أصبح الكويت الآن. وقد نُفي مع عائلته، بمن فيهم ابنه عبد العزيز. وبنفي عبد الرحمن، انتهت الدولة السعودية الثانية.

أمضى عبد العزيز ما تبقى من طفولته في الكويت، حيث حضر مجالس الحكم اليومية، مجلس أمير الكويت، فتعلّم منه أمور الدنيا الواسعة. وفي مسعى لإعادة الملك إلى آل سعود، انطلق عبد العزيز في سنة 1901 مع نفر من المحاربين بغية استرجاع الرياض. وكان الحظ والجرأة إلى جانبه عندما تسلّق أسوار الرياض مع عشرين رجلاً فقط ليلة 15 يناير 1902، وكَمَنَ بانتظار الحاكم الرشيد، عجلان. وفي صباح اليوم التالي، هجم عبد العزيز وعصبته المغيرة، فقتل عجلان وشن حملة أدت في آخر الأمر إلى نشوء الدولة السعودية الثالثة. وفي الأعوام الثلاثين التالية، أحكم ابن سعود سيطرته بالتدرج على كل منطقة من المناطق القبلية. وفي سنة 1932 ولدت المملكة العربية السعودية.

على الرغم من أن بندر بن سلطان ولد في أسرة ابن سعود المالكة، فإن مستقبله لم يكن مؤكداً البتّة. فقد كانت أمّه خيزران، وهي فتاة داكنة البشرة من عامة الناس في السادسة عشرة من العمر، من محافظة عسير، الواقعة في الطرف الجنوبي من المملكة العربية السعودية. وهي مكان موحش يضمّ سهولاً وسبخات مالحة شاسعة، وجبالاً وعرة، وأودية سحيقة. بيد أن موانئها البحرية أتاحت قروناً من التفاعل مع اليمن والقرن الإفريقي على السواء.

مع أن أباه، الأمير سلطان، هو أحد السديريّة السبعة^(*)، أبناء ابن سعود والأميرة حصّة بنت أحمد السديري، وهي إحدى زوجات الملك عبد العزيز المفضّلات، فقد كانت ولادة الصبي منكودة الطالع. ويتحدّث بندر الآن بصراحة تامّة عن مكانه في الأسرة السعودية المالكة قائلاً، "إتني مولود غير شرعي لأمّ سرّية".

على الرغم من أن أمه السمراء كانت مجرد جارية في بيت أبيه ولم يكونا متزوجين، فإنّ الشرع الإسلامي يحمي الأبناء غير الشرعيين إذا اعترف بهم والدهم، وقد أقرّ أبو بندر بالولادة. ويروي ذلك بندر قائلاً: "اعترف أبي بحمل أمي قبل ولادتي... ولذلك ولدت في مضارب الملك عبد العزيز في الطائف. وقد سمّاني الملك عبد العزيز بنفسه إلى جانب أربعة أبناء آخرين". وبذلك أثبت الملك في الواقع نسب الفتى إلى الأسرة المالكة. مع ذلك استمرّ هناك شيء من التفرقة، أي إبعاد الأمير عن الأبناء الآخرين المولودين لزوجات الأمير سلطان العديداً.

لم تخلُ ولادة طفل لأمر عربي وسرّية من شجن، مع أنّها ربما تحمل شيئاً من الرومانسية. فقد كانت أمّ بندر جارية قبل أن تصبح خليعة للأمير سلطان البالغ من العمر عشرين عاماً، وكان قد عُين والياً على الرياض في سنة 1947. يتذكر بندر ذلك فيقول، "لم تكن أمي قريبة لأي زعيم قبلي يمدّني بالقوّة، ولا من أسرة مالكة". ولما كانت خيزران تقيم في محافظة عسير السعويّة، غير البعيدة عن إفريقيا، فقد كانت داكنة البشرة، وتلك من القسّمات التي نقلتها إلى ابنها بندر، الأكثر سمرة من إخوته بشكل ملحوظ. وقد شاع في الصحافة الأميركيّة اعتقاد خاطئ بأنّ والدة الأمير إفريقية. وغالباً ما يشعر بندر بمتعة غير عاديّة من معرفة حقيقة الموقف، فيما تنهمك وسائل الإعلام في التخمين الخاطئ، من دون أن يحاول البتّة إيضاح الخلفية الجغرافية لتراث أمه. وقد اعترف بقوله، "تركت الأمور تجري لحالها مدة طويلة، لأنّني كما تعلم

(*) السديريّون السبعة هم سبعة أشقاء، كلهم أبناء مؤسس المملكة العربيّة السعوديّة الملك عبد العزيز بن سعود والأميرة حصّة بنت أحمد السديري، ومن هنا جاء الاسم. منذ تولّى الملك فهد العرش سنة 1982، أصبحوا يشكّلون الحلف الأقوى ضمن العائلة السعوديّة الحاكمة. ويضم السديريّون السبعة: الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، والأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، والأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، والأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز آل سعود، والأمير تركي بن عبد العزيز آل سعود، والأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود، والأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود.

الآن، أستمتع بمعرفة أمر يتحدث العالم بأكمله عنه بطريقة خاطئة وأعلم أنه ليس صحيحاً".

رغم أن الصحافة تصرّ على أن الأمير سلطان لم يكن يعترف بابنه، فإن بندر يؤكد خلاف ذلك بالقول: "إن عدم اعتراف والدي بي لا يعدو أن يكون عدم قدرتي على الوصول إليه". فالاعتراف بوضعه تم عندما سمّاه الملك. ويوضح ذلك: "كلما كان يولد طفل في العائلة المالكة في تلك الأيام، كان يخصص له راتب. وأحسب أنه كان آنذاك 10 دولارات أو نحو ذلك. وكان ذلك الراتب يأتي من وزارة المالية، لذا ما إن يسمّي الملك طفلاً، حتى يبلغ الديوان الملكي ذلك إلى وزير الداخلية لبدء دفع راتب للولد وأمه. وكانت أمي تتلقى ذلك الراتب. لذا يشكّل ذلك اعترافاً رسمياً بوضعي في ذلك الوقت، واعترافاً من أبي في الواقع. أما أنني لم أكن أعيش مع أبي فإنّه لا يعني أنه لم يعترف بي". ومع ذلك، كان الاتصال ضئيلاً بين بندر وأبيه، وهذا واقع أقرّ أنه مشكلة استغرق التغلب عليها أعواماً، لأنه لم يكن معه بالمعنى المادي². وتشرح ابنة بندر، الأميرة ريماء، ذلك بالقول: "لقد حاولت وسائل الإعلام جعل الأمر يبدو إقصاءً متعمّداً ولم يكن كذلك. كان مجرد أمر واقع. فمن الطبيعي أن يكون أولاد المرأة المتزوجة والمقيمة في البيت أقرب إلى الأب، لذا ليست للنساء المقيمات خارج البيت أو المطلقات فرصة الاتصال نفسها"³.

أصبح والد بندر، الأمير سلطان - وزير الدفاع منذ عهد بعيد - ولياً للعهد في سنة 2005، أي عند وفاة أخيه الملك فهد. وسلطان أيضاً أخ غير شقيق للملك عبد الله، وهو بلا ريب شخصية قوية ونافذة في آل سعود. ولم يستهن بندر قط باعتراف أبيه به - وبشرعيته - قائلاً بكثير من التآني: "ثمّة أمر بشأن أبي لن أنساه أبداً، وهو أنه لم يدعني آتي إلى الدنيا والشكوك تحيط بمن هو والدي"⁴. مع ذلك يخفي هذا القول الجريء أن المسافة التي كانت تفصله عن أبيه وفرت عنصراً أساسياً في شخصه، وجانباً من جوانب شخصيته يدفعان رغبته الدائبة في الإنجاز، وإثبات نفسه أمام أبيه. ولعل من المفهوم إزاء هذه الخلفية أنّه لم يكن على قدم المساواة مع إخوته الأمراء، على الرغم من أنه ولد في العائلة المالكة.

وكما أوضح بندر: "بموجب الشريعة الإسلامية، إذا كانت لديك جارية أو سرّية وضاجعتها، ولم تُرزق أولاداً، تبقى جارية". ومن الواضح أن أمّه، كانت جارية،

فالفارق لم يبلغ في المملكة حتى سنة 1962. مع ذلك، يتابع بندر: "حالمًا تصبح حاملًا وتتعرف أنت بحملها قبل أن تضع طفلها، تتحرر عندئذ بصورة تلقائية. لكن يتعين عليك مع ذلك التعامل مع الحقائق الثقافية: ستكون دائماً الولد ذا اللون المختلف، ولداً لم يتزوج والداه قط"⁵. وقد ترددت كلمات بندر البسيطة على لسان ديفيد أوتاواي، من صحيفة "واشنطن بوست"، الذي قال، "نشأ بندر طفلاً وحيداً في بيت أمه في الرياض، لكن مع اثنين وثلاثين أخاً وأختاً غير أشقاء، أبناء زوجات سلطان المتعدّات. وكان الولد الداكن البشرة ذا الشعر الأجدع، المنعزل"⁶.

نشأ بندر في السنوات الإحدى عشرة الأولى من عمره، في كنف أمه وخالته لولو في بيت ذي مصباح واحد، ومرحاض واحد. ومع أن أم بندر لم تلتحق بمدرسة قط، فقد علّمت نفسها القراءة والكتابة. وانتقلت عزيمة خيزران وقوة شخصيتها إلى ولدها. وتؤكد الأميرة هيفاء، زوجة بندر أن "أمّ بندر من العوامل الكبرى في حياة ولدها. إنه يشبهها في رغبته في النجاح. فهي ذكية جداً، وقد زرعت فيه كل شيء. ولولا الطريقة التي ربّته بها، لما كان بندر كما نعهده اليوم، ذلك أمر مهم جداً"⁷.

في تلك السنوات، كانت صلة بندر بأبيه ضعيفة أو معدومة، واقتصرت على



بندر في عمر السادسة
الصورة الأولى المعروفة للأمير

رؤيته في عطلات نهاية الأسبوع وتقبيل يده في اللقاءات العائلية. ومع ذلك، أشار بندر مراراً إلى أن تلك الحال "علمتني الصبر، وأكسبتني آلية دفاع بالألّا أتوقع أي شيء. كنت أعتقد في ذلك الوقت أنني إذا لم أتوقع أي شيء ولم أحصل على أي شيء، فلن أصاب عندئذ بخيبة أمل"⁸.

رغم أن الصغير بندر كان بعيداً عن البلاط الملكي، فإنّه كان ينظر إلى والده باهتمام شديد. ويروي قصة سماعه بمرض ألمّ بأبيه، وانزعاجه من ذلك: "عندما كنت في التاسعة تقريباً، كنت أعيش مع خالتي وسمعت من النساء في البيت أن أبي مريض. لم أعرف مقدار مرضه أو شدّته، وكنت أربأ بنفسني أن أسأل الناس أو أظهر لهم أنني لا

أعلم". كان يعرف سائقاً يعمل لدى أبيه، لذا كما أوضح الأمير: "رأيتَه يعرّج على البيت فناديتَه وسألته: سيدي، كيف حال أبي؟".

بدا التأثر واضحاً على وجه السائق الذي نقل الحديث الذي دار بينه وبين الفتى إلى الأمير سلطان، فأرسل في طلب ابنه على الفور. قامت خالة بندر بتنظيف ابن أختها وهيئته استعداداً لزيارة أبيه. وكانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها بندر أباه طريح الفراش. أوماً سلطان إليه بالاقتراب وأدناه منه. يتذكر بندر ذلك بوضوح، "كنت في قمة السعادة، في الحقيقة، شعرت كأنه أعطاني العالم كله"⁹.

بعد هذه الزيارة بوقت قصير انتهت عزلة الأمير عن العائلة. كان الملك عبد العزيز قد توفي قبل ذلك بعدة سنوات، وتقرّر أن يقيم بندر وأمه في القصر مع جدته، الأميرة حصّة. ويقول بندر: "كان قراراً عملياً، لكنه بدّل حياتي كلياً". كانت حصّة توظف حفيدها في الخامسة من صباح كل يوم لأداء الصلاة، وكانت بعد الصلاة تلقنه التاريخ والحكايات الشعبية المحيطة بآل سعود. ويصف بندر ذلك: "لم تكن متعلّمة، لكنها تحفظ القرآن عن ظهر قلب". كان يجلبها، وقد بادلتها المحبة بالمثل، وجعلته يشعر بأنه مميز. ويقول عنها من دون تردد: "كانت الشخصية الأشد تأثيراً في حياتي. ومن الممتع مجالسة هذه المرأة، زوجة مؤسس المملكة العربية السعودية التي عرفت كل أولئك الرجال الكبار والعظماء، مثل الملك فيصل، يوم كانوا أطفالاً. كانت توقظني قبل صلاة الفجر كل صباح لأصلي معها. ويعني ذلك عادة أن أمامي نحو ساعة واحدة على الأقل من الفراغ قبل أن أبدأ الاستعداد للذهاب إلى المدرسة. لذا كنت أجلس معها فتروي لي القصص"¹⁰.

يقول العميد فيصل مفقي، وهو صديق حميم لبندر منذ الطفولة، إن الأمير أظهر منذ كان فتى اهتماماً كبيراً بتاريخ آل سعود: "كان يحب الجلوس في المجلس، مصغياً إلى ما يرويه الشيوخ من قصص عن جده، وكان يطرح عليهم أسئلة بطريقة تثير دهشتهم. كان مفتوناً بجده، الملك عبد العزيز، إلى حدود استحواذه على فكره. وباستماعه إلى كبار السن أصبح ملماً بكل ما يتعلق بجده، الذي يجلبه كثيراً". ويتابع مفقي قائلاً: "أظهر نضجاً وتعطشاً للمعرفة يجاوزان سنه".

حينما أقام بندر في القصر، أصبح قيام علاقة أوثق مع والده أمراً ممكناً. ويذكر مفقي أن بندر كان منذ طفولته يجول في الصحراء على ظهر جواد مع الأمير سلطان.

"فعلّمه الصيد بالصقور والرماية. وكان الأب حريصاً على أن يتعلم بندر مهارات العيش في الصحراء كالبدو. كانا يمضيان اليوم كله معاً في الصحراء، حيث ينطلقان عند بزوغ الفجر في صقعة الصباح، ويعودان في وقت متأخر من المساء، وأحياناً يبيتان ليلتهما في خيام بدوية"¹¹.

يذكر بندر إحدى رحلات الصيد، وقد بدأت أولاً باختيار الصقر. وكان آخر من اختار من بين إخوته، وبعد أن اختيرت كل الطيور الجذّابة، لم يتبقّ له سوى طائر رثّ ذي ريش أسود وبني داكن أثار ضحك الجميع. لكنه يذكر باعتزاز أن الصقر نفسه أبدى براعة في الصيد بزت كلّ أقرانه من الصقور المنتفشة في ذلك اليوم. وربما رأى بندر شبيهاً بينه وبين صقره.

التقى العميد مفقي وبندر يوم كانا تلميذين في مدرسة في معهد الرياض. ووفقاً لمفقي، كان بندر واحداً من ألمع الطلبة في المعهد. "كان سجلّه الأكاديمي رائعاً. وكان أيضاً طالباً محبوباً جداً... جذّاباً، وأنيساً، ومن الممتع أن يكون في الجوار. كان شاباً ناضجاً وهادئاً ومتزناً. لم يكن سريع الغضب ولم يخرج عن طوره قط، مؤثراً تجاهل المسيء إليه والانصراف عنه". ويتذكّر مفقي على وجه الخصوص حب بندر للطيران، وكيف كان كلما مرت طائرة فوق المدرسة يلتفت الأمير إليه ويقول: "يوماً ما سأكون طياراً"¹².



بندر في الثالثة عشرة

حين كان بندر في الثالثة عشرة، عُيّن والده وزيراً للدفاع والطيران. وبعد ثلاثة أعوام، وبدافع من عزمه على أن يكون طياراً، زوّر بندر سنّه في طلبه، واختير للتدرّب على الطيران في كلية كرانول التابعة لسلاح الجو الملكي في إنكلترا. ظنّ كثيرون أنّها خطوة لإرضاء أبيه، وكانت أيضاً انعكاساً لوضعه ضمن العائلة، كما أسرّ صديق حميم للأمير: "لم يُرسل إلى إيتون، بل إلى مدرسة عسكرية". ولعل من المصادفة - أو ربما القصد - أن بندر أرسل ثلاثة من أبنائه إلى إيتون.

تعلم بندر الاعتماد على الذات في سن مبكرة ولم يكن يتوقع أي شيء من والده. ولأنه أمضى سنواته الأولى خارج العائلة، لم يكن يشعر بالارتياح من موقعه كأمرير، ولطالما أحسّ بشيء من الشك في الاهتمام الذي يظهره الناس له: "لم أكن أشعر أنني فعلت أي شيء لأستحقه إلا من طريق المصادفة والظروف. أصبحت أميراً لأن أبي أمير. لم أعمل يوماً واحداً في حياتي لأكون أميراً. قارن ذلك بشعوري عندما نلت رتبة ملازم ثان. كنت فخوراً للغاية"¹³.

وهكذا في مارس 1967، التحق بندر بكلية كرانول، وهناك تعرّف إلى الوثائق من نفسه، و"الحكواتي" المرح، الذي عرفه آنذاك باسم "بن".

كان التحوّل من أمير إلى تلميذ ضابط في أكاديمية سلاح الجو الملكي العسكريّة الأساسيّة في كرانول أمراً مدهشاً. فبدلاً من أصوات الوطن المألوفة والحياة السهلة والمميّزة كفتى، حلّ الواقع القاسي لمعسكر التدريب العسكري، وهو محيط عدائي ومربك لا قيمة فيه للمكانة، بل تشكّل المحافظة على النفس في هذه الآلة الغريبة ضرورة متنامية. لقد ولّت الراحة المعهودة في الثوب العربي والخفّ، وولى دفء الشمس، وحلت محلها قبة منشأة خانقة، والزي "الأزرق الزغب" المسبّب للحكّ، وغير الملائم، وغير المريح على الإطلاق، الذي يتكوّن من سترة سلاح الجو الملكي وبنطاله القياسيين. وانتعلت قدماه "أداتي تعذيب لا تلينان"، جزمة سلاح الجو الجلديّة السوداء الثقيلة ذات النعل الذي تبلغ سماكته إنشاً واحداً تقريباً. لم يكن بندر معتاداً على المناخ البريطاني، وعلى الرذاذ المتواصل وصقعة صباحات لينكولنشير، وقد عبّر عن ذلك لاحقاً بقوله إنّ البرد لازمه ستة أشهر بلا توقّف.

كان اختياره للالتحاق بكلية سلاح الجو الملكي بكرانول إنجازاً عظيماً، بقدر ما كان يمكن لضابط في الجيش البريطاني أن ينظر إلى اختياره للالتحاق بساندهرست، أو لأميركي أن ينظر إلى اختياره للالتحاق بوست بوينت أو أكاديمية سلاح الجو في كولورادو سيرنغز. وقد حفزته رغبته في الطيران على تزوير تاريخ ميلاده، "كنت أتحرّق شوقاً للانضمام إلى سلاح الجو"، كما قال بندر بحماسة. وقد اعترف الأمير بأنّ تاريخ ميلاده الرسمي في 2 مارس 1949 مزيف، إذ يجب أن يكون في السابعة عشرة من العمر لينضم إلى سلاح الجو. وقد أقرّ بأنه أقنع طبيبه بتغيير شهادة ميلاده. لذا حين انضم بندر إلى سلاح الجو، كان عمره في الواقع ستة عشر عاماً لا سبعة عشر، ما

يجعل تاريخ ميلاده أواخر سنة 1950. وذلك ما أكدته زوجته، الأميرة هيفاء، لاحقاً. وعقب هذا الاعتراف، لاحظ بندر أن "هذا هو الجزء المضحك في الأمر، فعمي الملك، وعمي الآخر ولي العهد، وعمي الثالث النائب الثاني لرئيس الوزراء، وأبي وزير الدفاع، فلماذا يكون التاريخ مشكلة؟ لأتني لا أستطيع الالتحاق بسلاح الجو لو بيّنت شهادة ميلادي أنني لست في السابعة عشرة". كانت تطلّعات طلاب الكلية الحربية الشبان عالية، وبرنامج التدريب الصارم يحمّل الجميع أعباء كبيرة جداً. لذا، فإن مجرد التمكن من إتمام الدورة بالنسبة إلى امرئ تعوقه معرفته المحدودة باللغة الإنكليزية، يعتبر مشرفاً في حد ذاته فما بالك بتحقيق أداء جيّد. وينطبق ذلك بصورة خاصة على فتى في السادسة عشرة من العمر.

كانت حياة بندر وزملائه في السرب D، الدفعة 96، خاضعة لسيطرة رئيسهم المباشر الرقيب كنّ آدامز. وفي مشهد مألوف من دون شكّ لدى العسكريين في كل أنحاء العالم، أيّاً يكن السلك، وأيّاً يكن البلد، كان يوم بندر الأول في كرانول قاسياً. وقف الرقيب آدامز أمام مجموعته من الشبان المرتجفين، ثمّ تقدّم بسرعة نحو الأمير الشاب، لا يفصل وجهه عن وجه صاحب السمو الملكيّ الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز آل سعود سوى بضعة إنشآت، وصرخ: "عندما أقول قف، يا سيد سلطان، أعني قف لحظة أشاء أنا، لا لحظة تشاء أنت. أعني اليوم، لا غداً! إنك لست في الصحراء الآن، أيها الشابّ المريع. اعتدل الآن وإلا ستجري حول هذه الساحة إلى أن أقول قف. هل فهمت؟!".

"نعم سيدي"، أجاب بندر.

"لم أسمع ما تقول"، صاح الرقيب آدامز.

"نعم سيدي"، صرخ الأمير المبتل، والأمل يحدوه أن يركّز معذّبته على أي طالب عسكريّ آخر.

لكن الرقيب آدامز لم ينصرف عنه: "لا تنادني سيدي، أنا أذكى من أن أدعى سيدي، نادني بحضرة الرقيب!".

بعد الانصراف من ساحة العرض، سار بندر وزملاؤه الطلاب سريعاً لا إلى مبنى الكلية (كوليدج هول) الرائع، وإنما إلى الأكواخ القديمة المعروفة باسم ساوث بريك لاينز التي غدت محل إقامته في الأشهر الستة التالية. كانت تلك الأكواخ تضمّ بعض

المراحيض والحمامات التي تلي مباشرة المدخل المؤدي إلى المهاجع. وكان لكل فرد ركن بجانب الفراش، وخزانة صغيرة، وسرير. وفي نهاية الكوخ غرفة جلوس شديدة التقشّف¹⁴.

كانت أمام الشبان الآن ساعة من أعمال التنظيف وإعداد متعلقاتهم الشخصية قبل جولة التفتيش التي سيجريها الرقيب آدامز وكَيّ الصدّرات والقمصان والملابس الرياضية وطّيّها في مربّعات ضلعها 9 إنشات. كل ذلك من دون مساعدة من أحد. لا عجب إذًا، في أن يجد بندر المكان بيئة عدائية. وعندما حاول تطبيق مهاراته على متعلقاته، كان أقرانه قد بدأوا بتنظيف الكوخ، والتثبّت من لمعان النوافذ، وتنظيف جميع السطوح من الغبار والبقع، ومسح الأرضيات لتصبح لامعة كالمرآة، وتنظيف بلاط حجرة الحمامات الأبيض، والمراحيض، وحجرة الاستحمام المشتركة حتى تتلأأ. وكان ينتظر أن ينهض كل واحد بنصيبه الكامل في العمل، من دون أي استثناء.

على غرار سلاح الجوّ نفسه، كان كل نشاط في كرانول يقاس في سباق مع الزمن، وذلك جزء من برنامج صارم يملأ كل ثانية من وقت التلميذ الضابط الشاب على امتداد ثلاثة أشهر كاملة. كان حضوره مطلوباً في ساحة العرض لأداء التمارين، ثم في قاعة الرياضة للتدريب البدني القاسي، أو الجري في حقول لينكولنشير المحروثة، وهو تمرين يعود فيه المشاركون منهكين ومبللين بالعرق وملطخين بالأوحال. وكانت الدراسة في ويتيل هول تشمل الشؤون الراهنة، ودراسات استراتيجية، والمقرر بكامله في مادتي الرياضيات والعلوم، واللغة الإنكليزية. وكانت الدروس الأكاديمية بمثابة فترة استراحة مستحبة من نظام التمرين البدني المرهق.

كان الغرض من التشديد الأولي على التمارين، والسير جيئة وذهاباً على الساحة نفسها المغطاة بالحصى، بالإضافة إلى أعمال التفتيش الدقيق على الملابس والكوخ، غرس روح الانضباط واحترام الأوامر العسكرية بلا تردد. وكان أيضاً محاولة لدفع التلاميذ الضباط إلى بذل أقصى ما لديهم من قدرات بدنية وذهنية، وفي الوقت نفسه إشاعة شكل من أشكال التماسك بين المجموعة المتباينة من الأعضاء الجدد، والمختارة من جميع أرجاء العالم الاستعماري السابق: سنغافورة، وروديسيا، وجنوب إفريقيا، ومالطا، وكينيا، وسيلان، ومن كل الجزر البريطانية. أضف إلى ذلك عدداً قليلاً متفرقاً من الطلبة العسكريين الأجانب، فتصبح الحصيلة جلبة من الأصوات أشبه بالضوضاء في

مستشفى للمجانين، بالنسبة إلى الشاب السعودي الذي بدأ منذ قليل فقط يتعلم "اللغة الإنكليزية الفصحى".

عندما سئل جون وترفول، وهو تلميذ ضابط زميل، كيف تعامل بندر مع الانتقال إلى الحياة العسكرية، أجاب: "كان عليه القيام ببعض التكيف، وهو أمر فعلناه جميعاً. فذلك جزء من تقاليد كرانول، جمع كل هؤلاء الأشخاص من خلفيات مختلفة والقسوة عليهم"¹⁵. وعن الأيام الباكورة قال مارتن شوري، وهو زميل آخر في السرب D الدفعة 96: "ما لم أدركه هو مقدار الصدمة الثقافية التي كابدها الأمير بندر عند وصوله إلى كرانول. وقول ذلك يتطلب أن تعرف حال المملكة العربية السعودية في سنة 1966 - كانت السيارات قليلة جداً فيها - حيث لا تزال مجتمعاً بسيطاً قياساً بالمملكة المتحدة. لم يكن الأمر سهلاً علينا في كرانول، ولا شك في أنه كان أصعب على الأمير بندر من أي شخص آخر"¹⁶.

في الأسابيع الأولى من التدريب، بعد الوصول، كان الرقيب آدامز يعنف الطلاب الشبان بمجموعة من التعابير السوقية التي تتفاوت حدتها، لوضع هؤلاء الشبان غير المتمرسين تحت الضغط وضمان سيطرته على الانضباط. ومع ذلك، كان بندر يكن لمدربه مودة عارمة على الرغم من تجاوزاته المتكررة.

ضحك الرقيب آدامز حين تذكر: "كما تعلم، كان [بندر] شقياً إلى حد ما في إحدى المراحل". فقد اعتاد الطلاب السعوديون في الدفعات الأعلى على دعوة بندر إلى مشاركتهم في الطعام في لينكولن، وذلك أمر ممنوع تماماً على الطلاب في أسابيع التدريب الأولى. وكان بندر يختفي ببساطة ويدع رفاقه يغطون غيابه. لكن سرعان ما تُمي إلى آدامز أنه على الرغم من أن الجميع يلازمون ثكنتهم في تلك الأسابيع الأولى من التدريب، فإن بندر ينسل لتناول وجبات طعام مع أقرانه السعوديين. وعلم آدامز لاحقاً أن



يتم تفقده في قاعدة "كرانول" التابعة
لسلاح الجو الملكي البريطاني

الشباب بندر قال بسذاجة لزملائه الطلاب: "لا شأن لي بهذا العمل المنزلي، يمكنكم أن تفعلوا ما تريدون، أمّا أنا فإني هنا لأطير فقط". ويقول آدامز: "كان الشبان الآخرون يقومون بعمله فضلاً عن عملهم، ولا يقولون شيئاً كي يحموه". ويتابع موضحاً: "بعد أن علمت بالأمر، دخلت كوخ بندر مساء أحد الأيام". وعندما سأل آدامز أين هو، ساد صمت مطبق، لا جواب. فأمر أن يمثل بندر أمامه في الصباح كي يؤدي واجبات إضافية، واجبات جعلت بندر يقوم بتنظيف المراحيض لعدة أسابيع.

يتابع آدامز: "كان يتمتع بقدر عالٍ من روح الدعابة. لن أنسى أبداً أنني كنت أؤنبه على أي شيء وكان لا ينفك يضحك". وبعد خلاف الرقيب مع الأمير بشأن الواجبات المنزلية، استعان بزميل جدّي للغاية هو الأمير مقرن. شرح آدامز لمقرن المشكلة مع بندر والتأثير السلبي في الطلاب العسكريين السعوديين الآخرين. فأوضح ذلك الزميل السعودي للأمير الشاب كيف يجب أن يتصرف تماماً. وهكذا جاء التحوّل، كما يقول آدامز، ملحوظاً وحدث بين ليلة وضحاها تقريباً. أصبح بندر الطالب العسكري المثالي. ويقول آدامز: "كما تعرف، أصبح أدائه ممتازاً بعد ذلك، وكان دائماً ذكياً وأنيقاً جداً، وكان فوق ذلك وسيماً! اعتدت أن أقول له: بمحيّك ومالك، يمكنك أن تشق طريقك إلى النجاح!"¹⁷. بل عندما بلغ بندر فصله الدراسي الأخير، اختير ضابط صف من حملة أعلام الكلية، وتلك مرتبة مرموقة بالنسبة إلى الطلاب المختارين للدفاع عن علم الملكة في كلية سلاح الجو الملكي في كرانول، مرتبة تتطلب أرقى مستويات الهندام الشخصي والتدرّب على المشية العسكريّة.

قبل أن يلتحق بندر بكرانول كمرشح ضابط، أمضى بعض الوقت في تحسين لغته الإنكليزية المحكية، وكان ذلك في أول الأمر مع السيدة غنهام، وهي أرملة ضابط في البحرية الملكية، وابنتها سارة في منزلهما في ميدستون بمقاطعة كنت. وتابع بندر تدرّبه على اللغة الإنكليزية في أبود التابعة لسلاح الجو الملكي قبل الانضمام إلى أترابه في كرانول، حيث ابتاع له أبوه سيارته الأولى "مرسيدس" بيضاء. وكانت تلك بداية حبّه الطويل للسيارات. لكن بعد أسابيع قليلة، هوى بما في حفرة.



بندر في زي غير رسمي لسلاح الجو الملكي السعودي،
صممه خلال متابعة دورة في اللغة الإنكليزية
في "أبوود" مع سلاح الدو الملكي البريطاني

في تلك الأيام، لم يكن يُسمح للضباط الشبان بلقاء زميلاتهم من الضباط في قاعة الطعام. يتذكر بندر: "في أحد الأيام، استرعت شابة جميلة حقاً انتباهي فرغبت في الخروج معها". لذا أخذها الأمير إلى نادي الضباط الأميركيين في ألكونبوري التابع لسلاح الجو الملكي، وهو مكان أكثر استرخاءً من قاعة طعام الضباط في أبوود. لكن، في أثناء العودة بالسيارة على طرق كامبريدجشير الضيقة، أوقف بندر المحرك عن العمل، من دون قصد ما أدى إلى إقفال مقود السيارة على الفور. وقد صادفنا منعطفاً بسرعة كبيرة فاعتلت السيارة الركاب الجانبيين وانقلبت. استطاع بندر الخروج من السيارة بعناء، لكنه أدرك فجأة أن رفيقته لم تتحرك. نظر من الباب المفتوح - كانت السيارة لا تزال مستقرة على سقفها - فرأى الفتاة معلقة بمقعدها رأساً على عقب. ودونما تفكير فكّ حزام مقعدها فسقطت على رأسها مباشرة. وكما لاحظ ضاحكاً في ما بعد: "لم تصب بأذى إلى أن أنقذتها!".

بعد تحطّم "المرسيدس"، اختار بندر سيارة أخرى، كانت هذه المرة من طراز "أستون مارتين". وكما يذكر الرقيب آدامز: "كان الأمير بندر يستخدم هذه السيارة للانتقال إلى لندن في عطلات نهاية الأسبوع، وإذا ضبطه رجل شرطة في أثناء مخالفة ما يبرز له إجازة سوق سعودية ويدّعي التمتع بحصانة دبلوماسية". ويضيف آدامز: "كان لديه أيضاً جارور مخصّص لمحاضر المخالفات في لندن، التي لم يسددها قط، ومجموعة لوحات خاصة بالسلك الدبلوماسي اعتاد وضعها على السيارة في عطلات نهاية الأسبوع"¹⁸.



سيارة بندر الأولى - والتي حطمها بعد هذا بقليل

يروى زميله الطالب جون وترفول: "أذكر يوم كنت وروبي (هنتر) عائدين معه من لندن في سيارته أستون مارتن. توقفنا قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل ملء السيارة بالوقود وكانت خلفنا مباشرة سيارة للشرطة". ويتابع جون مهلاً: "لم يوقفنا رجال الشرطة بسبب سرعة أو أي سبب آخر، كانا فقط معجبين بالسيارة".

يذكر بندر أنه سأل أحد رجلي الشرطة: "هل تودّ أن تقود سيارتي؟".

أجاب الشرطي، "أجل، بالتأكيد!".

وهكذا ركب سيارة الأمير وابتعد بها. لذا توجه بندر إلى زميل الشرطي وقال:

"انظر، زميلك أخذ سيارتي، هل لي أن أقود سيارتك؟"¹⁹.

وتأكيداً لهذه القصة، روى بندر كيف انتهى به الأمر إلى ملاحقة سيارته بسيارة

للشرطة، وفي المقعد الخلفي كل من روبي هنتر، وجون وترفول. وبعد عدة أميال،

أدركوا سيارته والشرطي المزهو. انتهى الأمر عند هذا الحد، وتابعوا طريقهم عائدين

إلى كرانول.

على الرغم من تمكنه من الهرب من كرانول في عطلات نهاية الأسبوع، فإن الإجازات كانت أكثر تعقيداً. لكن كانت هناك مجموعة من التلامذة الضباط الذين يُعرفون "بالأيتام" لأن أهلهم يعيشون في الخارج. وعلى غرار بندر، لا يستطيعون مغادرة كرانول لزيارة عائلاتهم. وقد مكنت صداقة حميمة مع أحد هؤلاء الأيتام بندر من الذهاب إلى مالطا مع صديقه روب ديكون إليوت، الذي كان أبوه، الفريق الجوي، قائد وحدة جوية هناك. ويقول بندر عن ذلك: "هكذا انضمت إليهم في مالطا، حيث أقمنا في فندق هيلتون".

عندما تحدّثت مع السيدة غريس ديكون إليوت عن رحلة الأمير إلى مالطا، قالت: "التقيت بن أول مرة، عندما قدم روبرت من كرانول في وقت ما سنة 1967، ووصل مع هذا الفتى الصغير بن". وتابعت قائلة: "أخذناه بزورق زوجي البخاري - كان زوجي آنذاك قائد وحدة جوية - إلى وسط خليج آيلند مباشرة. كان الأولاد معتادين على الغوص هناك لأنهم سباحون ماهرون، فيسبحون حتى الصخور التي تبعد مسافة طويلة. لم أكن أعتقد أن بن يحسن السباحة، لكن الأولاد قفزوا جميعاً وبدأوا يسبحون. فما كان من بن إلا أن قفز إلى الماء وأخذ يحرك يديه كيفما اتفق حتى وصل إليهم. حين رأيت ذلك، طلبت من الطاقم مراقبته عن كثب". وأضافت أن وجود بنات القائد ربما منع بندر من الاعتراف أنه لا يحسن السباحة²⁰.

حرص روب ديكون إليوت على تمثين العلاقة الحميمة التي نمت بين بندر ووالديه خلال وجوده في كرانول. "لم يكن بندر يحترم أبي، الفريق الجوي ديكون إليوت، فحسب²¹، بل يكن احتراماً لأمي أيضاً، فقد كانت شخصاً مهماً في حياته، بمعنى أنهما كانا بمثابة والدين إنكليزيين له"²². وقد أكدت السيدة ديكون إليوت هذا الأمر، قائلة: "درج على مناداتنا بأمي وأبي، وأعتقد أنه أحس بالطمأنينة معنا وانسجم مع نمط حياتنا العائلية. لقد اعتبرته دائماً فتى في مقتبل مدارج الحياة. كان الأمر كما لو أننا عائلة واحدة، وقد أحببت الأمر وكذلك زوجي"²³.

بعد مرور ثلاثين عاماً، وفي التفاتة رائعة، قدم بندر من دون إعلان مسبق ليقدم العزاء إلى العائلة عقب وفاة الفريق الجوي ديكون إليوت في 5 يونيو 1997. وعن ذلك يقول روب ديكون إليوت: "قدم في رحلة خاصة من واشنطن يوم الجنائز لتقدم واجب العزاء شخصياً. ثم قفل عائداً إلى واشنطن"²⁴. لم يكن الأمير الذي قطع مسافة

طويلة بالطائرة ثم بالطوافة ثم بالسيارة، يريد إقحام نفسه في مناسبة عائلية خاصة، لكنه عبّر عن تقديره لصديق بطريقة فريدة تدلّ على طبيعة الرجل ووفائه لأصدقائه.

عندما أنهى بندر تدريبه العسكري الأساسي في كرانول، ركزت الكلية على تدريب هذا الشاب كضابط، لتطوير شخصيته، وشخصية أترابه، بمزيج من الصحة بين الرفاق، والانضباط، والعلوم الأكاديمية، والحرفة الميدانية، والرياضة، وأخيراً، الطيران.

شارك جميع الطلبة العسكريين في كرانول بتمرين في ألمانيا اشتمل على التدريب الميداني، والتجذيف، وتسلق الصخور، والهبوط على حبال ثابتة، والهرب والمراوغة، كان ذلك يُعرف "بتمرين كينغ روك" (*). وقد شارك بندر في هذا التمرين سنة 1968 وخضع لأساليب اللياقة والتحمل والتدريب الميداني التي كان جميع الطلبة العسكريين ملزمين بتلقيها. ولم يكن يسمح للطلبة طوال التمرين المضي بحمل ما يكفي من الطعام. لذا كان الجوع الأمر اليومي. وكان التجذيف مرهقاً على نحو خاص، إذ اشتمل على مهارات التجذيف في المياه السريعة المذبذبة على امتداد مجرى مائي طوله 12 ميلاً، واختبارات التحمل عند سدّي إيدر وموهنه الشهيرين منذ تعرضهما للقصف الجوي (**)، إلى جانب تقنيات قلب القوارب.

(*) كان تمرين "كينغ روك" تمريناً ميدانياً قاسياً أُجري في ألمانيا واقتضى جِدّاً ولياقة بدنية من جميع الطلاب. وهو يمكّن المشرفين من تقييم قدرات الطلاب القيادية، وتحديد مدى شجاعتهم في مجموعة من الأنشطة المرهقة. لقد كان تمريناً شاقاً للغاية.

(**) بقيادة قائد السرب غاي غيبسون، هاجم السرب 617 - دامبسترز (مدمرو السدود) - منطلقاً بقاذفات "لانكستر" من قاعدة سكامبتون في لينكولنشير، سدود موهنه وإيدر وسوربه في وادي الرور الألماني في 16 مايو 1943. كانت تلك السدود في الرور أهدافاً جذابة وإنما مخيفة، وكانت تزود ألمانيا بالطاقة الكهربائية والمياه للصناعة والاستخدام المنزلي، وتحافظ على مستويات في الألفية التي تنقل المواد بين المصانع الألمانية والمستودعات الحربية. وكان الاعتقاد أن تدمير تلك الأهداف سيؤدي إلى تقليص قدرة العدو على خوض الحرب، وكان الوقع النفسي للنجاح بالغ الأهمية بالنسبة إلى بريطانيا العظمى آنذاك. استخدم السرب قنابل ارتدادية صممها خصيصاً العالم ومصمم الطائرات اللامع، إن لم يكن غريب الأطوار، بارنز واليس، وحلق وسط دفاعات مهلكة، على ارتفاعات دون 60 قدماً وبسرعة ثابتة بلغت 250 ميلاً في الساعة، وهي السرعة المثلى لتكون القنابل فعالة. وكانت الغارة ناجحة إلى حد ما، حيث هوجم سد موهنه أولاً ودُمر كلياً، واقتلع إسفين مستطيل عرضه 250 قدماً وعمقه 112 قدماً من جدار سماكته 50 قدماً، فأغرقت المياه الوادي في أسفله. وتم اختراق سد إيدر أيضاً، وألحقت أضراراً طفيفة بسد سوربه. وبلغت خسائر المغيرين 8 قاذفات "لانكستر" و56 رجلاً.

بلغ هذا التدريب ذروته في تمرين الهرب والمراوغة على مدى ثلاثة أيام، حيث يُترك الطلبة في مجموعات صغيرة في "أرض معادية" تحاكي وضع الطيار الذي تُسقط طائرته. زُوِّدت الفرق المكوّنة من ثلاثة أفراد بخرائط أساسية ورزم أطعمة تكفي أربعاً وعشرين ساعة فقط، وأعطيت تعليمات بالتقدم إلى نقطة لقاء في وقت معين، متحاشية الوقوع في أسر وحدات من الجيش مكلفة بمهمة القبض على أفراد تلك الفرق. وقد قاد بندر فريقه. ولما كان قد عزم على خوض اللعبة بقواعد خاصة به، أخفى ورقة مالية من فئة المئة مارك ألماني داخل قبعته. يتذكر الأمير ذلك: "كادت محاولتنا العثور على ذلك الموقع تفشل نتيجة اصطدامي بسياج كهربائي وإصابتي بصدمة كهربائية. وفيما كنت أتخبط في الحقل في الظلام، تهمت وآل بي الأمر إلى تلوّث وجهي بروث البقر". وفي حالة قصوى من الضيق، قال لزملائه: "لقد نلت ما يكفي، ولست على استعداد للسير أربعين كيلومتراً لأعود إلى المعسكر. إنّه في نهاية الأمر تمرين للهرب والمراوغة وعلينا أن نستخدم عقولنا".

قاد بندر مجموعته إلى أقرب طريق سريع واستقلّوا سيارة للعودة إلى نقطة اللقاء. ثم وجدوا مطعماً ألمانياً، فالتهموا بسرعة وجبة كبيرة من الدجاج المشوي وسلطة البطاطا. وأدرك أفراد الفريق، بعد أن ملأوا بطونهم، أن من المبكر الوصول إلى نقطة اللقاء، لذا ساروا حتى مسافة ميل منها ثم استلقوا متلفعين بمعاطفهم إلى أن مضى ما يكفي من الوقت ليبدو أنهم أمّوا رحلتهم مشياً. حضروا إلى المكان في الوقت المحدد وتلقّوا التهنئة على إنجازهم. ولم يغب عن ذاكرة بندر، بعد مرور أعوام، أن روب ديكون إليوت - الذي يصفه بندر أنه ضميره - لم يغفر له قط لجوئه إلى الغش. ومضى باقي التمرين من دون أي حادث وتمكّن من تفادي الوقوع في الأسر. وجاء في تقرير قائد السرب: "ثمّة دليل على الشجاعة والجلد والمهارة في القيادة"²⁵.

اختار بندر كتلميذ ضابط لعبة كرة القدم هواية رياضية مفضّلة لديه، بعد أن اكتسب مهارات في هذه اللعبة من أيام الدراسة في الرياض. لكن، في السنة الأولى من وجوده في كرانول، بهرته رياضة المبارزة بالسيوف، ومع مرور الوقت، شُغف بها وأصبح مبارزاً متمكناً بقدر معقول. ومع تطوّر مهاراته، اختير عضواً في فريق كرانول للمبارزة، وسافر مع هذا الفريق إلى الأكاديمية الجوية الفرنسية في سالون إن بروفنس، المعروفة باسم "المدرسة الجوية". وكنت أنا أيضاً في عداد ذلك الفريق، مبارزاً

بالشيش^(*). وكان هذا الحدث السنوي مثار تنافس شديد دائماً، حيث يتضمن رياضتي الركبي^(**) والمبارزة بالسيوف. وكان التنافس بين فريقَي الركبي والمبارزة بالسيوف ضارياً، وتحقيق النصر مهماً للغاية بالنسبة إلى شرف الكلية.

بعد رحلة طويلة من كرانول إلى سالون في طائرة عسكرية من طراز "بريتانيا"، أُرشدت فرق كرانول إلى غرفها وطلب منها تبديل الملابس استعداداً للمأدبة العشاء. كانت الضيافة ممتازة، وحرص المضيفون على أن تُفرط الفرق البريطانية في تناول الشراب قبل وجبة الطعام وخلالها وبعدها. لكن سرعان ما دفع الإفراط في الشرب إلى التباري في الغناء، حيث يشرب الخاسرون كؤوساً مملأى بالشراب الأحمر. وقد فعل الشراب فعله في الطلبة العسكريين البريطانيين والفرنسيين على السواء.

يتذكر بندر هذا التجمع الصاحب ويقول: "سألت أحد مضيفي إذا كان من فريق المبارزة بالسيوف أم من فريق الركبي".

أجاب الطالب الفرنسي أنه ليس من هذا الفريق ولا ذلك. عندها سأله بندر إذا كان باستطاعته أن يلتقي أياً من أفراد فريق المبارزة الفرنسيين. فدُهِش الأمير حين أُبلغ بعدم وجود أحد من فريق المبارزة أو من فريق الركبي: كلهم في الفراش نيام. وفي صباح اليوم التالي، استيقظ معظم أفراد فريق كرانول في حالة سيئة، وكان كثير منهم لا يزالون يرتدون الملابس الكاملة التي ارتدوها في المساء الفائت.

يصف ويلسون (ويلس) ميتكاف، أحد أفراد فريق الركبي وطالب عسكريّ زميل في ذلك الوقت، كيف نهض الجميع باكراً، في صباح اليوم التالي للوصول إلى سالون وحفلة العشاء آنفة الذكر، بعد تلك الليلة العامرة ليشاهد رفع العلم الفرنسي وراية سلاح الجو الملكي، "كان الصداغ يلف رؤوس الجميع"²⁶. فاجأ فريق الركبي

(*) الشيش نسخة حديثة من سيف المبارزة، وهو مماثل للسيف الطويل foil، لكن نصله أقسى وشبيهاً بحرف v كما أنه أثقل.

(**) الركبي لعبة رياضية جماعية مأخوذة، كما يقال، من قواعد مستخدمة للعب كرة القدم في مدرسة ركبي Rugby في إنكلترا. يؤدي اللعبة فريقان، كل منهما يتكوّن من 15 لاعباً. وعلى كل منهما تسجيل أهداف تفوق أهداف الفريق الآخر. يمسك اللاعبون بكرة شبيهة من حيث الشكل بكرة القدم الأميركية، مستخدمين أيديهم أو أذرعهم، ويمكنهم تمريرها إلى الخلف أو جانبياً عبر حد مرسوم، أو ركلها في أي اتجاه. ويحاول الفريق الآخر إعاقة حركة حامل الكرة بأذرعهم وأجسادهم.

الجميع بالفوز في مباراته ضد فريق فرنسي أوفر نشاطاً وحيوية، بعد منافسة حامية. وفي ذلك الوقت، كان فريق المبارزة بالسيوف يحاول التعافي من تأثير الليلة السابقة قبل حلول موعد المباراة في فترة بعد الظهر. وقد استُضعف طلبة كرانول بالفعل، وكان من المتوقع أن يتمكن الفريق الفرنسي المتفوق من سحق فريق سلاح الجو الملكي، بمساعدة تكتيكات التخريب غير العادلة التي أُتبعَت في الليلة السابقة.

لكن كم كانت دهشتنا عظيمة حين استطاع فريق كرانول الملهم أن يسجل نصراً مبيناً بفضل الغضب من خديعة الليلة السابقة المنافية للمبادئ. ويذكر بندر أنه كان لا يزال غاضباً فهاجم خصومه ضارباً بسيفه ضحاياهم الفرنسيين باندفاع. لم تكن البراعة الفرنسيّة لتجدي أمام حماسه الجنونية، فكسب بندر المباراة.

توضح سجلات الكلية مقدار تصميم بندر على أن يصبح طياراً بارزاً، وتركيزه التام على الطيران، وكانت الأنشطة الأخرى في كرانول، وبخاصة الأنشطة المتعلقة بالبيئة



فريق "كرانول" للمبارزة بالسيوف مع بندر (الصف الخلفي، الثاني من اليمين)،
والمؤلف بيل سمبسون (الصف الأمامي، إلى اليسار)

الأكاديمية، تصرف الانتباه عن ذلك الهدف الأساسي. مع ذلك، استطاع أن يكون طالباً مثاليًا عندما انصرف بكلّيته لتحقيق هدفه. وهكذا كتب الرقيب آدامز في تقريره الخاص بالتدريب: "عندما يحاول، يكون من أفضل العناصر في السرب. وفي بعض الأحيان يخلو أدائه من الأخطاء. وفي وسعه أن يبلغ مراتب عالية إذا أدرك أنه ليس هنا للطيران فقط"²⁷.

لكن رغبة بندر في الطيران، وقبل كل شيء، أن يصبح طياراً حربياً كانت تستحوذ عليه. فذلك هو الهدف الوحيد في حياته. وقد بشر بنوع من الناحية العملية. فكان بندر أول طيار في السرب يقود الطائرة بمفرده بعد تسع ساعات فقط من التدريب على الطيران، ولم يسبق له الطيران من قبل. لكن أدائه لم يكن منتظماً في الأشهر الأولى. وكان مفرط الثقة بالنفس أيضاً، وهي خاصية كادت تؤدي إلى كارثة في عدة مناسبات. لذلك كان زميله الطيار جون وترفول صريحاً - كما يجدر بالصديق أن يكون - عند التحدث عن كفاءة الأمير كطيار: "كان تعيساً في كرانول"²⁸. وأكد روبي هنتر بداية الأمير الواهية في الجوّ عندما روى كيف دخل بندر ذات مرّة مجال المطار الحربيّ في الاتجاه الخاطئ، وطار عكس حركة المرور الجوي السائدة، ملقياً الرعب في سائر زملائه الطلبة. كان ذلك أشبه بقيادة السيارة عكس السير على طريق سريع. وكان التعليق الفعليّ الذي وضعه مدرّبه طوني يول أقل وضوحاً وأوحى بدبلوماسية أن سلطان يطير باستعداد نفسي وحماسة. كانت لديه مشكلة مع مجال المطار، لكنه أحسن التكيف معها تماماً في نهاية المقرّر التدريبيّ"²⁹.

وأسرّ الأمير لاحقاً أن مدرّب الطيران، طوني يول، كان يردّد على مسامعه دائماً أنه لن يصبح طياراً حربياً. واعترف بالقول، "كدت أستقيل، محدثاً نفسي أنني إذا لم أتمكن من أن أصبح طياراً حربياً، فإنني لا أريد أن أكون طياراً". لكن بعد ثلاثة أعوام من رحيله عن كرانول، عثر بندر على مكان يول، وتذكّر، برضى جليّ، أنه كان يقود طائرات صهريج من طراز VC-10. فأبلغه الأمير: "إنني أقود طائرات مقاتلة منذ أن تخرّجت من كرانول. الآن عرفت لماذا قلت إنني لن أصبح طياراً حربياً، لم تكن تدري ماذا تريد".

كان مارشال الجو السير ريتشارد جونز قائد السرب 2 في كرانول سنة 1969، ومدرّب الأمير على الطيران. قال لي: "أذكر الأمير بندر بن سلطان جيّداً. أولاً، كان



إلى جانب نفاثة بروفوست التي حقق على متنها طيرانه المنفرد الأول

أميراً من العائلة المالكة السعودية والعربي الوحيد في دورته. كان باسم المحيّا دائماً؛ لا أذكر أنني رأيته يوماً في السرب لا يحوم فيه هنا وهناك والابتسامة الجميلة على محياه... لقد اندمج في كل شيء بحماسة كاملة. هذا ما أذكره حقاً عنه، روح الدعابة والحماسة".

لاحظ جونز متذكراً أداء الأمير خلال فترة التدريب على الطيران: "لا أذكر أن أي شكوك أثرت حول قدرة بندر بن سلطان على إتمام تلك المرحلة من تدريبه على الطيران، أو حول مقدرته على العموم. كان يُعتبر "شخصاً طيباً"، لكنه أيضاً

الشخص الذي انتقل إلى المملكة المتحدة بارتياح على الرغم من مصاعب اللغة التي واجهها في البداية". وأكد جونز أنه: "قبل التحديات وارتقى إلى مستوى كل منها. وكان من الواضح تماماً أنه سيتخرج حاملاً شارة الطيار".

غير أن ثمة حادثة كادت تقضي على مهنته وحياته. وقد روى جونز ما حدث: "كل من مارس مهنة الطيران مدة طويلة نوعاً ما مرّ بلحظات قال فيها: يا الله كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت. أذكر حادثة من هذا النوع مع بندر بن سلطان. كنّا عائدين إلى القاعدة وكنا نقوم بانحذارات مسيطر عليها عبر السحب، لذا لم يكن لدينا من خيار سوى الهبوط خلال السحب، وكان علينا في أثناء ذلك الانعطاف للعودة إلى المطار. كنت أحاول الطيران بأقصى أشكال الملاحة سلاسة؛ وبدأت الانعطاف للعودة. لكنني نظرت فرأيت أن بندر على يميني قد أخذ ينزلق مجدداً".

أوضح جونز محلاً هذه المناورة: "إنها ليست غير مألوفة، إنها صعبة، وبخاصة عندما تتعلّم المحافظة على التشكيل في السحاب، لأنك تبدأ بفقدان الإحساس بالاتجاه. كان يجب على بندر في تلك الظروف أن يسوّي جناحي الطائرة ويطير بعيداً، لكنه لم يفعل ذلك. بل حاول العودة إلى التشكيل، وفي أثناء ذلك أمال طائرته باتجاهي. لست متأكداً تماماً ماذا حدث بعد ذلك، لكنني أذكر أنني فكرت، تبا، هذه هي نهايتي. لا

شكّ أنني دفعت ذراع القيادة بقوة لأبتعد عن طريقه. وأظن أن مدرّبه تولّى القيادة عندئذ وافترقنا في السحاب".

وراح جونز، والانزعاج باد عليه، يصف كيف عادت الطائرة إلى كرانول، حيث ناقش المدربون والطيّارون ما حدث بالضبط. لم يكن بندر الجذلان يدري أنه كاد يصطدم بعدة طائرات من طراز "جت بروفوست"، بما فيها الطائرة التي كان يقودها صديقه روب ديكون إليوت، وكان بالتأكيد سيقضي على السير ريتشارد، قائد سلاح الجو الملكي لاحقاً، وكذلك على زملائه في الدفعة 96. لم يفصله عن الكارثة سوى إنشآت معدودة. ويقول جونز إن "الأمر اللافت أن ما حدث لم يؤثّر فيه، لو فعل ذلك غيره لربما توجه إلى حجرته. لكن ليس هو بالتأكيد، فقد تابع وكأن شيئاً لم يكن"³⁰.

على الرغم من تقلّب سجل الأمير بندر في الطيران بعض الشيء في كرانول، فإنّه تعلم الطيران بالفعل، فقد نال شارة الطيّار وتخرّج بنجاح. وجاء في التقرير الخاص به: "كان تدريبه مرضياً على العموم، وفي أثناء التدريب على القيادة في الميدان، كان مهياً لتأكيد ذاته وإظهار قدر كبير من الشجاعة والجلد". وفي تقرير تقليده رتبة ضابط في 21 يوليو 1969، وفي التدرّب المهمّ جداً كطيّار، قيل عن الأمير: "إنّ سلطان طيار عازم وكفء ويمكنه تحقيق نتائج طيبة جداً عندما تدعو الحاجة. حركاته البهلوانية الجوية مفعمة بالحياة ولكنها تفتقر إلى البراعة. وهو يميل إلى الإفراط في الثقة بالنفس حين تكون الأمور على ما يرام. وببذل قليل من الجهد الإضافي، سيصبح سلطان طياراً جيداً جداً ذا قدرات فوق المتوسط وقائد طائرة متمرساً"³¹.

شهد بندر حادثة كان لها وقع دائم في نفسه، وهي حادثة رواها خلال لمّ شمل الدفعة 96 وأثرت في موقفه في حياته اللاحقة. ففي مساء أحد الأيام في قاعدة ألكونبوري الجوية، التقى بندر صديقاً أميركياً عرفه لاحقاً بطيّار آخر وبزوجته. يروي الأمير: "كان لا يزال يرتدي ملابس الطيران، بعد عودته للتوّ من طيران ليلي. قلت في نفسي لا بد أنه طيار أميركي، لكنني لاحظت نخلو بذلته مما يدل على اسمه أو رتبته، الأمر الذي أثار استغرابي قليلاً". وعندما اكتشف أن زوجة الضابط من كاليفورنيا، تعزّز افتراضه بأن زوجها ضابط أميركي. سارت الأمور في ذلك المساء على ما يرام واستمتع الأمير بها.

في وقت لاحق من ذلك المساء سأل بندر الطيار: "هل أنت من كاليفورنيا أيضاً؟" أجاب الطيار: "لا، أنا من إسرائيل". ويبدو أن الطيار اعتقد أن الأمير إنكليزي فسأله: "من أين أنت؟" وما إن أجابه: "أنا من المملكة العربية السعودية" حتى تبدل الجو فجأة، واكتنفه برود شديد فيما أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر بصمت مطبق. ويقول بندر: "أحسست فجأة بالكره تجاه هذا الرجل، الذي كنت معجباً جداً به من قبل".

عندما فكر بندر في الموقف، أخذ يدرك وقع تلك اللحظة، حيث حدث تبدل في الظروف أو التصورات، عند معرفة أن أحدهما إسرائيلي والآخر عربي. ويقول الأمير: "منحني ذلك، على مرّ الزمن، الأمل أننا سنكسر الصورة النمطية إذا ما عرف أحدنا الآخر بشكل أفضل". ويتابع الأمير أنه نتيجة معرفة كل منهما هوية الآخر: "وافق الضابط الإسرائيلي على أن نتصافح وننسى أننا التقينا يوماً".

وفي تلك الأمسية عرف بندر من دون قصد بعمليّة عسكرية سرية تجري في قاعدة جوية أميركية في إنكلترا. ففي ذلك الوقت لم تكن إسرائيل قادرة على شراء معدات عسكرية من الولايات المتحدة، لأن الحكومة الأميركية فرضت حظراً على جميع المبيعات العسكرية المتوجهة إلى الشرق الأوسط بعد حرب الأيام الستة في سنة 1967. بيد أن الإدارة الأميركية وافقت سرّاً على بيع إسرائيل طائرات "فانتوم F-4"، وقرّر الرئيس جونسون إبقاء الأمر طي الكتمان. وهكذا اتفق على ألا يجري التدريب في الولايات المتحدة وإنما في قاعدة ألكونبوري الجوية الملكية، وهي قاعدة ل سلاح الجو الأميركي في المملكة المتحدة. ومن المفارقة أن يكشف بندر، مرشح الضابط الشاب الغر، بمحض المصادفة في ذلك المساء، سرّاً مكنوناً وخطيراً.

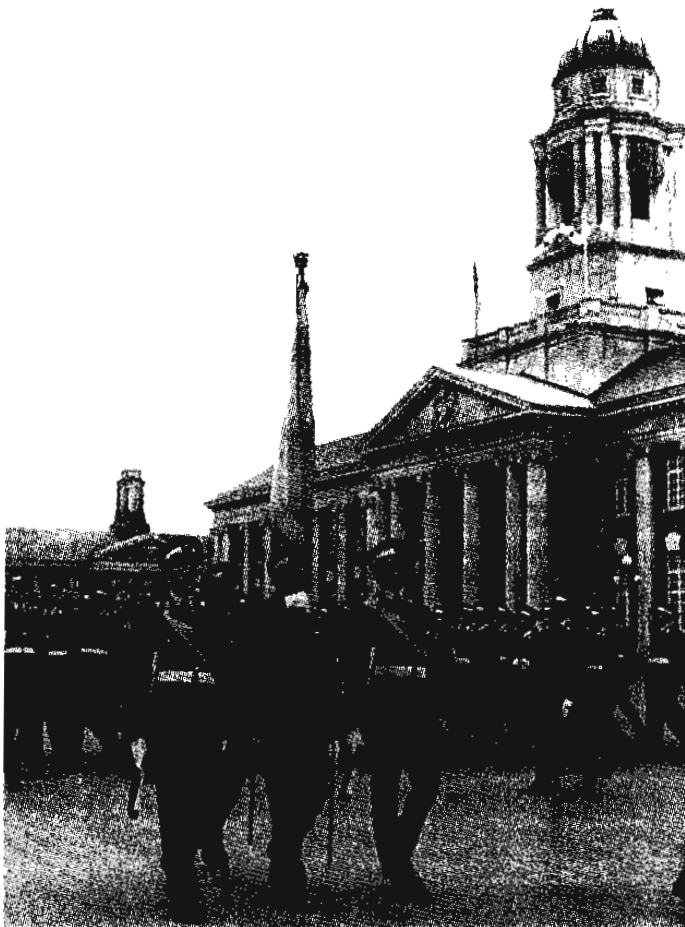
عند اقتراب نهاية الأشهر الثلاثين من التدريب في كرانول، ازداد التركيز على التخرج وتقليد المتخرجين رتباً عسكرية. بالنسبة إلى الطيارين، ومنهم بندر، كانت هناك أيضاً شارة الطيار الموعودة التي تحظى بتقدير عظيم. لكن بالنسبة إلى التلامذة الضباط، ثمة عقبة أخيرة هي العرض العسكري في حفلة التخرج. وفي هذا الصدد يذكر الرقيب آدامز تمرّن الطلاب على تأدية حركات بهلوانية مختلفة خلال تجربة الأداء النهائية لذلك العرض في صباح يوم السبت. وقد جرى التقليد على أن يأتي الطلاب بأعمال متنوعة غير مدرجة على الجدول خلال تجربة الأداء، وقد وصل أفراد الدفعة 96 في حافلة

ركاب ذات طبقتين، قبل انتظامهم في مواقعهم في ساحة العرض. وكما يروي الرقيب آدامز، كان الجو حافلاً "بالمرح والحيوية، ولم يحدث أي أذى!".

ويذكر بندر نبذة أخرى من المرح البريء الذي استمتع به فريق حملة الأعلام أو، كما يسميه، الفريق الملون الذي كان ضابط الصف فيه. وكان صديقه الحميم، ديك كالدرا، حامل العلم. ففي منتصف الليلة السابقة، أحضروا بعض ألواح الخشب ووضعوها على درج مبنى الكلية، ثم دفعوا بسيارة رياضية مكشوفة قديمة من طراز أم جي MG صعوداً على الدرج ومن ثم إلى داخل مبنى الكلية، ثم أزالوا الألواح.

في صبيحة اليوم التالي، استُدعيت الكلية كلها إلى العرض العسكري. وفجأة، أعيدت ألواح الخشب إلى موضعها على درج مبنى الكلية. وعلى صبيحة قائد العرض "ليتقدم الفريق الملون"، خرج الفريق - الذي طلى أفراده الإنكليز وجوههم باللون الأسود (طلى بندر وجهه باللون الأبيض). وكم كانت الدهشة كبيرة عندما خرج فريق الأعلام من مبنى الكلية راكبين سيارة أم جي، بدلاً من الخروج من جانب ساحة العرض الأيسر كما جرت العادة، حتى وصلوا إلى موقعهم المعتاد، حيث ترحلوا من السيارة، التي أبعثت على الفور.

بعد ذلك بأسبوع، أي في 2 أغسطس 1969، تخرج بندر من كلية كرانول التابعة لسلاح الجو الملكي. وشهدت المرحلة التالية من حياة الأمير مزيداً من اندماج الشاب، الذي أصبح أكثر نضجاً الآن، في الثقافات الغربية. وكطيار في سلاح الجو السعودي، التحق بدورات تدريبية شاملة، لتحويل مهاراته في الطيران، وكانت لا تزال في بداياتها، إلى مهارات طيار حربي محنك.



يستعرض بالألوان كضابط صف العلم

الأمير طيار حربيّ

"لا تُفرطوا في التحكّم، كطيارين مبتدئين. وابتعدوا عن قيود الاتجاه السائد
بالقدر الكافي الذي يمكنكم من رصده وتعديله وتحسينه".

دونالد رامسفيلد

وزير الدفاع الأميركي

قال السير ريتشارد جونز، مدرّب بندر على الطيران في كرانول، عن طيران بندر:
"من الواضح تماماً أنه تلقى في كرانول التدريب ليصبح طياراً حربيّاً؛ ولن يكون سوى
طيار حربيّ إذا ما شاء الانضمام إلى سلاح الجو السعودي، وهذا ما فعله بالضبط.
أصبح طياراً لطائرة لايتنغ... وكانت تلك المجموعة من الطيارين نخبة سلاح الجو آنذاك.
كانوا مجموعة متميّزة جداً من الأشخاص وتمكّنوا جميعاً من تحقيق منجزات استثنائية".

بعدما تخرج بندر في كرانول سنة 1969، عاد إلى المملكة العربية السعودية كضابط
برتبة ملازم ثان، والتحق بقاعدة الظهران الجوية التابعة لسلاح الجو الملكي السعودي.
وهناك قاد طائرة تدريب "T-33، تي بيرد"، لتطوير قدرته على الطيران. لكنّه كضابط
شباب غضّ كان يُتوقّع منه أيضاً أن ينمي مهاراته كضابط وقائد للرجال، لذا عُيّن قائداً
لسرية من خمسين تلميذاً في معهد التدريب الفتي التابع لسلاح الجو الملكي السعودي. وقد
لاحظ مدرّب طيران من سلاح الجو الأميركي، المقدم كيث فيلبس، وكان حينئذ يدرّب
الطيارين السعوديين كجزء من برنامج "صقر السلام" التدريبي السعودي - الأميركي:
"كان يتمتّع بجاذبية وروح قيادية بارزتين فوق العادة! وكان الفتية في رفّه متقدمين أشواطاً
على غيرهم؛ بل لم تكن هناك منافسة أصلاً"². لم يكن بندر، خلافاً لأبناء جيله، يصرّ على
مناداته بلقب أمير عندما كان يعمل في سلاح الجو الملكي السعودي. ويقول أحد الطيارين
الذين كان يدرّبهم: "كان يُدعى الكابتن بندر فقط. ولم يحمل لقبه إلى أن أصبح سفيراً.
كنا ندعوه الكابتن بندر أو الرائد بندر، من دون زيادة أو نقصان"³.

في أوائل سنة 1970، بعد أن استقرّ بندر في سلاح الجو الملكي السعودي، أرسل إلى قاعدة لاكلاند الجوية في تكساس، حيث تلقى تدريباً عالياً على اللغة الإنكليزية، وكان ذلك شرطاً مسبقاً للتدريب المتقدم على الطيران. وبعد لاكلاند، أرسل بندر إلى قاعدة ميرتل بيتش الجوية في كارولينا الجنوبية، حيث كان يقود طائرة AT-33 كمدخل إلى التدريب على الطائرات المقاتلة، قبل الانتقال إلى قاعدة بيرن الجوية في تكساس لإتمام التدريب على الدفاع الجوي بطائرة F-102. ثم انتقل إلى قاعدة وليامز الجوية في أريزونا لبدء التدريب على المقاتلات التكتيكية بطائرة F-5A/B التي بدأ إدخالها إلى سلاح الجو الملكي السعودي في ذلك الوقت. وكان هذا التدريب جزءاً من برنامج تحديث "صقر السلام" (Peace hawk)، وهو برنامج تدعمه أميركا وبريطانيا، ومعدّ لتعزيز القدرات العسكرية السعودية، بغية تمكين المملكة من مواجهة التهديد المتزايد من دول على حدودها مدعومة من السوفيات. وقد لاحظ العقيد في سلاح الجو الأميركي بوب ليلاك، رئيس برنامج اختبار F-5 في "صقر السلام" ومدرب على قيادة طائرة F-5، أن "برنامج F-5 هو الذي زرع البذرة التي أتت أكلها في العلاقة بين الجيشين السعودي والأميركي"⁴. وقد أثبتت تلك الرابطة بالذات أنها ميزة حيوية في الأعوام التالية عندما انفجر الصراع في الخليج.

يعترف بندر أنه تعلّم درسه الأول في التواضع يوم وصوله إلى لاكلاند لبدء التدريب.



إلى جانب طائرة أف - 5

يقول متذكراً: "كنت طياراً حربياً مزهواً بنفسه... برتبة ملازم ثان. وكان يومي الأول في أميركا في سان أنطونيو، تكساس، وقررت الاتصال بالديار هاتفياً. في تلك الأيام لم يكن الاتصال المباشر متيسراً، فاتصلت بعاملة الهاتف. قلت: أود إجراء مكالمة مع المملكة العربية السعودية.

أحالت عاملة الهاتف بندر إلى عاملة الهاتف الدولي، فقال مرة أخرى: "أود إجراء مكالمة مع المملكة العربية السعودية".

سألته عاملة الهاتف: "أين تقع؟".

أجبت: "في الشرق الأوسط".

"أين؟ وسط الشرق؟".

"لا"، قال بندر: "الشرق الأوسط".

"ماذا؟".

"اسمعي يا سيدة"، قال بندر ثم سألها: "هل تعرفين أين إسرائيل؟".

أجابت، "نعم".

"حسناً، إلى الجنوب قليلاً من هناك"⁵.

في قاعدة لاكلاند الجوية التقى العقيد جو رامسي ببندر أول مرة. وأصبح رامسي، الذي كان آنذاك قائد تدريب، شخصية مهمة في حياة بندر وصديقاً دائماً له. وقد أوضح قائلاً: "عندما وصل الأمير بندر إلى لاكلاند، انضم إلى طلاب أجنبية آخرين سيتم تقييم مقدار إتقانهم للغة الإنكليزية... وكان جميع الطلاب الأجانب تقريباً يلتحقون بمدرسة اللغة، حتى لو كانوا ناطقين باللغة الإنكليزية، وذلك كي يألّفوا المصطلحات الأميركية".



بندر مع الكولونيل جو رامسي

يذكر العقيد رامسي أن بندر كان بحاجة إلى مصرف، فقدمه إلى مدير المصرف الذي يتعامل معه هو، وكان على مقربة من القاعدة، فقام الأمير على الفور بإيداع 5000 دولار عدداً ونقداً. ويقول العقيد: "أحدث ذلك انطباعاً حسناً عند رئيس المصرف فعرض عليه خدماته. لكن بعد يومين فقط، تلقيت مكالمة من مدير المصرف يقول فيها إن حسابه مكشوف. أبلغني، كانت هناك وديعة بقيمة 5000 دولار، لكنني تلقيت شيكات تصل قيمتها إلى 6000 دولار. لذا، اتصلت ببندر مستفسراً فقال لي لا عليك". وتابع العقيد: "في اليوم التالي أتى رجل من السفارة وتوجه بندر إلى المصرف وأودع 10,000 دولار. لذا اتصل بي مدير المصرف وقال إن الأمر كله عبارة عن سوء تفاهم. وبعد يومين اتصل بي مجدداً ليقول لي إن حسابه انكشف أيضاً، لا يمكننا التعامل مع هؤلاء الناس!". اتصل العقيد ببندر مرة أخرى، وقال الأمير: "لا تقلق". وختم العقيد، "في اليوم التالي أتى رجل من السفارة في واشنطن ومعه حقيبة مليئة بالمال، ففتحتها وقال لمدير المصرف، كم تحتاج لإبعاده عن المتاعب؟".

خالف بندر القانون في أثناء وجوده في تكساس عندما كان عائداً من دالاس إلى قاعدة بيرن الجوية. يروي الأمير القصة: "تأخرت في العودة ولم يكن ثمة أحد على الطريق السريع، وقلت لنفسي: من سينتبه للأمر؟ سأزيد السرعة قليلاً. فجأة، وعلى غير انتظار، رأيت مصباحاً وميضاً، فتوقفت جانباً. تقدم الشرطي المسن اللطيف وطلب مني الخروج من السيارة. أخبرني أنني كنت مسرعاً فاعتذرت إليه، لكنني أبلغته أنني لا أتقن التحدث بالإنكليزية فأنا أجنبي. لم يكن يعلم أنني أمضيت أربعة أعوام في كلية في إنكلترا. وقد وجدت صعوبة في تصنع اللكنة، ولم يكن عليّ أن أبذل جهوداً من أجل ذلك، فلهجتي، البريطانية، كانت مصطنعة على أي حال". غير أن الشرطي طلب منه إجازة القيادة فناوله بندر الإجازة كما ينبغي.

قلد الأمير بطريقة فكاهية كيف قام الشرطي بتقليب الإجازة مرة بعد أخرى وتفحصها وعلى وجهه علامات التساؤل قبل أن يقول: "أريد إجازة القيادة يا بني". أجاب بندر: "هذه إجازة القيادة يا سيدي". وكرر الشرطي القول بهدوء: "قلت أعطني إجازة القيادة". قال بندر: "فكرت في أن أوضح له حقيقة الأوراق، فقلت، هذه هي إجازة القيادة الخاصة بي، وهي تسمى إجازة قيادة دولية". وأضاف: "تابعت الشرح وقلت، كما تعلم، هناك ذلك النادي الدولي وبإمكان رعايا البلد

العضو في النادي قيادة سياراتهم في بلد آخر عضو في النادي نفسه. والولايات المتحدة عضو في هذا النادي". وتذكر بندر مبتسماً: "أصغى إليّ باهتمام وصبر شديدين، ثم نظر إليّ وقال، يا بني، دعني أقول لك شيئاً، قد تكون الولايات المتحدة الأميركية عضواً في النادي، لكن تكساس ليست عضواً فيه!"⁷.

بعد أن أنهى بندر تدريبه على الطيران في بيرن، انتقل على الفور إلى قاعدة وليامز الجوية لمتابعة دورة على قيادة طائرة F-5، التي ستكون العمود الفقريّ لسلاح الجو الملكيّ السعودي. بموجب برنامج "صقر السلام" السعودي - الأميركي. بدأ التدريب الإضافي يظهر في طيرانه، فقد تلقى جائزة توب غن (Top Gun) في سنة 1971، فائزاً بالجوائز الثلاث التي تُمنح في دورة التدريب على قيادة طائرة F-5: الجائزة الأولى أكاديمياً، والأولى جو-جو، والأولى أرض-أرض.

عندما عاد بندر من الولايات المتحدة إلى قاعدة الظهران الجوية في المملكة العربية السعودية في أواخر سنة 1971، اكتشف والطيارون الآخرون المدربون على طائرة F-5 أن سلاح الجو السعودي لن يتسلم طائرات "نورثروب أف - 5 إي تايفر 2" أميركية الصنع قبل ستة أشهر، وأنّ عليهم في هذه الأثناء قيادة الطائرات الاعتراضية السفّاثة الأسرع من الصوت "لايتنغ" بريطانية الصنع. أوضح بندر: "بريطانيا جزيرة صغيرة جداً... لذا صُمت هذه الطائرة لتطير على ارتفاع شاهق وبسرعة كبيرة، لكن لا يمكنها التحليق مسافة طويلة من دون إعادة تزويدها بالوقود. لكنّ المملكة العربية السعودية تعتبر قارة مقارنة ببريطانيا، لذا كانت العمليات مخيية للآمال؛ عليك أن تطير وتطلق الصواريخ وتتمّ العملية ثم تعود فوراً للتزود بالوقود مجدداً".

بينما كان بندر في الظهران، انتقل من طائرات "لايتنغ" ليصبح مسؤول العمليات في وحدة التحويل العملائي لطائرات F-5 إلى جانب العقيد جو رامسي، الذي انتقل إلى المملكة العربية السعودية أيضاً. وأكد رامسي ذلك بقوله: "كنت هناك عندما أدخلت طائرة F-5 الخدمة، وتبين أن بندر هو الطيار الأول الذي يعمل معنا في مشروع F-5 صقر السلام"⁸. وأوضح المقدّم في سلاح الجو الأميركي كيث فيلبس، الذي خدم في المملكة كمستشار في طائرات F-5: "عندما أحضرنا طائرات F-5، ظهر بندر في محطة الوصول بعد أن تسلّمنا الطائرات الست الأولى



طليح الدورة، بندر يفوز على الجميع
خلال التدريب على أف - 5

من طراز F-5B. وكان جعل هذه الطائرة مألوفة لدى سائر وحدات سلاح الجو السعودي جزءاً من برنامجنا، ولذلك انتقلنا بها إلى جميع القواعد". أوضح فيليبس ملاحظاته بالتفصيل قائلاً: "جمعنا فريقاً مخفّفاً جداً للحركات البهلوانية الجوية. كان لدينا رفّ من أربع طائرات وطائرة منفردة، كان كل ذلك أساسياً جداً. ولدينا طيارون مدربون في المقاعد الخلفية وكنت أقود الرف المكوّن من الطائرات الأربع". يذكر فيليبس أنّه كان يطير مع بندر لأول مرة: "قلت له، هذا ما يجب أن تعتاد عليه. كنا نظير على ارتفاع مئة قدم تقريباً، فقلبت

الطائرة رأساً على عقب، وهذه حركة مربكة قليلاً لمن لم يؤدّها من قبل". يقول فيليبس: "إنه سريع التعلّم، وقد أدى الحركة بصورة جيّدة جداً، لكن كانت لديه رغبة في تجاوز سرعة الجاذبية الأرضية. يكفي القول إننا منعه من ذلك".

بعد أن زوّد الطيارون الآخرون بالمعلومات، قدّمت الطائرات الخمس عروضاً جوية في أجواء عدة مطارات سعودية. وقال فيليبس: "في تبوك، قدّمنا عرضاً للملك فيصل في ذكرى القوات المسلحة، وكان الملك قد دعا الملك الأردني الحسين. وفيه طيّر بندر غترتيهما عن رأسيهما". وقال موضحاً: "ضمّ عرض القوات المسلحة دبابات ومظليّين وطائرات، وجرى في ساحة مناورات صحراوية واسعة جنوبي تبوك. كانت هذه الساحة تستخدم لعرض المعدات العسكرية السعودية، لذا أقيمت منشأة ضخمة شبيهة بمدرّج مسرحي، وذات مظلة كبيرة ربما بلغ طولها خمسين إلى سبعين قدماً". وتابع المقدّم: "تمرّنا عدة أيام ودجّنا طائرات F-5 مع طائرات لايتنغ في تشكيلات مختلفة. وفي العرض الختامي، نظمنا الطائرات لتحلق في تشكيل على شكل حرف F، الحرف الأول من اسم الملك فيصل. كان العقيد بحيري يقود ذلك التشكيل وكان يفترض أن يكون على ارتفاع ألف قدم محلقاً من الجنوب إلى الشمال. وكان على بندر أن يأتي من الشمال، في الاتجاه المعاكس، ويطير تحت الطائرات الأخرى. وكان العقيد عبد الله يقود الرفّ الثاني من طائرات F-5 التي تبعها رف من طائرات

لايتنغ". ويذكر فيلبس: "كان على كل رفّ الطيران في تشكيل ماسي الشكل. وقد نفذنا أربع جولات تقريباً، بينما كان بندر يحلق منفرداً، وكانت مناورته الأخيرة الطيران تحت التشكيلات المجمعة".

يتابع فيلبس: "حلق التشكيل الأخير على ارتفاع ألف قدم بحيث يكون أمام بندر مجال كاف. لكن فيما كان التشكيل مقبلاً أخذ ينخفض شيئاً فشيئاً؛ اتصلت ببحري وقلت أيها القائد، انتبه لارتفاعك! كنت في المقعد الخلفي مع فهد بن عبد الله في الرف الثاني، وقلت في نفسي، يا إلهي، إنه ينخفض كثيراً. كان على بندر أن يطير تحته، لكنه تأخر قليلاً وشغل الحراقين الخلفيين^(*). وكان في وسعه رؤية التشكيل أمامه، لكن التشكيل استمر في الانخفاض، فاضطر بندر إلى الانخفاض بدوره ليتمكن من الطيران تحت التشكيل كما هو مقرر".

أعاد فيلبس رواية ما حدث قائلاً: "تمكن بندر من المرور تحت التشكيل، لكنه كان منخفضاً جداً لدى مروره فوق المنصة. وقد أحدثت الدوامات الناجمة عن طائرته فوضى عارمة: تطاير السجاد الفخم، والأزهار، والكراسي، والملابس في أرجاء المكان، وطار غترتا الملكين عن رأسيهما. وأنا أعني ما أقول، لقد طارت غترتاها في الحال! لم أكن أعرف أن هذا ما حدث لكنني سمعت المراقب يقول، يا إلهي - كان هذا رائعاً! ثم سمعت بالإنكليزية، هنا الجنرال زهير، قائد سلاح الجو، أوقفوا العرض! هنا الجنرال زهير، أوقفوا العرض. سألت نفسي ماذا حدث؟ لم يكن باستطاعتنا أن نعرف لأننا كنا في الجو وانتهى العرض على أي حال. وهكذا هبطنا جميعاً واصطفت الطائرات وأفراد أطقمها. ثم أقبل الملك في سيارة جيب مكشوفة ومعه الملك حسين للاستعراض وأدى أفراد الأطقم كلهم التحية لهما عند مرورهما بهم".

تابع فيلبس: "عندما وصلا إلى طائرة بندر، توقفا وترجل الملك حسين وتوجّه إلى بندر وصافحه، فخفف بذلك عنه شيئاً من الضغط. كان الأمير سلطان بين الجمع وقال لبندر، ستحاكم عسكرياً؛ وستمنع من الطيران". وأضاف فيلبس: "عقب حركة الطيران التي أداها بندر، أدرك أنه في ورطة عصبية، وعندما تحدث إليه لاحقاً عن

(*) في مصطلح الطيران، يقوم الطيار في سياق إعادة التسخين بتشغيل حراق خلفي، وهو مكون إضافي في بعض المحركات النفاثة، يعطي طاقة إضافية كبيرة لمضاعفة سرعة الطائرة لمدة محددة من الوقت.

الحادثة، قال مازحاً، ارتقيت بشكل عمودي وارتفعت إلى أقصى ما استطعت. قلت في نفسي، سأقفز من طائرتي وإذا أكرمني الله ستدفعني الريح إلى إسرائيل". وختم فيلبس، وهو يضحك: "كان يعلم أنه أفسد الأمر"⁹. لكن، على الرغم من وقوع الأمير في حرج شديد، فإنه اختير بكياسة لدورة أخرى في الولايات المتحدة وطوى النسيان الحادثة في غيابه.

في أثناء الخدمة في الظهران، كان بيت بندر الأول مبنى صغيراً من طبقة واحدة، وقد بناه بأحجار خرسانية. لكنّه استخدم تقنية بناء غير عادية: كدّست الأحجار بعضها فوق بعض بشكل عمودي، ودقّت فيها قضبان الفولاذ لتثبيتها، وأخيراً، صبّت الخرسانة في ثقب في الحجارة، ثم كسيت. وقد لاحظ جو رامسي أن "بوسع البيت تحمّل هجوم نووي"¹⁰. وعلى نحو مغاير لمساكنه الرحيبة والفخمة في الأعوام اللاحقة، كان هذا البيت الأول صغيراً ومتواضعاً، لكنه يفي بنمط حياته في ذلك الوقت، حياة طيار شاب، متزوج حديثاً وعازم على إثبات نفسه كعضو في فريق منسجم من الطيارين الزملاء. في ديسمبر 1972، تزوج بندر بصاحبة السمو الملكي الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز آل سعود، إحدى بنات العاهل السعودي الملك فيصل. وعند عودتهما من شهر العسل وكانت الأميرة حاملاً بابنتهما الأولى. مارست الأميرة هيفاء الدور التقليدي للزوجة السعودية، فنهضت بأعباء الواجبات المنزلية وتربية الأطفال.

في سنة 1973، رُقي بندر إلى رتبة نقيب. فقد صقل مهاراته في الطيران بعد تدريبه على الطيران في كرانول، والتدريب كطيار حربيّ متقدّم في الولايات المتحدة، وإعادة التدريب على طائرة F-5. وأصبح - بالتعبير السعودي - طياراً متمرساً نسبياً وعلى أتم الجهوزية لتأدية مهمات.

أدخلت حرب أكتوبر 1973 الشرق الأوسط في صراع واسع النطاق، حيث هدّدت القوات المصرية والسورية باكتساح إسرائيل في هجوم مفاجئ. ومع بداية الأعمال العدائية، من دون علم البلدان الغربية، بما فيها الولايات المتحدة، وافق سلاح الجو الملكي السعودي على مؤازرة المحجوم المصري والسوري على إسرائيل، وأعطى تفويضاً بمهمّة لعشر طائرات F-5 "هجومية ضاربة" بقيادة بندر. في هذا الوقت، كانت القوات الإسرائيلية تتراجع إلى حدود ما قبل 1967. وبذلت الإدارة الأميركية



في حالة الاستنفار خلال حرب
أكتوبر

المستنفرة، بقيادة وزير الخارجية هنري كيسنجر، جهوداً محمومة في محاولة للتفاوض على وقف إطلاق نار لحماية إسرائيل ضمن حدود 1967.

كانت المهمة الخاصة التي تدرّب عليها بندر وفريقه تضمّ خمسة أطقم متمرّسة، كُلفت بشن هجمات على علو منخفض بالنابالم على منشآت النفط والتكرير الإسرائيلية، تليها خمسة أطقم أقل خبرة تتابع القصف بقنابل حارقة. وخلصت التحليلات المستندة إلى محاكاة المهمة إلى أن طياراً واحداً فقط سيعود، على الرغم من أن المهمة

ستنجز. توجه بندر وزملاؤه والطيارون إلى المدرج وهم مقتنعون تقريباً باحتمال ألا ينجو في هذه المهمة سوى شخص واحد.

وصف بندر العملية، قائلاً: "كنا - نحن العشرة المؤهلين - نقلع ونتمرن على مهمتنا. كانت هناك خمس طلعات بقنابل شديدة الانفجار، وخمس طلعات بقنابل حارقة تتم بالتحليق خلف البحرين ثم الالتفاف، والوصول إلى الشاطئ على علو 30 قدماً فوق سطح البحر - وهي مناورة صعبة - ثم إسقاط قنابل نابالم على هدف في المملكة العربية السعودية محاك لإيلات". ولاحظ بندر: "كنا نتوقع أن يكون احتمال الإصابة 9 إلى 1. وبالتالي سيتعرض تسعة من الطيارين العشرة للقتل مع احتمال عودة طيار واحد حياً. وهكذا كانت خطتنا تقضي إذا تعرضت أي طائرة للإصابة أن ينعطف طيارها إلى اليمين بحدة ويعد حتى العشرة، ثم يقفز من الطائرة، لأنه سيكون عندئذ في أجواء الأردن. كانت المسافة قريبة جداً. لماذا إيلات؟ لأن في إيلات مخزن وقود إسرائيلي ضخماً - وحرمانهم منه يؤدي إلى تعطيل آلتهم الحربية". وأوضح بندر أنهم تدرّبوا على المهمة كل ليلة، لكن لم يكونوا في السرب، على علم بموعد تنفيذ المهمة الحية الحقيقية. قال: "لذا كانت تلك الليلة، وكل ليلة، تمريناً حياً".

يقول بندر، قبل الانطلاق: "كنت أشعر بخوف شديد، ومع ذلك عازماً على إنجاز المهمة. تقدّمت رقي إلى نهاية المدرج وانتظرت الإذن بالانطلاق. بدت اللحظة دهنراً. أذكر كيف كان العرق يتصبّب على وجهي، وكانت ركبتي تترجفان رغماً

عني". غير أن الأمر بالانطلاق لم يصدر قط. ولم يعرف بندر السبب إلا بعد ثلاثين عاماً.

ففي أثناء جولة لإلقاء الخطب في الولايات المتحدة في سبتمبر 2003، كان بندر يقرأ كتاب هنري كيسنجر، "الأزمة: تحليل أزميتين كبيرتين في السياسة الخارجية"، حول جهوده لتحقيق وقف إطلاق النار خلال حرب 1973. وتذكر بندر كيف أن إدارة نيكسون قالت للمصريين: "إذا واصلتم الحرب، فسناعد الإسرائيليين؛ لن نسمح البتة أن تُهزم إسرائيل. سننشئ جسراً جويّاً إلى أن يربحوا". ثم لاحظ "أن ذلك حدث تقريباً عندما كان يُفترض أن ننفذ مهمتنا. لقد بلغنا نهاية المدرج استعداداً للانطلاق. كنّا نوشك على تنفيذ الهجوم الحقيقيّ حين تلقينا أمر الإلغاء في اللحظة الأخيرة".

وعلق بندر، الواقعي دوماً، بالقول: "لذا عدنا أدراجنا، ولا بد أن أقول لك إننا تفاجأنا جميعاً، إذ في مثل هذه الظروف كنّا كلنا ننفخ ونلهث ونتصبّب عرقاً. ما من شجاعة في الحرب، صدقني، إلا بعد خوض غمارها، وبخاصة إذا لم يذق المرء طعمها ويحسب أنه ذاهب إلى حتفه. وكل الهراء الذي تشاهده في الأفلام السينمائية غير صحيح. حينما عدنا إلى السرب، قيل لنا إن المهمة ألغيت. وأصارك القول إنه ما من أحد في الغرفة كان غير سعيد".

عندما أجريت مقابلة مع هنري كيسنجر، طرحت عليه السؤال التالي: "هل عرفت أنك في يوم ما أنقذت حياة الأمير بندر ذات يوم؟" ثم كشفت له أن بندر كان



هنري كيسنجر

على وشك قيادة هجوم جويّ شبه انتحاريّ على منشأة نفط إسرائيلية مع انعدام احتمال عودته حياً من تلك المهمة. وأن المهمة لم تُلغ إلا بسبب جهود كيسنجر للتفاوض على وقف إطلاق النار.

حتى ذلك الحين، كان كيسنجر جالساً باسترخاء على كرسيّه، وكان يغلّق عينيه المبطّنتين وهو يصغي باهتمام، مجيئاً عن أسئلتني بصوته العميق. فجأة، اعتدل في جلسته، والتمعت عيناه، وبدأت عليه علامات الصدمة بفعل ما بحت به. قال

متعجباً: "لم أكن أعلم البتة أن السعوديين يوشكون على دخول الحرب"¹¹. ولم تكن أميركا تعلم أيضاً.

غادر جو رامسي المملكة العربية السعودية في أغسطس 1973، قبل اندلاع حرب 1973. لكن قبل رحيله، طلب منه بندر القيام بالترتيبات اللازمة كي يعود إلى الولايات المتحدة لتلقي مزيد من التدريب، وبالتحديد لقيادة طائرة F-5E الجديدة التي كانت آنذاك تدخل الخدمة في سلاح الجو الملكي السعودي. يذكر رامسي: "قال، عليك أن تضع لي برنامجاً متكاملًا. وضعت له سلسلة مقترحة من التدريبات. على أي حال، عاد بندر وهيفاء إلى سان أنطونيو". وبالتالي، انتقل بندر مجدداً إلى الولايات المتحدة في سنة 1974، حيث التحق بمدرسة ضباط الأسراب في قاعدة ماكسويل الجوية في ألاباما، وتابع دورة تدريب للطيارين (PIT) في قاعدة راندولف الجوية في تكساس. والتحق أخيراً، بدورة تدريب على قيادة F-5E في قاعدة وليامز الجوية قرب فينكس، أريزونا¹². وهناك التقى للمرة الأولى بالعقيد بوب ليلاك، صديقه الحميم اليوم، الذي كان رئيس برنامج اختبار طائرة F-5E في قاعدة وليامز الجوية.

عندما انتهت الدورات التدريبية، عاد الأمير إلى الظهران في سنة 1975 كقائد سرب في وحدة التحويل العملائي لطائرة F-5، ومسؤول عن تدريب طيارين سعوديين على قيادة طائرة F-5. وعُين أيضاً مسؤولاً عن مشروع "صقر السلام" لتنشيط طائرات F-5 في قاعدة خميس الجوية التابعة لسلاح الجو الملكي السعودي، ونجح في التنسيق مع العاملين الأميركيين في "صقر السلام" لإدخال الطائرة الجديدة إلى سلاح الجو الملكي السعودي وتدريب طياريه. وأدى دوراً مماثلاً في قاعدة مشيط الجوية من 1976 إلى 1977، فطور مهاراته في الطيران فيما كان يعمل على ضمان وصول سلاح الجو الملكي السعودي إلى أرقى المستويات العملائية.

في ذلك الوقت، أصبح مشاركاً في عملية شراء غير عادية للمعدات بعد لقاء عرضي مع اللورد مونبتان في صالة الشخصيات المهمة في مطار هيثرو. يذكر بندر كيف أن رجلاً مسناً انضم إليه في الصالة وراح يستجوبه.

"من أنت؟ أنا مونبتان".

أجاب بندر: "أعرفك يا حضرة اللورد. لقد ألقيت محاضرة في كرانول يوم كنت طالباً فيها".

وعندما اكتشف مونتباتن أن بندر من المملكة العربية السعودية، سأله: "ما هي العلاقة التي تربطك بالعائلة المالكة؟".

أجاب بندر المتهيب: "أنا واحد منها".

وبلكنة بريطانية راقية، قال مونتباتن: "جيد، جيّد. لقد جبت كل أنحاء العالم، ما عدا المملكة العربية السعودية".

أجاب بندر بسذاجة: "إتني واثق أنك ستكون على الرحب والسعة حين تزور المملكة العربية السعودية".

ردّ مونتباتن: "نعم، سيكون ذلك جيّدًا جدًّا... هل لديكم طوافات (هوفر كرافت)؟ ينبغي أن تكون لديكم طوافات! هل تعلم أن الطوافات بريطانية، وأن إحداها سُميت مونتباتن؟ إذا جئتُ إلى المملكة العربية السعودية، سأُتحدث مع جماعتك عن شراء طوافات".

غاب أمر اللقاء عن بال بندر إلى أن استدعي بعد نحو شهرين إلى وزارة الدفاع في الرياض على الفور. وظنًّا منه أنه في ورطة ما، عاد كما يجب إلى عمه، الأمير تركي، نائب وزير الدفاع آنذاك، فاتفقه بدعوة مونتباتن لزيارة المملكة العربية السعودية. قال الأمير: "لم أدعُ اللورد مونتباتن"، فقبل له: "لقد بعثت السفارة البريطانية رسالة إلى الديوان الملكي مفادها أن اللورد مونتباتن يود إبلاغ جلالته والديوان الملكي أنه يقبل الدعوة التي وجهها جلالته إليه من خلال الأمير بندر،

الضابط في سلاح الجو السعودي". وعلى الرغم من إنكار الأمير ذلك مرارًا، فإنَّ الأمير تركي أبلغه: "لقد وقع الضرر. سيصل في الأسبوع التالي كضيف على جلالته في الرياض، عليك أن ترافقه طوال رحلته". رد بندر: "حسنًا، لكن صدّقني، لم أفعل شيئًا".

في الحديث عن تلك الزيارة، قال بندر: "حين وصل مونتباتن، أمضيت وقتًا ممتعًا، كان أشبه بكتاب تاريخ يمشي على قدمين. فإذا ذكرت اسم أيزنهاور، يبادرك بالقول أبلغني آيك كذا وكذا...



مونتباتن بورما

وإذا ذكرت اسم باتون، يقول لك، آه، أبلغني جورج كيت وكيت... والأمر نفسه بالنسبة إلى مونتغمري وتشرشل، وما إلى هنالك. لقد علمني في التاريخ، في يوم ونصف اليوم، أكثر مما تعلمته طوال حياتي".

من نتائج زيارة مونتباتن أن المملكة العربية السعودية وافقت على شراء الطوافات.

بين 1977 و1978، أصبح بندر قائداً للسرب رقم 3 الذي يضم طائرات F-5 في قاعدة الطائف الجوية، وفي تلك الفترة كافأه سلاح الجو الملكي بميدالية الصقر تقديراً لمهارته في الطيران والقيادة. وعُين بعد ذلك قائداً للسرب رقم 15 الذي يضم طائرات F-5 أيضاً في قاعدة خميس مشيط الجوية، مع احتفاظه بمسؤوليته في مشروع "صقر السلام".

غير أن بندر تعرض في سنة 1977 لحادثة طيران سببت له مشكلات دائمة في ظهره. كان عمله الأخير قائداً لوحدة التحويل العملاقية ومدرباً رئيسياً؛ وكانت لديه معايير صارمة، ويصرّ على التقيد الحرفي بإجراءات السلامة. وكان لا ينثني يردد في تعليماته الوجيهة لطياريه في صباح كل يوم: "أنتم أكثر قيمة من كل هذه المعدات. لذا، عندما يعتريكم الشك، اذفوا بأنفسكم خارج طائراتكم".

في نقاش عامّ على مأدبة عشاء مع أصدقاء في مكين، في فرجينيا، توقف بندر عند حادثة خالف فيها قواعده بشكل واضح جداً. فذكر أن السرب كان يؤدي دوريات روتينية فور انتهاء شهر رمضان. وقد أعطيت الأوامر إلى اثنين من طياريه بالتحليق فوق معرض جوي في أها وتأدية بعض الحركات البهلوانية. وأوضح أن الأمر كان ببساطة عرضاً عاماً يقتصر على التحليق على علو منخفض فوق المطار ثم الهبوط. إلا أن أحد الطيارين أصيب بوعكة صحية وكان لا بد من بديل، فقرر الأمير المشاركة في المهمة "كرقم 2".

كانت جولة خالية من الحوادث المهمة، وبعد عودته، قال بندر: "تهيات لاستخدام الكوابح واخترت إنزال العجلات، لكن لم يحدث شيء، لذا طلبت القيام بمناورة هبوط بحيث أقرب من أرض المدرج وأسرع في الابتعاد عنها. ثم طلبت من الرقم 1 أن يتفحص الطائرة فيما حاولت إعادة تشغيل عجلات الهبوط. لم يحدث شيء أيضاً، وقيل لي إن أبواب العجلات مفتوحة جزئياً". وتابع بندر روايته والجدية

بادية على وجهه: "في هذه المرحلة يجدر التأكيد على أن إيروديناميات الطائرة F-5 لا ترحم، وهي تتطلب الهبوط بزاوية حادة في مواجهة الرياح. وكانت قواعد سلامة الطيران بسيطة: إذا لم تستطع إنزال العجلات، فلا خيار أمامك سوى القفز من الطائرة".

وأوضح الأمير: "عند مواجهة الرياح بزاوية عالية، تفقد الطائرة سرعتها، ولهذا السبب كانت تعليماتي لكل طيار، في الأعوام السبعة الماضية، لا تحط بالطائرة البتة إذا لم تنزل العجلات". ووفقاً لاعتراف بندر: "وقف الأنا بالمرصاد. وحدثت نفسي، إني مدرب متمرس في هذا النوع من الطائرات وأنا أيضاً الطيار الانفرادي البهلواني في سلاح الجو السعودي. ومع أنني أعرف أن عليّ القفز من الطائرة، قلت في نفسي، الهبوط متعذر، لكن إذا تمكنت من ذلك، أكون إذ ذاك الرجل الرجل!".

أوعز بندر إلى برج المراقبة أن يفرش المدرج بالرغوة. لكن ما إن بدأوا بتلك المهمة، حتى عادت طائرة لايتنغ وطلبت توجيهات الهبوط النهائية. ولما كانت هذه الطائرة في وضع حرج بسبب نفاد وقودها، قرّر بندر بصورة اعتباطية أن ذلك الطيار بحاجة إلى الهبوط أولاً وأوعز بوقف فرش الرغوة، وهبطت طائرة لايتنغ بسلام. غير أن بندر أوضح: "نفد الوقود لديّ أيضاً لكنني بقيت عازماً على الهبوط. اقتربت من المدرج بسرعة أعلى من المعتاد، ما سمح لي بخفض زاوية الهبوط. لكن عندما لامست الأرض أوقفت عمل المخرق. فحطت الطائرة بكل ثقلها وسط سحب من الدخان والغبار، زاحفة على طول المدرج".

كان الارتطام شديداً وحاول بندر الخروج من الطائرة لحظة توقفها، غير أنه تذكر بشيء من الأسى: "أدركت أنني لا أستطيع تحريك ساقي اليمنى وأني فقدت الإحساس بها. وكان أول الواصلين إليّ رئيس طاقمي، فسحبني من قمرة القيادة وساعدني على دخول سيارة الإسعاف". وعلى الرغم من أنه أمر السائق أن يأخذه إلى المستشفى، فإنه أصرّ على عدم إطلاع الأركان على الهبوط العسير. واعترف بالقول: "كنت أخشى من أن أخسر تصنيفي في الطيران فأصررت على أن يجروا فحوصات على أسفل الظهر، وكنت لا أزال فاقد الإحساس بساقي اليمنى. خرجت من المستشفى في وقت لاحق، على الرغم من أن ساقي لا تزال خدرة. وكان شغلي الشاغل وقتذاك الخوف من أن توقفني الإصابة عن الطيران".

كانت مخاوف بندر في محلها: فقد أدى ذلك الهبوط العسير في سنة 1977 إلى وضع حدّ لمهنته كطيار في آخر الأمر، وإن ليس على نحو فوريّ أو مباشر. لكن ما حدث بعد ذلك ستكون له نتائج بعيدة الأثر، أبعد من أي شيء كان يمكن أن يفعله كطيار حربيّ.

في سنة 1978، عاد بندر إلى قاعدة الظهران الجوية ورقّي إلى رتبة رائد، وأصبح قائداً للسرب رقم 7 الذي يضم طائرات F-5، ولم يكد يستقرّ في هذه المهمة حتى انغمس على نحو غير متوقّع في مساعدة فريق سعودي في واشنطن، دي سي، وعمل على توفير العون والمعلومات إلى إدارة كارتر لتأمين موافقة الكونغرس على بيع 60 طائرة F-15، أكثر المقاتلات تطوراً في العالم في ذلك الوقت.

عندما دخل بندر كرانول أول مرة، كان كل ما يريده، وفق اعترافه هو، أن يصبح طياراً حربيّاً. بيد أن هناك بعض الأشخاص الذي يرون سبيلهم في الحياة من منظور ضيق: هؤلاء هم العمال. لديهم دور، سواء أكان في الصناعة، أم التجارة، أم المجتمع، أو القوّات المسلّحة. ويترقّون من مرتبة إلى أخرى؛ همّهم الوصول إلى أفضل منصب ممكن. لكن هناك أشخاصاً آخرين يستطيعون الرؤية خارج هذا الإطار وفي وسعهم تحيّل الصورة بأكملها. إنهم يدركون أن التقدّم لا يتحقق إلا بتجميع قطع الصورة المتباينة لأصحاب الرؤية الضيقة: هؤلاء هم القادة. وهم يستغلون قدراتهم للقيادة سواء أكانوا مديري شركات، أم رجال دولة. لكن ثمة حفنة فقط من الأشخاص الأفذاذ الذين يتجاوزون هؤلاء ويستطيعون التأثير في الأحداث على النطاق العالمي. وقد حرص بندر، منذ انضمامه إلى سلاح الجو الملكي السعودي، على كسب أكبر قدر ممكن من الخبرة، فقاد عدداً من أنواع الطائرات والتحق بدورات مختلفة في الولايات المتحدة. ولم يكن يزيد معارفه فحسب، بل يطور أيضاً حلقة واسعة من الأصدقاء في بلد قوي جداً.

حين قدم بندر لترؤس الفريق السعودي في واشنطن، والسعي للحصول على طائرات F-15، كانت تلك خطوته التجريبية الأولى في السياسة. وعندما ابتعد عن قيادة الطائرات، لم يعد في وسعه العودة.

كان تاريخ مبيعات الأسلحة الأميركية للمملكة العربية السعودية مضطرباً. وكما أوضح بندر: "في عهد كينيدي، أردنا شراء طائرات F-104 ستارفايتر لأن المصريين

والروس كانوا في اليمن آنذاك ونشروا طائرات ميغ 21 هناك. كانت لدينا طائرات F86 فقط ونريد طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت لمواجهتهم. غير أن كنيدي لم يستطع إقرار الصفقة في الكونغرس. وأشير علينا أننا إذا عقدنا صفقة مع البريطانيين، فإن أميركا لن تعترض عليها، ومن ثم جرى التفاوض بشأن صفقة لايتنغ وهنتر". وتابع الحديث: "قال الأميركيون للمملكة المتحدة، سنبيعكم طائرات F-111 و C-130 مقابل بيعكم طائرة لايتنغ لسلاح الجو الملكي السعودي. وهكذا حصلت المملكة المتحدة على الطائرات F-111 و C-130 وحصلت المملكة العربية السعودية على طائرات لايتنغ - تدعى بساط الرياح - في صفقة كاملة".

في ذلك الوقت، كانت أميركا تحاول بيع الطائرات الضاربة F-111 وطائرات الشحن C-130 للمملكة المتحدة، إلا أن ميزان مدفوعات المملكة المتحدة غير المؤاتي أعاق المضي في إتمام الصفقة. غير أن قيام المملكة العربية السعودية بشراء طائرات لايتنغ وهنتر وفر للمملكة المتحدة السيولة النقدية اللازمة لعملية البيع. وقد استُنبط الحل لمعرفة الأميركيين أنه إذا لم يستطع السعوديون الحصول على ما يريدون، فإنهم سيشترون طائرات ميراج 3 الفرنسية. وقال بندر: "لم يرد البريطانيون والأميركيون حدوث ذلك. لذا انتهى الأمر بحصول كل طرف على ما يحتاج إليه. حصلنا نحن على طائرات لايتنغ التي تبلغ سرعتها 2 ماك (ضعفا سرعة الصوت)، وحققنا أيضاً هدفنا الاستراتيجي في مواجهة الروس. وحصل البريطانيون على طائرات F-111 و C-130، وحصل الأميركيون على صفقتهم". وأضاف بندر مبتسماً ابتسامة عريضة: "ولم يحصل الفرنسيون على أي شيء".



الرئيس جيرالد فورد

وأعاد بندر رواية تسلسل الأحداث الذي أوقع كارتر في مأزق محاولة التوفيق بين مصالح إسرائيل ومصالح الأمن القومي فقال: "زار الرئيس نيكسون المملكة العربية السعودية ومصر سنة 1974، ووافق على بيع المملكة طائرات F-15. لكنه استقال بعد ذلك وبسبب استقالته، تعطلت الصفقة. وتلاه فورد في الحكم، ففاتحناه في الأمر. ووافق فورد، لكنه طلب التأجيل إلى ما بعد الانتخابات. لقد قطع على

نفسه عهداً لا يتحقق إلا إذا أعيد انتخابه. وعندما خسر فورد في الانتخابات، توجهنا إلى كارتر، وقلنا، لقد وعدنا فورد، هل يمكنك التنفيذ؟ فقال، أمهلوني بعض الوقت". ومن دون علم السعوديين، ازداد موقف الرئيس تعقيداً عندما تقدمت إسرائيل بطلب سري في يوليو 1977 للحصول على 150 طائرة F-16 و 25 طائرة F-15.

إن مفتاح فهم العوائق، والاعتراضات، والرفض المتكرر الذي واجه محاولة بيع أسلحة متطورة للمملكة العربية السعودية هو العلاقة الخاصة القائمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. فالفهم الدقيق لطريقة عمل النظام السياسي الأمريكي، ووجود مجموعة ضغط فائقة الفاعلية والتنظيم تتخذ شكل لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك AIPAC)^(*)، يمدان إسرائيل بنفوذ واسع في السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط. وهيأت هذه العلاقة لإسرائيل فرصة لا نظير لها للحصول على أحدث أنظمة الأسلحة والتكنولوجيا الأمريكية. وتمتد الولايات المتحدة تاريخياً لإسرائيل بأنظمة أسلحتها المتطورة بما يضمن لها تفوقاً عسكرياً بالغاً في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن موقف إسرائيل غير منيع على نحو فريد، فإن مزيج القدرة العسكرية الفائقة والاعتراف الأمريكي بشرعيتها السياسية وفر الحماية للحق اليهودي في إعادة الاستقرار في الوطن التوراتي.

من الأمثلة الواضحة على حق إسرائيل في الحصول على أفضل معدات عسكرية التطوير والتوزيع المبتكرين للطائرة F-15 إيغل. فهذه الطائرة، المصممة لتكون أكثر النفاثات الهجومية تطوراً في العالم، وأولى الطائرات المخصصة للقتال الجوي منذ طائرة الحرب الكورية F-86 سابر، لم تسجل أرقاماً قياسية في السرعة والارتفاع فحسب، وإثماً أيضاً عبرت المحيط الأطلسي من دون توقف ومن دون إعادة التزود بالوقود¹³. وهي من صنع شركة "ماكدونل دوغلاس" ويتحكم بها نظام معلومات طورته شركة IBM، وأول طائرة حربية على الإطلاق ذات نظام تحكم رقمي بالكامل، وقد بلغ

(*) تأسست اللجنة الأمريكية الصهيونية للشؤون العامة (AZCPA) في 22 مارس 1954. وقد أعيدت تسمية هذه المنظمة لاحقاً بلجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية "أيباك" (AIPAC)، وذلك في سنة 1959، وأنيطت بها مهمة "تنسيق وإدارة الأعمال العامة بالنيابة عن الحركة الصهيونية الأمريكية، والتأثير في العلاقات مع السلطات الحكومية، بغية المحافظة على الصداقة المتعززة وحسن النوايا بين الولايات المتحدة وإسرائيل". و"أيباك" هي الهيئة الوحيدة الموجودة في أميركا والمسجلة لدى الكونغرس لممارسة الضغط والدعاية في ميدان العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية.

سعر الطائرة الواحدة منها 30 مليون دولار بالتمام والكمال. وعندما خرجت طائرات F-15 الأولى من خط الانتاج سنة 1976، ذهبت إلى سلاح الجو الأميركي بالطبع، وذهبت الدفعة الثانية من 25 طائرة إلى إسرائيل مباشرة.

غير أن إسرائيل لم تكن البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي يتمتع بعلاقات ودية خاصة مع الولايات المتحدة. فثمة علاقة مستترة قائمة بين أميركا والدول العربية الحديثة المنتجة للنفط. وكان كل من الرئيسين نيكسون وفورد يدركان تماماً هذا الانسجام، الذي ترجع أسسه إلى "النفط مقابل الأمن"، وهي معادلة تشكل المبدأ المركزي للعلاقة الأميركية السعودية التي وفرت مكاسب ملموسة لجميع الأطراف المعنيين. وعلى الرغم من الاختلافات الدينية، فإن المصالح الاستهلاكية صاغت رابطة تعود بالمنفعة المتبادلة على الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية.

لكن عندما قرر الرئيس فورد التوصية ببيع صواريخ جو - أرض متطورة من طراز "مافريك" للمملكة العربية السعودية في سنة 1976، بغية تأمين تأييد المملكة لخفض أسعار النفط داخل منظمة الأوبك (منظمة البلدان المصدرة للبترول)، واجه معارضة شديدة من أيباك. ومرّ اقتراحه بصعوبة بالغة. وعلى الرغم من موافقة فورد على مساندة الطلب السعودي لطائرات F-15 إذا أعيد انتخابه، فإنه اختار إرجاء عرض الصفقة على الكونغرس إلى ما بعد نتائج تلك الانتخابات.

إنّ ما جعل اقتراح بيع طائرات F-15 المثير للخلاف إلى المملكة العربية السعودية يحدث ضجة كبيرة هو أنّها المرة الأولى في التاريخ الأميركي التي لا يضطر فيها الرئيس فيها إلى الإقرار صراحة بهذه الصداقة واحترامها فحسب، وإنما العمل أيضاً تبعاً لمصالحها المباشرة، على الرغم من مصالح إسرائيل. هنا بالضبط، يكمن المغزى الحقيقي لمبيع F-15 وللضغط الشديد الذي مورس في واشنطن قبل التصويت على تلك الصفقة في الكونغرس. وقد عبّر سيث تي. ثيلمان عن ذلك بصراحة: "تجاوزت المسألة شكليات التوازن العسكري، وبلغت حد الإحاطة بالجوانب السياسية والنفسية للعلاقات الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وبين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة"¹⁴. وقد عجلّ الطلب السعودي شراء طائرات F-15 بحدوث نقاش يخضع العزم الأميركي في الشرق الأوسط لامتحان غير عادي. ومع ذلك لم يكن الطلب خطوة غير محسوبة تقدم عليها المملكة، فقد قدّمت الإدارات المتعاقبة كل

الإشارات على أن الصفقة ستحظى بالموافقة. فخلال زيارة رسمية إلى المملكة العربية السعودية سنة 1976، تعهد وليام بي. كليمنتس جونيور، نائب وزير الدفاع في عهد الرئيس فورد، أن تساعد الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية في أن تستبدل بطائراتها القديمة أي طائرات مقاتلة أميركية يطلبها السعوديون. لذا لم يكن من المفاجئ أن تطلب المملكة الأفضل، وهي البلد الثري والغني بالنفط والمنغمس في بوتقة صراعات الشرق الأوسط. ومن المثير للاهتمام، ما قيل عن أن أميركا لم تحبذ فقط بل أوصت بشدة أن تكون F-15 المتطورة الخيار الأول لسلاح الجو الملكي السعودي. وقد ضغط سلاح الجو الأميركي بقوة لبيع الطائرات F-15 بغية خفض تكاليف الإنتاج وتسريع الحصول عليها¹⁵. لذا، ليس من المفاجئ أن يكون أول ما توقعته المملكة من إدارة كارتر حديثة العهد، إلى جانب العزم الأميركي على تشجيع السلام في الشرق الأوسط، السماح بشراء الطائرات F-15.

على الرغم من أن الرغبة في السلام قد تبدو متعارضة مع الرغبة في التسلح، فإن الرغبة في السلامة - الأمن القومي - تتغلب على الأمرين معاً. غير أن مؤيدي إسرائيل رأوا أن الحاجة السعودية إلى التسلح تفتقر إلى الشرعية، وأن أي أسلحة يملكها السعوديون تشكل تهديداً خطيراً لإسرائيل.

كانت هناك أدلة كثيرة تؤيد الحجة الإسرائيلية. فقبل الجدل بشأن F-15 بعامين، نقلت صحيفة نيويورك تايمز قول ولي عهد المملكة الأمير فهد: "إن كل القوات المسلحة لبلداننا هي قوة للدفاع عن الشعوب العربية والقضية العربية"¹⁶. وعلى نحو ذلك، تعهد الأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي، للشعب السعودي أن تكون "جميع أسلحتنا تحت تصرف البلدان العربية، وأن تستخدم في القتال ضد العدو المشترك"¹⁷.

وما زاد في قلق إسرائيل همسات في الكونغرس عن طلب لاحق سعودي لنظام "أواكس" (نظام الإنذار والسيطرة المحمول جواً). وهو نظام متطور جداً ومكلف بحيث لم تتمكن حتى إسرائيل من إضافة هذا النظام المتطور إلى ترسانتها. ومع ذلك كان الموضوع المطروح هو بيع الطائرات F-15، ومن منظور السياسة الأميركية، وعلى الرغم من الحجج الإسرائيلية الحادة، فإن حق المملكة العربية في التسلح والأسباب التي تدفعها إلى ذلك لا يمكن إغفالها.

فعلى حدودها الشرقية توجد دولة إيران المتقلّبة بشكل متزايد، والتي يبلغ عدد سكّانها خمسين مليون نسمة في مقابل سبعة ملايين نسمة في المملكة العربية السعودية. كما أنّ التهديدات من إسرائيل، مقرونة بتهديدات من أنظمة ماركسية مدعومة من السوفييات في اليمن الجنوبي وإثيوبيا، كانت أسباباً صالحة جداً لكي يطلب السعوديون التسلح بأحدث التكنولوجيا. ومن الطبيعيّ أن تشعر المملكة، التي يوجد في أرضها أضخم احتياطي نفطيّ في العالم، بالقلق على أمنها القومي. وقد عبّرت عن ذلك مجلّة "الإيكونومست" اللندنية: "لدى السعوديين مبرر جيّد للشعور بالتوتر، فهم يعيشون في جوار صعب ويملكون أضخم احتياطيّ نفط في العالم"¹⁸.

دفع حجم التهديد الموجّه إلى المملكة العربية السعودية إلى نشر تقرير في الولايات المتحدة برعاية سعودية، يخلص إلى أنّه "في الأعوام العديدة الماضية، اضطرت المملكة العربية السعودية إلى مواجهة ضغط شيوعي متزايد في شمالها وجنوبها وجنوب غربها. وبسبب سياسات المملكة المؤيّدة للغرب وثروتها العظيمة، فإنّها الآن وستبقى، الهدف الرئيسيّ للتوسّع السوفياتيّ، والتطرّف السياسي في الشرق الأوسط"¹⁹. وقدّمت خريطة للمنطقة إيضاحاً بيانياً يظهر طوق الأنظمة المدعومة من الشيوعيين التي تهدد المملكة العربية السعودية. وذكر هنري كيسنجر المعاصر لتلك الفترة: "إنّ غرض السوفييات في إثيوبيا هو الالتفاف حول الشرق الأوسط، وإظهار أنّ الولايات المتحدة لا تستطيع حماية أصدقائها، وإشاعة شكوك في المملكة العربية السعودية ومصر والسودان وإيران"²⁰.

حظيت الحجج السعودية بتأييد حاسم من الرئيس كارتر، الذي رأى أنّ في تطوّر العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة فائدة واضحة لإسرائيل. ففي خطاب ألقاه في مايو 1978، كرّر الرئيس التعبير عن حرصه على أن تواصل الولايات المتحدة "المحافظة على شعور المملكة العربية السعودية أنّنا أصدقاءها" وأنّ "بإمكانها الوثوق بنا عندما نقدّم التزاماً". وأضاف: "أعتقد أنّ من الأفضل لإسرائيل أن تكون لدينا هذه العلاقة الجيدة والثابتة والمتينة والمبنية على الثقة المتبادلة والودية مع الزعماء العرب المعتدلين"²¹.

كانت الأسباب الأمنية المبرّرة لتسليح المملكة العربية السعودية مقرونة بأدلة بناءً على أنّ النوايا السعودية دفاعيّة بطبيعتها، لا هجومية. وفي رسالة كتبها وزير الدفاع هارولد براون إلى رئيس لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب، قدّمت ضمانات

أكيدة أن المملكة ستستخدم طائرات F-15 "للدفاع المشروع عن النفس" وأنها لن تزود بها إلا إذا وافقت على "عدم نقل الطائرات إلى دولة ثالثة، أو السماح لمواطنين من بلد آخر بالتدرب عليها، أو قيادتها، أو الوصول إليها من دون الحصول على موافقة الولايات المتحدة"²².

وقد تعززت تلك الضمانات كثيراً بالعلاقة المديدة بين المملكة الصحراوية والولايات المتحدة، علاقة قائمة بصراحة شديدة على النفط والأمن. ففي مقابل المساعدة العسكرية الأميركية دفاعاً عن المملكة، يبقى النفط السعودي متاحاً للولايات المتحدة. كما أن المبادئ المحافظة التي تتمسك بها المملكة تحاكي بشكل مميّز النهج الأميركيّ تجاه المشكلات في الشرق الأوسط.

كان الرئيس كارتر يدرك ضخامة وتعقيدات القضايا المتنازع عليها في بيع طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية، لذا قال إنه ليس لديه "ما يعتذر عنه البتة في تقديمه هذا الاقتراح"²³. غير أن كارتر كان في أثناء حملة الانتخابات الرئاسية شديداً الانتقاد لسياسة الرئيس فورد الخارجية المؤيدة للعرب، وأعرب مراراً عن مساندته القوية للقضية اليهودية. كما أدلى بتصريحات قوية ضد اقتراح فورد بيع أسلحة لمصر والمملكة العربية السعودية وذكر في خطاب في 6 يونيو 1975 أن "بقاء إسرائيل ليس مجرد مسألة سياسية، إنه واجب أخلاقي"²⁴.

كرّر كارتر في بداية عهده أن "التزامنا الأول في الشرق الأوسط هو حماية حق إسرائيل في الوجود، الوجود الدائم وبسلام"²⁵. لكن على الرغم من هذه الآراء المعارضة لمبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوسط في أثناء الحملة الرئاسية، فإن الرئيس المنتخب حديثاً، بعد توقف قصير في الرياض بين زيارتين إلى طهران وأسوان في يناير 1978، عاد وهو مصمّم على عدم النكوث بالالتزام الأميركي الذي قطعه الرئيس فورد للسعوديين.

في المقابلة التي أجريتها مع الرئيس كارتر، دافع بقوة عن قراره في هذه المسألة، موضحاً أن القرار كان هدفاً شخصياً وأخلاقياً بالنسبة إليه: "من الأشياء التي أردت القيام بها، من منطلق الإنصاف والأهمية الاستراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، المساعدة في تجهيز المملكة العربية السعودية للدفاع عن نفسها". وأضاف: "كان بيع الطائرات المقاتلة المتطورة، F-15، ثم طائرات الإنذار المبكر "أواكس"، إلى المملكة

العربية السعودية مسألة مهمّة جداً عندي. وقد واجه ذلك معارضة شديدة من اللوبي الإسرائيلي الذي كان في ذلك الوقت، ولا يزال، الأقوى في واشنطن، ولم ينجح قط إقرار أي اقتراح كهذا في الكونغرس، وهو، كما تعلم، يتأثر كثيراً بأبياك²⁶.

قيل إن دعم كارتر بيع الأسلحة إلى المملكة العربية السعودية، ثم ريغن بعد بضعة أعوام (رغم أنهما يدعوان إلى استراتيجيات متعارضة تماماً)، يرجع إلى أن تلك المبيعات كانت مهمّة جداً بالنسبة إلى الأمن القومي. ويعكس موقفهما وضع المملكة كحليف والسياسة الواقعية للعلاقة المعقّدة بين الولايات المتحدة والدول العربية المنتجة للنفط²⁷. باختصار، تدلّ مبيعات F-15 وأواكس إلى المملكة العربية السعودية على نهج براغماتي تجاه المعادلة المعقّدة التي تشمل السياسة الخارجية والاقتصاد الأميركيين، والانطباع الهش بالثقة والصدقة القائمين بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة.

في أواخر السبعينيات، وأوائل الثمانينيات، ازداد المثلث السعودي الأميركي الإسرائيلي تعقيداً، حيث كانت السياسة الخارجية السعودية تهدف إلى "الحث على دور أميركي فعال في التشجيع على تسوية سلمية شاملة في الشرق الأوسط"²⁸. وعلى الرغم من الاطمئنان السعوديّ الأولي إلى اهتمام الرئيس كارتر النشط لإيجاد حلّ سلمي بين العرب وإسرائيل، فقد أدى استمرار التذبذب الأميركي في المنطقة إلى تملل سعوديّ من السياسة الخارجية الأميركية. فبعد أن وعدت إدارة فورد ببيع المملكة طائرات F-15، كانت القيادة السعودية تأمل بإعادة انتخاب فورد. لكن مع تسلّم كارتر الرئاسة، التزمت المملكة العربية السعودية دبلوماسياً بوعدها بتأخير أي طلب رسمي لشراء أسلحة من أميركا خلال عام الانتخابات وانتظرت حتى مايو من العام التالي قبل تقديم طلب شراء 60 طائرة F-15.

زادت الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس في تشرين الثاني/نوفمبر 1977، وهي الزيارة التي أفضت إلى اتفاق كامب ديفيد في نهاية المطاف^(*)، من المخاوف السعودية من احتمال فقدان فرصة تحديث سلاح الجو

(*) لقيت رحلة السلام التي قام بها الرئيس المصري إلى إسرائيل تأييداً كبيراً من الولايات المتحدة. وقد بلغ التأييد حد أن العديد من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ عارضوا خطياً أي مبيعات مستقبلية للأسلحة إلى الشرق الأوسط، حتى قبل أن يقترحها الرئيس كأداة لدعم رحلة الرئيس أنور السادات الجريئة إلى القدس.

السعودي المتقاعد بصورة متزايدة. غير أن توقف كارتر في الرياض، في يناير 1978، ردّ على كل تلك المخاوف، وفي 14 فبراير 1978، أعلنت إدارة كارتر عن نيتها بيع 60 طائرة F-15 للمملكة، و50 طائرة F-5E لمصر^(*)، و15 طائرة F-15 مع 75 طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F-16 لإسرائيل.

لعل أفضل خطوة قام بها كارتر بخصوص صفقة طائرات F-15، وأكثرها إثارة للخلاف، تعمده ربط بيع أسلحة لإسرائيل ببيع أسلحة لدول عربية. وهو قرار جاء نتيجة سلسلة مواقف مشؤومة ومتناقضة فرضت على إدارته. لقد كانت رزمة وفقت بين التزامه الأخلاقي والعاطفي بحق الشعب اليهودي في إعادة الاستقرار "في وطنه التوراتي" والتزام أخلاقي بدعم حقوق الفلسطينيين كجزء من واجب شامل تجاه حقوق الإنسان. وذلك مبدأ مركزي من مبادئ سياسته الخارجية. كان كارتر يدرك تماماً أن تعهد الرئيس فورد أخذ يتحوّل بسرعة إلى دّين شرف للسعوديين، وكان عليه أيضاً التصارع مع حساسية مجلس الشيوخ الحادة تجاه مبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوسط، ومع الطلب السري الذي قدمته إسرائيل في يوليو 1977 بخصوص 150 طائرة F-16 و20 طائرة F-15. ومن حسن حظ الإدارة أن موقف البنتاغون أن إسرائيل ليست بحاجة عسكرية ماسّة إلى هذه الأسلحة وفرّ لها مبرراً بتأخير اتخاذ قرار بشأن طلب إسرائيل. وبوجود الطلب الإسرائيلي على الطاولة، استطاع كارتر دمج في منظومة استغلال معقّدة مصمّمة بشكل واضح لإقرار صفقة الأسلحة العربية المقترحة في مجلس الشيوخ. وأطلق الرئيس بذلك الاقتراح بتعمّد ربط طلبات الأسلحة الثلاثة المقدمة من إسرائيل ومصر والمملكة العربية السعودية في مشروع قانون واحد. ثم قدم مشروع القانون إلى الكونغرس في 28 أبريل 1978، وحذّر صراحة أنه سيعمد إلى سحب الاقتراح بكامله في حال رفض أي جزء من رزمة المبيعات.

كان وقع اقتراح مبيعات الأسلحة على الأوساط السياسية في واشنطن هائلاً. فقد أشار إلى نقطة تحوّل في تكتيكات ممارسة الضغط، لا تكتيكات "أيباك" فحسب، وإنما تكتيكات اللوبي المؤيد للعرب أيضاً، الذي هدد لأول مرة طول باع "أيباك" في الكونغرس الأميركي.

(*) F-5E طائرة لم يعد يستخدمها سلاح الجو الأميركي لكنها بيعت على نطاق واسع لبلدان في العالم الثالث. وفي هذه الحال، كانت المملكة العربية السعودية ستدفع ثمن طائرات F-5E المصرية.

تأسست "أبياك" سنة 1959 لخدمة الحركة الصهيونية الأميركية، وممارسة نفوذ على العلاقات مع السلطات الحكومية بغية تحسين أواصر الصداقة وحسن النوايا بين الولايات المتحدة وإسرائيل؛ وهي مجموعة ضغط حسنة التكوين وقوية ومسجلة لدى الكونغرس ومعنية حصراً بتحسين العلاقات الأميركية الإسرائيلية وحماتها. بيد أن تورط "أبياك" في معركة طائرات F-15 كان بالغاً. "لقد كان نشاط المنظمة وقدرتها على الوصول إلى كبار صنّاع القرار كبيرين نسبياً. لكن، اعتُبرت أهداف سياستها معادية ومستفيضة وغير بناءة؛ وهدفها الرئيسيّ إلغاء الجزء السعودي من صفقة الأسلحة المقترحة"²⁹.

مع ذلك، وُجّهت "أبياك"، لأول مرة، بلوبي عربي منظم. وأخذت على حين غرة بالتحوّل الشكليّ للوبي المؤيد للعرب بالنظر إلى سجله السابق في واشنطن. ويعكس هذا الواقع المتغيّر اقتباساً على لسان أحد المساعدين في واشنطن وارداً في كتاب هوغ ليفين "النفوذ العربي" (*Arab Reach*)، "ظهر العرب فجأة في واشنطن سنة 1978. حدث ذلك بسرعة فائقة. لم يكن لهم أي أثر بالأمس، وها هم اليوم. إنّ التقدّم الذي حققوه لا يصدّق"³⁰.

توافق هذا التغيير مع وصول بندر إلى واشنطن. ففي سياق مساعدته الأمير تركي بن فيصل، ترك بندر بسرعة بصمته في الدائرة السياسية في واشنطن. ويقول الرئيس كارتر متذكراً: "لم نكن نحرز تقدماً كبيراً في شأنها [صفقة بيع F-15]، ثم تعرّفت فجأة إلى بندر من خلال كبير موظفي البيت الأبيض، هاملتون جوردان، متجاوزاً السفير السعودي تماماً. قال إنّ أباه، الأمير سلطان، انتدبه لمساعدتنا في هذا المشروع". وتابع الرئيس، "لم أكن أعرف كيف يمكن أن يكون لرائد شاب في سلاح الجو أي تأثير، لكن تبين لي بعدما تحدّثت إليه أنّه دمّث، وملّم جداً بالغرب، وفصيح، وأنّ لديه بطبيعة الحال روابط مباشرة مع أعلى المستويات في العائلة المالكة. لم أكن ألتقي ببندر كل يوم، لكن كان لدي شعور أنه مقيم في البيت الأبيض بشكل أساسي. كان يعمل مع موظفيّ بألفة ومثابرة واستمرار تقريباً"³¹.

في أثناء الضغط للحصول على طائرات F-15، غالباً ما كان بندر يواجه بمجهور معاد. وفي رواية لإحدى المواجهات الكلامية، قال بندر: "أتذكر دائماً السيناتور الراحل تشيرتش. كنا نناقش صفقة طائرات F-15 وتناولنا طعام الغداء مع لجنة

العلاقات الخارجية. جلس أمام زملائه وتوجّه إليّ بمناشدة عاطفيّة أن ثمة قاعدة جوية سعودية في شمال المملكة العربية السعودية اسمها تبوك تبعد خمس دقائق فقط عن مركز سكانيّ إسرائيليّ. وقال: ألا تستطيع أن تشعر، سيدي الأمير؟ ألا تستطيع أن تشعر بما يشعرون؟ إنهم قلقون، ويمكن مهاجمتهم من قاعدتكم في غضون خمس دقائق، إلى ما هنالك".

"شعرت بالدهشة من شدّة انفعاله: ظننت أن مينوسوتا ستعرض لهجوم. لكنني فوجئت بقلة المعلومات لديه، وسبب عاطفيّته، وغياب عامل المنطق لديه، أن الرواية أحادية الجانب دائماً. يرويها أحدهم ويتلقّفها الآخرون كما هي ويصدقونها ويمضون. إن ما نحاول القيام به هو إعادة التوازن إلى تلك الرواية".

"نظرت إلى السيناتور أمام زملائه وقلت، أوافقك الرأي أيها السيناتور، لو كنتُ أبعد خمس دقائق عن عدوّ محتمل لأحسست بقلق شديد؛ لكن هل لي أن أذكرك أن إسرائيل كانت قبل ذلك بخمس سنوات تبعد عشر دقائق". وبعد توقف قصير، قال بندر: "وقبل خمس عشرة سنة كانت تبعد خمس عشرة دقيقة. أنا لم أنقل قاعدتي إلى الشمال؛ هم الذين اقتربوا مني. وختم بالقول: "إذا أبعدتم خمس عشرة دقيقة إلى حيث كانوا، سنكون كلنا سعداء"³².

على الرغم من الطبيعة فائقة الحساسية والمتقلّبة لصفحة طائرات F-15 المقترحة في واشنطن، فإنّ كارتر رفض تأخير التصويت، الذي تقرّر إجراؤه في 16 مايو 1978. غير أنه كان متشدّداً في عدم المضي قدماً إلا بعد إتمام عمله بشأن معاهدة قناة بنما (*). وقال كارتر، متحدثاً عن معاهدة قناة بنما: "كنا بحاجة إلى صوت واحد أو صوتين، وكان هناك سيناتور يدعى جيمس أبو رزق، وهو لبناني الأصل ولديه

(*) وقع الرئيس جيمي كارتر ورئيس الحكومة البنمية عمر توريخوس معاهدة قناة بنما ومعاهدة الحياض في 7 سبتمبر 1977. وقد قضى الاتفاق بتخلي أميركا عن السيطرة على القناة في سنة 2000 وضمان حياضها. ففي سنة 1903 قدّمت قوة عسكرية أميركية العون إلى ثوار في بنما يطالبون بالاستقلال عن كولومبيا. وفي 4 مايو 1904، منحت بنما الولايات المتحدة حق بناء وتشغيل القناة والسيطرة على أرض تمتدّ خمسة أميال على جانبي القناة لقاء مبالغ مالية سنوية. وكان يُقصد بمعاهدتي قناة بنما لسنة 1977-1978 تصحيح قضية سيّبت نزاعاً طويلاً الأمد في العلاقات بين الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية. وبحلول الستينيات، أدت دعوات بنمية إلى بسط السيادة على منطقة القناة إلى تدهور العلاقات الأميركية مع بنما. ورأى الرئيس كارتر عودة القناة المدخل إلى تحسين العلاقات الأميركية في نصف الكرة الغربي.

روابط معروفة جيداً مع المملكة العربية السعودية والعالم العربي؛ كان متردداً جداً". كان أبو رزق أول أميركي - عربي يُنتخب عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي، ويدين صراحةً نفوذ "أيباك" الواسع في الكونغرس باعتباره خطيراً. "لذا، اتصلت بصديقي الجديد بندر وقلت له إننا بحاجة إلى صوت أبو رزق"، وتابع معترفاً أن السيناتور سيكون منفتحاً إلى بندر "الساحر والجذاب الذكي والفعال جداً"، بحسب كلماته. وقد كان مصيباً. فبعد أيام قليلة من طلب المساعدة من الأمير للحصول على صوت السيناتور، تلقى كارتر من جيمس أبو رزق فيه ما مفاده أنه سيصوّت للمعاهدة. وأضاف الرئيس، "نبحنا في إقرار الاتفاقية بهامش صوت واحد. ولذلك شعرت دائماً بالتقدير للمساعدة التي قدمها بندر، لأنها كانت نقطة تحوّل في العلاقات في نصف الكرة الغربي. فقد كانت الولايات المتحدة تتعرض لإدانة شبه جماعية من بلدان أميركا اللاتينية لأن الرؤساء جونسون، ونيكسون، وفورد كلهم ديمقراطيين وجمهوريين وعدوا بتعديل اتفاقية قناة بنما الجائرة جداً والتي أُنجزت، على الرغم من معارضة البنميين. لقد كان أمراً لا بد من إتمامه. وهكذا أفلحنا أخيراً"³³.

بتأمين هذا الصوت المهم للرئيس، لم يكتسب بندر احترام الرئيس كارتر فحسب، بل متّناً أيضاً صداقة شخصية ما زالت قائمة حتى اليوم. ويقول كارتر، "كان التحدي السياسي الأكبر الذي واجهته في حياتي، بل إنه تجاوز تحديات حملتي الرئاسية، إقراري معاهدي قناة بنما، وتلك خطوة ضرورية ومهمة جداً. لكنها لم تكن تحظى بشعبية لدى الرأي العام، لأن رونالد ريغن وآخرين من خارج الحكم ما انفكوا يلومونني بشدة على التخلّي عن قناتنا وبيعها لديكتاتور وضع في بنما". ويقول



كارتر موضحاً الربط بين التصويت على F-15 والتصويت على قناة بناما: "كانا اثنين من أكبر أعمال التصويت التي جرت في أثناء تولي سدة الرئاسة؛ لكن الأهم كثيراً بالنسبة إلي هو معاهدة قناة بنما"³⁴.

جيمي كارتر يشكر بندر مساعدته في اتفاقية

قناة بنما وتصويت أف - 15

كان الإقرار الناجح لتلك المعاهدة شرطاً مسبقاً وضرورياً أيضاً لبيع طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية. فالإخفاق في الأولى سيحول بالتأكيد دون تقديم بيع F-15 إلى الكونغرس. لذا تضاعف دور بندر في تأمين إقرار صفقة F-15 أمام أهمية تمكّنه من تغيير موقف السيناتور أبو رزق، الذي لولا صوته لمنيت إدارة كارتر بهزيمة قاسية بشأن معاهدة قناة بنما. وبدلاً من ذلك، عني التصديق على معاهدة قناة بنما أن اللوبي اليهودي الإسرائيلي يواجهه، في معارضته صفقة F-15، احتمال الوقوف أمام إدارة حازمة، تمكّنت مؤخراً من تحقيق انتصار كبير في السياسة الخارجية، وتعرف تماماً أن الكونغرس لم يسبق له قط أن رفض التصديق على صفقة أسلحة مقترحة.

سرعان ما تبددت تحفظات كارتر الأولية على قدرة بندر على التأثير في الكونغرس، ما حدا بالرئيس إلى القول: "إذاً، كان ذلك التزاماً كبيراً من جانبي وصرنا نعتمد على بندر الذي تبين أنه متحدّث فعّال جداً، ويجدر بي أن أستخدم كلمة صاحب تأثير في الكونغرس". وبشعور واضح بالاعتزاز، قال: "كانت تلك أول مرة على الإطلاق تتمّ فيها مواجهة لوبي قوي بنجاح"³⁵.

لم يقتصر استغلال الرئيس كارتر لموهبة بندر الدبلوماسية المتنامية على ما جرى مع السيناتور أبو رزق. فثمة عامل يزيد صعوبة معركة طائرات F-15 في الكونغرس، وهو التحدي الذي لاح من المرشح الجمهوري رونالد ريغن في الحملة الانتخابية. ففي مسعى لتأمين تصويت إيجابى على بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية، وتسهيل إقرار الصفقة، وجدت إدارة كارتر أن تأمين تأييد ريغن ضروري لاستمالة الأصوات في مجلس الشيوخ بشأن F-15، إذ كان لريغن تأثير قوي في المحافظين في مجلس الشيوخ. وفي المقابل، كان ريغن يحرص بوضوح على ألا يظهر في صف المؤيدين للرئيس الديمقراطي. غير أن كارتر كان يدرك ذلك تماماً فأرسل بندر لإقناع ريغن بإعلان تأييده للصفقة.

اتصل بندر هاتفياً بطوم "تي. في" جونز، وهو في ذلك الوقت الرئيس التنفيذي لشركة "نورثروب" (الشركة المصنّعة لطائرة F-5 التي سبق للمملكة العربية السعودية أن اشترتها)، وكان أحد مستشاري ريغن أيضاً. فما كان من جونز إلا أن رتب موعداً للقاء بين بندر وريغن.

عند تقديم بندر إلى الرئيس القادم للمرة الأولى، طُرح على الأمير سؤالان مباشراً: "هل أنت شيوعي؟" و"هل تؤيد المملكة العربية السعودية الولايات المتحدة؟" طمأن بندر الحاكم ريغن إلى أن للولايات المتحدة حليفاً مخلصاً وقدم العهد في المملكة السعودية المحافظة. وشدد أيضاً على عدم وجود صلات بين المملكة العربية السعودية والشيوعية، بل إنها في الواقع لا تطبق الأنظمة الشيوعية إلى حد أن المسافرين الشيوعيين المعروفين كانوا إذا توقفوا في المملكة العربية السعودية يُمنعون حتى من مغادرة طائراتهم.

بعدما قدّم بندر الجواب المرضي عن هاتين النقطتين، سأل ريغن عما إذا كان سيؤيد اقتراح الرئيس كارتر بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية. وهنا يتذكر الأمير رد ريغن المقتضب: "حسناً، سأؤيده؛ لكن جئني بصحافي يطرح عليّ سؤالاً في هذا الصدد". وروى الأمير كيف أبلغ صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" أن ريغن سيؤيد كارتر في بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية. لم يصدقوا ذلك في الصحيفة، لكنهم أرسلوا مع ذلك صحافياً إلى المطار حيث كان ريغن يستعد للسفر إلى إيران. فسأل الصحافي ريغن: "هل تؤيد اقتراح الرئيس كارتر بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية؟" أجاب ريغن: "لا أرى أي مانع، إنهم أصدقاؤنا لذا سأؤيد هذا الأمر، لكنني أختلف مع كارتر في كل شيء آخر". وتذكر بندر إصرار ريغن على التحذير: "لكنني لا أؤيد أيّاً من سياسات كارتر الأخرى".

في هذا اللقاء الأول بين بندر والرئيس القادم، نشأت المصالح المتبادلة المشتركة بين الشخصيتين الواعدتين والبلدين اللذين يمثلانهما. وفي بضع سنوات قليلة، تجسّدت المقاربة المعادية للشيوعية في السياسة الخارجية، والمواقف المحافظة الثابتة التي يتشاطرها الرئيس القادم والسفير السعودي التالي في الولايات المتحدة على شكل مبدأ ريغن بالغ الأهمية، وفي صداقة شخصية وطيدة.

تواصلت جهود بندر بشأن طائرات F-15. وفيما كان يجوب في أنحاء الولايات المتحدة محاولاً كسب أصوات أعضاء مجلس الشيوخ، كان عليه، كما يذكر: "أن يلتقي سيناتوراً من الجنوب يدعى لونغ". وبعد سماعه كلام بندر المقنع، نظر السيناتور لونغ إلى عيني بندر وقال: "صوتي سيكلفكم 10 ملايين دولار!". ظنّ بندر أن ثمة محاولة للإيقاع به فقال، "ماذا تقول؟".

كرر لونغ: "صوتي سيكلفكم 10 ملايين دولار".
 أجاب بندر: "أيها السيناتور، لست هنا لأساومك على مال... أنا هنا فقط كي
 أشرح موقفنا، وآمل أن أتمكن من إقناعك بالتصويت في مصلحة هذا الموقف".
 أوضح السيناتور قصده بالقول: "لم تفهمي أيها الشاب الأحمق... لا أريد المال
 لي، أريد أن تؤكد لي أن حكومتك ستودع 10 ملايين دولار في أحد مصارف
 مدينتي. أنتم تحتفظون بمالكم في نيويورك، لم لا تنقلون جزءاً يسيراً منه إلى لويزيانا؟
 وقبل أن تفعل ذلك، دعني أعرف مسبقاً كي أقول لمدير المصرف إنه سيحصل على
 مال سعودي لاستثماره في مصرفه. وعندئذ سيمول إعادة انتخابي. وحالما يعاد
 انتخابي يمكنك استرداد المال في أي وقت".

وجد بندر أن مثل هذه الصفقات مفيدة. وفي تلك الأيام، كان لدى السعوديين
 الكثير من الأموال في "تشييس ماهاتن". وروى بندر أنه طلب من ديفيد روكفلر
 المساعدة في إقناع أعضاء معينين في مجلس الشيوخ بالتصويت لمصلحة صفقة F-15.
 لكن لم يحدث شيء على الرغم من الوعود المتكررة بالمساعدة.
 توصل بندر إلى قناعة أن روكفلر يخدعه بوعود كاذبة، فاتصل بولي العهد الأمير
 فهد وشرح له المشكلة.

سأله الأمير فهد: "ماذا تقترح؟".

أجاب الأمير بندر: "يمكن أن تأمر وزير المالية بنقل 200 مليون دولار من تشيس
 ماهاتن إلى جي بي مورغان... وأن تمنحني سلطة إعادة المبلغ ساعة أقرر".
 قال ولي العهد: "لك ذلك".

وأضاف بندر متذكراً: "في اليوم التالي، اتصل روكفلر بي عند الثامنة صباحاً،
 كنت لا أزال نائماً. واتصل مجدداً عند التاسعة، كنت مشغولاً. اتصل عند العاشرة،
 كنت قد خرجت. وعند الرابعة عصراً، اتصل بي موظف الاستقبال في فندق
 ماديسون وقال، السيد روكفلر في ردهة الفندق ويريد الصعود إلى غرفتك ليقابلك.
 أجبته، قل له لدي اجتماعات وسأكلمه بعد انتهائي منها".

وأشار بندر: "أبقيته في قاعة الاستقبال حتى الساعة السادسة مساءً". بل إن بندر
 أبلغ روكفلر عندئذ أنه مشغول جداً ولا يسعه التحدث إليه، إذ إنه في طريقه إلى مبنى
 الكونغرس ليحاول تأمين الأصوات التي وعده بها.

أجاب روكفلر مرتبكاً: "سأبقى في واشنطن إلى أن أوّمن لك الأصوات التي تريدها".

وذكر الأمير أن روكفلر "أخذ يتصل بي كل ليلة على مدى ثلاثة أيام ليقول لي، حصلت على صوت السيناتور فلان أو السيناتور فلان. وبعد نحو ثلاثة أيام، عندما حصل على أصوات كل أعضاء مجلس الشيوخ الذين وعد بهم، وفوقهم صوتان آخران، طلبت من وزير ماليتنا إعادة مبلغ 200 مليون دولار إلى تشيس ماهاتن".

لكن، بينما كان بندر يوظّف مهاراته في الإقناع في مناورة رفيعة المستوى لصالح الرئيس كارتر، كانت رحي المعركة الحقيقية على الأصوات تدور بين اللوبي المؤيد للعرب واللوبي المؤيد لإسرائيل. وجد اللوبي المؤيد للعرب، وهو حديث النشأة وجيد التنظيم يقوده الأمير بندر ويلهمه، أكبر تأييد له في الشركات. فقد انضمت الشركات الضخمة التي يقوم عملها على الصناعة النفطية، بما في ذلك "فلور" (*) و"بكتل" و"كمبيوتر ساينسيز"، و"موبيل" بطبيعة الحال - وكلها صناعات عملاقة مقارّها في هيوستن - إلى حملة دعم صفقة طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية.

من دون خبرة سياسية وبقليل من الوقت للتحضير، تبنى بندر فلسفة البساطة (KISS). وطلب من محاميه، فرد داتون، وهو مساعد خاص سابق للرئيس جون أف. كينيدي والمستشار الأكثر فعالية في الضغط لصالح صفقة F-15 السعودية، إعداد موجز بسيط من صفحتين عن اتحاد العمل الأميركي ومجلس المنظمات الصناعية (AFL-CIO). وبعد تحليل تقنيات الضغط التي يستخدمها "أبياك" عادة، رأى الأمير أن اقتراح بيع طائرات F-15 يعادل إنفاق المملكة العربية السعودية 5 مليارات دولار لدى "ماكدونل دوغلاس" والشركات المتعاقدة معها من الباطن، وأنّ عقداً بهذه الضخامة يوفر فرص عمل في الولايات المتحدة. واعتقد أن ذلك يمنح القضية العربية ثقلاً كبيراً. كان بندر يشعر أنه فارس وحيد، بحسب قوله، لذا نقل القضية إلى نقابات العمال في "ماكدونل دوغلاس"، التي جاءت بدورها بالمتعاقدين معها من الباطن. وكانت النتيجة تحقيق نجاح غير عاديّ، فبدأت حملات بريدية واسعة تضاهي الحملات المؤيدة لإسرائيل.

(*) تبني شركة فلور Fluor مصانع لاستخراج النفط والغاز والفحم والوقود المركّب ونقلها وتكريرها ومعالجتها. وأكبر مشاريع هذه الشركة، التي تعد واحدة من أكبر الشركات العاملة في هذا المجال، مشروعها في المملكة العربية السعودية، الذي تقدّر قيمته بخمسة مليارات دولار.

يقول دوغلاس بلومفيلد عن أسلوب عمل بندر، وهو من الأعضاء السابقين الذين كانوا يعملون لمصلحة "أبياك" وقد التقى الأمير في أثناء معركة F-15: "طرح كثير من الأسئلة حول كونه فارساً وحيداً، أو عاملاً مستقلاً، يتجاوز تعليمات حكومته. فقد وقع في ورطة، واستدعي وقيل له، لقد تجاوزت حدودك". وأضاف بلومفيلد: "لكنني أظن أن بندر شخصية جريئة. ومن وجهة نظري المؤيدة لإسرائيل، قدّم مساهمة كبيرة في محاولة تخفيف التوتر"³⁶.

في ما يتعلّق بالنزاعات العربية الإسرائيلية المريعة، وتحذير الأمير فهد له من التورط في نقاشات تثير الضغائن، كان بندر يتهرّب من مثل هذه الأسئلة بالقول: "تريدون التحدّث عن الفلسطينيين؛ تريدون التحدّث عن الشرق الأوسط؟ لا شأن لي بذلك، أنا طيار حربيّ. وأستطيع أن أبلغكم عن السبب العملي الذي يجعلنا نحتاج إلى F-15 - انتهى"³⁷.

في أثناء حملة طائرات F-15، تأثر بندر كثيراً بنصيحة من تب أونيل، رئيس مجلس النواب الأسطوري من ماساشوستس. فطالما قال أونيل: "السياسة بأكملها سياسة محلية. لا يهم ما تأخذه منها، فبيت القصيد هو أنّها سياسة محلية". وقد حذر بندر من أن ردّ الفعل الأميركي سيخيّب أمله في الغالب، إذا فهم أنّ العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة مسألة سياسة خارجية. ونصحه قائلاً: "لكن إذا اعتبرت أنّك مسألة محلية وأصدرت حكماً بناء على ذلك، أي أنّي أحاول تسويق شيء كما يفعل المزارعون أو صناعة السيارات أو الطائرات، عندئذ فقط يمكنك الاطمئنان إلى أنّ في وسعك توقع ما سيكون عليه ردّ الفعل الأميركي".

أخذ بندر بتلك النصيحة، شارحاً الاستراتيجية السعودية في الكونغرس، "وهكذا، فإن ما فعلناه أساساً - وذلك لا يتطلّب عبقرية - أنّنا نظرنا إلى ما كان يفعل الإسرائيليون وعكسناه، فوضعنا المملكة العربية السعودية بدلاً من إسرائيل. أخذنا الخطة نفسها ونفّذناها، لكننا أحلّلنا أصوات العمال والنقابات محل الأصوات اليهودية، وكل من سيستفيد من الصفقة. وعندما رأينا أنّ أصوات الشيوخ لا تأتي من منظور المبرّر الاستراتيجي للسياسة الخارجية، وإنما من منظور محلي، لديك أيها السيناتور خمسون ألف عامل سيستفيدون من الصفقة، والأمر مرهون بك؛ هل تريد إعطاء صوتك أم لا؟ المسألة الآن مسألة محلية صرف، بل إنّها ليست قوميّة، مسألة

تخص كل ولاية على حدة". وختم قائلاً: "في العادة يحصون العمالة على أساس أن إنفاق مليار دولار يوفر خمسين ألف فرصة عمل، أو يحافظ عليها. لذا فإن عقداً بقيمة 5 مليارات دولار يوفر 250 ألف فرصة عمل. وذلك أمر يحقق نجاحاً بصرف النظر عن الموضوع المطروح".

استخدمت المملكة العربية السعودية أيضاً العديد من المؤسسات القانونية وصناعة العلاقات العامة لوضع حملات دعائية. وتضافرت جهود المملكة العربية السعودية، والعراق، والجزائر، وليبيا، والإمارات العربية لتجنيد خدمات خمسة وعشرين وكيلاً أجنبياً مدفوع الأجر، ليعملوا بالنيابة عنها في مقابل واحد وعشرين وكيلاً لإسرائيل. رأى السعوديون صفقة طائرات F-15 بمثابة اختبار حاسم للدعم الأميركي. وفي البداية رفضوا فرض أي شروط أو إجراء أي تعديلات على الصفقة، وأبلغوا المسؤولين الأميركيين أن تأخير الصفقة لا يقل سوءاً عن رفضها. وكان لديهم، بفضل وضعهم الاقتصادي، سبب وجيه لاتخاذ هذا الموقف. كانت المملكة في وضع يخولها دفع ثمن الطائرات التي طلبتها، وذلك سيناريو فريد في عالم مبيعات الأسلحة المربح، في حين أنه نقطة التفاوض الحقيقية الوحيدة في أي موقف تجاري آخر. لكن كان هناك العديد من العوامل المتضاربة التي تفعل فعلها، بالنظر إلى مقتضيات الموقف المعقد في الشرق الأوسط والقواعد الفريدة المطبقة على السياسة وصفقات الأسلحة.

من تلك العوامل مزاعم "الابتزاز النفطي"، وهي تُهم نفتها المملكة العربية السعودية بشدة. ومع ذلك، لم تكن المسألة بعيدة عن ذهن الرئيس، وبخاصة بعد تصريح وزير النفط السعودي في 1 مايو 1978، أن رفض الصفقة سيفتر كثيراً "الحماسة لمساعدة الغرب والتعاون مع الولايات المتحدة"، وسيدفع السعوديين للشعور أن أميركا "غير معنية بأمننا" ولا "تقدر صداقتنا"³⁸. وشدد أيضاً على أن "ربط طائرات F-15 بمبيعات النفط ليس مبرراً"³⁹. وقد سارعت المملكة إلى تأييد هذا التصريح، وأكدت على نحو يزيل المخاوف أن "إنتاج النفط السعودي وأسعاره بالدولار قائمان على أسس اقتصادية فقط، ولن تكون المحافظة عليهما أو تغييرهما إلا على أساس الاعتبارات الاقتصادية"⁴⁰.

أياً تكن الحال، فإن الميزان الاقتصادي الدقيق بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، كان قائماً على النفط، ووفر حجة مقنعة للمحافظة على الصداقة لمصلحة الأمن القومي. وقد أقر بذلك جون بي. ريتشاردسون، مدير الشؤون العامة

للجمعية الوطنية للأميركيين العرب، عندما حثّ الأميركيين على "مواجهة حقيقة أن المصالح الأميركية تتضمن استمرار الحصول على السلعة التي تشغل كل شيء"⁴¹. ومما أضاف إلى هذا الضغط، أن الإدارة تدرك تماماً أن إخفاق الصفقة سيدفع المملكة العربية السعودية إلى نقل ثروتها بلا تردد إلى مكان آخر، وربما تشتري الطائرات الفرنسية "ميراج F-1"، فضلاً عن احتمال أن تمّول تطوير طائرة تضاوي F-15.

وردت حماية حقول النفط السعودي من تهديد شيوعي محتمل في رسالة من الملك خالد إلى الرئيس كارتر، أبرز فيها الحاجة إلى إضعاف "التوسع الشيوعي في المنطقة". كان لهذه الحجة لاحقاً تأثير في إدارة ريغن وقد تلقفها هارولد براون، وزير الدفاع في عهد كارتر. إلا أن وزير الخارجية السابق، هنري كيسنجر انتقد نفاق الإدارة بقوله: "لا يمكن أن يقول المرء إنها لا تؤثر عسكرياً في إسرائيل، ولكن يمكن أن يكون لها تأثير عسكري في التهديدات من الجانب السوفياتي"⁴².

تورط هنري كيسنجر بشدة في صفقة طائرات F-15، داعماً لها، لكنّه كان يفضل ما يمكن اعتباره محاولة لرشوة إسرائيل كي تهدأ "أبياك". فأوصى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ببيع 20 طائرة F-15 إضافية لإسرائيل بحيث تشكل مع الطائرات التي تم تسليمها من قبل، توازناً في عدد طائرات F-15 لدى كل من إسرائيل والمملكة العربية السعودية. واقترح أيضاً فرض قيود على نشر الطائرات السعودية، وعلى بيع معدات تابعة. وقد سلّم الرئيس كارتر بذلك في آخر المطاف، وفي 11 مايو 1978، وعد ببيع 20 طائرة F-15 إضافية لإسرائيل، وأكد للإسرائيليين أنه لن يبيع المملكة خزانات وقود إضافية، أو منصات القنابل، أو صواريخ جو-جو، ولن يسمح بمرابطة الطائرات في مواقع تشكل خطراً على إسرائيل. والأهم من ذلك أنه وعد بعدم بيع المملكة طائرات "أواكس".

خلال هذه الفترة شديدة التعقيد، سرت تخمينات أن إسرائيل فاوضت على صفقات أسلحة بقيمة 900 مليون دولار تقريباً، ووقّعت مذكرة تفاهم لتسريع تسليم طائرات F-16، بالإضافة إلى تأمين التعاون مع الولايات المتحدة في مشاريع البحث والتطوير. وعلى الرغم من تلك التنازلات، استمرت جهود "أبياك" الحثيثة لإعاقة الصفقة، معتبرة، مثل السعوديين، أن المسألة الحقيقية ليست المعدات العسكرية المتنازع عليها، وإنما هي اختبار للتحالف.

ظهر دليل آخر على الأهمية التي يعلّقها كلا الطرفين على "الاختبار الحاسم" في أثناء مناقشة مجلس الشيوخ مبيعات الأسلحة لمصر، وإسرائيل، والمملكة العربية السعودية في 15 مايو 1978. ففي جلسة مغلقة قدّم السيناتور مكلور تقريراً عن محادثات خاصة أجراها في الرياض في يناير 1978 مع وزير الخارجية السعودي، الذي قال: "لقد أصبحت صفقة الطائرات للأسف ذات دلالة رمزية في أذهاننا. إنها رمز لما إذا كانت الولايات المتحدة ستبقى صديقة للسعوديين يُعتمد عليها أم لا"⁴³.

على الرغم من أن النقاش بشأن طائرات F-15 كان حامياً بالفعل، فإنه سرعان ما شهد تصعيداً. ففي 11 مارس 1978، عبر مقاتلون فلسطينيون تابعون لمنظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان إلى إسرائيل عن طريق البحر، وخطفوا حافلة ركاب على الطريق الساحلي، وقُتل في الحادث 37 شخصاً. وفي 14 مارس ردت إسرائيل بشن عملية الليطاني - غزو جنوب لبنان حتى نهر الليطاني بنحو عشرين ألف جندي، ما أدى إلى سقوط الآلاف من اللبنانيين بين قتيل وجريح - وفي واشنطن، تزايدت المصالح المتضاربة والتصميم الشديد لدى اللوبيين، ما أدى إلى صدام داخلي حاد بين الرئيس ومجلس الشيوخ بشأن السيطرة على السياسة الخارجية.

ووجهت حجج كارتر لصالح بيع طائرات F-15 باعتبارها مسألة أمن قومي بمعارضة حازمة داخل مجلس الشيوخ. ومع ذلك، اتخذت لجنة العلاقات الخارجية في المجلس قراراً غير عادي في 15 مايو 1978 بإعادة التصويت على صفقة F-15 إلى مجلس الشيوخ من دون توصية، بعد تعادل الأصوات ثمانية في مقابل ثمانية. ومن منطلق الاعتقاد أن الصراع الداخلي يفسد المصداقية في الخارج، كان كارتر يأمل بتجنّب معركة مفتوحة في مجلس الشيوخ، لكن المعركة وقعت.

أرسل مؤتمر الرئيس برقية إلى كل عضو في الكونغرس في 10 مايو 1978، تعارض الصفقة بشدة باعتبارها "مضرة بالمصلحة القومية، وتهديداً لأمن إسرائيل، وعائقاً أمام مفاوضات السلام"⁴⁴. ووصف مساعد رفيع المستوى في الكونغرس الموقف في الكابيتول هيل في ذلك الوقت، أنه "ليُّ أذرع لم يسبق له مثيل في كلا الجانبين"⁴⁵. ولعل موقف البيت الأبيض غير الحاذق أن نتيجة التصويت ستعكس من بالضبط يدير السياسة الخارجية - رئيس وزراء إسرائيل واللوبي الإسرائيلي أم رئيس الولايات

المتحدة - يقدم مؤشراً أكبر على قوة المشاعر التي ولّدها النقاش وتشعبات القرار النهائي.

في 16 مايو 1978، بعد يوم واحد على الذكرى السنوية الثلاثين لقيام دولة إسرائيل، صوت مجلس الشيوخ 54 صوتاً في مقابل 44 صوتاً ضد اقتراح إعاقه عملية بيع الأسلحة ثلاثية الأطراف. وتلك المرة الأولى في التاريخ الأميركي التي تدافع فيها الولايات المتحدة صراحة عن صداقتها مع دولة عربية رغم الاعتراضات الإسرائيلية الحادة.



رأس جبل الجليد

"سمعة المرء كالظل، تكون هائلة الحجم حين تسبقه، وصغيرة جداً حين تتبعه".

شارل - موريس دي تاليران

يسرني أن أبلغكم أن المملكة العربية السعودية قرّرت تعيين المقدم الجوي بندر ابن سلطان مسؤولاً عن الاتصال بالحكومة الفدرالية، بعد أن تجاوزت قضية صفقة الأسلحة للمملكة العربية السعودية إطارها السياسي ودخلت إطارها التقني، وبعد التوصل إلى اتفاق وإرسال الصفقة إلى الكونغرس. وبالتالي فإن الجانب الأهم في هذه القضية الآن، هو التنسيق الكامل بين عمل فريق الحكومة الأميركية، وعمل الفريق السعودي الذي يرأسه المقدم بندر بن سلطان، وذلك لإجراء الاتصالات الضرورية بطريقة تضمن تحقيق التقدم وأفضل النتائج¹.

قدّمت هذه الرسالة، التي كتبها السفير السعودي إلى الولايات المتحدة، فيصل الحجيلان، بندراً كوسيط بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة بشأن صفقة أسلحة كبيرة تضمّ خمس طائرات "أواكس".

وكانت حقبة أواخر السبعينيات قد شهدت سلسلة حوادث مزعومة للاستقرار في الشرق الأوسط، ما سبّب خوفاً كبيراً في واشنطن والرياض على حدّ سواء. فقد وقعت الثورة الإيرانية، وأطيح بالشاه، واحتجز الرهائن الأميركيون في طهران بعد ذلك، وأعقب ذلك بوقت قصير الغزو السوفياتي لأفغانستان في 16 ديسمبر 1979، واندلاع الحرب الإيرانية العراقية في 2 سبتمبر 1980.

نظر السعوديون إلى توسّع الاتحاد السوفياتي العدواني باعتباره تهديداً خطيراً. وكانوا مقتنعين تماماً أنّ المخطّط الكبير للكرملين يقضي بالتقدّم نحو آبار النفط السعودية²، بعد غزو الجيش الأحمر أفغانستان وتمركزه على بعد عدّة مئات من الأميال عن المملكة. وأعلن أحد أعضاء العائلة المالكة: "إنّ الوجود العسكري السوفياتي في

كوبا لا يشكّل تهديداً خطيراً للأمن الغربيّ بقدر التهديد الذي يشكّله الوجود الروسيّ في الخليج وفي القرن الإفريقيّ³.

كان ردّ المملكة السعيّ لدعم موقفها عبر حيازة معدات وتكنولوجيا عسكرية متطوّرة، بما في ذلك طلب شراء طائرات "أواكس" من الولايات المتحدة. وبدأ انخراط بندر في صفقة طائرات "أواكس" بعد ستة أيام على نشوب الحرب بين إيران والعراق. وفي 28 سبتمبر 1980، قام الجنرال ديفيد جونز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، بزيارة رسمية إلى المملكة العربية السعودية بناء على طلب بندر. ولدى وصوله استقبله الأمير، الذي قال له بلهجة مؤثرة وصريحة جداً: "إننا نريد طائرات أواكس على الفور. نريد طائرات أواكس لمراقبة الخليج على مدار الساعة. إننا بحاجة إليها. ولا يمكننا حماية المملكة من دونها. هل تستطيع أن تؤمنها لنا؟"⁴.

لم يكن هذا الطلب مثيراً للدهشة. ويذكر العقيد في سلاح الجوّ الأميركيّ بوب ليلاك، الذي أصبح في ما بعد طرفاً أساسياً في معركة طائرات "أواكس" والمطلع على عملية تحديث سلاح الجوّ الملكيّ السعودي وفق مشروع "صقر السلام"، قائلاً: "أجرينا [في سلاح الجوّ الأميركيّ] دراسة كبرى تتعلق بحاجات المملكة. ومن بينها الحاجة إلى المراقبة المحمولة جواً. فالحدود الساحليّة للمملكة العربية السعودية طويلة جداً، وتحتاج إلى إنذار مبكر أفضل مما يمكن الحصول عليه من راداراتها القائمة. وفيما كنا نوشك على إنهاء الدراسة، قرّر سلاح الجوّ الأميركيّ، مع وزارتي الدفاع والخارجية ومجلس الأمن القوميّ، أنّ علينا المساعدة في حماية المقدّرات النفطية، وأوصى أن يشتري السعوديون طائرات أواكس"⁵.

وأوصى التقرير أيضاً أن يتولى الأميركيّون تصميم وإنشاء القواعد الجوية الخاصة بهذه الطائرات بحيث تستطيع الطائرات الأميركية استخدامها (وقد استخدمتها في حرب الخليج) إذا ما حدثت أزمة في الشرق الأوسط.

على الرغم من المعارضة التي أبدتها مستشارو كارتر، الذين حذّروا من ردّ فعل سلبيّ من المقترعين فيما كانت حملة الانتخابات الرئاسيّة سنة 1980 تقترب من ذروتها، فقد نجح جونز في إقناع الرئيس بالاستجابة للحاجة السعودية. وبعد مرور وقت قصير على زيارته المملكة واجتماعه مع بندر، حطّت أربع طائرات "أواكس" بأطقمها الأميركية في المملكة العربية السعودية في "مهمة تدريب مؤقتة". وعملت بعد

ذلك على مدار الساعة وعلى مدار السنة، وبقيت هناك نحو سبعة أعوام. وكى تعرب المملكة عن امتنانها، رفعت إنتاج النفط، فانخفضت أسعاره.

تؤمن تكنولوجيا طائرات "أواكس"، مقرونة بقدرات عسكرية أخرى، تغطية رادارية متواصلة لمنطقة الخليج، وتمنح السعوديين فترة إنذار تتراوح بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة قبل حصول هجوم جوي على حقول نفطهم. وهي بقدرتها على تعقب 240 هدفاً أو طائرة معادية في وقت واحد، وتوجيه طائرات لاعتراض تلك الأهداف أو الطائرات، تشكل نظام رادار القيادة والسيطرة الأكثر تطوراً في العالم والمتقدم أجيالاً على أفضل ما لدى السوفيات آنذاك من تكنولوجيا. وقد يسهل دمج طائرات "أواكس" في نظام القيادة والسيطرة السعودي لمقاتلات F-15، إمكانية تنفيذ طلعة واحدة على الأقل ضد أي مهاجم قبل أن يتسنى لهذا الأخير ضرب هدفه. وأتاح للسعوديين أيضاً توجيه بطاريات صواريخ "هوك" والاشتباك بشكل فعال مع الطائرات المهاجمة، بل وحتى تأمين بعض التنسيق الداعم لمقاتلاتهم F-5E.

أثارت هذه الطائرات الأربع المستعارة بشكل مؤقت شهية الجيش السعودي، ولم يمض وقت طويل حتى طرحت الحكومة السعودية السؤال الذي لا مفر منه: هل ستبيع إدارة كارتر المملكة العربية السعودية خمس طائرات "أواكس"، وسبع طائرات صهريج KC-135؛ وبالمناسبة، هل يمكننا أيضاً الحصول على بعض معدات مقاتلات F-15 وصواريخ جو - جو لقاء 8.4 مليارات دولار؟

كان ذلك الطلب قبلة سياسية: فإسرائيل تخشى من سلاح الجو السعودي الحديث، وقد وعد الرئيس الكونغرس تحديداً سنة 1978 بألا يسمح للسعوديين بشراء طائرات "أواكس". ومع ذلك، أبلغ وزير الدفاع هارولد براون السعوديين أن كارتر يميل إلى بيع المملكة طائرات "أواكس".

وبعد مناقشات بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية، أُعدت صفقة لتقديمها إلى الكونغرس. وتنص الصفقة، إلى جانب بيع السعوديين خمس طائرات "أواكس"، على بيع خزانات وقود متطابقة^(*)، ومناصب حقن متعددة تسمح

(*) خزانات الوقود المتطابقة (CFTs) هي خزانات وقود إضافية تتوافق بشكل وثيق مع القطاع الجانبي للطائرة. وهي تطيل مدى الطائرة أو فترة وظيفتها مع تأثيرات إيرودينامية سلبية أقل مما تحدثه خزانات الوقود الخارجية التي يجري التخلص منها عادة.

للمقاتلات القاذفة F-15 بحمل المزيد من القنابل، وطائرات صهريج KC-135 لإعادة تزويد طائرات F-15 بالوقود في الجو، وصواريخ جوّ - جوّ متطورة "سايدويندر" (AIM9-L).

كان التوقيت مشؤوماً؛ إذ لم يبقَ أمام كارتر سوى أسابيع قبل أن يترك منصبه. وفي عدة لقاءات في ديسمبر 1980 بين الرئيس كارتر الخارج من الحكم والرئيس المنتخب ريغن، عرض كارتر منح المملكة العربية السعودية حق شراء الأسلحة الجديدة، متيحاً بذلك للرئيس ريغن المجال لتفادي التورّط في مسألة خلافية جداً في مستهل رئاسته. غير أن ريغن رفض العرض، مشيراً إلى كارتر أن إدارته ستجري تقويمها الخاص لسياسة الشرق الأوسط، بما في ذلك موضوع بيع الأسلحة للمملكة العربية السعودية⁶.

يجدر تذكّر المصاعب التي واجهها ريغن لدى توليه الرئاسة سنة 1981. كان الشرق الأوسط في حالة اضطراب شديد؛ والولايات المتحدة تعاني من الأضرار التي لحقت بمكانتها على المسرح العالمي بسبب طريقة تعامل إدارة كارتر مع أزمة الرهائن الأميركيين في إيران؛ والاقتصاد الأميركي يترنح بفعل تأثير أسعار النفط التي قفزت سبعة أضعاف تقريباً؛ والاتحاد السوفياتي "يتقدّم من قوة قارية إلى قوة عالمية"⁷.

انتُخب رونالد ريغن لتعهّده بإحداث انقلاب في الاضطرابين الاقتصادي والعسكري اللذين عانت منهما الولايات المتحدة في السبعينيات. ومع ذلك، كانت رؤيته مقيدة بضوابط حادة للموازنة. فقد تعرّضت أميركا لضربة قوية بارتفاع أسعار النفط في سنتي 1973 و1979. كما أنّ رغبة الرأي العام في القيام بمغامرات عسكرية جديدة كانت منخفضة، بعد مرور عقد على الحرب في فيتنام. مع ذلك، كان ريغن عازماً على متابعة أجنده المناوئة للشيوعيين، وبتشجيع من مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بيل كيسبي، سارع إلى اعتبار المملكة العربية السعودية بمثابة مساعدة محتملة من أجل حملته المزمعة ضد الاتحاد السوفياتي. بالإضافة إلى ذلك، تستطيع الولايات المتحدة، إذا قدّمت المساعدة إلى السعوديين، ضمان تدفق النفط على نحو مستقر وبأسعار معقولة. وبدا أن بيع طائرات F-15 للمملكة خطوة ذكية.

أحسّت الإدارة الجديدة بالمعركة المقبلة، فحرصت على جس النبض في الكونغرس. وفي اختبار لردّ الفعل المحتمل، قدّم نائب وزير الخارجية جيمس آل. بكلي إلى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ ولجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب في 26 فبراير 1981 تقارير موجزة غير رسمية عن صفقة الأسلحة المقترحة للمملكة العربية السعودية. وقد أقرّ بكلي بالمخاوف الإسرائيلية إزاء الصفقة، لكنّه أشار إلى أنّه سيُسمح لإسرائيل بشراء 15 طائرة F-15 إضافية. كما أعلنت الإدارة أن إسرائيل ستتلقي 600 مليون دولار على شكل اعتمادات عسكرية لتمكينها من التغلب على أي خلل متصوّر في الميزان العسكري بينها وبين المملكة العربية السعودية. في المقابل، أبلغت حكومة إسرائيل إدارة ريغن سرّاً أنّها لن تنازع الصفقة ولن تحضّ اللوبي الإسرائيلي في واشنطن، وخصوصاً "أبياك"، على إعاقته.

في 6 مارس 1981، أعلنت إدارة ريغن أنّها مستعدة لبيع المملكة العربية السعودية رزمة تعزيز لطائرات F-15، وذلك لمواجهة "التهديد المتنامي" للاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط والخليج. كان الغرض من الصفقة دفاعياً بحتاً ولن يتضمن مناصب للقنابل. وبذلك جرى تخفيف ردّ الفعل في الكونغرس⁸. وبعد ذلك بأربعة أسابيع، إثر اجتماع لمجلس الأمن القومي في 2 أبريل 1981، لمناقشة بيع الأسلحة للمملكة العربية السعودية، تمت الموافقة على تزويد المملكة بخمس طائرات "أواكس" وطائرات صهريج KC-135، فضلاً عن رزمة تعزيز طائرات F-15، بما فيها خزانات الوقود المتطابقة ومناصب القنابل وصواريخ "سايدويندر".

كان ما اقترحه ريغن أكبر صفقة أسلحة أميركية حتى ذلك التاريخ؛ وقد تفاوتت التقديرات بشأن الحجم الحقيقي للصفقة، لكنها كانت في حدود 7-9 مليارات دولار، ليرتفع المبلغ إلى نحو 85 مليار دولار بعد إضافة نفقات مختلف ضروب الدعم اللاحق من بنى تحتية وتدريب ودعم عملائي. ومن خلال تقديم خزانات الوقود المتطابقة، يتوفّر لطائرات F-15 السعودية الاثنتين والستين التحمّل والمدى للمحافظة على عمليّات الحفر الجويّ القتالية، ما يرفع فعّاليتها. وبسبب تزايد المدى، تستطيع تلك المقاتلات أيضاً الاحتشاد في منطقة الخليج لفترات قصيرة، حتى لو فقدت المملكة العربية السعودية القاعدة الجوية في الظهران. وستعزّز طائرات الصهريج KC-135 الفعّالية العملائية للمقاتلات الدفاعية السعودية بإتاحة إعادة تزويد طائرات "أواكس" و F-15

وF-5E بالوقود وهي في الجو. كما أنها ستمكّن المملكة من تقبل تعزيزات من حاملات طائرات أو قواعد أميركية خارج المملكة. أخيراً، ستمنح صواريخ "سايدويندر"، بقدرتها على ضرب الهدف من أي جانب، مقاتلات F-15 وF-5E سلاحاً للاستخدام في عمليات اعتراضية "مباشرة" للطائرات المهاجمة على علو منخفض، من دون الاضطرار إلى التضحية بالوقت، وبعيداً عن احتمال الإخفاق في تنفيذ عملية اعتراض وهي تناور في وضع "الاشتباك الجوي" - وهذه ميزة قيّمة بالنظر إلى محدودية وقت الإنذار - الذي توفره طائرات "أواكس"⁹.

عند مناقشة الشؤون اللوجستية المتعلقة بالصفقة، قال العقيد ليلاك بشكل جازم: "كان القسم المتعلق بطائرات الصهريج من الصفقة مهماً جداً - تلي أهميته أهمية طائرات أواكس مباشرة. لكن الكونغرس لم يكن راغباً في منح المملكة العربية السعودية طائرات صهريج؛ في النهاية، لم تريد المملكة الذهاب إلى أي مكان؟ كان ذلك جانباً خلافياً من الصفقة". ولاحظ أيضاً: "تبين لاحقاً أن طائرات أواكس هي القسم الأسهل من الصفقة تقريباً، لكن، نظراً لأن خزانات الوقود المتطابقة تطيل مدى طائرات F-15، وصواريخ AIM9-L توفر قدرة القتال وجهاً لوجه، وبسبب وجود طائرات إعادة التزود بالوقود، فقد أصبحت صعبة جداً"¹⁰.

بما أن ريغن كان معروفاً بمناصرته القوية لإسرائيل وسخريته من الدول العربية، فقد كان تأييده الشديد لصفقة طائرات "أواكس" مثيراً للدهشة. وكان قبل تنصيبه رئيساً يميل إلى التقليل من أهمية الاتصال بأي بلد عربي.

ومع ذلك، فإن تأييده للصفقة إقرار بحقيقة اقتصادية بسيطة - أي تهديد للمملكة العربية السعودية، وأي انقطاع مطول تال لصادرات النفط من الخليج سيكونان بالتأكيد ضربة مدمرة للاقتصاد العالمي - كان عدم الاستقرار السياسي في المنطقة، والمخاطر الاقتصادية والاستراتيجية الهائلة التي تنطوي عليها المحافظة على حقول النفط، وإمكانية تعرض تلك الحقول لهجمات جوية، يعني أن موافقة ريغن على صفقة طائرات "أواكس" قرار حكيم في السياسة الخارجية. كما أنه وطّد مكانة الولايات المتحدة بوصفها القوة العسكرية السائدة في الخليج.

كانت الأجندة الحقيقية وراء صفقة طائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية عميقة جداً، لكن المعادلة البسيطة هي دفاع الولايات المتحدة عن المملكة

في مقابل حصولها على إمدادات آمنة من النفط الحيوي. ومع ذلك، ثمة عامل آخر في قرار ريغن تأييد الصفقة. فقد بدأ الرئيس بناء سياسة خارجية مستنبطة من اهتمامه الشديد لإحداث انقلاب في تنامي "إمبراطورية الشر" (*) وانهيار الشيوعية في النهاية.

أدرك ساعد الرئيس ريغن الأيمن في الحرب على الشيوعية، أي مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بيل كيسبي، أن القلق السعودي من النيات السوفياتية يجعل المملكة العربية السعودية حليفاً طبيعياً. كما أنه كان يعي أن النفط هو المادة التي لا يستغني عنها الاقتصاد الغربي، وأن الوصول المستقر والآمن إلى احتياطات النفط أمر حيوي إذا كان لا بد من التعافي الاقتصادي.

لقد كان ريغن وكيسبي يدفعان باباً مفتوحاً في الواقع؛ فللمملكة العربية السعودية أسبابها لمساعدة أميركا في محاربة السوفيات. أولاً، كانت الولايات المتحدة ناشطة فعلاً في المساعدة على حماية حقول النفط السعودية، والقيادة السعودية مصممة على وجوب بقاء العلاقات حسنة بين المملكة والأميركيين. ثانياً، كانت المملكة تشعر بقلق متزايد من التهديد الناشئ من الهيمنة السوفياتية في المنطقة. وفسرت الرياض مغامرات موسكو في أفغانستان على أنها جزء من اندفاعه بتوجيهه سوفياتي لتطويق شبه الجزيرة العربية بأنظمة شيوعية وقلب أنظمة الحكم الملكية الغنية بالنفط؛ وقد عززت الأنشطة السوفياتية في اليمن وإثيوبيا ذلك التقدير. ثالثاً، كانت المملكة تمتلك أموالاً نفطية هائلة، وفي وسع الولايات المتحدة الاستفادة من ذلك المال بسهولة¹¹.

عند قياس احتمال قيام شراكة مع المملكة العربية السعودية، كان كيسبي يعلم أن الرئيس ريغن لا يريد احتواء الاتحاد السوفياتي فقط، بل يريد أيضاً "عكس اتجاه توسع السيطرة السوفياتية ووجودها العسكري في العالم". كانت تلك الطموحات، التي أفصح عنها ما أصبح يُعرف في ما بعد "مبدأ ريغن"، تسعى لتضخيم تكاليف الجهود السياسية الخارجية السوفياتية عن طريق الانتصار للديمقراطية، وإثبات السوفيات بالإفراط في الإنفاق على الدفاع، ودعم الثورات المناهضة للسوفيات في العالم النامي. لكن اتضح، ضمن الإدارة، أن دحر الشيوعية "يتطلب القدرة على تمويله ونحن ببساطة

(*) وصف الرئيس ريغن الاتحاد السوفياتي "بإمبراطورية الشر" في خطاب له أمام مجلس العموم في

لا نستطيع القيام بذلك وحدنا". لذا رأى بيل كيسي أن الإمكانية الحقيقية للمساعدة السعودية لتحقيق أهداف ريغن هي إمكانية مالية¹².

كانت المملكة العربية السعودية تناهض الشيوعية بقوة، وكانت شريكة متوافقة أيديولوجياً مع الأميركيين في المعركة ضد "الشيوعية الملحدة". غير أن النفط كان أيضاً مكوناً حيوياً من مكونات الحملة المقبلة الموجهة ضدّ الاتحاد السوفياتي. وفي وسع المملكة العربية السعودية، كأكبر منتج للنفط في العالم، تقرير نتيجة لعبة تعيد تنشيط الاقتصاد الأميركي، بينما تزداد ضغوط الاتحاد السوفياتي على دخله بالعملة الصعبة وتتعدى حدّ الانكسار، بما في ذلك من عواقب كارثية على سياساته التوسعية. فكلما انخفض سعر برميل النفط دولاراً واحداً يعني بالنسبة إلى موسكو نقصاناً في العملة الصعبة المحصّلة من مبيعات نفطها قدره مليارات دولار في السنة. وكانت مسألة تسعير النفط والعلاقة الأمنية الأميركية السعودية على سوية واحدة. وكما قال وزير الدفاع كاسبار واينبرغر، "كان ذلك عنصراً حاسماً في استراتيجية ريغن. كنا نريد خفض أسعار النفط، وهذا أحد أسباب قيامنا ببيعهم أسلحة"¹³.

هذه الخلفية بالذات هي التي عجلت في نشوء شراكة فريدة وغير محتملة وسرية في الغالب، شراكة دامت على مدى العقدين التاليين. لقد شهد عهد ريغن توطداً غير مسبوق في العلاقات الأميركية السعودية. وسرعان ما أصبح الأمير بندر بن سلطان، الطيار السابق الذي تحوّل إلى دبلوماسي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، صلة الوصل الأساسية بين الدولتين.

على الرغم من الحاجة الواضحة إلى التكتّم، فقد تسربت أنباء عن الصفقة الضخمة التي لم يعلن عنها بعد. وفي 7 أبريل، انفجر مجلس النواب عندما توالى أعضاؤه، جمهوريون وديمقراطيون على السواء، على انتقاد قرار الإدارة. وفي حين أن معارضة رزمة تعزيز طائرات F-15 بقيت صامتة نسبياً، فإن إضافة طائرات "أواكس" إلى الصفقة غير الأجواء دفعة واحدة. فألقى أكثر من مئة من أعضاء الكونغرس خطاباً عارضوا فيها الصفقة، ووجد استطلاع أجرته "أسوشيتد برس" أن عشرين سيناتوراً فقط راغبون في تأييدها¹⁴. وعجلت المناقشة في الكونغرس في قيام معارضة واسعة النطاق للصفقة، وأدت إلى تأجيل خطة الإدارة طرح موضوع رزمة الأسلحة أمام الكونغرس في 27 أبريل¹⁵.

وبدلاً من ممارسة ضغط لإبرام صفقة طائرات "أواكس" ومواجهة خطر رفضها، واصلت إدارة ريغن الجهود لضمان انتهاء الأمر إلى مصلحتها. فبدأ مساعد وزير الخارجية لشؤون العلاقات مع الكونغرس ريتشارد فيربانكس يتملق أعضاء الكونغرس بقوله إن "الاقتراح يؤكد التزام هذه الإدارة بمواجهة التدهور في أمن الشرق الأوسط/الخليج، ومؤازرة أصدقائنا، وحماية المصالح الحيوية الغربية، ومنع الاستغلال السوفياتي للتوترات ومواطن الضعف الإقليمية... وستساعد المملكة العربية السعودية الأكثر أمناً السعوديين على تعزيز الاستقرار في المنطقة وتوسيع تعاونهم الكبير معنا".

وشدد فيربانكس أيضاً على أن القوى المحركة في الخليج تبدلت بشكل جذريّ في ضوء الاضطراب السياسي المتزايد في المنطقة منذ سنة 1978، وأن تهديد الأمن السعوديّ تصاعد حتى بلغ مستوى خطيراً يثبت حاجة السعوديين إلى طائرات "أواكس" ويقام خطر الاختراق والاستغلال السوفياتيين. وكرّر فيربانكس الإشارة إلى الغزو السوفياتي لأفغانستان، وفوضى الثورة الإيرانية، وأخطار الحرب الإيرانية العراقية، والوجود السوفياتي في اليمن الجنوبي وإثيوبيا. كما شدد فيربانكس على القول إن المملكة العربية السعودية، "كمنتج مرجح" ذات تأثير عظيم في أوبك، وأنها سعت لضمان استقرار سعر النفط في السوق بعد اختلال صادرات النفط الإيرانية¹⁶. لذا فإن صفقة طائرات "أواكس" تقنع المملكة بمواصلة انتهاج تلك السياسة.

وفي حين سعى ريغن للحؤول دون دخول معركة طائرات "أواكس" الحيز العلني أكثر مما سبق، فإنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، الذي سبق أن وافق على عدم عرقلتها، انبرى إلى إدانتها علانية، وشجها من دون تحفظ لأنها تشكل تهديداً شديداً لإسرائيل. وفي أواخر يونيو، انضم السيناتور بوب باكود، وهو جمهوري من أوريغون وسيناتور متحمس في تأييد إسرائيل، إلى طوم داين، مدير "أيباك" التنفيذي، في الإعلان في 25 يونيو عن أن 54 سيناتوراً - أغلبية في مجلس الشيوخ - بعثوا رسالة إلى الرئيس موقعة من كلا الحزبين أعربوا فيها عن معارضتهم "اعتزام الإدارة بيع معدّات معززة لطائرات F-15 و صفقة طائرات أواكس للمملكة العربية السعودية. "إننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الصفقة ليست في مصلحة الولايات المتحدة، ولذلك نوصي أن تمتنع عن إرسال هذا الاقتراح إلى الكونغرس". وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، صدر عن مجلس النواب قرار موقع من 224 عضواً يرفضون الصفقة. وفي يوليو،

أعلنت "أيباك" أن هدفها "الحؤول دون تقديم الرزمة" إلى الكونغرس للتصويت - وكانت أغلبية بسيطة في كلا المجلسين كافية لعرقلة الصفقة¹⁷.

وبروح من التحدي صمّم الرئيس ريغن على مواصلة الضغط. وفي اجتماع خاص وغير معلن مع بندر، وعده بتقديم صفقة طائرات "أواكس" الرسمية إلى الكونغرس خلال الخريف وتعهد ببذل قصارى جهده لتأمين إقرار الصفقة. اعتقد السعوديون من جهتهم أنّ في وسعهم مساعدة الإدارة، كما فعلوا في سنة 1977 وفي سنة 1979 إبان عهد كارتر، وذلك بطرح أفكار بناءة تتوخى التوصل إلى تسوية سلمية للوضع الإسرائيلي الفلسطيني.

وكما كانت الحال في معركة طائرات F-15 سنة 1978، أصبح مجلس الشيوخ الميدان الرئيسي لصفقة طائرات "أواكس"، لكن هذه المرة كان البيت الأبيض متلکناً؛ إذ ركّز على قضايا الضرائب والميزانية في الأشهر الأولى من إدارته الجديدة. وعندما سئل فرد داتون عن الفارق بين المواجهات مع "أيباك" والكونغرس في صفقتي F-15 و"أواكس"، أجاب: "كانت صفقة طائرات أواكس في عهد ريغن معركة أقسى". وأضاف موضحاً: "برزت صفقة طائرات F-15 على المسرح بسرعة وغادرته بسرعة. لكن كانت صفقة أواكس معركة دموية طويلة. وأيباك اشتهت أخبارها باكراً وحاربتها بعنف. لقد أخذت أيباك تدبير دفة الأمور في الواقع"¹⁸.

خشى معارضو صفقة طائرات "أواكس" من أن تستخدم الحكومة السعودية الطائرات في تهديد أمن إسرائيل، وهو الأمر الذي يتوافق مع تاريخ الرياض الطويل من العداة المتشدد للدولة اليهودية. ورأوا أيضاً أنّ الحكومة السعودية نظام "يفتقر إلى الكفاءة" ويمكن أن ينهار في أي وقت، ما يضع الطائرات في أيدي نظام ثوري إسلامي آخر على غرار النظام الذي برز في إيران.

أوضح العقيد ليلاك أن هناك عائقاً آخر جوهت به إدارة ريغن وهو الحساسية المتعلقة بالحصول على تكنولوجيا "أواكس". "نحن لا نفرض قيماً رسمياً قط على مكان مرابطة الطائرات، لكن كان هناك سطوح تحكم وضبط، كما أسميها أعتاداً كاذبة يقدمها مجلس النواب لعرقلة الصفقة، وكان ذلك أحد الأعدار التي قدمت في محاولة لمنع إتمام الصفقة، لأن التكنولوجيا كانت حساسة جداً؛ الإلكترونيات والبرمجيات التي تتحكم بجيازة وتعقب 240 هدفاً، فضلاً عن المدخلات المتعددة والاتصالات. كان ثمة

عدد كبير من الأجهزة التي تفوق الخيال داخل الصناديق السوداء. وقال كثير من الأشخاص: "إن الوصول إلى هذه الأجهزة مخوف بمخاطر عظيمة؛ وتصوروا وقوعها في أيدي شريرة وانتقالها إلى السوفييات"¹⁹. وقد أبدى السفير ريتشارد مورفي^(*) الملاحظة التالية: "كانت حجة ريغن بأكملها أن المملكة العربية السعودية بلد عربي، لكنها ليست من دول المواجهة ولا تطمح إلى المشاركة في الهجوم على إسرائيل. وعلى أي حال، إنها بحاجة كبيرة إلى مواجهة الحكومة الإيرانية الجديدة". وأضاف مورفي: "كنا طوال تلك الفترة شديدي القلق من إيران - ومن الحرب نفسها - وأعتقد أنني سمعت مسؤولاً أميركياً سابقاً يقول إن من مصلحتنا أن يستنزف الاثنان، إيران والعراق، أحدهما الآخر. لم يكن ذلك يثير اهتمامي البتة، لأنني كنت دائم القلق من احتمال مبادرة الإيرانيين إلى التحرك ضد دول الخليج الصغيرة وإشعال حريق آخر يتعين علينا إطفاءه"²⁰.

بموجب شروط قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، عندما يتلقى الكونغرس إشعاراً رسمياً بصفقة أسلحة، يُمهّل ثلاثين يوماً لوقف الصفقة بأغلبية الأصوات في كلا المجلسين. وفي حال انقسام الأصوات، يأخذ اقتراح الرئيس مجراه. وفي 14 سبتمبر 1981، وبمجهود شخصي من الرئيس ريغن لاستمالة الأصوات المترددة، دُعي 27 سيناتوراً إلى البيت الأبيض. وكان حظ جهوده من النجاح محدوداً؛ ففي وقت لاحق من ذلك الشهر، وقّع 56 سيناتوراً من كلا الحزبين التماساً معارضاً لصفقة طائرات "أواكس".

(*) ريتشارد دبليو مورفي مستعرب ذائع الصيت تابع تطورات الشرق الأدنى أكثر من أربعين عاماً، أمضى منها 34 عاماً مسؤولاً دائماً في الإدارة الخارجية. بعد إنهائه الخدمة في الجيش الأميركي، انضم إلى وزارة الخارجية، ومن سنة 1955 إلى سنة 1968 خدم في سالزبوري، روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حالياً)، وبيروت، لبنان، وحلب، سورية، وجدة، المملكة العربية السعودية، وعمان، الأردن. وأمضى الفترة 1968-1971 في واشنطن دي سي كمدير قطري لشؤون شبه الجزيرة العربية، ومدير شؤون الأفراد في مكتب الشرق الأدنى. وفي سنة 1971، رشحه الرئيس نيكسون للعمل كسفير إلى موريتانيا، وأصبح في سنة 1974 سفيراً إلى سورية. وفي ما بعد، عمل كسفير إلى الفلبين والمملكة العربية السعودية. وكان في 1983 إلى 1989 مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في عهد الرئيس ريغن، ونشط على وجه الخصوص في عملية السلام الإسرائيلية العربية. حاز ريتشارد مورفي جائزة الرئيس للخدمة المميزة ثلاث مرات وجائزة الشرف العليا مرتين من وزارة الخارجية. وفي سنة 1985 سُمي سفيراً دائماً، وهو لقب حمله خمسة موظفين فقط، وبعد تقاعده من الخدمة في سنة 1989، انضم إلى مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك كزميل كبير لشؤون الشرق الأوسط.

في هذه المرحلة بالذات من مراحل النقاش بُذلت محاولات لوضع قيود وانتزاع تنازلات من السعوديين بخصوص عمل الطائرات؛ كل ما هو ضروري لتأمين تصويت في مجلس الشيوخ. وكان من الطبيعي أن يقاوم السعوديون تلك القيود، بل إنهم أشاروا إلى استعدادهم للحصول على أنظمة أسلحة من إنكلترا أو فرنسا إذا لزم الأمر. وإذا وجدت الإدارة نفسها بين المطرقة والسندان، أبلغت إلى الكونغرس أنها ستقدم إشعاراً رسمياً بالبيع في 1 أكتوبر.

وفي 1 أكتوبر 1981، وبموجب قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، أرسلت هيئة المساعدة الأمنية الدفاعية في البنتاغون الوثيقة الحاسمة، الإحالة رقم 81-96، إلى مجلس الشيوخ ومجلس النواب للموافقة عليها. نصّت هذه الوثيقة الموجزة على أنّ سلاح الجوّ لم يجد سبباً استراتيجياً لرفض طلب المملكة العربية السعودية شراء خمس طائرات "أواكس" بمبلغ 8.5 مليارات دولار²¹. وضمت الصفقة خمس طائرات "أواكس" من طراز "E-3A سنترى"، وثمانية عشرة منشأة رادارية أرضية ذات صلة بالطائرات، وست طائرات صهريج KC-135 (مع حق شراء اثنتين أخريين)، و101 من خزانات الوقود المتطابقة لطائرات F-15 التي حصلت المملكة عليها سنة 1978، و1177 صاروخ جو - جو "سايدويندر" مع نظام توجيه وتحكم شامل الاتجاهات. لقد كانت الصفقة رزمة دفاع جوي مع بنية تحتية ضخمة، بتكلفة فعلية تبلغ 85 مليار دولار، أي عشرة أضعاف القيمة الاسمية لمبيع طائرات "أواكس"²².

في المرحلة الأولى من النزاع على طائرات "أواكس" من أبريل إلى أغسطس 1981، لزمّت الحكومة السعودية الصمت، معوّلة على إدارة ريغن لإقرار الصفقة في الكونغرس. لكن عندما اتضح أنّ المعركة تزداد شراسة وأنّ مجلس الشيوخ لا يثق في الضمانات التي قدمتها الحكومة السعودية إلى الرئيس ومفادها أنّ طائرات "أواكس" ستستخدم في مهمة دفاعية فقط، شرعت في حملة مفتوحة بغية استمالة شركات صناعة الأسلحة إلى صفها.

أمل السعوديون في أن تكون الرسالة الدبلوماسية التي يعثونها بتعيين بندر، المخول عملياً بالتكلم باسم الملك، إشارة واضحة إلى الأهمية التي توليها المملكة للصفقة. وكان بندر ممثلاً صاعداً للمملكة العربية السعودية في واشنطن، وابن وزير الدفاع الأمير سلطان، والمؤمن على أسرار ولي العهد فهد. كانت الحكومة السعودية



بندر يقدم أوراق اعتماده كسفير
إلى الرئيس رونالد ريغن

تريد بوضوح أن تبعث بإشارة لا لبس فيها أن الرياض تنظر إلى صفقة طائرات "أواكس" كأمر مصيري بالنسبة إلى مصالح الأمن القومي السعودي. وكانت العائلة المالكة السعودية تعتبر بندر الشخص الملائم لتولي أمر تلك القضية²³.

ومن المستغرب، مع ذلك، أن وزير الخارجية ألكسندر هيغ، الذي زار المملكة في أبريل 1981، ربما عجل في انتداب بندر للمساعدة في

معركة ريغن لبيع الطائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية. فبعد أن نقل إلى ولي العهد الأمير فهد أن الرئيس مستعد للموافقة على صفقة "أواكس"، سأل: "بالمناسبة، أين صديقي الأمير بندر؟ نحن بحاجة إليه ليكرّر ما قام به في موضوع طائرات F-15".

وعلى فرد داتون، الشخصية الأبرز في مجموعة الضغط لمصلحة المملكة العربية السعودية، اختيار بندر مبعوثاً بالقول: "رأى ولي العهد فهد وجوب أن يأتي الأمير بندر ليساعد في ضمان إقرار الصفقة، كان الأمير فهد راعي بندر". ويتمتع داتون بخبرة في التعامل مع الكونغرس؛ فقد كان مساعداً خاصاً للرئيس جون أف. كنيدي وعيّن لاحقاً مساعداً لوزير الخارجية لشؤون العلاقات مع الكونغرس. كان يعرف الإجراءات المتبعة وكانت اتصالاته في المجلس كثيرة جداً؛ وكذلك اتصالاته مع وسائل الإعلام. "عندما وصلت إلى واشنطن أول مرة، كان التعرف إلى الإعلاميين أسهل، وتوقع كنيدي منا كلنا، نحن الذين لنا أدوار في إدارته، أن نشكّل الإعلام. وأظن أن ذلك كان أحد الأسباب التي جعلت كنيدي يعيدني إلى واشنطن، لأنني كنت داعية قوياً لتشكيل الإعلام؛ تشكيل الصحافة والتلفزيون"²⁴.

وجد بندر في داتون، حليفاً قوياً قادراً على الاستفادة من أمير مطلع تماماً ومركز الفكر كأنه سلاح للتصويب والتسديد. وبعد ذلك، كانت المسألة تتعلق باتصال الأمير بأعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ والإعلاميين والتعامل معهم. وبإيعاز من داتون،

كان بندر يولم لصحافيين مختارين في منزل في كالوراما بارك، مازجاً المحادثة بمعلومات إخبارية حسنة التوقيت ومهمّة. وكان داتون يختار صفوة مراسلي واشنطن وصحافيين الذين يلهثون للحصول على معلومات داخلية بشأن معركة طائرات أواكس ويطلعهم مسبقاً على الأخبار. وبهذه الطريقة بدأت حملة طائرات أواكس السعودية من وراء الكواليس دعماً للاعب الرئيسي، الرئيس ريغن.

لقد كان تمرّس بندر بقراءة أسرار واشنطن السياسية المعقّدة والدقيقة في الغالب يتيح له العمل بشكل حاسم عندما يتطلّب الموقف ذلك. كما مكّنه من استيعاب كيفية ممارسة السلطة. أقام بندر مقرّه في جناح من ست غرف في فندق فيرفاكس في وسط واشنطن. هنا كان يتواصل بحرية مع الجماعات المؤيدة للعرب والداعمين لهم، فضلاً عن أعضاء مجلس الشيوخ الأساسيين الذين أعربوا عن دعمهم للصفقة. وقد عمل مع أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم لوضع استراتيجية تقنع بعض زملائهم الأصعب مراساً بتبديل ولائهم. وعلى الرغم من كون بندر مقدّماً صغيراً نسبياً، فقد اكتسب الاعتراف بأهليته وقدرته على تحقيق نتائج، وكذلك علاقته الخاصة بولي العهد الأمير فهد.

عمل بندر، بنهوضه بهذه المسؤولية، كمسهّل وقناة ومبعوث بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. كان في وسعه أن يترجم لا بين اللغات فحسب، وإنما بين الثقافات أيضاً؛ وكان بمثابة الغراء بين الدولتين المتباينتين إلى حد بعيد وقد علت مكانته مع ازدياد العلاقة متانة.

فيما يتعلّق بالتكتيكات السعودية خلال مناقشة صفقة طائرات أواكس، أكد داتون أنهم كانوا يحاولون جعل الرئيس ريغن يبدو كأنه يتولى زمام الأمور. لكن، كان تحقيق ذلك يتطلب الكثير من العمل. وعن دور بندر، قال داتون: "تعلّم اللعبة السياسية هنا بسرعة معقولة وكان يحاول دائماً العمل في الكواليس بجهد لا يقلّ عن العمل علانية، وقد أتقن ذلك. وبالنسبة إلى الاستراتيجيات أو التكتيكات، فقد ألقى العبء على ريغن. وفي الأيام الأخيرة التي سبقت التصويت، لجأ ريغن إلى التودّد والإقناع وحتى إلى التهيب - كان يقوم بكل ما يراه ضرورياً. لم يكن في وسعه أن يخسر هذه الجولة، كانت كبيرة جداً - وأول اختبار كبير له في السياسة الخارجية".

وختم داتون: "كان تكتيكنا إبقاء ريغن منهمكاً"²⁵.



بندر مع صديقه المقرب
والموثوق، فرد داتون

كانت الاستراتيجية السعودية تتألف من شقين: استغل داتون الإعلام إلى أقصى حد، بما كان لديه من معارف كثيرة. وعلى الجانب الآخر، عمل بندر لاستمالة القاعدة الصناعية الأميركية، دافعاً الشركات للهجوم لمساندة صفقة طائرات "أواكس" عن طريق إعلامها، وإن بدبلوماسية، أن المملكة العربية السعودية ستقدّر عمل هذه الشركات، أو توانيها عن العمل، عند تقرير اتفاقيات الأعمال في المستقبل. وقد ساعد ديفيد سعد، المدير التنفيذي للرابطة الوطنية للأميركيين العرب، الأمير بندر في تنظيم دعم الصناعات الأميركية المهمة لشراء المملكة طائرات "أواكس". ومارست صناعة النفط ضغوطاً شديدة لمصلحة الصفقة، حيث أنفقت "موبيل" أكثر من نصف مليون دولار على إعلانات في الصحف عدت على صفحات كاملة مزايا التحالف الاقتصادي بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وكان الضغط الأشد ذلك الذي نسقته "بوينغ"، الشركة الرئيسية المتعاقدة في "أواكس"، و"يوناييتد تكنولوجيز"، التي لديها عقد بقيمة 100 مليون دولار معرض للخطر. وهكذا بعث رئيسا "بوينغ" و"يوناييتد تكنولوجيز" أكثر من 6500 برقية إلى شركات فرعية، وبائعين، وموردين في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، تحضهم على تأييد الصفقة²⁶. وذكر الصحافي ستيفن إمرسون أن سيناتوراً من الغرب الأوسط تلقى اتصالاً من كل الرؤساء التنفيذيين في ولايته لمصلحة صفقة طائرات "أواكس".

أسفرت الحملة السعودية لصالح "أواكس" عن واحدة من أنجح عمليات التأثير في الشركات الأميركية والسياسة الخارجية الأميركية تقوم بها جهة أجنبية على

الإطلاق. فقد طلب بندر المساعدة المطلقة وتلقاها من بعض أكثر الشركات نفوذاً في أميركا: "موبييل أويل"، و"بكتل"، و"بوينغ"، و"وستنغهاوس" و"يوناتيد تكنولوجيز". وعلى نحو ذلك، ساندت عشرات المصالح التجارية الأخرى الحملة بغية حماية عقود البترودولار القائمة أو تأمين عقود جديدة. وجرى حث آلاف المصالح التجارية الأخرى على الانضمام إلى الحملة بضغط من الموردن أو المشترين أو حتى الشركاء المحليين. وأضافت جهات أخرى كثيرة لا علاقة تجارية لها بصفقة طائرات "أواكس"، أو حتى بالمملكة العربية السعودية، دعمها لجهود الضغط لأنها كانت مقتنعة أن عدم إزعاج السعوديين أمر جوهري.

عكست الاستراتيجية السعودية إدراكاً للنفوذ الذي يمكن اكتسابه عن طريق الستماس الدعم من مجموعة الشركات الأميركية وتعبئته. فجرى الاتصال بمئات من الرؤساء التنفيذيين، ورؤساء الشركات، ونواب الرؤساء وحثهم بقوة على الكتابة لأعضاء مجلس الشيوخ الذين يمثلونهم أو الاتصال بمؤلاء الأعضاء. وعممت الرسالة أن الأعمال السعودية أعمال مجزية ومصدر لفرص العمل بشكل مقنع، وخصوصاً في الولايات المتحدة التي لم يكن يتمتع فيها أعضاء مجلس الشيوخ بحصانة سياسية.

وخلال فترة الستة أسابيع التي سبقت التصويت، ارتفعت وتيرة الضغوط الممارسة من قبل الشركات. ودُعي عشرات من ممثلي الشركات الأميركية الرئيسية في واشنطن إلى حضور حفلات استقبال في السفارة السعودية. ولما بدا أن نتيجة التصويت تزداد تقلباً، تكثف الضغط واستُخدمت العقود لإغراء الشركات التواقفة إليها. وفي 19 سبتمبر 1981، التقى بندر الرئيس السابق جيرالد فورد في بالم سبرينغ، كاليفورنيا، وتمت خلال اللقاء مناقشة العلاقات الأميركية السعودية وصفقة طائرات "أواكس". وبعد ذلك بشهر، أجرى الرئيس فورد اتصالات هاتفية بعدد من أعضاء مجلس الشيوخ وعبر عن تأييده صفقة طائرات "أواكس".

ومن خلال جهود بندر والفريق السعودي بأكمله، استطاع ريغن أن يدعو إلى "المشاركة النشيطة لمجموعة الشركات الأميركية بأكملها"، وهو مجهود وصف أنه "أوسع أهداف الضغط الذي تمارسه الشركات الأميركية في مسألة خاصة بالسياسة الخارجية"²⁷.

وقال بندر لاحقاً إن منطق ربط قضيتهم بالصناعات الأميركية والحاجة إلى استخدام أفضل المحامين (وأعضاء مجموعات الضغط وخبراء العلاقات العامة) أصبح

واضحاً جداً. "لطالما اعتقدت أن لدى الإسرائيليين قضية رديئة، لكنّ لديها محامين جيديين... وأنا نحن العرب لدينا دائماً قضية محقّة، ولكنّ لدينا محامين سيئين". وتحمّس الأمير، مضيفاً بابتسامة: "لماذا يجلدوننا في السياسة دائماً؟ [أي] إلى أن بدأنا نتعلم قواعد اللعبة وبدأنا اللعب [وفق] القواعد نفسها"²⁸.

ومع ذلك لم يتمّ اجتذاب الشركات فحسب. فمن كبار المسؤولين الآخرين الذين ساعدوا اللوبي السعودي كلارك كليفورد، وزير الدفاع في عهد الرئيس جونسون، وريتشارد كلايندينست، المدعي العام في عهد الرئيس نيكسون، ووليام روجرز، وزير الخارجية في عهد الرئيس نيكسون. وبذل الأمير قصارى جهده وأضاف مسؤولين سابقين في إدارة كارتر إلى اللوبي السياسي المؤيد لصفقة طائرات "أواكس"، بمن فيهم وزير الدفاع السابق هارولد براون، ووزير الخارجية السابق إدوارد موسكي والسفير السابق إلى المملكة العربية السعودية جون وست، وكذلك زعيم الجمهوريين الحاليّ في مجلس الشيوخ هوارد بيكر، والسيناتور جون تاور، رئيس لجنة القوات المسلحة²⁹.

وقد أقر الأمير بالحاجة إلى خبراء محنّكين ونافذين في الحلبة السياسيّة في واشنطن، ثم اكتسب ثقتهم؛ وباختصار، أحاط نفسه بأفضل من يستطيع المال أن يستقطبهم، ما سمح للفريق السعودي أن ينافس بجدارة في لعبة القوة في واشنطن في وجه المعارضة القوية جداً والتي يمدّها لاعبون فاعلون وخصوم آخرون بارزون.

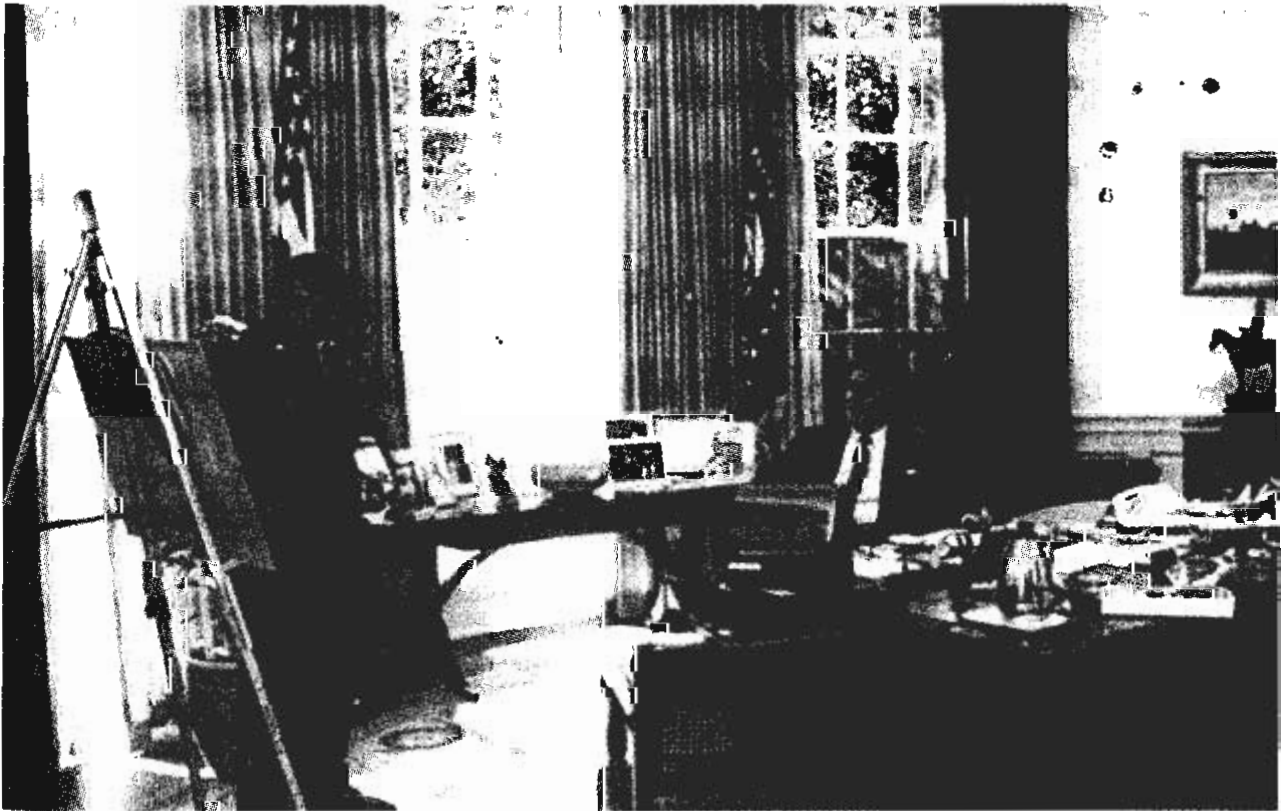
كان مسعى إدارة ريغن بشأن طائرات "أواكس" بقيادة فريق عمل خاص مؤلف من البيت الأبيض، ومجلس الأمن القومي، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، وموظفين في الكونغرس، وسلاح الجو الأميركي، الذي مثله بوب ليلاك. وقد رسمت خريطة تبيّن تقدم الفريق على جدار في غرفة البرمجة الواقعة في الطبقة السفلى من "الجناح الغربي" من البيت الأبيض. وكانت ثمة خريطة مماثلة في المكاتب السعودية في فندق فيرفاكس. وكان التواصل بين فريق البيت الأبيض والفريق السعودي وثيقاً للغاية.

وتعزز ذلك التفاعل بالانسجام الشخصي بين بندر وليلاك. ومع اشتداد حملة طائرات "أواكس"، أصبح ليلاك في الغالب صلة الوصل بين فريق البيت الأبيض وبندر. كان يعرف أين يجده، يعرف الأماكن المعهودة التي يتردد عليها بانتظام. ويذكر ليلاك كيف احتاجوا في إحدى الأمسيات، بعد اجتماع طويل في غرفة المواقف الحرجة في البيت الأبيض، إلى الاتصال ببندر بصورة ملحة لتوقيع مسودة اتفاق على طائرات "أواكس".

يقول ليلاك: "ارتوي أن ثمة قياداً واحداً يمكن أن يجتذب سيناتوراً معيناً إلى معسكرنا، وهو منع وصول تقنيين باكستانيين متعاقدين مع السعوديين إلى حزم برمجيات معينة في طائرات أواكس. كان لدى سلاح الجو الملكي السعودي الكثير من التقنيين الباكستانيين". وكان لا بد من اتخاذ قرار على وجه السرعة، واقتضى البروتوكول الحصول على موافقة بندر. ويتابع ليلاك: "كنا بحاجة إلى الحصول على جواب، للرد على هذا السيناتور في تلك الليلة أو في صباح اليوم التالي، لذا احتجنا إلى موافقة السعوديين بسرعة".

وحين لم يجد ريك بيرت، الذي كان يعمل آنذاك لحساب وزير الخارجية ألكسندر هيغ، بندر في السفارة، قصد مع ليلاك شقة بندر، حيث أبلغ ليلاك الحراس: "أنا بوب ليلاك، يجب أن أرى الأمير بندر". وجاءه الرد أن بندر في اجتماع خاص مع وزير الخارجية، لكن ليلاك ألح بالقول: "يجب أن تسمحوا لنا بالدخول". سُمح لليلاك وبيرت في نهاية المطاف بالانضمام إلى الأمير والوزير ألكسندر هيغ في اجتماعهما. عند دخولهما الغرفة، التفت هيغ ورأى بيرت وليلاك، وكان الأخير لا يزال مرتدياً بذلته العسكرية، ثم قال لبندر: "إننا في ورطة، لقد جاءنا سلاح الجو. ما الذي تفعلانه هنا؟".

أجاب ليلاك: "إنني بحاجة إلى توقيع بندر على قيد يتعلق بطائرات أواكس".



بوب ليلاك يوجز للرئيس ريغن عن طائرات الأواكس

قال بندر: "حسناً، دعنا نراه". وبعد النظر فيه مدة وجيزة، وقّع وهو يقول: "لا أظن أننا نمانع في ذلك، بل لست بحاجة إلى مراجعة أحد في المملكة بخصوص هذا الأمر".

ضحك هيغ وهو يتجه إلى الباب وقال: "انصرفا من هنا وعودا إلى العمل"³⁰. عندما زار وزير الخارجية الإسرائيلي إسحاق شامير واشنطن في فبراير 1981، تلقى إشارة مفادها أن الرئيس ريغن يميل إلى الموافقة على صفقة الطائرات السعودية. بيد أن تفاصيلها بقيت طي الكتمان؛ ولم تبلغه الإدارة سوى أن معدات مراقبة جوية ستباع للسعوديين من دون أن تفصح له عن طبيعة تلك المعدات³¹. وأخبر أن الصفقة ستضمن فقط معدّات لتعزيز طائرات F-15 نوقشت في السابق مع إدارة كارتر. ولم يبلغ شامير أن الصفقة ستضمّ طائرات "أواكس". من ناحية التفوق الجويّ الإسرائيليّ، فإنّ طائرات "بوينغ" المعدلة تلك، بأطباق راداراتها الكبيرة ومعدّاتها المتطورة الخاصة بمعالجة البيانات، ستضعف الأفضليّة العسكريّة الإسرائيليّة؛ إذ كانت تتقدّم بأشواط على طائرة "غرومان E-2C هوك آي" التي تمتلكها إسرائيل.

وعندما زار رئيس الوزراء مناحيم بيغن واشنطن في سبتمبر 1981، تأكّدت بالفعل إضافة طائرات "أواكس" إلى الصفقة السعودية. وكان ردّ فعل بيغن وتل أيبب عدائيّ جداً. ومع ذلك، اعتقدت الإدارة أنها أقنعت بيغن بالحد من ملاحظاته بخصوص طائرات "أواكس" وعدم إثارة حملة حولها في وسائل الإعلام. لكنّها كانت على خطأ.

يقول ريغن: "علمت أن بيغن توجه بعد مغادرته البيت الأبيض مباشرة إلى مبنى الكونغرس وراح يؤلّب المجلس عليّ وعلى الإدارة وصفقة طائرات أواكس، بعد أن أبلغني أنه لن يفعل ذلك. لم أكن أحبّ أن يتدخل ممثلو بلد أجنبي - أي بلد أجنبي - في ما اعتبره شأنًا سياسياً محلياً خاصاً بنا وفي تحديد سياستنا الخارجية. طلبت من وزارة الخارجية إبلاغ بيغن أن ما فعله لا يروقي، وأنّه يعرّض علاقة بلدنا الحميمة للخطر ما لم يكفّ عن ذلك. وشعرت في قرارة نفسي أنه نكث بوعدده وقد أغضبني ذلك"³². وبناء على ذلك، مع أن الرئيس ريغن يميل إلى تأييد إسرائيل، فقد جرت مناقشة طائرات "أواكس" على خلفية من التوتر المتصاعد بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

اعتُبر تدخل بيغن في العلاقات الأميركية مع المملكة العربية السعودية غير لائق. وفي السيرة الذاتية عن حياة ريغن، يشير لو كانون إلى أن "تكتيكات بيغن حملت ريغن على التدخل بشكل غير عادي في مجريات السياسة. وبتشجيع من كبير موظفي البيت الأبيض جيمس بيكر، جعل ريغن صفقة طائرات أواكس اختباراً لمكانته الشخصية، وكانت آنذاك عالية جداً بين الجمهوريين"³³. لقد أفسدت الحكومة الإسرائيلية قضيتها عن غير قصد. وفي حين كان يُنظر إلى السعوديين على أنهم يعملون مع الإدارة الأميركية بأسلوب إيجابى - حيث كانوا يتداولون في خطة سلام في الشرق الأوسط ويضخّون المزيد من النفط - بادر رئيس الوزراء الغاضب بيغن إلى الهجوم. لذا اعتُبر أن بيغن يستغلّ سلطة ومكانة منصبه كزعيم لدولة أجنبية للتأثير في الكونغرس كي يمنع صفقة لطرف ثالث. وفوق ذلك، كانت حصانة بيغن الدبلوماسية مضاعفة لأنه ليس مجرد زعيم أي دولة، وإنما دولة ذات روابط وثيقة استثنائية مع الفئة الثقافية الأحسن تنظيمياً من الناحية السياسية في الولايات المتحدة، أي الجالية اليهودية، ومصدر الصلات العاطفية العميقة الجذور بها. وهو، كرئيس وزراء، لم يكن يمثل حكومته في حملة ضغوطها ضد طائرات "أواكس" فحسب، بل يعتبر أيضاً أنه يتكلم بلسان الجالية اليهودية الأميركية.



مناحيم بيغن

لا شكّ في أنّ التعاطف بين إسرائيل والجالية اليهودية الأميركية يمكن بيغن من ممارسة تأثير سياسي في الكونغرس ربما يفوق تأثير أي زعيم أجنبي في العالم. لكن الاستغلال غير المسؤول لذلك التأثير، كما رآه ريغن والبيت الأبيض على السواء، يفسر لماذا سببت محاولات بيغن إقناع الكونغرس بعرقلة صفقة طائرات "أواكس" انزعاجاً واستياء في البيت الأبيض. لم يكن أيّ من المؤيدين للمملكة العربية السعودية يتمتع بالقدر نفسه من النفوذ السياسي، بمن فيهم بندر³⁴. ومع أن بندر كان يقود حملة الضغوط السعودية، فإنه كان مجرد ضابط في سلاح الجو. وكان يُنظر

إلى جهوده على أنها مناصرة طبيعية، في حين بدأ يُنظر إلى جهود بيغن على أنها تدخل مطلق.

في المؤتمر الصحفي الذي عُقد في 1 أكتوبر 1981، في الجناح الشرقي من البيت الأبيض في أثناء زيارة بيغن، أعلن ريغن بتحدٍ أنه سيرفع صفقة طائرات "أواكس" رسمياً إلى الكونغرس. وفي اتهام شائك وصریح وجهه إلى بيغن، أكد ريغن: "لا شأن لدول أخرى في رسم السياسة الخارجية الأميركية. ومن واجبي كرئيس تحديد أهداف سياستنا القومية العامة والدفاع عنها. الكونغرس يمارس بالطبع دوراً مهماً في العملية، وفي حين أن علينا دائماً أخذ مصالح حلفائنا الحيويّة في الحسبان، فإنه ينبغي أن تبقى المصالح الأمنية الأميركية مسؤوليتنا الداخلية"³⁵.

كان التدخل غير الملائم لمناحيم بيغن ذي الطبع الناريّ في مصلحة بندر. بل إنَّ بندر أعاد كثيراً من الفضل في نجاح الضغوط السعودية إلى رئيس الوزراء الإسرائيليّ، إذ قال: "كان بيغن، بالطبع، أفضل حليف لنا في موضوع طائرات أواكس، لأنّه كلما تكلم كسبنا المزيد من الأشخاص". وأضاف: "أنا واثق من أنه لم يقصد أن تسيّر الأمور على هذا النحو، لكنه كان أحسن أوراق الرابحة؛ كل ما كان عليّ أن أفعله هو القول هل سمعتم بيغن؟"³⁶.

ما بدأ كمسألة دفاع سعوديّ عقب توصيات سلاح الجو الأميركيّ مقابل حقول النفط السعوديّة، أصبح مسألة سياسيّة عندما صمّم بيغن و"أيباك" على الخؤول دون إتمام الصفقة. وقد رأى بندر أنّه إذا خسر السعوديون صفقة طائرات "أواكس"، فإنهم سيكسبون الرئيس، وإذا فازوا بالصفقة، فسيكسبونه أيضاً لأنَّ الرئيس يريد إتمام الصفقة". وهكذا، أصبح الموقف بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية مرشحاً في كلتا الحالتين، عندما انغمست إسرائيل في الحرب الكلامية. ويقول الأمير العالي الهمة: "كنا حريصين جداً على أن يُلزم الإسرائيليّون أنفسهم بمحاربتنا في موضوع طائرات أواكس. فعندما يفعلون ذلك، فإنهم يحاربون الرئيس، ونصبح في حل من الأمر. تركناهم وشأنهم لأن الفوز حليفنا في كلتا الحالتين. تلك هي الطريقة الوحيدة التي أنشدها". لقد كانت مكافآت هذا الصراع في الكونغرس أبعد من مجرد الحصول على معدّات عسكرية. كانت إيداناً بتغيّر كبير في الرأي العام الأميركيّ.

على المستوى التكتيكي، مكن تدخل رئيس الوزراء بيغن في نقاش طائرات "أواكس" فرد داتون من تصوير الخيار الذي يواجهه مجلس الشيوخ على أنه خيار "ريغن" أو بيغن³⁷. وقد ذكر في الواقع أن فرد داتون ربما كان أكثر الناشطين فعالية في الضغط لمصلحة طائرات "أواكس"، وأن "مساهمته الأبرز هي تحويل الجدل بشأن طائرات أواكس من قضية موضوعية إلى قضية شخصية؛ أي أنه استطاع تصوير القضية أنها معركة بين رئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء إسرائيل". وكما أبلغ داتون صحيفة "نيويورك تايمز"، يتعين على أعضاء مجلس الشيوخ الذين يعارضون الصفقة أن يوضحوا "كيف سيديرون السياسة الخارجية بعد أن فضلوا بيغن على ريغن؟"³⁸.

على الرغم من أن مجلس النواب رفض الصفقة، كما كان متوقفاً، بعد تصويت 301 مقابل 111، فإن ريغن شن حملة ضغط شخصية في مجلس الشيوخ الأميركي لا نظير لها في التاريخ الحديث. وتحوّل إلى أبرز الضاغطين قاطبة، وأجرى عشرات الاتصالات الهاتفية دعا فيها أعضاء مجلس الشيوخ المترددين إلى مساندة الصفقة. وحيث تدعو الضرورة، وعد بكثير من الخدمات التشريعية والخاصة بالموازنة. وتحدّث الرئيس إلى 44 سيناتوراً كلاً على حدة، مستخدماً الضغط والإقناع وأخيراً التهيب، في محاولة إقناعهم بالحاجة المطلقة إلى الموافقة على صفقة طائرات "أواكس"³⁹.

في الأيام الأخيرة التي سبقت التصويت، تلقت حملة ريغن الشخصية مساندة بالضغط الذي مارسه شركات صناعة الأسلحة والنفط الأميركية، وذلك بتشجيع من بندر والفريق العامل معه. وأدى التأثير السعودي المستتر في وسائل الإعلام، بفضل موهبة داتون، إلى جانب جهود فريق البيت الأبيض، إلى الحصول تدريجياً على أصوات حاسمة. وبدأت الفجوة في مجلس الشيوخ تضيق.

لجابهة التهديد الذي شكّله "أيباك"، حشد الرئيس جيشاً صغيراً من المسؤولين، من بينهم وزراء الخارجية والدفاع السابقون، لتقدم حجّة الإدارة أمام الكونغرس في جلسات استماع رسمية وجلسات إطلاع غير رسمية. ومن العاملين في الإدارة لمصلحة الصفقة جنرال سلاح الجو ريتشارد سيكورد، الذي ساعد على التفاوض مع السعوديين بشأن شروط الصفقة. وكان الجنرال سيكورد أعلى الضباط العسكريين رتبة الذين ساعدوا البيت الأبيض في قيادة فرق إطلاع الكونغرس. وكلّف البنتاغون

ثلاثة ضباط بتبع البرمجة والقضايا، أحدهم ضابط شديد الحيوية برتبة مقدم في مشاة البحرية اسمه أوليفر نورث. ومن هذا اللقاء بين الجنرال سيكورد ونورث الذي ذاع اسمه لاحقاً، زُرعت البذور التي أزهرت منها قضية إيران - كونترا.

كان قسم من البنية التحتية التي دعمت حملة ريغن بشأن طائرات "أواكس" يضمّ غرفة البرمجة. ويقول ليلاك، شارحاً وظيفة هذه الغرفة: "شملت البرمجة تتبّع من أُطلع من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ ومن قدّم الإطلاع، كما أنّها تتبّع برمجة الإطلاعات التي قدّمتها للمجموعات. كانوا يأتون بهذه [المجموعات] أو بصحافيين إلى غرفة المعاهدة الهندية في المكتب التنفيذي القديم". ويضيف ليلاك بسرعة: "كنا نطلع الصحافيين المعتمدين في البيت الأبيض بانتظام، كما أنّي كنت أطلع كبار الموظفين مثل مايك ديفر وإد ميس، وسواهما. إلا أن المبرمجين واصلوا تتبّع هذه الأمور كلها؛ كانوا يتبّعون في المقام الأول احتياجات أعضاء الكونغرس، من وما هي حاجته"⁴⁰.

وصف ريغن، في مذكراته، الجدل حول صفقة طائرات "أواكس" أنه "أحد أفسى المعارك التي شهدتها في أعوامي الثمانية في واشنطن... وباستثناء اقتراعين أو ثلاثة على الضرائب وخفض الإنفاق، فإنّني أمضيت في اللقاءات الثنائية وفي الاتصالات الهاتفية لتحقيق الفوز في هذا التدبير وقتاً أطول مما أمضيت في أي شيء آخر"⁴¹. وعلى خلفية هذه الصفقة غير المعلنة بشكل واسع من الأسلحة والبنى التحتية للمملكة العربية السعودية، وما صاحبها من تأثير في سياسته الخارجية وفي القدرة العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط، يمكن فهم لماذا ينبغي للرئيس إظهار مثل هذا التصميم الشخصي. وقد قال بيكر لاحقاً: "كان الرئيس مستعداً للقيام بأي شيء تقريباً لتفادي الهزيمة في هذا الأمر. وكان الوصول إليه متاحاً على مدار الساعة عند الضرورة. كان يشعر أن عليه تحقيق الفوز بالمطلق"⁴². وفي إيجاز لمدى ضلوعه شخصياً في الضغط على مجلس الشيوخ، عزا الرئيس الطابوع الجاف والعدائي الذي صبغ مناقشة صفقة طائرات "أواكس" إلى الصراع الشديد والحاد الذي نظّمه اللوبي المؤيد لإسرائيل. ويظهر شعور ريغن بالحاجة إلى تنظيم مثل هذا الضغط القوي على كلا الحزبين بشأن صفقة طائرات "أواكس"، قبل أسابيع من موعد التصويت في مجلس الشيوخ، حدّة المعارضة التي قادتها "أيباك" وإدراكه حجم التهديد الموجه إلى إدارته السياسة الخارجية الأميركية.

لقد تطوّرت "أبياك" على مر السنين من منتدى الشؤون العامة الجنبيني المؤيد لإسرائيل في الخمسينيات، حيث كان يضم بضعة آلاف من الأعضاء، إلى لوبي واسع ذي نفوذ بالغ وعلى درجة من الخطورة، يلجأ إليه عشرات من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب طلباً للتوجيه والإرشاد. وقد أقرّ ريغن بالتهديد الذي شكّله هذا اللوبي شديد التأثير، وكان يعرف أن العديد من أعضاء مجلسي الشيوخ ومجلس النواب يرون أن نفوذ "أبياك" السياسي يبعث على الرهبة. وبالإجمال، تمكّنت "أبياك" من "استجماع البأس واكتساب القوة بالتكيف مع سياسة واشنطن الجديدة: اتساع سلطة الكونغرس، وقوة التأثير في القواعد الشعبيّة، والحاجة إلى أن تكون من الحزبين، وأهمية تقديم الدعم المالي لصالح الأصدقاء وضد الأعداء ثم الإعلان عن النتائج". باختصار، كانت "أبياك" على معرفة وثيقة بالقواعد الجديدة للعبة ممارسة الضغوط والتأثير ولعبت وفق تلك القواعد لتفوز⁴³.

في هذا الاختبار للقوة إزاء اللوبي الإسرائيلي، حصل الرئيس العازم على دعم الرؤساء السابقين نيكسون وفورد وكارتر، الذين أيدوا الصفقة علانية⁴⁴. وكان من المهم أيضاً في استراتيجية ريغن التأييد القاطع لصفقة طائرات "أواكس" في أوساط جماعة السياسة الخارجية والأمن القومي - لا سيما وزيراً الخارجية والدفاع - ومستشاري البيت الأبيض لشؤون الأمن القومي، ورؤساء هيئة الأركان المشتركة السابقين. وقد نجح دعم أولئك القادة السابقين في تقديم حجة ذات صدقية أقنعت مجلس الشيوخ أن صفقة طائرات "أواكس" حاسمة بالنسبة إلى مصالح الأمن القومي الأميركي، وجعلت إعاقه الصفقة في مجلس الشيوخ أمراً مستحيلاً من الناحية السياسية.

بل إن هنري كيسنجر، الذي عارض الصفقة في أول الأمر، وقف أخيراً في صف قادة السياسة الخارجية ورجال الدولة الآخرين المساندين للصفقة. وقال في لقاء متلفز: "سيدي الرئيس، إنني أدرك الجدال المحتدم حول هذه المسألة وأتعاطف مع الكثير من مشاعر القلق التي جرى التعبير عنها. ولكنني مقتنع تماماً أن هذه المشاعر لا يمكن تهدئتها برفض بيع طائرات أواكس. وأعتقد أن الصفقة تصب في المصلحة القومية للولايات المتحدة؛ وهي متوافقة مع أمن إسرائيل؛ وضرورية لعملية السلام في الشرق الأوسط؛ ومهمة لقدرة الرئيس على إدارة سياسة خارجية فعّالة وذات صدقية. وإنني

أحثّ الذين تساورهم مشاعر قلق مشروعة على تبديدها بالتباحث مع الإدارة والتصويت لصالح صفقة طائرات أواكس من دون ربطها بشروط لا تتوافق مع كرامة المملكة العربية السعودية ومع الإدارة الفعّالة لسياستنا الخارجية⁴⁵.

لجأ ريغن إلى تخويف زملائه الجمهوريين، بمن فيهم السيناتور بوب باكوود، الرجل الذي قدم قرار باكوود، وهو الأداة التشريعية المعارضة لصفقة طائرات "أواكس". وقد اجتمعا في 11 سبتمبر 1981، في جوّ عاصف في أحسن الأحوال. فقد رأس باكوود لجنة حملة التبرعات لمرشحي مجلس الشيوخ من الحزب القديم الكبير (GOP) [الجمهوري] وشدد على أن المحسنين اليهود مستأثرون من مشروع طائرات "أواكس". وإذ أدرك الرئيس أن لا سبيل إلى تغيير موقف باكوود، التف حوله ببراعة يجعل البيت الأبيض يسرّب روايته عن الاجتماع، مسبباً حرجاً لباكوود. وقد ركّز التسريب على المناقشة بشأن التوصيف الذكي الذي أطلقه داتون على موضوع "ريغن في مقابل بيغن"، وبالتالي لم تعد المزايا الجوهرية للأسلحة المقترحة هي القضية، ولا الأرض التكتيكية التي اختارها الرئيس للمعركة القادمة⁴⁶.

كان الائتلاف المؤيد لإسرائيل في مجلس الشيوخ يمتلك أغلبية ضئيلة 54-56. وأمام الهجوم الكاسح لحملة ريغن/السعودية بدأ الشيوخ يبدّلون موقفهم واحداً تلو الآخر. ومع ذلك، عندما أرسل الرئيس ريغن إشعاراً رسمياً إلى الكونغرس في 1 أكتوبر، حذّر بيكر الرئيس من أن الاحتمالات سيئة.

وفي بيان معدّ تلي في المؤتمر الصحافي في 1 أكتوبر، أوضح الرئيس أن خصوم صفقة طائرات "أواكس" يخدمون تل أبيب، لا واشنطن. فلم يعد في وسع "أبياك" الاعتماد على دفاعها الذي تردده كثيراً: "إننا نعمل كأمركيين وطينيين لمصلحة أمتنا". وها هو الرئيس يصفهم الآن أنهم عملاء لإسرائيل.

في 4 أكتوبر، اجتمع ممثلون للبيت الأبيض مع السيناتور جون وارنر والسيناتور سام نون لوضع مشروع قرار يرمي إلى طمأنة الكونغرس أن طائرات "أواكس" ستستخدم لأغراض دفاعية فقط ومع قدر من الإشراف الأميركي. كان وارنر رئيساً للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، وُن كبر أعضاء اللجنة عن حزب الأقلية. وقد كتب البيت الأبيض أيضاً رسالة رئاسية تفصّل الشروط التي يتعين على السعوديين تليتها لإقرار الصفقة. وعُرضت هذه الوثيقة على أعضاء مجلس الشيوخ

المتردددين وُعِدَّت عدة مرات للاستجابة إلى بعض مطالبهم الفردية. وأخذ خصوم الصفقة يعلنون واحداً بعد الآخر انتقاهم إلى جانب ريغن.

في 6 أكتوبر 1981، اغتيل الرئيس المصري أنور السادات. وهكذا في سابقة مخيفة تمهّد لأحداث لاحقة، هدّد عمل إرهابي أهوج نفّذه متطرفون معادون للحدثات بتقويض التقدّم الذي حقّقه المعتدلون العرب بشقّ الأنفس مع الغرب. وفي 7 أكتوبر، عقد الرئيس ريغن اجتماعاً مغلقاً مع 43 سيناتوراً جمهورياً، من بينهم كثير ممن وقّعوا بالفعل قراراً ضد الصفقة. وفي تلك الجلسة وفي اجتماعات إفرادية مع الجمهوريين، شدّد الرئيس على الولاء للحزب وعلى مصداقية الرئاسة الأميركية في إدارة الشؤون الخارجية. وقد قال بشكل شخصي في مناسبات عدة: "إذا صوّت ضدي فسوف تحطون من شأني"⁴⁷.

كادت إحدى أكثر المناقشات السياسيّة حدّة وطولاً ومرارة منذ حرب فيتنام تنهار على صفحات صحيفة "واشنطن بوست". فقبل أيام فقط من التصويت على صفقة "أواكس"، تمّ في اللحظة الأخيرة تجنّب توضيح استراتيجية البيت الأبيض بفضّل تدخل الجنرال سيكورد في الوقت المناسب.

على الرغم من أنّ صفقة طائرات "أواكس" لم تكن معروفة إلا لدى قلة من الأشخاص، فإنّها لم تكن محصورة في خمس طائرات. فهي تنشئ أيضاً شبكة من قواعد تشغيل أمامية متقدّمة، ومنشآت تخزين عسكرية، ومستودعات، ومرافق بحرية، ومنشآت متقنة للقيادة والسيطرة داخل المملكة، وتقييم بنية تحتية ضخمة في الشرق الأوسط تتعدّى كثيراً الاحتياجات الفوريّة للقوات المسلحة السعودية.

وقبيل تصويت الكونغرس على الصفقة، أبلغ البنتاغون مراسل "واشنطن بوست" سكوت أرمسترونغ أن تكلفة كل طائرة "أواكس" تبلغ 110 ملايين دولار تقريباً. فأثار ذلك حيرة أرمسترونغ لأنه وجد بعد عملية حسابية أن التكلفة الإجمالية هي 550 مليون دولار، لا مبلغ 8.5 مليارات دولار الذي يجري الحديث عنه في الكونغرس بخصوص المشتريات السعودية المقترحة. ولذلك بدأ يشكّ في أن صفقة "أواكس" تتعدّى كثيراً مجرد خمس طائرات، وأن ما أُعلن أنه صفقة أسلحة صغيرة هو في الواقع بداية شيء أكبر بكثير. وفي فيلم وثائقي بثته محطة الإرسال العامة (PBS) في برنامج "فرونت لاين"، قال أرمسترونغ "إن صفقة "أواكس" يمكن أن تكون المحور لنظام

اتصالات إلكترونية متقن يعادل جوهر ما لدينا في حلف الناتو... إنها تنشئ مسرح حرب جديداً⁴⁸.

وبناء على إدراكه حجم العقد السعودي المقترح، أعد أرمسترونغ مقالة مثيرة في "واشنطن بوست" تزعم أن صفقة طائرات "أواكس" ما هي إلا بداية خطة سرية بقيمة 50 مليار دولار لبناء قواعد عسكرية أميركية بالوكالة في المملكة العربية السعودية. لكن البيت الأبيض عرف بأمر المقالة قبل نشرها. وفي يوم الجمعة، 23 أكتوبر، أي قبل التصويت بخمسة أيام فقط، اتصل مسؤولون في البنتاغون بالصحيفة. وكما يذكر الجنرال سيكورد، قالوا لرئيس التحرير: "تعلم أن هذا الشخص يعدّ لهذه الحكاية السخيفة. عليك أن تعطينا فرصة. هذا أمر جنوبي"⁴⁹.

تراجعت صحيفة "واشنطن بوست"، على الرغم من أن الرواية كانت صحيحة، لكنها نشرتها بعد عملية التصويت بأربعة أيام.

أخذت ضغوط البيت الأبيض الدائمة على مدار الساعة تُحدث اختراقاً. فقد أعلن عدة أعضاء في مجلس الشيوخ أنهم سيدعمون الرئيس بعد تلقيهم تأكيدات "سرية للغاية" في ما يتعلق بأمن إسرائيل. وكانت "المساومة" خلف أبواب مغلقة ضرورية لحملة البيت الأبيض. وهكذا تلقى السيناتور سليلد غورتون وعداً من البيت الأبيض بدعم مخصص مالي لتجديد مستشفى للصحة العامة في سياتل. ولقي السيناتور تشارلز غراسلي تسهلاً لطلبه تعيين مرشحه لمنصب المدعي العام في أيوا. واستُقبل سيناتور ولاية مونتانا جون ميكلر بتقديم دعم لمنشأة تحويل الفحم قرب بات (Butte).

كان الضغط على أعضاء مجلس الشيوخ شديداً. وفي اللحظة الأخيرة، بسبب ضغط من شركات صناعة المعدات الزراعية، والتعاونيات الزراعية، وشركات الأسلحة على ما يبدو، صوت السيناتور روجر جيبسن (جمهوري - أيوا) لمصلحة الرئيس ريغن، بعد أن كان من القادة المتشددين في الائتلاف المناوئ لصفقة "أواكس". وسبب تغيير ولائه خسارة جنسيمة، لأنه كان من نواة القوة الأصلية المناهضة لصفقة "أواكس". وقد أرهقته الضغوط المتعارضة إلى حدّ أنه أجهش بالبكاء فعلاً وهو يبلغ الجمهوريين الآخرين أن معلومات "سرية للغاية" من البيت الأبيض ورغبته في عدم الإضرار بهيبة ريغن بدلتا موقفه من التصويت. وقد حرّر ذلك الآخرين⁵⁰.

في 28 أكتوبر، قبل ساعات معدودة من التصويت في مجلس الشيوخ، قام ريغن وفريقه بآخر خطوة بارعة: في الدقيقة الأخيرة، أعلنت على الملأ تفاصيل التدابير الاحتياطية المشددة التي فرضتها الإدارة على أحكام استخدام طائرات "أواكس" السعودية. صيغت رسالة متقنة إلى كل سيناتور وعُرضت فيها ضمانات ريغن ألا يستخدم الطائرات سوى أميركيين وسعوديين فقط، وألا يتم تشارك معلومات طائرات "أواكس" مع أي دولة أخرى إلا بموافقة واشنطن، وأخيراً توفير حماية لطائرات "أواكس" كيلا تقع في أيدي جهات معادية. ويقول جيمس بيكر: "قدمت الرسالة إلى المترددين من أعضاء مجلس الشيوخ... مخرجاً شرعياً؛ ومنحتهم عذراً للموافقة على الصفقة⁵¹."

كانت الضمانات التي فرضت على المملكة العربية السعودية قاسية بحيث لم يعد في وسع سوى عدد قليل من أعضاء مجلس الشيوخ استخدام حجة سوء الاستخدام بأي قدر من المصداقية. وبذلك دحض ريغن الحجّة الوحيدة الأقوى مفعولاً وتأثيراً وإقناعاً التي رفعها المتحدّون في وجه صفقة "أواكس": إنها تشكّل تهديداً لأمن إسرائيل. ومن دون ذلك، حُرّم خصوم ريغن في مجلس الشيوخ من ادّعائهم المركزي، والعنصر المحوري للحجّة التي استخدموها ضد الاتفاقية منذ بداية المناقشة. وبالإعلان عن تفاصيل تلك الضمانات قبل التصويت بساعات قليلة - وهو ما حرم معارضي الصفقة من الوقت لدحضها - أحرز ريغن الأصوات الأخيرة التي كان بحاجة إليها لضمان رفض أغلبية مجلس الشيوخ قرار باكوود.

وحتى 23 أكتوبر، أحصت صحيفة "نيويورك تايمز" خمسين سيناتوراً معارضين للصفقة وأربعين فقط مؤيدين لها، أما الباقيون فكانوا مترددين. لكن في الساعات الثماني والأربعين التي سبقت التصويت، كان التحرك كله باتجاه موقف البيت الأبيض. وقبل يوم واحد من التصويت في مجلس الشيوخ، وعلى إثر التبدل الدراماتيكي في موقف روجر جيبسن، أعلن ثمانية من أعضاء مجلس الشيوخ أنهم سيؤيدون الصفقة. وعند الساعة 5:03 بعد ظهر 28 أكتوبر 1981، بدأ مجلس الشيوخ التصويت على صفقة طائرات "أواكس" بالناداة بالاسم؛ وانتهى الأمر بعد بضع دقائق. وبعد أن رشح إلى البيت الأبيض خبر التصويت الإيجابي في مجلس الشيوخ، أفيد عن أنّ رد فعل ريغن الفوري لدى سماعه الأنباء، كان "شكراً لله!" وفي مزاح لاحق تعبيراً عن الارتياح بشأن

معركة طائرات "أواكس" الأليمة، قال الرئيس ريغن إن المعركة كانت "مثل التغوط في ثمرة أناناس"⁵². وفي النتيجة التي لم يكن يمكن تصوّرها قبل أسابيع قليلة، رفض مجلس الشيوخ قرار باكوود المناهض لصفقة "أواكس" بـ 52 صوتاً في مقابل 48. لقد فاز الرئيس (*).

في 1 نوفمبر، نشرت صحيفة "واشنطن بوست" مقالة أرمسترونغ التي تجمل التفاصيل غير الموضحة في لغة مشروع القانون، والتي لم يجزِ التطرق إليها قط في مناقشات الكونغرس: وهي أنه في مقابل صفقة متكاملة من التكنولوجيا العسكرية بالغة التطور، تبني المملكة العربية السعودية شبكة ضخمة من المرافق البحرية ومنشآت الدفاع الجوي لمساندة القوات الأميركية إذا استدعت الحاجة في أي وقت من الأوقات حماية المنطقة من معتد ما⁵³. لقد مارس البيت الأبيض خدعة كبيرة على الكونغرس.

لم يخضع المدى الحقيقي لما سمحت الوثيقة 81-96 للسعوديين بشرائه لتدقيق عام معمق. وربما أُشير إلى أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب بالتركيز على الفقرة الثالثة من الملحق المكوّن من صفحة واحدة، إذ، بالإضافة إلى الطائرات الخمس، يحصل السعوديون أيضاً على موافقة بشأن "تصميم وبناء وتوريد منشآت ومعدات قيادة وسيطرة واتصالات (C3) أرضية ذات صلة بطائرات أواكس، بما في ذلك عدد ملائم من أنظمة الرادار الأرضية"⁵⁴. وتصل قيمة تلك الصفقة - التي لم يظهر منها سوى ما يقل كثيراً عن 10 مليارات دولار - إلى 85 مليار دولار تقريباً. ذلك هو مشروع قانون "أواكس" الحقيقي.

قال باكوود في ما بعد، إن التصويت كان بمثابة "البارجة ضدّ المدمّرات، وقد تفوّقوا علينا"⁵⁵. لكنّ التصويت لم يكن متكافئاً قطّ بالقدر الذي بدا عليه. فقد

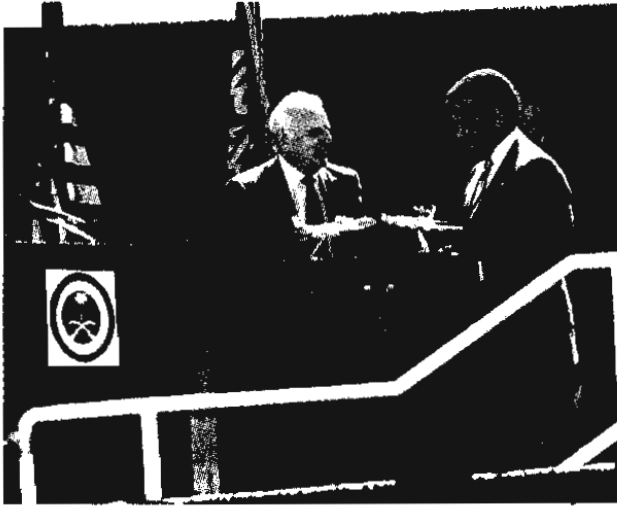
(*) تنفذ الولايات المتحدة التحويلات من حكومة إلى حكومة من خلال برنامج وزارة الدفاع للمبيعات العسكرية الخارجية (FMS). وفي سنة 1974، منح الكونغرس نفسه سلطة مراجعة أي صفقة أسلحة مقترحة تزيد قيمتها عن 25 مليون دولار، في محاولة لتقوية صلاحياته في وجه "الرئاسة الإمبراطورية". وبموجب بنود قانون الرقابة على صادرات الأسلحة لسنة 1976، وقد سنّ في الأصل كجزء من مشروع قانون المساعدة الخارجية لسنة 1974، يستطيع الكونغرس عرقلة اقتراح لبيع الأسلحة إذا وافق كلا المجلسين على قرار مترامن بعدم الموافقة ضمن 30 يوماً من إشعاره بالصفقة رسمياً من قبل السلطة التنفيذية. وعلى الرغم من أن مجلس النواب رفض صفقة طائرات "أواكس"، فقد رفض مجلس الشيوخ التصويت على عدم الموافقة، ما مكن الرئيس من المضي قدماً بالصفقة.

كشفت تعليق مفاجئ للسفير ريتشارد مورفي مدى النفوذ الذي مارسته "أيباك" على الكونغرس حتى الإدلاء بالأصوات الأخيرة. قال مورفي: "كان فارق الأصوات متقارباً جداً في مجلس الشيوخ؛ لم يكن ثمة داعٍ لأن يكون متقارباً على ذلك النحو". وبدأ أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ وافقوا على التصويت ضد قرار باكوود⁵⁶، وإلى جانب الرئيس ريغن، إذا كانت أصواتهم ضرورية جداً. والحقيقة، كما أكد نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج، هي أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ وافقوا على تغيير ولائهم لمصلحة الرئيس في التصويت النهائي إذا كانت أصواتهم ضرورية بصورة مطلقة. لكن إذا لم تكن ضرورية، فإنهم سيدعمون قرار باكوود المؤيد لإسرائيل⁵⁷.

ووافق العقيد ليلاك على هذا الرأي بالقول: "هذا هو ما فهمته أيضاً. أعتقد أنه كان هناك سيناتوران على الأقل، لكنني لا أعرف اسميهما"⁵⁸. وأكد فرد داتون هذا الموقف أيضاً، قائلاً: "أجل، هذا صحيح تماماً؛ كان لدينا نحو أربعة أصوات إضافية سرية، كانوا بمثابة بوليصة تأمين"⁵⁹. وختم أن أولئك الشيوخ كانوا يخشون نفوذ اللوبي اليهودي في ولاياتهم، ولما كانوا متأكدين تماماً من أن الرئيس ضمن الصفقة، فقد صوتوا ضد ضميرهم ولمصلحة القرار.

وصف مدير "أيباك"، توم داين، الجدل بشأن صفقة "أواكس" بمماراتون امتد عشرة أشهر، من ديسمبر 1980 إلى 28 أكتوبر 1981. لقد نجحت استراتيجية "أيباك"، المستندة إلى أحكام قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، الذي من خلاله يوافق الكونغرس على جميع عمليات نقل الأسلحة المقترحة أو يرفضها، في إعاقه صفقة "أواكس" في كل مرحلة من مراحل العملية التشريعية ما عدا المرحلة الأخيرة: التصويت النهائي في مجلس الشيوخ⁶⁰.

سارعت "أيباك" مستفيدة من دروس الهزائم في صفقتي طائرات F-15 و"أواكس" إلى المملكة العربية السعودية، إلى إعادة استجماع قواها والتأكيد على تفوقها. يقول فرد داتون في مقابلة عن تأثير "أيباك": "تسببت هزيمتا أيباك، أولاً في صفقة F-15 ثم في صفقة أواكس، وفي ضوء عدم تعرضها لهزيمة من قبل، في إعادة تنظيم جوهرية جعلت أيباك أقوى بكثير. وقد بدأت إهادة بناء من الأساس؛ وهي تتمتع الآن بفعالية عملية أكبر بكثير"⁶¹.



رئيس شركة بوينغ يقدم لبندر نموذجاً لطائرتي الأواكس و KC-135 الصهريج لتعبئة الوقود للطائرات في أثناء استلام بندر طائرة أواكس السعودية الأولى

مما لا شك فيه أن "أيباك" هضمت كطائر الفينيق في أعقاب صفقة "أواكس". والقول إن "أيباك" خاضت معركة طائرات "أواكس" بمرارة قول فيه كثير من التحفظ. فقد أوحى خسارتها للكثيرين بانقلاب الميزان السياسي في القضايا العربية الإسرائيلية. لكن، كما أكد فرد داتون، كان ذلك بعيداً عن نهاية القصة. ففي الأعوام الأربعة التالية، أجرت "أيباك" تحولاً داخلياً عززت بموجبه قوتها كثيراً. ودفعتها صدمة التصويت على صفقة "أواكس" إلى وضع استراتيجية سياسية جديدة حولتها، في آخر الأمر، إلى لوبي فائق القوة. وفي تسعة أعوام فقط، قفزت موازنتها ثمانية أضعاف وارتفع عدد أعضائها من 9000 عضو سنة 1978 إلى 55,000 عضو سنة 1987⁶².

في أوائل سنة 1988، أصبحت "أيباك" مرة أخرى معقلاً للقوة في واشنطن. وكتبت كاثلين كريستيسون، وهي محللة سابقة في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، أن أعوام ريغن شهدت تغيراً متميزاً في تأثير اللوبي في صنع السياسة، وقالت ببراعة: "إذاً، كان يُعتقد في الإدارات الماضية أن أيباك ذات تأثير حدي كبير في صوغ السياسات، فإن مقدار تأثيرها اليوم عظيم جداً بحيث لا يمكن اعتبارها مجرد قيّد على السياسات"⁶³، وأضافت: "في عهد ريغن، أصبحت أيباك شريكة في صنع السياسة. ورفعت إدارة ريغن أيباك إلى مستوى لاعب فاعل في هذه اللعبة"⁶⁴.

عكست صحيفة "نيويورك تايمز" قوة "أيباك" الجديدة بتقديم تفاصيل عن حجم الهبة الأميركية إلى إسرائيل، حين ذكرت أنه على الرغم من أن إسرائيل توقعت تلقي أكثر من 2.6 مليار دولار كمساعدة اقتصادية وعسكرية في السنة المالية التي تبدأ في 1 أكتوبر 1983، فإن لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ صوتت، تحت ضغط من اللوبي الإسرائيلي، لصالح تخصيص أكثر بكثير مما طلبته الإدارة لإسرائيل. فقد طلبت

الإدارة 1.7 مليار دولار كاعتمادات عسكرية، منها 500 مليون دولار لا تُرد، و800 مليون دولار كهبات اقتصادية (أي منح غير قابلة للسداد). غير أن اللجنة صوتت بدلاً من ذلك على زيادة الاعتمادات التي لا ترد إلى 850 مليون دولار وأضافت 125 مليون دولار إلى 800 مليون كمساعدة اقتصادية⁶⁵. وأكدت المقالة أن إسرائيل كانت أكبر متلقية للمساعدات الأميركية بفتيتها العسكرية والاقتصادية، حيث حصلت على ما يزيد على 20 بالمئة من مجموع المساعدة التي قدمتها الولايات المتحدة إلى الدول الخارجية.

تواصل تزايد الدعم الأميركي لإسرائيل. ففي سنة 1992، ذكرت صحيفة "واشنطن بوست" أنه منذ إبرام معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في سنة 1979، تلقت إسرائيل ما مجموعه 40.1 مليار دولار، أي ما يساوي 21.5 بالمئة من مجمل المساعدة الأميركية⁶⁶. وفي سنة 1995، ارتفع الرقم إلى 60 مليار دولار⁶⁷. إن إسرائيل حليف مكلف بالمقاييس كافة، حيث إن تلك الأرقام الهائلة لا تشمل العديد من الترتيبات الخاصة التي تُمنح إلى إسرائيل بشكل روتيني، ومنها التحويلات الضخمة لفائض المعدات العسكرية، والإعانات المقدمة لبرنامج المساعدة الخارجية لإسرائيل، ومبالغ المساعدة الإجمالية المبكرة، وإعادة تمويل دينها.

وعلى الرغم من أن مجلس الشيوخ وافق على بيع طائرات "أواكس"، فقد بقيت هناك حاجة إلى توقيع العقد. وكانت الإدارة تريد إتمام الأمر بأسرع ما يمكن لتفادي أي عوائق أخرى قد تبرز أمام الصفقة. لكن أثبت الكثير من الضغائن في مجلس النواب، وكان عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ يشعرون بحساسية تجاه الضغط المستمر الذي مورس شخصياً من قبل ريغن ومن قبل "أيباك". وفي ظل تخمينات صحافية أنه لن يكون هناك اتفاق حتى يوقع السعوديون، أراد البيت الأبيض إنهاء الأمر بأسرع ما يمكن.

كانت وثيقة البيع الأساسية هي رسالة العرض والقبول، وتولّى العقيد ليلاك مهمة إقرار الوثيقة. وهي تفصل القيود الحاسمة المتفق عليها في الأشهر السابقة. وكانت تلك القيود حيوية في ترجيح التصويت النهائي في مجلس الشيوخ. لكن، كل ما بقي هو "أن يوافق السعوديون على الاتفاق بتوقيع الأمير سلطان".

فجأة أصبح ليلاك صاحب الدور الرئيسي. وكما قال بسخرية: "كان ذلك في 14 نوفمبر تقريباً. استقلت طائرة وذهبت إلى الرياض". وكان من المحتم تقريباً أن يواجه مقاومة للقيود. وإزاء الضغط السعودي الشديد، كان عليه ألا يتزحزح. وحين ألح عليه الأمير فهد بن عبد الله (مدير العمليات في سلاح الجو الملكي السعودي)، ردّ قائلاً: "لا يمكنك تغييره يا فهد، لا يمكنك أن تغير حرف z أو تشطب حرف t أو تضع فاصلة أخرى، قضي الأمر!".

كانت الصفقة بأكملها مبنية على القيود، وتذكر ليلاك كيف فكر في سرّه، "كم سيبدو الأمر رائعاً، لقد أقام ريغن سياسته الخارجية على هذا العقد والسعوديون لن يوقعوه!".

ووجهت إلى ليلاك تعليمات مفادها أن يحصل على توقيع وزير الدفاع الأمير سلطان وأن يكون العقد على مكتب كاسبار واينبرغر عند الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة، بحيث يستطيع أن يعلن للصحافة أن الصفقة تمت، فوقع ليلاك في ورطة. لم يكن الأمير سلطان في الرياض، وإنما في الظهران مع بندر الذي كان في المستشفى بعد أن عاودته المشكلات في ظهره. قال ليلاك: "انتقلنا يوم الخميس إلى الظهران، لكن لدى وصولنا إلى المستشفى، كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً. وعليّ أن أكون في المطار عند منتصف الليل، موعد إقلاع الطائرة التي ستقلني إلى نيويورك، ثم إلى واشنطن. وهكذا أنا مرتبط بتلك الرحلة الوشيكة وأجلس [في المستشفى] أتصبب عرقاً لأنني لم أحصل بعد على توقيع الأمير سلطان".

في المستشفى، كان بندر مستلقياً على ظهره بلا حراك، لكن ابتسامة علت وجهه لدى دخول ليلاك والأمير فهد بن عبد الله. وكان الأمير سلطان جالساً في زاوية الغرفة. فقال بندر له: "هذا هو الرجل الذي جعل الأمر كله [صفقة طائرات "أواكس"] ممكناً".

ومع ذلك لم يأت في الحديث الذي تلا كلام بندر أي ذكر للعقد. وبدأ اليأس يتسلل إلى ليلاك. "الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعاً، وحدثتني نفسي، قضي الأمر، لقد فشلت؛ طائرتي ستقلع بعد دقائق قليلة. انتهى أمري". وشرح مأزقه إلى بندر والأمير سلطان، الذي غادر الغرفة بعد ذلك. وبعد منتصف الليل بخمس دقائق، عاد سلطان، وأخذ العقد من ليلاك ووقعه بتؤدة، وقال: "أرجو لك رحلة ميمونة".

وهكذا أنجزت المهمة. ومع ذلك، خشي ليلاك من أن يكون قد فشل. "عظيم"، قال للأمير فهد: "لكنني أخفقت في مهمتي. سوف يقضي واينبرغر علي".

أجاب فهد، "ماذا تعني أنه سيقضي عليك؟ هيا". عند وصول ليلاك إلى المطار، وجد أن طائرة "بانام 747" لا تزال تنتظر، وتذكرته المخصصة لسلاح الجو الأميركي على أحد المقاعد الخلفية ممزقة. قال ليلاك ضاحكاً: "ها أنا جالس على مقعد في الدرجة الأولى، فيما ركاب الطائرة يتمتمون استياءً لأنها أقلعت متأخرة 45 دقيقة عن موعدها. وصلت إلى نيويورك، وانتقلت إلى طائرة أخرى متوجهة إلى واشنطن وكنت في مكتب واينبرغر عند التاسعة صباحاً لأسلمه رسالة العرض والقبول الموقعة"⁶⁸. تمت الصفقة.

انغمس بندر في صراع قاس بين اللوبي الإسرائيلي واللوبي العربي، بعيداً عن المملكة العربية السعودية وبعيداً عن أجواء الحيوية والانضباط أيام كان طياراً حربياً. ولشد ما كانت دهشته لأدائه المتميز. وقد اعتر بسجل نجاحه أمام "أبياك"، وهو النجاح الذي كان فاتحة مسيرة مهنية جديدة لهذا الطيار الشاب الكفاء في سلاح الجو.

بين تذكارات الأمير بندر الشخصية في الطبقة السفلى من منزله في مكين، ظلّ العنوان المأخوذ من الصفحة الأولى من "نيويورك ديلي نيوز" (1981/10/1) معروضاً بشكل بارز سنوات عديدة. يقول العنوان:

رون لإسرائيل: إليك عني

تمزق اللوبي اليهودي المناهض للأواكس

كوفئ نجاح بندر في تلك المناوشة المطولة بتعيينه ملحقاً عسكرياً في واشنطن دي سي سنة 1982. وعن ذلك يقول: "نقلت فجأة إلى عالم مختلف".

عمل بندر في منصبه الجديد على العديد من البرامج العسكرية الأميركية السعودية التي اخترها في منبعاها كطيار حربي. وكملاحق عسكري كان يعي تماماً أنه عندما اشترى السعوديون طائرات F-15، حدث القيود المفروضة في "رسالة العرض والقبول"

الأصلية من القدرات العملانية لتلك الطائرات. وفي النهاية كان عليه الحصول على موافقة الرياض. غير أن بندر والسعوديين تبنا موقفاً براغماتياً يقول، "نعرف أنهم يغشوننا، لكن لنتم الصفقة على أي حال لأننا سنخطو الخطوة الأولى لتحقيق غايتنا"⁶⁹.

لا بد أن إدراك الأمير انتهاء حياته المهنية كطيار بسبب الإصابة، سهل عليه قراره ولوج الحلبة السياسية. وقد سُمع وهو يعلّق بأسلوب فلسفي: "كان الانفصال سهلاً عليّ"، وتابع معبراً عن عشقه للطيران: "تركته وأنا في أشد التوق إليه، وكان ابتعادي عنه في أوانه". استطاع بندر الخروج وهو لا يزال في القمة، ومكّنه ذلك من الحصول على رضى عظيم من الأيام التي قضها كطيار حربي. وفي كلامه عن فترة التغيير المثيرة في حياته، قال: "فجأة وجدتي في مستوى آخر من التنافس، ونظرت في المرآة وفكرت: أنا لم أتغير. إني لا أزال الشخص نفسه؛ لكن بيئي هي التي تغيرت. وأصبح السؤال، هل أستطيع البقاء في هذه البيئة الجديدة أم لا؟".

وكما تبين، كان أكثر من قادر على النهوض لتحدي العمل الجديد. إن بندر موهوب، ليس فقط لبقائه طافياً في مياه واشنطن المضطربة، وإنما لتكيفه أيضاً مع مشهد سياسي جديد ومتغير. كان توقيت وصول بندر إلى واشنطن مواتياً. إنه محظوظ؛ لم يتوافق هذا الوصول مع الانتشار الأوسع للنفوذ في العاصمة فحسب، بل كان أيضاً بعد تنصيب الرئيس ريغن، حيث سرعان ما تغير النهج الرئاسي. وقد أحاط هيدريك سميث بهذا التغير عندما كتب: "إن دافع الرؤساء المعاصرين هو الخوض في الدبلوماسية الشخصية - لقاءات قمة، وزيارات شخصية، ودفق من المراسلات الخاصة مع ملوك ورؤساء ووزراء في كل مكان"⁷⁰. كان هذا الأسلوب الشخصي الجديد من الرئاسة مناسباً جداً لبندر، واسع الاطلاع على النهج السعودية للحكم، وهو نهج عائلي تمتزج فيه التسلية والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية بالقرارات المتعلقة بالسياسات⁷¹. ومع تقدّم مسيرته المهنية في واشنطن وعلى المسرح العالمي، عملت الصورة الزائفة له كرجل مجتمع عابث على إخفاء ذاته الحقيقية الثانية - أمير ماكيافيلي النزعة.

بدأ ظهور بندر في وسائل الإعلام بعد وقت قصير من بروزه في العاصمة الأميركية في مطلع الثمانينيات. طيار حربي شاب شديد الثقة بالنفس ومغرور،

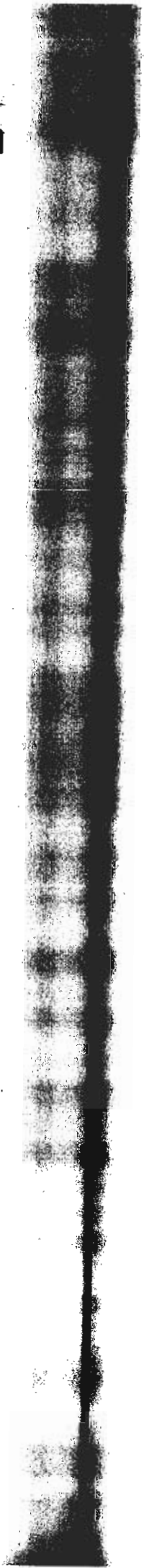
وعضو في العائلة المالكة السعودية في الثلاثين من العمر. غير أن هذه الصورة كانت محاذية للأمير الحقيقي، المتردد وغير الآمن في الغالب، الأمير الذي سُمع وهو يعترف بهذه الفترة من حياته: "كنت كلما نجحت في مهمة أكلف بها، أسأل نفسي، إلى متى سيدوم هذا الحظ؟". وعلى الرغم من انعدام الأمن المبيّت في نفسه، فقد كانت لديه فلسفته الخاصة به، وساعده ذلك في إعداد نفسه للمسؤولية التالية. أسراً قائلاً: "كل ما أردته طوال حياتي تحقيق الأفضل في ما أفعله وعدم الشعور بالقلق بشأن المستقبل. المستقبل سيأتي. ولا معنى في الحصول على فرصة فقط كي يجد الناس أنك لم تحسن استغلالها. لقد أردت كمالاً، أن أكون الملازم الأفضل في سلاح الجو. وعندما دعت الحاجة إلى عمل لا يقوم به إلا نقيب وأرادوا اختيار أفضل ملازم ليصبح نقيباً، كنت على أتم الاستعداد".

تابع بندر برزانه: "هيمى نفسك مسبقاً لتتوقع غير المتوقع أو تكون رشيقياً بحيث تستطيع المناورة بسرعة، أو أن تنطلق بوحدات تسارع كثيرة، وتوقف المحرك، وتنطلق بسرعة بعيداً من الخطر، وتعطف، وتذهب في الاتجاه الآخر. يجب أن تكون الرشاقة فطرية لديك، ثم عليك أن تبحث عن الوغد الأفضل منك. لقد قال لي مدرّبي، وهو مدرّب طيران حربيّ، عليك أن تؤمن أنك الطيار الحربيّ الأفضل في العالم. وعندما تؤمن بذلك، تمضي بقية حياتك في البحث عن الوغد الأفضل منك، الذي يوشك على قتلك، كي تبقى على قيد الحياة".

كان تقبّل مجتمع واشنطن لبندر بعد تعيينه ملحقاً عسكرياً أمراً لا لبس فيه. وقد لاحظت صحيفة "فايننشيل تايمز" أن "الأمير السعوديّ، كعميد للسلك الدبلوماسي في واشنطن، انصهر في المؤسسة السياسية للعاصمة بسهولة عظيمة، وجمع حوله أصدقاء نافذين ومشاهير مستطرفين"⁷². وأوضح الوزير بيكر ببلاغة أسس نجاح الأمير في واشنطن حين كتب: "كابن أخ للملك فهد، كان بندر يتمتع بنفوذ غير عادي لدى عمه. فقد تعلّم في الولايات المتحدة، وتمكّن تماماً من اللغة الإنكليزية بتعابيرها الاصطلاحية، وأحسن فهم الروح الأميركية. وأظهر بندر هالة من المكر الساحر، لكنه كان يمتلك مقدرة عقلية ممتازة وكان الأكثر تطوراً من بين أقرب المستشارين إلى الملك"⁷³. ولا عجب في أن الأمير كسين أقاموا علاقة مع هذا الدبلوماسي الفصيح والمرح والذي اعتاد أن يدخن السيجار. كان بندر يتكلم لغتهم، وبالإضافة إلى ذلك،

وبعكس غيره من الدبلوماسيين الأجانب كان يستطيع نسج "الحكم على الأشياء بعد وقوعها" في الحديث بسهولة فطرية؟ وقد عبّر ديفيد بلوتر عن هذه الناحية بإيجاز بليغ: "كسب محبة الأميركيين بحيوته الجامحة. فهو يدخن السيجار! ويهتف تشجيعاً لفريق دالاس كاوبويز! ويتحدّث الإنكليزية كالأميركيين!"⁷⁴.

يقال بندر من نجاحه بالقول: "ككل شيء في حياتي، أفضل أن أكون محظوظاً على أن أكون ذكياً. إني لا أسعى وراء الأشياء؛ بل أجد نفسي وسطها وأنطلق من هناك. وبسبب ذلك، أعد نفسي دوماً لأي شيء لا يلوح في الأفق، سواء أكان معرفة أم معلومات أم معارف. وما إن يجتمع قدرتي مع حظي، حتى أنطلق، بدلاً من البدء من الصفر كل مرة"⁷⁵. وهذا الإقرار أنه يتعمد الاستعداد لأي شيء يمكن أن ينتظره في المستقبل هو بالذات ما يجعل ملاحظة كولن باول الحكيمة أمراً مسلماً به: "يميل الحظ إلى الإقبال على الأشخاص المهيين جيّداً"⁷⁶.



سنوات المكيدة

"النجاح ليس نهائياً، والفشل ليس مميّناً: ما يُعتدّ به امتلاك الشجاعة للاستمرار".

ونستون تشرشل (1965-1974)

في مطلع السبعينيات، أدى وصول ياسر عرفات وآلاف من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية المسلحين إلى لبنان إلى تفاقم العلاقات المتزايدة التوتر بين المسيحيين والمسلمين في لبنان. فخشي المسيحيون الموارنة الحاكمون من أن تثير هجمات منظمة التحرير عبر الحدود الإسرائيلية ردوداً عسكرية. ولم تكن تلك المخاوف بلا مسوغات.

في 13 أبريل 1975، قتل مسلحون أربعة أفراد من حزب الكتائب الماروني، خلال محاولة لاغتيال بيار الجميل زعيم الحزب. اعتقد الكتائبون أن المهاجمين فلسطينيون، فردّوا بمهاجمة حافلة كانت تقلّ ركاباً فلسطينيين، فقتلوا 26 منهم. وعلى الفور، اندلع قتال عنيف بين المسيحيين من جانب، وتحالف من الميليشيات الإسلامية بقيادة منظمة التحرير من الجانب الآخر.

وفي يونيو 1976، أرسل الرئيس السوري حافظ الأسد 40 ألف جندي إلى لبنان لاحتواء القتال، بطلب من الحكم المسيحي الماروني، وبموافقة إسرائيلية وأميركية. وبعد أربعة أشهر، في أكتوبر 1976، عقدت جامعة الدول العربية مؤتمر قمة في الرياض لحلّ الأزمة اللبنانية. وقضى الاتفاق متعدّد الأطراف الذي أسفر عنه المؤتمر بوقف إطلاق النار وتشكيل قوة الردع العربية لفرض وقف إطلاق النار والإشراف عليه. كان من المفترض نظرياً أن تكون قوة الردع - الممولة من جامعة الدول العربية - قوة حفظ سلام عربية بقيادة الرئيس اللبناني. لكن في الواقع، لم ينضم إلى القوات السورية الموجودة في لبنان سوى 5000 جندي عربي فقط من المملكة العربية السعودية

ودول الخليج وليبيا والسودان. وبذلك أضفى الاتفاق الشرعيّة على الوصاية السورية للبنان ووفّر له الدعم الماليّ.

أوضح بندر، في حديثه عن هذه الفترة والتناقض السياسيّ الظاهريّ الذي أحدثته، أن قوّة الردع حققت هدف حماية المسيحيين، لكنها بهذا العمل أنتجت حرباً أهلية بين اللبنانيين المسيحيين والمسلمين. وعندما عجزت القوات العربية عن التوصل إلى حل، انسحبت في نهاية الأمر. ومع أن السوريّين قمعوا الفلسطينيين عسكرياً، فقد واصلت منظمّة التحرير الفلسطينيّة هجماتها على إسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. وسرعان ما أثارت تلك الهجمات ردّاً عسكرياً إسرائيلياً.

في 6 يونيو 1982، اجتاحت إسرائيل لبنان بغية القضاء على منظمّة التحرير الفلسطينيّة في بيروت. وقاد وزير الدفاع الإسرائيليّ أرييل شارون قوة ضخمة قوامها 11 فرقة دبابات و11 لواء مشاة مدعومة بنحو 600 طائرة في عملية أطلق عليها اسم "سلامة الجليل". وسرعان ما تقدّم الإسرائيليون إلى بيروت، حيث طوّقوا ما بين 12,000 و14,000 مقاتل تابعين لمنظمّة التحرير والسكان المدنيين اللبنانيين، وضربوا حصاراً على المدينة. برّرت إسرائيل حرق وقف إطلاق نار هش قائم منذ 24 يوليو 1981، بمحاولة اغتيال السفير الإسرائيليّ في لندن، ومواصلة الهجمات التي تشنّها منظمّة التحرير عبر الحدود على مستوطنات الجليل، وتزايد أسلحة منظمّة التحرير وقوّاتها في جنوب لبنان.

في 15 يونيو، تحصّنت القوات الإسرائيلية في مواقع ثابتة خارج بيروت. وأدرك ياسر عرفات أن الغزو الإسرائيليّ للبنان محاولة للقضاء على منظمّة التحرير الفلسطينيّة، فأخذ، بدعم من المملكة العربية السعودية، يحاول فك الاشتباك ويعدّ لانسحاب مقاتليه.

في ذلك الوقت، كان بندر لا يزال في أول عهده بدوره الجديد كملحق عسكري في واشنطن دي سي، ولم يكن يدري أنه سيغوص في هذا الصراع كوسيط. وقبل ذلك بأيام، ارتقى ولي العهد الأمير فهد إلى العرش في 13 يونيو 1982، عقب وفاة الملك خالد. وفي أحد القرارات الأولى كملك، طلب فهد من بندر الاجتماع بوزير الخارجية ألكسندر هيغ للتوصل إلى حل يسمح لمنظمّة التحرير بالانسحاب من لبنان.

كان بندر يعرف هيغ جيداً، فقد عمل معه بشأن صفقة طائرات "أواكس". وكانت بينه وبين هيغ زيارات اجتماعية متبادلة، بل إن كلاً منهما كان ينادي الآخر باسمه الأول. وهكذا، حين ذهب بندر ليجتمع بهيغ لمناقشة مسألة لبنان، توقع استقبلاً ودياً. وعندما وصل، مصحوباً بمساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط نك فليوتس، رافقه أحد موظفي الوزارة إلى مكتب الوزير هيغ. وعلى غير عادة وزراء الخارجية، كان هيغ جالساً خلف مكتب في نهاية غرفة انتظار فخمة أمام مكتب صغير حيث كان وزير الخارجية يعمل عادة. ويقول بندر: "كان قرار الوزير هيغ أن يكون مكتبه في نهاية غرفة الانتظار من موروثات غروره كجنرال بأربع نجوم عندما كان القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا".

بدلاً من الترحيب الحار الذي كان بندر يتوقعه، راح هيغ "يلوّح بإصبعه في وجهي قائلاً، أمير بندر، عليك أن تُخرج مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية فوراً قبل أن يلتهمهم شارون أحياء. والسبب الوحيد الذي حال دون تدمير المنظمة كلياً، هو أننا نمنع شارون من القيام بذلك. لكنني لم أعد أستطيع كبّحه. وكان عندئذ يصيح في وجهي".

عندما وصل بندر إلى مكتب هيغ، رفع يده وقال: "جنرال هيغ، في بلدي نقول مرحباً أولاً". اعتذر هيغ على الفور، وتحرك من خلف مكتبه لمصافحة بندر. وجلس الثلاثة، بندر، وهيغ، ونك فليوتس الذي كان يدون الملاحظات في أثناء الاجتماع. وتابع هيغ تشدّقه بالكلام عن كيف سيدمر شارون منظمة التحرير بعدما طوّقها، بحسب قوله، ولم يعد لديها أي ملاذ.

قال بندر ملخّصاً الموقف السعودي: "الملك فهد يريد حلّ هذه المشكلة، لكن لا بدّ من تنفيذ أربعة شروط: أن تغادر منظمة التحرير الفلسطينية حاملة ما تستطيع نقله من الأسلحة، وبخاصة الأسلحة الفردية والأسلحة الخفيفة؛ وأن تترك أسلحتها الثقيلة لحلفائها في لبنان؛ وأن ترافق قطع بحريّة السفن التي ستنقلها حتى وصولها إلى مقصدها مصر واليمن وتونس؛ وأخيراً، من أن تبقى لديهم مكاتب سياسية مفتوحة في بيروت".

كان شارون يصرّ على رحيل منظمة التحرير من لبنان من دون أي شيء، بما في ذلك جميع أسلحتها إلى بلد ثالث، وإغلاق مكاتبها كافة في العاصمة اللبنانية. ثار هيغ على الفور قائلاً: "هذا غير مقبول إطلاقاً! لن يقبل شارون وبيغن بذلك البتة. إتني أقول لك، سيقومان بتدميرها".



الكسندر هيغ

أوضح بندر أن هذه هي التعليمات التي تلقاها، وأنها الطريقة الوحيدة التي ستقدم المملكة العربية مساعدها بناءً عليها، وطلب من هيغ نقل هذه الرسالة إلى الإسرائيليين ليعرف ما هو ردّ فعلهم.

قاطعته هيغ قائلاً: "أعرف ماذا سيكون عليه ردّ فعلهم. أستطيع أن أؤكد لك أن شارون سيدمّر منظّمة التحرير في الغد إذا كانت تلك خلاصة القول".
أجاب بندر: "أنت لست شارون. مرّر الرسالة إلى الإسرائيليين وذعنا نرى ردّ فعلهم. لو استطاع شارون اكتساح منظّمة التحرير الفلسطينية وتدميرها في بيروت لما انتظر إذناً منك أو من سواك. وسبب عدم قيامه بذلك هو أنه لا يستطيع. المدينة شرك قاتل، إنها تضمّ مليون شخص كثير منهم مسلحون. ستقع مذبحه وسيكون الثمن باهظاً على الإسرائيليين. لذا أرجو منك ألا توقف شارون، قل له أن يتابع الهجوم. إذا لم يقبل شروطنا للتدخل وحلّ المشكلة، عندئذٍ دعه يدخل المدينة".

أجاب الوزير هيغ: "هل هذا رأيك أم رأي رئيسك؟".
ردّ بندر غاضباً: "من الذي تعتقد أنني أتحدّث باسمه؟ لست هنا أزاول عملاً حرّاً وأتحدّث باسمي".

طلب هيغ من بندر العودة إلى المملكة العربية السعودية لمناقشة هذا الاجتماع مع الملك فهد. رفض بندر، موضحاً أنه عرض الموقف السعودي بالفعل. وختم غاضباً: "إذا كنت تشك في ما أقول، لديك سفير في الرياض، اطلب منه الاجتماع برئيسي".

في هذه الأثناء احتدم النقاش، فنهض نك فليوتس ببطء وهم بالخروج.
قال بندر له: "اجلس يا نك. أريد شاهداً".

ران صمت طويل فيما انتظر كل منهما الآخر أن يبادر بالخطوة التالية. أخيراً،
سأل هيغ: "هل ذلك خلاصة القول؟".

أجاب بندر: "هو كذلك".

أجاب هيغ: "حسناً، أمهلي بضع دقائق".

انسحب هيغ إلى مكتبه، وأجرى مكالمة هاتفية. وحين عاد قال ببساطة،
"اتفقنا".

يسجل التاريخ أنه منعاً لسقوط ضحايا مدنيين، وافقت إسرائيل على وقف
إطلاق النار لتمكين دبلوماسي أميركي، وهو السفير فيليب حبيب، من التوسط بشأن
انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان. ويكاد دور بندر لا يذكر في حاشية. في
24 أغسطس 1982 نزلت عناصر من مشاة البحرية الأميركية على شواطئ بيروت
كجزء من قوة مؤقتة متعددة الجنسيات مع وحدات فرنسية وإيطالية. وبعد ذلك منح
مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية ممراً آمناً إلى تونس مع أسلحتهم الفردية، وهي
الصيغة الحافظة لماء الوجه التي أوحى بها المملكة العربية السعودية. وتم إجلاء منظمة
التحرير من دون حادث يذكر، وانسحب مشاة البحرية إلى سفنهم في 10 سبتمبر.

بعد أن استقر عرفات وأتباعه بأمان في شمال إفريقيا، وعلى الرغم من اعتراضات
وزير الدفاع كاسبار واينبرغر الشديدة، أمر مشاة البحرية بالعودة إلى لبنان واستئناف
جهودهم كقوة حفظ سلام. كان ذلك القرار نذيراً بالتفجير المروع لشحنة مشاة
البحرية الأميركية في بيروت في 23 أكتوبر 1983، وهو التفجير الذي أودى بحياة 241
عسكرياً أميركياً وعجّل بانسحاب القوات الأميركية من لبنان، فكان ذلك بمثابة قرع
ناقوس الموت لحكم الرئيس اللبناني أمين الجميل وللسيادة اللبنانية نفسها في آخر
المطاف¹. لكن بالنسبة إلى بندر، كان النجاح خاتمة معركته الدبلوماسية الأولى.

على الرغم من موقع بندر الاعتباري كملحق عسكري، قُيِّض له العمل مع
وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي آيه) لصالح المملكة العربية السعودية لتقويض
التهديد المتنامي للشيوعية في إيطاليا في مطلع الثمانينيات. فقد تدخلت السي آي آيه
لأول مرة، على ما يُزعم، في الانتخابات الإيطالية سنة 1948، فاشترت أصواتاً

للحؤول دون فوز الشيوعيين. وبعد 35 عاماً، ومن منطلق الخشية من احتمال تجدد بروز الحزب الشيوعي الإيطالي، دخلت السي آي آيه في شراكة مع الحكومة السعودية لإحباط توقعات فوز الشيوعيين في الانتخابات مجدداً. كان الحزب الشيوعي الإيطالي من أقوى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية وأصبح قوة كبيرة في الشؤون السياسية الإيطالية. وفي ذروة شعبيته سنة 1976، حاز على أكثر من ثلث الأصوات في الانتخابات الوطنية.

خلال الإعداد للانتخابات الإيطالية سنة 1983، بدا أن الديمقراطيين المسيحيين سيخسرون أمام الحزب الشيوعي، الذي أظهرت استطلاعات الرأي قوته الكبيرة. حدث ذلك في أثناء المواجهة المباشرة بين ريغن والسوفييات. وربما كانت وقعت الكارثة لو أن بلداً أوروبياً غربياً، تحوّل إلى الشيوعية إبان تلك المواجهة. ووفقاً لبندر، كانت رئيسة الوزراء تاتشر والرئيس ريغن والملك فهد عازمين على عدم السماح بحدوث ذلك، واتفقوا على التأثير في نتيجة الانتخابات في دولة ديمقراطية ذات سيادة. كان بوب وودوارد أول من كشف دور بندر في تلك المسألة، عندما ذكر أن الأمير ساهم بمليوني دولار للمساعدة في عملية سرية لإعاققة الصعود الديمقراطي للحزب الشيوعي الإيطالي². أصاب وودوارد جزءاً من الحقيقة فقط. فقد أوضح بندر، بعد تأكده أن السعوديين قدّموا 10 ملايين دولار، لا مليونين كما زعم وودوارد، "وضع الأمير كيون الخطة أساساً وقدّمت المملكة العربية السعودية المال، الذي أودعناه في بنك الفاتيكان في إيطاليا. ولم نعرف بعد ذلك ما حدث له، لكن الديمقراطيين المسيحيين فازوا في نهاية المطاف".

عقب اتفاق تاتشر وريغن وفهد على الخطة، انتقل بندر إلى روما مباشرة حاملاً معه حقيبة مليئة بالمال. توجه بالسيارة إلى الفاتيكان، حيث يوجد بنك الفاتيكان، فخرج قسيس لملاقاته وأخذ الحقيبة التي كانت تحتوي على 10 ملايين دولار. وكان في مهمته تلك على اتصال بمدير السي آي آيه بيل كيسي وموفد ريغن الشخصي إلى الكرسي الرسولي وليام آيه. ويلسون، الذي أصبح في 7 مارس 1984 أول سفير أميركي إلى الفاتيكان. أمضى الأمير تلك الليلة في روما وعاد إلى واشنطن في اليوم التالي.

يقول بندر معلقاً على المال الذي أودع في بنك الفاتيكان: "تم الأمر مع إمكانية التوصل منه، لأنك لن ترى عليه بصمات أميركية أو بريطانية. لم يأت المال من

الأميركيين والبريطانيين. ولم يقرّ في الكونغرس أو البرلمان البريطاني. كان في وسع كل منهما أن يقول، لا شأن لي بذلك، ومع ذلك تمتّ الأمور على هذا النحو". وختم بندر: "كان ذلك مثلاً تقليدياً على التعاون الاستراتيجي بين ريغن وفهد وتاتشر الذي تمّ بطرائق عديدة جداً".

أكّد بندر لاحقاً أن اختيار بنك الفاتيكان لإيداع المال كان مقصوداً. فعندما اقتنع جوليو أندريوتي، أحد أقوى السياسيين في إيطاليا ما بعد الحرب، ورئيس وزراء إيطاليا سبع مرات، ووزير الخارجية بين سنتي 1983 و1989، باحتمال فشل الديمقراطيين المسيحيين في الانتخابات، نقل مخاوفه إلى البابا يوحنا بولس الثاني، الذي وافق على ضرورة اتصال أندريوتي بمدير السي آي أيه بيل كيسي. وعندما عرف كيسي بمخاوف الفاتيكان، أخبر رونالد ريغن بذلك على الفور.

كان الحل الذي استنبطه ريغن وكيسي، وأيده البابا وأندريوتي، بحسب قول بندر: "تكراراً للخمسينيات حين كان ديغول على وشك خسارة الانتخابات أمام الشيوعيين وقرّر الرئيس أيزنهاور التدخل. فقد توجّهت السي آي أيه إلى هناك وتدخلت في الانتخابات. وهكذا فاز ديغول". أوحى بندر أن تورط الكرسي الرسولي في تلك العملية لم يكن مدفوعاً فقط بخشيته من القيود الدينية في إيطاليا شيوعية ملحدة، وهي مركز العالم الكاثوليكي، بل أيضاً بإيمانه أن هزيمة الاتحاد السوفياتي ستتيح الفرصة لانبعث الكاثوليكية في أوروبا الشرقية. كان من المتعذر بالطبع على الأميركيين أن يمولوا الخطة، إذ لا بدّ من الحصول على موافقة الكونغرس. لذا اقترح كيسي الخيار السعودي وفتح بندر بالأمر. فأطلع بندر الملك فهد على ذلك وسرعان ما حصل على موافقته على تقديم العشرة ملايين دولار اللازمة. وتمّ إيداع المال في بنك الفاتيكان بسبب مشاركته الفاتيكان في هذه العملية.

وهكذا تحوّل بندر إلى وسيط ينقل المال لحساب البابا.

سرعان ما اكتسب بندر الخبرة من عمله كملحق عسكري. فقد كان يتمتع بموهبة فطرية في الدبلوماسية والتفاوض، وفهم معمق للأنشطة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه). وبعد أن ترك بصماته على شؤون الشرق الأوسط بتسهيل انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، اجتذبه المسرح السياسي اللبناني المتقلب إليه مجدداً.



كان البابا بولس الثاني مستعداً لإضعاف الديمقراطية في إيطاليا في حربه ضد الشيوعية

خبت الحرب الأهلية في لبنان، لكنّ النار بقيت تحت الرماد بانتظار انفجار موجة عنف أخرى. فالاتفاق الموقع في 17 مايو 1983 بين إسرائيل ولبنان، لم يكن معاهدة سلام كاملة. وفي نهاية أغسطس 1983، تجدد القتال الضاري بين ميليشيا أمل الشيعية والميليشيا المسيحية في بيروت. وتدخل الجيش اللبناني وتمكن بعد أربعة أيام من السيطرة على قلب بيروت الغربية. ومع ذلك اشتد التوتر في 4 سبتمبر 1984، عندما انسحب الإسرائيليون من مواقعهم في جبل الشوف خارج بيروت. وبزوال الوجود الإسرائيلي كحاجز فاصل، نشب القتال بسرعة بين الميليشيات المسلمة والمسيحية.

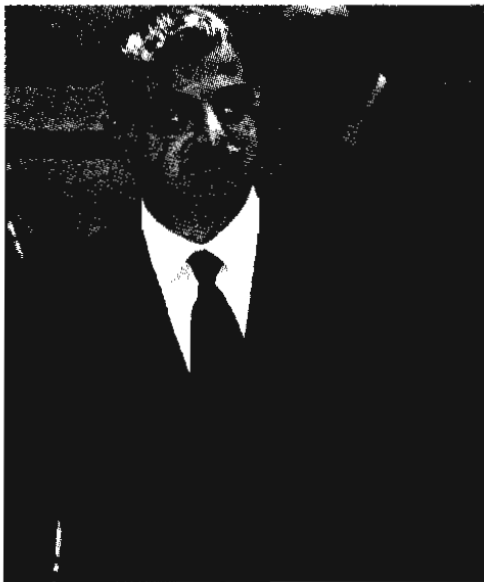
قرّر الملك فهد، في خطوة مفاجئة، ترقية بندر إلى منصب سفير المملكة في واشنطن. فاستُدعي إلى الرياض ليتلقى تعليمات من الملك ويحمل أوراق اعتماده، وطلب منه فهد التوجّه إلى دمشق لنقل رسالة إلى الرئيس الأسد. يقول بندر عن ذلك: "لم أكن أعرف مضمون الرسالة، لكنها كانت حسّاسة جداً إذ طلب الملك تسليمها إلى الأسد مباشرة، لم يكن يريد أن يطلع عليها أحد". وأضاف: "ظننت أنّ مروري بدمشق سيكون عابراً بحيث أسلم الرسالة وأنتقل إلى أميركا عبر لندن". كان اهتمام بندر منصباً على العودة إلى واشنطن، فانتقل إلى دمشق وسلّم رسالة فهد إلى الأسد. ويذكر بندر أن الأسد قرأ الرسالة ثم رفع رأسه وسأل: "ما رأيك؟".

أصيب بندر بارتباك. فهو لم يكن مطلعاً على مضمون الرسالة، لذا أكد للرئيس أنّ مهمته تسليم الرسالة فحسب.

فقال الأسد: "أود أن تمضي الليلة هنا لأنني أريد الردّ على الرسالة وأريدك أن تنقلها إلى الرياض".

حاول بندر التملص، فاقترح أن يتولى أحد المسؤولين السوريين إيصال الرسالة، لكن الأسد ألح في الطلب. وفي اليوم التالي، عاد بندر إلى المملكة حاملاً رد الأسد إلى الملك فهد، الذي بادر إلى تكليفه بالعمل مع رفيق الحريري^(*)، لمساعدة اللبنانيين والسوريين على وضع حدّ للحرب. يقول بندر: "مكثت 25 يوماً في دمشق، حيث التقيت بزعماء مختلف الميليشيات وتفاوضت معهم".

لما كانت المملكة العربية السعودية البلد الوحيد الذي لديه علاقات طيبة مع جميع الفئات، فقد تمكّنت من أن تلعب دوراً حاسماً من وراء الكواليس بالتعاون مع سورية ومصر. وفي أثناء الأزمة، تردّد بندر والحريري كثيراً على قبرص المحايدة للالتقاء مباشرة بقيادة الأحزاب اللبنانية. وكان بندر يعمل من دمشق كنقطة انطلاق، لكن بعض الأحزاب المتصارعة لم تكن تثق بالسوريين، فاستُخدمت قبرص في الغالب كمكان بديل للقاء. وكان بندر ينتقل من دمشق إلى قبرص جواً فيما يتوجّه إليها زعماء المسيحيين اللبنانيين والكتائب من طريق الجو أو البحر. كانت المفاوضات تجري في



رفيق الحريري، المحسن اللبناني الذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء

طائرة بندر الخاصة "غلفستريم 3"، وبعد إتمام المفاوضات يعود بندر بطائرته إلى دمشق. وكثيراً ما كان يتندّر في ذلك الوقت أنه تحوّل إلى أعلى ساعي بريد في العالم.

عمل روبرت "بَد" ماكفرلين، الموفد الأميركي الخاص إلى الشرق الأوسط في ذلك الوقت، بالتنسيق مع بندر، فتطوّرت بينهما صداقة يقول العديدون إنّها أدّت إلى تعيين ماكفرلين في ما بعد مستشاراً للأمن القومي في عهد ريغن. وأفيد عن أن بندر كان كثير النشاط

(*) كان رفيق بهاء الدين الحريري مليارديراً عصامياً ورجل أعمال ناجحاً. وقد تولى رئاسة حكومة لبنان بين 1991 و1998 وبين 2000 و2004. اغتيل الحريري في 14 فبراير 2005 في بيروت، ما عجل الانسحاب السوري من لبنان.

في أثناء عمله في لبنان بحيث "كان يُمطر ماكفرلين بوابل من البرقيات ما جعل الفريق يسمّيها بندر غرامز"³.

في تلك الآونة، وصف ماكفرلين الوضع في لبنان أنه "قريب جداً من المستحيل"⁴. بل إن بندر اعترف للملك فهد أن "الحلّ معدوم". فأجاب الملك ببساطة: "يجب أن يكون هناك حل". وشكا بندر لاحقاً من عدم إطلاعه بالتفصيل على الوضع خلال عمله الباكر في هذا الحقل الدبلوماسي الملمغوم، وقال موضحاً: "كان ذلك التوجيه الوحيد الذي حصلت عليه!" وعن جهوده في لبنان، قال بندر: "سرعان ما حصلت على اتفاق بين جميع الأطراف على وجوب وقف أعمال القتل وبدء المحادثات في ما بينهم. والمأساة أن ثلاثة أسابيع أخرى مضت لحملهم على ترجمة ذلك إلى صيغة مقبولة"⁵. ثم انهار كل شيء.

في تحليل لمواقف كل من الأطراف الرئيسية آنذاك، قال بندر: "أراد السوريون أن يظهروا كأنهم حياديون، وأن المملكة العربية السعودية وسورية كانتا تفاوضان كطرفين محايدين. ولم يكن السوريون محايدين بالطبع، وإنما يرغبون في ممارسة تلك اللعبة. كان يُفترض بهم أن يتحدثوا باسم حلفائهم، وكان الأميركيون ضالعين عن طريق رحلات بدّ ماكفرلين المكوكية. ويُفترض بهم أن يعبروا عن رأي المسيحيين والإسرائيليين على الطاولة".

في دمشق، التقى بندر بقيادة تربطهم بسورية علاقات ودية. لكنه كان بين الحين والآخر يُضطر إلى الالتقاء بمن يرفض الانتقال إلى سورية أو إلى قبرص. ولأن فهد والأسد لم يسمحا لبندر بدخول لبنان، كان الحريري ينتقل إلى بيروت بحماية من السوريين. وبعد مفاوضات دامت 15 يوماً، ظنّ بندر أنهم توصلوا أخيراً إلى حل.

أوضح بندر: "كان اتفاق 17 مايو من النقاط المهمة هنا، وهو محاولة مدعومة من الولايات المتحدة للتوصل إلى سلام بين لبنان وإسرائيل اتفق عليه في وقت سابق من تلك السنة^(*). وقد قوبل بمعارضة قوية من المسلمين اللبنانيين والعالم العربي، حيث

(*) في أعقاب عملية سلام الجليل، اجتمع مفاوضون إسرائيليون ولبنانيون لمناقشة اتفاق بين البلدين. وعقد الوفدان أكثر من 35 جلسة على نحو متناوب بين خلدة وكريات شمونة وبتنانيا ابتداء من 28 ديسمبر 1982. تمّ توقيع الاتفاق أخيراً في 17 مايو، عقب مشاركة أميركية رفيعة المستوى، بما في ذلك 10 أيام من الدبلوماسية المكوكية لوزير الخارجية شولتز. وأبرز ما تضمنه الاتفاق إنهاء حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل، ووضع آلية للتعاون وإقامة قنصلية إسرائيلية في بيروت.

اعتبر اتفاقاً غير قانوني جرى فرضه فيما يزرع البلد تحت احتلال عسكري، أي أنه في جوهره استسلام مفروض. وأكد بندر على أن الأميركيين أرادوا فرض اتفاق 17 مايو، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. وعلى الرغم من توقيع الاتفاق، فإنه لم يتم التصديق عليه بسبب المعارضة السورية الشديدة. واقترح بندر والحريري في مقابل عمل المملكة العربية السعودية على إلغاء اتفاق 17 مايو، أن يوعز السوريون أولاً إلى حلفائهم اللبنانيين بالموافقة والتوقيع على اتفاق يحمي المسيحيين والرئاسة. فنظراً إلى أن المملكة تحتضن الأماكن الإسلامية المقدسة، لم يشأ الملك فهد أن يصور الأمر وكأن المملكة تدعم المسلمين ضد المسيحيين. وشدد بندر على أن غاية الدور السعودي هي دعم جميع اللبنانيين وحضهم على السلام والمصالحة. واعترف بوجود تأثير ضمني يقوم على الصداقة المتينة بين القادة السياسيين اللبنانيين المسيحيين، وقادة المملكة منذ نشأة لبنان كدولة مستقلة سنة 1943. ومع ذلك، أكد بندر على أن السياسة السعودية كانت حيادية حقاً وفي مصلحة اللبنانيين كافة. وذكر بوضوح لا لبس فيه: "أردنا السلام للجميع؛ وأردنا المحافظة على كرامتهم وحقوقهم".

وكي يحرز بندر تقدماً في ترتيب اتفاق سلام، أدرك أنه لا بد من إزعاج حلفائه الأميركيين بما يوحي بوجود تناقض ظاهري. وأوضح قائلاً: "قدمت إلى رئيسي توصية أن علينا أن نغضب أميركا بإفشال اتفاق توصلت التوصل إليه". كان بندر يعتقد أن اتفاق 17 مايو الأميركي معيب في جوهره بسبب المشاركة الإسرائيلية. وكان مقتنعاً أن الحل الذي يقترحه سيوفر سلاماً أفضل يحمي المسيحيين والرئاسة، ولا يقوض في الوقت نفسه النظام اللبناني بكامله. ووصف كيف دُهِش السوريون عندما علموا بالموقف السعودي المعارض للاتفاق الذي تدعمه أميركا. فزاد ذلك الموقف مصداقية بندر التي تعززت بتصريحه: "نحن أصدقاء أميركا، ولسنا دمي أميركا. لدينا مصالحنا ولديهم مصالحهم، لكن في هذه الحالة، نعتقد أن على الأميركيين أن يكونوا سعداء لأننا نحمي الفريق الذي يدعمونه".

وذكر بندر أنه بعد أن أقنع جميع الأطراف بالموافقة على اقتراحه، تلقى رسالة مفادها أن الرئيس اللبناني غير راضٍ. فقد شعر الرئيس الجميل المستاء بالإحراج لأن بندر التقى بجميع الأطراف ما عداه. ومع أنه وافق على الحل الذي اقترحه بندر، فإنه يعاني من الحرج الشديد. غالباً ما شدد بندر على حاجة جميع الأطراف في أي موقف

سياسي صعب، وبخاصة في المسائل المتصلة بدبلوماسية الشرق الأوسط، إلى الحفاظ على سمعتهم. ولعل لهذا العامل أهمية أكبر في الثقافة العربية مما هي عليه الحال في الغرب، لكنه مهم بالنسبة إلى أي مفاوضات دبلوماسية إذا كان المراد سلاماً منصفاً ودائماً. طلب الحريري أن يلتقي الأمير بالجميل في بيروت أمام سائر الميليشيات المسيحية بحيث يبدو الجميل "لاغباً مهماً". لكن سفر بندر إلى بيروت كان مخفوفاً بالمخاطر. وأوضح بندر أنه التقى بالحريري وتوصلاً إلى أنهما إذا طلبا من الملك فهد إذنًا لتوجه بندر إلى بيروت، فإنه سيرفض. كما أن الأسد لن يوافق على ذلك، لأن القتال في لبنان لا يزال محتدماً.

لذا اتفق بندر مع الأميركيين، الذين وافقوا على تقديم طائرتي هليكوبتر. وتوجه بندر والحريري معاً إلى قبرص، حيث التقيا بماكفرلين. وفي تلك الليلة، استقل الثلاثة طائرة الهليكوبتر الأميركية وطاروا إلى القصر الرئاسي في بيروت. وأوضح بندر: "عندما دنونا من الساحل اللبناني، بدت سماؤه شبيهة بسماء احتفالات الرابع من يوليو وكان من المفجع أن نرى القذائف تنفجر في كل مكان".

وكتدبير احترازي، ترك بندر رسالة طلب تمريرها إلى السوريين بعد مغادرته، يبلغهم فيها أنه متوجه إلى بيروت ويدعوهم إلى أن يطلبوا من حلفائهم الحرص على عدم إسقاط طائرته. لكن ثارت البلبلة والذعر عندما عرف الملك فهد بالأمر؛ فاتصل بالرئيس الأسد هاتفياً وتابع الاتصال كل نصف ساعة سائلاً: "هل عاداً؟ هل عاداً؟". في هذه الأثناء هبطت طائرتنا الهليكوبتر في حديقة وزارة الدفاع في بيروت حيث كانت ناقلتنا جنود مدرعتان تنتظراننا. ولدى ترجلهما قال بندر للحريري: "علينا أن نحافظ على وقارنا حتى ندخل ناقلة الجنود؛ ما علينا إلا أن نسير بهدوء"، غير أنه اعترف: "ما إن حطت الهليكوبتر وخرجنا منها، حتى تراكض الناس من حولنا عندما انفجرت القذائف في كل أنحاء المكان. تبادلنا والحريري النظرات كأئنا نقول، ليذهب الوقار إلى الجحيم، لذا أمسك كل منا بعباءته وركض".

عند وصول الثلاثة - بندر والحريري وماكفرلين - إلى القصر الرئاسي، كان القصف المدفعي شديداً جداً بحيث لم يكن أحدهم يستطيع سماع ما يقوله الآخر. وفي غرفة محصنة تحت الأرض، التقوا بالرئيس الجميل والزعيم السني، رئيس الوزراء الأسبق

صائب سلام، وهو من حلفاء المملكة العربية السعودية^(*). وقد بين وجود صائب سلام لبندر أن المسيحيين ليسوا معزولين، وأنهم يتمتعون بدعم سني. ويقول الأمير معترفاً: "وافقني الرئيس أمين الجميل^(**) على أنه لإنقاذ لبنان وإنقاذ الرئاسة، يجب الحصول على تعهد من سوريا أن يقبل حلفاؤها وقفاً لإطلاق النار وتوقف المجازر، وأن تُحترم مؤسسة الرئاسة وتراعى، وعندئذ فإنه سيكون على استعداد للتخلي عن اتفاق 17 مايو. وذلك التزام سبق أن قدّمه إلي، لكن لأسباب سياسية وأخرى تتعلق بالبروتوكول ومقام الرئاسة، كان عليه أن يُظهر كأننا حصلنا عليه منه مباشرة. وهكذا نلنا الموافقة على مقترحاتي".

عاد بندر مبتهجاً إلى دمشق عبر قبرص، معتقداً أن الجميل أظهر شجاعة، إذ كان ثمة معارضون لهذا الاتفاق في صفوف مؤيديه. وفي أعقاب اتصال هاتفي سمع خلاله توبيخاً شديداً من الملك فهد لأنه ذهب إلى بيروت من دون إذنه، أبلغ الملك بثقة أنه يتوقع موافقة دمشق على الاتفاق وعلى تنفيذ وقف إطلاق النار. غير أنه لاحظ لاحقاً: "حصلنا على الاتفاق في ذلك الوقت، فقد وافق الجميع على الوثيقة، ثم فجأة انهار كل شيء. تراجع الزعماء الدروز في اللحظة الأخيرة، وتبعهم الشيعة". واستنتج أن السوريين لم يلتزموا. ففي الظاهر أيد الأسد المواقف السعودية مع مختلف الأطراف، لكن عندما غادر بندر، نُقض كل ما تمّ الاتفاق عليه.

تأكّدت الازدواجية السورية في اجتماع عُقد بعد ذلك بوقت قصير بين بندر والحريري وزعيم لبناني كبير سأله بندر: "ماذا دهاكم؟ هل تستمتعون بموت هذا العدد الكبير من شعبكم؟ لقد توصلنا إلى اتفاق منصف للجميع". عندئذ صاح ذلك الزعيم في وجهه مطلقاً سيلاً من الانتقادات غير المتوقعة: "هذا اتفاق غير مقبول؛ إنه يبيعنا للإسرائيليين والإمبرياليين".

(*) صائب سليم سلام، سياسي ورجل دولة (ولد في 17 يناير 1905 وتوفي في 21 يناير 2000)، ينتمي إلى الطائفة السنّية في لبنان. تولى رئاسة الوزارة اللبنانية ست مرات بين 1952 و1973 (استمرت حكومته في إحداها أربعة أيام فقط) وعمل في سبيل المصالحة الإسلامية - المسيحية خلال الحرب الأهلية (1975-1976) وبعدها.

(**) الرئيس أمين الجميل، الرئيس الثامن للجمهورية اللبنانية، مسيحيّ مارونيّ من مواليد بكفيا، لبنان، في 22 يناير 1942. وهو نجل الشيخ بيار الجميل، مؤسس حزب الكتائب سنة 1936، وشقيق بشير، الذي انتخب رئيساً في 23 أغسطس 1982، واغتيل بعد انتخابه بثلاثة أسابيع، في 14

ثم وضع الزعيم اللبناني إصبعه على شفثيه.

مرّر الحريري إلى بندر ملاحظة مفادها، "إنّه لا يستطيع الكلام مخافة أن يسمعه السوريون".

لذا انتقل بندر إلى شرفته وأشار إلى السياسي اللبناني أن ينضم إليه، وسأله: "ما المشكلة؟".

أجاب الزعيم: "ليست لدي أي مشكلة مع الاتفاق؛ لكن السوريين لن يسمحوا لي [بتوقيع الاتفاق]".

في اليوم التالي، طلب بندر من معاونيه تحضير الطائرة للمغادرة الوشيكة، بعد أن اطلع على حقيقة الموقف السوري. لكنّه كضيف على السوريين، زوّد بسيارة بروتوكول رئاسية، مع مرافقة أمنية تامة. وبما أنّه لم يكن يريد أن يعرف السوريون أنه يتأهب للسفر، قرر استخدام سيارة السفير السعودي. مع ذلك، سرعان ما أدرك السوريون ما يجري فأرسلوا إليه أن وزير الخارجية، السيد خدام^(*)، يريد التحدّث إليه. اعترض بندر، موضحاً أنه مضطر إلى العودة إلى بلاده. وفي المطار استوقف مجدداً فقدّم الجواب نفسه موحياً بغضب أنه سيغادر ما لم يكن في نيّتهم اعتقاله. وبعد ذلك ركب طائرته وعاد إلى جدة.

عندما اتصل بندر بالملك فهد ليعلمه أنه في جدة، فوجئ الملك ووبّخه لأنّه غادر دمشق من دون أن يستشير. فشرح له الأمير أنه توصّل إلى أن السوريين لا يريدون إتمام الاتفاق. فقد أبدوا كل تعاون ظاهري؛ إذ أيدوا الطروحات التي قدمها والحريري إلى مختلف الأطراف، لكن ما إن انتهت الاجتماعات حتى "عدنا إلى المربع الأول - بتراجع أحد الأطراف عن الاتفاق".

وعندما عاد بندر إلى منزله، شاهد على شاشة التلفزيون السعودي أن مجلس الوزراء منعقد في جلسة طارئة. واعتراه على الفور قلق من أنّ شيئاً خطيراً قد حدث، لكنّه لم يعتقد البتة أن للأمر أي صلة بمهمته إلى دمشق. وسرعان ما تلقى اتصالاً من

(*) مارس عبد الحليم خدام، كنائب للرئيس السوري ووزير الخارجية نفوذاً هائلاً على علاقات سورية الخارجية في المنطقة طوال عقدين من الزمن. وقد اعتبر ذات يوم خليفة محتملاً للرئيس السوري حافظ الأسد، وكان دوره كبيراً جداً في تعزيز السيطرة السياسيّة السورية في لبنان بعد سنة 1976 بحيث استحق لقب "المفوض السامي في لبنان". وكانت تربطه علاقة جيدة جداً برئيس الوزراء السابق رفيق الحريري.

الديوان الملكي يستدعيه إلى اجتماع مجلس الوزراء. كانت الحكومة مجتمعة بكل أعضائها، وطلب الملك من بندر أن يكرّر على المجتمعين ما سبق أن قاله له.

في نهاية الاجتماع، تشاور الملك مع ولي العهد ووزراء آخرين، وتقرّر ألا يستأنف بندر مهمته. وأصدر الملك بياناً جاء فيه أن المملكة العربية السعودية حاولت التوسّط في هذه المسألة، لكنها لا تعتقد أن الأطراف كافة، بما في ذلك سورية، مستعدة للاتفاق. وبعد نصف ساعة على صدور البيان، بعث الأسد برسالة إلى فهد طالباً فيها أن يعود بندر إلى دمشق في تلك الليلة وإلا توجّه شخصياً إلى جدة. وفي صباح اليوم التالي، عاد بندر إلى دمشق. ولدى وصوله، نُقل من المطار مباشرة للقاء الأسد، الذي ألقفته مغادرة بندر المفاجئة، هل تعرّض لإهانة، أو هل أساء أحد التصرف أو أهانه؟

أوضح بندر أنه توصل إلى استنتاج أن الحكومة السوريّة قرّرت عدم إتمام الاتفاق، وأنه لن يتمكّن من تأمين الاتفاق حتى لو بقي عشرين يوماً آخر. وقال بندر للأسد: "لذلك قرّرت قطع مهمتي وتحمل اللوم، بدلاً من الانتظار إلى حين اتضاح أنّكم لستم راغبين في إبرام اتفاق. وعندئذ سيحدث خلاف بينك وبين الملك فهد ولا يمكنني السماح بذلك".

قال الأسد: "تلك مناورة".

أجاب بندر: "لا، كنت فقط أحاول حماية العلاقة بينك وبين الملك فهد. كان يمكن أن أعفى من المهمّة، وفي وسعهم أن يقولوا أنني فشلت، وأتني لم أحسن التصرف، ويحل شخص آخر محلّي، أو يمكن أن تغيّر رأيك. لكن إذا خلص الملك فهد إلى أنّكم لم تكونوا صريحين معه، فقد يؤدي ذلك إلى أزمة بين بلدينا، ولا يمكنني أن أسمح بذلك".

ابتسم الأسد وقال: "حسناً، اذهب وتحدّث إلى وزير الخارجية، لقد حصلت على اتفاق".

أجاب بندر: "لن أتحدّث إلى أحد". وبدلاً من ذلك، أصرّ على أن يتصل الأسد بوزير خارجيته، عبد الحليم خدام، لا ليقول له إن بندر قادم إليه فقط، وإنّما أنّه جالس مع الرئيس ويستمتع لما يقوله له.

نجح الموقف اللفظ الذي اتخذه بندر. فقد ضحك الأسد والتقط الهاتف واتصل بوزير خارجيته. وفي نهاية الحديث، قال الأسد لبندر: "الآن يمكنك الاجتماع به".

ذكر بندر هذه الحادثة وأوضح أنه دخل منزل وزير الخارجية وقال بعد الاعتذار عن عدم تلبية دعوته إلى تناول الطعام: "أريد إعداد الوثيقة للتوقيع". أجابه خدام: "اعتبر الأمر منتهياً".

وعندما سأل بندر خدام لماذا أبلغه في زيارته السابقة أنهم لم يستطيعوا حمل الأطراف اللبنانيين على الاتفاق، ابتسم وزير الخارجية ابتسامة ذات مغزى وقال: "أجل، لكن ذلك كان قبل أن يتصل بي الرئيس".

أثرت مثابرة بندر ودبلوماسيته غير التقليدية، فلم يستغرق توقيع كل الأطراف على الاتفاق سوى ثلاثة أيام. واستطاع الأمير، بالعمل بصورة وثيقة مع الحريري وماكفرلين، أن يعلن عن وقف إطلاق النار في لبنان في مؤتمر صحفي في دمشق في 25 سبتمبر 1983، وكان إلى جانبه وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام. وبعد ذلك بدأت لجنة عربية مكونة من الجزائر والمملكة العربية السعودية والكويت التحضير لاتفاق الطائف، الذي أسس عند توقيعه في المملكة في سبتمبر 1989 الدستور السياسي اللبناني الذي أنهى الحرب في لبنان، وأقام علاقات مميزة بين لبنان وسورية، ووضع إطار عمل لبداية الانسحاب السوري من لبنان^(*).

يقول بندر متذكراً دوره كمبعوث سلام شخصي للملك فهد: "أعتقد أنهم كانوا مقتنعين بأنني لن أغادر [في المرة الثانية] من دون اتفاق. لم يستطيعوا التخلص مني، لذا توصلوا إلى اتفاق"⁶. وعلى الرغم من تواضع الأمير، نسب المسؤولون الأميركيون إلى الأمير فضلاً كبيراً في وقف إطلاق النار. فهو لم يؤمن فقط للموفد الخاص الأميركي روبرت ماكفرلين منفذاً إلى السوريين، بل ساعد أيضاً على صياغته. كما أن بندر أثار إعجاب زملائه الأميركيين بموقفه الإيجابي، وأنه خفف من خلال الدبلوماسية العربية الضغط على الوضع اللبناني أكثر مما استطاعت السياسات الخارجية الغربية تنفيذه بأشكال متنوعة. وقد شارك بندر وماكفرلين في دبلوماسية مكوكية مركزة، فقاما معاً

(*) رفض الجنرال عون، رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك، الاتفاق لأنه لا يلزم سورية بانسحاب سريع أو انسحاب تام من لبنان. وبدلاً من ذلك، تبقى القوات السورية في مواقعها لمدة عامين كاملين، لكي تساند "الحكومة اللبنانية في بسط سلطتها". وبعد ذلك تعيد نشر قواتها حتى وادي البقاع. ولم يحدد الاتفاق جدولاً زمنياً لأي انسحاب سوري آخر، بل نص فقط على "التفاوض على هذا الانسحاب في الوقت المناسب بين الحكومتين اللبنانية والسورية". غير أن القوات السورية بقيت في لبنان حتى سنة 2005.

بست زيارات إلى دمشق. وقال عنه صائب سلام، رئيس الوزراء اللبناني الأسبق الذي شارك عن قرب في مفاوضات وقف إطلاق النار: "كان لبنان بالنسبة إليه أرضاً وعرة، لكنّه تدبّر الوضع فيه بحكمة كبيرة"⁷.

سرى مفعول وقف إطلاق النار رسمياً عند الساعة السادسة من صباح يوم 26 سبتمبر 1983. وبعد ذلك بيوم واحد، أي في 27 سبتمبر، عيّن بندر بشكل رسمي سفيراً إلى الولايات المتحدة.

على الرغم من أن الأمير كان وافداً جديداً نسبياً على واشنطن وعالم الدبلوماسية، فإنه سرعان ما أثبت نفسه كشخصية دبلوماسية عربية بارزة. فقد أفيد بعيد وصوله كسفير عن أن "قلة من السفراء الموجودين هنا يعيشون في قلب الأحداث بهذا القدر أو يتمتعون بهذا القدر من النفوذ"⁸. وفي ظلّ وهج حقبة ريغن الجديدة وإثارتها، وخلف نشاط السفير السعودي الجديد وحيويته، تهيأت لواشنطن والرياض أهداف متبادلة تتركز بشكل أساسي على مقاربة ريغن للسياسة الخارجية الأميركية. أعلن ريغن عن موقفه السياسي الجريء بشكل رسمي في خطاب حالة الاتحاد سنة 1985، وهو ما أصبح يُعرف بمبدأ ريغن. فقد قال الرئيس: "لا يمكننا اصطناع مظهر الأبرياء في الخارج في عالم غير بريء؛ ولا يمكننا أن نظهر الاستكانة حين تتعرض الحرية للحصار. علينا ألا نفقد الإيمان بكل الذين يجازفون بحياتهم - في كل قارة، من أفغانستان إلى نيكارغوا - لتحدي العدوان المدعوم من السوفيات وتأمين الحقوق التي حصلنا عليها منذ الولادة... إن دعم المقاتلين في سبيل الحرية هو دفاع عن النفس"⁹.



الرئيس السوري حافظ الأسد

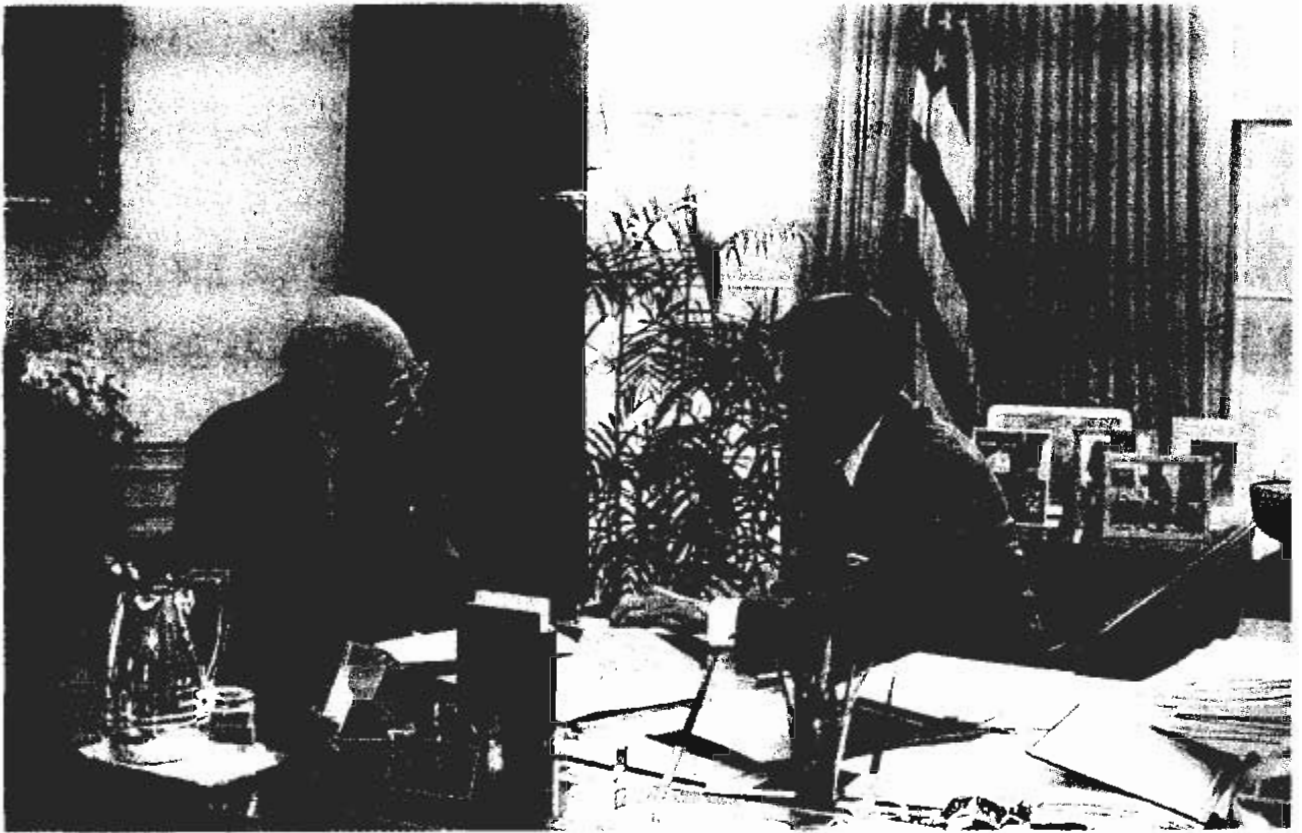
كان ريغن يجد الدعم في تلك التطلعات من مدير وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي آيه) وليام كيسي. لم يكن كيسي مديراً عادياً. فقد كان برتبة وزير، ويشغل مقعداً في كل هيئة رفيعة المستوى ذات صلة بصنع قرارات السياسة الخارجية، وكان لديه مكتب في البيت الأبيض إلى جانب مكتبه الرسمي في لانغلي. وقد تندّر بندر على موقع كيسي الفريد في إدارة ريغن ومكتبه في البيت

الأبيض بالقول: "كان يمكن أن يستخدمه للتأثير في الزوّار الأجانب، لأنه إذا قال، تعالوا واجتمعوا بي في البيت الأبيض، فإنهم سيحدثون أنفسهم بالقول، لله درّ هذا الرجل، إنه قريب حقاً من الرئيس ولديه مكتب هناك. كان ذلك جزءاً من مهارة كيبي في الاستعراض".

أصبح السعوديون، الذين يجمعون في آن معاً بين الثروة والسريّة ومعاداة الشيوعية، مكوّناً حاسماً من مكوّنات هجوم ريغن الاستراتيجي على الكتلة السوفياتية، تعزّزه رؤية كيبي وعزيمته. وقد قال الآن هيرز، مدير عمليات السي آي إيه في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت: "كانت المملكة العربية السعودية بالنسبة إلينا في الثمانينيات إحدى أهم الدول الحليفة لأميركا... كانت بمثابة محور الدولاب في نظرنا وعنصراً حاسماً في كثير من الأهداف المهمة"¹⁰.

كان كيبي مقتنعاً أن على الولايات المتحدة مواجهة التوسّع السوفياتي أينما حدث في العالم، لذا قال: "إنّ ساحة القتال الأساسية... ليست في مجال اختبار الصواريخ أو طاولة التفاوض على الحد من الأسلحة، وإنما في ريف العالم الثالث". وكان السوفيات يتبعون استراتيجية "الإمبريالية الزاحفة" يحدوهم هدفان، "البرزخ بين أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية" و"حقوق النفط في الشرق الأوسط، وهي شريان الحياة للتحالف الغربي"¹¹. وكان كيبي يعتقد، على غرار السعوديين، أن غزو السوفيات لأفغانستان جزء من استراتيجية تهدد حقول النفط.

كان ريغن، طوال عهده، يذكر بانتظام لائحة بالبلاد المثيرة للقلق: أفغانستان، وأنغولا، وكمبوديا، وإثيوبيا ونيكاراغوا. وما لم يدركه سوى قليل من الناس هو أن المملكة العربية السعودية كانت مشتركة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أربع من تلك الحملات الخمس، باستثناء كمبوديا. وقد وضعت إدارة ريغن استراتيجية تتعامل مع شواغل المملكة العربية السعودية في العالم وتوجّه الفائض النقدي السعودي نحو السياسة الخارجية الأميركية. فلزعزعة استقرار حكومة منغيستو مريام الإثيوبية الموالية للسوفيات، أرسلت المملكة العربية السعودية أموالاً إلى جارتها، السودان. ودعمت السياسة الأميركية، ساعدت المملكة أيضاً زعيم المتمردين في أنغولا، جوناس سافيمبي، وذلك عن طريق تزويد المغرب بالمال لإنشاء معسكر تدريب لحركة "يونيتا" (الاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا الكامل). وفي حادثة كان يمكن أن تهدد الرئيس



رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وليام كيسبي مع رونالد ريغن -
مهندسا بيان ريغن

في آخر الأمر بتهمة الإخلال بالوظيفة، حوّلت المملكة 32 مليون دولار إلى حساب الكونترا في نيكاراغوا. وصبّت واشنطن والرياض معاً 3 مليارات دولار لتقويض الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وكانت المملكة تساهم بمقدار المساهمة الأميركية. وقد أسرّ بندر، عند تحدّثه عن الشراكة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بالقول: "لو علمتم ما كنا نفعله حقاً لأجل أميركا، لما أعطيتمونا أواكس فقط، بل لأعطيتمونا أسلحة نووية"¹².

لم تقتصر الجهود السعودية لمحاربة الشيوعيين على المساهمات بالنفط والبترو دولار لمصلحة عمليات السي آي أيه السرية. ويؤكد بندر: "لم نستخدم مقولات الشرق - الغرب أو العداة الأميركي للشيوعية، بل استخدمنا الدين. قلنا، الشيوعيون ملحدون؛ إنهم غير مؤمنين ونحن نحاربهم لأسباب دينية. وجيئنا العالم الإسلامي ورائنا، وهو ما تلائم تماماً مع استراتيجية ريغن لقتال الاتحاد السوفياتي في منطقة لا يستطيعون التأثير فيها كما نؤثر نحن". كرّر الأمير ذكر المنطق السعودي عند التحدّث مع البلاد الإسلامية: "لستذهب أميركا إلى الجحيم، إننا نقاتل الشيوعيين لأنهم كفّار". وردّد السفير الأميركي إلى الرياض هذا التوكيد عندما قال: "كانت الولايات المتحدة شريكاً

منشوداً للمملكة العربية السعودية... وثمة مصلحة مشتركة في مواجهة الشيوعية الكافرة. وكان السعوديون يرون فيها الخطر الرئيسي على المملكة والإسلام والمنطقة"¹³.

عزّز بندر الخطاب السعودي المقنع للعالم الإسلامي، فأوضح أنه في بعض المقابلات في ذلك الوقت كان يُسأل عما إذا كانت المملكة العربية السعودية تقوم بذلك بطلب من أميركا، وكان يجيب: "لا. توجد في أميركا سفارة سوفياتية وفي الاتحاد السوفياتي سفارة أميركية. وليست للمملكة العربية السعودية علاقة مع الاتحاد السوفياتي، لا بسبب أميركا، وإنما لأن السوفيات ملحدون". وأشار الأمير إلى أن المملكة هي البلد الوحيد في العالم آنذاك الذي لا يسمح للمواطنين الشيوعيين حتى بالخروج من الطائرة عند هبوطها في المملكة؛ بل عليهم البقاء في الطائرة إلى أن تقلع. ومع أنه لا مجال للشك في قوة الرابطة بين بوش والسعوديين في الأعوام التالية، فإنّ الشراكة المستترة والمنسقة بين إدارة ريغن ووكالة الاستخبارات المركزية والمملكة العربية السعودية هي التي هيأت المسرح للعلاقات اللاحقة. ولم يؤدّ هذا الارتباط إلى زوال الاتحاد السوفياتي فحسب، وإنما أيضاً إلى تثبيت الولايات المتحدة بمثابة القوة العسكرية المتفوّقة في العالم.

من الإفراط في التبسيط الإيحاء أن الصراع العالمي المعقّد على السلطة بين روسيا والولايات المتحدة في الثمانينيات وحصيلة الحرب الباردة أملت هما الثروة في نهاية المطاف. ومع ذلك، كان التحالف السعودي الأميركي حيويّاً في الانتصار الأميركي في الحرب الباردة. فالحرب الباردة لم تكن في أحيان متكرّرة اختباراً للقوة العسكريّة بقدر ما كانت منافسة بين الدولار والروبل، وتمويل العديد من قوى التمرد في بلاد مثل أفغانستان ونيكاراغوا وأنغولا يصب في صميم استراتيجية الحرب الباردة. وما المهارة في إدارة أسعار النفط العالمية إلا إحدى الطرائق التي دعمت فيها المملكة العربية السعودية ريغن والولايات المتحدة خلال الثمانينيات. فبخفض سعر النفط، لم يعزّز السعوديون الصناعة الأميركية بشكل ملحوظ فحسب، بل إنهم شلّوا الاقتصاد الروسي في الواقع، إذ كان ذلك الاقتصاد معتمداً على إيراداته النفطية بالعملات. لقد كان مبدأ ريغن يقوم على جعل المحافظة على التدخل السوفياتي في بلاد العالم الثالث مكلفاً جداً. وفي غضون ذلك العقد، حققت تلك الاستراتيجية النجاح.

يتوقف أحد أركان الفكر الماكيافيلي على الاضطلاع بما يجب القيام به، حتى عندما تتطلب مثل هذه المساعي درجة معينة من السرية والابتعاد عن قواعد السلوك السوية أو القواعد الأخلاقية. ومن الصعب أن نجد حالة أكثر التصاقاً بهذه النظرية من التعاملات الأميركية السعودية خلال قضية إيران - كونترا. ففي سنة 1985، وبمبادرة من الحزب الديمقراطي تُعرف باسم "تعديل بولاند"، أوقف الكونغرس بشكل مفاجئ الدعم المالي لمتبردي الكونترا الذين كانوا يقاتلون النظام الساندينستي في نيكاراغوا. وعجّل ذلك القرار بحدوث ما أصبح يُعرف بقضية إيران - كونترا، وهي فضيحة شوّهت الأعوام الأخيرة من رئاسة رونالد ريغن.

شملت قضية إيران - كونترا فعلاً عدة عمليات منفصلة. أولاً، باعت الولايات المتحدة سراً أسلحة لإيران، إحدى الدول الإرهابية؛ وهي صفقة يحظرها القانون الأميركي. بل إن تلك الصفقة انتهكت "عملية الاتفاق المحكم" (Operation Staunch) التي أطلقها ريغن وسط ترويج إعلامي كبير، وهي حملة دولية لمنع جميع الدول من بيع أسلحة لإيران. ثانياً، انتهكت الحكومة الأميركية "تعديل بولاند" عن طريق تقديم مساعدة سرية إلى متمردي الكونترا في حربهم على الحكومة الساندينستية اليسارية في نيكاراغوا. وقد تشابكت هاتان المغامرتان السريتان بسبب إدارتهما من قبل أعضاء في هيئة موظفي مجلس الأمن القومي، وخصوصاً أوليفر نورث، وهو ضابط برتبة مقدم في مشاة البحرية الأميركية. وفي الوقت المناسب، قام نورث بتحويل أرباح صفقة الأسلحة الإيرانية لتمويل الكونترا النيكاراغوانية¹⁴.

على الرغم من أن "تعديل بولاند" لم يصبح نافذاً حتى فبراير 1985، فإن البيت الأبيض بدأ في أوائل سنة 1984 يفكر في خيارات أخرى بعد أن خشي من عدم التمكن من تأمين مزيد من الدعم من الكونغرس لتمويل الكونترا. وقال مستشار الأمن القومي بّد ماكفرلين في شهادته أمام لجان مشتركة تابعة للكونغرس ومعنية بالتدقيق في قضية إيران - كونترا أنه كان يفكر في احتمال تلزيم عملية دعم الكونترا بكاملها لبلد آخر¹⁵. ومن دون علم وزير الخارجية جورج شولتز، اجتمع ماكفرلين ببيل كيسي لمناقشة أفكاره بشأن تأمين المساعدة للكونترا. وقد أعجب كيسي بأفكاره وأرسل إلى ماكفرلين مذكرة قال فيها: "إنني موافق تماماً على وجوب أن تقوم باستكشاف بدائل للتمويل في إسرائيل وربما سواها"¹⁶. كانت إسرائيل الخيار الطبيعي الأول، إذ

أيضاً تمتلك الخبرة العسكرية اللازمة لتحويل مجندي الكونترا الأغرار إلى قوة قتالية فعالة.

ومما يبعث على الخيبة أن الإسرائيليين صدّوا محاولة ماكفرلين الحصول على أموال منهم، وعندما علم شولتز بالأمر عن طريق السفير الأميركي في تل أبيب، وبّخ ماكفرلين وحثّره من القيام بمثل تلك الاستجداءات. لكن في مايو 1984، نفذت أموال الكونترا، ورفض الكونغرس طلب الإدارة تخصيص 21 مليون دولار إضافي لمساعدة الكونترا. في هذه الأثناء، تلقى ماكفرلين من الرئيس توجيهاً أن "يقي الكونترا على قيد الحياة"، وهو طلب لم يكن في استطاعته أن ينفذه بالكامل من غير تنازل قانوني خطير¹⁷. نقل ماكفرلين تعليمات ريغن إلى أوليفر نورث، أحد الموظفين في مجلس الأمن القومي والمسؤول الرئيسي عن اتصال الإدارة بقوات الكونترا¹⁸.

ولما كان الوزير شولتز قد أوضح آراءه بشأن طلب ماكفرلين المساعدة من إسرائيل، فقد استبعد عن الجهود الجديدة الهادئة التي تُبذل لتأمين دعم مالي خارجي للكونترا. وكما أفاد نورث: "لم يكن شولتز يعلم بما جرى في ذلك الوقت، وكذلك أنا، لكن الرئيس فوّض ماكفرلين بالفعل للاجتماع بالأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي إلى واشنطن، وطلب مساهمة من حكومته"¹⁹.

أثارت قانونية تمويل طرف ثالث للكونترا قضية كبيرة في البيت الأبيض. فقد أشار كبير موظفي البيت الأبيض جيمس بيكر إلى شولتز أن مثل هذه الاستجداءات تشكل "جرماً يعرّض للمساءلة". وأصر نائب الرئيس بوش على أن المشكلة الوحيدة في السعي طلباً لدعم من بلد ثالث هي "إذا كان على الولايات المتحدة أن تعد بتقديم شيء في المقابل لهذه الأطراف الثالثة. وعندئذ يمكن أن يُفسّر الاتفاق على أنه "تبادل". لكن، يبدو أن رأي جيمس بيكر أنه ليس في وسع الحكومة أن تفعل بصورة غير مباشرة ما لا تستطيع أن تفعله مباشرة لم يؤخذ في الحسبان²⁰.

حفزت الحساسية الشديدة تجاه التمويل من طرف ثالث ماكفرلين على الحرص على عدم خروج المناقشات إلى العلن، إذ قال: "أقترح ألا يفوّض أحد السعي للحصول على دعم من طرف ثالث لمناوئي الساندينستين (الكونترا) حتى نحصل على المعلومات التي نحتاج إليها، وآمل بالتأكيد عدم خروج شيء من هذه المناقشة إلى العلن بأي شكل من الأشكال". غير أن مجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي وافقت

على التماس رأي قانوني من وزارة العدل²¹. وبعد مرور يوم على اجتماع مجموعة التخطيط، اجتمع بيل كيسي بالمدعي العام وليام فرينتس سميث، الذي قرّر أن تمويل الكونترا من بلد ثالث مسموح به قانوناً طالما لم تستخدم أموال أميركية لهذا الغرض ولم يكن البلد الثالث يتوقع أن تقوم الولايات المتحدة بتسديد قيمة المساعدة²². شدّد ريغن على إحاطة الأمر بسرية بالغة، وحذّر من التسريبات، قائلاً: "إذا فشا أمر هذه الحكاية، فستعترض لخرج شديد"²³.

لكن ماكفرلين قابل بندر، حتى قبل اجتماع مجموعة التخطيط. وأخبر الأمير أنّ من المحتمّ تقريباً أن تفشل الإدارة في نيل موافقة الكونغرس على تقديم مساعدة إضافية إلى الكونترا. وذكر ماكفرلين أيضاً أن الخطر الوحيد على فوز ريغن في الخريف سيكون وقوع اضطرابات في أميركا الوسطى²⁴. وكان ذلك بمثابة القول الفصل بالنسبة إلى بندر، فالمملكة العربية السعودية تريد استمرار ريغن في الإدارة لولاية ثانية.

تبعاً لماكفرلين في شهادته اللاحقة: "في مايو أو يونيو 1984، عرض مسؤول أجنبيّ، حدّد لاحقاً أنه بندر، التبرّع بمليون دولار شهرياً كمبالغ خاصة للكونترا في الظاهر. وفي أوائل سنة 1985، زادت المساهمة إلى مليوني دولار شهرياً"²⁵. وذكر أن الأمير قدّم هذه المساهمة كبادرة إنسانية، قائلاً إن التبرّع يُظهر امتنان الملك فهد للدعم السابق الذي قدمته إدارة ريغن إلى الحكومة السعودية²⁶. أما في الواقع، فإن تأكيد الأمير أن المملكة العربية السعودية ستقدّم الأموال التي تحتاج إليها الكونترا أثارت تساؤلات لم تدم طويلاً بشأن كميّة التعامل معها. فالصفقة غير مسبوقه بحيث لم يعرف ماكفرلين ولا بندر كيف يمضيان بها قُدماً. وقد أفيد عن أنّ ماكفرلين عاد إلى مكتبه، وأطلع نائبه، جون بويندكستر، على الموقف، ثم طلب من أوليفر نورث الاستعلام من قادة الكونترا عن الحساب المصرفي الذي ستوضع فيه الأموال²⁷. أشار نورث إلى قائد القوة الديمقراطية النيكاراغوانية أدولفو كاليرو أن يفتح حساباً في مصرف خارجيّ يودع فيه السعوديون الأموال. وبدأ مبلغ المليون دولار السري الشهري يصل إلى حساب خارجيّ في جزر كايمان في يونيو 1984، بما يضمن بقاء الكونترا قوة عسكرية في نيكاراغوا بصرف النظر عن أي إجراء متخذ من جانب الكونغرس²⁸.

بعد يوم أو يومين من موافقة بندر على تقديم الأموال، أبلغ ماكفرلين الرئيس ريغن ونائب الرئيس بوش. وبعد ذلك بعدة أيام، أبلغ شولتز وواينبرغر لكنه لم



كشف بد ماكفرلين دور بندر
خلال جلسات إيران - كونترا

يطلعهما على مصدر الأموال، ولم يلحًا في السؤال عن التفاصيل. وفي فترة لاحقة، خلال تحقيقات إيران - كونترا، قال ماكفرلين في شهادته إنه أعلم الرئيس بالمساهمة السعودية الأولى في يونيو 1984، وذلك بتدوين المعلومات على بطاقة دسّها في سجل التقارير اليومية الموجزة للرئيس لكي لا يطلع أي مسؤول آخر على الترتيبات. وردّ ريغن عليه بالكتابة، "أخبار طيبة!"²⁹ وقال ماكفرلين أيضاً إنه أخبر الرئيس، إمّا خطأً أو شفويًا، أن "لا أحد يعرف شيئاً عن هذا الأمر"، وردّ ريغن عليه بالقول: "جيد، لنحرص على إبقاء الأمر على هذا النحو"³⁰.

وأصر ماكفرلين، طوال الوقت، على القول إنه لم

يستجد المال؛ وإنه فعل كل شيء ما عدا طلب المال. إلا أن تأويل الطريقة التي صاغ ماكفرلين بها مقاربتة هو الذي أثار الجدل في ذروة تحقيقات إيران - كونترا. فقد صاغ ماكفرلين أجوبته خلال تلك التحقيقات بعبارات معدّة لحماية الإدارة، مؤكّداً أن بندر تبرع بالمال طوعاً وآثمه لم يقيم بأي التماس. بيد أن بندر يؤكّد بثبات على أن ماكفرلين وجّه إليه طلباً مباشراً بشأن الدعم المالي.

ومع أن ماكفرلين حاول خلال تحقيقات إيران - كونترا صوغ إجاباته بطريقة تدل على عدم وجود أي محاولة استجداء، فإنّه أدان الإدارة عندما ألمح إلى وعد بشيء ما في المقابل. وقال ماكفرلين في شهادته: "اتضح تماماً للسفير [السعودي] أن بلده سيحصل على استحسان كبير، واعتقد السعوديون صراحة، أن ما يقومون به هو الصواب؛ فهم يقدّمون الدعم عندما يُحجم الكونغرس"³¹. بدا واضحاً من اعتراف ماكفرلين أن السعوديين توقعوا الحصول على فوائد جمّة. لكن هل يلبي ذلك تعريف "التبادل" كما أشار إليه جورج بوش؟ لا شكّ في أن الفاصل بين هذا وذاك خطّ رفيع جداً.

كان موقف بندر العلني في هذه الفترة مراوفاً. فقد سئل في مقابلة على تلفزيون سي بي أس: "هناك روايات تتعلّق بحكومتك وبك وبالعلاقتك بإدارة ريغن والمال

الذي يأتي من حساب شخصي للملك. لقد فهمت المملكة العربية السعودية في وقت باكر جداً أنها إذا قامت بأشياء لمصلحة الأميركيين كما يفعل الإسرائيليون، فإنها ستكسب من وراء ذلك دعم الحكومة الأمريكية حين تحتاج إلى هذا الدعم. هل ذلك تقويم منصف لمبدأ عام؟". وكان جوابه مدروساً: "أعتقد أن مبدأ انعكاس تعامل الناس في ما بينهم على علاقة بعضهم بعضاً مبدأ عام في العالم"³².

تُبيّن رواية نورث لتباحثه مع ماكفرلين السرية التي أحيطت بها اتفاقات إيران - كونترا عمداً، وتشير إلى إدراك البيت الأبيض الطبيعة غير القانونية لما كانوا ينسّقونه. ويتذكر نورث قول ماكفرلين: "إذا كان عليك أن تدوّن كل شيء، فلا شأن لك في هذا العمل. يجب أن يذهب المال مباشرة من حساب أجنبي إلى حساب كاليفورنيا الخارجي. يجب ألا يدخل هذا البلد البتة. افعل المطلوب عن طريق حوالة برقية". وسأل نورث: "لم يجب أن يكون الحساب خارجياً؟".

أجاب ماكفرلين: "السبب الأول، تجميد كل الحسابات المصرفية النيكاراغوية في الولايات المتحدة. والثاني، وزارة الخزانة تراقب التحويلات المالية الكبيرة الداخلة إلى المصارف الأمريكية والخارجية منها. ويمكن أن يلاحظ أحد هذه التحويلات ويبدأ طرح الأسئلة"³³.

بظهور روايتين متباينتين جداً حول طريقة التمويل السعودي للكونترا، ففرت الصداقة بين بندر وماكفرلين.

يقول بندر: "كان ماكفرلين صديقاً حميماً. لقد عملنا معاً بشكل جيّد في لبنان. وفي يوم من الأيام فاتحني بشأن تمويل الكونترا في نيكاراغوا". وفي أثناء تقلب عرض مجمل عن مشاركة المملكة العربية السعودية في تمويل الكونترا النيكاراغوية، كرّر الأمير السحدّث عن الحاجة إليهم لتقدم الدعم لأن تعديل بولاند حال دون تقلب الحكومة الأميركية تمويلًا إضافيًا إلى الكونترا. وأضاف أن السوفيات والكوبيين ردّوا على وقف التمويل وما تلاه من منع وصول أسلحة حيوية إلى الكونترا بإرسال كميات كبيرة من الأسلحة إلى نيكاراغوا، ما منح الساندينيستيين تفوقاً واضحاً في معركة كبيرة تالية.

كان الغرض من الأموال السعودية تمكين الكونترا من الحصول على أسلحة ضرورية للغاية إلى أن يمحن الوقت الذي تستطيع فيه وكالة الاستخبارات المركزية تأمين أموال جديدة. وكان السعوديون يعتبرون أن دعم الكونترا يصب في المصلحة

القومية لأميركا والمملكة على حدّ سواء. يقول بندر: "لم تكن لدينا مشكلة في ذلك. كانت عملية ذات سيادة خارج الولايات المتحدة ولذا لم نكن نخرق أيّاً من القوانين. كنّا نموّل عدداً من العمليات المناهضة للشيوعية في أنحاء مختلفة من العالم، ولم يكن ذلك عملاً مختلفاً". وأبلغ بندر ماكفرلين أن الحكومة السعودية مستعدة فعلاً لإعلان دعمها للكونترا بحيث لا يشعر أحد بخرج في حال حدوث أي تسريب. لكنّ ماكفرلين أشار إلى أن الموقف الأميركي ما زال حريصاً على إبقاء الأموال والدعم السعودي طي الكتمان، مؤكّداً على عدم حدوث أي تسريبات.

في فبراير 1985، مع نفاذ تعديل بولاند، اجتمع ماكفرلين بالأمير للبحث في زيارة الملك فهد الوشيكة. وناقشا مجدداً موضوع الكونترا. أبلغ ماكفرلين بندر أنّ الولايات المتحدة لا تزال تواجه مشكلة تمويل، على الرغم من المساهمات السعودية. وعندما وصل الملك فهد، اجتمع مع الرئيس ريغن في المكتب البيضوي، كما هو معتاد. بيد أن لقاء آخر أقل اعتياداً تم في 11 فبراير في الجناح الرئاسي في البيت الأبيض.

وقد أسفر ذلك اللقاء بين فهد وريغن عن موافقة سعودية سرية على رفع مستوى التمويل للكونترا. وكتب نورث إلى كاليرو، "يا صديقي، سيتم في الأسبوع المقبل إيداع مبلغ يزيد عن 20 مليون دولار في الحساب المعتاد... وينبغي أن يسدّ الفجوة بين الآن وموعد إجراء التصويت واستئناف الإمداد بالمال مجدداً". وقال نورث إنه يجب استخدام المال في إعادة نشر قوّات الكونترا أمام هجوم ساندينستي متوقّع، وتجهيز "القوّات والمتطوعين" وتدريبها، ووضع خطة للإمداد الجوي المنتظم. وأضاف: "سيوفر هذا المال الجديد مرونة عالية لم نتمتع بها من قبل"³⁴.

وأكد نورث لاحقاً أن ما جرى صفقة لم يكن يفترض قط كشفها ولا كشف أنّ المملكة العربية السعودية هي المموّلة الرئيسية. وعلى الرغم من أنّ المسؤولين الأميركيين أكدوا لبندر أن الوسيلة قانونية، فإنّ بندر عرف أنّها كانت "تنطوي على مخاطر سياسيّة". وشهد نورث لاحقاً أن بندر "حرص على إبقاء دوره في إرسال الملايين من خلال حساب في مصرف سويسري طي الكتمان"^(*). وأضاف: "وعدناه بالحفاظ على سرّيّة الأمر، وقد حاولنا ذلك"³⁵.

(*) كان في الحقيقة حساباً في جزر كايمان.

بيد أن سرّ تمويل الكونترا لم يصمد، ورفض بندر، الذي كان يتمتع بحصانة دبلوماسية، التعاون مع المحققين. ومع أن ماكفرلين وصف تمويل الكونترا أنه تحويل "أموال شخصية" لمسؤول أجنبي، فقد أنكر بندر الرواية ورفض طلبات من المدعي الخاصّ لشرح دوره. كان الأمر بالنسبة إلى السعوديين وبندر واحداً من المشروعات المشتركة المناهضة للشيوعية التي وُضعت سرّاً مع مساعدين كبار لريغن، وهو جزء من المصالح المترابطة التي ميّزت فترة عمله كسفير³⁶. وفي وقت لاحق، أكد بندر أن فرد داتون نصحه أن يرفض طلب المدعي الخاص.

خلال صيف 1986، بدأت التقارير تظهر في الصحف زاعمة أن السعوديين ساهموا بتقديم أموال للكونترا كجزء من اتفاق غير رسمي متصل ببيع طائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية. ففي 27 يوليو 1986، نشرت صحيفة "سان فرانسيسكو إكزامينر" مقالة نقلت عن مصادر مخبرية أنّ المساهمة السعودية "ما هي إلا المثال الأخير على ممارسة قديمة لتمويل عمليات أميركية سرّية بأموال مقتطعة من مبيعات عسكرية خارجية"³⁷. وظهر كاسبار واينبرغر على الملأ نافعاً وجود أي مساهمات سعودية. وأصدرت السفارة السعودية بياناً صحافياً في 21 أكتوبر، ذكر فيه بندر أنّ "المملكة العربية السعودية لم تتورّط في الماضي أو الحاضر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أي دعم عسكريّ أو سواه من أنواع الدعم لأي مجموعة أو مجموعات معنية بنيكاراغوا"³⁸.

في ذلك الوقت، كان اهتمام واينبرغر الرئيسيّ منصباً على المحافظة على علاقات طيبة مع المملكة العربية السعودية، التي يعتبرها حليفة محورية في الشرق الأوسط. وكانت علاقة واينبرغر بالأمير متينة، ولم يوفر إنكاره المتكرّر أي تورّط سعوديّ مع الكونترا الحماية للرئيس فحسب، وإنما لبندر أيضاً³⁹.

كان بندر واثقاً من أنه يتمتّع بتأييد تامّ في البيت الأبيض، لكنّه صُدم وغضب عندما شاهد ماكفرلين على شاشة التلفاز وهو يشهد خلال جلسات الاستماع أن بندر قدّم الأموال طواعية. كان ماكفرلين يحاول حماية الرئيس، فوجّه الاتهام إلى بندر، بعدما أنكر الأخير في الصحف بشكل قاطع أي تمويل سعوديّ للكونترا.

شدّد بندر في حديثه عن هذه الواقعة على نخية أمله من ماكفرلين، وقال غاضباً: "لقد باح بما لديه وخذلني. وكانت المرة الوحيدة التي كذبت فيها على وسائل الإعلام

عندما قلت، لا شأن لنا بالأمر وأميركا لم تفتحنني به قطّ، لأن هذا ما توافقنا على قوله. قلت له، اسمع، لا أبالي بالحقيقة؛ إذا كنت ستروي قصة ما، فدعنا نرويها معاً. وإذا كانت كذبة، فلنكذب معاً. وإذا كانت الحقيقة، فلنروِ القصة نفسها. لكنك ستلحق الضرر بنفسك وبني إذا قدّمنا روايتين مختلفتين".

قال بندر صراحة معترفاً بضلوعه في الأمر: "الصحافة صدّقتني لأنني أقول الحقيقة دائماً. ولطالما كنت صريحاً معها. كنت أقول لهم سأروي الحقيقة أو سأكتفي بقول لا يمكنني التعليق".

تابع بندر القصة من دون أن يتمكن من إخفاء غضبه واستيائه: "لكنه [ماكفرلين] جلس أمام العالم كله في الكونغرس وقال، أعترف أن الأمير السعودي بندر اتصل بي ذات يوم وقال، تعال - نريد مساعدتكم ومساعدة الكونغرس - هل يمكننا أن نقدّم لكم 25 مليون دولار؟". وأضاف بندر بغضب: "لم يكتف بالكذب، لأنني لا أعير أي اهتمام للكونغرس - بل إنني لم أكن أعرف أين تقع نيكاراغوا - وإنما زارني في منتصف الليل وقال، إننا بحاجة إلى مساعدة.. إلخ، إلخ، فقلت، حسناً، لكن هل أجاز الرئيس ذلك؟ فأجاب ماكفرلين، نعم ويمكنك التأكّد من ذلك بنفسك، لكن لا يمكنك التحدّث إلى أي شخص آخر. سأصحبك إليه لتراه وسيقول شكراً لكم. قلت، حسناً، هذا كل ما أريده". وصدّق بندر ما قاله ماكفرلين.

وتابع بندر: "لذا لم يكذب في جلسة الاستماع فحسب، بل جعلني أكذب أيضاً وأقول لا علاقة لنا بالأمر ثم قال إننا ضالعون فيه. ثم قال إننا كنا البادئين بالاتصال، وهذا غير صحيح وقد آلمني ذلك جداً لأنه قال لي، أمير بندر، أنا من مشاة البحرية وأفضل الموت على أن أخذل أصدقائي ورئيسي. لذا قلت، وأنا كذلك أيضاً. لست من مشاة البحرية، لكنني مستعد للموت لحماية الملك وأصدقائي". وأوضح بندر لمستشار الأمن القومي أن المملكة العربية السعودية ستقدّم الدعم أياً تكن وجهة النظر التي يرغب الأمير كيون في تبنيها ما دامت لكلا البلدين الأجندة نفسها وما داما ملتزمين بها. وكرّر ماكفرلين طمأنة الأمير أن السريّة هي الخيار الوحيد بل أكد له أن خير التمويل لن يخرج إلى العلن إلا إذا فشل بندر في التمسك بما يخصّه من الاتفاق.

سخر بندر من محاولة ماكفرلين الانتحار في الليلة التي سبقت موعد الإدلاء بشهادته. فقد ابتلع ماكفرلين جرعة مفرطة من عقار ما، ثم أجري له غسيل معدة. وقال بندر متعجباً: "كان الرجل من مشاة البحرية... ولو أراد فعلاً قتل نفسه، لاستخدم طريقة أكثر فعالية وحسماً!". وفي النهاية، أرجئت شهادة ماكفرلين. وأكد بندر أنه لم يكلم ماكفرلين منذ ذلك الحين، قائلاً: "لم يعد صديقاً".

وكحاشية على هذا الموضوع، اكتشفت أنه على الرغم من أن وسائل الإعلام في تغطيتها قضية إيران - كونترا تصور أن أوليفر نورث الشخصية الرئيسية، فإن مما يثير الاستغراب أن بندر والعقيد أوليفر نورث لم يلتقيا قط. وكانت المرة الوحيدة التي يفترض أن يتحدث فيها بندر إلى نورث قبل انكشاف الحكاية بقليل. فقد اتصل ماكفرلين بالأمير، موضحاً أنه سيغادر إلى روسيا وإذا احتاج الأمير إلى أي شيء أو إلى التكلّم مع أحد، ففي وسعه الاتصال بالعقيد نورث، الذي يمكنه أن ينقل رسالة إليه حيثما يكون. وفوجئ ماكفرلين حين علم أن الأمير لم يلتق بالعقيد قط واقترح أن يزوره نورث ويجمع به. غير أن بندر استدعي إلى المملكة العربية السعودية وتم إلغاء اللقاء المقرر.

نظراً إلى التغير الكبير الذي طرأ على مواقف ماكفرلين ونورث في أثناء التحقيق، أصبحت علاقة بندر بوسائل الإعلام متوترة بطبيعة الحال. فبين نهج السرية، والإنكار الرسمي الذي خطّه ماكفرلين في الأصل، والاكتشافات، والمزاعم التي لا نهاية لها في الصحافة الأميركية، اعتمد الأمير ما يمكن اعتباره سياسة انحراف، قائلاً: "أعتقد أنه لا يليق بدبلوماسي أن يدلي بتعليقات على الشؤون الداخلية للبلد المضيف". بعبارة أخرى، ترك للأمير كين أن يرتبوا أمورهم بأنفسهم.

لزم بندر موقفه طوال هذه الفترة من التوقعات الإعلامية الحادة: "إن الذين يقولون إننا نرقص على إيقاع أميركا مخطئون، لأننا كلانا نعمل بناء على مصالحنا القومية المتبادلة؛ وهي تلتقي أحياناً، وتفرق أحياناً أخرى. ولا أرى جديداً في ذلك"⁴⁰.

لم يكن للمتعة شبه المازوشية التي أبدتها الصحافة الأميركية خلال جلسات الاستماع بشأن إيران - كونترا تأثير كبير في مكانة المملكة العربية السعودية على المسرح السياسي. ولأن واشنطن ترى الأمور على حقيقتها، فقد أقرت أنه عندما



أوليفر نورث يشهد خلال جلسات إيران - كونترا

طلب الرئيس الأميركي المساعدة، كانت المملكة العربية السعودية هي التي لبّت النداء وساعدت على القتال ضد الشيوعية. وفي وقت لاحق، خلال الهجمات الإعلامية الواسعة على المملكة عقب أحداث 9/11، بادر أحد الكتّاب إلى القول: "في حين أن كل تلك العمليات، وكثيراً غيرها، بقيت طي الكتمان بحكم الضرورة في ذلك الوقت، فإنه عندما كُشف أمرها في قضية إيران - كونترا، حظي

السعوديون بالمدح ممن يريدون الآن طردهم، ابتداء من صحيفة "وول ستريت جورنال"⁴¹.

سرعان ما أصبح بندر هدفاً لتمحيص وسائل الإعلام، عندما بدأ يُنظر إليه كشخصية خارجة على النمط المعهود للدبلوماسية السعودية. ومن أغرب المزاعم التي سيقت ضده تورّطه المفترض في محاولة اغتيال الشيخ محمد حسين فضل الله في سنة 1985. كان فضل الله الزعيم الروحي لحزب الله، وهو حزب لبناني يحظى بتمويل إيراني، أُنهم بالقيام بعمليات إرهابية استهدفت مصالح أميركية في بيروت. وبعد الهجوم سنة 1983 بشاحنة مفخّخة على ثكنة مشاة البحرية الأميركية قرب مطار بيروت، وهو الهجوم الذي أودى بحياة 241 عسكرياً، أتهم المسؤولون الأميركيون فضل الله أنه أمر بتنفيذ ذلك الهجوم⁴².

جرت محاولة اغتيال الشيخ بسيارة مفخّخة انفجرت أمام منزل فضل الله، فقتل 80 شخصاً وجرح 200 شخص آخرين، ولم يصب الشيخ بأذى. وسرعان ما وجّهت إصبع الاتهام إلى وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي آيه) والسعوديين. سرت شائعات في الولايات المتحدة أن المملكة العربية السعودية قدّمت 3 ملايين دولار لتمويل عملية الاغتيال، وتوجت تلك الشائعات بما ورد في كتاب بوب وودوارد "الحجاب" (Veil)، حيث أورد تفاصيل صريحة عن لقاء مزعوم بين بندر وكيسي، بما

في ذلك روايات وصفية عن محادثات سرّية، وتقاسم معلومات وإتلافها، وحتى عن عسكريّ إنكليزيّ سابق غامض زُعم أن السعوديين استخدموه لتنسيق العملية⁴³. وقد نفى بندر نفيّاً قاطعاً حدوث اللقاء المشار إليه. وتكرّرت مزاعم وودوارد على السنة هاورد بلوم⁴⁴، وهولي سكلار⁴⁵، ووليام بلوم⁴⁶، وهلا جابر⁴⁷. بيد أن توماس باورز لاحظ، في مراجعته كتاب وودوارد أن "وودوارد يوحى بقوة، أن هذا المال [السعودي] استُخدم في محاولة اغتيال الشيخ محمد حسين فضل الله، لكنه لا يقول ذلك بالفعل"⁴⁸.

كان وودوارد أقل حذراً حين قال في مقابلة في برنامج فرونت لاين (Fronline) التلفزيوني مع بيل مويرز: "وضع كيسي مع السعوديين في سنة 1985 خطة مفصّلة لاستخدام سيارة مفخّخة لقتل الشيخ فضل الله، الذين قرّروا أنه ليس ممن كانوا وراء تفجير ثكنة مشاة البحرية فقط، وإنما متورّط في احتجاز الرهائن الأميركيين في بيروت أيضاً. وقد تناول كيسي طعام غداء مع الأمير بندر... وهو من أقوى الشخصيات، حتى اليوم، في واشنطن". وتابع وودوارد: "مشى الاثنان في الحديقة، وقالا، نحن مضطران إلى الخروج عن الأصول. واتفقا على أن يقدم السعوديون المال لاستخدام بعض المحترفين لقتل الشيخ فضل الله بسيارة مفخّخة. وكان ذلك خروجاً عن الأصول. ليس هناك دليل على أن ريغن أو واينبرغر أو شولتز عرفوا بذلك. لقد تصرّف كيسي بمفرده، قائلاً، ساحل المشكلة الكبيرة وأكون أشدّ قسوة من الإرهابيين أو بمثل قسوتهم، وأستخدم سلاحهم، السيارة المفخّخة"⁴⁹.

على مرّ السنين، لم يحاول بندر قط تكذيب ما كشف عنه وودوارد، أو تقارير وسائل الإعلام، والكتب التي تناولت هذه القصة. لكنّه أصرّ بثبات على أن المزاعم عن التورّط السعوديّ في محاولة اغتيال فضل الله لا أساس لها من الصحة، مؤكداً بصراحة على عدم وجود أي علاقة له بمحاولة الاغتيال. وبعد محاولة الاغتيال مباشرة، فاتح بندر الشيخ فضل الله باسم الملك فهد، الذي كان حريصاً على ألا يصدّق الزعيم الدينيّ المزاعم عن تورّط السعوديين في عملية التفجير. وطمأن الشيخ فضل الله الأمير بندر أنه يحمّل الولايات المتحدة، لا المملكة العربية السعودية، المسؤولية وتصافح الرجلان مصافحة الأصدقاء. وفي وقت لاحق، عرض بندر على فضل الله تقديم مليوني دولار كموادّ غذائية ومنح جامعية ومساعدات أخرى في مقابل الموافقة على عدم مهاجمة أهداف أميركية في لبنان.

ربما أساء وودوارد تفسير هذه الإيماءة كاعتراف بالذنب، إذ كتب في وقت لاحق عن حوار زعم فيه أن بندر قال لكيسي: "من الأسهل أن ترشيه من أن تقتله". ويعتبر بندر هذا التقرير من نسج الخيال، وينفيه جملة وتفصيلاً. وخلافاً للعادة الغربية المتبعة، أكد بندر دائماً أن كل ما تكتبه الصحافة لا يعنيه كثيراً، ما دام يعرف الحقيقة المتعلقة بوضع ما، ويستطيع تبرير موقفه والموقف السعودي.

وفي وقت لاحق، زُعم أن السي آي آيه لم تنفذ تلك العملية البتة، وإنما كانت من تنفيذ منظمة سرّية للغاية أنشأتها إدارة ريغن في سنة 1982، باسم "مجموعة الأوضاع الخاصة". وزعمت صحيفة "نيو ستيتسمان" أن إحدى خطط المجموعة كانت تقضي بتشكيل قوة استباقية لمكافحة الإرهاب، وبعد بداية فاشلة، تحوّلت إلى مجموعة نظّمها عسكريّ سابق في القوة الجوية الخاصة (SAS) البريطانية، وأخفقت في محاولتها اغتيال فضل الله بسيارة مفخّخة في أوائل سنة 1985⁵⁰.

لعل هناك بعض الحقيقة في هذا الزعم. فقد علم بندر في ما بعد من مصادر استخبارية سعودية أن محاولة اغتيال فضل الله نفذها عميل سابق للسي آي آيه/القوة الجوية الخاصة. غير أن المملكة العربية السعودية لم تموّل تلك العملية قطّ.

ربما ليس هناك توضيح للتعاون السري بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية في السياسة الخارجية أفضل من هزيمة القوّات المسلّحة الليبية في أعقاب الاجتياح الليبي للإقليم الشمالي التشادي.

في سنة 1980، بعد التقدّم بمطالبات حدوديّة متكرّرة، حرّك العقيد القذافي 20 ألف جنديّ إلى التشاد، البلد الناشئ حديثاً بعد أن كان مستعمرة فرنسية. عجزت التشاد، بقيادتها المتخلّفة، عن صدّ الجيش الليبي الغازي. وظهر القذافي على شاشات التلفاز وفي الصحف مبتهجاً ومتباهياً بنجاحه. غير أن الليبيين انسحبوا في نوفمبر 1981 تحت ضغط البلدان الإفريقيّة الأخرى والأحزاب السياسية في التشاد.

وقع غزو ليبيا لثان بين يونيو وأغسطس 1983، عندما تدخل القذافي بالقوّة، وطرد الجيش التشادي من قطاع أوزو البالغ عرضه 100 كلم. أدّى تدخل 3000 جندي فرنسي لاحقاً إلى إنهاء النجاحات الليبية وحدوث تقسيم فعلي للبلد، حيث احتفظت ليبيا بالسيطرة على كل المنطقة الواقعة شمال خط العرض 16. ومع أن ليبيا

وفرنسا اتفقتا لاحقاً على الانسحاب المتبادل من التشاد، فإن الليبيين انتشروا سراً، واحتفظوا بسيطرتهم على المنطقة الشمالية.

مع أن القذافي لم يكن متحالفاً مع السوفيات بشكل مباشر، فقد سرّهم موقفه المناوئ للغرب، إذ استفادوا من أرباح مبيعات الأسلحة الضخمة لليبيا التي قدرتها الاستخبارات الأميركية في حدود مليار دولار سنوياً. ولم يكن البيت الأبيض راضياً عن العلاقات بين ليبيا والاتحاد السوفياتي، فضلاً عن "روح المغامرة" الجديدة لدى القذافي. ومما زاد في المخاوف الأميركية والغربية التهديد الإرهابي الهائل بتنظيم لبيبي لعواصم مثل لندن وباريس وروما وأثينا وبيروت وتونس ومدريد.

توجّست المملكة العربية السعودية خيفة أيضاً من نظام القذافي، إذ تمّ الربط بينه وبين اكتشاف معدّات عسكرية ومتفجّرات عُثر عليها في حقائب ركّاب لبيبي متوجّهين لأداء مناسك الحج. كما أنّ ليبيا وقّعت على معاهدة تعاون مع إثيوبيا واليمن الجنوبي، وهما من أشدّ البلدان تقلباً وعداءاً للمملكة العربية السعودية.

إنّ اتخاذ أي إجراء صريح ضدّ ليبيا يمكن أن يُطلق ارتدادات غير محمودة في الشرق الأوسط، ترفع العقيد الليبي إلى مصاف الشهداء. ولذلك، عندما فاتحت وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه) بندر بشأن تمويل عملية سرّية ضد القذافي، وافق السعوديون بلا تردّد على مساعدة الاستراتيجية التي وضعها كيسي وهيغ. وكان هدفهم الاستنزاف المتأني والتخريبي لأضعف نقاط القذافي، حملاته العسكرية وغزوه للتشاد. ووفقاً لبوب وودوارد، اعتقد كيسي "أن المغامرة في التشاد هي بمثابة نقطة ضعف القذافي"⁵¹.

وبتمويل من المملكة العربية السعودية والسي آي أيه، عزّزت القوات التشادية قليلة الخبرة جيشها بمرتزقة محترفين مجهّزين جيداً تمّ تجنيدهم ونقلهم جواً إلى التشاد لمساندة الهجوم على القوّات النظامية الليبية. وقد أخبرني فرد داتون أنّ بندر روى له وقع المفاجأة على الجيش الليبي عندما واجه على غير المتوقّع مقاومة ضارية من جيش تشادي يُفترض أن يكون متواضعاً.

"قدّمت المملكة العربية السعودية، بالتعاون مع السي آي أيه 10 ملايين دولار لدعم إعادة تسليح الجيش التشادي وتجنيد جيش من المرتزقة لمساندة القوات التشادية على الأرض. لم يشارك السعوديون بشكل مباشر، بل اكتفوا بالتمويل فقط. وتولى

الأمير كيون الجزء العملائي، وكانت النتيجة هزيمة القذافي وانسحاب القوات الليبية من التشاد. وخلال عملية ليبيا - تشاد، تلقت القوات البرية مساندة جوية أميركية أُعدت لإضعاف الجيش الليبي، وتدمير المعدات الثقيلة والدبابات، وغيرها، وقطع خطوط تراجع القوات الليبية". ووصف داتون كيف كانت القوات الليبية تُضرب من البرّ والجوّ، وفي غمرة الفوضى التي تلي، لم يكن الليبيون متيقنين من أن الطائرات ستزوّد بالوقود والسلاح وتعود لتنفيذ مزيد من العمليات. ووسط الذعر السائد، كانت القوات التشادية تتقدّم، يدعمها المرتزقة. وبين ديسمبر 1986 والأشهر الأولى من سنة 1987، اندحرت قوات القذافي وأجبرت على الانسحاب إلى ليبيا.

وفي تعبير عن الرضى التامّ عن حصيلة تلك العمليّة السريّة، قال بندر: "لم يقم القذافي قطّ بإرسال قواته إلى خارج ليبيا بعد تلك الضربة التي تلقّاها"⁵². ومن المثير للاهتمام أن سياق عبارة الأمير يرّد مباشرة الغرض الذي أعلن عنه هيغ في تشاد، وهو "توجيه ضربة إلى القذافي" و"إنزال أفدح الخسائر به"⁵³. غير أن التحالف الأميركي - السعودي والنجاح في التشاد كان أكبر بكثير مما ذكر في وسائل الإعلام. وفقاً لداتون، كان الأسطول السادس الأميركي الذي يعمل في خليج سرت مصدر الدعم الجوّي الواسع للجيش التشادي. وكانت الطائرات تحلق في الليل وتمرّ فوق المجال الجوّي الليبي في طريقها إلى أهدافها في التشاد. ومما يدعو للدهشة أن حاملة الطائرات الأميركية كانت مزوّدة بقنابل وأعتدة سوفياتية وفرها المجاهدون الأفغان، لحجب طبيعة العملية وإخفاء أي تورّط أميركي محتمل.

عند التشكيك في صحة هذا الكشف، قال داتون متعجباً: "لن تجد أحداً مستعداً للاقتراب من هذه الحكاية، لكنها صحيحة. سيناقشها كثير من الأشخاص ويصدّقها بعضهم وينكرها بعضهم الآخر!" وضحك، بعد التفكير في التأثير الذي ستحدثه هذه الرواية في واشنطن ولانغلي عند انكشافها⁵⁴. وأيد السفير أحمد قطان، نائب رئيس موظفي السفارة السعودية في واشنطن في ذلك الوقت، والسفير السعودي الحالي إلى جامعة الدول العربية في القاهرة، رواية داتون في حديث خاص معه لاحقاً.

وفي حادثة مماثلة، قبل ذلك بعام واحد تقريباً، أي في 15 أبريل 1986، في ما يمكن اعتباره تكراراً لعملية تشاد وردّاً على تفجير لبيبي لناد ليلي في هامبورغ، شنت طائرات A-6 تابعة للبحرية الأميركية، وطائرات F-111 تابعة لسلاح الجو الأميركي،

هجوماً ليلياً دقيقاً وضخماً على أهداف ليبية. وقد انطلقت طائرات A-6 من حاملتي الطائرات "أميركا" و"كورال سي" في الأسطول السادس، بينما انطلقت طائرات F-111 من قواعد سلاح الجو الملكي البريطاني في ميلدهول وأبر هايفورد في المملكة المتحدة. وفي الحديث عما تردد كثيراً بشأن استهداف الأميركيين منزل القذافي، لاحظ بندر بمرارة أن "فرنسا رفضت السماح بعبور الطائرات الأميركية المنطلقة من المملكة المتحدة في الأجواء الفرنسية. وفي المقابل، لم توافق مارغريت تاتشر على السماح بعبور الطائرات في الأجواء البريطانية فحسب، بل سمحت أيضاً بانطلاق العمليات من قواعد في المملكة المتحدة".

ظهر التورط السعودي في الصراع الليبي التشادي في وقت لاحق خلال مفاوضات الأمير حساسة لتأمين الاتفاق بشأن محاكمة المشبوهين بتفجير طائرة لوكربي سنة 1999. وخلال فترة هدوء في تلك المحادثات، أثار القذافي موضوع الحملة الليبية على التشاد، وذكر "المآثر البطولية" التي قام بها "جيشه الشجاع". أدرك الأمير، فيما كان جالساً بجانب القذافي وهو يصغي إلى هذا التبجح، أن العقيد كان غافلاً تماماً عن الدعم السعودي لتشاد. فلم يستطع أن يمنع نفسه عن الكلام، فقال لبندر للقذافي: "بما أننا الآن نتحدث بصراحة معاً، فإننا كنا نرعى تشاد. كنا فيها وألحقنا بك هزيمة منكرة في ذلك الوقت"⁵⁵.

من المزايا الأساسية التي ساهمت في نفوذ بندر المتزايد في عهد ريغن قدرته على نسج الصداقات مع أصحاب النفوذ بسرعة. ويمكن القول إن أعظم الصداقات في تلك السنوات الأولى صداقته مع نانسي ريغن. فمن المسلم به منذ مدة طويلة أن "ثاني أقوى الأشخاص في البيت الأبيض [طوال عهد ريغن] هي السيدة التي أحبها الرئيس كثيراً. فقد مارست نانسي ريغن، كسيدة أولى، تأثيراً في أعمال السلطة التنفيذية وسياساتها أكبر بكثير مما مارسته أي زوجة رئيس في التاريخ الحديث"⁵⁶. وكما اعترفت في مذكراتها: "هل قدمت النصح إلى روني يوماً ما؟ بالتأكيد فعلت. أنا التي أعرفه حق المعرفة، وكنت الشخص الوحيد في البيت الأبيض الذي لم تكن له أجندة خاصة به، سوى مساعدته". وقالت: "قدمت لروني أفضل النصح، وكنت على مدى ثمانية أعوام لوجة الرئيس ورفيقة فراشه، وإذا كان ذلك لا يتيح لي فرصة الوصول إليه، فلا أعرف ما الذي يتيحها!"⁵⁷.



لم يقلل بندر من قدر نانسي ريغن طوال وجود ريغن في الحكم، بل كان يولي السيدة الأولى تقديراً كبيراً، ونسج معها صداقة مميزة عادت عليه بالفوائد السياسيّة. وكما أقرت السيدة ريغن: "لا أعرف الكثير عن علم الاقتصاد والشؤون العسكرية، لكن عندي فراسة قوية في الناس، وأحسن الحكم على شخصياتهم"⁵⁸. ومع بندر، صدقت حاسة نانسي ريغن السادسة؛ إخلاصه لها، لزوجها، وتمسّكه بمبدأ ريغن. ولم يكن لتلك العلاقة تأثير

نمت صداقة وثيقة ومميزة بين بندر ونانسي ريغن

عميق في أحداث العالم فحسب، وإنما أيضاً - وبشكل مثير للجدل - داخل البيت الأبيض نفسه.

يُنسب إلى نانسي ريغن فضل الابتعاد داخل حكومة ريغن عن المحافظين المتشدّدين، والاقتراب من ذوي التوجهات الأكثر اعتدالاً في السياسة الخارجية. ومع أن السيدة الأولى تركت السياسة لرجال ريغن، فإنها كانت ضالعة إلى حدّ كبير في اختيار أولئك الرجال. ومن التغييرات المهمّة المنسوبة إلى نانسي إحلال جورج شولتز محل وزير الخارجية ألكسندر هيغ في منتصف ولاية ريغن الأولى؛ وإحلال روبرت ماكفرلين محل مستشار الأمن القومي وليام كلارك⁵⁹. ويمكن إيجاد بصمات بندر في هذين التعيينين.

الدائرة السياسيّة والاجتماعيّة في واشنطن دوّامة يسودها التقلّب وانعدام الأمان وكثرة التغيّر. إنها مكان عدائي لا يقين فيه إلا غدر السلطة وتمسّك وسائل الإعلام بآرائها. ولعل أوضح مثال على ذلك "استقالة" وزير الخارجية ألكسندر هيغ، الرجل الذي طلب دعم بندر معركة إدارة ريغن في التصويت الحاسم على صفقة طائرات "أواكس". ففي عصر يوم 25 يونيو 1982، استدعي الصحفيون إلى غرفة الصحافة في البيت الأبيض لإطلاعهم على أخبار غير متوقعة. وعند الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة اعتلى الرئيس ريغن المنبر وقال: "لقد اضطررت بأسف كبير إلى قبول استقالة وزير

الخارجية آل هيغ". وتابع قائلاً: "وقد رشّحت جورج شولتر لخلافته، وقد قبل هذا الترشيح"⁶⁰. بُثت ملاحظات ريغن مباشرة من محطات الإذاعة والتلفاز في كل أنحاء الولايات المتحدة.

كان الانطباع الذي أعطي هو أن هيغ استقال طوعاً. بيد أنّه سرعان ما طفت على السطح شائعات عن انقلاب في البيت الأبيض. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، كان على هيغ الإدلاء بتصريح في وزارة الخارجية أمام جمهور من نحو ألف صحافي وموظف في الوزارة. حدّد الموعد عند الساعة الرابعة عصراً، غير أن وزير الخارجية المغادر تأخّر نصف ساعة تقريباً. فهو لم يعلم بأمر استقالته إلا قبل ساعات قليلة في الواقع، أي قرابة الظهر. ووفقاً لهيغ، كان عليه مرغماً كتابة رسالة استقالة والتظاهر، لأغراض الاستهلاك العلني، أنه قدّم استقالته بالفعل إلى ريغن. وسبب تأخّره في الوصول إلى المؤتمر الصحفي في وزارة الخارجية في الواقع أنّه كان لا يزال يضع لمساته الأخيرة على تصريحه العلني. فقد أمر هيغ بالألا يتجاوز تصريحه بأكمله خمس دقائق ووثّه إلى عدم قبول الأسئلة. وخلال كلمته، تحدّث هيغ ببطء، وكان موقفه يدلّ على تقديم الاستقالة، لكنّ مظهره كان يدلّ على هزيمة. وكادت الكلمات تستعصي الخروج من فمه⁶¹.

بعيد تصريح هيغ، قال سام دونالدسون من قسم أخبار آيه بي سي، "قد يبدو الأمر مستغرباً بالنسبة إلى من يعرفون خلفية الجنرال هيغ؛ لكن الفوز هنا كان حليف المتشددين، من وجهة نظر العلاقات السوفياتية الأميركية، والمتشددين عندما يتعلّق الأمر بمحاولة كبح ما يراه كثير من الناس عنفاً مفرطاً من جانب إسرائيل في لبنان"⁶².

وتشاء المصادفة أن يستضيف بندر حفل عشاء في منزله في ذلك المساء. وقد أوضح أنّه كان من المنتظر أن يحضر حفل العشاء عشرون مدعوّاً، لكن خلال الأسبوع الذي سبق الحفلة، تعرّض هيغ لضغوط كي يستقيل. ولأنّ خير استقالة هيغ ذاع يوم موعده الحفلة، اتصل بندر بوزير الخارجية وسأل إن كان عليه إلغاء الحفلة. فقد قال لهيغ: "لا أريد أن تظهر حفلة العشاء كأنها جاءت نتيجة للاستقالة". ورأى هيغ أن إقامة حفلة العشاء بحضور هذا العدد الكبير من شخصيات واشنطن قد يساء فهمها داخل الدائرة السياسيّة والاجتماعيّة في واشنطن، واقترح بدلاً من ذلك مأدبة عشاء على نطاق أضيق تضمهما مع زوجتيهما.

وصل الوزير هيغ وزوجته إلى منزل بندر في مكليين، فرجينيا. وارتأى بندر أن تأخذ الأميرة هيفاء السيدة هيغ إلى الغرفة المغربية ليتاح له التحدّث مع هيغ على انفراد في مكتبه بخصوص الاستقالة. غير أن السيدة هيغ لحقت بزوجها إلى المكتب. ولدى جلوس الجميع، ران صمت طويل. ويقول بندر: "لم يكن أحد يعرف ماذا يقول".

وفي آخر الأمر، كسر حاجز الصمت، قائلاً: "لقد كان هذا اليوم مفاجئاً". وتابع بندر: "لم يكن ما حدث بعد ذلك عادياً". فقد تملكته الدهشة حين رأى الوزير هيغ، القائد الأعلى السابق لقوات الحلفاء في أوروبا والجنرال بأربع نجوم، وهو ينفجر بالبكاء. كان جالساً في مكتب بندر، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي بمرارة. وأوضح بندر أنه لم يدرِ ماذا يفعل. وخيم على الجميع صمت تحلله بكاء هيغ. وفي آخر الأمر، كفّ هيغ عن البكاء، ومسح عينيه بمنديله، ثم سأل: "هل لي بكوب ماء؟".

وبعد قليل، توجه الجميع إلى غرفة الطعام. وتبيّن على طاولة العشاء أن هيغ أزيح من منصبه، وأنّه لم يكن يعتزم الاستقالة. وكان نادماً لأنّه أتاح الفرصة للأوغاد كي يُخرجوه عنوة. وحين أعلن الرئيس ريغن استقالة هيغ إلى وسائل الإعلام، قائلاً إنّه تلقى كتاب استقالته وقبّلها على مضض، لم يكن هيغ قد خطّ كتاب الاستقالة بعد. وكان موظفو البيت الأبيض القلقون يقومون بالاتصال بمكتب هيغ للحصول على كتاب الاستقالة. وقال هيغ لبندر بغضب: "أخّرت ردّي أكثر من ثلاث ساعات". وأوضح بكلمات حاقدة: "كانت تلك فرصتي الأخيرة للنيل منهم!".

على الرغم من أن بندر لم يكن له دور في رحيل وزير الخارجية هيغ، فإنه كان ذا تأثير في تعيينات أخرى أجرها إدارة ريغن. وقد نسبت الصحافة الأميركية إلى نانسي ريغن اختيار روبرت ماكفرلين مستشاراً للأمن القومي سنة 1983 بدلاً من جين كيركباتريك⁶³. لكنّ بندر يقول إنّه هو الذي عرقل تعيين كيركباتريك، وإنه فعل ذلك لاعتقاده أن كيركباتريك ليست المرشحة المناسبة للمملكة العربية السعودية. وفي المقابل، كان متحمساً لتزكية ماكفرلين، الذي عمل معه سابقاً في وضع اتفاق وقف إطلاق النار لإنهاء القتال في لبنان. وشعر بندر أن ماكفرلين، لا كيركباتريك، سيكون الأكثر توافقاً مع المصالح السعودية. واعترف: "ظللت أقول لها [السيدة الأولى] إن هذا الرجل مخلص حقاً لزوجك، وهو خير سند!" وختم بندر: "وبالنتيجة، أصبح ماكفرلين مستشاراً للأمن القومي".

عندما طُلب من بندر التعليق على تخمينات وسائل الإعلام بشأن علاقته بالسيدة الأولى والشائعات التي تفيد أن له تأثيراً في اختيار موظفين كبار في الإدارة عن طريق السيدة ريغن، أو ما برأسه مؤكداً ما قيل، ثم أوضح أن السيدة ريغن طلبت منه أن يزودها بمعلومات ارتجاعية عن المعيّنين في الإدارة خارج مطبخ ريغن الحكومي، وبالتالي لم يكونوا معروفين. وقال: "أوضحت السيدة ريغن أنها لا تريد داخل الإدارة إلا مؤيدين مخلصين للرئيس". وقد أتاحت مشورة بندر لنانسي وضع "لائحة تصفية" خاصة بها كي تؤثر بها في زوجها؛ لائحة وضعها بندر بعناية بحيث تتوافق مع أفضل مصالح المملكة. وطلبت نانسي ريغن من بندر معلومات عن ولاء، أو عدم ولاء، حكومة زوجها. ويذكر بندر كيف أبلغته نانسي ريغن عند طلب هذه المعلومات أن لديها إحساساً فطرياً تجاه أعضاء الإدارة غير الأوفياء. وقد حرّكت سبابتها قرب جبينها، وقالت: "عندي قرنا استشعار"، ثم نظرت حولها بمكر وخلصه كأنها تشتتت بحثاً عن المسيئين.

وعندما قيل لبندر إن نانسي ريغن كانت بتقبلها مشورته تتوسّل في الواقع الدعم من دبلوماسي أجنبي. ردّ على الفور: "لكنّها في قرارة نفسها، لم تكن تعتبرني مسؤولاً أجنبياً؛ كانت تعتبرني صديقاً لزوجها. كانت تعرف أنني معجب به. ومن الواضح أنّها كانت تعرف عن وجود تعاون وثيق بين رونالد ريغن وماغي تاتشر والملك فهد. وكانت تحدّث نفسها، زوجي يحبّ هذا الرجل ويشقّ به. ورئيسه وزوجي مستقاربان وعلى علاقة طيبة مع ماغي تاتشر، لذا يمكنني أن أثق به في محاولة معرفة ما يقوله الآخرون عن زوجي وعن قادة آخرين ومسؤولين آخرين، ومن هم المسؤولون الأميركيون الذين يقدمونه إلى الأجنبي من زاوية طيبة. أو هل يضحكون عليه أو هل يطلقون النكات عنه؟ بالنسبة إليها، العالم يبدأ وينتهي مع زوجها. لم تكن معنيّة بالسياسة إلا من منطلق حماية زوجها، ويجب ألا يتمكن أحد من إلحاق الأذى به ما دمت أستطيع أن أساعده".

عندما طُلب من بندر التعليق على تخمينات وسائل الإعلام المتكرّرة بشأن مقدار تأثير نانسي ريغن في زوجها، جاء ردّه صريحاً وواضحاً. أكّد أنّها، كسيدة ذات قدرة نسوية على الإقناع، استطاعت بلا شك التأثير في روني بين الحين والآخر، وكرّر أنّها كانت تطلب مشورته.



من اليسار إلى اليمين: كاسبار واينبرغر، جورج شولتز، إد ميس، دون ريغن، ورونالد ريغن في البيت الأبيض

ولتوضيح هذه النقطة، قال بندر: "هناك مقابلة تلفزيونية شهيرة معهما في مزرعتهما. وطرح على ريغن سؤال فقال، حسناً، وخلال التوقف المؤقت، نظرت نانسي إليه وقالت بسرعة، علينا أن نفكر في الأمر. وما لبث الرئيس ريغن أن ردّد كلماتها علينا أن نفكر في الأمر". وأضاف بندر ضاحكاً: "كان مصوراً، لذا عرف الناس أن لها تأثيراً فيه!".

انغمس بندر في السياسة الأميركية مجدداً، قبل أن يكشف إدوين ميس عن تفاصيل فضيحة إيران - كونترا في أواخر نوفمبر 1986، في ما بدا محاولة لتسريع رحيل وزير الخارجية جورج شولتز عن منصبه. وقيل إن بندر تصرف بالنيابة عن نانسي ريغن.

أسرَّ بندر أن زوجة الرئيس كشفت له أنه عندما انفجرت الفضيحة [إيران - كونترا]، "سنتخلص منه [أي من شولتز]". اجتمع بندر، متسلحاً بهذه المعلومة، إلى كاسبار واينبرغر في مكتبه، وأبلغه أن نانسي ريغن ترى وجوب رحيل شولتز؛ فالسيدة الأولى مستاءة جداً من شولتز⁶⁴. ووفقاً لبندر، قالت السيدة ريغن إن وزير الخارجية "ضعيف" و"غير وفي" لزوجها.

في اليوم التالي، اتصل واينبرغر هاتفياً بصديقه وليام كلارك في كاليفورنيا ونقل إليه تعليقات بندر. وقد صُدم الرجلان من مناورة السفير السعودي لاختيار وزير الخارجية⁶⁵.

حظي بندر بمدخل استثنائيّ إلى البيت الأبيض، وذلك بفضل صداقته الشخصية مع رونالد ونانسي ريغن، وبخاصّة السيدة الأولى، إلى جانب الدعم السعودي لمبدأ ريغن المناوئ للشيوعية؛ والاستغلال الدقيق لسلاح النفط، والبترو دولار؛ واتصاله المباشر بالملك فهد. والمعروف أنّ واشنطن تعمل على مستويات كثيرة معقدة ومتعارضة في الغالب، وقد كانت دوائر نفوذ بندر متنوّعة بقدر تنوّع الميدان الذي كان يلعب فيه. واستطاع على امتداد ولايتي ريغن أن يبني شبكة من الصداقات مع الشخصيات الرئيسيّة في الإدارة، ما مكّنه من ممارسة تأثير سياسي منقطع النظير داخل البيت الأبيض.

كان نفوذ بندر في واشنطن مصدر مقدار كبير من تخمينات وسائل الإعلام. وقد حاولت مجلة "تايم" تحديد مقدار نفوذه عندما أفادت: "أحرز الأمير بندر بنسبه الملكي وتشربته الطرائق الأميركية مدخلاً إلى واشنطن لا يضاهيه فيه أي موفد آخر، بمن فيهم السفير السوفياتي المخضرم أناتولي دوبرنين الذي أمضى في واشنطن إحدى وعشرين سنة"⁶⁶. لكن مجلة "تايم" لم تتخيّل أنّه كان في وسع بندر، الدبلوماسي الأجنبي، من خلال صداقته المتينة مع نانسي ريغن، أن يحدّد من وراء الستار شكل إدارتي ريغن.

بندر تاجر السلاح

"إذا كنا أقوىاء، فستعبر قوتنا عن نفسها. وإذا كنا ضعفاء، فلن تسعفنا الكلمات".

جون فيتزجيرالد كنيدي

(1963-1961)

"أصدقائي، دعوني أقول لكم، نحن لسنا مازوشيين؛ نحن لا نحب أن ننفق مليارات الدولارات ونتعرض للإهانة في سياق ذلك".¹ بهذه العبارة الموجهة إلى مجموعة من مديري "ماكدونل دوغلاس" التنفيذيين، كان بندر يشير إلى رفض طلب المملكة العربية السعودية في سنة 1985 الحصول على طائرات F-15 إضافية وصواريخ "لانيس". لكنه ربما كان يشير إلى أي من المفاوضات العسيرة والمحبطة بشأن الأسلحة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية.

بعد إنجاز الاتفاق على شراء 100 طائرة F-15 من الولايات المتحدة ونجاح الصفقة في الكونغرس سنة 1978، طلبت المملكة العربية السعودية أن تتسلم على الفور الطائرات الستين الأولى. وكان المتفق عليه أن يتم تسليم الطائرات الأربعين الباقية في موعد متأخر؛ متأخر جداً، كما تبين. وبعد عملية التسليم الأولية، أمضت الحكومة السعودية السنوات الخمس التالية في محاولة الحصول على الطائرات الأربعين الباقية. وبالنظر إلى الوقت المستثمر بالفعل في المشروع والصدقة الوطيدة القائمة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية - ولا ننسى القدرة السعودية على دفع ثمن الأسلحة المطلوبة، وهذا أمر جديد بعض الشيء على صناعة الأسلحة الأميركية - فقد اعتُبر رفض الكونغرس الطلب السعودي الجديد بخصوص 42 طائرة F-15 إضافية ومروحيات وصواريخ مضادة للسفن صفقة مهينة للعلاقات الأميركية - السعودية.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تُحبَط فيها مصالح الأسلحة السعودية في الولايات المتحدة في الساعة الأخيرة. ففي سنة 1976، أجاز الكونغرس للمملكة العربية

السعودية شراء 4000 صاروخ جو-جو "مافريك بي". ومع ذلك، أغلق خط إنتاج الطراز "بي" قبل التسليم بسبب طول المدة التي استغرقتها إجازة الصفقة. وأوصت الشركة الصانعة بتحويل طلبية الشراء إلى الطراز "دي" من صواريخ "مافريك"، وكان قيد الإنتاج في ذلك الوقت وإيجاد قطع له أسهل من إيجاد قطع للطراز الأقدم. وعندما أعيدت الصفقة إلى الكونغرس لتعديلها لتشمل الطراز "دي"، رُفضت برمتها.

كان إحباط المملكة العربية السعودية من إجراءات الكونغرس التي تبدو غير منطقية في مفهومها. فجاء ردّ الفعل السعودي واضحاً في السوق الاستهلاكية التنافسية، حيث وجّهوا اهتمامهم إلى مكان آخر. ومع ذلك، على الرغم من انحياز الكونغرس الظاهر ضد طلبات المملكة العربية السعودية من الأسلحة، فقد أكد بندر دوماً، وبخاصة للأمير كيين الذين كان يلتقيهم لدى تكلمه في مكاتب الشركات الصناعية والمصانع العسكرية الأميركية، أن الأسلحة الأميركية هي دائماً خيار المملكة العربية السعودية الأول عند التفاوض على عقود أسلحة. وكرّر الأمير أن صفقات الأسلحة المربحة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة فشلت بسبب الكونغرس، لا بسبب الجانب السعودي أو الصناعة الدفاعية الأميركية. ولاحظ، "إنّ منتجات الأسلحة الدفاعية الأميركية كانت تأتي دائماً على رأس أولوياتنا لسببين: الأول، أنّ التكنولوجيا الأميركية هي الأفضل، والثاني، أن خمسين سنة من الصداقة قواها المحرّكة الذاتية التي تجعلكم الأولوية الأولى لدينا ومحطّ اختيارنا"².

لطالما كان الدفاع أمراً حاسماً بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية. فالمخاطر التي تتهددها هائلة نظراً إلى أنّها تشترك في حدود مع سبعة بلدان متقلّبة ذات نزعة عسكرية، ولأنّها نقطة ارتكاز زعامة العالم الإسلامي، وتقع فوق نحو ثلثي احتياطيّ العالم من النفط. وكان عهد ريغن في فترة يسودها عدم اليقين والاضطراب في الشرق الأوسط. فقد دعا قائد الثورة الإيرانية آية الله الخميني إلى إطاحة الحكم الملكي السعودي، وندد بالغرب الرأسمالي بقسوة، ودخل في حرب مكلفة مع العراق دامت نحو ثماني سنوات. في المقابل، شنّ العراق التوّاق إلى القتال هجوماً ضخماً على إيران، وأطلق صواريخ "سكود" و"فروغ" على المراكز الآهلة في الغرب الإيراني، واستهدف خطوط الجبهة بسلسلة من المحجمات الشديدة بالأسلحة الكيميائية³.

ونظراً إلى وجود تلك الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدمة لدى اثنين من حيران المملكة العربية السعودية، فقد تطلّع السعوديون إلى تعزيز ترسانتهم الدفاعية. وفي أواخر سنة 1984، طلبوا موافقة أميركا على شراء 42 طائرة F-15 إضافية، وصواريخ مضادة للطائرات، وصواريخ "هاربون" المضادة للسفن، ومروحيات من طراز "بلاك هوك" لنقل الجنود.

أثبت الكونغرس عناده مرة أخرى ورفض الطلب على الفور. وفي فبراير 1985، أخذ الرئيس ريغن البراغماتي على عاتقه عبء المهمة التي لا يُحسد عليها بإبلاغ الملك فهد والأمير بندر أنه لن يستطيع تأمين موافقة من الكونغرس على صفقة الأسلحة. قال ريغن للملك فهد: "إني أؤيدها، وأوافق عليها، لكن الكونغرس لن يجارييني. لذا الأمر يعود إليك؛ إذا كنت تريد أن أمضي بها، فسأمضي، لكننا سنخسر". "لا، لا، لا". أجاب الملك فهد فوراً. "لا أريد أي إذلال أو إحراج لك لأنك إذا أخرجت، فسأخرج أيضاً. إني أقدر موقفك، وأنت تعلم أنني أدعمك. أنت تؤمن بالسلام من خلال القوة، وأنا مثلك. فكلما ازدادت قوة قل احتمال الحرب". وسأل فهد ريغن: "ماذا تفعل لو كنت مكاني؟". أجاب الرئيس بسرعة: "لو كنت مكانك لقصدت مكاناً آخر واشتريت السلاح".



مارغريت تاتشر وبندر

وبذلك، ضمن فهد تأييد ريغن قيام السعوديين بالسعي لشراء أسلحة من خارج الولايات المتحدة. وحالما اتضح أن الولايات المتحدة لن تبيع طائرات F-15، أخذت المملكة العربية السعودية تبحث في مكان آخر: فرنسا وطايرتها "ميراج 4000"، التي كانت لا تزال في طور التصميم، وبريطانيا وطايرتها الهجومية/الضاربة "تورنيدو"، التي دخلت الخدمة في سلاح الجو الملكي البريطاني في ذلك الوقت. ومن الناحية المعاكسة، سعت كل من

فرنسا وبريطانيا ملء الفجوة عندما علمتا أن المملكة العربية السعودية تعتزم شراء أسلحة من السوق، فتزاحمتا للفوز بصفقات أسلحة مجزية مع المملكة العربية السعودية. وكانت الحكومة البريطانية عازمة على الفوز بالصفقة، فأطلقت حملة مبيعات قوية ترأستها مارغريت تاتشر شخصياً.

وقيل إن تاتشر قالت بحماسة: "أريد ذلك العقد! أريده أن يكون بريطانياً. أريد أن تدور عجلات مصانعي وشركاتي الصناعية!".

سألت السيدة تاتشر بندر إذا كان واثقاً من أن الأميركيين لن يبيعوا طائرات F-15 للسعوديين.

قال بندر: "أنا واثق".

وأجابت تاتشر: "هذه حماقة".

فسأل رئيسة الوزراء: "هل تساعدوننا؟".

قالت تاتشر: "طبعاً سنساعدكم. لكن أرجو أن تخبر جلالته بوجود ألا يعرف

أحد بتحادثنا. سأتصل بروني. سيقول لي إنه لا يستطيع إبرام الصفقة لأن الكونغرس لن يسمح بذلك. ثم سأتوجه إلى الكونغرس وأضغط على رئيس اللجنة لبيع طائرات F-15 وسيقولون لي إنهم لا يستطيعون. وسأقول لهم، حسناً، لكن قد يتوجه السعوديون إلى الروس. يجب أن نتصرف لمنعهم من ذلك. سأبيعهم طائرات تورنيديو كيلا يذهبوا إلى الشيوعيين. سأنقذكم من هذا الحرج، وسأبيعهم طائرات تورنيديو، كيلا يتوجهوا إلى روسيا أو الصين".

يقول بندر: "البراعة السياسية في ما فعلته هي أنها جنت المنفعة الاقتصادية وباعتها للأميركيين كما لو أنها تسدي إليهم معروفاً. وكان الأميركيون شاكرين لها! وعندما ذهبت إليهم، قال لها أعضاء الكونغرس إنهم يوافقونها الرأي، لكن ليس في وسعهم القيام بذلك لأسباب سياسية، اللوبي اليهودي.. وغيرها".

ضحك بندر: "لم يكن الكونغرس يعلم أنها أعدت معي هذه الحيلة البارعة بأكملها!".

كان بندر يعرف منذ أمد بعيد حنكة تاتشر السياسية ويقدرها. وقد قال لي: "في أثناء حرب فوكلاند، أمرت تاتشر الأميرال المسؤول عن القوة الخاصة بجزر فوكلاند (الأميرال ساندي وودوارد) ألا يبلغ خبر الانتصار لأحد سواها، وأن عليه القيام بذلك

مباشرة من دون الرجوع إلى تسلسل القيادة. وعندما أبلغها الأميرال بذلك لاحقاً، قالت، انتظر نصف ساعة، وبعد ذلك يمكنك أن تعلن عن الانتصار". وتابع بندر: "ثم غادرت تن داوننغ ستريت على عجل، وقصدت البرلمان مباشرة، حيث وقفت وأعلنت النبأ" (*).

عادت بعد ذلك إلى داوننغ ستريت والتقت بزوجها دنيس. وأوضح بندر أنك عندما تدخل داوننغ ستريت تجد ممراً فيه صورة كبيرة لونستون تشرشل علقتهها مارغريت تاتشر عند توليها رئاسة الوزراء.

وعندما وصلت إلى الصورة وقفت ونظرت إلى تشرشل، وقالت: "شكراً لك". ثم تقدمت نحو باب يفتح على سلم يفضي إلى مسكنها الخاص. قال لها زوجها: "ماغي، ما الذي كنت تقولينه، من الذي شكرته؟". قالت "تشرشل، كنت أشكر تشرشل".

"قلت شكراً لتشرشل؟".

أجابت تاتشر بسرعة: "ألم تسمعه؟ لقد قال أحسنت صنيحاً! لذا قلت، شكراً لك". كان اللورد (السير في ذلك الوقت) تشارلز باول سكرتير مارغريت تاتشر الخاص في سنة 1985 (**). وقد علق على تعرفه إلى بندر بالملاحظة التالية: "حل بيننا في تن [داوننغ ستريت] كموفد مؤتمن للملك همّه توفير حاجات المملكة العربية السعودية في مجال الدفاع الجوي بعدما أشار الرئيس ريغن إلى أنه لن يتمكن، على الأرجح، من أن يضمن موافقة الكونغرس على صفقة طائرات F-15 المقترحة". وعند مجيء بندر إلى بريطانيا، قال لباول إنه يعترم التحدث إلى عدد من الشركات البريطانية، ووزارة الدفاع، وهيئة مبيعات الصادرات الدفاعية التابعة لها، للتباحث في صفقة محتملة للأسلحة. ولاحظ باول: "أعتقد أنه جاء إلى تن [داوننغ ستريت] ومعه رسالة سياسية أبلغ بكثير. كان يريد أن يعرف هل ستحظى المملكة العربية السعودية بدعم مارغريت تاتشر على أعلى مستويات للتزود بطائرات من المملكة المتحدة. وجاء الجواب نعم

(*) أبلغت السيدة تاتشر مجلس العموم في 14 يونيو 1982 أن قائد القوات البرية الجنرال جيريمي مور قرر التقدم إلى العاصمة في الليلة الماضية بعد سلسلة من الهجمات الناجحة على قوات العدو.
(**) اتفق أن والد اللورد باول كان قائد محطة في قاعدة سلاح الجو الملكي البريطاني في أبوود، عندما كان الأمير يتابع دورة دراسية للغة الإنكليزية قبل أن يصبح مرشح ضابط في كرانول.

بقوّة". وتابع باول: "أعيد تأكيد ذلك عندما عرّجت [تاتشر على المملكة العربية السعودية] في مارس 1985 وهي في طريق العودة من زيارة إلى آسيا. أمضت يوماً أو نحو ذلك في الرياض، وأجرت محادثات مطوّلة مع الملك، بحضور الأمير بندر". وأوضح باول أن "البيع نفسه لم يُبحث إلا لماماً في تن [داوننج ستريت]، بل الدعم السياسي للصفقة، وإطارها السياسي. هل نحن أصدقاء أوفياء للمملكة العربية السعودية ويمكن الركون إليهم في ضمان عدم بروز عوائق سياسية في وجه الصفقة إذا ما عُقدت؟ وهل سنكون حاضرين على المدى الطويل لنقدّم المساندة لا لبيع طائرات فحسب، وإنما ببيع كل شيء ذي صلة بها من ناحية خدمات الدعم وسواها؟".

شدّد باول: "كان ذلك متوقّعا بسهولة كبيرة". وعندما سئل عما إذا كان ثمة إدراك في تلك المرحلة لأن الصفقة المحتملة أكبر بكثير من مجرد التزويد بالطائرات، أجاب باول: "كان من الواضح تماماً لي أن هذه الصفقة طويلة الأجل تبدأ بقليل من الطائرات. وتعدّها إلى أشياء كثيرة جداً غير الطائرات مثل التدريب والدعم والصيانة والإنشاءات". وقد وفرّ القلق الضاغظ بشأن المنافسة الفرنسية والحاجة إلى مرونة غير عادية بيئة جذّابة لا تقاوم. ويقول باول: "كنا في قرارة أنفسنا نعلم أن الفرنسيين ناشطون جداً في السوق أيضاً، ويدّعون دائماً أن الصفقة مضمونة لهم". وأضاف: "كانت السيدة تاتشر، المناصرة الكبيرة للشركات البريطانية والصادرات البريطانية، حريصة جداً على أن تكون الصفقة من نصيب شركة بريطانية، شركة "بريتيش إيروسييس"^{4(*)}.

كانت الطريقة التي عمل بندر بها في المملكة المتحدة تشبه إلى حدّ بعيد الأسلوب المتحرّر من القيود الذي استخدمه بفعاليّة كبيرة داخل الدائرة السياسية والاجتماعية في واشنطن، حيث عمل من أعلى المراتب إلى أدناها، متجاوزاً وزارة الخارجية في إعطاء الأولوية إلى البيت الأبيض. وفي لندن، كان بندر يدخل تن داوننج ستريت دخول الوثائق المتبخر. وقد تمتّع بقدرة غير عادية على الوصول سواء إلى مارغريت تاتشر أو جون ميجور أو طوني بليز. ويقول طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة مبيعات

(*) أنشئت "بريتيش إيروسييس سيستمز" (BAe Systems) سنة 1999 عن طريق دمج "بريتيش إيروسييس" مع "ماركوني إلكترونيك سيستمز". وخلال هذا الكتاب، ستستخدم "بريتيش إيروسييس" للإشارة إلى "بريتيش إيروسييس" و"BAe Systems".

الصادرات الدفاعية: "إن قدرته على القيام بذلك تسترعي الانتباه. وتشكل النظرة إليه من مختلف الأطراف في هذا البلد جزءاً من اللغز المحيط به، وهي نظرة لا تخلو من التناقض". وكان إدواردز يلمح إلى تباين الآراء بشأن بندر في داوونغ ستريت ووزارة الخارجية. فهو يعتقد أن اعتياد بندر إقامة الصلوات من أعلى إلى أسفل أحدثت استياء في وزارة الخارجية، التي تفضل مراعاة الإجراءات البروتوكولية التقليدية. "على سبيل المثال، كان علينا ذات مرة أن نطلب من روبن كوك كتابة برقية إلى السفير البريطاني في المملكة العربية السعودية يذكره فيها أن السياسة الخارجية البريطانية توضع في لندن لا الرياض؛ فثمة سجل كامل هناك يشمل بندر في حواشيه".

عندما أشير إلى أن بندر يثير انزعاج وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن أيضاً بعمله مع البيت الأبيض مباشرة، رد إدواردز: "لكن على الرغم من أن في استطاعة بندر فعل ذلك، فإنه مستعد في الوقت نفسه لاستطلاع الأجواء إذا كان ذلك مهماً، وحضور اجتماعات أدنى مستوى. وكان يتجشّم العناء للتوصّل إلى شيء ما إذا شعر أنّه مهم، ولمصلحة بلده ومصالحه البلديين اللذين يقول إنّ على المملكة العربية السعودية أن تبقى قرية منهما وهما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة". وشدد إدواردز على أن "بندر لن يدخر أي شيء لضمان عدم افتراق هذه البلدان الثلاثة. لقد رأيته يقوم بأشياء، مثل القدوم إلى هنا - في حالة واحدة بناء على طلبي، لأنني ظننت أن الأمر كان مهماً آنذاك - إذا تبين له أن ذلك بالغ الأهمية"⁵.

لعب السير ريتشارد إيفانز، الرئيس السابق لشركة "بريتيش إيروسبيس"، دوراً مهماً في تأمين صفقة السلاح التي عُرفت في ما بعد باسم عقد "اليمامة". وهو يعتقد أنّه على الرغم من أن المشكلات والتأخيرات الناجمة عن معارضة الكونغرس الأمريكي وفّرت حافزاً لقرار المملكة العربية السعودية الالتفات إلى المملكة المتحدة للحصول على الدعم العسكري، فإن قرار استخدام معدّات بريطانية نابع من قيام بريطانيا سابقاً بتقديم معدّات عسكرية مثل طائرات "لايتنغ". ويفترض إيفانز، "أنّ مشروع اليمامة يرجع إلى الأيام الباكرة جداً لصفقة طائرات لايتنغ الأصلية، التي عُقدت في سنة 1965، أي قبل قبول بندر في كليّة كرانول التابعة لسلاح الجو الملكي. فقد كانت مواقف الحكومتين السعودية والبريطانية تشكّل جسراً سياسياً بين البلدين إلى حدّ بعيد. ومن المفترض أنّ الملك فهد كان يدرك قيمة المحافظة عليه".

كان الجسر السياسي الذي أشار إليه إيفانز هو صفقة بقيمة 280 مليون دولار عقدها السعوديون مع المملكة المتحدة سنة 1965 للحصول على 40 طائرة "لايتنغ"، و25 طائرة تدريب "جت بروفوست" (سترايكماستر)، و8 طائرات تدريب "سيسنا 172 (CT-41)، مع تزويد الولايات المتحدة السعوديين بصواريخ "رايثيون هوك". وقد استخدم سلاح الجو الملكي السعودي طائرات "لايتنغ" فترة طويلة. وأعدت تلك الصفقة فيما كانت المملكة المتحدة تشهد أزمة شديدة في ميزان المدفوعات، وكانت الأزمة تمثل عائقاً خطراً أمام قدرتها على شراء الطائرات الضاربة F-111 وطائرات النقل C-130 من الولايات المتحدة⁷. وفي مسعى جدّي لإنجاز صفقة F-111، اتفق وزير الدفاع الأميركي روبرت ماكنمارا ووزير الطيران البريطاني روي جنكنز على أن تسهّل أميركا حصول المملكة العربية السعودية على حزمة دفاع جوي عسكرية أميركية - بريطانية مشتركة بقيمة 400 مليون دولار - تضم طائرات "لايتنغ" اعتراضية وطائرات "سترايكماستر" وطائرات "سيسنا" تدريبية - متخفية عن عرض أميركي سابق يقضي بتزويد المملكة بمقاتلات F-5 أو F-104. وهذه الطريقة تتوفّر لبريطانيا الأموال لتسديد ثمن الطائرات التي تريدها من الولايات المتحدة. وقد اعترف



السير ريتشارد إيفانز (في المقدمة) من بريتيش إيروسبيس

جون ستونهاوس، مساعد وزير الطيران لشؤون البرلمان، عند إعلانه الصفقة أمام البرلمان في ديسمبر 1965، أن الصفقة ما كانت لتتم من دون "التعاون الأميركي"⁸. ومع ذلك، كان ما جرى ترتيباً حصلت بموجبه بريطانيا على ما تريده وحصلت المملكة العربية السعودية على ما يلي الأفضل (المفضول).

بعد مرور عشرين سنة، كان لصفقات "اليمامة" وقع سياسي مماثل ولم تكن لتعقد من دون الموافقة الأميركية. وقد أكد السير ريتشارد إيفانز أن بندر كان عاملاً أساسياً في ضمان عدم عرقلة الولايات المتحدة صفقة "اليمامة" بقوله: "لم يكن يمكن إنجازها إلا على مستوى ريغن وبندر. وقد اقتضت تفاهماً واضحاً بين الإدارتين البريطانية والأميركية في ما يتعلق بالاحتياجات. ومن الواضح أن قرارات التسليح العربية تتأثر بالمقاربة العربية للأعمال، وهي مقاربة تتوافق كثيراً مع الصداقات القديمة والثقة والولاء والسياسات الخارجية للبلدان التي يتعاملون معها.

في 9 سبتمبر 1985، أعلنت الحكومة البريطانية بابتهاج أن مذكرتي تفاهم وقعتا بين وزير الدفاع البريطاني مايكل هزلتاين ووزير الدفاع السعودي الأمير سلطان ابن عبد العزيز. وقبل الإعلان، أي في يوليو 1985، جرت المفاوضات الختامية في مكان إقامة القنصل البريطاني في سالزبورغ، حيث كانت السيدة تاتشر تمضي إجازتها¹⁰. وقد منحت مذكرتا التفاهم المملكة العربية السعودية الفرصة لتحويل كل مذكرة إلى عقد مستقل كما يقتضي الأمر وعند الاقتضاء؛ وهاتان المذكرتان بالذات هما اللتان سُميتا اتفاقيات "اليمامة"¹¹.

وجاء الإعلان مفاجئاً لشركات الصناعة العسكرية الفرنسية، التي كانت تعمل بدأب لتأمين بيع طائرتها "داسو ميراج" للمملكة العربية السعودية، وتوقعت الفوز بالعقد؛ فطائرة "ميراج" يمكن أن تكون بديلاً من F-15 وهي تتميز بأن تكلفتها تقل 25 - 30 بالمئة عن تكلفة طائرة "تورنيديو"¹².

يعتقد طوني إدواردز أن الحكومة الفرنسية شعرت أن عرضها أوفر حظاً. فقد قال له نظيره الفرنسي: "الأمر كله مرتّب ومنظّم، وأن الصفقة تمت؛ وستكون من نصيب الفرنسيين"¹³. وفي ما بعد قال ناطق فرنسي عن صفقة المملكة المتحدة إنها "لم تكن متوقعة وغير مفهومة وكارثية، وإن هذا التحوّل القاسي ذو طبيعة سياسية"¹⁴.

روى بندر إلى أصدقاء له أن "ما أثار في الصفقة بأكملها هو أن الفرنسيين كانوا سيبيعون السعوديين طائرات ميراج 2000 وميراج 4000. فبينة سلاح الجو الملكي السعودي تتطلب دائماً مزيجاً من الطيران المرتفع والمنخفض، حيث لديك طائرة مثل هوك أو F-5 التي تقوم بمهمة الطيران المنخفض وطائرات F-15C وF-15D التي توفر الغطاء المرتفع". وكان في نية السعوديين، قبل أن ترفض الولايات المتحدة تقديم طائرات F-15E، الحصول على الطائرات الفرنسية لمهمة الطيران المنخفض، وطائرات F-15E لمهمة الطيران المرتفع.

وأوضح بندر أنه عندما رفض الكونغرس بيع طائرات F-15E في فبراير 1985، "كان السبيل الوحيد إلى الحصول على ما يشبه F-15E هو الحصول على طائرات ضاربة". ولم تكن "ميراج" خياراً واقعياً. وعلى هذا الأساس، كان منطقياً بالنسبة إلى السعوديين شراء طائرات "تورنيديو" بطرازها الضاربة والمقاتلة.

وكان عدم فرض قواعد صارمة على استخدام طائرات "تورنيديو" ونشرها بنداً بارزاً في صفقة البيع أيضاً. وأضاف بندر، موضحاً استراتيجية الاقتناء السعودية: "لذا كنا نعرف أنه إذا التزمنا بطائرة تورنيديو [القاذفة الضاربة] - في المجالات المحظورة من جانب الأميركيين كجزء من صفقة طائرات F-5 السابقة - فإننا سنفقد على الفور الحماية التي توفرها طائراتنا F-15C كطائرات اعتراضية، وسنضطر إلى إرسال قاذفاتنا من دون حماية". وكان ذلك وضعاً غير مقبول وبالتالي كان من المنطقي بالنسبة إلى السعوديين أن يشتروا 24 طائرة "تورنيديو" إضافية من الطراز الخاص بالدفاع الجوي.

لكن لم يكن ذلك السبب الوحيد لفشل عطاء طائرات "ميراج" الفرنسية. ففي أثناء المداولات السعودية بشأن حزمة الأسلحة، قرّرت الحكومة الفرنسية خفض 50 بالمئة من وارداتها النفطية من المملكة العربية السعودية. وقد أزعج هذا القرار، الذي أبلغ إلى "أرامكو" في برقية موجزة، الملك فهد. ومما زاد من غضبه توقيت القرار إبان الأزمة التي كانت الدول المصدرة للنفط تعاني منها. فأسعار النفط في هبوط، وفرنسا قررت شراء نفط إيراني بدلاً من النفط السعودي. اتخذ الملك موقفاً براغماتياً في العلن، قائلاً: "هذا حق خاص بالدولة ذات السيادة؛ ولا يمكننا أن نملي عليها ما يجب أن تفعله".

لكن الملك فهد لم ينس الإهانة في السر. وعندما استشعر الفرنسيون أن إعلان العقد مع البريطانيين أصبح قريباً، أوفد الرئيس ميتران أخاه في مهمة عاجلة لمقابلة

الملك. وافق فهد على استقباله يوم خميس، متوقعاً أن الوفد سيتحدث عن صفقة طائرات "ميراج". وقبل موعد اللقاء المحدد باثني عشرة ساعة، أعلن الملك فهد عن الصفقة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة.

عند دخول شقيق ميثران قصر الملك، كانت الصفقة قد تمت. ومع ذلك سايره الملك فهد قائلاً: "مرحباً بك. فرنسا صديقة طيبة، ورئيس فرنسا صديق طيب". أجاب الجنرال ميثران: "أعتقد أنني تأخرت بالفعل على الموضوع الذي أردت مقابلتك من أجله".

"نعم؟"

"لو تسنت لي الفرصة لكنت طلبت منك تأخير قرارك لتتاح الفرصة للنظر في الصفقة مجدداً".

أجاب الملك فهد: "أعلم أنك تقول ذلك بنية حسنة. لكن كما ترى، يا صديقي، اتخذنا قراراً سيادياً، ونحن لا نأخذ نصيحة أحد في قراراتنا السيادية. على أي حال، أنا واثق أيها الجنرال من أن الرئيس ميثران سيتفهم موقفي. قبل أشهر قليلة، قرّرتم خفض وارداتكم النفطية من المملكة العربية السعودية بنسبة 50 بالمئة. ولا أذكر أن الرئيس أرسلك لتطعني على هذا الأمر، أو لتعطينا إشعاراً مقدماً أو تخبرنا عن سبب قيامكم بذلك. ولم نعلم بالأمر إلا عندما وردت برقية إلى شركتنا النفطية، والحق يقال، لقد استأت من ذلك لأنه الحق الضرر بلقمة عيشنا".

وختتم الملك فهد بالقول: "لكن نفسي حدثني أن الرئيس ميثران فعل ما فيه مصلحة قومية لفرنسا. ولا يحق لي أن أشكك في قراره الخاص بأمر سيادية، ولذا أمل ألا تشكك في قراري الآن".

أجاب الجنرال ميثران بتردد، وقد اعتراه ارتباك: "لا، لا، لا يا صاحب الجلالة. لا أعلم لي بهذه الحكاية. لو كنت أعلم لما أتيت إليكم".

يقف خلف الأساس الذي قامت عليه عقود "اليمامة"، التي تبلغ قيمتها مليارات الدولارات، رفض الكونغرس الأميركي طلب السعوديين شراء 42 مقاتلة F-15. وهناك إقرار على نطاق واسع أن قيام الكونغرس بعرقلة الصفقة سنة 1985 جاء نتيجة الضغط المستمر الذي مارسه "أبياك" عليه. وعقب صفقة "اليمامة"، نُقل عن مسؤول في الطيران البريطاني قوله: "لقد أسدى اللوبي اليهودي الأميركي إلينا معروفاً¹⁵. من

المفارقات أن أربعاً وعشرين طائرة فقط من طائرات "تورنيديو" الاثنتين والسبعين التي اشترتها المملكة في صفقة "اليمامة"، هي من المقاتلات الاعتراضية؛ وأن الطائرات الثماني والأربعين الباقية هي من المقاتلات الضاربة المتقدمة. وعندما فاتح السعوديون الأميركيين بشأن طائرات F-15، قاموا بذلك وهم يعلمون، بناء على مفاوضات سابقة، بالمحظورات والقيود المفروضة على إمكانية تزويد تلك الطائرات بخزانات وقود، ونقاط تعليق إضافية للأسلحة، إلى جانب القيود المفروضة على نشر الطائرات في مواقع قريبة من إسرائيل. لذا كانت طائرات F-15 المعتمز شراؤها ذات طابع دفاعي. وعندما حيل دون حصول السعوديين على طائرات F-15 إضافية، تمكّنوا بدلاً من ذلك من شراء طائرات "تورنيديو" ضاربة/هجومية، من دون قيود على نشرها ومع مواصفات عملانية كاملة. وعلى نحو مماثل، كان يمكن استخدام طائرات "هوك" الثلاثين التي طُلبت كجزء من حزمة الأسلحة في مهمات هجومية¹⁶.

غالباً ما شكك بندر علانية في المنطق المعقد لقرار الكونغرس، المنطق الذي يعتقد بسندر بوضوح أنه كان محاولة مضللة لدعم إسرائيل و"أبياك". يقول بندر: "طلبت من أصدقائنا في واشنطن مرة أخرى أن يشرحوا لي، لعلني بليد الذهن، كيف تكون إسرائيل في مأمن حين نتوجه إلى بريطانيا ونشتري 120 طائرة مقاتلة وقاذفة من الطراز الأول بدلاً من شراء 40 طائرة منكم؟ فلم أحصل على جواب"¹⁷.

على الرغم من أن البريطانيين فرضوا قيوداً بالفعل في ما يتعلق بإعادة السعوديين ببيع طائرات "تورنيديو"، فإنه لم تكن هناك قيود تتعلق باستخدام الطائرات أو نشرها كالقيود المفروضة من الولايات المتحدة على صفقة طائرات F-15 سنة 1978¹⁸. وذلك ليس أمراً عديم الأهمية، كما لاحظت الصحافة البريطانية، "كان الشاغل الأمني الرئيسي بشأن اليمامة سمعة المملكة العربية السعودية كمستخدم للأسلحة البريطانية لا يمكن الركون إليه"¹⁹.

من المفارقات أن الزيادة المثيرة في ترسانة المملكة العربية السعودية من خلال شراء الأسلحة البريطانية ربما كانت ذات مفعول يخلّ بالميزان العسكري في الشرق الأوسط، أكثر مما يخلّ به الاقتراح الذي قدّمه ريغن إلى الكونغرس لصالح المملكة. وعند النظر إلى رفض أميركا الطلب السعودي من منظور سياسي، نجد أنه كان أكثر من قضية أسلحة بسيطة. كان إشارة إلى الشرق الأوسط مفادها أنه على الرغم من العلاقات

الشخصية القوية بين ريغن وبندر، فإن الالتزام الأميركي تجاه المملكة العربية السعودية كحليف كان مزعزعا. ولم يخلف هذا الرفض من حليف بهذا القدر من النفوذ لدى المملكة العربية السعودية الشعور بالمهانة فحسب، بل الشعور أنها، وهذا هو الأهم، غير حصينة.

أشارت شركات الصناعة العسكرية الأميركية مراراً، وبغضب، إلى العوائد الهائلة التي تردّ أن الحكومة البريطانية جنتها من صفقات "اليمامة". ففي أي سوق تجارية تنافسيّة، سيكون هناك دوماً من هو مستعد لتلبية الطلب. والحجة نفسها ساقها وزير الدفاع السابق مايكل هزلتاين، في مارس 1989، في إشارته إلى صفقة "اليمامة"، حيث نُقل عنه قوله: "من المهم جداً أن تكون للسعوديين علاقة مستمرة مع هذا البلد. فهم يريدون السلاح وسيحصلون عليه من مكان ما، لذا لم لا نبيعه نحن؟"²⁰.

يقول بندر عن صفقة "اليمامة": "عندما اتفقنا في أول الأمر، لم يكن بيننا عقد. كان مجرد مصافحة بيني وبين السيدة تاتشر في تن داوننغ ستريت". وحاول بندر في ما بعد الاتصال برئيسة الوزراء عندما أعدت العقود. اقترح عليه التحدّث مع السيد وايتلو، نائب رئيسة الوزراء لأن تاتشر كانت خارج البلد. اعتذر الأمير قائلاً: "لا أريد أن أقابله؛ ليس عندي شيء أبحثه معه. لكنني سأعود حين تعود رئيسة الوزراء". تلقى بندر لاحقاً اتصالاً سئل فيه: "هل يمكنك الذهاب إلى النمسا؟". وهكذا ذهب إلى النمسا والتقى بالسيدة تاتشر وزوجها. وذكر أنه نقل إليهما أرقاماً محدّدة، وتصافحا، وتمّت الصفقة.

لكن، كان ثمة إجراء واحد نهائي منتظر.

بعد مرور عدة أسابيع على إتمام الصفقة، أقامت السيدة تاتشر مأدبة عشاء على شرف الأمير سلطان في تن داوننغ ستريت. وفي اليوم التالي، كان من المقرر أن يزور سلطان، مع نورمان تيبب وزير الدولة للتجارة والصناعة، مصنع "بريتيش إيروسبيس" في وارتون. وفيما كان بندر يغادر داوننغ ستريت بعد مأدبة العشاء، قال للسيدة تاتشر: "ألن يكون الأمر مسلياً إذا فاجأت أبي بقيادة عرض طائرة تورنيديو في حضوره؟".

أجابت تاتشر: "سيكون ذلك رائعاً، لم لا؟".

فأوضح لها بندر أن الأمير سلطان لن يوافق، كما لن توافق "بريتيش إيروسبيس" أو سلاح الجو الملكي ما لم يؤذن بذلك.

فقابلت مارغريت تاتشر على الفور: "سأذن بذلك".

"إذا كنت مستعدة لفعل ذلك من أجلي، هلا تتكلمين بخدمه أخرى".

أجابت: "بالطبع، ما هي؟".

قال بندر: "يجب ألا يخبر أحد أبي بأي شيء".

أجابت تاتشر بصورة جازمة: "لك ذلك".

يقول بندر: "تركت مع مرافقي والدي رسالة مفادها أنني أشعر بوعكة وأتني لن

أشارك في زيارة المصنع". وفي صباح اليوم التالي، ذهب إلى وارتون، حيث استعدّ

للطيران، وأقنع بالطائرة مع طيار الاختبار قبيل وصول أبيه.

وأوضح بندر: "بعد أن أنهى أبي جولته في وارتون، أخذ إلى المنصة لإطلاعه

على ما تستطيع طائرة تورنيديو أن تفعله. أتمت الطائرة عرضها كما يجب - وكان

مثيراً للإعجاب - وهبطنا بعد ذلك وسارت الطائرة حتى وصلت أمام المنصة بالضبط

ثم توقفت".

قال السير ريتشارد إيفانز للأمير سلطان: "سمو الأمير، يود طاقم الطائرة تأدية

واجب الاحترام لكم".

ترجّل الطياران من الطائرة وهما لا يزالان يعتمران خوذتيهما واتجها إلى المنصة.

ولدى اقترابهما منه، خلع بندر خوذته.

التفت الأمير سلطان إلى الجنرال بحيري، الضابط في سلاح الجو الملكي السعودي،

وقال: "غير معقول. من أذن بذلك؟".

أجاب الجنرال فوراً: "لا أعلم شيئاً عن هذا الأمر".

هنا، تدخل السيد تيبّيت وقال: "رئيسة الوزراء أذنت بذلك".

ضحك الأمير سلطان. وبعد أن قبّل بندر يد والده، ربّت الأمير على خد ابنه

وقال: "إياك أن تفعل ذلك مجدداً".

أحيطت عقود "اليمامة" دائماً بدرجة فائقة من السرية. ولم تترك السيدة تاتشر

خلال فحجها العازم للحصول على الصفقة أي شيء للصدفة، وقد نُقل تصميمها

بوضوح إلى من كلفوا في حكومتها بمهمة إقرار الصفقة.

وفي سنة 1988 أوردت مجلة "إيكونوميست" أن المملكة العربية السعودية، بعد أن

تعرّضت للانتقاد في جلسات الاستماع في الكونغرس الأميركي، ومن الصحفيين

الفضوليين، وقانون حرية الإعلام في الولايات المتحدة، رحّبت بأجواء السرية البريطانية عامة، وبقانون الأسرار الرسمية خاصة²¹.

شكّلت فعالية الحكومة البريطانية في فرض مثل هذه السرية، على الرغم من إلحاح وسائل الإعلام المتكرّر، شهادة على إصرار تاتشر على حساسية الصفقة وقيمتها البالغتين. وقد تعزّزت السرية المحيطة بصفقة "اليمامة" بتعمّد إبقاء تقرير المكتب الوطني لتدقيق الحسابات المالية عن الصفقة طي الكتمان على أساس أن الأمر مصلحة قومية²². ولا يزال تقرير ذلك المكتب التقرير الوحيد الذي لم ينشر على الملأ ولم يوزّع على أعضاء البرلمان. وبسبب توقّعات الصحافة المستمرّة دفع عمولات ضخمة، تولى السير جون بورن التدقيق في الحسابات المالية. بيد أن لجنة الحسابات العامة في مجلس العموم أوقفت التدقيق في مارس 1992. واتخذ قرار كتمان التقرير رئيس اللجنة العمالي آنذاك، روبرت شيلدون، الذي قال "إنه لا يوجد دليل على فساد أو إساءة لاستخدام المال العام"²³. وقد أيد معظم أعضاء اللجنة قرار شيلدون حتى من دون أن يُسمح لهم بقراءة التقرير؛ وهذا موقف مثير للدهشة. لقد اكتفى أعضاء اللجنة بتأكيدات رئيسهم²⁴.

وعلى الرغم من هذه "الشهادة الصحية" الظاهرة التي تثبت "سلامة" صفقة "اليمامة"، واصلت الصحافة البريطانية توجيه تُهم الرشوة والفساد إلى العقود السعودية. بيد أن الملمّين بالعادات السعودية أخذوا يعلّون مثل تلك الاتهامات. فقد أوضح محلّ تجارة الأسلحة أنطوني سامبسون في مقالته لصحيفة "التايمز" أن "العمولات أمر ضروريّ في تقليد التفاوض المناسب في المملكة العربية السعودية. لذا يرفع الثمن الإجمالي لأي منتج إفساحاً في المجال للعمولات"²⁵. وعلى نحو مماثل، أيدت كريسي هيرست منهج حجة سامبسون في تقرير "للحملة ضد تجارة الأسلحة" إذ قالت: "من المعروف أنّه لا يمكن الفوز بالعقود الكبيرة من المملكة العربية السعودية من غير مدفوعات يمكن أن توصف بالعمولات". وأوضحت أن ثمة قوانين موجودة في العديد من البلدان العربية تحكّم الإجراء التجاري المتبع لدفع عمولات إلى وكلاء أو وسطاء، وخلصت إلى أن "من المستبعد جداً ألا تكون اليمامة قد أعدت وفقاً لهذه العادة المتبعة والمقبولة"²⁶.

على الرغم من كون العمولات عادة سعودية مقبولة، فإنها غير قانونية. فالقانون السعودي "لا يسمح بعمولات أو رسوم سمسرة على عقود الأسلحة المستوردة أو

سواها من عقود القطاع العام"²⁷. والتعامل بالعمولات في العقود بين الحكومات ليس غير قانوني في المملكة العربية السعودية فحسب، بل "أصبح دفع الأموال لمسؤولين أجنب غير قانوني بموجب قوانين المملكة المتحدة ابتداء من 14 فبراير 2002"²⁸.

وقد اتهمت صحيفة "الغارديان" شركة "بريتيش إيروسبيس"، المستفيدة الكبرى من "اليمامة"، باستغلال شركة بريطانية في الجزر العذراء وحسابات مصرف سويسري خارجي للنأي بنفسها عن الصفقات التجارية ذات الصلة بالعمولات، مزيلة بذلك بصماقتها عن الصفقة. وزُعم أيضاً أن "بريتيش إيروسبيس" استخدمت مصرفاً سويسرياً لإبقاء النسخة الوحيدة للاتفاق خارج الولاية القانونية البريطانية. وفي دفاعها عن نفسها صرحت "بريتيش إيروسبيس" أنها "تنفي نفياً قاطعاً أي مزاعم بالإساءة"²⁹.

لكن صفقة المقايضة الفريدة التي وضعت من أجل عقد "اليمامة" - الحكومة السعودية تدفع ثمن الأسلحة نفطاً لا مبالغ نقدية - ترتيب أضاف مزيداً من التخمينات أنه أعدّ لحجب العمولات والرشاوى، وقد وُجّهت إليه انتقادات قاسية. غير أن بنية التمويل لم تؤمن للمملكة العربية السعودية الأسلحة التي طلبتها وسوقاً مضمونة لنفطها فحسب، بل وفّرت أيضاً آلية مفيدة تجاوزت بعض توجيهات "أوبك" التي تقيد حصص الصادرات النفطية³⁰. ومع ذلك، فإنّها عرضت العقد أيضاً لتقلبات سوق النفط، وأحدث تراجع أسعار النفط مزيداً من الضغط على موازنة "بريتيش إيروسبيس" العامة لبعض الوقت. وأسرّ طوني إدواردز أن "بريتيش إيروسبيس" تعرّضت في إحدى المراحل لعجز قدره 3 مليارات دولار في أحد العقود. ومع ذلك، فإن الضمانة المفترضة القائمة على ربع احتياطي العالم من النفط موالية جداً، ناهيك عن أنه يمكن الاعتماد عليها.

مبدئياً، تعهدت المملكة العربية السعودية بتقلم 600,000 برميل من النفط كل يوم. وانخفض هذا المستوى في سنوات لاحقة إلى 400,000 برميل في اليوم. واعترف إدواردز أن استخدام النفط بالنسبة إلى السعوديين يعني أن العقد كان في الواقع صفقة خارج الموازنة: أي لم يمرّ عبر الخزانة السعودية. وأكد إدواردز أيضاً أن المرونة البريطانية كانت إحدى النقاط الجاذبة للسعوديين في هذا الترتيب الفريد. فقال: "كان البريطانيون أكثر مرونة من الأميركيين. فالأميركيون يتبعون نظام المبيعات العسكرية

الخارجية، الذي يقف خلفه قانون من الكونغرس. فإذا أساء الزبائن التصرف وتخلّفوا عن دفع المال، لا تكتمل الصفقة. في هذا البلد، تجري الأمور بمرونة كبيرة. في بعض الأحيان كان تدفق النفط والأموال المحصّلة من بيعه يتقدمان عن المطلوب، وفي أحيان أخرى يتخلفان عنه".

كانت المبالغ المالية الكبيرة المتأتية عن بيع النفط تمرّ عبر هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية، قبل أن تدفع إلى "بريتيش إيروسييس". أقر إدواردز أن الحكومة فرضت بالفعل عمولة ضئيلة لقاء إدارتها العقد، وهو المال الذي لفت انتباه الخزانة عندما راكم فائضاً ليس بالقليل. وقد كان لذلك الفائض أهمية بالغة عندما وقّعت بريطانيا معاهدة أوتوا الخاصة بالأسلحة الانشطارية^(*)، وهي المعاهدة التي أثّرت في JP233، وهو سلاح يمنع استخدام المطارات جرى حظره بموجب الاتفاقية^(**). وكان سلاح JP233 قد بيع بصورة شرعية لسلاح الجو الملكي السعودي لكن المملكة العربية السعودية لم توقّع الاتفاقية. وقد أحدث ذلك مشكلة، إذ لو دعم المهندسون البريطانيون سلاح JP233 السعودي، كما ينص عقد "اليمامة"، فمن المحتمل أن يعاقبوا بالسجن لدعمهم بلداً ينتهك الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا. وخمن إدواردز أن بندر ساعد على ترتيب الصفقة بحيث اشترت بريطانيا JP233 من المملكة العربية السعودية واستردّته، وتم تدمير هذه الأسلحة واستُبدلت بها قنابل

(*) بدأ في 1 مارس 1999 سريان مفعول اتفاقية أوتوا لحظر استخدام وتخزين وإنتاج ونقل الألغام المضادة للأفراد وتدميرها، وهو الاسم الذي أصبح يعرف فيه هذا البروتوكول. وقد وقع الاتفاقية نحو ثلاثة أرباع دول العالم وأصبحت نافذة بصورة أسرع من سرعة نفاذ أي اتفاقية عالمية أخرى متعددة الأطراف. تضمّ الدول الموقعة كل دول نصف الكرة الأرضية الغربي ما عدا الولايات المتحدة وكوبا، وجميع دول الناتو باستثناء الولايات المتحدة وتركيا.

(**) طور سلاح منع استخدام المطارات "هانتيغ JP233" الذي ينشر قنابل صغيرة كوسيلة لتدمير مطارات حلف وارسو ومنع إصلاحها. وكان حاضن هذا السلاح مكوناً من قسمين، كل منهما يحمل ذخائر مختلفة: يحمل القسم الخلفي سلاح SG357 المضاد للمدارج، وهو يخترق سطح المدرج قبل أن ينفجر ويحدث حفراً. ويحمل القسم الأمامي الألغام HB876 التي تنتشر حول المساحات المتضررة لتشكل خطراً على فرق إصلاح المدارج. وقد حُظرت الذخائر المصغرة JP233 لاحقاً بموجب بروتوكول أوتوا، الذي يمنع استخدام الألغام الأرضية. وجرى استخدام هذا السلاح في حرب الخليج في الدور المعد له وفي مهاجمة المطارات، واستخدمته الطائرات الضاربة "تورنيديو" بكثرة لتعطيل عمل الحقول الجوية العراقية يمكن تثبيت سلاحين من هذا النوع بطول 6.5 أمتار في أسفل الطائرة "تورنيديو". بيد أن الضربات الجوية كانت على مستوى منخفض، الأمر الذي عرض أطقم الطائرات "تورنيديو" للخطر الشديد.

"بيفواي" (Paveway) (*). وقد وفّرت هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية تكاليف تلك العملية باستخدامها فائض العمولات المحصّلة على مر السنين.

جعلت صفقة "اليمامة" التي فاوضت السيدة تاتشر بشأنها "بريتيش إيرو سبيس" المتعهّدة الرئيسية لتأمين أي معدات عسكرية أخرى تشتريها المملكة العربية السعودية. ويقول إدواردز: "كانت صفقة اليمامة جزءاً لا يتجزأ من دعم سلاح الجو السعودي بأكمله لأنّه لا يدعم الطائرات البريطانية فحسب وإنما الطائرات الأميركية أيضاً". ويشدّد على أن ذلك جعل هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية و"بريتيش إيرو سبيس" تقدّمان الدعم إلى جميع الطائرات السعودية، برنامج "درع السلام" (Peace Shield)، وكل ذلك يمول من خلال "اليمامة" (**). وختم إدواردز بالقول: "بعبارة أخرى، على مر السنين انخرقت قيمة هذا السيل من الدخل وما تُستخدم من أجله قليلاً إلى أمور مختلفة عما كان مقدّراً لها في الأصل"³¹.

كان يمكن أن يصبح عقد "اليمامة" طريقة غير مباشرة لشراء أسلحة أميركية للمملكة على نحو مستتر؛ أي عمليات شراء معدات عسكرية غير ظاهرة للكونغرس. وقد أعدّ تحديداً لتتوفر درجة فريدة من المرونة بحيث يستطيع السعوديون شراء معدات عسكرية بموجب ترخيص هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية و"بريتيش إيرو سبيس".

إن تنوع "اليمامة" البارع، إلى جانب تكتم الحكومة البريطانية ومقاربتها الليبرالية لصفقة مالية فريدة، قاما إلى حدّ كبير على ضمان الاحتياطات النفطية السعودية الهائلة، يمكن أن يفسّر الثقوب السوداء المالية التي افترضت وسائل الإعلام المشكّكة أنّها دليل على وجود عمولات. وتستند كثير من مزاعم الصحافة إلى تناقضات كبيرة في ثمن المعدات العسكرية. على سبيل المثال، قد يكون ثمن 10 مروحيات كذا، لكن عند التدقيق في الميزانيات العمومية يتضح أن مبلغاً أكبر بكثير قد أنفق في تلك السنة المالية. وذلك يثير السؤال التالي: "إلى أين يذهب المال؟". لذا افترضت الصحافة التي تركت

(*) القنبلة "بيفواي" الموجهة بالليزر هي أساساً قنبلة عامة الأغراض زنتها 1000 رطل، ولها رأس باحث مثبت في المقدمة وزعانف توجيه متحركة في الذيل. تسمى أحياناً سلاحاً "ذكياً" بسبب حزمة التوجيه الدقيق.

(**) برنامج "درع السلام" نظام دفاع جوي بإدارة أميركية للقيادة والسيطرة والاتصالات في كل أنحاء المملكة لصالح سلاح الجو الملكي السعودي. وهو برنامج بالغ الأهمية في مجال الدفاع عن المملكة العربية السعودية.

تنسج استنتاجاتها، وجود صندوق عربي ضخيم للمصاريف السرية. وهناك تفسير آخر مفاده أنه على الرغم من أن البريطانيين باعوا السعوديين 10 مروحيات بمبلغ محدد، فإنهم اشتروا أيضاً، بالنيابة عن المملكة العربية السعودية، معدات تكنولوجية وعسكرية من بلدان أخرى.

ومع أن صفقة "اليمامة" تشكل طريقة غير تقليدية للغاية لأداء الأعمال، فإن نتائجها الفرعية المرجحة هي المنتجات الثانوية لهدف سياسي تماماً: الهدف السياسي السعودي والهدف السياسي البريطاني. فعقد "اليمامة" أولاً وقبل كل شيء، عقد سياسي. وقد جرى التفاوض بشأنه في أوج الحرب الباردة، ومكنت بنيتها الفريدة السعوديين من شراء أسلحة من مختلف أنحاء العالم، لتمويل القتال ضد الشيوعية. ويمكن إيجاد أموال اليمامة في مشتريات سرية لأسلحة روسية استخدمت في طرد قوات القذافي من التشاد. ويمكن أيضاً تتبعها إلى أسلحة اشترت من مصر وبلدان أخرى وأرسلت إلى المجاهدين في أفغانستان لمقاتلة قوات الاحتلال السوفياتية.

كانت المنافع الاستراتيجية لصفقات "اليمامة" من خارج الميزانية العمومية حاسمة بالنسبة إلى الدفاع عن المملكة العربية السعودية وحمايتها. ويمكن القول إن مرونتها السامة ضرورية بسبب المعارضة المحتممة في الكونغرس لمشتريات المملكة من الأسلحة. وقد أوضحت مصادر قريبة من بندر أنه "إذا أراد السعوديون كدولة، مثلاً، شراء 10 مروحيات سوبر بوما، وموازنة وزارة الدفاع كذا، سيصدر عن وزارة المالية أن هذه هي مخصصاتك لهذه السنة. وهذا يعني أن على وزارة الدفاع تأجيل الشراء إلى السنة التالية". وفي العادة، يسبب التأجيل بعض المصاعب، لكن عندما يدخل الكونغرس المعادلة كعنصر مؤثر، يصبح الوقت فجأة ذا أهمية قصوى. وتُظهر تجارب ماضية أن أي تأخير يمنح أيباك الوقت لتنظيم حملة ضد الصفقة.

تحايل اتفاق المقايضة بالنفط على مثل تلك الإجراءات البيروقراطية. "فما يفعله عقد اليمامة، لأنه نفط مقابل خدمات، هو القول: حاضر. اليمامة تدفع المطلوب؛ المملكة العربية السعودية توقع مع الفرنسيين أو مع أي طرف آخر، وبريطانيا تدفع إليهم بالنيابة عنها. وهكذا أصبح فجأة لدى السعوديين نظام أسلحة عملائي يقدم دعماً لا يظهر في اليمامة كمشروع. لذلك، إذا أراد السعوديون بعض الخدمات من الأميركيين، أو بعض أنظمة الأسلحة التي يتعين عليهم شراؤها الآن، وإلا اعترض

عليها الكونغرس لاحقاً، ولا يمكنهم الحصول عليها من موازنتهم الدفاعية الحالية، عندئذ يطلبون من اليمامة تحويل ذلك المال".

جرى الكشف عن أن الطائرات الأولى التي أعطيت إلى السعوديين أتت مباشرة من مخزون سلاح الجو الملكي البريطاني، ما يدلّ بعمق على رغبة الحكومة البريطانية في تأمين صفقة "اليمامة"، حتى على حساب قدرتها العملائية. ومن الواضح أن رئاسة الوزراء كانت ترى أن الصفقة السعودية مهمة جداً بحيث يمكن القبول بإضعاف قوة سلاح الجو الملكي البريطاني الأساسية. "لقد درّبوا الطيارين السعوديين وكادراً صغيراً من الفنيين، وبعد أشهر قليلة بدأت طائرات تورنيكو الأولى طلعاها العملائية في سماء المملكة. وتم توقيع العقد بعد ذلك ببضعة أشهر، بعد انتهاء التفاوض حول التفاصيل". وقد لعب الموقف البريطاني من الصفقة دوراً مهماً في القرار السعودي. "كان ذلك سبباً آخر لتوجه الحكومة السعودية إلى البريطانيين، لأنهم كانوا مستعدين للتنفيذ، والتحرك بسرعة، ولأن يكونوا حاضرين".

كانت "اليمامة" اتفاقاً طوباوياً، كسب كل من شارك فيه، لكن المملكة العربية السعودية كانت الراح الأكبر. فقد أصبح الآن في الإمكان تلبية الحاجات العسكرية من دون موافقة الخزانة السعودية، وأصبح في الإمكان شراء أسلحة أميركية بمعرفة الكونغرس. من المؤسف أن تضطر المملكة العربية السعودية إلى اللجوء إلى هذه الذريعة للتحايل على الكونغرس. وقد شدّد بندر على قيمة العلاقات التجارية بين الأمم، فقال: "إذا تفحصت التاريخ، تجد أن العلاقات التي قامت بين الأمم وخلت من أي عنصر تجاري لم تدم أكثر من عشر إلى خمس عشرة سنة في المتوسط ثم انهارت. وأن العلاقات بين الأمم التي توجد فيها جوانب تجارية قوية دامت قروناً. فالمصالح التجارية، وبخاصة إذا كانت في الاتجاهين، تدفع كل طرف إلى حماية تلك العلاقة بغية تحسينها، وتنميتها وغير ذلك. وإذا لم يكن لديك شيء تحميه، فسينهتار كل شيء مع أول ريح تمهب. لذا، فإننا نتطلع إلى اللحظة التي تجتمع فيها الحاجات العسكرية والسياسية والتجارية في نقطة واحدة". من الواضح أن هذه الرسالة القوية من بندر تدعّم العلاقة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة، التي شهدت نشوء أول روابط تجارية سليمة في الستينيات. بالمقابل، في حين فضّلت المملكة العربية السعودية الولايات المتحدة دائماً كمتعهدة رئيسية للمشتريات العسكرية، ولم تدخر جهداً في

تطوير العلاقة الثنائية معها، فقد أحدثت معارضة العقود في الكونغرس هزات زعزعت أسس العلاقة من حين إلى آخر.

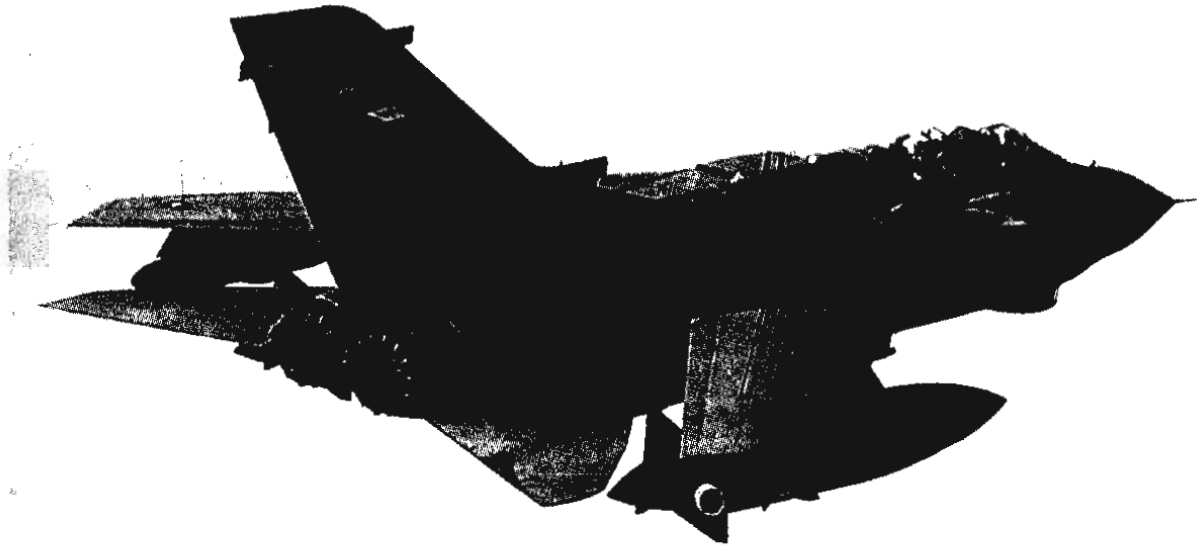
ثمة نقطة ختامية تتعلق بعقد "اليمامة" ويوضحها بندر بجلاء شديد. فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً أن المملكة العربية السعودية عندما شاركت في حرب 1991 ضد العراق، إلى جانب الولايات المتحدة وحلفاء آخرين، كانت القدرات الضاربة لسلاح الجو الملكي السعودي ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى المساهمة السعودية ونتيجة الحرب. فقد كانت طائرات "تورنيدو" في قلب الهجوم. والأمير مقتنع أن طرد صدام حسين من حقول نفط الكويت، وإزالة الوجود العراقي الخطر عن حدود المملكة يدحضان كل مزاعم الفساد التي نتجت عن "اليمامة".

في النهاية، عقدت المملكة العربية السعودية صفقة الأسلحة مع المملكة المتحدة لتأمين الدفاع عن نفسها. وعندما جدّ الجد، وتعرضت المملكة للتهديد، قامت طائرات "تورنيدو" بما هو مطلوب منها في سلاح الجو الملكي السعودي.

شهدت سنة 1985 تطورات بالغة الأهمية في الشرق الأوسط. ففي الحرب الإيرانية العراقية، أخذ الجانبان يتبادلان القصف بالصواريخ بصورة عشوائية في ما عُرف بحرب المدن. وفي وصف لتلك الفترة، أوضح بندر أن الإيرانيين كانوا يهاجمون بغداد، والعراقيين يهاجمون طهران. وفي الوقت نفسه تقريباً، أعطى الروس اليمن الجنوبي صواريخ "سكود"، ودخل الروس والكوبيون الصومال وإثيوبيا وعدن؛ فأصبحت المملكة العربية السعودية محشورة من كل جانب.

يمكن أن تنبع الرغبة في اقتناء صواريخ بالستية من حاجة سياسية أو حاجة عسكرية، وهي تمنح البلدان التي تمتلكها مكانة استراتيجية حتى لو لم تطلق البتة. وفي منتصف سنة 1985، كان هناك على الأقل تسعة بلدان أخرى في الشرق الأوسط تمتلك قوى صاروخية؛ بل إنّ دولاً صغيرة مثل اليمن الجنوبي والكويت كانت لديها صواريخ³². أمّا المملكة العربية السعودية، فلم يكن لديها أي منها.

بعد رسالة ريغن إلى الملك فهد أنه لم يستطع تأمين طلب المملكة طائرات F-15 وصواريخ "لانس" سنة 1985، وجّه فهد تعليمات مختصرة إلى بندر "اجلبها من مكان آخر". لكن من أين؟ البلد الوحيد الذي كان بندر يعرف أنه يبيع مثل هذه الأسلحة، فضلاً عن روسيا، هو الصين.



تورنيديو المقاتلة الضاربة القاذفة التي اشترتها السعودية باسم اليمامة

منذ اندلاع النزاع الإيراني العراقي، كانت الصين تزود العراق بالأسلحة. وبحلول سنة 1983، اقتربت قيمة صفقات الأسلحة الصينية العراقية من 3.6 مليارات دولار. ودعمًا للعراق الذي كان حليفًا لها في ذلك الوقت، منحت المملكة العربية السعودية الصين حق دخول أراضيها كطريق غير مباشر لتسليم أسلحة صينية إلى العراق³³. غير أن الصين كانت تباع أسلحة لإيران أيضاً بحلول سنة 1985.

ربما يفهم السعوديون أكثر من غيرهم أن المصالح القومية هي التي تملّي أفعال أي بلد، لذا سرعان ما أدركوا أن ما من قوة أو حجة تستطيع ردع الصين عن بيع أسلحة لإيران. فالأمر كله يتعلّق بالاقتصاد والسياسة. وهكذا وجد بندر فرصته. وقد أوضح ذلك بقوله: "قصدت وزير الخارجية جورج شولتز وسألته، هل من مانع إذا توجّهنا إلى الصين وقدمنا إليها عرضاً لا يمكنها أن ترفضه؟ وهو أننا سنشتري جميع الأسلحة التي تنوي بيعها لإيران ونعطيها إلى العراق". استحسن شولتز الفكرة ووفّر، من دون أن يدري، الغطاء الذي كان بندر بحاجة إليه ليذهب إلى الصين ويتعامل معها. لقد نجح الأمير في الواقع في توظيف "عملية المشعل" - وهي عملية أميركية سعودية معدّة لوقف تدفق الأسلحة على إيران - كذريعة لحجب تقرّبه من الصينيين كي يحصل على ترسانة من الصواريخ الباليستية الصينية "DF-3A دونغفينغ" (أو "الريح الشرقية")، المعروفة في الغرب باسم CSS-2. ولم يخل الموقف من شيء من المفارقة، كما حرص

بندر على القول: "جئت وطلبت من أصدقائنا، الأميركيين، صواريخ، صاروخ أرض - أرض مداه 80 ميلاً واسمه لانس. لكن طلبنا رُفض لأنه يشكل خطراً على جهة ما [إسرائيل]. لذا ذهبنا وحصلنا على صاروخ مداه 1600 ميل. فهل يشكل ذلك خطراً أم لا؟"³⁴.

قرر بندر مفاتحة السفير الصيني في واشنطن، على الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية بين المملكة العربية السعودية والصين واعتراف المملكة بتايوان بشكل صريح. اعترف بندر أن "السفير أصيب بالدهشة قليلاً". وبعد شهر بدأ الحوار بين الصينيين والسعوديين. اقترحت أسماء العديد من الأماكن لعقد اللقاء، منها بيجنغ والرياض. وفي النهاية اقترح السعوديون باكستان، وقبل الاقتراح. واتفق بندر والسفير الصيني على أن يكون غطاء لقائهما صفقة بيع مواد بتروكيميائية، واصطحب الأمير وفداً كبيراً ضم اختصاصيين في البتروكيميائيات من الشركة السعودية الأكبر "سابك". وخلف هذا الستار، التقى السعوديون بالصينيين مرتين.

عندما قال بندر لنظيره الصيني إن هدفه شراء صواريخ أرض - أرض للمملكة والأسلحة التي كان الصينيون يبيعونها لإيران، أوضح الممثل الصيني، وزير الشؤون الخارجية، أن عليه التشاور مع قيادته. وأصبحت المشكلة بعد ذلك كيفية نقل الجواب إلى بندر. كان الوقت في غاية الأهمية والاتصالات الآمنة صعبة. أبلغهم بندر: "لا يمكنني الانتقال إلى باكستان كلما أردتم إجراء محادثات". أخيراً، تم الاتفاق على أنه إذا أبلغ السفير الصيني في واشنطن بندر: "أنتم مدعوون إلى بيجنغ". فذلك يعني أنهم مهتمون. لكن إذا أبلغ بندر "أن الوقت غير مناسب للمجيء إلى بكين". فذلك يعني أن الصفقة لن تتم.

وما لبث بندر أن تلقى دعوة إلى زيارة بيجنغ.

عند وصول الأمير إلى بيجنغ، ماراً بهونغ كونغ أولاً، نُقل مباشرة إلى بيوت الضيوف الرسميين. وطلب من أعضاء وفده ألا يفتحوا الستائر كيلا يشعر أحد بوجودهم. لكن في صباح اليوم التالي، فتح بندر الستائر لينظر إلى الحديقة. وكم كانت دهشته كبيرة حين رأى سيارتين تتوقفان أمام الفيلا المجاورة. كان وفداً إيرانياً يعتمر أعضاؤه العمائم. كان بندر يعلم بطبيعة الحال أن الإيرانيين يحصلون على أسلحة من الصينيين، لكن رؤيته العمائم في الجوار هي الأمر المثير للمخاوف.

تضمّنت مفاوضات بندر الأولية استجواباً مركزاً. فقد سئل مراراً: "كيف تجرؤ على أن تطلب منا بيعكم أسلحة وأنتم لا تزالون تقيمون علاقة مع تايوان ولا تقيمون علاقة معنا؟".

كانت السياسة في أواخر القرن العشرين تعني أن التعامل مع الصينيين يستتبع استبعاد أي علاقة مع تايوان، إذ لا يمكن إقامة علاقات مع كلا البلدين. مع ذلك على الرغم من عناد الجمهورية الشعبية، فإن بندر ردّ بصراحة بالإجابة الوحيدة الصائبة. توجد لدى المملكة العربية السعودية حاجة لم تستطع تلبيتها في مكان آخر. والخياران الوحيدان هما الاتحاد السوفياتي أو الصين. والمملكة العربية السعودية تثق بالصين أكثر من ثقتها بالاتحاد السوفياتي.

قال بندر للصينيين: "الحاجة تعني فرصة وهي تتوقف على اتساع الرؤية لديكم. إذا كنتم تنظرون إلى الأمر من زاوية أنه عين بعين، فإني أعتقد عندئذ أنكم لا تريدون الاتفاق، وسأضطر إلى الرحيل. ينبغي أن تنظروا إلى الأمر على أنه فرصة؛ والصديق وقت الضيق". وألح بندر إلى أن الاستجابة لهذه الحاجة ومساعدة المملكة العربية السعودية، قد تمهدان لحدوث تطورات أخرى. لكنه أصرّ على القول إنه لا يملك صلاحية بحث أي أمر ما عدا موضوع الأسلحة.

وبعد ذلك لجأ بندر إلى التكتيك إزاء المشكلة العويصة ظاهرياً، أي مشكلة العلاقات السعودية مع تايوان، وهو تكتيك لطالما استخدمه على المستويين الرسمي والشخصي طوال عمله الدبلوماسي. فقد سأل الأمير بندر مضيفه الصيني: "إذا بعنا أصدقاءنا بثمن بخس، فلماذا تريدون أن تكونوا أصدقاءنا؟".

أشار بندر الآن إلى الصفقة المنفصلة بقيمة عدّة مليارات دولار التي تريد المملكة عقدها مع الصين لتغيير وجهة السلاح من إيران إلى العراق، وقال: "بالمناسبة، أود شراء ما قيمته مليارا دولار من الأسلحة التي تنوون إرسالها إلى إيران". وأوضح لمضيفه أنه إذا وافق الصينيون على هذا العرض، فإنهم سيساعدون بذلك المملكة العربية السعودية والعالم العربي بأسره. وشدد أيضاً على أن الأميركيين والبريطانيين سيكونون سعداء بالاتفاق. وختم: "يضاف إلى ذلك أنكم ستجنون منه عملة صعبة ونتائج سياسية طيبة، لذا يربح الجميع".

بعد صمت مديد دام عشر ساعات، طُلب من الأمير مقابلة رئيس الوزراء الصيني، جاو زيانغ. في ذلك الوقت كان الرئيس تشاو بنغ شديد الحرص على سياسة عدم التحالف الصينية ومبادئ التعايش السلمي الخمسة^(*)، ما جعل الأمير يبذل مجهوداً كبيراً لتأكيد موافقة المملكة العربية السعودية على تلك المبادئ. وأثبت بندر حجته بتوضيح موقف المملكة غير العدواني، وشرح الدور الردعي الذي ستلعبه الصواريخ.

ومع ذلك بقيت قضية تايوان ماثلة، وكان لا بد من مواجهتها. فاتخذ بندر موقف الهجوم، مشدداً على أن الصفقة، إذا تمت، فستعزز إمكانية تحسين العلاقات الصينية السعودية. غير أن رئيس الوزراء بقي على عدم اقتناعه، وكرّر أن الصين رفضت تطبيع علاقتها مع أميركا ما لم تقطع الولايات المتحدة علاقتها مع تايوان. وافق بندر على أن الصين أصابت بما فعلته لأن الولايات المتحدة والصين قوتان عظيمتان، وأوضح أن المملكة العربية السعودية بلد صغير، وليست قوة عظمى ولا دولة معادية. وعلّل موقفه بوجوب عدم قياس المملكة بالمعايير نفسها، وختم بالقول: "في النهاية أعتقد أنكم فعلتم عين الصواب مع أميركا، لكن التعامل معنا مختلف".

من الواضح أن هذا القول أثار إعجاب الصينيين. فقد أبلغ بندر أن الرئيس تشاو بنغ وافق على الصفقة شخصياً. وقيل له إن الصين تحترم المملكة العربية السعودية وتريد التعامل معها تجارياً ما دامت تأخذ المملكة في الحسبان أن الصينيين يأملون في تطبيع العلاقات وأن ذلك سيؤثر في علاقة المملكة مع تايوان في الوقت المناسب.

انتابت بندر حالة من الذهول والوجوم. وقفل عائداً إلى المملكة العربية السعودية على عجل لإطلاع الملك فهد على ما جرى. وكان الملك فهد قد طلب من بندر، عندما أمره في أول الأمر بالحصول على الصواريخ للمملكة، ألا يخبر الأميركيين، وألا يكذب عليهم أيضاً. وبموافقة الملك فهد، أطلع بندر وزير الخارجية شولتز على الاتفاق الذي ستشترى المملكة بموجبه أسلحة صينية كانت متجهة إلى إيران. وبيصر بندر على

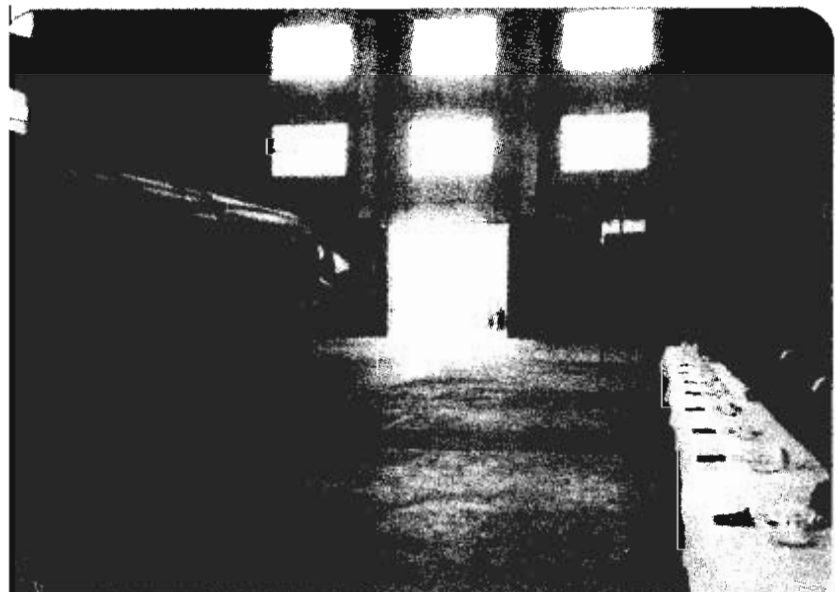
(*) مبادئ التعايش السلمي الخمسة التي تتفق مع سياسة عدم الانحياز هي: الاحترام المتبادل لسلامة الأراضي وسيادتها، وعدم الاعتداء المتبادل، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر، والمساواة والمنفعة المتبادلة، والتعايش السلمي.

القول إنه لم يكذب على أصدقائه الأميركيين؛ لقد قال لهم ما كان ينوي أن يفعله [شراء أسلحة وجهتها إلى إيران] وهذا ما فعله. لكنه أغفل أي ذكر لشراء صواريخ أخرى لحساب المملكة العربية السعودية.

وفي حين أن بندر لم يكن بحاجة إلى مساعدة من خبراء عسكريين لضمان شراء الأسلحة المعدة لإيران من دون صعوبة تذكر، فقد كان بحاجة إلى مساعدتهم على أعمال التقويم والتفاوض بشأن الصواريخ الخاصة بالمملكة العربية السعودية. ومخافة أن يثير حضور خبراء عسكريين سعوديين انتباه الولايات المتحدة إلى الخطط السعودية، استتبق بندر الأمر وأبلغ الأميركيين أنه بحاجة إلى خبير بالدفاع الجوي وخبير آخر بالمدفعية ليساعده على شراء صواريخ معدة للذهاب إلى إيران. فوافق الأميركيون على طلبه بسرعة.

وفقاً لبندر، كانت زيارته الثانية إلى الصين شبه علنية، بمعنى أنه ذهب مع وفد البتروكيميائيات وأمضى ثلاثة أيام في زيارة مصانع ومنشآت بتروكيميائية، وتلقى شروح موجزة. وفي نهاية المطاف، أخذ مع الضابطين الاختصاصيين لمشاهدة "تمثيل المحاربين الفخارية". وهناك فقط استطاعوا بحث موضوع الصواريخ.

مضت ساعات من المفاوضات مع عسكريين صينيين تبين خلالها لبندر أن الصينيين لا يملكون صواريخ قصيرة المدى أو صواريخ معادلة لصاروخ "سكود". كانت لديهم صواريخ متوسطة المدى. وقد أذهلته أحجامها الكبيرة. لكن الحجم كان أقل ما فيها. لقد وجد الأمر غامضاً ومخيفاً، ويكاد يكون سريالياً، "كنت وسط ضباط وجنرالات شيوعيين، وأنا الذي أمضيت حياتي أحارب الشيوعية".



صواريخ CSS-2 البالسنية

أُتضح لبندر وفريقه خلال تلك الاجتماعات أن الصينيين صمّموا هذا النوع من الصواريخ لحمل رؤوس حربية نووية. ويؤكد بندر أنهم دفعوا إلى الصينيين أموالاً كفيّ يعدّلوا الصاروخ ليحمل رأساً حربياً تقليدياً. وهكذا، حوّل الصينيون صاروخاً نووياً إلى صاروخ تقليدي.

عندما انتهت المفاوضات، كان على بندر معالجة مشكلة إيصال الصواريخ إلى المملكة العربية السعودية. فقد كان يجب نقلها وتخزينها من دون علم الأمير كيين، ومع ذلك على الأمير في الوقت نفسه تلبية طلب الملك فهد الصريح بألا يكذب على الأمير كيين. فالسعوديون يدركون أن ردّ الفعل الأميركي على خبر قيام السعوديين بعقد صفقة مع الصينيين سيكون عنيفاً.

أُتخذ القرار بعدم الإعلان عن الصفقة إلا بعد إتمام تركيب الصواريخ في الصحراء على نحو آمن. وعندئذ هُيئت مناسبة إعلامية يعلن فيها الأمير سلطان أن الملك قام بزيارة القوة الصاروخية الاستراتيجية التي تم الحصول عليها. كان التوقيت هو الأهم. وتقتضي الحكمة ألا يذاع خبر شراء الصواريخ إلا بعد نشرها في مواقعها. وسيتم الإيضاح أن الصواريخ مصمّمة لتشكيل قوة ردع رئيسية، تساهم في السلام في المنطقة؛ فلن يجرؤ أحد على مهاجمة المملكة إذا علم أن صواريخها تستطيع الوصول إلى أي مكان رداً على ذلك. وكان بندر واضحاً في هذا الصدد، "هذه قيمة السلاح الحقيقية، فإذا لم يكن أحد يعرف شيئاً عن وجوده فإنه لن يشكّل رادعاً، ونحن بالتأكيد لا نريد استخدامه لتوجيه ضربة أولى".

بعد شراء الصواريخ، بقيت مسألة جوهريّة: كيف يمكن بناء الصوامع الضخمة اللازمة لتخزين الصواريخ في وسط الصحراء من دون إثارة شكوك الأمير كيين؟ توصل بندر إلى حيلة بارعة: ذكر الأمير كيين أن أضخم مستودعات الأسلحة السعودية قريبة من الرياض. ثم أوضح أن الملك فهد يخشى خطر وقوع مستودع الأسلحة في أيدي شريرة في حال حدوث انقلاب عسكري ما. لذا، تقرّر نقل المستودع إلى أبعد مكان ممكن عن الرياض. ورأى الأمير كيون أن القرار حكيم جداً ويسعدهم أن يؤيدوه.

ولما كان من المتوقّع أن يتطلّب تركيب الصواريخ مجيء عدد كبير من الصينيين إلى المملكة، فقد كان على بندر أيضاً اختلاق ذريعة لوجودهم. ففاتح الأمير كيين مجدداً أنه للتّثبت من عدم تراجع الصينيين عن وعدهم بألا يبيعوا أسلحة لإيران، رأت

المملكة أن تعرض عليهم عقد بناء مستودع الأسلحة الجديد. وعلّل ذلك أن العملة الصعبة الإضافية والاستثمار الذي سيحصلون عليه ببناء هذه المنشأة سيساعدان على توطيد دعمهم. ومرة أخرى، لم يكن لدى الأمير كيين أي اعتراض، وأكد بندر أنه عند بناء المجمع، فإنه سيحتوي بالتأكيد على مستودعات للذخائر؛ وهكذا لبي المعايير الصارمة للملك فهد بقول الحقيقة، لكن ليس كل الحقيقة.

كانت الأقمار الاصطناعية الأميركية تشكّل أكبر تهديد بانكشاف الأمر. عندما تمّ تكليف بندر بتحديد المقياس الزمني لمدار أي قمر اصطناعي، أقرّ أن المهمة تنطوي على خطر انكشاف ما كان السعوديون يفعلونه، ولم يكن في وسعه تعريض حكومته لتهمة التواطؤ في عملية تجسس. فتوجّه إلى مصادر معلوماته في وكالة الأمن القومي الأميركية، وجعلها تصدق أن العراق مرّر إلى المملكة العربية السعودية معلومات حول تعزيزات إيرانية في جنوب العراق، بين الكويت والبصرة. وبمجة الحاجة الملحة إلى تأكيد صحة هذه المعلومات بما يمكن من اتخاذ قرار بتقوية القوات السعودية في تلك المنطقة، قال للعملاء أن الرياض في غاية القلق وتطلب المساعدة الأميركية على نحو عاجل.

أبلغت وكالة الأمن القومي بندر أنه سيحصل على المعلومات في اليوم التالي. لكن بندر أصرّ على ضرورة تلقي المعلومات على الفور. وعندما أجب طلبه بالرفض، تظاهر بالخشية من أن تظن الرياض أن عدم حصوله على معلومات استخبارية من الأقمار الاصطناعية يعني أن الوكالة تخفي شيئاً عنها. فإيران في النهاية عدو مشترك.

نجحت الخدعة. وسرعان ما أوضح أحد عملاء الاستخبارات أن "سبب وجوب الانتظار إلى يوم غد لا علاقة له البتة بقوة تصميمنا على مساعدتك، لكن وصول أقمارنا إلى فضاء ذلك المكان يستغرق 12 ساعة، وها هي قد وصلت، لذا نحتاج إلى 12 ساعة أخرى، يُضاف إليها وقت تنزيل البيانات". وبعد أن شكره بندر على صدقه، سارع إلى إرسال المعلومات إلى الرياض.

وبفضل هذه المعلومات المتعلقة بالأقمار الاصطناعية الأميركية، استطاعت المملكة إبقاء موضوعي حيازة الصواريخ الصينية وتسلمها طي الكتمان مدة سنتين تقريباً، وهو إنجاز لا يستهان به لأي بلد، وبخاصة البلد الذي للولايات المتحدة فيه مثل هذه الامتيازات. غير أن السر ذاع في 4 مارس 1988، حين نشرت صحيفة "واشنطن

بوست" أن المملكة العربية السعودية اشترت صواريخ بالستية صينية CSS-2 يزيد مداها على 1500 ميل، وأن الصواريخ قادرة على حمل رؤوس حربية نووية. وهكذا أصبح بندر، مهندس تلك الصفقة، في وضع صعب.

انكشف أمر الصواريخ بعد أن تعطلت إحدى شاحنات النقل السعودية، إذ أدى العطل إلى حالة من الارتباك أرسلت خلالها قوة أمنية لحماية الشاحنة. ولفتت حركة تلك القوة انتباه محللين يدرسون صور الأقمار الاصطناعية. وعند مطابقة تلك الصور مع قاعدة بيانات أميركية، اتضح سريعاً أن ما رأوه كان صاروخاً صينياً من طراز DF-3.

كانت نصف الصواريخ التي طُلبت من الصينيين قد وصلت فعلاً إلى البلد قبل هذا الاكتشاف. وبما أن الولايات المتحدة لم تكن تعلم أن صواريخ DF-3 لا تحمل رؤوساً نووية، فقد أثار ذلك حالة ترقّب كبرى لديها. فالصفقة بين المملكة العربية السعودية والصينيين عُقدت فيما كانت روسيا والولايات المتحدة تتفاوضان حول اتفاقات نهائية للتخلص من الأسلحة النووية متوسطة المدى. وسرت في الكونغرس الأميركي حالة من الحرج والاستياء والغضب من الخديعة السعودية. فكتب وليام سافاير بأسلوب نقدي: "لقد صعقت صفقة الصواريخ الصينية السعودية واشنطن، التي ظنت خطأً أن لا ييجنغ ولا الرياض ستقدمان على إحداث تغيير في ميزان القوى في الشرق الأوسط من دون مراجعة الولايات المتحدة"³⁵.

ومما أثار إحراجاً أكبر للأميركيين تورط بندر المتعاون كلياً حتى ذلك الوقت والقريب جداً من مدير وكالة الاستخبارات المركزية بيل كيسي. فدور الأمير، وهو السفير السعودي إلى واشنطن، في رعاية العلاقات الصينية السعودية والشروع في الصفقة من دون إعلام الولايات المتحدة كان غير عادي بقدر ما كان غير مريح داخل دائرة السياسة والاجتماع في واشنطن.

وعموجب القانونون الأميركي، ينبغي إبلاغ الكونغرس باكتشاف حيازة بلد ما القدرة النووية في غضون 48 ساعة. وقد أحدث مبيع الصواريخ الصينية ذات القدرة النووية رعباً في أوساط الإدارة. وكان الوزير شولتز آنذاك خارج البلد في زيارة مهمة إلى موسكو وأوروبا والشرق الأوسط، وكان موعد عودته نهاية الأسبوع. فقرّر البيت الأبيض بدء العد العكسي للساعات الثماني والأربعين من يوم الجمعة، حاذفاً يومي

السبت والأحد باعتبارهما عطلة نهاية الأسبوع. وهكذا أصبح يوم الاثنين فترة الساعات الأربع والعشرين الأخيرة السابقة لموعد إبلاغ الكونغرس.

ولعل من قبيل المصادفة أن وزير الخارجية الصيني كان على موعد للقاء شولتز يوم الاثنين. وبعد أن أنهى بندر المفاوضات ونقل مسؤولية الصواريخ إلى أخيه، الأمير خالد، لم يعد له شأن بالصفقة. لكن، توجيهاً للحيلة إزاء ذبوع نبأ صفقة الصواريخ قبل إتمام تركيبها، اتفق الأمير مع السفير الصيني على التمسك بالعبارة نفسها: "اتفهم قلقكم، لكن هذا شأن عسكري ولست سوى دبلوماسي. سأراجع حكومتي وآتيكم بالجواب".

يوم الأحد، في 6 مارس 1988، تلقى بندر اتصالاً من ريتشارد مورفي، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط. قال، مورفي بإيجاز: "لدي أمر أريد مناقشته معك. هل يمكنني أن أزورك لدقائق قليلة؟".

عندما وصل مورفي ومعه زوجته وأولاده، قال بندر إنه لاحظ أن: "السفير مورفي بدا متوجعاً ومنزعجاً".

سأل مورفي: "هل يمكننا التحدث على انفراد قليلاً؟".

انتقلا إلى غرفة ثانية فإذا بمورفي ينفجر غضباً: "أسلحة نووية...؟!".

وبغضب، ناول الأمير مظروفاً أصفر اللون. يقول بندر: "أحسست بألم مفاجئ في معدتي!".

كان ضغط اللحظة شديداً. ويذكر بندر أنه حدث نفسه، فكر، فكر، فكر! وفي محاولة لكسب الوقت وتذكر ما اتفق عليه هو والسفير الصيني، تمت بندر: "أي أسلحة نووية؟".

قال مورفي: "نحن صديقان منذ فترة طويلة يا بندر... فلا داعي للمداورة والخداع".

أجاب بندر بهدوء: "طبعاً لن أخدعك، عمّ تتحدث؟".

"اسمع، نعرف أن لديكم في المملكة العربية السعودية صواريخ DF-3 ذات رؤوس نووية".

"مهلاً". قال بندر: "اتفهم ما تقوله وسأنقله إلى حكومتي، وأطلب توضيحاً لأنني لست عسكرياً، أنا دبلوماسي. لكن أستطيع أنؤكد لك شيئاً واحداً: أيّاً يكن ما

تحدّث عنه، فإن المملكة لم يكن لديها في الماضي أسلحة نووية وليس لديها في الوقت الحاضر ولا تخطّط للحصول عليها. هذا أمر يمكنني أن أؤكد لك بصورة قطعية". عند هذه النقطة أطلع السفير الأمير على صور للصواريخ التقطتها الأقمار الاصطناعية. ومع ذلك ظل بندر متمسكاً بالعبارة التي اتفق مع السفير الصيني عليها، قائلاً: "يجب أن أتشاور مع حكومتي أولاً، وسأعود إليك".

رد مورفي: "حسناً، دعني أقول لك شيئاً. فيما نتحدّث نحن الآن، يتناول وزير الخارجية الصيني طعام العشاء مع الوزير شولتز الذي سي طرح عليه السؤال نفسه، لذا أمامك حتى صباح يوم الاثنين. نحن بحاجة إلى جواب قبل صباح الاثنين؛ وبخلاف ذلك فإن الوقت سيمضي وسنضطر إلى إبلاغ الكونغرس. أمل أن تدرك مدى خطورة هذه المسألة"³⁶.

لاحظ بندر لاحقاً أمام أصدقائه أن "السبب الذي دفعهم لتغيير موعد وزير الخارجية الصيني هو الخوول دون أن نتحدّث معاً. لقد تعمّدوا الاجتماع بالوزير الصيني في منزل شولتز لحظة مجيء ريتشارد مورفي إلي، لكن وزير الخارجية الصيني قال العبارة نفسها بالضبط: "أنا وزير خارجية؛ عليّ أن أراجع بيجنغ، وسأعود إليكم بالأجوبة".

فور مغادرة مورفي، أجرى بندر اتصالاً هاتفياً معدّاً مسبقاً بالملك فهد، وكان الاتصال غنياً بالمعلومات، ومصمّماً في الوقت نفسه كي يصل إلى مسامع وكالة الاستخبارات المركزية. بعد المقدمات المعتادة، قال بندر للملك بطريقة تدلّ على عدم اكتراث: "لدى أصدقائنا في أميركا تقارير أننا نمتلك أنظمة نووية في المملكة. وقد أكّدت لهم أننا لا نملك مثل هذه الأنظمة وهم ينتظرون جواباً من جلالتك ومن الحكومة".

ساد صمت مؤقت فيما الملك يستجمع أفكاره لمعرفة حاجة ابن أخيه قبل الرد، "أسلحة نووية! يا ليت! لكن، أبلغهم إذا كانوا راغبين في بيع أي أسلحة نووية من أجل دفاعاتنا، فسيكون ذلك موضع تقدير كبير من جانبنا وسيساعدنا التفاوض في هذا الشأن فوراً". ثم انتقل فهد إلى موضوع آخر مختلف تماماً، مضيفاً: "بالمناسبة، هناك أمر يتعلق بمصر والفلسطينيين لا بد أن أبحثه معك. لم لا تأتي وتبحثه معي؟".

ما إن أعدّ الأمير طائرته للسفر فوراً حتى أبلغه مسؤولون أميركيون، بعد تحليلهم مضمون الاتصال الهاتفي، أن الرئيس يود رؤيته في صباح اليوم التالي، عند الساعة

التاسعة إلا ربعاً، أي قبل ربع ساعة من حلول موعد لقاء ريغن مع وزير الخارجية الصيني. ولم يكن في وسع بندر أن يرفض طلب الرئيس، فاتصل بفريقه وأخّر موعد سفره. لكن تسنى لبندر في تلك الليلة الاجتماع بالسفير الصيني.

قال بندر وهو يشير إلى صورة فوتوغرافية التقطت صبيحة زيارته إلى البيت الأبيض للقاء الرئيس ريغن: "قال لي الرئيس ريغن، علمنا أنكم حصلتُم على صواريخ نووية. هذا أمر غير مقبول لدينا، وعلي أن أبلغ الكونغرس بمقتضى القانون. أود الحصول على جواب رسمي في هذا الخصوص، وآمل في أن تتمكنوا من التوصل إلى طريقة لنزع فتيل هذه الأزمة". وأشار بندر إلى الصورة مجدداً وقال: "إذا نظرت إلى الصورة ستري أنه كان يحمل في يده بطاقات. وكنت أنظر إلى بطاقاته، ولما كانت الأحرف كبيرة، فقد استطعت قراءتها. لذا استوقفته قبل وصوله إلى النقطة الأخيرة التي وضعها موظفوه له. وكانت كناية عن كلمة واحدة هي وإلا! وقد حلّ ذلك الأزمة بأكملها".

أوضح بندر: "لقد أوجزوا النقاط التي كان على الرئيس الإدلاء بها، وكانت النقطة الأخيرة: لديكم أسلحة نووية ونريدكم أن تفككوها أو تعيدوها أو تدمروها. كان طلباً واضحاً، لذا رأيت بسرعة أنني إذا استطعت أن أوقفه قبل وصوله إلى تلك النقطة الأخيرة، فسأحول عندئذ دون الاضطرار إلى نقل إنذار قويّ إلى الملك فهد وأحصل على فرصة أيضاً لتلقي تعليمات من حكومتي. لذا، حين رأيت يقترب من هذه النقطة الأخيرة، قلت، سيدي الرئيس، هل لي أن أقطعك لحظة؟ فكان لطيفاً للغاية بحيث توقف وقال أجل".

أوضح بندر أن الملك فهد حصل على الصواريخ الصينية بغية الردع فقط وقال: "يمكنني أن أطمئنك بصورة جازمة إلى أن المملكة لا تمتلك صواريخ نووية". ثم سأل الأمير الرئيس إذا كان في وسعه العودة إلى المملكة العربية السعودية بحيث يأتي برسالة من الملك فهد تؤكد أن المملكة لا تمتلك أسلحة نووية.

لم يكمل الرئيس القراءة، بل أبدى ملاحظته التالية: "حسناً، لا أظن أننا نريد أكثر من ذلك من أصدقائنا".

وفيما كان بندر والرئيس يتصافحان، تدخل الوزير بيكر قائلاً: "سيدي الرئيس، عليّ التشديد على شيء واحد. نحن أصدقاء منذ أمد بعيد أيها الأمير بندر، وهذا أمر خطير جداً جداً".



ريغن يرحب ببندر بحرارة،
خليفه السعودي في حربه حول العالم
ضد الشيوعية

"أفهم ذلك". أجاب بندر: "ولهذا السبب سأغادر على الفور إلى المملكة العربية السعودية". عند خروج الأمير من الاجتماع، حاول مسؤولون في وزارة الخارجية تعزيز الرسالة التي أوردتها الوزارة في ملاحظات الرئيس، لكن بندر صدّهم قائلاً: "التقيت بالرئيس وقد حمّلي رسالة إلى جلالته. وأنا لن أناقش الأمر مع أحد غيره؛ سأعود إلى بلادي، وأسلم الرسالة إلى الملك، وأعود بإجابة إلى الرئيس، نقطة على السطر".

في الطريق إلى المطار، تلقى بندر اتصالات من

مسؤولين في البنتاغون ووزارة الخارجية طالين اللقاء به على عجل، فاعتذر فوراً عن تلبية طلبهم. وغادر إلى المملكة ثم عاد إلى واشنطن ومعه رسالة فيها نفي قاطع لما تردّد عن شراء أسلحة نووية. وقد أكّدت الرسالة شراء صواريخ أرض - أرض من الصين بسبب قرار الكونغرس عدم بيع المملكة صواريخ "لانس" أميركية، لكنها قدّمت ضمانات مفادها أن الصواريخ لن تُستخدم أبداً لأغراض هجومية. وأوضحت في الوقت نفسه أن المملكة ستدافع عن نفسها إذا ما تعرّضت لهجوم.

كان ردّ الفعل الأميركي قاسياً وسريعاً. فقد طلبت الولايات المتحدة من المملكة العربية السعودية تفكيك الصواريخ وإعادةها إلى مصدرها أو السماح للأميركيين بالوصول إليها لتفقدّها، وهو أمر غير مقبول عند السعوديين. وهاج ريتشارد أرميتاج، مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي، في وجه بندر وقال له وهو يتميّز غيظاً: "أريد أن أهنئك. هذا هو قانون العواقب غير المقصودة. لقد وُضعت المملكة العربية السعودية في لائحة الاستهدافات الإسرائيلية. أنتم الآن الأغنية الشعبية رقم واحد في برنامج أفضل الأغنيات الإسرائيلي. وإذا ما انفجرت الحرب في أي مكان في الشرق الأوسط، فستوجّه الضربة الأولى إليكم"³⁷.

وأصدرت الإدارة بياناً جاء فيه: "إن حيازة نظام كهذا ليست في مصلحة السلام والاستقرار في المنطقة". وكان ردّ فعل الكونغرس أكثر حدة؛ إذ وقّع 50 عضواً في مجلس الشيوخ و187 عضواً في مجلس النواب رسالة احتجاج ورد في نصها: "على

حكومتنا أن تبدي معارضة مطلقة لا لبس فيها لوجود الصواريخ الصينية التي تمثل تهديداً جديداً ومقلقاً لسلام المنطقة³⁸. ومع ذلك، قُدِّمَ البيان والرسالة مع اعتراف بالأمر الواقع من حيث الجوهر.

ربما كان أفضل تصوير للشعور بالصدمة في واشنطن في ذلك الوقت، ما جاء في قصة رواها وزير الخارجية كولن باول قبل عشرة أيام من إعلانه عن استقالته في نوفمبر 2004. فعندما طُلب منه سرد أي مشاهد أو حكايات قصيرة عن بندر، قال مستذكراً: "لديّ طُرفة عن اليوم الذي ضبطناه فيه متلبساً بشراء صواريخ من الصين".

وتذكّر باول كيف أنه عند شيوع الأنباء - وكان في ذلك الوقت مساعداً للرئيس لشؤون الأمن القومي (وتشيع تسميته مستشار الأمن القومي) - ذهب مباشرة إلى منزل بندر وصاح: "ماذا الذي تفعله؟ لم تفعل ذلك؟". وأخبر بندر أن لديهم خرائط وصوراً له تظهره واقفاً أمام مصنع عسكري صيني وقال: "لقد ارتكبت حماقة حقاً ويحسن بكم أن تتمنوا ألا يقصفها الإسرائيليون". لكنه أضاف: "لا أظن أنهم سيقدمون على ذلك لأن ما اشتريتموه ليس نظاماً جيداً جداً، ومع ذلك اشتريتموه. هذا عمل أحمق حقاً، ولكنكم تستحقون! نتمنى أن تسعدوا بصواريخكم!"³⁹.

عندما ذاع خبر الصواريخ الصينية، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي شامير في الولايات المتحدة، فصرّح أن إسرائيل لن تنتظر حتى تهاجم؛ وإذا هُدِّدت، فإنها ستتخذ إجراءات استباقية. وقد استرعى ذلك القول انتباه السعوديين بسرعة.

طلبت المملكة العربية السعودية من الولايات المتحدة أن ترسل إلى إسرائيل رسالة عاقلة مفادها أن صواريخ CSS-2 لن توجه ضد إسرائيل⁴⁰. وفي حديث منفصل مع باول، أوضح بندر الموقف السعودي بجلاء قائلاً: "إتني أبلغك، إذا كان في وسعك تمرير الرسالة إلى الإسرائيليين، أننا لا ننوي استخدامها لتوجيه ضربة أولى".

لم تجد هذه الرسالة حول النيات السعودية، أو عدمها، اهتماماً يذكر. وبعد أسابيع فقط، تلقى بندر اتصالاً من الأمير سلطان يوضح فيه أن إدارات قاعدة تبوك الجوية رصدت طائرات إسرائيلية تحلق قرب العقبة. واعتقد أن الطائرات ربما تتجمع لشن هجوم على المملكة، وكان على بندر أن يطلب من الأميركيين المساعدة إلى التدخل كيلا تفلت الأمور.

سأل بندر الأمير سلطان عن الموقف السعودي إذا هاجموا، فكان جواب سلطان صارماً. فقد أصدر الملك أمراً بتعبئة سلاح الجو السعودي بأكمله وتوجيه طائراته شمالاً وهي بكامل أسلحتها وذخائرها. وشدد على أن المملكة لا تريد أن تفتعل مواجهة، لكن إذا هوجمت، فلن يكون أمامها سوى الاشتباك، وسيشمل ذلك استخدام الصواريخ الصينية.

شدّد بندر على عدم إخفاء إجراءات تحضير الطائرات في القواعد الجوية السعودية عن الطيارين والمستشارين الأميركيين، لأن ذلك سينقل رسالة مقنعة أكثر من أي شيء آخر قد يبلغه إلى البيت الأبيض. فأكد سلطان أن هذا الأمر قيد التنفيذ بالفعل.

اتصل بندر بالجنرال باول على الفور ثم ذهب إلى منزله مباشرة. ولدى وصول بندر، كان باول قد أبلغ من الاستخبارات الأميركية عن التحركات الإسرائيلية والتعبئة السعودية.

حيا الجنرال باول الأمير بندر، قائلاً: "ألم أقل لكم. لقد ظننتم أنكم أكثر أمناً، انظروا الآن إلى ما فعلتم بأنفسكم".

أجاب بندر: "إننا أصدقاء منذ زمن طويل أيها جنرال. إليك رسالة بسيطة جداً من المملكة العربية السعودية. نحن لا ننوي مهاجمة أحد بهذه الصواريخ. ونحن نعرف قدرات إسرائيل وسيكون الأمر بمثابة انتحار إذا هاجمناها وألحقنا بها بعض الأضرار، لأنها عندئذ ستدمر كل شيء لدينا. لماذا تدفعوننا من موقف عدم رغبتنا في أي اشتباك إلى موقف لا خيار لنا فيه سوى الاشتباك؟".

وختم بالقول: "يمكنني أن أؤكد لك أنه إذا هاجمنا الإسرائيليون، فلن يكون أمام المملكة العربية السعودية خيار سوى الرد، وليحدث ما يحدث. حكومتي لا تحتمل أي هجوم من إسرائيل من دون أن ترد. لذا أبلغ الإسرائيليين بذلك".

أوماً باول لبندر أن ينتظر، ثم توارى في مكتبه. وقال حين عاد: "الإسرائيليون يقولون، لم كل هذا التوتر لدى السعوديين؟ إننا نقوم بتمارين ليلية ليس إلا".

قاطعته بندر ليقول: "حسناً، نحن أيضاً نقوم بتمارين ليلية لا أكثر".
"حسناً، لنكف عن هذه المداورة. الرئيس يريد أن تنهي إسرائيل والمملكة العربية السعودية حالة التوتر؛ ولا يريد أن يهاجم أحد الآخر".

أجاب بندر: "ليست لديك شكوك في ما يتعلق بي، لكنني أريد ما يؤكد أن الجانب الآخر لن يهاجم. يمكنني أن أطمئنك أننا لن نقدم على شيء إلا إذا هوجمنا".

كان بندر مقتنعاً أن هذه المواجهة بين إسرائيل والمملكة العربية السعودية وضعت المملكة على حافة الحرب، لذا سعى ليؤكد لحلفائه الأميركيين أن الصواريخ الصينية بعيدة المدى ليست نووية. وكرّر القول إن حيازتها تمت لأغراض دفاعية فقط، وفي رد على التهديد من إيران، وعلى أثر رفض طلبها الحصول على صواريخ "لانس" قصيرة المدى. قبلت إسرائيل على مضض تطمينات المملكة، ولا شك أن قبولها معزز بتقديرات استخبارية محدودة فعالية الصواريخ من الناحية العسكرية ولافتقارها إلى الدقة. عجّلت صفقة الصواريخ السرية في حدوث توتر في العلاقة الأميركية السعودية، وكان الوقع السياسي لدخول الصواريخ إلى المنطقة شديداً. "لقد شكّل القرار السعودي شراء صواريخ صينية ابتعاداً كبيراً عن استراتيجيات مشتريات الأسلحة السابقة، وغيّر بضربة واحدة المعادلة الاستراتيجية في المنطقة"⁴¹. وربما كان التغيير الأكبر في المعادلة الاستراتيجية مدى صاروخ CSS-2، الذي قُدّر بنحو 2000 ميل. بل إن الصاروخ المعدّل لحمل ذخيرة تقليدية ثقيلة هو أكبر الصواريخ وأطولها مدى خارج ترسانات الدول النووية الرئيسية⁴²، ما يجعل بلداناً مثل إسرائيل وإيران، والاتحاد السوفياتي في متناول القدرات السعودية، بالإضافة إلى الصومال، وإثيوبيا، والسودان، وتركيا، وأفغانستان، وباكستان، وغربي الهند.

قلّلت صفقة الصواريخ الصينية في الحال اعتماد المملكة على مظلة الأسلحة الغربية، ودفعت نحو إحداث تكافؤ في الفرص بين الأسلحة العربية والأسلحة الإسرائيلية، وزادت في فرص نفاذ الصين إلى الخليج. والأهم أنّها دلّت على تغيير فريد للطريقة التي درج السعوديون على العمل بها في الغرب. على أي حال، أصبح لدى السعوديين صاروخ قوي ومتطور نسبياً، وربما يكمن تقديره في قيمته النفسية وهيبته. ويعترف بندر، مهندس صفقة CSS-2، بالقول: "كان الجانب النفسي لاقتنائه أهم من قدرته"⁴³.

ربما كانت الخطوة السرية لشراء صواريخ يزيد مداها ثلاث مرات عن مدى أحدث الصواريخ العاملة في المنطقة في ذلك الوقت، ومن دون الالتفات نحو أميركا لكسب موافقتها، أجراً خطوة تقوم بها المملكة العربية السعودية منذ نشأة الصداقة

الأميركية السعودية وأكثرها إقداماً. وقد لاحظت الصحافة أن "السعوديين يفخرون بتنظيم انقلاب، بدلاً من أن يعتذروا بهدوء عن خداع واشنطن ثم يتواضعوا"⁴⁴. وعلى نحو أدق، قال باول: "عبر بندر من جانبه في مجالس خاصة عن انشراحه إزاء انزعاج واشنطن، مشيراً إلى أن تلك التطورات جاءت نتيجة تدخل الكونغرس في مبيعات الأسلحة"⁴⁵.

وفي مقابلة مع تشارلي روز في برنامج "نايت ووتش" على محطة "سي بي أس نيوز"، دافع بندر ببساطة وإصرار عن حيازة المملكة العربية السعودية صواريخ، قائلاً: "لم أذهب إلى الصين لإثارة مشاعر الأميركيين أو إزعاجهم. فلو أننا حصلنا منكم على صواريخ أميركية، لما قصدنا أي مكان آخر للحصول عليها". وغير بندر رسالته السياسية بعد ذلك ووجه ضربة مباشرة إلى الكونغرس وولاءاته: "أعتقد أن الدرس المتبادل لكل منا هو وجوب أن نكون أقل انفعالاً عند بحث هذه القضايا؛ كونوا منطقيين وانظروا في ما يخدم مصالحنا القومية"⁴⁶.

أدى الرفض السعودي إعادة الصواريخ، إلى جانب رفض السماح بأي تفتيش أميركي للأسلحة، إلى قيام الوزير شولتز بقطع علاقته ببندر. وصدرت تعليمات بالأبواب التي متصل أي مسؤول أميركي ببندر أو يتحدث إليه أو يتعامل معه. وهكذا جُمّدت العلاقات الدبلوماسية الأميركية، واستثنى من ذلك مسؤول مكتب الشؤون السعودية. وكان ردّ بندر بسيطاً: "يؤسفني ذلك، لكنكم منحتموني إجازة". وتوجه إلى أسبن.

بعد أسبوعين، تصاعد الاضطراب في لبنان، وطلب من بندر العودة إلى واشنطن لإجراء محادثات. واصل شولتز بحفاة بندر، الذي أقر أنه يتفهم سبب انزعاج شولتز. لكن بندر شعر من ناحيته أنه لم يكذب عليه. وقال: "أبلغته كل ما كان عليّ أن أطلع عليه، ولم أبلغه ما لم يكن عليّ أن أطلع عليه". كان الأمير يدرك أنه كان يسير على خيط رفيع، فاعترف أنه دفع الأمور إلى حدودها القصوى في بعض الأحيان.

ما زال الغموض يلفّ صفقة الصواريخ الصينية إلى يومنا هذا، ويبدو ذلك على وجه الخصوص في التفاوت المبالغ فيه بين حسابات الصفقة، والأهم، في التفاوت في أعداد الصواريخ. فوفقاً لروايات مختلفة، يتراوح عدد الصواريخ المشتراة بين 25 صاروخاً و100 صاروخ. وعلى نحو ذلك، قدّر عدد قاذفات الصواريخ بين 9 و15

قاذفة. وقدّر ثمن كل صاروخ بنحو 100 مليون دولار⁴⁷. ولا يُعرف سوى القليل عن الكمية والتكلفة والدقة، أو - وربما هذا هو الأهم - عن مواقع الصواريخ. فالاستخبارات الإسرائيلية تعتقد أن الصواريخ منشورة في السُّليل (500 كلم جنوبي الرياض) والجفر (100 كلم جنوبي الرياض)⁴⁸. لكن لا تزال مواقعها الحقيقية غير مؤكدة، وكذلك فعاليتها. فصواريخ "الريح الشرقية"، التي تعمل بدفع الوقود السائل، وهو ما يطيل فترة إعدادها، تتطلب صوامع ثابتة معززة ويعتقد أن نظام توجيهها غير فعال نسبياً؛ إذ يبلغ قطر دائرة الخطأ المحتمل أو الدقة نحو 2 كيلومتر⁴⁹.

عندما سئل بندر عن عدد الصواريخ المشتراة، أشار إلى أن هذه المعلومات لا تزال حسّاسة، لكنه أكد أنه ليس كبيراً. وربما يدعم ذلك ما كشف بندر عنه من أن تكلفة الصفقة، بما فيها بناء الصوامع ومخزن الأسلحة، كانت في حدود 3 مليارات دولار، ما يدل على أن المملكة العربية السعودية اشترت 25-30 صاروخاً فقط، إلا إذا كانت المملكة قد حصلت على الصواريخ بسعر يقل عن 100 مليون دولار للصاروخ الواحد. وأكد بندر أيضاً تحسين دقة الصواريخ بإجراء تعديلات محلية عليها.

على الرغم من الصدمة التي تردّدت موجتها في أنحاء واشنطن في ذلك الوقت، فإنه لم يكن في الإمكان دحض مبرر القيادة السعودية. فبحسب تعبير الملك فهد نفسه: "ليس من المستغرب على المملكة أن تشتري أسلحة دفاعية لتدافع عن معتقداتها وأرضها"⁵⁰. وذلك أمر في محلّه تماماً في ضوء الأحداث المضطربة التي عصفت بالمنطقة. فقد شهدت سنة 1986 هبوط طائرة إيرانية محمّلة بالمتفجرات على أرض سعودية، وهي حادثة "أسفت" القيادة الإيرانية على وقوعها، وشهدت سنة 1987 اقتحام السفارة السعودية في طهران، وتلته بعد أسبوع وفاة 402 من الحجاج، من بينهم 85 مواطناً سعودياً سقطوا ضحية عنف أحدثه إيرانيون حاولوا التظاهر في المسجد الحرام في مكة خلال موسم الحج. وفي مقابلة أجرتها محطة تلفزيون أميركية مع بندر في ذلك الوقت، ذكر الأمير بوضوح شديد: "هناك أمران لا نسمح بتعرّضهما للخطر: ديننا وأمننا"⁵¹. ولاحظ الملك فهد بعبارة لاذعة: "نحن نشترى أسلحة لا مبادئ"⁵².

على الرغم من الموقف القوي المستقل الذي اتخذه السعوديون خلال صفقة الصواريخ الصينية، فإنه لا يوجد سبب للاشتباه في أن الصواريخ كانت لأغراض غير دفاعية. صحيح أن صاروخ CSS-2 ذو مدى بعيد، لكنّه معروف بمحدودية دقته

بسبب حجمه. ومع أنّ الصينيين صمّموا CSS-2 لغرض محدد هو حمل رؤوس نووية، فقد أكّد بندر مراراً أن الصواريخ التي اشترتها المملكة العربية السعودية عدّلت لحمل رؤوس حربية تقليدية. وفي تكرار لهذا التأكيد، كتب الملك فهد إلى الرئيس ريغن، مقدماً ضمانته الشخصية أن الصواريخ لن تزوّد برؤوس حربية غير تقليدية، ولن تستخدم لتوجيه ضربة أولى. وجزم أيضاً أن المملكة العربية السعودية لن تحصل على رؤوس حربية نووية أو كيميائية تستخدمها⁵³. ومن الأدلة الأخرى على الدور الدفاعي الخالص المنوط بالصواريخ أنّها لم تُستخدم خلال حرب الخليج على الرغم من أنّها كانت بحلول سنة 1990 تُعتبر قيد الخدمة الفعلية، وربما يعود السبب إلى عدم دقّتها. وفي إشارة إلى وضعها، قال بندر: "استبعد الملك فهد ذلك الخيار [أي إطلاق صواريخ على العراق] لعدم القدرة على التحكّم به بدقة. وحربنا لم تكن مع الشعب العراقي، بل مع صدام حسين وأعدائه"⁵⁴.

على الرغم من اهتمام المملكة لإنشاء جيش حديث، فإنها لم تلجأ قط إلى اعتداء خارجي. وربما خفّفت الصداقة العريقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة المخاوف من النيات السعودية في ما يتعلق بإسرائيل. ومن المعروف أنّ المملكة اتخذت منذ مدة طويلة موقفاً يعبر عن رغبتها في خلوّ الشرق الأوسط من الأسلحة النووية. ودفاعاً عن إعلاناتها المتكرّرة عن عدم وجود تطلّعات نووية لديها، انضمت المملكة العربية السعودية إلى جملة البلدان التي تؤيد جعل الشرق الأوسط خالياً من الأسلحة نووية، ووقّعت في سنة 1988 معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية. وفي مايو، أكّد المندوب السعودي الدائم في الأمم المتحدة اهتمام المملكة لإزالة أسلحة الدمار الشامل من الشرق الأوسط⁵⁵. لكن يبقى هذا الهدف غير قابل للتحقق بصورة ناجزة، ما دامت إسرائيل تحتفظ بمخزونها النووي المشتبه به.

نظام عالمي جديد

"أعتقد أنه عندما يُكشف النقاب عن المساهمة الحقيقية التي قدّمها بندر إلى السياسة الشرق أوسطية والغربية عموماً، سيتفاجأ كثير من الناس جداً بمقدار النفوذ الذي كان يتمتع به وعلى مدى فترة طويلة".

السير ريتشارد إيفانز

رئيس "بريتيش إيروسبيس"

عمل وليام كيسي وبندر معاً عن قرب لتطبيق مبدأ ريغن المعادي للشيوعية. وكان أحد أنجح أشكال التعاون بينهما في أفغانستان. فقد كان الدعم المالي السعودي للمجاهدين، بحسب قول الأمير: "يتم بعلم كلا الطرفين؛ وكان الكونغرس على علم به، لذا لم تكن تشوبه شائبة، باستثناء أنه سري". يقول بندر، متذكراً تلك الفترة من التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية: "أذكر يوم دخلت الكونغرس كيف راحوا يربّتون على كتفي وهم يقولون، شكراً لك على مساعدتك لنا في أفغانستان. إننا نتفهم الأمر وسنلتزم الصمت". لقد كانت للكونغرس أسباب كثيرة تدعوه إلى شكر حلفائه السعوديين، وبخاصة أنهم كانوا في ذلك الوقت يشاركون الولايات المتحدة بالتساوي في تمويل تسليح المجاهدين الأفغان.

وكان لذلك المال دور كبير في كسب الحرب في أفغانستان.

في فبراير 1988، كُلف بندر بإقناع الروس بالانسحاب من أفغانستان، فطار إلى روسيا للاجتماع بغورباتشيف. وهناك، قدّم إلى الزعيم الروسي رسالة أميركية سعودية باللغة الواضحة: اخرجوا من أفغانستان.

أوضح بندر، متذكراً دوره في تأمين الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، أن الملوك فهد والرئيس ريغن قطعاً على نفسيهما عهداً أن يتابعا هذه الحرب وصولاً

إلى خاتمة ناجحة، وبعدم التسوية عليها. وبعد مرور تسع سنوات على الاحتلال السوفياتي، تلقت الاستخبارات معلومات عن احتمال عدم وجود إجماع في الكرملين. كان ثمة انشقاق إزاء السياسة السوفياتية في أفغانستان داخل المكتب السياسي، لكن الخارجين على الإجماع كانوا أقلية. وكان السؤال: هل غورباتشيف واحد منهم أم لا؟ وكان هناك انقسام في أوساط الاستخبارات الغربية بشأن موقف غورباتشيف. فتقرر أن الطريقة الفضلى لاختبار هذه الفرضية هي تقديم اقتراح بانسحاب سوفياتي مشرف، على أمل التمكن من قراءة شيء من الردّ السوفياتي على الاقتراح.

كانت العلاقة المتوترة بين البيت الأبيض والكرملين آنذاك تحول فعلاً دون أي مقاربة أميركية. وكما أوضح بندر: "كان الأميركيون والسوفيات في ذلك الوقت يخوضون مباراة في عض الأصابع. من الذي سيقول آخ أولاً في ما يتعلق بنشر الصواريخ بيرشينغ في أوروبا؟ كان الروس يقولون، إذا نشرتموها، فسنصعد الموقف عندئذ ونسحب من جميع المفاوضات المتعلقة بالأسلحة. وكان الأميركيون يقولون، سنستمر، سننشرها. وفي هذه الأثناء، كان معظم الأوروبيين يقولون، انتظروا من فضلكم، نحن لا نريد تصعيد الموقف. أخيراً، كانت السيدة تاتشر تقول، سننشرها وليكن ما يكون! إزاء هذه الخلفية، لم يكن الوقت مناسباً للأميركيين كي يعرضوا على السوفيات طريقاً للخروج من أفغانستان. عندئذ استقرّ الرأي على أن تقوم المملكة العربية السعودية بالخطوة".

أسرّ الأمير لاحقاً أن الملك فهد كان دائماً ينظر في كل الخيارات لمعرفة كيف تعود بالمنفعة على المملكة. وتذكر أن استراتيجية الملك فهد كانت تقوم على التوجه إلى جميع العرب المتحالفين مع الاتحاد السوفياتي، وإيضاح أن المملكة العربية السعودية تحاول مساعدة السوفيات بالعمل على إقناع الأميركيين بإتاحة طريق لخروج السوفيات من الصراع. وكلّف الملك فهد الأمير بندر بالاجتماع إلى الرئيس السوفياتي؛ وتلك خطوة غير عادية لأن المملكة العربية السعودية لم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت.

قبل أن يجتمع بندر بغورباتشيف، اتصل بأناتولي دوبرينين^(*)، الذي كشف له أن بعض القادة السوفيات شككوا بالفعل في قدرة الاتحاد السوفياتي على كسب الحرب في أفغانستان. إلا أن دوبرينين لم يفصح عما إذا كان غورباتشيف واحداً منهم أم لا. ومع ذلك، شعر بندر في نهاية لقائهما باحتمال إقناع غورباتشيف بعقد صفقة ما. وعلى الأثر سافر بندر إلى موسكو. لكن، لم يتسن له لقاء غورباتشيف بمفرده، إذ كان مع الرئيس السوفياتي عدد من أعضاء المكتب السياسي المتشددين. وكان استقبالهم له فاتراً جداً. فقد وبّخه غورباتشيف على الفور، متهماً الملكة بالتدخل في شؤون أفغانستان الداخلية. حدّث بندر نفسه قائلاً: "يا لوقاحتة! إنه يحتل بلداً بجيشه ويظن أننا نحن من يتدخل!". وتابع غورباتشيف كلامه العنيف، موضحاً أن الأميركيين سيخذلون السعوديين، وأخذ يتحدث عن الوضع في اليمن الجنوبي وإثيوبيا، قائلاً إن الرياض تتبع سياسة غير حكيمة تجاه هذين البلدين.

لم يفسح الرئيس السوفياتي للأمير مجالاً ليقول كلمة واحدة. ومما زاد الأمر تعقيداً أن المترجم كان يتكلم العربية الجزائرية فقط، وبالكاد كان الأمير يفهم ما يقول. وعندما عرف بندر أن ليس لدى السوفيات مترجمون يتحدثون باللهجة السعودية، قاطع غورباتشيف وطلب مترجماً إلى الإنكليزية. وبعد تغيير المترجمين تابع غورباتشيف هجومه الكلامي.

وفي محاولة لأخذ بعض الاستراحة من الحملة المفاجئة، طلب بندر بتهديب أن يشرب. لكن الغضب أخذ يستبد به فيما واصل غورباتشيف هجومه. قال بندر: "إنه ذو شخصية عظيمة، مفعم بالحياة، ديناميكي، انفعالي، يشير بيديه كثيراً، وبعد برهة حان دوري". طلب بندر قهوة لأن إعدادها يتطلب وقتاً أطول. وأتاحت له هذه الوسيلة

(*) كان أناتولي دوبرينين سفير موسكو إلى الولايات المتحدة مدة 24 سنة، وهي مدة لا نظير لها، وبات قناة لمفاوضات سرية وراء الكواليس. وفي تشابه مذهل مع الأمير بندر، كان يتمتع بشخصية جذابة مكنته من امتلاك قدرة يُحسد عليها على الوصول إلى البيت الأبيض ووزارة الخارجية وشخصيات مرموقة في ستة عهود رئاسية أميركية. وكان دوبرينين مطلعاً على التفكير الأميركي على مستوى عال، لكن المدهش أن الكرملين أحجم مراراً عن إطلاعه على تطورات كبرى. على سبيل المثال، لم تُعلمه موسكو بخطتها المتعلقة بنصب صواريخ نووية في كوبا. كما أنه لم يُستشر مقدماً بشأن خطط الاتحاد السوفياتي لغزو تشيكوسلوفاكيا. وعلى الرغم من وجوده في موسكو عندما اتخذ قرار غزو أفغانستان، فإنه لم يُستشر. مع ذلك، كان موضع تقدير شديد في واشنطن، ويستأنس الرؤساء برأيه كلما لاحت أزمة.

فسحة كي يوضح لغورباتشيف أنهم لا يرون أن في مصلحتهم رؤية الاتحاد السوفياتي يحتل بلداً مسلماً. وشبه الأمر بما جرى للأميركيين في فيتنام، مشدداً على أن الاتحاد السوفياتي لا يستطيع أن يربح هذه الحرب لأنها حرب استنزاف وخسائر فادحة. بعد أن أبدى بندر وجهة نظره، أثنى دبلوماسياً على الاتحاد السوفياتي وقال إن على الاتحاد السوفياتي، كدولة عظمى، أن يحضّر على السلام في العالم، لا أن يشنّ حروباً. وأضاف أنه لو كان الرئيس مهتماً، لشعر أن ثمة إمكانية للتوصل إلى ترتيب يستطيع الاتحاد السوفياتي بمقتضاه أن ينسحب من أفغانستان من خلال حلّ مشرف. بيد أن غورباتشيف شدّد هجومه، قائلاً: "لا مصلحة لكم في أفغانستان وأنا أعرف كل ما تفعلونه هناك. إنكم تنفقون سنوياً 200 مليون دولار في أفغانستان". تدخل بندر، فقال: "مهلاً! من الخطير أن تكون لدى زعيم قوة عظمى معلومات خاطئة!". فأجاب غورباتشيف فوراً: "لا. يمكنني أن أثبت ذلك: لدينا الدليل". فردّ بندر: "اسمعي أرجوك، سيدي الرئيس، نحن لا ننفق 200 مليون دولار سنوياً؛ إننا ننفق 500 مليون دولار!". ثمّ أضاف: "ونحن مستعدون لإنفاق المزيد!". كانت تلك ورقة السعوديين الراجعة. فالقوات السوفياتية وقوات الحكومة الأفغانية لم تكن تتكبد في أفغانستان خسائر جسيمة فحسب، بل إن الجيش السوفياتي فقد فعلاً السيطرة على الريف أمام المجاهدين. كان الاتحاد السوفياتي يخسر الحرب، وكان احتمال أن تواجه قواته مقاومة أكثر قوة وأحسن تسليحاً بل وأوفر تمويلاً احتمالاً بغيضاً.



غورباتشيف وريغن.
"ثقة ولكن لنتأكد"

قال بندر: "أنتم تفقدون أرواحاً، ونحن نخسر أموالاً! لكن في إمكاننا دائماً طبع المزيد، وفي إمكاننا دائماً بيع المزيد من النفط". وأكد أن السعوديين والأميركيين لا يخسرون سوى الأموال، بينما يخسر الاتحاد السوفياتي العتاد والأرواح والهيبة. عندئذ قال غورباتشيف بهدوء: "أريد أن أكلمك على انفراد".

دخل بندر وغورباتشيف إلى مكتب الرئيس السوفياتي، حيث قال غورباتشيف بإذعان: "إذا لم

نتعرض لضغط أو إذلال أو استغلال، فسنگادر. يمكنك أن تبلغ الملك فهد أننا سنغادر أفغانستان بحلول مارس المقبل".

ذهل بندر. وعند التفكير في الأشياء بعد حدوثها، رأى أن النقد العنيف السابق كان للاستهلاك المحلي، ولإرضاء أعضاء المكتب السياسي، ومسؤولي الحزب الحاضرين. ففي اجتماعهما المنفرد في مكتب غورباتشيف كان هناك ثلاثة أشخاص فقط، بندر وغورباتشيف ودوبرينين. وكان المتشدّدون في الكرملين يعتقدون أنه إذا صمد السوفيات فترة أطول، فستراجع السعوديون بفعل التهديد الذي تشكّله البلدان المحيطة بهم والدائرة في الفلك السوفياتي. وكانوا يعتقدون أيضاً أن الأميركيين لا يستطيعون دعم الحرب في بلد مسلم من دون السعوديين والباكستانيين، وأن باكستان لن تواصل دورها في القتال إذا انسحب السعوديون. لكن غورباتشيف تراجع عندما أدرك رسالة بندر الصريحة أن السوفيات لا يمكنهم الانتصار. وانتهى الاجتماع بتوجيه غورباتشيف الشكر إلى الأمير على صراحته قائلاً: "لقد حصلت على اتفاق، فلنضع تفاصيله". ولم يبق إلا ترتيب الاتفاق الرسمي.

وعلى هامش حكاية اجتماعه بغورباتشيف، ذكر بندر: "من أطرف قصص تلك الحرب أن وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أيه) والاستخبارات السعودية أصبحتا أكبر مشتريتين للحمير في العالم". وأوضح وهو يضحك: "قمنا بشحن عدد كبير من الحمير. لماذا؟ لأنك لا تستطيع إرسال شاحنات ودبابات وطائرات إلى أفغانستان. لذا حصلنا على كل تلك الحمير التي حملت بالذخائر وأرسلناها عبر الجبال إلى أفغانستان. وكان في ذلك البلد الشاسع مئات الحمير التي تجوب كل مكان. وكنا سننذر بالقول إن الحمير تهزم دبابات T-72 والمروحيات السوفياتية. لقد كانت تلك طريقة فعّالة لإرسال الذخائر والأسلحة وأجهزة الاتصال إلى أماكن لا يستطيع أحد الوصول إليها".

روى بندر بعد التأمل في ما تلا لقاءه بغورباتشيف، كيف أن الرئيس السوفياتي استدعى بعد أسبوعين الرئيس الأفغاني، محمد نجيب الله، إلى الاتحاد السوفياتي؛ وقد اجتمع الاثنان في سمرقند. وأكدت معلومات الاستخبارات الأميركية لاحقاً أن غورباتشيف قال للرئيس الأفغاني: "سأعطيك ما تحتاج إليه للقتال، أمّا أنا فسأرحل بحلول مارس. فإذا كنت لا تستطيع الاعتناء بنفسك بعد ذلك، فهذه مشكلتك. بين

الآن ومارس، سأعطيك الأسلحة وكل ما تريد، لكنني سأرحل بعد ذلك". وقال بندر مستبشراً: "والباقي تاريخ".

* * *

بعد توّسط بندر لدى غورباتشيف في أوائل سنة 1988، استدعي مجدداً ليؤدي مهمة أخرى في موقع قريب من الوطن هذه المرة. ففي خريف 1980 غزا العراق إيران، مشعلاً حرباً امتدّت ثماني سنوات دامية وأزهقت أرواح أكثر من مليون إنسان. ساندت أميركا العراق انطلاقاً من أنّ النزاع يدور بين دولة علمانية حديثة، وإن قاسية (العراق)، ودولة إسلامية أصولية ومتشدّدة ومتقلبة، يديرها رجال الدين (إيران). وقدّم البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية لصدام حسين تقارير استخبارية وأرسلتا إلى العراق أسلحة بمليارات الدولارات. لكن إذا ربح العراق الحرب فسيزر صدام حسين كأقوى زعيم في الخليج، وذلك وضع غير مستساغ لدى الولايات المتحدة، كما اعترف لاحقاً أحد مسؤولي إدارة ريغن حين قال: "أردنا تحاشي انتصار كلا الجانبين"¹.

في سنة 1983، تراجع احتياطي العراق من العملات الأجنبية من 30 مليار دولار إلى 3 مليارات دولار، وسجلت تكاليف المعيشة ارتفاعاً حاداً، وانخفضت قيمة الدينار؛ وسرعان ما أصبح العراق يعتمد بشكل كامل تقريباً على القروض المقدّمة من المملكة العربية السعودية ودول الخليج.

أفيد أنّ القادة السعوديين حضّوا صدام حسين، في الفترة السابقة للحرب، على شنّها ضد نظام إيران الأصولي، ملمّحين إلى أنّ الرئيس كارتر أعطى "ضوءاً أخضر" للغزو، بعد أن أصابه إحباط نتيجة عجزه عن تأمين إطلاق سراح الأميركيين الاثني والخمسين الذين احتجزهم إيران. وأطلع كبار القادة العرب - بمن فيهم الملك فهد - وزير الخارجية ألكسندر هيغ، خلال رحلة له إلى الشرق الأوسط في أبريل 1981، على قرار الضوء الأخضر من كارتر؛ وزعم أنّ هيغ دوّن ملاحظة بهذا الشأن في تقرير نقاط المحادثات الذي أعده ليرفعه إلى الرئيس ريغن بعد اختتام رحلته². غير أنّ الملك فهد لم يشجّع صدام حسين على توجيه ضربة إلى النظام الأصولي الجديد، بل حذّره من شنّ أي هجوم.

وقد أوضح بندر أنّه قبل اندلاع الحرب، "تشاور الملك فهد مع صدام حسين مباشرة فأبلغه صدام أنّه يعترم تلقين الإيرانيين درساً. فقال له فهد، إذا كنت تريد

نصيحتي، ابتعد عن القتال، فإيران في حالة فوضى بعد الثورة، دعها وشأنها. الإيرانيون منهمكون في مقاتلة بعضهم بعضاً. دعهم. ولنر كيف سيستقر الأمر في النهاية، وعندئذ نتعامل مع من يخرج منتصراً. سينشغلون بمشكلاتهم إلى حد ما، وسيكثرون من الخطابات، لكنهم لن يزعمونا. غير أن صدام حسين أصرّ على القول إنه سيمضي حتى يصل إلى طهران، ويجذب الخميني من لحيته".

صاح بندر غاضباً: "تحدّث عن الغطرسة وأوهام العظمة. لذا قال الملك فهد لصدام، إذا لم أستطع إقناعك، فبالله عليك أن تترك الأمور عند المناوشات الحدودية؛ ولا تدخل الأراضي الإيرانية تحت أي ظرف من الظروف. إنهم الآن في حالة فوضى؛ جيشهم في فوضى، وسياستهم في فوضى. لكن إذا دخلت أرضهم، فإنك ستوحّد الإيرانيين، وستقاتل بلداً لديه ستون مليون نسمة، ومقدّرات وفيرة وقدرة على تحمل حرب استنزاف طويلة؛ وذلك ليس في مصلحتك ولا في مصلحتنا".

تابع بندر إيجاز ما دار إجمالاً بين فهد وصدام حسين، "لا حاجة إلى القول إن صدام أبلغ الملك فهد بعد مرور ثلاث سنوات، ليتني سمعتُ نصيحتك، لأنني أريد فضّ الاشتباك. وكان الملك قد أبلغه في اللقاء الأول، يا صدام، الذهاب إلى الحرب قرار يعود إليك، لكنّ فضّ الاشتباك ليس قرارك: لا بد أن يوافق الطرف الآخر. لذا، أجل، يمكنك المضي وفقاً لقرارك، لكن حين ترى أنك اكتفيت وتريد التوقف، لا يمكنك أن

تضمن موافقة الطرف الآخر. ربما يقرّر ذلك الطرف مواصلة القتال، وبذلك ستصبح رهينة قراره بالتوقف أو عدم التوقف".

ولاحظ بندر، "وهكذا انتهى الأمر هم إلى حرب استمرت ثماني سنوات تقريباً. وخلال السنتين الأخيرتين، كانت الكفّة تميل إلى صالح الإيرانيين. ومع أن العراقيين كانوا يحتلون مساحات واسعة من إيران، فقد أخرجوا منها وأخذت الخسائر تتصاعد. دُمّرت البنية التحتية،



صدام حسين

وأهدرت المقدّرات الوطنية، وارتفعت الخسائر البشرية على نحو غير عادي، بين قتلى وجرحى. لقد انهارت أمام أنظارنا كل البنى التحتية التي أقامتها إيران والعراق خلال السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية". وشدد بندر: "إذا لم نفهم هذا الأمر فلن نفهم لماذا طلب الملك فهد في سنة 1990 العون من العالم لتفادي حرب تدمّر كل ما بنينا في بلدنا؛ البنية التحتية، والمدارس، والمستشفيات، والموانئ، والمطارات. من أجل ماذا؟ لتمضية ثماني سنوات من الحرب وينتهي الأمر إلى تعادل".

قال بندر إن فهم موقف المملكة العربية السعودية خلال الحرب الإيرانية العراقية وأسبابه الجذرية شرط أساسي لأي تقدير لسياسة المملكة الخارجية وطموحاتها الاستراتيجية. ورأى أن الحرب وقعت عندما كان الشرق الأوسط يشهد تغيّرات هائلة بدءاً بسقوط شاه إيران، والثورة التي تولّى فيها آية الله الخميني السلطة. واعتبر بندر أن الأمر ينطوي على مفارقة، لأن الشاه لم يكن صديقاً للسعوديين، بل كان عدائياً.

وشرح بندر ذلك: "في تلك الآونة، كان الأميركيون يسلّحون [الشاه] إلى أبعد حدّ، واعتقدوا ظناً منهم أنه سيكون عامل استقرار في منطقة غير مستقرّة. لكنه أخذ يبدي طموحات إقليمية. ففي أوئل السبعينيات زعم أن البحرين إيرانية، وذلك من المحرّمات بالنسبة إلينا!".

نتيجة لذلك، قال بندر: "كانت علاقتنا معه دائماً حسب الأصول، لكن كانت بيننا شكوك متبادلة". وفي ملاحظة شبيهة بموقف العائلة المالكة السعودية اليوم، أشار إلى أن "الشاه قاد ثورة علمانية إلى حدّ بعيد وكان ذلك واحداً من أكبر أخطائه لأنه نسي أنه ملك على إيران المسلمة، لا ملك على فرنسا أو السويد. ومع أنّ التحديث وإضفاء الليبرالية ظاهرتان صحيّتان وطيّتان، فإنّه مضى بهما إلى أبعد الحدود؛ مثلما مضى الخميني بالثورة إلى طريق إسلامية متطرّفة". وقد أثارت اندفاع الشاه نحو العلمانية قلقاً شديداً لدى المملكة العربية السعودية، كما قال بندر، ملاحظاً أنّ هناك فارقاً بين منح المرأة حقّ اختيار تغطية وجهها أو عدم تغطيته، ومنعها بقوة القانون من تغطية وجهها. وهكذا أثار الشاه، من دون داع، عدا الفلاحين، والعمال، والفئات الأدنى ثقافة من الشعب، ومنح رجال الدين سلاحاً لمحاربه ونيل تأييد عامة الناس".

لاحظ بندر أن من المنطقي الافتراض من الناحية النظرية أن حدوث ثورة إسلامية في الجوار يجب أن يقرب المملكة العربية السعودية من إيران لأن المملكة بلد إسلامي محافظ. وقال: "هنا صحّ القول المأثور عدو حكيم خير من صديق أحمق. فبدلاً من أن يمد المنتصرون في الثورة الإيرانية يد الصداقة إلى جيرانهم ويكسبوا اعترافهم وتأييدهم فيما يتعاملون مع التغيرات العميقة في بلدهم، أعلن الخميني أن العراق وكل بلدان الخليج - ومنها المملكة العربية السعودية - أعداء، لأنها تنتهك المقدسات وكافرة. وظن أن رياح الثورة ستكتسح العراق وتهب جنوباً وصولاً إلى الخليج". وأوضح بندر أن نزعة الخميني القتالية أرغمت بلدان الخليج على اتخاذ موقف ضد إيران، واعتبار أنها تشكل تهديداً حقيقياً. وقال: "أعتقد لو أن الخميني لم يهدد بتصدير الثورة إلى بلدان الخليج، ولم يتخذ موقفاً معادياً للمملكة العربية السعودية وبلدان الخليج في عظاته وخطبه، لما دعمت المملكة ودول الخليج العراق في أثناء الحرب الإيرانية العراقية".

وأضاف بندر: "ما لم يفهم الناس هذه الحقيقة، فإنهم لن يفهموا سبب إنفاق المملكة العربية السعودية 25 مليار دولار لدعم صدام حسين والعراق. كان من مصلحتنا وقف إيران عند الحدود العراقية بدلاً من محاربتها على حدودنا. ولم يكن ذلك خياراً لنا، بل أرغمونا عليه". وفي ملاحظة عن أخطار حكم الفرد، أضاف بندر: "مرة أخرى، كان ذلك خطأ في الحساب، حيث يتخذ الأفراد قرارات انفعالية بدلاً من التفكير عبر مؤسسات واتباع الحكمة".

ولاحظ بندر، متذكراً وجهات النظر المختلفة التي راقب منها الأحداث المتكشّفة في الخليج، أنه كان في سلاح الجو لدى قيام الثورة، وأنه شارك لأكثر من عام في الدفاع عن المنطقة الشرقية من المملكة. وكطيار حربي، انتدب للعمل هناك كتدبير طارئ؛ تحسباً لتحوّل الأمور إلى الأسوأ. وقال: "أذكر عند اندلاع الحرب بين إيران والعراق، أعلنّا حالة التأهب القصوى في قاعدتي في المملكة. اعتقدنا لمدة أسبوع أو نحو ذلك أن الأمر لا يعدو كونه صدامات حدودية، لكن مرّ خمسة وخمسون يوماً من دون أن أغادر القاعدة، وبقي السرب في حالة تأهب. وكان ذلك عندما أدركنا أن الحرب ستكون طويلة". وتابع: "أذكر أننا عملنا مع العراقيين لإعطائهم معلومات لوكسس، إذ كانوا ينوون ضرب أهداف في الجزء الجنوبي من إيران. وأذكر أن

طائراتهم حطت في المملكة لإعادة التزوّد بالوقود والعودة إلى الديار. لم تكن لديهم القدرة على إعادة التزوّد بالوقود، ولم تكن الطائرات بعيدة المدى".

وأضاف بندر متأملاً: "بطبيعة الحال، بعد مرور سنتين على تلك الحرب، ومن موقعي المطل عسكرياً في سلاح الجو، ذهبت إلى واشنطن، لأجل صفقة طائرات أو أكس أولاً، ومن ثم لأصبح ملحقاً عسكرياً هناك. ثم أصبحت سفيراً وتعيّن عليّ التعامل مع الحرب الإيرانية العراقية التي تعرّضت لها في البداية كرجل عسكري. وهكذا كان دوري من سنة 1982 حتى مطلع سنة 1988 متابعاً "كيف يمكننا دعم العراق وضمن الدعم الأميركي والغربي له ومواصلته بحيث نستطيع التغلب على إيران". ولاحظ بندر: "في سنة 1987، كان ثمة ما سُمي حرب ناقلات النفط، حين بدأ الإيرانيون يهدّدون سلامة مرور النفط عبر مضيق هرمز. وتوصلنا إلى فكرة تبديل أعلام الناقلات بحيث تُرفع الأعلام الأميركية عليها، الأمر الذي أعطى أميركا السند القانوني لحمايتها في أثناء دخولها الخليج وخروجها منه. لقد كانت فكرة أميركية سعودية مشتركة".

تابع بندر بطريقة تهكمية: "أعتقد أن ذلك يسلط الضوء بوضوح على أكذوبة ابن لادن أو القاعدة أو المتطرفين الذين يزعمون أنهم كانوا هناك لأن المملكة العربية السعودية أحضرت الأميركيين والنفوذ الغربي. والحق يقال إنه لم يكن ثمة وجود عسكري أميركي قبل ذلك. غير أن الإيرانيين بمهاجمتهم المياه الدولية وشريان النفط الدولي أجبروا الآخرين على الدفاع عن مصالحهم. الإيرانيون هم سبب الوجود الدولي والأساطيل البحرية الدولية في الخليج. واتفق أننا استفدنا من هذا الوجود لا أكثر. فالعالم بحاجة إلى ذلك النفط، وكان عازماً على الحصول عليه، وبخاصة إذا كان المصدر أي المملكة العربية السعودية، يريد بيعه".

وأكد بندر، مكرراً السبب الأساسي لتعاظم الوجود العسكري البحري الغربي في الخليج: "لا يمكنك مناقشة الأمر الآن ونسيان كيف بدأ بأكمله. المملكة العربية السعودية لم تأت بهم على الرغم من أننا حلفاؤهم. لقد جاء الأميركيون بسبب التهديد الإيراني". وأضاف بسرعة: "حدث الأمر نفسه بالنسبة إلى القوات البرية حين غزا صدام حسين الكويت. فلو لم يفعل صدام حسين ذلك لما جاء نصف مليون أميركي إلى المملكة العربية السعودية لمحاربتة".

هزّ بندر رأسه وقال: "هذه الدعاية، هذه المغالطة، أنّ الاضطرابات التي نشهدها الآن، وأنّ السعوديين هم الذين أتوا بأولئك الناس، وكانت النتيجة الإرهاب وزعزعة الاستقرار، ذلك كله غير صحيح. بل إنّ سياسات الآخرين الفاشلة هي التي فرضت هذا الوضع".

قليلة هي النزاعات الحديثة الطويلة والدموية وعديمة الجدوى. فقد خلقت الحرب الإيرانية العراقية إرثاً حافلاً بالمعاناة. كان القتال مكلفاً جداً - نحو 1.2 تريليون دولار - وكارثياً على إيران والعراق على حدّ سواء، إذ أوقف النمو الاقتصادي وأوقع الصادرات النفطية في فوضى. ويقدر أن مليون شخص قُتلوا وجرح نحو 1.7 مليون شخص آخرين. خرج العراق مثقلاً بديون هائلة لمن ساندته من العرب سابقاً، بما فيها 14 مليار دولار أقرضتها الكويت، وهذا الدين كان سبباً تذرّع به صدام ليقرر غزو الكويت سنة 1990. وتضرّر جزء كبير من صناعة النفط في كلا البلدين نتيجة الغارات الجوية، ومع ذلك تركت الحرب الحدود من دون تغيير.

ضربت أهوال الحرب سكان كلا البلدين. فلحقت خسائر فادحة بالمدنيين على جانبي الحدود نتيجة استخدام العراق أسلحة كيميائية، وقرار الخميني إرسال آلاف الشبان الإيرانيين إلى الموت في هجمات "الموجات البشرية"، التي زُعم أنها ضمت أطفالاً استخدموا لتطهير حقول الألغام، والاستخدام العشوائي للصواريخ في حرب المدن.

يمكن إرجاع سبب هذا الصراع إلى نزاع حدودي في منتصف السبعينيات. ففي سنة 1974، قدمت إيران أسلحة إلى قوميين أكراد في شمال العراق، ما مكّنهم من التمرد على الحكومة العراقية. ولوقف التمرد، توصل العراق في سنة 1975 إلى تسوية مع إيران بشأن الحدود عند مصب شط العرب، وهو الممر المائي الذي يشكل الحدود بين البلدين، فانقلت ملكيته إلى إيران. وفي المقابل، أوقفت إيران تزويد الأكراد بالسلاح. لكن العراق فقد بذلك منفذه إلى الخليج. وفي سنة 1980، غزا صدام حسين إيران، آملاً في عكس تسوية الحدود، وآملاً أيضاً في كبح الدعاية الدينية التي توجّهها الحكومة الإسلامية في إيران ضد النظام العراقي العلماني.

اعتقد صدام حسين أن الثورة أضعفت قوة إيران العسكرية كثيراً، فتوقع الانتصار بسهولة. بيد أن انتصارات العراق العسكرية الأولية لم تدم طويلاً، وبحلول 1982،

كانت القوات العراقية قد دُحرت من معظم الأراضي الإيرانية. فقد أخطأ صدام في تقدير عزيمة الإيرانيين وقدراتهم العسكرية. وبين سنتي 1982 و1987 تصاعد القتال، وبطريقة غير مباشرة جرّت الهجمات على حركة الملاحة البحرية في الخليج دولاً أخرى، ومنها الولايات المتحدة، إلى النزاع.

جرى إسكات محاولات الأمم المتحدة لتقصير أمد الحرب الإيرانية العراقية بصورة مثيرة للدهشة. فعندما هاجم العراق إيران في 22 سبتمبر 1980، انتظر مجلس الأمن الدولي أربعة أيام قبل أن يعقد اجتماعاً. وبعد يومين، أصدر القرار 479، الذي دعا إلى وضع حد للقتال، لكن إيران رفضته بسبب تحيّزه.

وفي سنة 1984، قبل العراق وإيران تجميداً مؤقتاً لقصف الأهداف المدنية رعته الأمم المتحدة. لكن القتال استمر.

وفي سنة 1985، أصدر مجلس الأمن "بياناً" هادئاً أدان فيه استخدام الأسلحة الكيميائية، غير أن المجلس لم يشجب العراق صراحة بهذا الشأن إلا في مارس 1986، أي بعد مرور سنتين كاملتين على تأكيد فريق تابع للأمم المتحدة أن العراق استخدم أسلحة كيميائية³.

وفقاً لبندر، في سنة 1987 كان العراقيون يبحثون عن مخرج، لكنهم لم يتمكّنوا من فضّ الاشتباك. وعندما تجاوز الإيرانيون خسائرهم الأولى، استطاعوا ردّ العراقيين على أعقابهم، وبدأوا بالتوغّل في الأراضي العراقية. وأوضح بندر أن السعوديين كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أن لا مصلحة للإيرانيين بإنهاء الصراع.

ذات يوم في أواخر سنة 1987، تلقى بندر اتصالاً من الملك فهد، أبلغه فيه أن صدام حسين اتصل به شخصياً. وأنه سأله إذا كان يمكن الطلب من بندر تكريس وقته لدعم وفد عراقي برئاسة وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، الذي كان في ذلك الوقت في نيويورك يحاول عقد صفقة لوقف إطلاق النار. وافق بندر واتصل بعزيز، الذي أوضح أنه يواجه مشقة في الحصول على دعم حقيقي من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الدولي. وتبيّن أنّه بحاجة إلى دعم الولايات المتحدة وبريطانيا، لأن الصين وروسيا تقفان في مكان ما في الوسط، وفرنسا تدعم العراق بالفعل.

في ذلك الوقت، أخذ الأميركيون والبريطانيون يضيّقون ذرعاً بأفعال صدام؛ فقد ضُبط متلبساً في محاولة صنع مدفع عملاق^(*)، وقام باعتقال غربيين في العراق، بمن فيهم ممرضة بريطانية، وأعدم مواطناً بريطانياً من أصل إيراني. واكتشفوا لاحقاً أن العراق كان يحاول شراء آليات قذح نووية. واتضح أيضاً معلومات عن استخدامه الأسلحة الكيميائية في حلبجة.

اعترف بندر بشعوره الشخصي بالذنب بسبب قيام صدام بقتل المدنيين الأكراد بالغازات السامة في حلبجة. وقال: "لقد أخطأنا على المستوى الخُلقي". وشدد على أنه كان يشير إلى الأميركيين والبريطانيين والعالم الغربي والعالم العربي، بما في ذلك المملكة العربية السعودية. وأوضح أن الإيرانيين كانوا في ذلك في ذروة هجومهم. فقد اقتربوا من البصرة، والاستيلاء على البصرة يعني الاقتراب من الكويت ومن الحدود السعودية. "أثار ذلك الواقع مخاوفنا بحيث اخترنا ألا نرى ما يحدث، لا لأننا لم نكن نعرف. ولا يزال ذلك الاختيار يؤلمني".

تابع بندر القول: "لقد برّرنا الأمر أن صدام رجل سيئ، لكن الخميني أسوأ. لذا كان علينا الاختيار بين سيئ وأسوأ. نعم، ارتكب صدام أفعالاً منكراً. لكننا ننظر إلى أشخاص يتوقّع أن يأتوا أفعالاً أنكر. لذا كان علينا التعامل مع الإيرانيين أولاً وبعد ذلك نتعامل مع صدام". لكنه أقرّ بالقول: "في تلك الفترة، اعتقد أننا جميعاً أثّرنا الشبهات حيال مواقفنا ومعتقداتنا الأخلاقية".

"أذكر يوم قمتُ ومسؤولون كبار في الحكومة الأميركية باستخدام المبرّر نفسه للضغط على أعضاء في الكونغرس الأميركي كيلا يفرضوا عقوبات على العراق بسبب

(*) في بدايات الحرب مع إيران، اجتذبت الحكومة العراقية خبير المدفعية جيرالد بول، الذي كان ذا شهرة عالمية ومهوساً ببناء مدفع هاوتزر ضخّم - مدفع عملاق - قادر على إطلاق أقمار اصطناعية إلى الفضاء أو إطلاق قذائف مدفعية مسافة آلاف الأميال في عمق أراضي العدو. ومن منتصف سنة 1981 حتى اغتياله في 22 مارس 1990، قاد مشروع بابل، الذي يهدف إلى تطوير مدفع هائل ذي سبطانات مصنوعة من عدة أقسام. بلغ طول المدفع 512 قدماً وكان في إمكانه إطلاق مقذوف زنته 600 كلف برأس حربي تقليدي أو كيميائي أو بيولوجي أو نووي، مسافة 1000 كلم، أو مقذوف معزّز بصاروخ زنته 2000 كلف إلى مدار حول الأرض. وقد اشترى العراق لمدفع بول العملاق مكونات من شركة آلات في المملكة المتحدة تدعى ماتريكس تشرشل. غير أن الجمارك البريطانية صادرت الأقسام الثمانية الأخيرة من المدفع العملاق في نوفمبر 1990.

ذلك [الهجمات الكيميائية]. ويجب أن أقول إن قلة في الكونغرس كانت منزعجة من ذلك ومصرة على فرض العقوبات. لكن عليّ أن أقول أيضاً إن مقولة الأمن القومي سادت مجدداً - في السراء والضراء - ووافقت الأكثرية. أجل. ما يحدث سيئ حقاً، لكن ما قد يحدث أسوأ. وهكذا أرى أن الجميع مذنبون. وأنا لست فخوراً بكوني جزءاً من ذلك الجهد لكننا كلنا نزداد حكمة بعد وقوع الحدث".

تمكّن بندر في ما بعد من التكفير عن هذه الشائبة التي شابت ضميره من خلال عمله كوسيط. يلاحظ بندر متذكراً مساعيه: "وجد صدام حسين والعراق فجأةً أنهما فقدوا نفوذهما لدى أعضاء الأمم المتحدة الدائمين. وفي هذه الأثناء، كان الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويار يحاول التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار. وفي ذلك الوقت، بدأ التعب ينال من الإيرانيين. لكنهم لم يكونوا متعبين بالقدر الكافي للتوقف من تلقاء أنفسهم. لكن إذا كان هناك مخرج ينقذ ماء وجههم، فسيقبلون به". غير أن سلوك صدام لم يكن مسعفاً. فقد تابع في الدعاية العراقية التصرف كأنه المنتصر، ما عقد كثيراً مهمة الذين يحاولون التوصل إلى تسوية. ولاحظ الأمير بسخرية مريرة: "أحبط ذلك أيضاً القوى الغربية التي كانت تقول، مهلاً - نحن نعرف الحقائق! نحن نعرف أنك تخسر، إذاً لماذا تخاطبنا كأنتك قوة عظمى. عند ذلك توقفت الاتصالات وجمّدت المفاوضات. وعندئذ تلقيت من الملك فهد تعليمات - بطلب من صدام - كي أشارك".

سأل الأمير بندر طارق عزيز مباشرة: "ما الأهم بالنسبة إليك؟".

أجاب عزيز: "أن أجتمع بالأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن".

"لا مشكلة في ذلك". ردّ بندر: "أهذا كل ما تريده؟ إذاً مهمتي يسيرة".

"أجل". قال وزير الخارجية العراقي. "لكنني دعوتهم للاجتماع بي في السفارة

العراقية فرفضوا".

"لم يثير ذلك دهشتك يا طارق؟ تأتي إلى نيويورك وأنت من يحتاج إلى المساعدة

وتقول لهم وافوني في سفارتي؟ من تحسب نفسك؟".

عندئذ، ضحك الاثنان كما قال بندر. ووجد بندر الفرصة سانحة فألح على عزيز

بالقول: "دعنا نذهب ونلتقيهم في مكتب الأمين العام للأمم المتحدة".

رفض عزيز مجدداً بصورة تدعو إلى الاستغراب، قائلاً: "لا، لا بد أن يكون اللقاء

هنا [في السفارة العراقية]، هذا ما أريده منك".

أجاب بندر على الفور: "إذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تريده مني وهذا هو موقفك النهائي، فأني أفضل العودة إلى واشنطن لأن ما تريده لن يتحقق. اسمع، سأدعوهم إلى فندقي ويمكنك أن تأتي، وعندئذ نعقد الاجتماع. فإذا كان مرادك الاجتماع، فما هم كيف يكون وأين يكون؟".

عندئذ فقط وافق طارق عزيز على مضمض.

بعد افتراقه عن الوزير العراقي، اتصل بندر بالبيت الأبيض وتنازع ستريت وطلب منهما المساعدة بشكل غير مباشر. "لم أطلب منهما الاجتماع بطارق عزيز، بل بي فقط". كان للسفير السعودي إلى الأمم المتحدة جناح خاص به، في فندق والدورف أستوريا، على غرار الممثل الأميركي الدائم في الأمم المتحدة. وقد خطط بندر لعقد الاجتماع في جناح السفير السعودي. وطلب من ممثل المملكة في الأمم المتحدة دعوة الممثل الصيني والفرنسي والروسي إلى اجتماع. وافق الجميع على الحضور. ووصل السفراء الخمسة كافة في وقت واحد، وكانوا يتناولون الشاي الإنكليزي والبسكويت عندما حضر وزير الخارجية العراقي. ابتسم الأمير وهو يعلن: "ها نحن لدينا الآن لقاء بين الأعضاء الخمسة الدائمين وطارق عزيز".

ذكر بندر ذلك الاجتماع بغضب قائلاً: "تبين أن كل ما يريده طارق عزيز هو أن يقول لصدام حسين، جعلت الأعضاء الخمسة الدائمين يلتقون بي، لأنه لم يتزحزح في الاجتماع قيد أنملة. بل أملى موقفاً متشددًا". قوَّض طارق عزيز أي فرصة للاتفاق، وبعد الاجتماع، بدأ بندر العمل بشكل مباشر مع الأمين العام للأمم المتحدة. أوضح بندر شارحاً دوره: "لم يكن لي اتصال مباشر مع الإيرانيين بطبيعة الحال. كنت أستعين بـدي كويار للتحدث إلى الإيرانيين، وكنت أتحدث مع العراقيين". وأضاف: "عندما تُصاب الأمم المتحدة بالإحباط مع العراقيين، كنت أتولى وأتحدث باسمهم للحصول على صفقة أو تسوية. ومضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع بين أخذ ورد، ثم انهارت المفاوضات لأن كلا الجانبين لم يتوقفاً عن المساومة؛ أو ظن كل منهما أن في وسعه الانتظار حتى يتراجع الطرف الآخر".

في عرض تفصيلي كاشف عن طريقة عمل الأمم المتحدة، شرح بندر: "على المرء أن يفهم أن ثقافة الأمم المتحدة تقلص الخطوط الوطنية الفاصلة بين الوفود. فهم يعيشون ويعملون ويأكلون في مبنى واحد. وبعد فترة من الوقت يصبح هناك تآلف

حتى بين ممثلي الدول المتعادية. لذا ليست هناك أسرار يمكنك الاحتفاظ بها في ما يتعلق بالتكتيكات. وقد بدأ الإيرانيون يشتبهون أن مواقف الأمير كيين والبريطانيين والفرنسيين تزداد تشدداً حيال صدام حسين ويتساءلون، لِمَ نسلم الآن؟ ولذلك اتخذوا موقفاً أصلب. وعندما اُهارت المحادثات، تمّ ذلك بصورة رمزية: قال طارق عزيز، إني مشغول جداً ولا يسعني البقاء في نيويورك، لذا سأعود إلى بلادي. إذا كنتم تريدون الاجتماع، فليكن في الشرق الأوسط وسنلتقي هناك. وقال الإيرانيون، حسناً، ليكن في طهران. لذا، انفضّ الاجتماع".

بعد محاولات متكررة للتفاوض، وفي مناورة أخذ ورد مطولة، رأى دي كويار وبندر أن الطريقة الفضلى لتحقيق تقدّم هي عقد محادثات في جنيف. وتمّ ذلك بهدوء، ومن دون أي إعلان، لكي تتسنى لهم أيام قليلة بعيداً عن تطلّع الإعلام. مكث بندر في منزل أبيه في جنيف، وجرت الاجتماعات بين دي كويار، وطارق عزيز، وبندر في السفارة العراقية في جنيف. وبدأوا يبطء ينظمون معاً اتفاقاً لوقف إطلاق النار.

قال بندر: "أنجزنا نحو 98 بالمئة لكن دي كويار أخذ يعبر عن إحباطه؛ فقد تألم من تعجرف العراقيين، واصفاً تباهيهم وفضاظتهم وإلى ما هنالك". خشي بندر احتمال انسحاب دي كويار من المشاركة في المباحثات، فحرص على تهدئته. ويقول الأمير: "إنصافاً للرجل - وكان مقتدراً وحكيماً جداً - قال لن أنسحب. سأتابع الأمر. ومع ذلك ردّدت على مسامع العراقيين، قد ينسحب فعلاً". واعترف بندر بقوله: "ردّدت تلك العبارة لحمل العراقيين على المتابعة".

على الرغم من سوء سلوك العراقيين وتهديداتهم الجوفاء، فقد تمكنا أخيراً من صياغة مسودة لاتفاق وقف إطلاق نار يستطيع كلا الوفدين نقلها إلى بلديهما. وبعد أسبوع أو عشرة أيام التقوا جميعاً في نيويورك. وصل عزيز حاملاً موافقة صدام حسين على الانطلاق بالمسودة، كما هي. إلا أن الإيرانيين وافقوا على المضي قدماً بالمسودة بعد إجراء تغييرات؛ تعديلات طفيفة لا تغير معنى الاتفاق أو تفرّعاته القانونية. أوضح بندر أن التغييرات الطفيفة جعلت الاتفاق "أكثر استساغة عند الإيرانيين. وأجمع أعضاء الأمم المتحدة الخمسة الدائمين على أن لا مشكلة في ذلك".

وافق خافيير بيريز دي كويار وأعضاء مجلس الأمن الخمسة الدائمون، لكن رفض طارق عزيز. وبالنسبة إلى بندر، كان من غير المعقول أن يضرب العراقيون كل شيء



وزير الخارجية العراقية طارق عزيز

عرض الحائط ويواصلوا الحرب، بعد كل هذا الجهود المحموم والمثبط. ومع ذلك، كان وقف إطلاق النار في مازق خطير؛ وعزيز يرفض إدخال أي تغيير على نص الاتفاق. لذا ذهب بندر لمقابلته. "لا يعني لا!". أجاب الوزير العراقي بجزم. "لن أقبل التغيير". استشاط بندر غضباً وتجاهله، قائلاً: "حسناً، لا يمكنني أن أفعل شيئاً. سأرحل. واصلوا الحرب وسوّوا أموركم بأنفسكم". ثم استدار ورحل.

تبعه عزيز حتى أدركه وهمس في أذنه: "هل يمكنني أن أراك وحدك في الفندق؟".

ردّ بندر عليه بالإيجاب، لكنه أقرّ أن الأمر لم يعد يعنيه.

شعر السفير السعودي إلى الأمم المتحدة، الذي كان مع بندر في ذلك الوقت، بالإحباط أيضاً وقال له: "إنها غلطتك!".

سأل بندر: "لماذا؟".

قال السفير: "لأنك أقنعت العراقيين أن السفراء الممثلين للدول الكبرى جاؤوا للقاء عزيز بفضله أو بفضله بلده. إنه لا يعرف أنهم أتوا لأننا نحن الذين جعلناهم يأتون، وها هو الآن يظن أن في وسعه أن يملي عليهم ما يشاء. ولذا، أنت الذي أوحيت له بذلك".

سلمّ بندر بالأمر قائلاً: "لعلك على صواب، لكنني أعتقد أن ثمة شيئاً آخر، لنتنظر ونرّ".

عاد بندر إلى الفندق، وتبعه عزيز بعد وقت قصير. طلب عزيز من بندر رفع صوت التلفاز ثم همس له: "لم أستطع أن أقول لك شيئاً في سفارتنا لأن هناك من يراقب كل شيء ويسجله. إتني أوافقك الرأي. هذا اتفاق جيد. ولكن سبب عدم قدرتي على تغييره هو أن صدام وافق عليه، ولا يمكنني أن أغيره حتى يوافق صدام".

أجاب بندر: "ما المشكلة يا طارق؟ اتصل به وأبلغه أن هذا ما توصي به؛ فأنت

في النهاية نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية".

انتفض عزيز فزعاً وقال: "أنت مجنون؟ لا يهمني حتى لو استمرت الحرب عشر سنوات. لا أريد أن أفقد حياتي. إغضاب صدام يعني الموت!".
 "حسناً". قال بندر: "سأتصل بالملك فهد، وأطلب من جلالته الاتصال بصدام بشأن التغييرات".

"بشرط واحد". أجاب عزيز: "لا تخبره أننا تحدثنا".
 وافق بندر وقال: "حسناً، أعطني رقم هاتف صدام".
 لكن عزيز رفض مجدداً، إذ خشي أن يسأل صدام كيف حصل بندر على الرقم. وهكذا اتصل بندر بالملك فهد وأطلعته على الموقف؛ فطلب الملك من الأمير الاتصال بصدام بنفسه.

قال بندر لعزيز: "طلب مني الملك الاتصال برئيسك، وسأتصل به الآن. لكنني لست سوى سفير وأنت وزير خارجية. لم لا تتصل أنت به؟".
 ردّ عزيز عليه بجدة: "لا عليك، اتصل به أرجوك".
 وهكذا اتصل بندر بصدام.

يذكر بندر أنه حين تكلم إلى صدام: "أجاب بطريقته المتغطسة الفصيحة، مرحباً يا أبا خالد. بدلاً من مناداتي باسمي، ناداني باسم ابني". وتبادلا بعض عبارات المجاملة ثم قال بندر: "لقد أهينا عملنا تقريباً، لكن لدي شكوى. لقد توقّفنا عند كلمتين لا بد من تغييرهما ووزير خارجيتك غير موافق".

وشرح الأمير: "كان طارق عزيز يصغي إليّ. فأشرق وجهه. كان سعيداً للغاية لأنني أخبرت صدام أنه لم يوافق".
 وذكر الأمير كيف قهقهه بعجرفة وقال: "أجل، طارق عزيز رجل طيب؛ صعب المراس أحياناً، لكنّه رجل طيب".

قال بندر: "إنني بحاجة حقاً إلى دعمكم، يا فخامة الرئيس. هل لكم أن توعزوا إليه بالموافقة بحيث نستطيع إبرام الاتفاق؟".

أجاب صدام: "يا بندر، أنت لا تمثل المملكة العربية السعودية فقط؛ أنت تمثل العراق والمملكة العربية السعودية. وأي شيء توافق عليه، أقبل به".
 رد بندر: "هذا شيء رائع، لكن رجلك يبدو عنيداً جداً".
 أجاب صدام: "سنبعث برسالة إليه".

أسرّ بندر بالقول: "طبعاً، لم أقل له إن طارق كان يصغي إلى المحادثة. وضعت سماعة الهاتف وقلت في نفسي، لو لم تكن هذه مسألة حياة أو موت لكانت عرضاً هزلياً".

وختم بندر: "في اليوم التالي توصلنا إلى اتفاق وقّعه المعنيون، وما تبقى تاريخ".

الخليج ينفجر

"تذكر، يا جورج، هذا ليس وقتاً للتردد" (*).

مارغريت تاتشر

3 أغسطس 1990

في 2 أغسطس 1990، فيما كان الرئيس صدام حسين يشاهد قواته تحتاج الكويت، تساءل العالم المذهول عما إذا كانت المملكة العربية السعودية وحقول نفطها المهمة سيكونان الهدفين التاليين¹. وفي 3 أغسطس، استدعى البيت الأبيض الأمير بندر، بعد عودته من لندن، ليطلعه مستشار الأمن القومي الأميركي، الجنرال برنت سكوكروفت، على التهديد العراقي. وخلال ذلك اللقاء، عرض الرئيس بوش على سعوديين دعمًا عسكرياً فورياً وقدم ضمانته الشخصية أن تتابع الولايات المتحدة الأمر حتى النهاية إذا أرسلت قوات أميركية إلى المملكة².

خلال حشد القوات استعداداً لحرب الخليج الأولى، تميّز عمل بندر بأهمية استراتيجية حيوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة وعزز دوره الفريد، الذي كان، باعتراف برنت سكوكروفت نفسه، أكثر من دور أي دبلوماسي بكثير. "كان بندر وسيطاً بارعاً للملك فهد، برتبة تعادل مرتبة وزير في الحكومة السعودية. وكان الملك مستشيريه باستمرار. ولهذا الأسباب كنا نعرف أنه قناة مميّزة بين الولايات المتحدة

(*) أثنى الرئيس بوش على شجاعة مارغريت تاتشر وعلى المساعدة التي قدمتها في تشكيل ائتلاف كبير ضد العدوان الوحشي على الخليج. وتذكر محادثة هاتفية مميّزة مع رئيسة الوزراء في الأيام الأولى من أزمة الخليج. وقد اتصل الرئيس بها ليقول: "على الرغم من أننا عازمون على اعتراض حركة السفن العراقية، فإننا سنسمح لسفينة واحدة متجهة إلى عُمان بالرسو في اليمن، دعياً تدخل من دون عائق". استمعت تاتشر، لشرحها ووافقت على القرار، لكنها أضافت كلمات التحذير التالية، كلمات اهدت بها طوال أزمة الخليج، ولن أنساها ما حبيت. تذكر يا جورج، قالت، هذا ليس وقتاً للتردد". نقلاً عن خطاب للرئيس بوش خلال تقديم ميدالية الحرية الرئاسية، إلى الليدي مارغريت تاتشر في 7 مارس 1991.

والملك فهد³. قناة مميّزة جداً، في الواقع، بحيث قيل إن "إرسال القوات الأميركية ارتبط لاحقاً بالصدّاقة الشخصية بين جورج بوش والأمير السعودي بندر"⁴.

لم يكن توسّط بندر مقتصرًا على البيت الأبيض. إذ يذكر اللورد تشارلز باول، السكرتير الخاص لرئيسة الوزراء مارغريت تاتشر: "في الأشهر التالية، كان يتردد على تين داونغ ستريت ناقلاً آراء سعودية بشأن التحضيرات للحرب وكل ما يتعلّق بها. كانت تلك الفترة من العلاقة بينهما حافلة بالنشاط على نحو خاص"⁵.

متذكراً تلك الأوقات العصبية، قال باول إن رئيسة الوزراء البريطانية كانت تعرف أنه عندما يقول بندر: "هذا ما يريد الملك أو ما يمكن أن يوافق عليه، يكون الأمر كذلك. وهذا ما يُقدّر عالياً في أي موفد أو وسيط: أن يستطيع التحدّث بثقة باسم الشخص الآخر. ويمكنني أن أضيف أنّ الحال كانت كذلك، على وجه الخصوص، في أثناء الاستعدادات للحرب وفترات الأعمال العدائية"⁶.

أقرّ برنت سكوكروفت في المقابلة التي أجريتها معه أنّ دور الأمير في تلك الأيام الأولى كان أساسياً وأنّ اجتذابه إلى قلب الإدارة بالذات كان ضرورياً. وأكد سكوكروفت



مستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت يحيط به الجنرال نورمان شوارزكوف (إلى اليمين) ورئيس الأركان جون سنونو (إلى اليسار)

أيضاً على أن الأمير كان ضالِعاً في التخطيط العسكري في مرحلة مبكرة جداً⁷. وقد لوحظ في أثناء حرب الخليج الأولى أن بندر أصبح "بمثابة عضو فعلي في مجلس الأمن القومي"⁸. وكان، منذ البداية، يواكب بشكل منتظم خطط الإدارة وتفكيرها⁹. ولا شك في أن ذلك المنفذ يرجع إلى صلته الوثيقة بالملك السعودي. وعن علاقة بندر بفهد، يقول سكوكرافت: "لم يكن هناك سواه تقريباً، لم يكن في وسعنا استخدام سفيرنا". وأضاف، في ما يشبه فكرة لاحقة: "في الواقع، لم يكن لدى سفيرنا المنفذ الذي نحتاج إليه. كنا بحاجة إلى من يستطيع الوصول إلى الملك على الفور وكان بندر الاختيار الواضح"¹⁰.

فاقم الفراغ بين الدبلوماسية الشرق أوسطية والدبلوماسية الغربية من أزمة الخليج. ففي اجتماع بين صدام وحسين والسفيرة الأميركية إلى العراق أبريل غلاسبي، في 25 يوليو 1990، قالت غلاسبي: "كما تعلم، نحن [الولايات المتحدة] لا نتخذ موقفاً من النزاعات على الأراضي". وقد أساء الرئيس العراقي تماماً تفسير هذا الإعلان من غلاسبي واعتبر ضمناً أن الولايات المتحدة ستغاضى عن الاستيلاء على الكويت بالقوة.

وفي عبارة غامضة أحدثت تبعات هائلة، قالت غلاسبي لحسين: "الرئيس بوش رجل ذكي. فهو لن يعلن حرباً اقتصادية على العراق... لا رأي لنا بشأن النزاعات العربية العربية كخلافكم الحدودي مع الكويت"¹¹. وافترض صدام أن الكلب الأميركي سينبح لكنّه لن يعض¹². وبعد ثمانية أيام، وجّه صدام جيشه إلى الكويت، وأطلق اجتياحاً تطلب ردّه على أعقابه 500,000 جندي أميركي وحصد أرواح آلاف الضحايا¹³.

مهد بيان مماثل من مارغريت توتويلر، الناطقة باسم وزارة الخارجية الأميركية، الكلام السفيرة غلاسبي قبل يوم واحد فقط من اجتماعها بصدام حيث قالت في يوليو 1990، أي قبل غزو العراق للكويت بتسعة أيام: "لا توجد بيننا وبين الكويت أي معاهدة دفاع، وليست لدينا التزامات دفاعية أو أمنية تجاه الكويت"¹⁴.

لكن على الرغم من تلك التصريحات الرسمية، عملت الاستخبارات الأميركية لسوال شهر يوليو 1990 على مراقبة القوات العراقية التي كانت تحتشد على الحدود الكويتية منذرة بهجوم وشيك على الكويت. كان هناك تاريخ من العداء بين العراق

والكويت، إرث يعود إلى قيام القوى الغربية الكبرى بتقسيم العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى. وقد قيّد هذا التقسيم كثيراً منفذ العراقيين على الساحل، وأشعل نزاعات حدودية بشأن تقسيم حقل نفط الرميلة الغني، وملكية مناطق مختلفة، منها جزيرة بوبيان، التي تسدّ بشكل استراتيجي ميناء وقاعدة أم قصر البحرين العراقيين. وازدادت التوتّرات حدة بعد انتهاء حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران.

كانت الكويت مصدر دعم كبير للعراق خلال الحرب الإيرانية العراقية، وقد أخذت بعد الحرب تطالب بالأربعة عشر مليار دولار التي كان العراق قد اقترضها منها، فيما كان صدام حسين يشكو بمرارة من قيود أوبك، وهبوط أسعار النفط. وعزا ذلك الهبوط إلى الكويت والإمارات العربية المتحدة، متهماً إياهما بالإفراط في إنتاج النفط.

كان الجنرال نورمان شوارزكوف يراقب انتشار القوات العراقية بتوتر، وعندما طلب منه وزير الدفاع ديك تشيني تقييم تحركات القوات العراقية، أجاب: "أعتقد أنهم، العراقيون، سيهاجمون. لكنهم سيستولون على الرميلة وبوبيان ثم يتوقفون". وعندما سئل لاحقاً عما يجب أن تفعله الولايات المتحدة في حال حدوث ذلك، قال: "لا شيء على الإطلاق، العالم لن يهتم. وسيكون ذلك أمراً واقعاً"¹⁵.

دفع تواتر الأنباء عن الاضطراب العراقي وموقف صدام حسين المتزايد تهديداً للكويت، المملكة العربية السعودية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة لوضع قواتها في حالة تأهب. وأحجمت المملكة العربية السعودية والكويت عن طلب مساعدة من الغرب. غير أن الإمارات طلبت طائرات صهريج أميركية لتشارك في عمل عسكري مشترك، ولُبّي طلبها. وعندما ألحّ على الإمارات بالسؤال، أصرت على القول إن طائرات الصهريج جزء من إجراء تدريبي روتيني، وشددت تحديداً على تصميم العرب على التقليل من أهمية أي تدخل خارجي في ما يعتبرونه نزاعاً خاصاً بين "أهل البيت". انزعج بندر من "عملية العدالة العاجية" - وهو الاسم الذي عُرف به قيام الولايات المتحدة بنشر طائرات الصهريج - وشعر أنّه لم يكن على الإمارات أن تطلب مثل ذلك التدخل الذي ربما يشكّل تهديداً للدبلوماسية الأميركية في المنطقة. ويزعج الدول العربية المحافظة، على الرغم من ارتياحه لاستجابة الأميركيين إلى طلب المساعدة من حليفها العربية.

على الرغم من قلق الغرب المتزايد، كرّر الرئيس مبارك والملك فهد تأكيدهما أنّ العراق لن يهاجم الكويت. وفي واشنطن، "كان بندر يقول للجميع لا شيء يدعو للقلق. ولم يطلب الكويتيون المساعدة"¹⁶. وكان الاعتقاد الراسخ أن في الإمكان معالجة مظالم صدام حسين ضمن نطاق الأسرة العربية أياً يكن شكلها. وقد شكّل هذا الخطأ المطلق في الحسابات خلفية للغزو الذي نزل على العالم العربي نزول الصاعقة.

خُذع بندر، مثلما خُذعت غلاسبي. فقد كان الوثوق بكلام صدام حسين خطأ جسيماً في الحكم، خطأ أساء تفسير خطط الزعيم العراقي تماماً. ولم ينف بندر وجود ما يدعو إلى القلق أمام واشنطن فقط، بل إنه طمأن مارغريت تاتشر أيضاً أنّ صدام يتظاهر ليس إلا ولن يحدث أي غزو¹⁷.

تحدّث كولن باول عن سوء قراءة بندر للموقف على الأرض، فقال: "لقد أقسم أنّ الاجتياح لن يقع، وكانوا كلهم يقولون لنا إنهم [العراقيون] لن يقدموا على ذلك. وظللت أقول له، يا بندر، عليك مراجعة الاستخبارات؛ ثمة شيء غريب هنا. وظلوا نصريين على أنّ في وسعهم السيطرة على الموقف"¹⁸. لكنهم لم يستطيعوا.

يقول بندر في إعادة لسرد الوقائع المؤدّية إلى الحرب: "قبل الغزو بأسبوعين، بدأ العراق نزاعاً شفهياً مع الكويت بخصوص أسعار النفط. ثم أخذ يحشد قواته. تحرّكت المملكة العربية السعودية على الفور، وبدأت محادثات مع كل من العراق والكويت". وفي محاولة لنزع فتيل المشكلة المتفاقمة، أرسل وزير الخارجية السعودي إلى العراق لمقابلة صدام.

قال سعود: "إنكم تحشدون قواتكم ولديكم مئة ألف جندي على الحدود الكويتية. هذا ينذر بالخطر".

أجاب صدام المغرور مستبعداً ذلك: "أيها الأمير سعود، لست بحاجة إلى مئة ألف جندي. كنتُ أنوي غزو الكويت، يكفي عشرون ألفاً. هذه مجرد تدريبات سنوية، لا تقلق بشأنها".

بعد ذلك أعدّ الملك فهد لقاء قمة بين الكويتيين والعراقيين في جدة، لكنهم لم يوصلوا إلى حل. وافق الكويتيون على التوجّه إلى بغداد والتحدّث إلى العراقيين على انفراد. فإذا توصلوا إلى اتفاق، فسيكون ذلك عظيماً، وإذا لم يتوصلوا، تدعو المملكة

العربية السعودية عندئذ إلى اجتماع قمة في المملكة يحضره صدام حسين، وأمير الكويت، والرئيس مبارك، والملك حسين، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، ويحاول السعوديون حل النزاع.

سُرَّ بندر عندما وافق العراقيون والكويتيون على الاجتماع في جدة لإجراء محادثات، لذا لم تحفّه تهديدات صدام باستعمال القوة. وبدلاً من ذلك توجه في 31 يوليو 1990 إلى إنكلترا لبدأ إجازة يستحقّها ومعدّة مسبقاً في الصين، مطمئناً أنّ الأوضاع في الخليج قابلة للمعالجة وتحت السيطرة. ولم يكن يدور في خلدّه أنّ العراق سيشن هجوماً واسع النطاق على الكويت بعد ساعات من وصوله إلى لندن. كان مصير المملكة، وبقاؤها، في خطر. وفقدان حقول النفط السعودية والكويتية يعني ضياع الاقتصاد العالمي أيضاً.

اعترف بندر قائلاً: "لطالما شعرت في حياتي العامة، على الرغم من كل الخلافات التي شهدتها وكان عليّ التعامل معها في العالم العربي، أنّ من الممكن إنقاذ الحد الأدنى المطلوب. وأنّ الشعب [العربي] يتناسى خلافاته عندما تدعو الحاجة القومية إلى الوقوف معاً. لكنّ، ما حدث للكويت فريد في نوعه، لقد كان شديد الوقاحة والغطرسة والعنف بحيث يدعو إلى التشكيك في الموقف العربي كله على نحو لم أعهده من قبل"¹⁹. لقد خدع صدام أشقاءه العرب وكذب عليهم عمداً، ولم يعد يمكن الوثوق به. صدم بندر بهذه الخديعة. بل إنّ غزو الكويت وضمّها لاحقاً هزّ العالم العربي بأسره. وكان الهجوم بحدّ ذاته أقلّ وقعاً على زعماء الشرق الأوسط، من نفاق صدام الصارخ واستخفافه بالأخوة العربية.

شدّد بندر دائماً في المقابلات الكثيرة التي أجريت معه في أثناء الحشد لحرب الخليج، على الغطرسة التي تتسم بها أعمال صدام، وكيف زادت إساءته المتعمدة لثقة الزعماء العرب الخطر الذي يشكّله بالفعل. "لقد غزا الرئيس صدام حسين دولة عربية شقيقة مستقلة، وعضواً في جامعة الدول العربية. أخبرنا قبل ذلك أنّه لن يقدم على الغزو؛ وأبلغ الملك فهد، شخصياً، أنّه لن يقدم على الغزو؛ وأبلغ الرئيس مبارك والملك حسين أنّه لن يغزو الكويت؛ وأبلغ الرئيس بوش والرئيس غورباتشيف أنّه لن يقدم على الغزو. ثمّ غزا. وأبلغنا بعد ذلك أنّه سينسحب ولم يفعل. ثمّ قال إنه لن يحرك قواته جنوباً، لكنه حرّكها. ثمّ قال إنّ لا مطامع إقليمية لديه ضدّ الكويت ثمّ ضمّها"²⁰.

لخص بندر فحوى تصرف صدام، فقال بندر لجون ماكلولن: "إن ما فعله الرجل يناقض كل منطق أو كل سلوك عربي وإسلامي؛ ولذلك، لا أستبعد شيئاً من هذا الرجل"²¹. وأسهب في هذا التعليق في مقابلة في برنامج لاري كنج لايف على محطة سي أن أن، قائلاً: "لو أنك سألتني قبل ساعة واحدة من غزو صدام حسين للكويت، وقدمت إليّ السيناريو الذي انكشف، لضحكتُ منك وقلت إنه سيناريو غير معقول. ومع ذلك، حدث".

وأوضح بندر: "كنت معه قبل أربعة أشهر فقط، وأمضيت معه أربع ساعات"²². كان بندر يشير إلى اجتماع في 5 أبريل 1990 حين قام بمهمة دبلوماسية إلى بغداد للقاء الرئيس صدام حسين بطلب شخصي من الملك فهد، وذلك على أثر تصريحات نارية طنانة أطلقها الزعيم العراقي ضد إسرائيل. ففي محاولة للتعتيم على الأمر وكسب الوقت - لكن قد يكون السبب جزئياً اعتقاده أنه أفرط في التهديد²³ - طلب صدام حسين من الملك فهد إرسال موفد خاص إلى بغداد²⁴.

خلال محاولة بندر التوسط، طمأنه صدام إلى أن ما قاله: "والله سنحرق نصف إسرائيل إذا حاولت القيام بأي شيء ضدّ العراق". لم يكن يشير إلى أي هجوم عراقي نووي محتمل على إسرائيل. وفي علامة على بداية إساءة تفسير الخطاب لدى الجانبين، أقرّ صدام لبندر أنه يتمنى لو أن خطابه صيغ بشكل مغاير، لكنه أصرّ على أن الولايات المتحدة تبالغ في ردّ فعلها ونفى بشدة وجود أي نية عدوانية وراء كلماته²⁵.

تحدّث صدام عن احتمال تعرّضه للهجوم وقال للأمير: "إذا هوجمت الآن [من قبل إسرائيل] فلن أصمد ست ساعات". وحمل السفير رسالة شخصية، "أريد أن أؤكد للرئيس بوش وجماعة الملك فهد أنني لن أهاجم إسرائيل"²⁶. وكان حسين حريصاً أيضاً على أن يؤمّن الأمير موافقة مماثلة من الجانب الإسرائيلي بعدم مهاجمة العراق²⁷.

وبطلب من الملك فهد، شرع بندر في إقناع الرئيس بوش بصدق صدام. وبعد مقابلة ثانية مع الرئيس، أمّن بندر ضمانات إسرائيلية، عبر الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية أن إسرائيل لن توجّه إلى العراق ضربة استباقية. وعلى الرغم من جهود بندر، بقي بوش حذراً من خطاب الزعيم العراقي، قائلاً: "إذا كان هذا الرجل لا يعني ما يقول، فلم لا ينفك يردّد هذه الأشياء؟"²⁸.

من دون إدراك للعدر المتحل الكامن وراء ضمانات صدام المفعمة بالحماسة، كانت أعمال بندر، نظرياً، مثلاً مألوفاً على المفاوضات الدبلوماسية الشرق أوسطية/الغربية. غير أن إنجازَه أضاف الملح إلى الجروح عندما نكث صدام وعده لاحقاً واجتاح الكويت من دون أن يستفزه أحد.

عندما نقل بندر من دون أن يقصد أكذوبة صدام المقصودة، لم يستغل فيضلاً الرئيس بوش ورئيسة الوزراء تاتشر فحسب، وإنما ضلّل راعيه وعمّه الملك فهد أيضاً. وفي نظرة إلى الأمور بعد وقوعها، استخلص بندر بمرارة أن صدام استغله، واستغل موقعه الفريد، ليؤمن سلامة العراق من جهة إسرائيل، ما يُفسح له المجال لتنفيذ عمليات في الشرق، على الحدود الكويتية. وقد اكتُشف لاحقاً أنه لم يكن للعراق لحظة الغزو أي جندي عامل على مجنّبه الغربية²⁹.

عند التفكير في مهماته الدبلوماسية في أثناء التمهيد لحرب الخليج، يقول بندر متذكراً الاجتماع الذي طلب فيه صدام منه إقناع تاتشر وبوش أن لا نية لديه لقتال إسرائيل: "وهكذا أبلغنا الأميركيين والبريطانيين أن ما نُقل عن هذا الرجل خارج عن سياقه". وأضاف بندر أنه في نهاية لقائه به، أدلى صدام بملاحظة مرتجلة: "على فكرة، أبلغ الملك فهد أن يتفضّل بطمأننة بلدان الخليج إلى أنني لا أنوي غزوها".

سألت على الفور: "ماذا؟".

أجاب صدام: "لا تصدقوا الدعاية الإمبريالية الصهيونية".

قال بندر: "مهلاً، هل أهتمناك بذلك؟".

"لا".

"هل لديك أي نية؟".

"لا".

قال بندر: "لم أفهم لم تقول لي هذا".

"لأن وسائل الإعلام الاستعمارية الصهيونية تحاول تسميم عقول بلدان الخليج الصغيرة".

أجاب بندر: "لا تشغل بالك بذلك. أرجو فقط ألا تكون لديك أي نوايا".

عند هذه النقطة في الحوار، هزّ بندر رأسه وقال: "سبب لي ذلك ضيقاً، وقد دوّنت ملاحظة بشأنه، جملة واحدة فقط في مذكرة من 18 صفحة كتبها للملك فهد".

في مذكرتي أحطت تلك الجملة بنجوم وخربشات لأنني أمضيت رحلة العودة إلى المملكة العربية السعودية وأنا أقرأ الجملة مرة تلو أخرى".

عندما قابل بندر الملك ليطلعه على خلاصة مهمته، طلب فهد من الأمير قراءة المذكرة كلها، قائلاً: "لا تعطني انطباعاتك، اقرأ فقط ما كتبته".

يذكر بندر لقاءه مع الملك قبل توجهه إلى بغداد، فيوضح أن الملك قال له: "لدي شك في سبب طلبه رؤيتك. لذا حين تذهب إليه، احرص على تدوين الملاحظات بدقة".

ويتابع بندر: "وهكذا دوّنت الملاحظات، ودوّن سفيرنا في بغداد الملاحظات أيضاً. وكان كبير الموظفين لدي يدوّن الملاحظات أيضاً. جمعت الملاحظات كافة في مذكرة من 18 صفحة. وقرأت الصفحات كلها على جلالاته ولم يُدل بأي تعليق حتى بلغت هذه الجملة".

قاطعته الملك: "توقف. أعد قراءتها".

كرر بندر الجملة ثلاث مرات، فمد فهد يده طالباً المذكرة وقال: "هاها".

وبعد أن درسها بإمعان، سأل: "لمَ خربشت حولها؟".

أجاب الأمير: "لأنها أزعجتني، يا سيدي".

فأبدى الملك ملاحظاته التوقعية، "آمل في ألا يوسوس الشيطان في عقله. هذه الجملة تقلقني".

رغم أن السعوديين ظنّوا أنهم يسيطرون على الأمور، فقد كانوا يشعرون بالارتياح. فأرسل الملك فهد الأمير سعود الفيصل مجدداً لمقابلة صدام. غير أن صدام استقبله بشكل عدائي، قائلاً: "أيها الأمير سعود، لو لم تكن من المملكة العربية السعودية لما استقبلتك. كيف تشكك في كلامي؟ لقد قطعت للملك فهد وعد شرفي ألا أقوم بتحريك عسكري لإخافة الكويتيين. لذا لا تفكروا في ذلك البتة".

كان ذلك التأكيد مقنعاً. وبعد ذلك اللقاء، سافر بندر لمقابلة السيدة تاتشر والرئيس بوش وإعادة طمأننتهما إلى نوايا صدام حسين. ويذكر بندر ردّي فعلهما.

قالت السيدة تاتشر: "لا أثق به. يجب أن نكبح جماحه ونهاجمه".

بيد أن بوش قال: "لا أريد أن يهاجم أحد أحداً".

وبعد شهرين، سأل بندر الملك فهد، وهو يظنّ أن الوضع بات تحت السيطرة: "يا جلالة الملك، بما أن فتيل الأزمة قد نزع، هل يمكنني أن آخذ إجازتي؟". كان

الأمير يعتزم الذهاب إلى الصين في إجازة، والأميرة هيفاء وأولاده ينتظرونه في باريس. وكانت الخطة تقضي بتمضية أسبوعين مع الأصدقاء والعائلة في الصين، وأسبوعين آخرين في هونغ كونغ وسنغافورة وتايلند. وذكر بندر الملك أنه وافق سابقاً على أن يأخذ إجازة طوال شهر أغسطس.

قال الملك: "حسناً. لك ذلك، لكن توجه إلى لندن وأطلع السيدة تاتشر على الاتفاق الذي توصلنا إليه مع الكويت والعراق، ثم اذهب إلى حيث تشاء".

بعد ذلك بقليل، اتصل الجنرال كولن باول ببندر وقال: "أخبرني البيت الأبيض أنكم توصلتم إلى اتفاق. هل أنت متأكد؟".

أجاب: "أنا متأكد بمقدار ما اطلعت عليه".

أجاب باول: "لقد خططت لأخذ إجازة لمدة أسبوعين. هل تعتقد أن في وسعي القيام بذلك؟".

ضحك بندر وقال: "إني أعتزم أخذ إجازة لمدة أربعة أسابيع في الصين".

فأجاب باول: "حسناً، اذهب أنت إلى الصين، وأنا سأذهب إلى كارولينا الجنوبية".

وصل بندر إلى لندن في 1 أغسطس 1990، وتوجه على الفور إلى مقابلة السيدة تاتشر القلقة والمشككة كثيراً في نوايا صدام. ووفقاً لمقرّبين من الأمير، أصغت تاتشر إليه، وعندما فرغ، سألت: "ألديك شيء آخر؟".

قال بندر: "لا".

سألت تاتشر: "ما رأي جورج؟".

أجاب بندر: "يأمل جورج في أن نكون مصيبين".

أجابت: "هذا لا يكفي. أعتقد أن علينا مهاجمته اليوم قبل أن يهجم. أعتقد أنه ينوي الهجوم. إنه رجل شرير".

أجاب الأمير: "إننا لا نريد الحرب".

تراجعت السيدة تاتشر وقالت: "كنت فقط أتحدّث عما أفكر فيه. لكن إذا

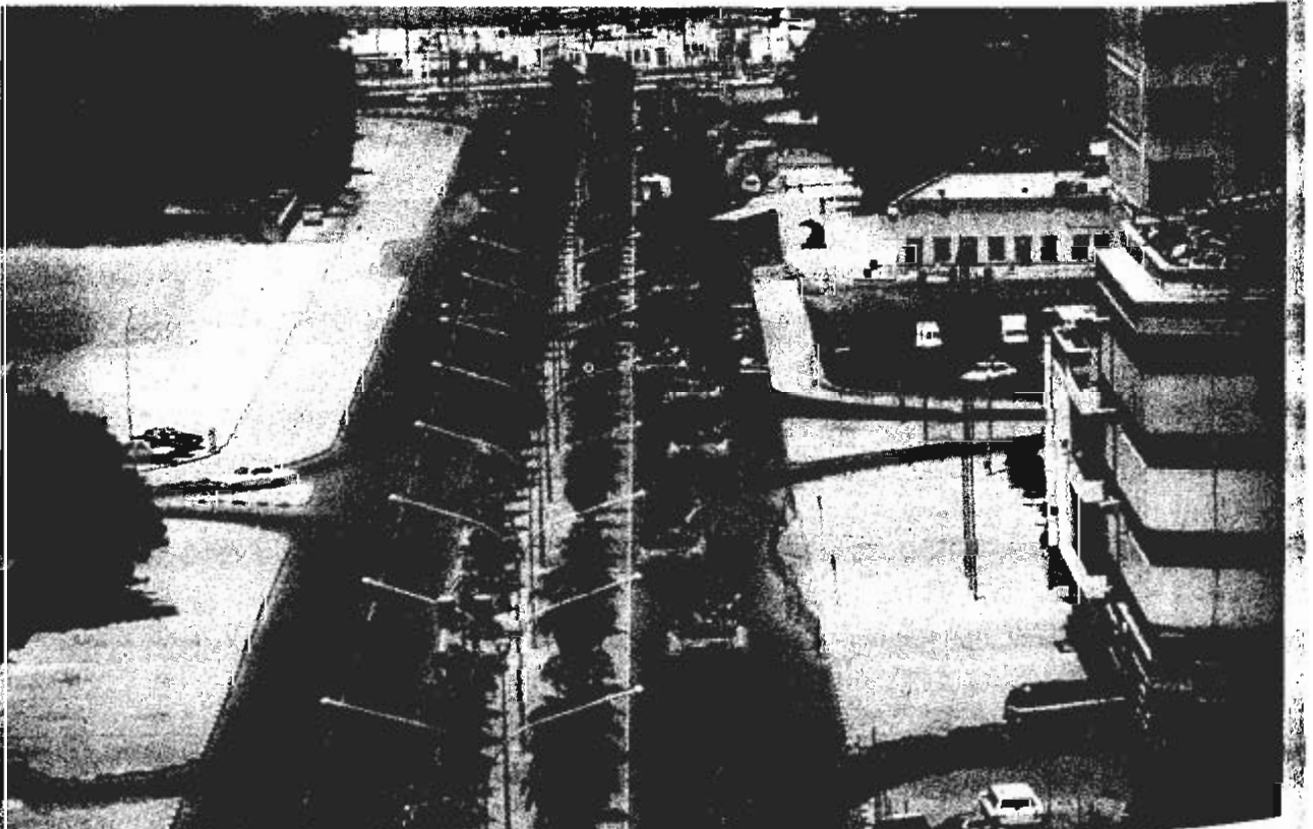
كان جورج والملك فهد يريان أن علينا أن ننتظر ونرى، فأنا مستعدة لمجاراتهما في هذا الرأي. أريد فقط أن يعلم جلالته أن هذا ما أشعر به، وسأتصل بجورج وأقول له رأيي".

ولمّا لم يعد هناك شيء آخر يفعله في لندن، قرّر بندر أن ينام باكراً في المساء. وطلب من مرافقيه عدم إزعاجه إلا إذا كان هناك اتصال من البيت الأبيض أو من الملك فهد. وعلى عادته، استعرض ما تبثه السي أن أن ثم أوى إلى فراشه. كانت الساعة في لندن تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساءً. وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً رنّ جرس الهاتف. وأخبره موظف الأمن أنّ الجنرال سكوكروفت يريد التحدّث إليه من البيت الأبيض. تناول بندر بقلق سماعه الهاتف وقال: "مرحباً، كيف حالك يا برنت؟".

أجاب سكوكروفت بجفاء: "أنا بخير. لكن الرئيس طلب مني أن أعلمك أننا نعتقد أنّ العراقيين عبروا الحدود منذ قليل إلى الكويت". قال بندر مذهولاً: "مهلاً، مهلاً، أعد ما قلته".

كرّر سكوكروفت رسالته، فقال بندر، بعد لحظة: "يا برنت، لا أظن أن ما يجري اجتياح. أنا أعرف صدام حسين جيداً؛ لقد عبر الحدود ليستولي على بعض المراكز الحدودية، وقد يتقدم كيلومترين ثم يتوقف، على أمل أن يقوم الملك فهد صباح غد بالسفر إلى بغداد ثم إلى الكويت لتسوية الأمر بينهما".

أجاب سكوكروفت: "هذا تحليلك أنت. إتني أبلغك فقط ما أراد الرئيس أن أنقله إليك. عليّ الإسراع الآن لحضور اجتماع لمجلس الأمن القومي".



الجيش العراقي يتقدم في الكويت

طلب بندر من سكو كروفث إطلاعه على ما يستجد ثم أغلق الهاتف. لقد أصبح يقظاً تماماً، ومتأهباً ويشعر بالاضطراب. تفحص قناة سي أن أن مجدداً، ثم انتقل إلى قنوات إخبارية أخرى: لم ترد تقارير عن أي غزو. تساءل هل ينبغي له الاتصال بالملك فهد وإطلاعه على المعلومات التي تلقاها من البيت الأبيض. وفي شرح لقراره عدم استعجال الأمور، قال: "أظن أنني كنت في قرارة نفسي أميل إلى النفي؛ لم أرد أن أصدق حصول ذلك. ثانياً، كانت نفسي تحدثني قائلة أريد الذهاب مع عائلتي إلى الصين. ثالثاً، كانت الخطوة انتحارية، بحيث لا يمكن أن تحدث، كانت غيبية جداً". وبعد تأمل قصير، أوضح ذلك التعليق الأخير، قائلاً: "تعريف المفاجأة الاستراتيجية هو أنك إذا فعلت شيئاً بمنتهى الغباء، وكان من الواضح أنه معاكس لمصالحك، ففي وسعك أن تحقق مفاجأة استراتيجية. لم يكن أي شيء فعله صدام قبل الغزو غير معلوم لدينا - رأينا كل شيء - الاختلاف كان في الاستنتاج فحسب. نعم، لقد فعل هذه الأشياء كلها، لكن الاستنتاج كان أنه لن يقدم على الغزو، لأن ذلك مخالف للمنطق". حين همّ بندر بالاتصال بالملك فهد لإطلاعه على مكالمة البيت الأبيض، رنّ جرس الهاتف مجدداً: كان الاتصال من ساندر تشارلز، وهي موظفة في مجلس الأمن القومي موجلة بشؤون الشرق الأوسط وتعمل لدى سكو كروفث.

قالت: "طلب منّي سكو كروفث أن أبلغك أن العراقيين في منتصف الطريق إلى مدينة الكويت".

أجاب بندر بدهول: "ماذا؟".

كرّرت تشارلز الرسالة.

أنهى بندر المحادثة، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب من أحد موظفيه الأمنيين الاتصال بالملك. فجاءه الرد بما ينذر بالسوء: "جلالة الملك على الخط الآخر في الواقع. وهو يبحث عنك"³⁰.

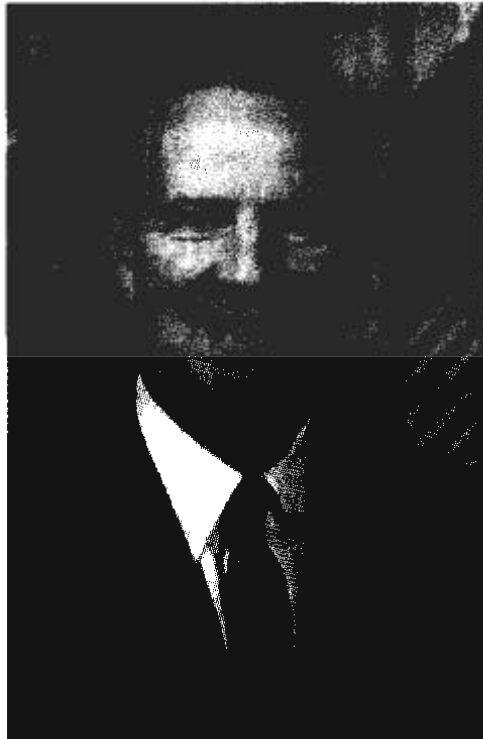
أخذ بندر المكالمة على الفور وحيّا الملك.

سأل الملك بصوت مرتفع: "ماذا يجري. تلقيت اتصالاً من صديق يقول لي إن بعض أصدقائه أخبروه أن العراقيين غزوا الكويت. هل هذا صحيح؟ هل يمكنك الاتصال بالبيت الأبيض؟".

روى بندر له محادثاته مع البيت الأبيض، فردّ الملك فهد: "لا أستطيع التصديق".

قال بندر: "بيدو يا سيدي أن الأمر صحيح".
 قال فهد لبندر: "اذهب لمقابلة الرئيس بوش في الحال وقف على ما ينوي أن يفعله وأخبرني".
 أجاب بندر: "حسناً، يا سيدي، سأقابلة غداً".
 فردّ الملك فهد، ناسياً أن بندر ليس في واشنطن: "قلت لك حالاً".
 أوضح بندر: "لكّني في لندن الآن".
 سأل فهد: "ما الذي تفعله في لندن في مثل هذا الوقت؟".
 قال بندر: "سيدي، لقد أذنت لي بتمضية إجازة".
 "إجازة يا بندر؟ في هذا الوقت؟".
 ذكرّ بندر الملك بطريقة دبلوماسية أنه طلب منه مقابلة السيدة تاتشر.
 قال فهد: "حسناً، قابلها مرة أخرى، وأطلعها على آخر التطورات".
 لكن ذلك لم يتمّ، ليس في تلك الليلة على الأقل. قال بندر موضحاً: "حين تركت السيدة تاتشر هذا المساء كانت تتأهب للذهاب إلى أسبن، وكان بوش متوجهاً إلى أسبن أيضاً".

في آخر الأمر قال الملك فهد، وهو غير متأكد من المكان الذي يريد إرسال بندر إليه: "حسناً، غادر لندن وعُد إلى واشنطن!".



جيمس بيكر.

"لا تدعهم يخدعونك أبداً"

أمر بندر طاقمه بسرعة بتجهيز طائرته. ثم اتصل بزوجته في باريس وطلب منها العودة إلى واشنطن؛ الإجازة ألغيت.
 لم يكن بندر أول ولا آخر من يخدعهم صدام حسين. ولكن نتيجة التعرّض للخداع، رفض بندر أن يُخدع مجدداً. ومع تصاعد الخطاب المرتفع وانحياز المفاوضات بين العراق والدول العربية المعتدلة والغرب، كان بندر الرجل الوحيد، ذا المهارات اللازمة لردم الفجوة وفك رموز الإشارات التي أسست قراءتها، وكان ميالاً إلى اللامبالاة القاسية.
 كان للواقع المتغيّر صلة كبيرة بقبول المملكة العربية

السعودية بنشر قوات أميركية على الأراضي السعودية. بل من العبارات المفضلة لدى بندر خلال المقابلات المتعلقة بحرب الخليج: "أن تخدعني مرة عارٌ عليك، لكن أن تخدعني مرتين فعارٌ عليّ، وأنا هنا لأبلغكم أن صدام حسين لن يخدعنا مجدداً"³¹.

وقد برز هذا القول مجدداً في التمهيد لعملية عاصفة الصحراء. ففي أسفل صورة شخصية لجيمس بيكر يملكها بندر كُتبت الكلمات التالية: "إلى بندر، زميلي وصديقي. تذكر، لا تدعهم يخدعونك، لأن ذلك ممكن".

اتضح مع ازدياد الموقف سوءاً أن جيمس بيكر التقى وزير الخارجية المصري. وكان في صحبة الوزير صديق حميم لبندر، الدكتور أسامة الباز. وبعد اجتماعهم، اتصل أسامة ببندر ليقول له إن الوفد المصري في طريقه إلى مقرّ الأمير.

عند وصولهم، قال له الباز: "كان لقاءنا مع جيمي بيكر ممتازاً؛ المشكلة هي أننا عندما بلغنا جوهر الموضوع في الاجتماع قال بيكر شيئاً لم نفهمه وكنا محرجين جداً فلم نسأله؛ لذا قرّرنا أن نأتي إليك لأتأكد الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يوضحه لنا".

سأل بندر: "ماذا قال؟".

أجاب الدكتور الباز: "قال لنا إن جوهر الموضوع بالنسبة إليّ وإلى الولايات المتحدة هو *you diddle me once, shame on you; you diddle me twice, shame on me* وقلنا له، حسناً فهمنا المراد. شكراً وغادرننا. ماذا يعني ذلك؟".

ضحك بندر: "حسناً، هذه هي طريقة جيمي في الكلام. بلغة أهل تكساس يعني ذلك أن تخدعني مرة، عارٌ عليك، لكن أن تخدعني مرتين، فعارٌ عليّ". ثم ذكر لبندر لهم ما القول المقابل باللغة العربية: "المؤمن لا يُلدغ من جحر واحد مرتين".

قالوا: "آه! الآن أصبحت الأمور في نصابها".

عندما سمع بيكر هذه الحكاية في ما بعد، ضحك ثم لام بندر لأنه شرح لهم العبارة، وقال: "كان عليك أن تدعهم يذهبون إلى ديارهم ويحاولون فهمها هناك".

كثيراً ما قال بندر عن جيمس بيكر إنه "الحيوان السياسي الأمثل: إنه صديق عظيم وحكيم جداً". ومن المثير للاهتمام أن بندر قال في كثير من الأحيان إن بيكر وكولن باول على شاكلة واحدة - إذا عُرف أحدهما عُرف الآخر - وكان كل منهم يعرف الآخر جيداً.

قال بندر عن بيكر: "حين التقيته أول مرة، كان كبيراً لموظفي البيت الأبيض في إدارة الرئيس ريغن. وفي ذلك الإطار، كان بطبيعة الحال ملماً بكثير من الأمور التي أقوم بها مع البيت الأبيض أو حاضراً في أثناء ذلك".

في إحدى تلك المرات، دُعي بندر إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس ريغن. وحين وصل، كان هناك أيضاً الأميرال بويندكستر وبدُ ماكفرلين، وكذلك جيمس بيكر. طلب الرئيس من بندر أن يأخذ ماكفرلين سراً إلى سورية للقاء الرئيس الأسد في ذروة حرب لبنان. أوضح بندر: "كان عليّ أن أعيده من دون أن يتسرب شيء عن اللقاء إلى العلن. لذا أخذت ماكفرلين بطائرتي وتوجّهنا إلى المملكة العربية السعودية سراً وبدّلنا الطائرة هناك. كنا حذرين جداً بحيث أنزلناه في فيلا للضيوف في قصر الملك. بعد ذلك قابل الملك فهد وأطلعته على معلومات، واستمع إلى بعض نصائحه بشأن كيفية تقديم الرسالة إلى الرئيس الأسد، وذهب إلى سورية، والتقى الأسد، وعاد إلى المملكة، وأطلع الملك فهد على نتائج اللقاء، ثم عدت به إلى البيت الأبيض. وجرى ذلك كله بين يومي الجمعة والأحد، بحيث لم يفترقه أحد خلال الأسبوع".

في أثناء الاجتماع في البيت الأبيض، سأل بندر: "هل يعلم الوزير شولتز؟". قيل له: "نحن سنخبر الوزير شولتز؛ لا تخبر أحداً بخصوص هذه الرحلة". تابع بندر قائلاً: "عندما أصبح جيمس بيكر وزيراً للخارجية، طلب مني الاجتماع به في يومه الأول في الوزارة. قلت في نفسي، جيمي صديق صدوق حقاً؛ يريد أن يميّزني كأول سفير أجنبي يلتقيه كوزير للخارجية".

بعد التحادث في العموميات، قال بيكر لبندر: "أود أن ألتقيك على انفراد". وعندما غادر جميع الحاضرين الغرفة، نظر بيكر إلى بندر بشكل مباشر وقال: "يا بندر، أريدك أن تعرف أنني كنت في ما مضى رئيساً للموظفين في البيت الأبيض".

أدرك بندر فوراً ما كان يرمي إليه. فكان رده: "سيدي الوزير، ينبغي ألا تنسى أنك كنت ذات يوم رئيساً للموظفين في البيت الأبيض". وأوضح بندر، "كان فهمي لتلك الملاحظة ما يلي، لا تحاول الالتفاف حولي يا بندر بصفتي وزيراً للخارجية لأنني كنت هناك وأعرف كل شيء. وكان جوابي له، تذكر يا جيمي، لم ألتف حول وزير الخارجية؛ أنت قلت لي ألا أخبره".

بعيد الغزو العراقي، استقبلت المملكة العربية السعودية 400 ألف لاجئ كويتي، بمن فيهم الأمير وعائلته. وكانت الشهادة على الدعم العالمي لسيادة الكويت فشل محاولة عراقية لتركيب نظام تابع لهم: عجز العراقيون عن إيجاد ثمانية كويتيين مستعدين للتعاون. وعلى الرغم من ذلك، أطلق صدام مبادرة سلام في استراتيجية ترمي إلى إحداث شرخ في التعاون الإسلامي والمسيحي المتعاضم ضده، مشبهاً احتلاله للكويت بالاحتلال الإسرائيلي لأراضٍ عربية. كانت حيلة وقحة محوكة لصرف الانتباه عن أعماله واستغلال مواقف المسلمين العدائية تجاه إسرائيل والغرب، وسرعان ما كشف العالم العربي زيف تلك المبادرة بسرعة.

في حديث خاص، قدّم بندر شرحاً في غاية الوضوح لرأي الملك فهد في المسألة "خلال الاحتلال، قال صدام حسين إنه مستعد للانسحاب من الكويت إذا كان الإسرائيليون مستعدين للانسحاب من الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان. وقد اتخذ الملك فهد موقفاً قوياً جداً من ذلك. قال، هذا غير مقبول عندنا لأن ما فعله صدام حسين عدوان. ونحن لن نكافئ هذا العدوان بجائزة. نحن السعوديين، سنحارب في سبيل القضية الفلسطينية والسلام في الشرق الأوسط. وهذا أمر لا شأن لكم [العراق] به، يجب أن ترحلوا عن الكويت من دون شروط".

وأوضح بندر لاحقاً أن غزو صدام حسين للكويت، غزو بلد عربي لبلد عربي آخر، أضعف القضية الفلسطينية وعقدت عملية السلام الهشة بالفعل. "من المأسوي التي سببها صدام حسين لنا أن العالم توحد بأكمله، وأقول مجدداً إن مبدأ احتلال أراضٍ بالقوة مبدأ غير صحيح؛ وذلك ينطبق على ما يفعله الإسرائيليون في الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان. لكن ما فعله [صدام] أنه قال لا بأس في أن يحتل عربي أرض عربي آخر. ذلك يُضعف موقفنا ووضعنا"³². أما وقوف ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب صدام، فكان قمة المفارقات وسبب سخطاً سعودياً كبيراً. وقد لوحظ بطريقة حكيمية ساخرة أن الإعلاميين السعوديين احتفوا بعرفات على مرّ عقود؛ لكن شعورهم الحقيقي برز بعد الغزو العراقي للكويت³³. ووصف بندر عرفات "بالمهرج"³⁴.

لم يكن ردّ فعل الغرب على العدوان العراقي غير متوقع، مع أن صدام نفسه أساء تقديره تماماً. وكما صرّح الرئيس كارتر: "هاج العالم فوراً واتخذ إجراءً مؤثراً وغير

مسبوق ضد هذا الغزو للكويت؛ ربما لم نكن لنفعل شيئاً، أو الشيء نفسه، لو أن النيبال أو ملاوي أو سريلانكا هي التي تعرّضت للغزو³⁵. وأتبع السيناتور جيمس ماكلور ذلك بتركيز مماثل على تأثير النفط، قائلاً: "بالتأكيد، ما كان العالم كله ليردّ بهذا القدر من التضامن مثلما فعل هنا... الطاقة ضرورية بشكل مطلق للمجتمعات الصناعية الحديثة ولاقتصادنا ونحن كلنا نعلم ذلك"³⁶.

وقال بوش: "كان صدام حسين دكتاتوراً فظاً غليظاً، بل مصاباً بذهان ارتيابي (جنون العظمة)، وكان انفتاحه على الغرب قليلاً وشكّه فيه عميقاً"³⁷. وربما يسلط تقييمه إدراك صدام للعالم الخارجي ضوءاً على كيفية إساءة الدكتاتور العراقي تقدير إصرار الغرب على حماية مصالحه في الشرق الأوسط الغني بالنفط. فقد عبّرت مارغريت تاتشر بصراحة عن المصالح البريطانية في الخليج حين أبلغت الرئيس الأميركي: "إن خسارة النفط السعودي ضربة لا يمكننا أن نتحملها"³⁸. وكان التهديد الموجه إلى المملكة العربية السعودية سبباً أكثر إقناعاً من غزو الكويت كي تقوم الولايات المتحدة بدور أساسي في النزاع³⁹. ومع استمرار أزمة الخليج، ناشد بوش الملك فهد من خلال بندر أن يعوّض عن توقف الإنتاج العراقي والكويتي؛ فكان الردّ السعودي رفع الإنتاج من 5.2 ملايين برميل في اليوم إلى أكثر من 8 ملايين برميل⁴.

وعلى الرغم من أن الرئيس بوش كان يدرك تماماً مصلحة الولايات المتحدة الجوهرية في نفط المنطقة، وهو المادة التي تعتمد عليها اقتصادات العالم إلى حدّ كبير (ولا تزال)، فقد حرصت المكنة الإعلامية على توجيه انتقاد شديد إلى مثل هذا الدافع للقيام بعمل عسكري من الناحية الأخلاقية. فكتب صحافي في الواشنطن بوست، "لا أحد يريد أن يقول إن البترول هو السبب الذي سيجعل مئات الأميركيين يمضون الميلاد بعيداً عن عائلاتهم"⁴¹. وأبدى لورنس كورب، المساعد السابق لوزير الدفاع الأميركي، ملاحظة أكثر تحكماً، فقال: "لو كان الكويتيون يزرعون الجزر، لما اهتمنا⁴² البتة".

أحدثت بلايا صدام في الشرق الأوسط تأثيراً فورياً في العالم. فخلال أربع وعشرين ساعة، ارتفعت أسعار البنزين بمقدار 14 سنتاً للغالون الواحد، وارتفع سعر وقود الطيران وبالتالي تكلفة السفر جواً. واضطرت بلغاريا إلى تقنين استهلاك الطاقة الكهربائية. وفي تايوان هبطت الأسهم بنسبة 65 بالمئة. وأطلق البرازيليون مبادرة لدعم

الآليات العاملة بالإيثانول، وأصبحت الأسواق المالية اليابانية والبرتغالية بالفوضى. وفي الشرق الأوسط، فكّرت الحكومة الإسرائيلية جدياً في توزيع أفنعة واقية من الغازات على السكان، بينما ألغت الولايات المتحدة ديون مصر العسكرية البالغة 7 مليارات دولار، وتدفّق من الكويت آلاف العمال الأجانب الذين عادوا إلى ديارهم في مصر وباكستان وبنغلادش⁴³.

وعندما سأل لاري كينغ الأمير بندر عما يدعو إلى إراقة دماء الأميركيين في سبيل النفط، اعتمد بندر في إجابته مقاربة صريحة وبراغماتية، قائلاً: "لا أعتقد أن عليكم أن تكونوا اعتذاريين عن حماية مصالحكم القومية، فالنفط يؤثر في اقتصادات العالم"⁴⁴. وكانت أميركا قلقة حقاً من تعرّض سلامة حقول النفط السعودية للخطر من دون وجود أعداد كبيرة من القوّات الأجنبية على الأرض.

على الرغم من حشد صدام قوات عراقية على امتداد الحدود الكويتية المتاخمة للمملكة العربية السعودية، فإن نواياه الإقليمية تجاه المملكة لم تتضح بصورة قاطعة. لم يكن القلق من أن النفط سيتوقّف عن التدفّق في حال نجاح العراق في السيطرة على حقول النفط السعودية الواسعة، إذ سيكون من مصلحة صدام أن يسارع إلى إعادة الاستقرار إلى أسواق النفط. لكن هذا السيناريو يمنح صدام قدرة فعلية على الاحتكار، وبالتالي امتلاك تأثير استراتيجي كبير في أهم مصدر من مصادر العالم الصناعي. فهو يشكّل خطراً على المصالح الغربية والعربية على حدّ سواء. وقد عبّر عن ذلك الجنرال السعودي الأمير خالد بن سلطان بقوله: "إنّه يهدّد المصالح الحيوية لكل لاعب كبير في المنطقة... ولا يستطيع أحد أن يتحمّل محاولته تحقيق الهيمنة الإقليمية، لأن عدوانه يعادل ذلك"⁴⁵.

أخذ إحساس صدام حسين بالعزلة يزداد حدة. ففي 2 أغسطس 1990، يوم الغزو العراقي، صوت مجلس الأمن الدولي 14-0(*) لصالح القرار 660 الذي أدان العمل العراقي، وطالب بانسحاب القوات العراقية من الكويت، وشدد على التوصل إلى نتيجة تقوم على التفاوض. وكانت موافقة الاتحاد السوفياتي على هذا القرار شديدة الأهمية. فالعالم منذ بداية الحرب الباردة لم يتوحّد قط خلف قضية واحدة عن اقتناع بالشكل الذي يبيّنه تصويت الأمم المتحدة، حيث صوتت 28 بلداً، ومنها الاتحاد

(*) امتنع اليمن عن التصويت.

السوفيياتي والصين، بالإجماع ضد غزو الكويت ولتأييد فرض عقوبات على العراق: لقد كان عالماً متغيراً حقاً، وربما حتى في بدايات "نظام عالمي جديد"، وهي عبارة وضعها برنت سكو كروفت، الذي قال: "عنيينا بها، وقد شوّه المعنى لاحقاً بعدد من الطرائق، أن الحرب بين الدول هي من أكبر مصائب البشرية على مدى القرون. جرّبنا عصابة الأمم فلم تنجح، أنشأنا الأمم المتحدة وسرعان ما أصيبت بالجمود بسبب المشكلة الأميركية السوفيادية. وعندما حلت حرب الخليج، وحدث التعاون الأميركي السوفيادي أتاح احتمال أن نتمكّن من التعامل مع هذه المصيبة بطريقة تفضي حقاً إلى نظام عالمي جديد، هذا ما عنيناه لا أكثر. ولكن في وسع مجلس الأمن الدولي أن يقوم فعلاً بالدور الذي رسمه مؤسسوه، أي معالجة النزاعات بين الدول"⁴⁶.

عبّرت دعوة بندر إلى البيت الأبيض في اليوم التالي على الغزو، 3 أغسطس 1990 - كان قد وصل لتوّه من لندن - عن عزم الولايات المتحدة على نشر قوات أميركية في الخليج وعن الأهمية الاستراتيجية للتعاون السعودي في هذا الهدف. وفي اجتماع في مكتب سكو كروفت بعيد الساعة الحادية عشرة صباحاً، في 3 أغسطس 1990، قدّم إلى بندر عرض يحمل عن الموقف كما رآه الأميركيون وقيل له مباشرة إن الولايات المتحدة مستعدة للدفاع عن المملكة، وراغبة في إرسال قوات لهذه الغاية. فوجئ بندر وكان ردّه صريحاً: "ولم نريد أن تدافعوا عنا؟".

أجاب سكو كروفت مندهشاً: "ماذا تعني؟"⁴⁷.

قدّم بندر لاحقاً تفسيراً لأسباب صمت الملك فهد وتردّده الظاهر في قبول عرض بوش المساعدة. ومن تلك الأسباب لفتة الرئيس كارتر الجوفاء سنة 1979، بعد سقوط شاه إيران، عندما أرسلت الولايات المتحدة سرباً من طائرات F-15 لإظهار الدعم للمملكة العربية السعودية لتعلن بعد ذلك، فيما الطائرات لا تزال تواصل تحليقها، أنها غير مسلحة. وكذلك الأمر كان التدخل الأميركي في لبنان سنة 1983، عندما أمر ريفين بهدوء بإعادة القوات الأميركية مع سفنها إلى الوطن، بعد تعرّض ثكنتها لهجوم إرهابي شرس أدى إلى مقتل 241 أميركياً⁴⁸.

أظهرت هاتان الحادثتان، بالنسبة إلى السعوديين، افتقار الولايات المتحدة إلى العزم. ولم تكن المسألة الحقيقية التي بحثها الملك فهد ومستشاروه استقدام دعم عسكري أميركي أم عدم استقدامه، بل هل يمكن الركون إلى الأميركيين. هل سيأتون

بقوة وعزيمة كافيتين لإتمام المهمة؟ فقد اعتبرت الأمثلة الماضية على التردد الأميركي أو على الافتقار إلى العزم اختباراً للالتزام الأميركي.

وفي شرح بسيط، قال بندر: "لم يكن في وسع المملكة العربية السعودية أن تحتل مضاعفة خطر تعرضها للهجوم عما هو عليه بالفعل، إذا قرّرت أميركا وضع حدّ لتدخلها والهرب". لم يكن يريد أن تمدّ أميركا يد العون مؤقتاً ضد صدام ثم تسحبها، تاركة صدام على الحدود السعودية "وقد ازداد جنوناً على جنون"⁴⁹.

كان ردّ سكوكروفت على مراوغة بندر بسيطاً بالقدر نفسه: "أؤكد لك أننا لن نفعل ذلك؛ إذا أتينا، فسنبقى"⁵⁰.

كان الاجتماع بين بندر والرئيس في 3 أغسطس 1990 بالغ الأهمية. فقد أقنع بندر أن هذا الرئيس يتمتع بالعزيمة والشجاعة لمواجهة التحدي الذي لوّح صدام به في وجه العالم.

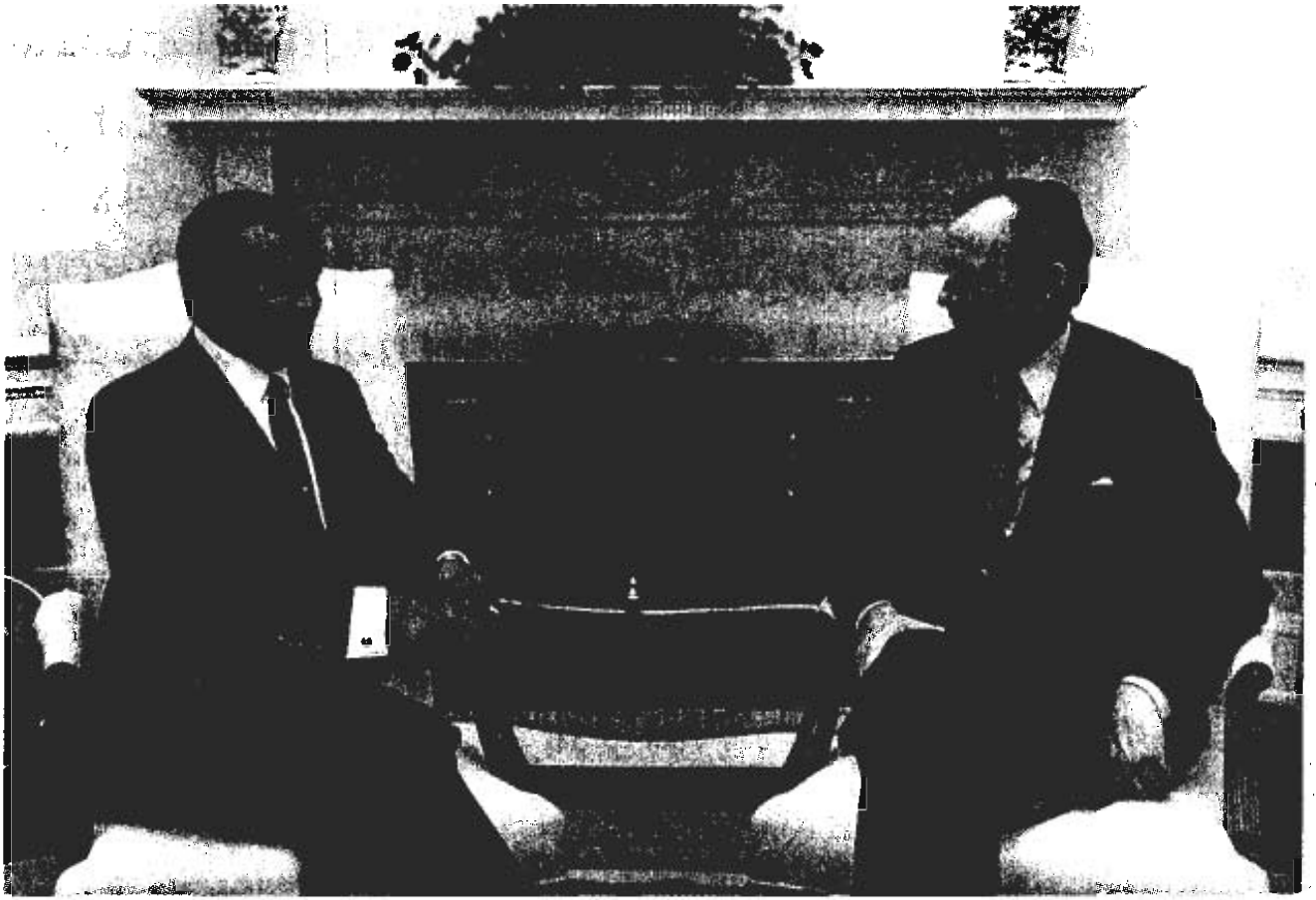
قال بندر، متذكراً: "عندما دخل جورج بوش الغرفة، قال، مرحباً بندر! وأضاف ضامّاً ذراعيه إلى جسمه، تعلم يا بندر مقدار الألم الذي تشعر به حين لا يثق أصدقاؤك بك".

قال بندر له: "سيادة الرئيس، نحن نثق بكم. الأمر ليس شخصياً. ربما يتوقف بقاء بلدي على ذلك. المسألة بسيطة جداً. إذا قُلتم لي ما يمكنكم أن تفعلوه، أستطيع عندئذ أن أطلعكم على موقفنا. نحن بحاجة إلى معرفة المدى الذي يمكنكم الذهاب إليه". عندئذ بسط بوش ذراعيه وقال: "إذا طلبتم عوناً من الولايات المتحدة، فإننا سنمضي معكم إلى النهاية".

ويقول بندر: "في تلك اللحظة، أحسست بقشعريرة، لقد شعرت حقاً بأهمية اللحظة. ففي النهاية، رئيس الولايات المتحدة الأميركية هو الذي يقطع هذا العهد على نفسه".

كان التعهّد بتقديم الحماية إلى المملكة العربية السعودية بقدر ما تقتضيه الضرورة ذا تأثير حاسم على تقييم الأمير، حيث اقتنع باهتمام أميركا الصادق لبلده وعزمها على حمايته. وفي تلك المصافحة، حدث التزام بين صديقين سيكون له أبلغ الأثر في الشرق الأوسط.

في اليوم التالي، في 4 أغسطس، تحدّث بوش إلى الملك فهد شخصياً على الهاتف، وتعهّد له أن تدعم أميركا المملكة العربية السعودية مهما استغرق ذلك من وقت.



بندر مع الرئيس جورج بوش

لولا التزام سفير الملك فهد بالانتشار المقترح للقوات البرية الأميركية داخل حدود المملكة العربية السعودية، واعتقاده الراسخ بضرورة تنفيذ ذلك بسرعة، لكان من المشكوك فيه أن يوافق الملك على وجود تلك القوات في الإطار الزمني الذي وافق عليه. فعندما اقتنع بندر بالتصميم والالتزام الأميركيين، كان عليه أن يعرف ما هو المعروض بالضبط. رتب سكوكروفت موعداً لبندر في البنتاغون حيث أطلعه وزير الدفاع ديك تشيني، وبول ولفوويتز، وريتشارد هاس، ورئيس هيئة الأركان المشتركة كولن باول على مجريات الأمور. وكتب باول في ما بعد: "لعب بندر دوره المعتاد كطيار حربي واثق بنفسه، وهو يحتسي القهوة من كوب بلاستيكي ويحركها بقلم مذهّب". وعلى امتداد العرض الذي قدّمه هؤلاء، لزم بندر الصمت، وهو يعضّ على سيجاره بين أسنانه. وقد عُرضت عليه صور استطلاعية فضائية أظهرت قوات عراقية وهي تعبر الكويت وتقترب من الحدود السعودية. وكشف ديك تشيني للأمير بندر، بإذن من البيت الأبيض، الخطة الدفاعية التي أعدتها للقيادة الأميركية الوسطى، وهي معلومات خاصة بالحكومة الأميركية فقط، والمفارقة أنها كانت ممهورة بعبارة "NORFORN"، أي "ليست للعرض أمام أجنبي". وقد أعجب بندر بحجم خطة

العمليات 1002-90⁵². وبعد سماعه أن القوات التي يتوقع نشرها تتراوح بين مئة ألف ومئتي ألف جندي، قال لباول: "أعرف الآن أنكم لا تخدعونني، وتعرفون الآن لماذا لا نريد سرباً من المقاتلات التكتيكية"⁵³.

وفي الحديث عن أفضل الطرائق للحصول على قرار إيجابي من الملك فهد، قال سكوكرافت: "في الواقع، كانت الفكرة الأولى أن يأتي فريق سعودي إلى هنا". لكن سكوكرافت اعترض على هذه الفكرة بقوة، قائلاً: "لا، لا، نحن سنرسل شخصاً إلى هناك".

في هذه اللحظة الحرجة، سأل بندر: "من سترسلون؟".

أجاب سكوكرافت: "لا أدري".

فقال بندر: "ما رأيك أن نقوم بالأمر معاً"⁵⁴.

في النهاية وافق سكوكرافت على سفر فريق أميركي مشترك لمقابلة الملك فهد. وفي ملاحظاته اللاحقة، أوصى بندر أن يرى الملك فهد الصور الاستطلاعية بنفسه. وكبديل عن إرسال فريق فني منخفض المستوى إلى واشنطن، قال إن الملك يقبل بفريق أميركي رفيع المستوى ينتقل إلى المملكة لشرح العناصر الأساسية للخطط الأميركية مباشرة.

لم يعد ثمة مجال للشك في أن الخطر حقيقي. فقد أوحى المعلومات الأميركية الاستخبارية عن تحركات الفرق العراقية من البصرة إلى الكويت ومن هناك باتجاه الحدود السعودية، فضلاً عن تجهيز تلك الفرق بصواريخ أرض - أرض من طراز فروغ إلى جانب معدات هجومية أخرى، أن غزو المملكة أصبح وشيكاً⁵⁵. وكما اعترف الوزير تشيني في ديسمبر 1990⁵⁶، "اعتباراً من 2 أغسطس، كان الشيء الوحيد الذي يحول بين صدام حسين وتلك الحقول النفطية [في شرق المملكة العربية السعودية] كتيبة من الحرس الوطني السعودي. لم يكن ثمة عائق عسكري يذكر أمام تقدمه جنوباً"⁵⁷. بل قيل إنّه ربما يكون في وسع العراقيين الوصول إلى الرياض خلال ثلاثة أيام⁵⁸. لذا فإنّ السعوديين، الذين تضمّ قواتهم المسلحة 70 ألف رجل فقط، بحاجة إلى مساعدة، حتى إذا أدى ذلك إلى نشر قوات على أراضيهم. لكن مثل هذا الخيار يثير خلافاً كبيراً. غير أن الملك فهد وافق على تلقي المعلومات الأميركية، وكان حريصاً على أن يتم ذلك بسرعة.

في يوم الأحد، 4 أغسطس 1990، أسرع بندر في العودة إلى المملكة العربية السعودية لكي يطلع القيادة السعودية على المعلومات الأساسية قبل وصول ديك تشيني⁵⁹. وفي يومي 4 و5 أغسطس، قام الجنود العراقيون بثلاثة انتهاكات صغيرة للمنطقة المحايدة بين المملكة والكويت. ودفعت تلك الانتهاكات لتشغيل الخط الساخن الذي أقيم قبل ست سنوات بين الجيشين السعودي والعراقي خلال الحرب الإيرانية العراقية⁶⁰. في البداية، اعتذر العراقيون عن خطئهم، واعدن بالبقاء داخل حدود الكويت. وبعد الانتهاك الثاني، لم يعد اللواء العراقي الذي تحدّث إلى السعوديين أول الأمر موجوداً، ونفى ضابط صغير أي علم له بالتعدي. وبعد الانتهاك الثالث، الذي وقع بعد 24 ساعة من الأول، لم يرد أي جواب من الجانب العراقي. ولم يتجشموا عناء الرد على الخط الساخن.

طوال حرب الخليج، برزت ببساطة تعقيدات - ذات طبيعة كارثية في بعض الأحيان - ليس بفعل الحاجز اللغوي، بل بسبب الحواجز الثقافية التي لم يستطع اختراقها سوى نفر قليل. وكما لاحظ مايكل غوردون في النيويورك تايمز، اعتاد السعوديون (والعالم العربي بصورة عامة) العمل على أساس الوعود والإيماءات، واعتاد الأميركيون العمل على أساس العقود القانونية والاتفاقات⁶¹. وثمة عامل ذو تأثير شديد في النهج الأميركي تجاه أزمة الشرق الأوسط، هو الرئيس بوش نفسه. فقد شعر بالعطف تجاه الشعب الكويتي وقيادته وتأثر بشكل خاص بالتقارير الواردة من الكويت عن انتهاكات حقوق الإنسان وأعمال التعذيب والتنكيل في الشوارع. وقد ارتكب صدام حسين خطئين مكلفين في العلاقات العامة عندما لجأ إلى استغلال مئات الرهائن ومحاصرة السفارة الأميركية، في محاولة لردع استخدام عقوبات أولاً، وحماية المواقع العراقية الرئيسية من الهجمات الجوية ثانياً. ووصف بندر في مقابلة على إحدى محطات التلفزة الأميركية، قيام صدام بالاختباء وراء مدنيين لا حول لهم ولا قوة أنه عمل "مناف للإسلام والعروبة"⁶².

وكتب الرئيس بوش في يومياته الملاحظة التالية: "قرأت لتوي تقريراً استخبارياً مخيفاً، فيه روايات عن تقطيع أوصال الكويت وتفكيكها بوحشية، وعن إطلاق النار على مواطنين وهم في سياراتهم عند نقاط تفتيش... إن هذا الأمر يشحذ من عزيمتي"⁶³. كان الرئيس ينظر إلى الموقف ببساطة مشاهمة لرؤية ريغن للأمر، بصرف النظر عن

مصالح الأمن القومي الأميركي. فقد قال: "لم يكن ذلك مسألة تتعلق بدرجات من اللون الرمادي أو محاولة رؤية وجهة نظر الجانب الآخر. بل الخير في مقابل الشر، والحق في مقابل الباطل"⁶⁴.

في 5 أغسطس، أبدى بوش التزاماً قوياً بالهدفين التوأمين، ردع العدوان العراقي على المملكة العربية السعودية وطرده العراقيين من الكويت، بحيث أعطى بندر وعد شرف أن الولايات المتحدة لن تتخلى عن المملكة العربية السعودية. وتعهّد أيضاً إلى أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح أن تحرّر الولايات المتحدة بلده وتعيده إلى منصبه حاكماً للكويت. وبعبارة لا لبس فيها، قال للعالم إن العدوان العراقي "لن يدوم"⁶⁵. وعند عودته من كامب ديفيد، حيث بدأ التخطيط السري لطرده صدام حسين، أذهل هيئة رؤساء الأركان الأميركية المشتركة عندما أفصح صراحة عن نيته أن تدحر أميركا الهجوم العراقي على الكويت⁶⁶.

كانت قناعة بوش الخلقية، وموقفه الصلب من غزو الكويت لا يتزعزعان. وشكّل تفضيله النهج الشخصي على الدبلوماسية، كما شهدت على ذلك صداقاته الشخصية، لا مع بندر فحسب، بل أيضاً مع مارغريت تاتشر وفرنسوا ميتران وشخصيات أخرى حاسمة في تلك الفترة، مجرد مثال يظهر كيف ساعد ذلك على صوغ سياسة واضحة للتصدّي، للتحدي الماثل أمامه. كان قراره الشخصي الحاسم صادقاً وبسيطاً، وبحصوله على دعم القادة العرب، كسب تفويضاً واسعاً عندما بدأ يدير النزاع. استجاب العالم العربي لردّ فعل جورج إيتش دبليو بوش العاطفية على معاملة الكويت ومواطنيها، إذ رآها لفتة إنسانية مطمئنة في زعيم يقتضي موقعه انتهاج موضوعية قاسية، كما تلمي السياسة الغربية.

لاحظ الجنرال شوارزكوف، قائد قوات الائتلاف في حرب الخليج أيضاً أن مثل هذا الفارق الدقيق أساسي لإقامة شراكة ناجحة مع العالم العربي: "في العالم العربي، يدخلك منصبك من الباب، لكن علاقاتك الشخصية تعود عليك بالتزامات من العرب. وقد نشأت تلك الطريقة لإدارة الشؤون من خيمة البدوي في الصحراء، حيث كان يلي مناقشات العمل ساعات طويلة من رواية الحكايات في الليل"⁶⁷.

بيد أن تورط الرئيس بوش الشخصي والعاطفي في الأحداث المكثّرة المتكشفة في الشرق الأوسط أقام حاجزاً في كثير من الأحيان، لا سيما عندما ووجه بهجمات

ضارية من وسائل الإعلام الغربية؛ فهو لم يكن خطيباً بارعاً على طريقة ريغن، وقد دفع صدقه، ومغزى ذلك خلال الحرب، برنت سكو كروفت للقول: "كان مخلصاً للغاية، لكن بعض كلماته أعطت مردوداً عكسياً إلى حد ما، أو أثارت الصحافة على الأقل"⁶⁸. وفي حين لقيت خطابات بوش استحساناً لدى الأطراف في الشرق الأوسط باعتبارها شهادة على العزيمة الأميركية، فإنها غالباً ما كانت تُفسّر في الغرب أنها تآر شخصي من صدام.

وفي الروايات الغربية، يُسجّل في كثير من الأحيان أن قرار الملك فهد الخطير الموافقة على استقبال قوات أميركية أُتخذ خلال تشاوره في 6 أغسطس مع تشيني والجنرال شوارزكوف^(*). ففي ذلك الاجتماع عمل بندر كمترجم عندما أطلع شوارزكوف الملك على الصور الاستخبارية الجوية التي ظهرت فيها دبابات عراقية على الحدود السعودية، وداخل الحدود، في بعض الحالات. وأوضح شوارزكوف أن نوايا صدام غير واضحة، لكن الوضع ينذر بالسوء. ثم قدّم المقترحات الأميركية للدفاع عن المملكة.

وتلا ذلك الإطلاع العسكري قيام تشيني بتسليم الملك فهد رسالة شخصية من الرئيس بوش. "إننا مستعدون لنشر هذه القوات للدفاع عن المملكة العربية السعودية. إذا دعوتنا، فسنلبي الدعوة. لن نطلب قواعد دائمة، وحين تطلبون منا الرحيل، سنرحل"⁶⁹.

قال الملك، بعد بحث وجيز مع مجلسه^(**): "لم يستعجل الكويتيون اتخاذ القرار، وهم الآن ضيوف في فنادقنا"⁷⁰. وهنا التفت الملك فهد إلى الوزير تشيني وقال: "موافق".

كتب شوارزكوف لاحقاً عن تلك المناسبة التاريخية: "لو أن أحداً التقط صورة في تلك اللحظة، لبدوت فاغر الفم. لقد اتخذ الملك فهد واحداً من أشجع القرارات التي شهدتها في حياتي"⁷¹.

(*) كان الحاضرون من الوفد الأميركي: الوزير تشيني، الجنرال شوارزكوف، بوب غيتس، بول ولفوويتز، بيت وليامز، أرت هيوز، الجنرال هورنر، الرائد براندنتر.

(**) الحاضرون من المسؤولين السعوديين: الملك فهد، ولي العهد الأمير عبد الله، الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز، الأمير سعود الفيصل، عثمان الحميد، الجنرال محمد الحمد، الأمير بندر بن سلطان.

خلافاً لتردد المملكة العربية السعودية المعتاد، كان القرار هذه المرة سريعاً ولا لبس فيه. الأمير كيون موضع ترحاب على الأرض الإسلامية المقدسة؛ في قلب المملكة العربية السعودية.

أخطأ صدام حسين بصورة خطيرة في تقدير ردّ فعل العالم على غزوه الكويت. ولم يتوقع أن تتخذ المملكة قراراً بالسماح لقوات أميركية بالمرابطة على الأرض السعودية. وبدا سخطه واضحاً في 10 أغسطس 1990، عندما أعلن حرباً مقدسة على إسرائيل والولايات المتحدة، مدعياً أن السعوديين سلموا هذين البلدين مكة والمدينة المنورة المقدستين رهينتين. وكان رد الأمير على تلك التهم صريحاً وفي الصميم: "هذا كلام فارغ وهو يعرف ذلك. فمكة والمدينة المنورة تبعدان ألف ميل عن مواقع وجود كل هذه القوات"⁷².

عمل بندر جاهداً في الولايات المتحدة لمواجهة الخوف المنتشر في وسائل الإعلام، ورداً على تُهم صدام التي وصف بها أميركا بالإمبريالية، فعزى بندر نفاق الزعيم العراقي، مشيراً إلى تحالف صدام مع الولايات المتحدة خلال حرب الثماني سنوات الإيرانية العراقية. وأمعن في الإهانة بتشبيه صدام بخصمه منذ أمد بعيد آية الله الخميني، قائلاً: "حقيقة الأمر هي أن الرئيس صدام حسين لم يجد المساعدة الأميركية له خلال الحرب [الإيرانية العراقية] مهينة ولا إمبريالية. وقد اعتاد الاعتقاد أن أعظم ما يمكننا أن نفعله لنساعده هو دفع الأميركيين لمساعدته والتنسيق معه إبان الحرب... ويبدو تقريباً [الآن] أنه يقلد الخميني؛ وهذا آخر ما ظننت أن صدام حسين سيفعله".

في الردّ على أسئلة عن الجهاد الذي دعا إليه صدام، قال بندر بإحساس مفعم بالواقعية: "لكي تدعو إلى الجهاد عليك أن تكون متديناً، بمعنى أن تقوم بالعمل الصائب. كيف يمكنك أن تدعو إلى الجهاد إذا غزوت بلداً عربياً شقيقاً مسلماً وعتت فيه خراباً على النحو الذي فعلته؟"⁷³.

كان القرار السعودي بالتعاون مع القوات الأميركية تاريخياً؛ وأشار إلى نهاية الصورة السلبيّة عن المملكة العربية السعودية التي تشبه سلحفاة الصحراء، متأهبة دائماً لإدخال رأسها في قوقعتها. وبسبب التشعبات الدينية، جلب قرار الملك فهد معه مخاطر كبيرة. فالملك فهد، كزعيم إسلامي معترف به عالمياً، يُعرف بلقب خادم الحرمين الشريفين، يدرك تماماً الاحتجاج الشعبي الشديد على وجود الأميركيين على أرض

إسلامية؛ فردّ فعل المواطنين السعوديين، والمسلمين في العالم، سيكون قاسياً. وكانت المملكة تحشى من ألا ترغب القوّات في المغادرة إذا سُمح لها بالدخول. والسياسة والدين متشابكان جداً في المملكة - الدستور السعودي مستمدّ من القرآن الكريم - بحيث يجب على الملك فهد أن يأخذ في الحسبان ما هو أبعد بكثير من مجرد الموقف الإقليمي. فقد كانت مسؤولياته الدينية أمام شعبه في مقدّمة أفكاره.

كان لدى الملك فهد اعتبار آخر بالإضافة إلى الضغط الدنيوي، وتقدّم الوقت بسرعة: الوفد الأميركي. فقد كان مقرراً في أول الأمر أن يتولى الجنرال سكو كروفت رئاسته، لكن إرسال وزير الدفاع ديك تشيني بدّل الموقف كثيراً. وكما قال برنت سكو كروفت نفسه: "إذا تقرّر أن أذهب، فيمكنني أن أذهب وحدي، وبهدوء، وإذا رفض الملك العرض، فلا حرج، ولا ضرورة لأن يعلم أحد بالأمر. وإذا تقرّر أن يذهب تشيني، فعليه أن يعود بشيء ما، وإلا، سيكون الموقف صعباً علينا كلياً".

وقع على بندر أمر نقل هذا الخبر إلى الملك، وهو خبر يعادل الرسالة: "إذا قبلت أن يكون هذا الوفد برئاسة ديك تشيني، فيجب أن تكون مستعداً للموافقة على أمر ما". لقد كانت معلومات صريحة جداً بحيث ليس من السهل على أي شخص أن ينقلها إلى الملك، وكما قال سكو كروفت، مستعيداً ذكرى ذلك الموقف: "غص بندر، لكنّه أنجز المهمة... وأنا أعزو إليه فضلاً كبيراً؛ لقد جابه الموقف الصعب بشجاعة وقال [للملك فهد]، هذا ما يجب عمله". وابتسم سكو كروفت ابتسامة عريضة عندما أوضح أنهم كانوا يعرفون في ذلك الوقت أن الأمور ستكون على ما يرام. فمن حيث الجوهر، كان سكو كروفت على علم منذ 3 أغسطس، أي قبل أن يغادر الوفد أميركا، أن الأمير حصل على قرار إيجابي من الملك فهد بالموافقة على انتشار قوات أميركية في المملكة. كان الأمر بمثابة "اتفاق منجز".

كان أمن المملكة وسيادتها على المحك. ويقول سكو كروفت: "بعد لقاء تشيني بالملك، اتصل وقال، قُضي الأمر، وبدأنا نحرك قواتنا، فوصل جنودنا إلى هناك [المملكة العربية السعودية] بعد 48 ساعة. أرسلنا كتيبة على وجه السرعة، وهذا كل ما استطعنا أن نرسله بسرعة. ولكن ما أردنا أن نفعله حقاً كخطوة أولى هو وضع قوات في طريقه [أي صدام] على الفور بحيث يضطر إلى الاصطدام بها؛ وهذا ما فعلناه ثم تابعنا حشد القوات"⁷⁴.

بما أن قيام الملك فهد باتخاذ قرار مفاجئ في قضية هذه الأهمية أمر غير معقول، فإن العديد من الأشخاص - وبخاصة برنت سكوكرافت - يعتقدون أن بندر حصل بالفعل على تفويض واضح من فهد. ويعتقد آخرون أن محادثة هاتفية أخيرة بين الرئيس بوش ورئيسة الوزراء مارغريت تاتشر، يوم كانا في أسبن، كانت السبب الحقيقي لموافقة الملك. ووفقاً للورد باول، كان بندر أول من اتصل برئيسة الوزراء البريطانية في أسبن، ورُتب اتصالها بالملك فهد مباشرة⁷⁵.

عن مصادفة زيارة السيدة تاتشر إلى الولايات المتحدة قبيل اندلاع حرب الخليج، شدّد السير ريتشارد إيفانز، رئيس شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، على أن رئيسة الوزراء تاتشر تمكّنت بذلك من مقابلة الرئيس بوش على عجل، ورأى أن سير الأمور في الحرب كان يمكن أن يختلف كثيراً في البداية لو أن الحوار بين بوش وتاتشر تم عبر الخط الهاتفي الساخن، بدلاً من لقائهما وجهاً لوجه⁷⁶. وقد صرّحت تاتشر لاحقاً أن الرئيس بوش أثار إعجابها: "كان حازماً، ورابط الجأش، يشي بالخصال الحاسمة التي يجب أن يتمتع بها القائد الأعلى لأعظم دولة في العالم".

لقد اتخذ جورج بوش قراره؛ ولم يكن في نيته التردّد.

وكتبت تاتشر، "لقد أعجبت دائماً بجورج بوش. والآن ازداد احترامي له كثيراً"⁷⁷. عندما طُلب من الجنرال شوارزكوف وصف دور الأمير في تسهيل الردّ الأميركي على غزو الكويت، ردّ مؤكداً: "يمكنني القول إنه كان أساسياً. ليست لدي فكرة عما إذا كان صدام قد خطط للهجوم باتجاه الجنوب أم لا، لكن كان يمكن أن يتأخّر نشر القوات كثيراً". وفي تخمين بشأن نوايا صدام، قال: "كانت المؤشرات كلها تدلّ على أن القوات العراقية ستواصل تقدّمها إلى داخل المملكة العربية السعودية فور إعادة تجمّعها. فبعد سقوط الكويت - وقد استغرق الأمر كله نحو يومين - لم نكن متيقّنين مما يمكن أن يحدث. كنّا نراقب، لكن لم يكن في وسعنا الجزم أن القوات العراقية لن تواصل، بعد توقّف قصير لإعادة تجميعها، التقدّم إلى الساحل الشرقي للمملكة ومحاولة الاستيلاء على حقول النفط".

ثم أكّد سكوكرافت: "لو أنها فعلت ذلك، لوقعت الكارثة، لأنّها كانت ستستولي على موانئ المنطقة وكنّا سنواجه مشقة كبيرة في استعادتها. أعتقد أن صدام كان يفكّر في الأمر، لكنني لا أعرف إذا كان سيقدم على ذلك أم لا. كان علينا

إدخال بعض القوات بسرعة بحيث يدرك صدام أنه سيضطر إلى الاصطدام بقوات أميركية وذلك بحد ذاته سيجبره على التفكير ملياً. لذا كان علينا إبلاغ السعوديين أننا نريد المساعدة وأنها مستعدون لإرسال القوات"⁷⁸.

وقد ردّ السير ريتشارد إيفانز تلك الآراء عندما قال: "بدا من المحتمل تماماً أن صدام يريد التحرك بسرعة للاستيلاء على الظهران وحقول النفط السعودية". ولو سقطت المملكة العربية السعودية، لكان تأثير ذلك في اقتصاد العالم بأكمله كارثياً. وقال إيفانز: "كانت هناك قضية الاقتصاد الكلي الهائلة. والأمير بندر من الأشخاص الذين أدركوا ذلك في الواقع. وهكذا، كان دور الأمير بندر جوهرياً في تسهيل اتخاذ القرار السعودي بسرعة، وهو أمر تمقته العقلية السعودية تقليدياً"⁷⁹.

لا ريب في أن بندر كان مصمماً على إصلاح الضرر الناجم عن خداع صدام وكذبه. ويرجع التصميم الشديد الذي أظهره الأمير في بداية الغزو العراقي إلى حدّ ما، إلى خيبة أمله الشخصية من قيام صدام بتضليله.

يذكر جيمس بيكر في كتابه *The Politics of Diplomacy* (سياسة الدبلوماسية) أنه اجتمع، قبل مقابلة الملك فهد في جدة، لمدة ساعتين مع الأميرين سعود وبندر، فألحا عليه بالتبكير في بدء الحرب على صدام. ووفقاً لبيكر، كان بندر مصراً جداً على التحرك بسرعة. وقال: "إما أن يذهب أو نذهب نحن في يناير".

في اجتماع بين جيمس بيكر والملك فهد، تمّ بحث ثلاث مسائل مهمة تتعلق بتنسيق الحرب. أولاً، كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى إذن سعودي لنشر 200 ألف جندي إضافي على الأرض فأعطى الملك موافقته. ثانياً، يجب أن تعود السيطرة الكاملة على ميدان الحرب إلى القادة العسكريين الأميركيين، لا الضباط السعوديين، وهنا أجاب فهد: "هذا أمر طبيعي". ثالثاً، طلبت أميركا مزيداً من المساعدة المالية، فكان جواب فهد: "لا يوجد شيء يتعدّر البحث فيه بين الشركاء".

عن طلب مساهمة مالية قدرها 15 مليار دولار من الملك فهد لتغطية تكلفة الانتشار العسكري الأميركي، ذكر بيكر أنه في أثناء لقاء على مائدة إفطار مع وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل وبندر، عبّر له بصراحة عن مفهومهما لتقاسم الأعباء بالقول: "لا تطلب منا 15 مليار دولار إلا بعد أن تحصل على 15 مليار دولار من

الكويتيين". وأضاف بندر: "إنهم قادرون على تقديم هذا المبلغ أيضاً. لديهم الكثير من المقدرات. فما نفعها إذا لم يستعيدوا بلدهم؟ لذا اطلب منهم بقدر ما تطلب منا. وستحصل على طلبك".

وقد طلب بيكر ذلك بالضبط وحصل عليه⁸⁰.

أكد ريتشارد إيفانز أن بندر تولّى دوراً رئيسياً في حرب الخليج، "بسبب إدراكه خطورة التهديد الذي يمثله صدام. كان يدرك جيداً أنّ على المملكة العربية السعودية الحصول على دعم من الولايات المتحدة ونشر قوات على الأرض بسرعة لمواجهة التهديد العراقي وبالتالي دحر غزو الكويت"⁸¹. وأثنى سكوكروفت أيضاً على قيمة المساعدة التي قدّمها الأمير، ومكّنت القوات الأميركية من الانتشار بسرعة كافية لوقف التقدّم العراقي. وقال بشيء من المرح: "امتقع وجه بندر حين قلت له ما يجب أن يفعله - وأعتقد أن بندر يؤكّد ذلك - لأنه أمر كبير أن يقول للملك عليك أن تتخذ قراراً... الآن!".

ضحك سكوكروفت عالياً، متذكراً انزعاج الأمير من جسامه المهمة المطلوبة منه، وكرّر القول: "سيتذكّر ذلك الحديث، لكنّه أدى المهمة، وقال للملك، هذا ما يجب أن نفعله". ولاحظ سكوكروفت أن بندر بقيامه بذلك كان يخاطر بنفسه، لأنّه بحسب تعبيره: "كانت فكرة الملك التأمّني - دعنا نتمهل - نرسل فريقاً ثم يرسل الأميركيون فريقاً إلينا. على طريقة العرب في العمل". ثم مال سكوكروفت إلى الأمام وقال بكثير من الجدية: "أعتقد أنّه لولا بندر لما تم الأمر، وكان التاريخ مختلفاً جداً"⁸².

لا يمكن التعبير بسهولة عن جسامه القرار السعودي بالوقوف ضد بلد مسلم شقيق بمساعدة من الولايات المتحدة. فهو يرمز عند الكثيرين إلى تحالف خطير يعرّض الدين الإسلامي للخطر. فالمملكة العربية السعودية هي حامية الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة. ولا شكّ في أنّ قرار الملك فهد أحدث صدمة شديدة لدى صدام، الذي كان يعوّل بالتأكيد على ميل السعوديين إلى الحذر والدراسة المتأبّية. وكما قال بندر: "الصحراء تفرض ذلك النوع من البراغماتية على أهلها. ينبغي للمرء أن يميز السراب من الواقع الحقيقي في الصحراء. فحياته تتوقّف على ذلك"⁸³.

لكن، خلافاً للتصوّر أنّ الملك فهد سيجد نفسه على المحكّ إزاء الغزو العراقي المباغت للكويت، وعزم البيت الأبيض المفاجئ على حماية المملكة العربية السعودية

وحقول نفطها، فقد كان الملك في موقف مهيباً لاتخاذ الإجراء الحاسم. فحين تمتدّ مملكتك على مساحة تقارب المليون كيلومتر مربع وتحتزن أضخم احتياطات البترول في العالم، ومع ذلك لا يزيد تعداد سكانها عن 18 مليون نسمة^(*) وعديد قواتها المسلحة على 70 ألف رجل، يصبح الدفاع على رأس الأولويات، إنّه الشغل الشاغل أبداً. وهو ما كانت المملكة العربية السعودية تستعدّ له منذ سنوات.

لما كانت للمملكة حدود مشتركة مع سبعة بلدان منفصلة في منطقة غير مستقرة، فلا عجب في أنّها تفضّل دائماً الموقف الحذر على الموقف الفاعل. غير أن السعوديين لم يستهينوا قط بتقلبات المنطقة. فقد عمل وزير الدفاع الأمير سلطان طوال عقود على تقوية القدرات الدفاعية السعودية، وبخاصة دفاعاتها الجوية. وتعكس جهود بندر الدائمة على المستوى العالمي، بالنيابة عن أبيه، هذا المسعى بكل بوضوح. وما معركة الحصول على طائرات F-15 وأواكس، وصفقة اليمامة مع المملكة المتحدة، وصفقة الصواريخ الصينية إلا أمثلة بالغة الأهمية على تصميم المملكة المتواصل على الدفاع عن نفسها. ومع ذلك، بالنظر إلى حجم الجيش العراقي وقوته، قدرها ولتر لانغ، المختص الشرق الأوسط في وكالة الاستخبارات الدفاعية، بنحو مليون جندي ووصفها أنّها مخيفة^(*)، لم تكن المملكة العربية السعودية في وضع يمكنها من سلوك سبيل المجازفة.

وقد ذكر شقيق بندر وقائد القوة المشتركة، الأمير خالد بن سلطان، بوضوح تام أنّ ثمة افتراضاً دائماً لدى النخبة السعودية "أننا لن نتردّد في طلب المساعدة من أي دولة صديقة لدينا مصالح مشتركة معها، بما في ذلك الولايات المتحدة، إذا تهدّد أمن أرضنا وسلامتها، وتعرّضت قواتنا لخطر الهزيمة"⁸⁴.

لم تكن المسألة تتعلق إذاً بالتعاون مع الولايات المتحدة أم عدمه. فالبراغماتية الواقعية السعودية تقضي بذلك عندما يكون ضرورياً. بل كان الأمر المطروح للمناقشة حقيقة التهديد الذي يشكّله صدام ومداه وإلى أي حدّ يمكن الوثوق أنّ الأمير كيين لن يتخلوا عن المملكة إذا جدّ الجدّ. ويبدو أنّ آل سعود انقسموا حول هذه القضايا. وقد أشيع أنّ الأجيال الشابة والأمراء الذين درسوا في الغرب - المجموعة المحيطة ببندر - كانوا يفضلون طلب المساعدة الأميركية، غير أنّ أعضاء العائلة المالكة الكبار، بمن فيهم ولي العهد الأمير عبد الله ووزير الدفاع الأمير سلطان، أبدوا

(*) بلغ تعداد السكان في يوليو 1990: 17,115,728 نسمة.

تحفظات، فاقمها بصورة مطردة موقف أميركا الامتلاكي طوال السبعينيات والثمانينيات من حقول النفط السعودية⁸⁵.

في نظرة ثاقبة إلى الاستراتيجية السعودية خلال العقود العديدة السابقة، أوضح بندر أن "الملك فهد رأى أن أسوأ ما في الحرب الإيرانية العراقية كان تساوي القوات لدى إيران والعراق. ولأن لديهما قوات متساوية، ما الذي يمكن أن يقدمه ما تبقى من العالم إذا ساند أحد الجانبين؟ الأسلحة! لم يكن أي من الجانبين بحاجة إلى جنود، لأنهم متوفرون. كانا بحاجة إلى أدوات القتال!".

عند مقارنة ذلك بوضع المملكة العربية السعودية، والإجابة عن سؤال طرحه العالم الغربي: "كيف تنفق المملكة العربية السعودية ملايين الدولارات على التسليح وحين تبدأ حرب الخليج سنة 1990، تضطر إلى استقدام قوات خارجية؟". أوضح بندر الاستراتيجية الكامنة وراء تلك الفلسفة، وأشار إلى درس مستخلص من حلف الناتو في أثناء الحرب الباردة. فعلى الرغم من أن أوروبا كانت تملك التكنولوجيا والمال والطاقة البشرية والاقتصادات القوية، فإنه لم يكن هناك ما يدعو إلى عدم تمكنها من الوقوف في وجه التهديد العسكري السوفيّاتي من دون مساعدة. إذا أخذنا أوروبا كلها في مواجهة حلف وارسو. ولاحظ بندر، "لكن كانت لدى أوروبا حليفة الولايات المتحدة - تملك تلك القدرة العسكرية وكانت مستعدة لتولي دور مواجها السوفيّات".

عند التوسّع في شرح ذلك المنطق، استشهد بندر بإرث الحرب العالمية الثانية. فقد خرجت أوروبا لتوّها من حرب مدمرة، ومع أن كل دولة على حدة كانت قادرة في نهاية المطاف على الوقوف على قدميها بإمكاناتها الذاتية، فقد قرّرت بلدان أوروبا الغربية استغلال تلك القدرة لإعادة بناء دولها. وهكذا، أنشأ الأوروبيون قوات مسلحة كبيرة بما يكفي لأن تكون فعالة، لكنها ليست كبيرة ما يكفي لمواجهة الانحلال السوفيّاتي وحدها، لأن تلك الحاجة يوازنها الأميركيون بتقدم مظلتهم النووية ووسط قواتهم على خطّ الجبهة.

لا يمكن تجاهل ذلك. وقد سأل بندر: "لمّ يكون القيام بذلك حكيماً بالنسبة للأوروبيين وغيبياً بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية؟". وفي مقارنة بين أوروبا والمملكة العربية السعودية، رأى بندر أنه إذا كان هناك من يمكنه المساهمة في



الأمير بندر ساحر الطيران النفاث في أوج عطائه.



الملك فهد

البارون الأحمر.



صورة خاطئة
مكنته من

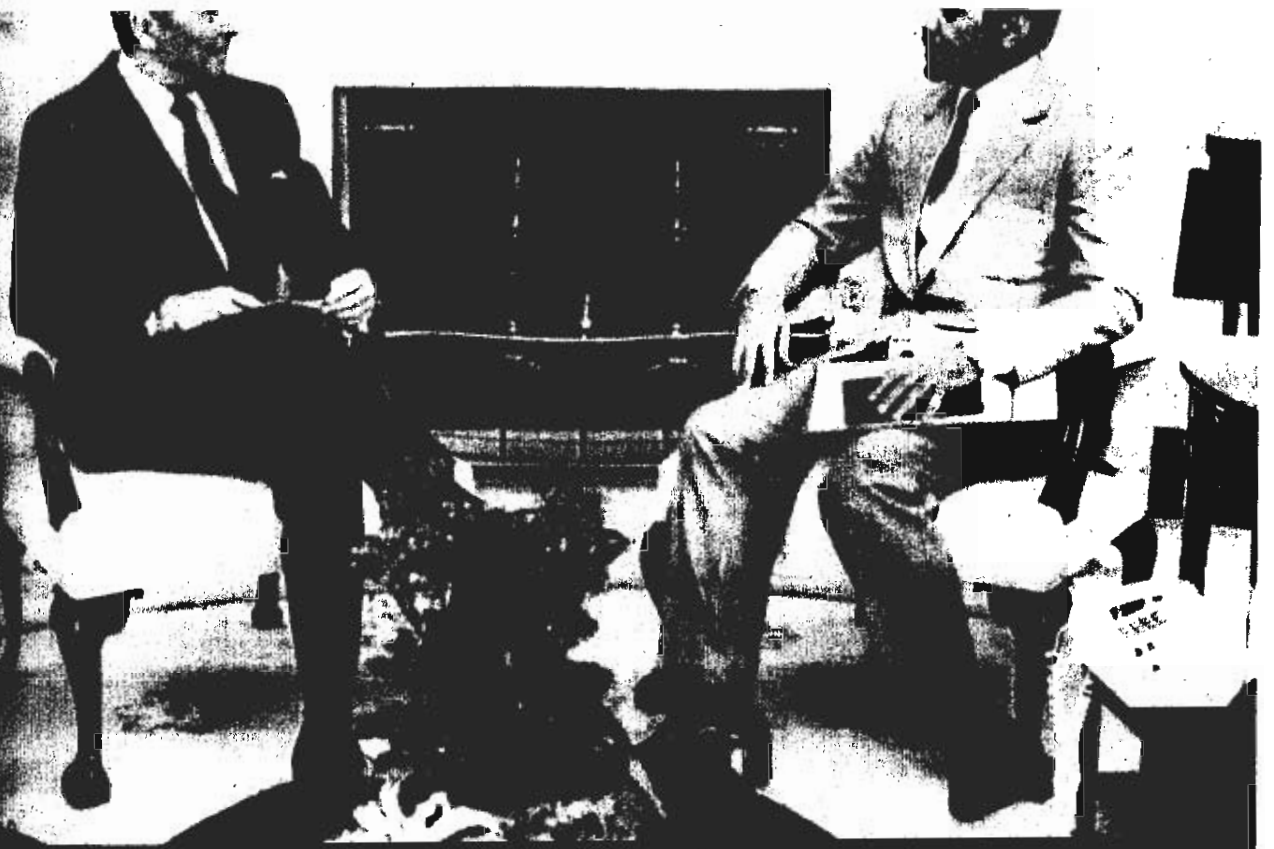
فاجأ بندر والده عندما شارك في عرض طائرات تورنيديو في وارثون - طيران سمحت به مارغريتا تاتشر.



ملك فهد والأمير بندر، في لقطة نادرة لجلالته باللباس الغربي.



صورة خاصة لرونالد ونانسي ريغن مع بندر. مع الوقت طوّر الأمير روابط صداقة متينة مع نانسي لكنها من التأثير في طرد أو انتقاء أعضاء الوزارة.



مع طابرة
وزار سلاح ال

الرئيس ريغن متجهما يحاول إقناع الأمير بمساندته في اتفاقية الصواريخ الصينية.

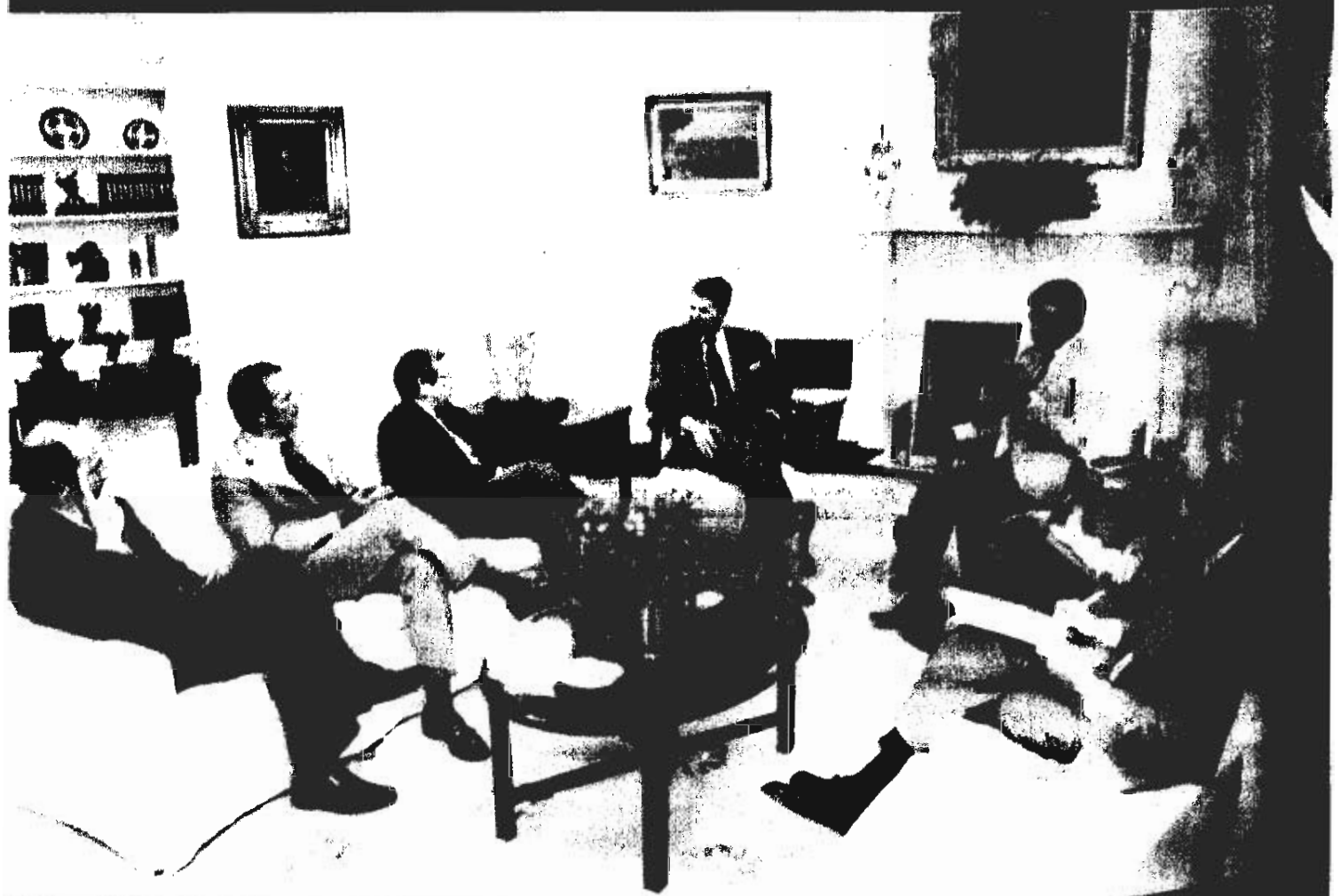


في اجتماع CS
مست الأبيض
مست يوش

اتفاق الصواريخ الصينية: بندر يصافح رئيس الوزراء الصيني زاو زيانغ، الذي أصبح سكرتيراً للحزب. ثم أقصى من السلطة عندما اتخذ جانب الطلاب المحتجين في ساحة تيانانمن.



من طائرة اواكس السعودية الاولى بطاقم سعودي كامل مع ضابط اميركي واحد، مع انها حملت
سلاح الجو الاميركي الى حين هبوطها في المملكة.



مؤتمر AWACS باتجاه عقارب الساعة من اليسار: نائب وزير الدفاع مايكل ديغر، كبير موظفي
بيت الابيض جيم بايكر، رئيس النواب الجمهوريين هاورد بيكر، الرئيس ريغن، الامير بندر نائب
وزير الدفاع بوسر امهتجب جزنياً ومستشار الامن القومي ريتشارد ألن



الرئيس الإيراني محمد خاتمي يقابل الأمير بندر خلال قمة إسلامية.

دول الأمم
في إحدى



لقاء الوفدين خلال زيارة الملك فهد في العام 1985.

دعا الرئيس
عقرب ال
ماكفارلن
أمير سعة



نزل الأمير سلطان جلاله الملك في ذكرى تأسيس الأمم المتحدة الأربعين. وتم اللقاء مع ياسر عرفات في إحدى الغرف المخصصة للاجتماعات المغلقة. إلى اليمين الأميران سعود وبندر.



دعا الرئيس ريغن إلى إفطار خاص غير مبرمج خلال زيارة الملك فهد، وقد حضره (من اليسار باتجاه عقارب الساعة) وزير الخارجية الأمريكية جورج شولتز، الملك فهد، مستشار الأمن القومي باد ساكفارتين، وزير الخارجية السعودي الأمير سعود، الرئيس ريغن، والأمير بندر (ظهره إلى الكاميرا). كان الأمير سعود وجورج شولتز الشخصين الوحيديين إلى الطاولة اللذين لم يعرفا بقضية إيران كونترا.

ambassador - Friend
Cuz Bush



صيد الاسماك مع نائب الرئيس بوش - بداية علاقة صداقة طويلة الامد.

وزير
الخارج
بندر



ذكرى الشكر 1990. بعد اللقاء الرسمي في جدة مع الملك وأمير الكويت، توجه الرئيس الى المنطقة الشرقية للقاء طواقم سلاح الطيران السعودي، قبل المشاركة في فعاليات ذكرى الشكر على حادثة طائرات. رافق الأمير بندر جورج وباربرة بوش خلال مقابلتها الطيارين في الظهران.

من حرب

and friendship - Jim



وزير الخارجية جيم بايكر يحيي الجنود الأميركيين في حرب الخليج. لقد أضاف تكريماً شخصياً
- أمير بندر بقوله: "الذي كان يعرف دائماً أنه يمكن إنجازها - وسوف تنجز".



على حرب الخليج، الرئيس بوش يشكر الأمير بندر بينما الجنرال نورمان شوارزكوف يراقب موافقاً.



قبل بدء مؤتمر مدريد للسلام في العام 1992، تأخر حضور الأمير بندر، مما جعل الرئيس ريغز يبدأ الافتتاح فعاليات المؤتمر ليشكر الأمير بندر لمساعدته في تحقيقه.



النشاط الأخير للرئيس بوش في البيت الأبيض - مأدبة عشاء لعشرين من أصدقائه المقربين تظهر هذه الصورة ذكرى حميمة ومفضلة لدى الأمير.

غزل رسام
بيل كلينتون
معلق بيد
حافظ الأسد
بمعرض القنا



لفظ الرسام الكاريكاتوري البريطاني الشهير جيرالد سكارف صور نلسون مانديلا، والأمير بندر، والرئيس جورج بوش الأب على طريقته.

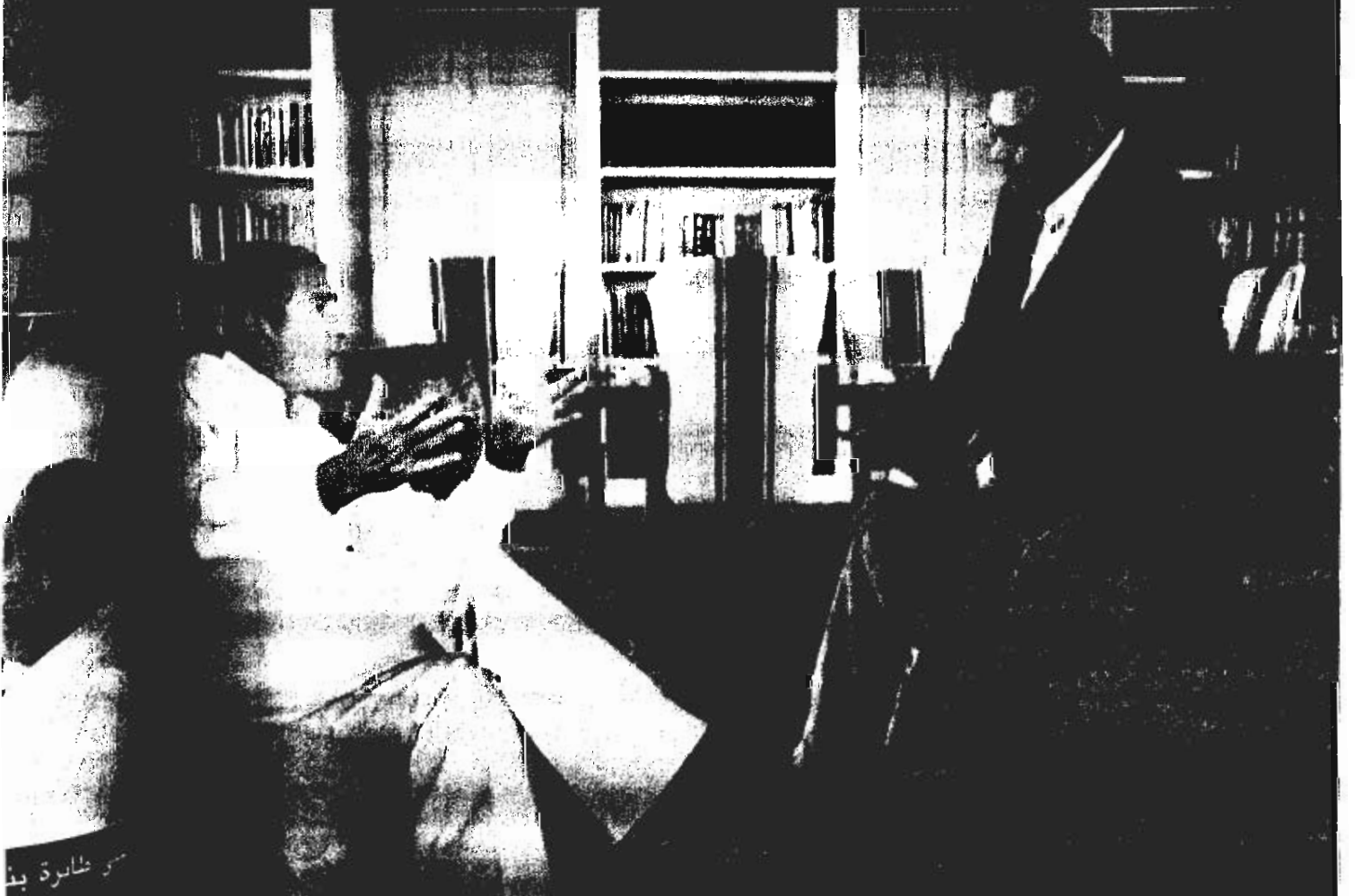


عمل رسام الكاريكاتور العربي محمود كحيل على تصوير الواقع السياسي في العام 1990. إلى اليسار نيل كلينتون، جيت شيراك، هلموت كول وهم أمنون سياسياً. بينما رئيس الوزراء البريطاني جون ميچور معلق بيد واحدة بعد خسارته إعادة ترشيحه. بينما يوازن الشرق الغرب في الجهة المقابلة، إلى اليمين حافظ الأسد، هاشمي رفسنجاني، وياسر عرفات أمنون سياسياً. بينما يتدلى صدام حسين رأساً على عقب وبمشر القذافي معلق بأطراف أصابعه، والأمير بندر يسير على الحبل المشدود بين الجميع.



الأمير بندر
في قصره

الاجتماع الذي لم يكن مبرمجا له الرئيس كلينتون والأمير بندر في قاعة الانتظار في البيت الأبيض في 26 يناير/كانون الثاني 1993. دون الأمير التاريخ على الصورة لمحفوظاته الخاصة.



الأمير بندر
في قصره
في 2002

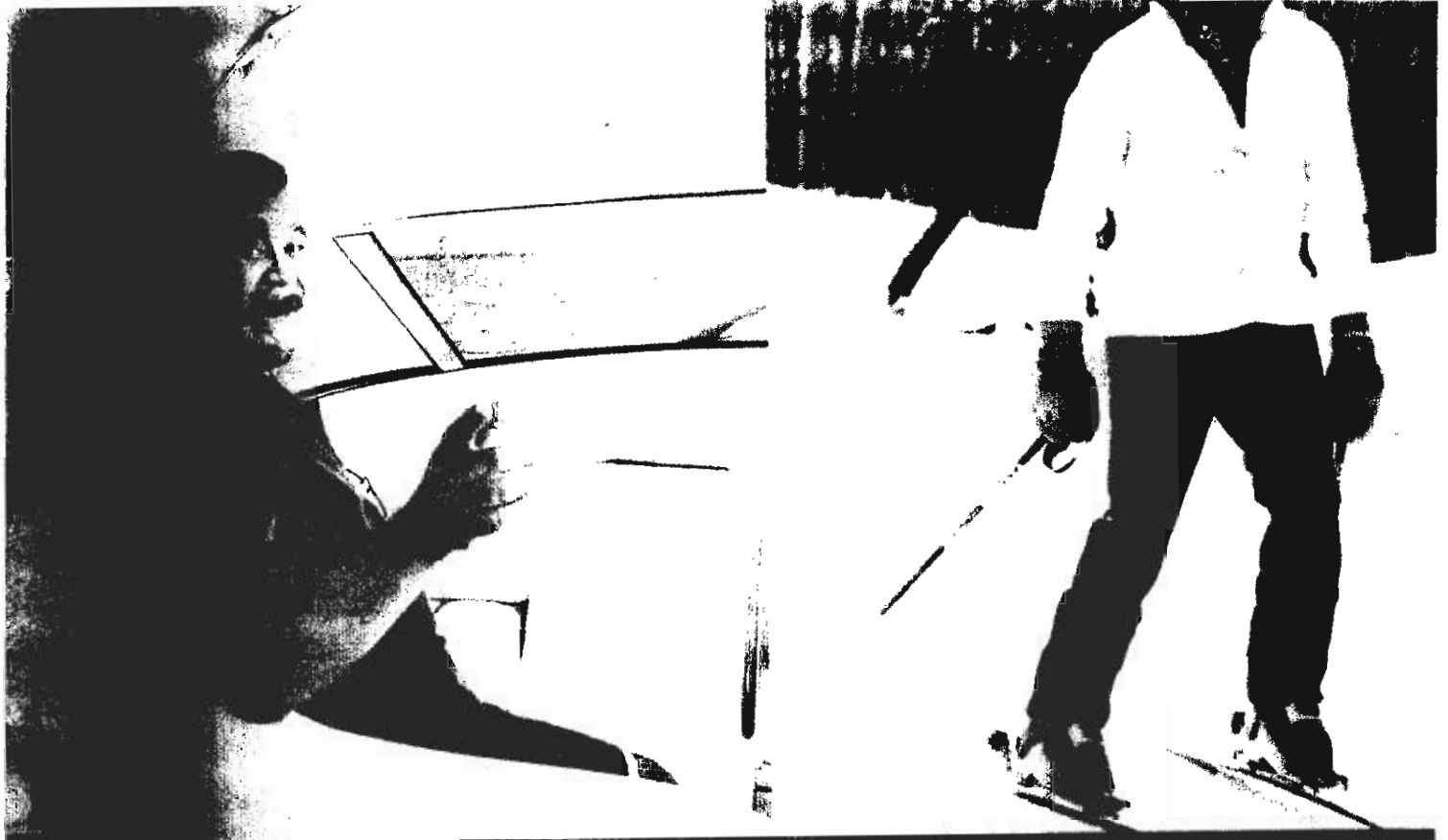
اللقاء الشهير في مزرعة الرئيس جورج بوش في كروفورد، تكساس، في أغسطس/آب 2002



الأمير بندر وصديقه واستاذة العظيم نلسون مانديلا، حيث توصل الاثنان مع الرئيس القذافي الى
بحر يقضي بسوق مفجري طائرة Pan Am 103 الى العدالة ورفع العقوبات الاقتصادية عن ليبيا



على طائرة بندر الخاصة المتجهة من واشنطن الى هيوستن لحضور الاحتفال بميلاد الرئيس بوش
ساعات زين طاهم طائرة الامير الطائرة لاحتفال مفاجي من اليسار باتجاه عقارب الساعة جيم
مستر جورج بوش، ميخائيل غورباتشيف، برنت سكاوكرافت (غير ظاهر)، والامير بندر.



أعمل بجد وامرح بجد. الأمير يتمتع بنزهة بحرية في البحر الأحمر قرب جدة، ويرى براعته في منحدرات أسبن. أمير بندر وحسن سويا في



قائد المقاتلات المخضرم يحاول التأثير في أحد أبنائه، يستخدم إحدى يديه كبدول عن المنقذ أف-15، يريه كيف يتم الهجوم على طائرة معادية. أمير بندر يدخل



أمير بندر وحفيده الأمير تركي. كان الصغير يطمح دائماً للحصول على شارب، فرسمه له جدّه عندما كان في أسبن.



أمير بندر يدخل ولديه خالد وفيصل إلى المطبخ متسلحين بأدوات الطبخ.



الأمير بندر مع حفيدته سارة.

لمملكة العسكري، ما يجرّر مقدّراتها ويوجّهها إلى مشاريع كالتعليم والصحة والتنمية وسواها، فإنّ ذلك يبدو معقولاً. واعتبر أنّ ذلك يوفر الاستقرار والأمن. وقال: "الحياة موضوع مقايضة، ولا يستطيع المرء الحصول على الأمرين معاً".

وقدّر بندر أنّه لو قررت أوروبا مجارة الاتحاد السوفياتي، فلربما كانت لا تزال مجموعة من بلدان العالم الثالث في ما يتعلّق باقتصاداتها وتطوّرها الاجتماعي. "لماذا؟" سأل بندر. "لأن مليارات الدولارات التي صُرفت لجعل أوروبا ما أصبحت عليه بعد الحرب العالمية الثانية كانت ستُستخدم لبناء قوة نووية وقوات مسلّحة عاملة لمجارة الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو".

وينقل بندر المقارنة إلى المملكة العربية السعودية، فيخلص إلى أن المنطق الاستراتيجي السعودي يقوم على تلك القاعدة المعقولة. فالمملكة، وفق هذا المنطق، هيأت قوات مسلحة كافية لردع خصم محتمل ذي حجم مماثل. ولكن في حالة العراق الذي يمتلك مليون جندي وسبعة آلاف دبابة وثمانئة طائرة، فإنّ المملكة العربية السعودية لا تستطيع أن تجاربه سلاحاً في مقابل سلاح. وبدلاً من ذلك، اختارت المملكة معادلتها بتحالفات، واستراتيجية سياسة خارجية تمكّنها، حين يجدّ الجد، من كسب حرب في شهر واحد، بدلاً من الشروع في حرب تدوم ثماني سنوات وتنتهي بالتعادل". وهكذا في وسع المملكة العربية السعودية شراء سبعة آلاف دبابة، وثمانئة طائرة، وإعداد مليون رجل تحت السلاح، لكنّها لو فعلت ذلك لكانت من بلدان العالم الثالث، لأنّها ستهدر اقتصادها في إنشاء قوات عسكرية تماثل قوات صدام حسين أو القوات الإيرانية.

وكما أوضح بندر: "نظرنا عبر الحدود فرأينا مليون جندي عراقي، وخمسة آلاف دبابة، وألف طائرة، وعشرة آلاف ناقلة جنود مدرّعة. وهكذا فإنّ المسألة لا تتعلّق بما إذا كانت لدينا النوعية أو الإرادة لمواجهة؛ وإنما أنّنا لم نكن نمتلك الكمية للوقوف في وجه هذا التهديد"⁸⁶. وقد اتخذ القرار قبل ذلك بثلاثة أيام في الواقع.

وأكدّ بندر أن عدم التكافؤ في القوة بين المملكة العربية السعودية والعراقيين لم يكن خطأ، بل سياسة مقصودة مفادها، "سأركّز معظم ثروتي وإمكاناتي على الأنشطة المدنية والتنمية. سأحفظ أمن المملكة العربية السعودية باتباع سياسة خارجية جيدة تسعى تحالفات تعوّض عن مواطن قصوري حين تبرز ضرورة القوة. وبما أنّني لا أخطط

لخوض حروب مرة كل أسبوعين، فإنها مجرد بوليصة تأمين". وخلاصة هذا العرض التفصيلي للاستراتيجية السعودية هي أنه حين حلت اللحظة الحرجة، وتعيّن على المملكة العربية السعودية صرف بوليصة التأمين تلك في الحرب الوحيدة المهمة، خرجت المملكة من الحرب وبنيتها التحتية سليمة، وبنائها الاقتصادية كلها سليمة، وبنيتها البشرية والاجتماعية سليمة. وكما لاحظ بندر: "لا أظن أنها سياسة بلهاء".

بعدما أُتخذ قرار السماح بدخول قوات أميركية إلى المملكة العربية السعودية، كانت المشكلة الأساسية هي التدابير اللوجيستية. فقد قيل في البداية إن عدد الجنود الأميركيين المقرّر نشرهم يبلغ خمسين ألفاً؛ وهو رقم بعيد جداً عن المئتي ألف إلى المئتين وخمسين ألفاً الذين توقع الجنرال شوارزكوف نشرهم في اجتماعه مع الرئيس في كامب ديفيد في 4 أغسطس. مع ذلك فإنّ نشر ما يقلّ عن ذلك العدد يشكّل تحدياً لوجيستياً كبيراً. كانت القوة الجوية كافية، لكن جلب أعداد فعلية من القوات البرية يستغرق بعض الوقت. ولو قرّر الجيش العراقي شنّ هجوم خلال تلك الفترة، لما كانت القوات البرية الأميركية المرسلّة آنذاك كافية لتأمين دفاع كاف. لذا أصبح من المهم جداً ألا يعرف صدام حسين نقطة الضعف تلك. كما كان من الضروري إبقاء القوة الفعلية التي تعتمد الولايات المتحدة إرسالها طي الكتمان الشديد. تم على الفور نشر المقاتلات الأميركية والفرقة 82 الأميركية المحمولة جواً. ولكن، وفقاً لتقديرات الجنرال شوارزكوف، يستغرق الإنجاز الكامل ما يصل إلى 17 أسبوعاً. كما يلزم عشرون يوماً تقريباً قبل أن تتوافر الطائرات الكافية، والمجموعات القتالية لحاملات الطائرات لردع الجيش العراقي، المحتشد فعلاً في الكويت.

في اليوم التالي للمحادثات مع الملك فهد، اجتمع الأمير سلطان وبندر مع الوزير تشيني في جدة. واتفقوا جميعاً على عدم إعلان أي شيء عن العملية المطروحة على بساط البحث إلا بعد يومين، حين تصبح طلائع القوات الأميركية على الأرض بالفعل. لكن تبين أن التوقيت وحساسية القضايا المتنازع عليها أكثر صعوبة في واشنطن، حيث تتعارض قضايا الأمن مع حرية الصحافة الأميركية.

قيل إنّه "ما من رئيس أميركي دفع بالولايات المتحدة لحرب كبيرة بهذه السرعة والضخامة"⁸⁷. وقد جارت وسائل الإعلام سرعة تتابع الأحداث على الفور تقريباً؛ فكانت العناوين الرئيسية تصدر عن الصحافة ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة. ووسط

اتهامات بالتقليل عمداً من حجم القوات الأميركية التي سُترسل إلى الشرق الأوسط، تعرّضت إدارة بوش لهجوم عنيف من وسائل الإعلام فيما كانت الأزمة لا تزال تتكشف.

كُتب في الصحف: "الحقيقة هي أولى الضحايا لا في الحرب فقط، وإنما في الإعداد للحرب أيضاً، إذ إنهما يعتمدان بشدة على السرية والمراوغة والخداع"⁸⁸. ومثل هذا الشعور تعتبره الصحافة الغربية مضرّاً بالحقوق العامة، لكن التماذي في حرية الصحافة، وبخاصة في فترة الحرب، يعرّض أرواح العسكريين للخطر. وقد أبدى بندر عجبته في كثير من مقابلاته من عدم الإقرار الأميركي بهذه الحقيقة العسكرية قائلاً: "لديكم في أميركا ترف التعامل مع العمليات العسكرية مثل التعامل مع مخيمات الكشافة. الأمر ليس كذلك؛ لا يمكن أن تطالبوا، ويجب ألا تطالبوا، بتفاصيل عن العمليات العسكرية. حياة الناس في خطر في الخليج، ولا يمكنكم التحدّث عن الأمر كما لو أنه مباراة في كرة قدم"⁸⁹.

على الرغم من ذلك، بقيت وسائل الإعلام شوكة دائمة في خاصرة الرئيس. قامت بضاوارة لكي يطلق لها العنان أكثر من ذي قبل، وقد وصف الصحافي أنطوني بريس محطات التلفاز أنها: "أفزع بوق رسمي خلال الحرب"⁹⁰، وزعم موري ماردر أن إدارة بوش وصلت إلى مستوى من السيطرة على الصحافة المقروءة، والمسموعة، المرئية الأميركية وعلى الرأي العام الأميركي بحيث كان يمكن أن يقدم الرئيس جونسون ونيكسون أي شيء في مقابل مثل هذه السيطرة خلال سنواتهم المضطربة إبان حرب فيتنام"⁹¹.

لعل مثل هذه السلبية تغفل الحاجة إلى التضامن الوطني في وجه العدوان الخارجي مسائل السياسة الخارجية الحساسة. وقد عبّر الرئيس عن خيبته من الصحافة الأميركية، فكتب، "بالنسبة إلى من يظنون أنني شديد الارتياح بالصحافة، عليهم النظر إلى استطلاع الرأي الذي أجرته إذاعة أيه بي سي وصحيفة واشنطن بوست... يبدو لي أنهم لا يريدون طباعة الأخبار التي لا يريدون قراءتها. وذلك أمر معهود!"⁹². وكان الرئيس غاضباً من استطلاع للرأي، رعته جزئياً صحيفة واشنطن بوست وجرت مسواراته في صفحة خلفية من العدد لأنّه أظهر أن قسماً كبيراً من الرأي العام يؤيد مبادرات الرئيس.

إلى جانب نشر القوات الأميركية، كان من المهمّ بالنسبة إلى المملكة وإدارة بوش أن تقوم الدول العربية المؤيّدة والقوى الدولية الأخرى بدور فعال في الدفاع عن المملكة العربية السعودية. وفي مؤتمر طارئ لجامعة الدول العربية عُقد في القاهرة في 9 أغسطس، بدعوة من الرئيس مبارك، صوتت اثنتا عشرة دولة من أصل إحدى وعشرين تأييداً لقوة عربية تدافع عن المملكة العربية السعودية. وكانت تلك البلدان عازمة على إصدار قرار يسمح بإرسال قوآت عربية. ولم يكن مثل ذلك الإجراء دفاعياً فحسب، وإنما يوفر أيضاً غطاءً دعم دولي تستطيع القوات الأميركية العمل في ظله. وأبرز مؤتمر القمة أيضاً الانشقاق الذي وقع بين دول عربية اعتُبرت مؤيّدة لصدام حسين ودول عربية معارضة له. فعارضت ليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية إنشاء قوة دفاع عربية؛ وأيدت إنشاء تلك القوة كل من مصر والكويت ولبنان والمغرب وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية والصومال وسورية والإمارات العربية المتحدة؛ وامتنعت الجزائر واليمن عن التصويت، وتحفظت موريتانيا والأردن والسودان، وغابت تونس عن المؤتمر. وفي 11 أغسطس، بدأت القوات المصرية والمغربية بالوصول إلى المملكة العربية السعودية.

كان وجود القوات الدولية نقطة محورية أثارها بندر في تعامله مع الدائرة الإعلامية الأميركية. ففي برنامج لاري كنج لايف قال بندر: "لستم وحدكم من أرسل قوآت إلى بلدنا. البريطانيون هناك، وكذلك بلدان عربية وإسلامية، مصر والمغرب وسورية وباكستان وبنغلادش. لذا هذه قضية يلتف العالم كله حولها"⁹³. وفي مقابلة أخرى، شدّد على القول: "ما أود أن يعرفه أصدقاؤنا الأمير كيون والجمهور الأميركي هو أنكم لستم وحدكم، العالم كله مجتمع معاً. هل يمكن أن يكون العالم كله على خطأ وصدام حسين على صواب؟"⁹⁴.

خلف الوحدة الثابتة في الظاهر، كان بندر يبذل قصارى جهده مع الملك فهد لإبقاء الدول المعادية لصدام موحّدة، فضلاً عن اجتذاب الدول التي تقف موقف المتفرّج. وبطلب من الملك، انتقل الأمير إلى سورية كي يحاول إقناع الرئيس الأسد، الذي يعبر عن قلقه بشأن التزام أميركا. وبعد طمأنة الرئيس السوري أنّه يثق شخصياً بالرئيس الأميركي وبقوة وحجم القوات الأميركية التي يجري نشرها، نجح في كسب تأييد الأسد، غير أن الأسد امتنع عن إعلان قراره دعم المملكة العربية السعودية أربعين يوماً آخر⁹⁵.



ملك الأردن الحسين - مرشد وصديق بندر،
ولكن بندر لم يفهم يوماً أسباب دعمه لصدام حسين
بعد غزوه الكويت

شكّل دعم الملك الأردني حسين لصدام حسين عائقاً كبيراً أمام الموقف العربي الموحد، وسبّب الألم على نحو خاص للملك فهد وبندر والعائلة المالكة السعودية كلها. فالأردن موجود جغرافياً في موضع محفوف بالمخاطر. لكن على الرغم من أنّ آل سعود كانوا يعون مأزق الأردن، فإنّهم لم يستطيعوا إيجاد مسوّغ لملاحظات أربابها للملك حسين، وتدعو بشكل أساسي إلى إخراج القوات الأجنبية من المملكة العربية السعودية بحجة أن الحدود الكويتية العراقية أنشأها المستعمرون البريطانيون. في 19 سبتمبر 1990، قطعت المملكة العربية السعودية جميع العلاقات مع الأردن، مذكرةً بفواتير غير مسددة؛ كما أنّها أوقفت جميع الواردات الأردنية وطردت دبلوماسيي الأردن وفلسطين واليمن والعراق. ولعل ما هو أبلغ تأثيراً من ذلك أنّ بندر كتب رسالة شخصية - إلى الملك الأردني، وهو الرجل الذي تجمعه به صداقة شخصية حميمة⁹⁶.

جلالة الملك

أليس من الأشرف والأصدق أن تخاطب الشعب العراقي من دون الرجوع إلى صديقك الآخر، صدام، وتخبره عن أفعاله المخزية بغزو بلد عربي شقيق ومسلم وضمّه، وعن أعمال الاغتصاب والتدمير الفظيعة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي.

هذه حقيقة، والحقائق أشياء لا مفر منها.

تقول، جلالتك، إن قوات صديقة دنست الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية وإنه يجب على هذه القوات أن تغادر على الفور. لكن هذه القوات بعيدة

في الواقع مئات الأميال، وهناك عشرات الألوف من الجنود المسلمين العرب (ليس من بينهم جنودك) بين تلك القوات الصديقة والأماكن المقدسة. وهذه القوات كلها مكرّسة للمساعدة على الدفاع عن المملكة العربية السعودية وهي تحترم ما تقوم المملكة به في خدمة الأماكن المقدسة. ولن تغادر هذه القوات إلى أن يغادر صديقك صدام الكويت بشكل سلمي وفوري كما نأمل.

أخبرنا، يا صاحب الجلالة، ماذا فعلت لصون المسجد الأقصى وكنيسة القيامة اللذين ضيعتهما أمام الإسرائيليين سنة 1967، أي منذ ربع قرن تقريباً؟ هل هذه هي الحماية التي تريد أن نوليها للأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية؟

وقد زعمت، يا صاحب الجلالة، أنك تدافع عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وفي دولة خاصة به. وأنا أدعمك في ذلك. لكنك كنت مسؤولاً عن الوطن الفلسطيني في الضفة الغربية من 1948 إلى 1967. فلماذا لم تعطهم طوال تلك الفترة حقوقهم ودولتهم؟ وكيف يمكن أن يقدم احتلال الكويت لإخوتنا الفلسطينيين وطنهم؟

تحدّث عن "يملكون" وعن "لا يملكون". إن سجلّ المملكة العربية السعودية كواحدة ممن "يملكون" واضح في مساعدة من "لا يملكون"، ونحن فخورون بذلك. التفت فقط إلى سجلات وزير ماليتك، وانظر إلى مقدار ما أعطتك المملكة العربية السعودية وأعطت بلدك، عن طيب خاطر وسرور، كإخوة.

إنك يا جلالة الملك رجل ذكي جداً، وتتمتع بذاكرة حادة. تقول إن الحدود الكويتية العراقية، متنازع عليها، وقائمة على سجل تاريخي وضعه المستعمرون البريطانيون.

يا صاحب الجلالة، إنك آخر من يستطيع أن يقول ذلك. فليست حدودك فقط، بل بلدك كله أوجده المستعمرون البريطانيون أنفسهم. وهل تذكر يوم دعوت جنوداً بريطانيين إلى دخول بلدك سنة 1958؟ لم نعترض على دوافعك وحكمتك في ذلك الشأن أو نشكك فيهما.

أخوك الملك فهد فخور بصداقته مع الرئيسين مبارك والأسد، والملك الحسن ورؤساء باكستان وبنغلادش والسنغال، وقادة المجاهدين، والرؤساء غورباتشيف وبوش وميتران ورئيسة الوزراء تاتشر، وكثير من رؤساء الدول الأخرى وشعوبهم، الذين انضموا إلى الإجماع العالمي في الأمم المتحدة وانتظموا ضد العدوان السافر وضد ضم شقيقتنا دولة الكويت.

أرجو أن تكون فخوراً بأصدقائك الجدد، صدام حسين وأبو العباس وأبو نضال وحبش وحواتمة، وسائر ذلك الحشد غير المقدّس.

تقول لنا، يا صاحب الجلالة، إن الموقف اليوم كالموقف في سنة 1914، حين كان العالم ذاهباً إلى حرب لم يكن يريد لها لكنه لم يستطع وقفها، الأمر الذي أدى إلى الحرب العالمية الأولى. هذا ليس صحيحاً، يا صاحب الجلالة، الموقف اليوم هو كالموقف في الثلاثينيات، حين قرّر رجل مجنون ضمّ جارته ولم يفعل العالم شيئاً، ما أدى إلى الحرب العالمية الثانية.

يا صاحب الجلالة، أرجو أن تتذكّر ما الذي سبّب هذه الأزمة بأكملها في منطقتنا، إنه قيام صدام حسين بغزو دولة الكويت العربية والمسلمة. وبعد ذلك فقط وبسبب ذلك دُعيت القوات العربية والصديقة. وهي كلها سترحل حين يُدحر هذا العدوان أو حين نطلب منها أن ترحل. هذه هي الحقائق.

يا صاحب الجلالة، لطالما كنت أكن لك احتراماً ومودة عظيمين، ولا أزال أكن لشعبك احتراماً ومودة عميقين. لكنني لم أعد أشعر أنك الرجل الذي عرفته. أرجو أن أكون مخطئاً. وإذا كنت مخطئاً، أرجو يا صاحب الجلالة أن تقبل اعتذاري الشديد. لكن الحقائق لا مفر منها⁹⁷.

هذه الرسالة المفتوحة والمثيرة للجدل من بندر إلى الملك حسين قدمها فرد داتون كمقالة في باب الرأي إلى صحف واشنطن بوست ونيويورك تايمز وسان فرانسيسكو كرونيكل في وقت واحد. وقد نشرت الصحف الثلاث الرسالة، التي سببت عاصفة من الاحتجاج في الصحافة الأميركية. وقد أبلغ بندر أصدقاء له لاحقاً، "بقدر ما حظيت به تلك الرسالة من دعاية، وبقدر ما نلت من مديح من كل مناوئي صدام - الملكة، وأميركا، وأوروبا، والعالم العربي - فإنها كانت أشدّ ما كتبت له لأحد بلاماً، لأنني كتبتها وأنا في صراع مع نفسي. فمن جهة، أردت فعلاً أن أكون لئيماً، ومن جهة أخرى، لم أرد حقاً أن أكون لئيماً تجاه الشخص نفسه الذي كنت أكن له الكثير من المودة، لكنه لم يترك لي مجالاً للمناورة".

في نقاش لاحق في برنامج جون ماكلوغلن وجهاً لوجه على تلفزيون بي بي سي، كرّر بندر الإعراب عن خيبة أمله من موقف الملك حسين، لكنه ردّد عبارات الاحترام للملك، قائلاً: "إنني أكن للملك حسين احتراماً عظيماً. فهو في النهاية، إلى جانب كونه واحداً من قادتنا العرب، طيار حربي زميل. إن ما فعله مؤلم لأن

المملكة العربية السعودية وضعت تحت قيادته في الأردن جنوداً لمدة عشر سنين، وعندما أرسلناهم إلى هناك، نزولاً عند طلبه، لم تكن ثمة تساؤلات وأرجو ألا ينسى ذلك⁹⁸.

وقد كشف لي العقيد بوب ليلاك في ما بعد الأسس الحقيقية لتلك الرسالة، موضحاً: "كان الأمير بندر والأميرة هيفاء وبعض الأصدقاء يشاهدون الملك حسين وهو يدلي بخديته إلى تلفزيون سي أن أن. وفي أثناء ذلك، كان الأمير يعلق عليه، جملة جملة، كردّ فعل عليه". وعندما أنهى الملك حسين كلمته، نظرت الأميرة هيفاء إلى بندر وقالت: "لم لا تكتبها؟".

قال بندر، وهو لا يعي ما كان يفعله: "ماذا أكتب؟".

أجابت الأميرة هيفاء: "لا بد من إسماع إجاباتك الملك".

فقال بندر: "حتى لو أردتُ أن أكتبها، فإنني لا أذكر ما كنت أقوله. كنت أردّ فقط".

فقال هيفاء: "لندع كل الحاضرين في هذه الغرفة ينعشون ذاكرتك ما داموا سمعوا ما قلتماه كلاكما".

ولما كان الحاضرون قد سجلوا المقابلة مع الملك حسين على شريط فيديو، فقد أعادوا عرض الشريط. وبعدما عصر كل منهم ذاكرته، ابتكر بندر اللازمة: "الحقائق لا مفر منها، يا صاحب الجلالة". وكانت شيئاً اعتاد ريغن قوله، وتخلل فقرات رسالة بندر.

وذكر ليلاك أنه على الرغم من مرور سنوات على الرسالة، فإن ألم كتابتها لا يزال يلازم بندر الذي قال: "إنه أمر مدهش، فما يبدو للناس أنه أجمل ساعات المرء، قد يكون بالنسبة إليه أسوأ ساعاته، لأنني لم أجد أي متعة في كتابتها بالفعل".

وقال الدكتور سعيد كرمي، متحدّثاً عن العلاقة بين بندر والملك حسين: "كان بندر يحب الحسين ويحترمه أيما احترام؛ كان ملكاً، معلماً بطريقة ما، صديقاً، طياراً زميلاً، رجلاً عملياً وواقعياً، نشيطاً، ذكياً، وكان الصامد الأمثل. وقد حيرَ بندر بموقفه خلال حرب الخليج وغزو الكويت. لقد ساند الملك حسين موقف صدام حسين الأسباب أكثر تعقيداً مما فهمه الناس. وسبب موقفه أماً للقيادة السعودية وبندر شخصياً، لا لما فعله وقاله، بل لأنه كان قريباً منهم بحيث لم تساورهم الشكوك في

اتجاه هواه وقد مرّوا بأوقات عصيبة من قبل. الفارق الكبير، الذي لا يفهمه الناس ولا يقدّرونه في ردّ الفعل السعوديّ الحادّ باتجاه هذا الرجل الذي أحبّوه جميعاً، من الملك فما دون، وبصرف النظر عن المشاعر الشخصية التي ساورتهم، هو أنه كان يستشيرهم مسبقاً في الماضي عندما يجد نفسه في مثل هذا الموقف. وكان يخبرهم عن سبب عزمه على الإقدام على فعل شيء لا يحبّونه، كما كانت حاله مع عبد الناصر وما إلى غير ذلك، وكان السعوديون يوافقون على أن ذلك السبيل الأفضل له، بعد أن يعرفوا أنّهم تفاهمون وأنه لم يتغيّر".

على مرّ السنين، صلحت العلاقة بين المملكة العربية السعودية وقويت. وقيل وفاة الملك حسين، اتصل مساعدوه ببندر هاتفياً في منزله في إنكلترا. وقالوا: صاحب الجلالة لا يستطيع أن يكلمك، لكن لديه رسالة لك. ابني (الذي أصبح الملك عبد الله لاحقاً) هو ابنك؛ أرجو أن ترعوا ابنا وأن تعتنوا به".

وأجاب بندر بسرعة: "قولوا للملك حسين إن ابنه ابنا وسنعتني به". ومات الملك بعد ذلك بوقت قصير، وكان بندر بين الكثيرين من أفراد العائلة المالكة السعودية الذين حضروا الجنازة⁹⁹.

لم يقتصر تقديم الدعم الأميركي إلى الشرق الأوسط على نشر قوات. فمن نتائج التعاون بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية التعزيز الأميركي للقدرات الدفاعية السعودية. وقد بذلت إدارة بوش جهوداً لإرسال ما كان اعتُبر معدات عسكرية ضرورية للغاية إلى المملكة العربية السعودية. وأوضح برنت سكو كروفت: كان العراق يملك جيشاً أكبر بكثير من الجيش السعودي ويتمتع بتفوق نوعي إذ لم يكن لدى السعوديين ذخائر تستطيع التغلب على دبابات العراق سوفياتية الصنع¹⁰⁰. كما هي الحال مع كثير جداً من عمليات نقل أسلحة إلى الشرق الأوسط، فقد كانت هناك صعوبات. أولاً، كان يحظر على الإدارة بيع ذخائر من نوع معين لبلدان حارج حلف الناتو. ثانياً، كان لا بد من فترة انتظار مدتها 30 يوماً فاصلة بين إشعار الكونغرس وشحن الأسلحة، ما أطال فترة تعرّض السعوديين للخطر.

ومع ذلك، في 26 أغسطس، حصل الرئيس بوش على تنازلات رسمية موقعة تجيز إجراء نقل فوري لـ 150 دبابة و24 طائرة وكمية محدودة من الذخائر إلى المملكة العربية السعودية. بيد أن الكونغرس رفض حزمة ثانية مقترحة في سبتمبر وتشمل

دبابات ومعدات حديثة تتراوح قيمتها بين 17 و20 مليار دولار. ولتلبية شروط الكونغرس، قُسمت الحزمة إلى قسمين. يُشحن القسم الأول عند تحديد الحاجة الفورية والتوافر، على أن يليها القسم الثاني في موعد لاحق.

خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 1990، وعلى الرغم من جدول المواعيد المزدحم جداً والمقسم بين توقيتين متفاوتين، توقيت واشنطن دي سي وتوقيت المملكة العربية السعودية، استطاع بندر أيضاً أن يلتفت إلى تشكيل لجنة السلام والأمن في الخليج¹⁰¹. وهي في جوهرها لوبي يعمل لدعم مبادرات الرئيس بوش خلال الأزمة وتضم شخصيات مرموقة من الحزب الديمقراطي مثل السيناتور ستيفن سولارز (نيويورك)، والمديرة السياسية للجنة الوطنية الديمقراطية آن لويس، فضلاً عن مسؤولين سابقين في إدارة ريغن، منهم ريتشارد بيرل، المساعد السابق لوزير الدفاع، وفرانك كارلوتشي، وزير الدفاع الأميركي السابق، وجين كيركباتريك، سفيرة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة، وأعضاء آخرين في الكونغرس*. وقد دعت اللجنة لاستخدام القوة في الشرق الأوسط لحماية المصالح الأميركية في المنطقة شريطة مشاوره الكونغرس قبل القيام بأي عمل. وقد وصف الرئيس اللجنة أنها "تساعد كثيراً على تبيان الجانب الآخر من المسألة"¹⁰².

على الرغم من وجود اللجنة، فقد كانت قوى نافذة داخل الكونغرس مصممة على معارضة أي تحوّل عن موقف الولايات المتحدة الدفاعي. ومع أن القوات الأميركية كانت تحتشد بالفعل، فقد ظل موقف الولايات المتحدة دفاعياً. وقد أرسلت رسالتان معارضتان من الكونغرس إلى الرئيس بوش، تعترضان على اتخاذ أي إجراء لإخراج القوات العراقية من الكويت بالقوة. وقد ضمت الرسالة الأولى، التي سُلمت في 9 أكتوبر، توقيع 33 من الديمقراطيين. وفي مؤشّر واضح على تنامي الزخم ضمن الفريق المعارض للحرب، سُلمت رسالة ثانية إلى الرئيس في 30 أكتوبر، أي بعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع على الرسالة الأولى، وكانت تضم توقيع 81 من الديمقراطيين. وجاء تعاضم المعارضة بسبب المخاوف من الحشد المتواصل للقوات، وعدم وجود سياسة التناوب في العملية، والشعور الجلي أن القرارات تتخذ من دون مشاركتهم. أصبح القلق في الكونغرس واضحاً. ونصت الرسالة الثانية صراحة على أن "الكونغرس وحده يستطيع إعلان الحرب بموجب الدستور الأميركي"، و"نحن نشدد على معارضتنا أي عمل عسكري هجومي"¹⁰³.

(* كان منهم جون ماكين وديك لوغر وجاك مورثا وبوب توريسيلي.

على الرغم من قوة الشعور الذي ينبض في الكونغرس، والدعوات الشديدة التي أطلقها الكونغرس مطالباً بمشاركة أوسع في عملية صنع القرار، فقد أصاب بوب دول لبّ المشكلة حين قال: "كيف نجري مناقشة علنية من دون أن نرسل إشارة خاطئة إلى صدام؟ إذا كنا في الكونغرس نريد المشاركة، فإننا إذاً مدينون لأبنائنا وللرئيس بتأييد سياسة البيت الأبيض"¹⁰⁴.

بعيداً عن الخطابة، تبيّن أن وجود أجناب وغير مسلمين على الأرض السعودية أمر شائك. وفجأة أصبحت مسائل غير مطروحة في الجيش الأميركي تتطلّب دراسة، وانتباهاً، وعملاً متأنياً.

يقول باول في حديثه عن بندر: "مازحته مرة في أثناء حشد القوّات استعداداً للحرب الخليج. كنّا نمضي وقتاً طويلاً معاً ونحن منكبون على كثير من القضايا. قال لي، يا كولن، لا يمكن أن يأتي الجنود إلى المملكة وهم يضعون صليباً ونجوم داوود على صدورهم، فأجبت، يا بندر، لا بد أنك جننت. هل تعتقد أنني أستطيع أن أبلغ الشعب الأميركي أننا قادمون لإنقاذهم ولا نستطيع ارتداء الصليبان والنجوم؟". لكن، ذلك كان يشغل السعوديين حقاً، وتم التوصل إلى تسوية قضت بالسماح للجنود بارتداء رموزهم الدينية شريطة أن تكون تحت قمصانهم.

وأثيرت أيضاً مسألة المكان الذي يستطيع الجنود اليهود أن يمارسوا فيه طقوس يوم السبت. فسأل باول الأمير بندر: "كيف ستتدبرون هذا الأمر؟ وكان الجواب: ضعوهم على حاملة طائرات قبالة الساحل. وهكذا جمعنا الشبان اليهود كلهم وأرسلناهم إلى إحدى القطع البحرية الحربية". مع أنّه أسرّ بالقول: "تجاهلنا الأمر أخيراً لما داموا يلتزمون الهدوء ولا يظهرون أي شيء"¹⁰⁵.

لم تكن معالجة مثل تلك المسائل تقتضي، بالنسبة إلى الولايات المتحدة، نظيراً عربياً لديه فهم معمّق لكلا الثقافتين فحسب، بل وجود علاقة شخصية أيضاً بين اللاعبين الرئيسيين. ويقول باول: "كان يجب أن يكون مرجعاً يفهم احتياجاتي، ويعرف أنني أفهم احتياجاته. وذلك لا تحصل عليه عبر المنصب، وإنما عبر العلاقة الطويلة مع ذلك الشخص، وقد تمكّنا من معالجة كل المشاكل التي تطرأ تقريباً، وهناك عشرات منها"¹⁰⁶. وقد كان بندر المرجع الأفضل بالنسبة إلى بوش، وباول، والملك فهد.

كان الكونغرس يحثّ الرئيس بشكل متكرّر على منح عقوبات الأمم المتحدة الفرصة في إطار الائتلاف الدولي، لكن بوش ازداد قناعة أنّ العمل المحمومي هو المسار الوحيد الذي ينبغي اتّباعه. وكان ينتظر بقلق قرار مجلس الأمن بشأن استخدام القوة لطرد صدام حسين من الكويت. لكن، من دون أن يعلم، وفي عملية غير مسبقة تضعف الرئيس القائم، بعث الرئيس السابق جيمي كارتر برسالة إلى أعضاء مجلس الأمن، يحضّ فيها المجتمع الدولي على عدم التصويت لصالح القرار 678، الذي يجيز استخدام القوة في الكويت. ورأى الرئيس السابق أنّ ثمن زعزعة استقرار المنطقة والخسائر في الأرواح سيكونان جسيمين جداً.

قيل إن الرئيس بوش استشاط غضباً، لكنه أمر موظفيه بعدم التطرّق إلى هذا الأمر. وكان ذلك قراراً حكيماً. ففي 29 نوفمبر 1990، أجرى مجلس الأمن الدولي تصويتاً حاسماً ومدوياً لصالح القرار 678^(*). وبحسب تعبير الرئيس بوش: "صوّت مجلس الأمن على الذهاب إلى الحرب"¹⁰⁷.

كان هناك أمل على نطاق واسع في أن يُقنع القرار 678 صدام حسين أن الأطراف الدولية عازمة على طرد قواته من الكويت بالقوة إذا لزم الأمر. ولما كانت بلدان مثل فرنسا وروسيا وألمانيا واليابان تعترض في بادئ الأمر على استخدام القوة العسكرية، فقد كان يرجى أن يؤدي تصويتها لصالح القرار 678 إلى تصحيح افتراض صدام حسين أنّ العالم سيتركه محتفظاً بالكويت. اعتُبرت مهلة الستة أسابيع المنتهية في 15 يناير 1991 حاسمة لإقناع صدام أن العالم جادّ وأنّ عليه الانسحاب من الأراضي الكويتية فوراً.

لذا كان من المؤسف جداً بعد النجاح الذي تحقّق ضمن التحالف، أن يُقدم الرئيس بوش في 30 نوفمبر 1990 على خطوة تنطوي على تبعات كارثية، وهي التقدّم "خطوة إضافية من أجل السلام". فقد اقترح الرئيس بوش، استجابة لمعارضة الرأي العام والكونغرس من جهة، ولراحة باله من جهة أخرى، إرسال جيمس بيكر إلى بغداد وتقديم دعوة إلى وزير الخارجية العراقي طارق عزيز لزيارة واشنطن.

كان التوقيت سيئاً جداً. فقد أحدث تصرف الرئيس صدمة في صميم الائتلاف. بدت أميركا كأنّها تتراجع بعدما أحاز العالم استخدام القوة. بعد أيام قليلة من إعلان

(*) صوّتت كل البلدان الاثني عشر المشاركة لمصلحة القرار، وامتنعت عن التصويت كل من كوبا واليمن والصين.

اقترح الرئيس في 30 نوفمبر، اتصل بندر بـجيمس بيكر، الذي ذكر أن الأمير "رأى أن بغداد هي آخر مكان ينبغي أن أفكر في زيارته". وقال بندر: "من الجنون أن تذهب إلى هناك. فهذا الرجل سيأخذك رهينة". اعتقد بيكر أن بندر مقتنع أن "صدام لن يتقيد بأي قواعد إذا ما اقتنع فعلاً أننا قادمون لطرده". وفي تعليق معبر عن النوايا السعودية تجاه صدام حسين، قال بيكر أيضاً: "لم يكن بندر يريد أن أذهب أصلاً. فالسعوديون لا يرغبون في تسوية تبقي جيش صدام سليماً"¹⁰⁸. غير أن بندر أصبح من الصقور. ففي محاولة تتم عن خيبة الأمل في شرح الفارق بين الأميركيين والعرب قال لسكوكروفت: "كان عرض سلام، بعد 24 ساعة على انتصار الأمم المتحدة، بمثابة رسالة غير صحيحة إلى صدام: إنه رسالة تشي بالضعف. إرسال بيكر بالنسبة إليكم دليل على حسن النية، لكنه يوحي لصدام أنكم جنباء"¹⁰⁹.

في آخر مسعى لتجنب الحرب، أضعف بوش من حيث لا يدري عمل الائتلاف، وأقع صدام المهووس فعلاً أن العالم الخارجي خائر العزيمة. وقد جاءت النتيجة فورية. فمن بغداد، قال فريق من البي بي سي. "الشعور السائد هنا من دون شك هو أن الرئيس صدام حسين جعل الأميركيين يولون الأدبار". وهكذا أعطى الرئيس بوش صدام السبب الذي يحتاج إليه للبقاء في الكويت حتى نهاية المهلة التي حددها الائتلاف.

أقرّ سكوكروفت نفسه أن التواريخ المقترحة كانت غير صحيحة. فقد دُعي طارق عزيز إلى واشنطن خلال الأسبوع الذي بدأ في 10 ديسمبر، لكن دعوة بيكر إلى بغداد حدّدت في موعد بين 15 ديسمبر 1990 و15 يناير 1991. وأتاح ذلك الفرصة أمام صدام ليقايض بالوقت حتى انتهاء مهلة الأمم المتحدة. غير أن سكوكروفت اعترف لبندر أن الاجتماع ما هو إلا مناورة، وأكد أن الخطط لخوض الحرب جارية على قدم وساق. فبوش يريد أن يُظهر للعالم - ولأميركا بشكل خاص - أنه رجل سلام وأن خيار الحرب هو خيار صدام¹¹⁰.

ومع ذلك، كان صدام منتشياً، واعتري حلفاء أميركا في العالم العربي القلق من أن الولايات المتحدة أخذت تتراخى¹¹¹.

لقد انبرى صدام حسين فوراً إلى التلاعب بحسن نية أميركا عن طريق الإصرار على أن تتم زيارة بيكر في 12 يناير - أي قبل ثلاثة أيام فقط من انتهاء المهلة التي حدّدها مجلس الأمن. وأصرّ بوش على موعد قبل 3 يناير، وأخيراً، التقى بيكر وعزيز

في جنيف في 9 يناير. وخلال ذلك اللقاء، دعا وزير الخارجية العراقي نفسه لزيارة الولايات المتحدة وبيكر لزيارة بغداد. فردّ بيكر وقد أغضبه "التغطرس المطلق"، كما أوضح للرئيس لاحقاً: "لا! أعطيناكم خمسة عشر يوماً، فقلتم لا. والآن تحاولون التلاعب بالموعد النهائي"¹¹². رأى بندر لاحقاً أن "بوش وبيكر منحاً صدام الارتياح في أشدّ اللحظات ضيقاً وحرماً عند الزعيم العراقي"¹¹³. غير أن بيكر وجّه في جنيف إلى طارق عزيز إنذاراً أخيراً. إذا وافق على الشروط المطروحة، فلن تكون هناك حرب. وإذا رفضها، فالحرب واقعة لا محالة. وفي 11 يناير، انتقل بيكر إلى المملكة العربية السعودية وشرح للديوان الملكي أن "العراقيين رفضوا، لذا نحن ذاهبون إلى الحرب، لكن لا يمكننا الذهاب إلى حرب حتى يوافق الملك فهد عليها". وقد أعطيت تلك الموافقة بسرعة.

بدأ الحلفاء استعداداتهم الأخيرة لحرب ترمي إلى طرد صدام من الأرض الكويتية بالقوة.

وقبل مغادرة بيكر إلى واشنطن لتقديم تقرير كامل إلى الرئيس بوش، سأل الملك فهد: "كيف نتصل بكم بخصوص ساعة الصفر يوم الهجوم؟ الأمر حسّاس وتوقّف عليه أرواح الكثيرين. أحتاج إلى كلمة سرّ بيننا، يا صاحب الجلالة". قال له الملك فهد: "حسناً، سأدبر الأمر مع بندر، وستكون كلمة السرّ مع بندر. أخبروه فقط وهو سيتولى الاتصال بي".

أعدّ بندر لمغادرة المملكة العربية السعودية بعد مغادرة بيكر مباشرة لكي يكون في موقف يسمح له في واشنطن أن يطّلع على الهجوم المعدّ له. غير أن الملك فهد كانت لديه خطط أخرى للأمير.

قال الملك لبندر: "اثني الليلة بكلمة سرّ بيني وبينك لا يستطيع أحد أن يفكّها". وحين حاول بندر التملّص، كرر الملك فهد القول: "الليلة".

لا تزال كلمة السر الحقيقية التي استخدمها بندر وفهد لتأكيد البداية المقترحة لعملية عاصفة الصحراء، موضع شيء من الجدل. فبحسب قول بوب وودوارد، استخدم بندر العبارة في حديث عام مع الملك، "صديقنا القديم سليمان قادم عند الساعة الثالثة صباحاً. إنه مريض وسأنقله إلى الخارج، وسيصل إلى هناك عند الساعة الثالثة صباحاً"¹¹⁴. وأيد بيكر أيضاً تلك الرواية¹¹⁵. غير أن روايات أخرى تقول إن

كلمة السرّ هي: "كيف حال عمي المفضّل؟"¹¹⁶. وهاتان العبارتان غير صحيحتين وفقاً لبندر. فكلمة السرّ التي تدلّ أن هجوم الحلفاء على القوات العراقية سيبدأ وتحدّد في أي وقت هي، كما يقول بندر، اسم سليمان الحلّي.

ففيما كان بندر يقود سيارته في شوارع الرياض، محاولاً التفكير في كلمة سرّ يتذكّرها الملك بسهولة، خطر بباله قول شائع لدى سلاح الجو يدعو لانتهاج البساطة. وباسترجاعه حياته الباكورة مع جدّته، تذكّر الأمير رجلاً يدعى سليمان الحلّي ويتحدّر من أسرة جدته لجهة أمها. كان رجلاً مرحاً اعتاد رواية الطُرف وإضحاك جدته وكثيرين من عائلة بندر، بمن فيهم الملك فهد. وكان سليمان الحلّي، الذي توفي قبل 25 سنة تقريباً، شخصية لا يعرفها أي جهاز استخبارات في العالم، إذ لم يكن له مكان في التاريخ.

عاد بندر لمقابلة الملك: "وجدت كلمة السرّ!".

سأله الملك فهد: "ما هي؟".

"سليمان الحلّي".

أجاب الملك: "ماذا؟ إنه متوفى".

قال بندر: "أعرف ذلك، وأراهن أنّ المخابرات الأميركية والروسية والبريطانية مجتمعة لا تستطيع أن تعرف من هو سليمان الحلّي".

أجاب فهد: "حسناً. هذا معقول، تابع".

تابع الأمير: "عندما أعرف موعد الهجوم أتصل بكم وأقول عائلة سليمان الحلّي".

قاطعته الملك فهد: "لمّ العائلة؟".

أوضح بندر: "في حال عرف أحد من هو فسيقول لقد مات منذ خمس وعشرين

سنة، لماذا يأتون على ذكره؟".

وكانت القصة التي لفقها بندر أن الملك فهد أرسل أحد أفراد عائلة سليمان الحلّي إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبي، لكن الأطباء اتصلوا ببندر وقالوا له لا أمل في شفاء المريض. فقال للملك فهد: "أوصي أن نعيده إلى الديار ليكون فيها حين يوافيه الأجل. وعندها تسألني، متى سيصل إلى الوطن كي أرسل من يستقبله؟ فأحد لكم وقتاً يكون في الواقع موعد الهجوم". ووافق الملك على فكرة الأمير (*).

(*) ظن الأميركيون أن سليمان هو النبي سليمان، وأن السعوديين يستخدمون مرجعاً من الكتاب المقدس.

بعد مرور سبعة أيام، وفي لقاء صباحي مع وزير الخارجية جيمس بيكر في 16 يناير 1991، أُبلغ بندر بالقرار الأميركي بضرب بغداد في مساء ذلك اليوم. وأبلغ الأمير الملك فهد هاتفياً بموعد الهجوم مستخدماً كلمة السر، سليمان الحلبي.

في 16 يناير، في تمام الساعة الثامنة مساءً بتوقيت واشنطن دي سي (الثالثة فجراً بتوقيت بغداد)، أطلقت الولايات المتحدة عملية عاصفة الصحراء. بدأ الهجوم الجوي من دون أي عائق. ونظراً إلى الغموض وسوء التفاهم اللذين شابا الحوار الأميركي العراقي منذ البداية، وفيض الرسائل المشوشة المتدفقة من كلا البلدين عبر الأطلسي، فليس من المستغرب أن يعجز صدام عن توقع الإجراء الأميركي أو استباقه.

مع اشتداد حملة الحلفاء على العراق، لعب صدام حسين ورقة أخرى، وراحت صواريخ السكود تتساقط على أهداف في إسرائيل. وذكر سكوكروفت كيف أنه بعد سقوط ثلاثة صواريخ سكود على إسرائيل (اثنان في تل أبيب، وواحد في القدس)، سلّمه مدير عملياته رسالة تخبره أنّ "الإسرائيليين يريدون توجيه ضربة معاكسة كبيرة داخل الغرب العراقي: مئة طائرة في صباح اليوم التالي، ومئة طائرة أخرى عصر ذلك اليوم، وهجمات بمروحيات أباتشي في الليل، وغارات كوماندوس، على أن تدخل كلها العراق عبر المجال الجوي السعودي".

أبلغ باول شوارزكوف باقتضاب: "لن يقبل السعوديون بذلك البتة، ولا يمكنك فعل ذلك من وراء ظهورهم. لديهم رجال في طائرات أواكس وسيعرفون". لكن، فيما عبّرت الإدارة عن غضبها إزاء الهجمات بصواريخ سكود، جرى بذل كل جهد لإقناع الإسرائيليين بالامتناع عن القيام بأي ردّ، وإذا استحال ذلك، بحصر أي عمل في القواعد الجوية التي أطلقت منها صواريخ سكود في غرب العراق. وقالت الإدارة: "لقد دمّرنا بالفعل جميع منصات صواريخ سكود المعروفة، ونحن نواصل هجومنا بطائرات وقوة نارية تفوق ما يستطيع الإسرائيليون حشده، كما أنّ التدخل الإسرائيلي سيحدث توتراً في الائتلاف الذي بذلنا ما في وسعنا لتشكيله وربما يصدّعه"¹¹⁸.

على الرغم من توقع الرفض السعودي، فاتح باول وبيكر بندر بالأمر، وطلباً منه الحصول على إذن الملك بتحليق طائرات إسرائيلية في الأجواء السعودية، إذ إنّ ذلك خيار أقل خطورة من الهجوم الإسرائيلي عبر المجال الجوي الأردني حيث قد ينظر إليه بمثابة بُعد جديد يضاف إلى الصراع. قال باول: "أبلغت بندر أنّ الإسرائيليين يريدون أن



عملية عاصفة الصحراء - آلية همفي أميركية ودبابة سعودية في طريقهما إلى الكويت العاصمة

يسمح لهم بعبور أجواء بلده لمهاجمة العراق". وأجاب بندر على الفور: "الملك فهد رجل سخي، لكن سيكون رفع مثل هذا الطلب إليه مضيعة للوقت"¹¹⁹. ولم يبدِ الأمير أي مرونة بشأن الرد الإسرائيلي وأصرّ على عدم السماح لإسرائيل بدخول الحرب¹²⁰. وسرعان ما وافقت إسرائيل، كما أكد باول، مجدداً على الإحجام وتم نزع فتيل الأزمة.

وفي 24 فبراير 1991، بدأ الهجوم البري ودام مئة ساعة بالضبط، أي حتى انتهاء عملية عاصفة الصحراء في منتصف ليل 27-28 فبراير، وحققت قوات التحالف انتصاراً ميبناً. دُحرت القوات العراقية بسهولة إلى ما بعد الحدود العراقية. وعلى الرغم من مخاوف الكونغرس القسوى، فقد بلغت الخسائر الأميركية عند توقف إطلاق النار 97 قتيلًا و212 جريحاً و45 مفقوداً. ومع أن الخسائر مأساوية، فقد أثارت محدوديتها الإعجاب نظراً إلى كثافة الطلعات الجوية التي نفذت بالترافق مع الهجوم البري، حيث بلغ مجموعها في الحملة 110,000 طلعة. وكان عدد القتلى الأميركيين في عملية عاصفة الصحراء أقل من العدد الذي سقط في تفجير مقر القوات الأميركية في بيروت سنة 1983.

شعر بندر بإحباط شديد نتيجة القرار الأميركي بتعليق الهجوم، ما ترك صدام حسين في السلطة مع بقاء قسم كبير من حرسه الجمهوري سليماً. فقد اتخذ بندر

موقفاً متشدداً بعدما خدعه صدام شخصياً - متعمداً الكذب على شقيق عربي - وهذا ما أكده لي الوزير بيكر في مقابلة في منزله في هيوستن. وزودني بملاحظات الخاصة المدونة خلال اجتماع عُقد بعد الغزو، وفي أثناء الإعداد لهجوم محتمل لاستعادة الكويت. أظهرت ملاحظات بيكر أن بندر كان يؤيد ردّاً عسكرياً كاسحاً على الغزو العراقي، قائلاً: "إذا وقع اشتباك عسكري، فيجب أن يكون شاملاً وكاملاً. فنحن لا نستطيع تأمين الدعم لردّ محسوب. إننا نشعر بقلق من الوصول إلى تعادل"¹²¹.

بيد أن بوش وافق على وقف إطلاق النار بعد أن تم تدمير أو إبادة جزء مهم من القوات العراقية. لم يكن السعوديون سعداء بهذا القرار لأنهم يريدون أن يدمّر المزيد من قوات جيش صدام، وبخاصة قوات الحرس الجمهوري النخبوية¹²². ومما زاد الاستياء السعودي من إنهاء الهجوم، الموقف الخُلقي والتصالحي الذي اعتمدته الولايات المتحدة تجاه العراق بعد وقف إطلاق النار، وهو موقف وصفه بندر أنه "التطهيرية الأميركية في أسوأ أشكالها".

وفي حديث مباشر عن توقيت وقف إطلاق النار، يقول بندر: "أعتقد أننا من الوجهة العسكرية تعجلنا في التوقف، وأعتقد أننا فعلنا الشيء الصحيح من الوجهة السياسية. مع أنني الآن، بعد مرور سنتين، أظن أنه كان يمكن الحصول على نتائج أفضل سياسياً لو واصلنا تلك الحرب"¹²³.

وضرب أخوه غير الشقيق، الأمير خالد، على الوتر نفسه في ذكرياته عن عاصفة الصحراء وأبرز الرأي العربي بصورة خاصة حين قال: "كان لا بد من معاقبة العدوان، لا مكافأته، وإلا سقط النظام العربي بأكمله في وهدة شريعة الغاب"¹²⁴.

أصيب بندر بخيبة أمل شديدة لأنّ الحلفاء علّقوا العمليات العسكرية من طرف واحد، وطبّقوا وقف إطلاق نار من دون جعله مشروطاً باستسلام صدام حسين. ورأى أنّ الرئيس العراقي لا يزال في السلطة مع أنّ الحلفاء ربّحوا الحرب بلا شك. نعم، تحرّرت الكويت. لكنّ مقتلة الجيش العراقي في وجه قوات متحالفة ومتفوّقة تقودها أميركا أدّت إلى وقف إطلاق النار لدواعٍ إنسانية بتحريض من وسائل الإعلام، فأسفرت العملية عما هو دون انتصار مرضٍ.

بعد ذلك بسنوات، واصل الرئيس بوش تبرير قراره بوقف الأعمال العدائية عند تلك النقطة، قائلاً: "نفهم أن يُطرح سؤال: هل تعجلنا في وقف الحرب؟ وجوابي

كان، وسيظل دائماً، لا. لقد حدّدنا المهمة: لم تكن قتل صدام حسين، ولم تكن حتماً احتلال بلد عربي؛ كانت إنهاء العدوان على الكويت¹²⁵. لكن، على الرغم من النتيجة الإيجابية لحرب الخليج، فقد بقي صدام في السلطة. أخطأ الحلفاء جداً في تقدير قدرة صدام على البقاء وانقلب الحظّ كما تبين. وقد أوضح بندر، في اجتماع مع رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت، جون ميجور، أن العالم العربي توقع أن يقوم الجيش العراقي بخلع صدام من السلطة؛ فتلك هي النتيجة المحتمّة لهزيمة عسكرية دولية محرّجة أخرى. لكن بدلاً من ذلك، أحكم صدام قبضته على السلطة بلا هوادة، ولم يحدث الانقلاب المنتظر قط¹²⁶.

وفي تطوّر إضافي آخر، دعا السعوديون إلى تزويد الشيعة العراقيين بالسلاح سرّاً على أمل في أن يؤدي ذلك إلى سقوط صدام في النهاية¹²⁷. لكن على الرغم من التطمينات السعودية أنّ شيعة العراق أبعد ما يكونون عن شيعة إيران، الذين قاتلتهم الولايات المتحدة والعراقيون في الحرب الإيرانية العراقية، فقد رفض الأميركيون الخطة من دون تردّد.

كان لذلك الرفض عواقب كارثية على الشعب العراقي. فقد حضّ بوش الجيش والشعب العراقيين على "تولّي أمورهم بأيديهم" ودعا صدام حسين إلى "التنحي"، ثم ذهب في الاتجاه الآخر.

كان موقف بندر من صدام حسين ومن الشروط التي فرضت عليه بعد وقف إطلاق النار واضحاً لا لبس فيه. ففي كلمة له أمام ندوة لرابطة سلاح الجو بعد نحو 18 شهراً عن استخدام العراقيين المروحيات، قال: "وافق الجنرال شوارزكوف على السماح للعراقيين بالتحليق بالمروحيات بعد التفاهم على أنّهم لن يسيئوا استخدامها. وعندما أساؤوا استخدامها في الجنوب، حدّثني نفسي أنّ علينا القول لهم أوقفوا الطيران في الغد. وكان الردّ الأميركي، قلنا لهم إن في وسعهم استخدامها وسيكون ذلك بمثابة تراجع عن كلامنا، أو تعلم أنّ هذا غير منصف، نقول لهم نعم... لذا قلت، ذلك غير منصف بالتأكيد، يجب ألا ينسوا أنّنا كسبنا الحرب! يمكننا أن نقول لهم لقد غيرنا رأينا، لا تحلقوا بالمروحيات غداً!"¹²⁸.

كما هي الحال مع كثير من مساعي بندر الدولية، لعبت الصحافة الغربية، وبخاصة الصحافة الأميركية، دوراً أساسياً في الأحداث. فمن خلال مقابلات متلفزة

ومؤتمرات صحفية كثيرة في أثناء حرب الخليج، عمل الأمير بلا كلل كي يفسّر للجماهير الغربية الحقيقة وراء الصور المزعجة غالباً التي تذيعها وسائل الإعلام في الشرق الأوسط. وفي أحد الأمثلة، أوضح أن "الإعلام في الولايات المتحدة الأميركية يعطي الانطباع أن خمسين ألف متظاهر في الأردن يمثلون العالم العربي. كل ما أودّ أن أقوله لكم هو أن هناك خمسين مليون نسمة في مصر يؤيدون الولايات المتحدة"¹²⁹.

بالإضافة إلى المناورة نيابة عن الملك فهد خلال التمهيد لقرار الملك بقبول انتشار قوات أميركية، لم يدّخر بندر جهداً أيضاً لإقناع الجمهور الأميركي والكونغرس أن التدخل الأميركي في الخليج خطوة إيجابية لن تجلب العواقب الوخيمة التي يخشاها كثير من الخبراء. "كان من المسلي بالنسبة إليّ مشاهدة خبراء بشؤون الشرق الأوسط أو من يسمّون مستعربين وهم يطلعونني على ما سيحدث إذا أرسلت أميركا قوات إلى الشرق الأوسط. كيف سيهبّ الشرق الأوسط إلى الثورة من الخليج إلى المحيط. وعندما لم يحدث ذلك، قالوا، لكن هناك تظاهرات في نيجيريا وتونس والأردن. وكنت أستمع بمناقشة هؤلاء الأشخاص والقول، هل لكم أن تقولوا لي ماذا حدث في يوليو 1990 في نيجيريا وتونس والأردن؟ تظاهرات! في يناير 1991؟ تظاهرات! وماذا حدث في أغسطس؟ لم يتغيّر شيء، كانت لديهم مشاكلهم، وأسبابهم، وأضيفت لافتة أخرى"¹³⁰.

لا مجال للتشكيك في أهمية حرب الخليج الأولى في تحديد "نظام عالمي جديد". فقد تشكّلت تحالفات، ونُظمت ائتلافات واتخذت قرارات لم يُنظر فيها حتى ذلك الوقت. وبصرف النظر عن دافع المصالح الوطنية، اتحدت بلدان شرقية وغربية، إسلامية ومسيحية، ضد طاغية واحد ونجحت، وإن يكن بشكل محدود. وكما أوضح الرئيس السابق بوش: "لم تتحقّق هذه الرؤية بصورة كاملة عندما كنت رئيساً - على الرغم من أننا قطعنا شوطاً بعيداً باتجاهها - لكن النظام العالمي اليوم جديد تماماً في الواقع. إن النظام العالمي الجديد الذي سعينا في سبيله لا يعني وضع كل شيء تحت تصرف الأمم المتحدة أو التخلّي عن ذرّة من السيادة؛ إنه يعني العمل بالتعاون مع بلدان أخرى لإحلال مزيد من الديمقراطية، واستحداث مزيد من اقتصادات السوق، وتحقيق مزيد من الحرية"¹³¹. وبحسب تعبير بندر: "أعتقد أن الشرق الأوسط تغيّر كثيراً منذ غزو الكويت وحرب الخليج؛ فالشرق الأوسط الذي عرفته قبل 2 أغسطس لم يعد الشرق الأوسط القائم حالياً".

يفخر الأمير، كطيّار قبل أن يصبح دبلوماسياً، بالعرض المثير لقدرات سلاحه الجويّ السعودي والأميركي. "أظن أن سلاح الجو استطاع لأول مرة في تاريخ الحرب تحقيق نصر حاسم في هذه الحرب... ولا أقول ذلك انتقاصاً من شأن الجيش أو مشاة البحرية، بل لأقول فقط، دعونا نستغل هذه القدرات الجديدة التي نملكها"¹³².

تعزّزت آراء بندر بما قاله السير ريتشارد إيفانز الذي أكّد أن وسائل الإعلام تجاهلت سلاح الجو الملكي السعودي إلى حدّ بعيد، وبالتالي فإن مساهمته طواها النسيان. وتابع: "أظن أنها كانت حملة محورية بالنسبة إلى سلاح الجو الملكي السعودي. ففي سياق الغارات الأولى سنة 1991، كان السعوديون أول من نشروا عملياً عدداً من أسلحة طائرات تورنيديو، بما في ذلك JP233، وهي الذخيرة المتطورة الخاصة بتخريب مدارج المطارات الحربية. ولم ينسب لسلاحهم الجوي الفضل الذي يستحقه في سياق المساهمة التي قدّمها في المرحلة العملائية من الحرب". وأضاف إيفانز: "في ذلك الوقت بلغ سلاح الجو [السعودي] سنّ الرشد. ويفخر سلاح الجو الملكي السعودي كثيراً بسلوكه العملائي وإنجازاته خلال الحرب".

راجع إيفانز أداء سلاح الجو الملكي السعودي خلال حرب الخليج، ولاحظ أن "بندر لم يكن بالتأكيد متفجعاً حيادياً، ولم يكن كذلك بالفعل كثير من كبار أفراد العائلة المالكة الذين كانت لديهم أيضاً خبرات واسعة في الطيران في الستينيات والسبعينيات. فقد عبّروا جميعاً عن اعتزازهم الكبير بإنجازات هؤلاء الطيارين الشبان الذين نفذوا طلعات عملائية داخل العراق. ولعل الأمير درّب كثيراً منهم حين كان قائداً لوحدة جوية عملائية". وختم بالقول: "كانت كثير من تلك الغارات الأولى ناجحة جداً؛ وقد شكّلت نقطة تحوّل دامية"¹³³.

بُعيد إتمامي الفقرة الأخيرة من هذا الفصل، كشفت عن تفصيل مذهل يلقي ضوءاً جديداً على دور بندر كأحد الصقور في حرب الخليج. فيما كانت قوات الائتلاف تحتشد على الأراضي السعودية استباقاً لعملية عاصفة الصحراء، قابل السعوديون قرار الرئيس بوش إرسال جيمس بيكر للاجتماع بطارق عزيز بعدم تصديق، وبخاصة بندر. فقد أكّدت مصادرهم الاستخبارية أن ردّ فعل صدام على هذا القرار كان: "لقد تراجع بوش". واستدعى ذلك السؤال التالي: "هل تملك أميركا العزيمة للمضي في الاشتباك العسكري مع العراق حتى النهاية؟". وبالنسبة إلى

السعوديين، كان لا بد من مقابلة خديعة صدام بردّ عسكري يقضي على الرئيس العراقي نهائياً.

في هذا الوقت الحرج، تصوّر الملك فهد وبندر سيناريو مرعباً. ماذا لو قرّر صدام، في اللحظة الأخيرة، قبول قرار الأمم المتحدة والانسحاب من الكويت؟ ستصبح قوات الائتلاف عاجزة؛ فليس لديها تفويض بمهاجمة القوات العراقية إلا في الكويت. وكم من الوقت يمكن إبقاء 750,000 رجل جاهزين للعمل؟

رأى بندر أنّ في وسع صدام عندئذ أن يلعب لعبة الانتظار الطويلة على الحدود الكويتية ريثما ترحل قوات الائتلاف. وهو يعرف الآن مقدار الوقت الذي يستغرقه قيام الولايات المتحدة بدعم المملكة العربية السعودية، وفي الوقت المناسب يوجّه ضربة أخرى عبر الكويت. غير أن السعوديين اعتقدوا أن صدام لن يرتكب الخطأ نفسه مجدداً. ففي استطاعة القوات العراقية إزاحة القوات السعودية، حتى مع وجود بقايا دعم عسكري أميركي، والاستيلاء على حقول النفط، ما يمكنه من احتجاز الاقتصاد العالمي رهينة لديه. لذا من الضروري، بالنسبة إلى الملك فهد وبندر، أن يشتبك الائتلاف مع صدام عسكرياً والقضاء عليه.

وبالنسبة إلى الأميركيين، تحوّل القلق من احتمال قيام صدام بالردّ بأسلحة بيولوجية وكيميائية إلى مسألة حقيقية. وكان لا بد من تقليل خطر وقوع إصابات أميركية ضخمة بسبب هجوم كيميائي أو بيولوجي.

لذا، قرّر بوش أن يكتب إلى صدام حسين رسالة شديدة اللهجة يتوعّده فيها بأقوى ردّ ممكن - فسّره كثيرون أنه تهديد برد نووي - إذا استخدمت القوات العراقية أسلحة دمار شامل. وأكدت تلك الرسالة، المؤرخة في 5 يناير 1991، بوضوح لا لبس فيه العزيمة الأميركية؛ ستشنّ قوات التحالف المهيوم ما لم تنسحب القوات العراقية من الكويت انسحاباً ناجزاً. وفي ما يلي نص الرسالة:

السيد الرئيس:

نقف اليوم على شفا حرب بين العراق والعالم. وهي حرب بدأت بقيامك بغزو الكويت؛ حرب يمكن إنهاؤها فقط بامتثال العراق بشكل كامل وغير مشروط لقرار مجلس الأمن 678.

أكتب لك الآن، مباشرة، لأن المخاطر تتطلب عدم تفويت أي فرصة لتجنّب الشعب العراقي كارثة محقّقة. وأكتب، أيضاً، لأن بعضهم يقولون إنك لا تدرك

إلى أي مدى أصبح العراق معزولاً وما يواجهه نتيجة لذلك. لست في موقع للحكم على صحة هذا الانطباع؛ مع ذلك ما يمكنني أن أفعله هو أن أحاول في هذه الرسالة دعم ما قاله وزير الخارجية جيمس بيكر لوزير خارجيتك وإزالة أي لبس أو غموض قد يساورك تجاه الموقف الذي نقفه وما نحن مستعدون لأن نفعله.

إن المجتمع الدولي موحد في دعوته العراق إلى الانسحاب من الكويت تماماً من دون شرط أو إبطاء. وتلك ليست سياسة الولايات المتحدة، بل موقف المجتمع الدولي كما عبّر عنه ما لا يقل عن اثني عشر قراراً لمجلس الأمن.

إننا نفضل التوصل إلى نتيجة سلمية. غير أن كل ما هو دون الامتثال الكامل لقرار مجلس الأمن 678 وما سبقه من قرارات غير مقبول. لا يمكن مكافأة العدوان، ولا يمكن إجراء أي مفاوضات. إذ لا يمكن المساومة على المبدأ. لكن العراق يستطيع عن طريق الامتثال التام كسب فرصة إعادة الانضمام إلى المجتمع الدولي. وتتفادى المؤسسة العسكرية التدمير على الفور. لكن، ما لم تنسحب من الكويت بصورة كاملة ومن دون أي شرط، فإنك ستخسر أكثر مما ستخسره الكويت. فموضوع الخلاف هنا ليس مستقبل الكويت - ستتحرّر وستعود حكومتها - وإنما مستقبل العراق. والخيار عائد إليك.

لن تنفصل الولايات المتحدة عن شركائها في الائتلاف. هناك اثنا عشر قراراً لمجلس الأمن، و28 بلداً تقدم وحدات عسكرية لتطبيقها، وأكثر من مئة حكومة ملتزمة بالعقوبات. وكل ذلك يبرز أن النزاع ليس بين العراق والولايات المتحدة، بل بين العراق والعالم. وما اصطفاك معظم البلدان العربية والإسلامية ضدك إلا تعزيز لما أقول. لا يستطيع العراق ولن يكون بمقدوره الاحتفاظ بالكويت أو الحصول على ثمن مقابل مغادرتها.

قد يغريك أن تجد عزاء في تنوّع الرأي، تلك هي الديمقراطية الأميركية. عليك أن تقاوم مثل هذا الإغراء. ويجب عدم الخلط بين التنوّع والانقسام. ولا تستخفن بإرادة أميركا، كما فعل آخرون قبلك.

العراق يشعر بالفعل بوطأة العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة. إذا حلت الحرب، فستكون المأساة أعظم بكثير عليك وعلى بلدك. دعني أؤكد أيضاً أن الولايات المتحدة لن تتساهل إزاء استخدام أسلحة كيميائية أو بيولوجية أو تدمير حقول نفط الكويت ومنشآتها. وستتحمل مسؤولية مباشرة الأعمال الإرهابية ضد أي عضو من أعضاء الائتلاف. سيطلب الشعب الأميركي أقوى ردّ ممكن. وستدفع أنت وبلدك ثمناً باهظاً إذا أمرت بأعمال لا أخلاقية من هذا النوع.

لا أكتب هذه الرسالة لأهدد، بل لأبلغ. وإنني لا أقوم بذلك عن طيب خاطر، إذ ليس ثمة خلاف بين شعب الولايات المتحدة وشعب العراق. السيد الرئيس، إن قرار مجلس الأمن الدولي 678 يحدّد الفترة التي تسبق 15 يناير من هذه السنة بمثابة "وقفه نية حسنة" بحيث يمكن إنهاء هذه الأزمة من دون مزيد من العنف. ويرجع إليك وحدك استخدام هذه الوقفة كما أريد لها، أو تحويلها إلى مقدمة لمزيد من العنف. أرجو أن تدرس خيارك بعناية وتختار بحكمة، لأن الكثير متوقف على ذلك.

جورج بوش¹³⁴

أبلغ الرئيس بوش الأمير بندر بشأن الرسالة التي كانت ستُسلّم إلى طارق عزيز خلال لقائه جيمس بيكر في جنيف. ولحشر صدام وعدم إتاحة أي خيار يحفظ ماء وجهه، أشار بندر إلى بوش ألا تصاغ الرسالة بعبارات متصلّبة فحسب، بل إنه وافق أيضاً على ترجمتها إلى اللغة العربية. وأوضح بندر أن اللغة العربية لغة منمّقة يمكن التعبير فيها عن الكلمات بعدّة طرائق مختلفة. لكنه أقرّ أنّ ترجمته صيغت لتكون فظة وعدائية إلى أبعد حدّ ممكن. وكان بندر يعتقد أنّ غضب صدام وكبريائه سيدفعانه لتجاهل قرار الأمم المتحدة وإبقاء قواته في مواقعها في الكويت، ما يجعل الحرب محتومة. وستدمّر تلك الحرب، في نظر بندر، الآلة العسكرية العراقية وتطيح صدام.

أعطيت التعليمات لبيكر ألا يفاوض، في لقائه في 9 يناير مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز في جنيف، بأي شكل من الأشكال على المطلب المحدّد في قرار مجلس الأمن. وأكد بيكر لاحقاً: "كنت ذاهباً إلى اللقاء من دون أن تكون لدي النية أو الرغبة على الإطلاق في التفاوض على قرارات الأمم المتحدة". غير أنّه كان يعي تأثير الاجتماع في الائتلاف إذ قال: "العيب الوحيد فيه هو أنه جعل بعض حلفائنا يشكّكون في تصميمنا"¹³⁵. وفي مستهل اللقاء، ناول بيكر طارق عزيز الرسالة الموجهة من الرئيس بوش إلى صدام حسين. وطلب عزيز نسخة من الرسالة ليقرأها. وعن ذلك اللقاء، قال عزيز: "قرأتها بعناية وعندما انتهيت من قراءتها، قلت له، السيد الوزير، ما هكذا تكون المراسلة بين رئيسي دولتين. هذه رسالة تهديد ولا يمكنني أن أتسلّم منك رسالة فيها تهديد لرئيسي. وأعدتها إليه". ولم تفلح محاولات إقناع عزيز بتسلّم الرسالة.

عندما علم بندر من بيكر أن طارق عزيز رفض تسلّم الرسالة، سافر إلى لندن على الفور. وهناك اتصل بأندرو نيل، رئيس تحرير صحيفة صنداي تايمز، الذي كان على اتصال منتظم به خلال الفترة المؤدية إلى حرب الخليج. أكّد نيل حدوث لقاء بينهما، ولاحظ، "لم يكن الأمير بندر يثق بكفاءة النظام العراقي. كان صدام لا يحسن الردّ على الأنباء السيئة وكان ميالاً إلى إلقاء اللوم على الرسول. لذا طلب مني نشر نسخة من رسالة الرئيس بوش إلى صدام".

ما إن اقتنع أندرو نيل أن الرسالة صحيحة، حتى تحوّلت إلى مقالة صحفية تصدرت الصفحة الأولى. لكن نيل لم يكشف عن أن بندر سرّب إليه الرسالة إلا بعد 15 سنة. وأسرّ لي قائلاً: "رأيت أنها حسّاسة جداً بحيث إنني لم أذكره [أي دور بندر] حتى في مذكراتي"¹³⁶. وعندما نشرت الصحافة البريطانية الرسالة، تلقّتها وسائل الإعلام كافة، ما أجبر الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض مارلن فيتزروتر على نشر نص الرسالة بأكمله، وذلك مناف لبروتوكول البيت الأبيض الذي يعتبر أن من غير اللائق نشر المراسلات الدبلوماسية. وبذلك، كان لا بد أن تسترعي الرسالة الآن انتباه صدام.

كان الدافع وراء قيام بندر بتسريب الرسالة تصميمه على ألا يقدم إلى صدام صيغة تحفظ كرامته، وذلك مناقض لنهج بندر المعتاد تجاه قضايا الشرق الأوسط. لقد كذب عليه صدام، الذي أكّد له أنه لن يجتاح الكويت. وبعد أن خدعه، خلع عباءة صانع السلام وتحوّل إلى الصقر الرئيسي، كما كشف بيكر عندما أطلعني على نسخة من محاضر دوّنها في أثناء لقاء قبل عملية عاصفة الصحراء. وقد أكّدت تلك المحاضر أن بندر شدّد على المضي حتى النهاية والقضاء على صدام. فبعد أن أقنع بندر الملك بقبول الدعم العسكري من أميركا في الأيام التي تلت غزو الكويت على الفور، لم يعد يريد أقل من انتصار كاسح للائتلاف، وتدمير الآلة العسكرية العراقية الضخمة، وإزاحة صدام حسين. وكان بندر يدرك أن الخطر الذي يشكّله صدام على المملكة العربية السعودية يتطلّب سد أي سبيل للفرار. وبمساهمته في صوغ رسالة الرئيس بوش المتصلّبة، كان يعرف جيداً أنها لن تُغضب الرئيس العراقي فحسب، وإنّما ستسبّب لصدام أيضاً إهانة كبيرة في حال انسحابه من الكويت. لذلك كان من المهم أن يرى الرسالة. وقد حقّق قيام بندر بتسريب

الرسالة تلك الغاية. فلم تضمن مضي الائتلاف في الهجوم فحسب، وإنما أغلقت الباب أيضاً في وجه أي انسحاب عراقي. وهكذا بضربة واحدة، بعيدة عن الأضواء، استطاع بندر بالتأكيد أن يدفع أميركا للحرب.

السلام في الشرق الأوسط

"تستحق إنجازات الأمير بندر اعترافاً دولياً.

وأنا أصفق له... كواحد من صانعي السلام العظام في زماننا".

نلسون مانديلا

في سنة 1972، قبل عشرين عاماً على عملية عاصفة الصحراء، اجتمع وزير النفط السعودي، أحمد زكي اليماني، بالرئيس نيكسون وقدم إليه عرضاً بتلبية الاحتياجات الأميركية كافة من النفط مقابل الدعم الأميركي للتوصل إلى حلّ عادل ومنصف للمشكلة الفلسطينية. فرفض نيكسون¹.

أدى رفض نيكسون هذا العرض السعودي المدهش إلى إطالة إحدى أقدم مشكلات العالم إلى أجل غير محدد. وفي أعقاب هذا الرفض، سعى ستة رؤساء أميركيين متعاقبين لتحقيق اختراق في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية العسيرة، ولم يتم التوصل إلى حل حتى اليوم.

يتذكّر بندر الجهود التي بذلها طوال أكثر من عقدين للتوصل إلى تسوية للقضية الفلسطينية ويقول بآلم: "أمضيت أكثر من 70 بالمئة من وقتي في العشرين سنة الماضية في عملية السلام في الشرق الأوسط والنزاع الإسرائيلي الفلسطيني. وقد تحطّم قلبي مرّات عديدة عندما اقتربنا كثيراً من تحقيق الاختراق ثم انهيار كل شيء". وفي تصريح يشخص إحباطات العملية، ويحمّل مسؤولية مشتركة عن الفشل في التوصل إلى حلّ، يضيف بندر: "أعتقد أنّ هناك فشلاً في القيادة في الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأعتقد أنّ الحلّ واضح أمامي وضوح الشمس. لن تقوم دولة فلسطينية تستطيع العيش بكرامة ما لم تحصل إسرائيل على الأمن. لكن إسرائيل لن تحصل على الأمن قطّ ما لم تضمن للفلسطينيين دولتهم وتحفظ كرامتهم. وأعتقد أنّك إذا قبلت ذلك، يصبح ملء التفاصيل عندئذٍ أكثر سهولة".

أدت متابعة حرب الخليج سنة 1990 إلى وضع السلام في الشرق الأوسط جانباً، إذ ركزت بلدان الائتلاف على إلحاق الهزيمة بصدام حسين، وقد وفّرت النهاية الناجحة للنزاع - وتأثيرها في الهيمنة السياسية في المنطقة - مناخاً جديداً وواعداً لاستئناف المفاوضات التي يمكن أن تدفع المسألة الفلسطينية إلى الأمام.

السلام في الشرق الأوسط طموح مشترك. وفي حين أنّ المملكة تشعر بتعاطف كبير مع الشعب الفلسطيني ومحنة جيرانها المسلمين، فإنّها تخشى في الوقت نفسه تزايد قوّة المتطرفين الذين يشكّلون تهديداً مباشراً. وقد عملت المملكة طوال عقود على كبح العنف بين الفلسطينيين والإسرائيليين والأطراف المتصارعة الأخرى في المنطقة. وفي نهاية عملية عاصفة الصحراء، ضغطت المملكة على الولايات المتحدة مجدداً للقيام بمبادرة جديدة. وفي 18 أكتوبر 1991، وافق البيت الأبيض، وأرسل إلى الملك فهد رسالة كتبها جيمس بيكر تفيد، "إنّ الولايات المتحدة ستعمل كوسيط نزيه في محاولة حل النزاع العربي الإسرائيلي"².

وأصبح بندر مسهّل هذا الحافز الجديد للسلام.

عُقد مؤتمر مدريد في أكتوبر 1991 في أعقاب حرب الخليج، وأصبح علامة مميّزة في التاريخ العربي الإسرائيلي والفلسطيني الإسرائيلي. فقد كانت تلك المرة الأولى التي يعقد فيها مؤتمر واسع للسلام تحضره كل الأطراف المعنية بالنزاع العربي الإسرائيلي، والمرة الأولى التي يشارك فيها الفلسطينيون على أي مستوى. فلم تقبل سوى مصر عرض إسرائيل للتفاوض وجهاً لوجه حتى انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1991. والآن ستعقد مفاوضات متعدّدة الأطراف بين إسرائيل وسورية ولبنان والأردن والفلسطينيين حول القضايا الرئيسية. وتلك خطوة غير مسبوقه إلى الأمام.

استضافت الحكومة الإسبانية مؤتمر مدريد ورعاه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وعلى الرغم من أنّ الولايات المتحدة لعبت دوراً مهيماً في المؤتمر، فإنّ انضمام موسكو إليها في الرعاية المشتركة للمؤتمر شكّلت علامة على تنامي التعاون بين القوتين العظميين³. ومع أنّ الفضل في المؤتمر يرجع إلى جهود الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وبخاصّة مساعي وزير الخارجية جيمس بيكر الحماسية في دبلوماسيته المكوكية، فإنّ دور بندر كان محورياً.

كان غرض مؤتمر مدريد تشكيل منتدى افتتحي للمشاركين، ولم يكن يتمتع بسلطة فرض الحلول أو الاعتراض على المناقشات. باختصار، لم تكن للمؤتمر أهداف ملزمة رسمية، ومع ذلك فقد ركّز على قراري مجلس الأمن الدولي 242 و338 اللذين أقرّا سنة 1967 و1973 على التوالي، ودعا كل الأطراف لإنهاء النزاع العسكري والتفاوض على التسوية. والقراران يتوقعان، من دون أن يحدّدا، انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلت في حربي 1967 و1973 في مقابل ضمانات أمنية. وأصبحت هذه المفاوضات تعرف بمفاوضات "الأرض مقابل السلام".

أقرّ مؤتمر مدريد إجراء المفاوضات على مسارين، ثنائي ومتعدّد الأطراف، يضمّ أعضاء من المجتمع الدولي. كانت هذه المحادثات العلنية التي تجرى لأول مرة بين إسرائيل وجيرانها (باستثناء مصر التي وقعت مع إسرائيل اتفاقات كامب ديفيد في سنة 1978)، ترمي إلى تحقيق معاهدات سلام بين ثلاث دول عربية هي سورية والأردن ولبنان، وبين إسرائيل. غير أنّه ما من شك في أنّ الأهمية الحاسمة لمؤتمر مدريد هي إطلاق حوار ثنائي بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وقد استندت المحادثات مع الفلسطينيين إلى صيغة من مرحلتين: الأولى تتكوّن من التفاوض على ترتيبات حكم ذاتي مؤقت، تعقبها مفاوضات الوضع النهائي. وبدأت محادثات المسارات الثنائية على الفور، وتلتها أكثر من اثني عشرة جولة رسمية في واشنطن دي سي، بين 9 ديسمبر 1991 و24 يناير 1994.

بعد أربعة حروب عربية إسرائيلية في 1948 و1956 و1967 و1973 خلّفت آلاف القتلى، نشأ تعصّب عميق الجذور في كلا الجانبين وزاد من حدّته تأييد الفلسطينيين صدام حسين. وبالنظر إلى هذا الإرث، لم يكن الإسرائيليون والفلسطينيون مستعدين للتفاوض لأنّ القوى الغربية ترى أن ذلك فكرة جيّدة. لكن الإقناع والاستعداد كانا جاريتين داخل العالم العربي قبل مدريد.

ضغطت المملكة العربية السعودية من أجل إطلاق مبادرة سلام ولعب بندر دوراً في جعل مدريد حقيقة واقعة، وعن ذلك يقول برنت سكوكروفت: "في الفترة التي سبقت الحرب، واصل صدام إدخال الإسرائيليين في القضية، وما إلى هنالك. وكان موقفنا: إنّ محور اهتمامنا هو العراق، وليس المنطقة". غير أنّ سكوكروفت أسرّ بالقول: "لكننا قلنا من دون ضجّة للملك فهد والرئيس مبارك وغيرهما، التزموا معنا

هنا، ولنركّز على هذه القضية، وبعد انتهائها تنتقل إلى القضية الفلسطينية الإسرائيلية. إننا نرفض ربط القضية الأخيرة بالحرب، لكننا نتعهد لكم أن نتحرّك بعد انتهائها". وأضاف سكو كروفت: "مع أنّ ذلك قدّم ضماناً أنّ الولايات المتحدة ستدعم مبادرة للسلام بعد انتهاء الحرب الراهنة، فقد تعيّن على الأمير بندر إقناع الملك بالوثوق بنا"⁴. وقد سهّلت علاقة الأمير بندر الخاصّة بالملك فهد والرئيس بوش هذه المهمّة بشكل كبير.

بعد وضع هذه التسوية على الطاولة، وقع على عاتق بندر إقناع السعوديين أنّه يمكن الركون إلى تعهد الأميركيين. وكان نجاح مؤتمر مدريد يتوقف على دعم المملكة العربية السعودية، فتأييد هذه القوة الإقليمية البارزة يشكّل إشارة مرجعية ومؤثّرة إلى بقية العالم العربي.

عن الاتفاق غير المكتوب أن تعقد محادثات السلام بعد حرب الخليج، قال بندر: "جاء مؤتمر مدريد بسبب الحرب. فعندما غزيت الكويت وأصبحت الحرب وشيكة، بدأ الرئيس بوش والملك فهد يبحثان عمّا سيعقبها: ما الذي سنفعله بعد الحرب؟". كان الملك فهد يتوق إلى وضع خطط لعقد مؤتمر سلام يتعامل مع القضية الإسرائيلية الفلسطينية بمبادرة جديدة تفتح آفاقاً جديدة، ويعتقد أنّ ذلك يشكّل حافزاً للسلام في الشرق الأوسط، لكن إدارة بوش أصرّت على التركيز على خوض الحرب، مع أنّها تؤيّد هذه التطلّعات.

لم يكن من المفاجئ أن يؤدي نجاح عملية عاصفة الصحراء إلى إضعاف موقف ياسر عرفات كثيراً في العالم العربي. فقد حيّا غزو صدام الكويت، فردّ القادة العرب بقطع المساعدات عن منظمة التحرير الفلسطينية⁵.



د. سعيد الكرمي

كانت أول إشارة ملموسة عن مقدار ضعف عرفات في ذلك الوقت، والبراغماتية التي أحدثتها ذلك، قراره قبول شروط إدارة بوش لمؤتمر السلام في مدريد التي تضمّنت استبعاد عرفات عن المؤتمر⁶. وقد قال عن ذلك الدكتور سعيد الكرمي، جراح الجهاز البولي، الفلسطيني الراحل، وأحد الأصدقاء

المقرّبين من بندر: "بعد أن ربخنا الحرب في سنة 1991، اتصل بي بندر قائلاً، ثمّة تحرّك يجريه جيمس بيكر والحكومة الأميركية لأجل محادثات السلام. ونحن كما تعلم لا نتحدّث إلى عرفات الآن، سأحتاج إلى التحدّث إليه لكن ليس الآن. لكنني أريد التحدّث إلى ثلاث شخصيات فلسطينية مرموقة".

سمّي الدكتور الكرّمي ثلاثة رجال هم "البروفسور إدوارد سعيد، أستاذ التاريخ في جامعة كولومبيا في نيويورك، وهو شخص شهير جداً توفي حديثاً، وكان مؤيداً لعرفات في ذلك الوقت؛ والبروفسور وليد الخالدي، أستاذ السياسة في جامعة هارفرد؛ والبروفسور هشام شرابي، الأستاذ في برنامج الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون". وأوضح الدكتور الكرّمي أنّ، "الأساتذة الثلاثة يتعاون مع القضية الفلسطينية على المستوى الفكري، ويمكنهم تقديم المشورة إلى ياسر عرفات. فتحدّث الأمير بندر إلى الأساتذة الثلاثة وأطلعهم على خلفية المحادثات المقترحة. قال لهم، الأمور ستتحرك في الشرق الأوسط، أحببتم ذلك أم كرهتموه. وسيعقد مؤتمر يشارك فيه الجميع باستثناء عرفات بسبب موقفه المؤيد لصدّام حسين، لذا أرجوكم أن تنقلوا رسالة إلى جماعتكم أنّ مؤتمر مدريد سيعقد، ولن يكون في وسعكم إيقافه. يمكن أن نتحدّث إلى عرفات في وقت لاحق، لكن لا يمكنه الحضور في الوقت الحالي. وأوضح بندر أيضاً أنّ على الفلسطينيين أن يرسلوا فريقاً إلى مدريد". وختم الكرّمي بقوله: "وكان الأمير بندر فعّالاً أيضاً في دفع السوريين إلى طاولة المفاوضات"⁷.

عرض وزير الخارجية الأميركي على عرفات فرصة دبلوماسية للخروج من الموقف المخزي الذي وضع نفسه فيه بعد حرب الخليج. ولما كان بيكر يعلم أنّ الإسرائيليين يقبلون بوجود فلسطيني في المحادثات إذا كانوا جزءاً من الفريق الأردني، لا كوفد مستقل لمنظمة التحرير الفلسطينية، فقد كان عليه إقناع عرفات بقبول هذه الشروط وإبقاء منظمة التحرير الرسمية خارج محادثات مدريد. فوافق عرفات، ولا شكّ في أنّ ذلك تمّ بمساعدة الأساتذة الفلسطينيين الذين تشاور معهم بندر في واشنطن. لذا جُمع فريق فلسطيني تمثيلي يتكوّن من أشخاص غير أعضاء في منظمة التحرير، وأرسلوا إلى مدريد تحت علم الأردن.

كان بيكر يعلم من تعاملاته السابقة مع ياسر عرفات والفلسطينيين أنّ من المستحيل الحصول على وفد فلسطيني مستقل تماماً عن منظمة التحرير. ويدرك أيضاً أنّ

كل ما يقال في مدريد سيُنقل إلى عرفات في تونس على الفور. وأكد الدكتور الكرمي أن الممثلين الفلسطينيين كانوا قادرين على إبقاء الحوار مفتوحاً مع عرفات الموجود في تونس في ذلك الوقت، لذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بصورة غير مباشرة عبر الوفد الفلسطيني. لكن بمساعدة بندر، تمكن الوزير بيكر من الالتفاف حول رفض إسرائيل التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتحقيق شيء لم يتم فعله من قبل، وهو جلوس الفلسطينيين والإسرائيليين معاً حول طاولة التفاوض نفسها.

سارعت إدارة بوش أيضاً إلى الإقرار بسقوط الأوراق بعد الحرب والاستفادة من ذلك. ويذكر جورج إيتش دبليو بوش: "أحرزت مصداقيتنا الجديدة (مقرونة بحاجة ياسر عرفات إلى استعادة صورته بعدما أيد الجانب الخاسر في الحرب) نتائج طيبة سريعة وكبيرة على شكل مؤتمر السلام في الشرق الأوسط في السنة التالية في مدريد"⁸. غير أن القدرة على ممارسة الضغط على الفلسطينيين لم تكن الفرصة الوحيدة التي تلقفها بوش وبيكر. "فقد أدركته ما أدركته قلة من السياسيين الآخرين، أن المناخ السياسي لا يدعم مسعى الضغط على الفلسطينيين فحسب، وإنما على الإسرائيليين أيضاً للحصول على التنازلات اللازمة لبدء المفاوضات"⁹. فتمكنت الولايات المتحدة، بمزيج من الضغوط المالية والسياسية على الإسرائيليين من التغلب على عدم رغبة الإسرائيليين في التحدث إلى من تعتبرهم إرهابيين في منظمة التحرير، بعدما وافقت الأخيرة على حضور المؤتمر كجزء من الوفد الأردني.

لقد وفر القدر اللحظة المؤاتية في التوقيت والظروف، وبدا التقدم في النزاع الفلسطيني الإسرائيلي ممكناً التحقيق. ولن تسمح الولايات المتحدة، مدفوعة بالمملكة العربية السعودية من الخلف، بتفويت الفرصة. وقد قدم بندر آراءه بشأن أهمية محادثات السلام في مدريد بقوله: "عملت جاهداً مع وزير الخارجية جيم بيكر على إقامة مؤتمر السلام في مدريد، أنا وآخرون. وتكمن أهمية ذلك المؤتمر في أنها المرة الأولى التي تجلس فيها إسرائيل منذ مؤتمر رودس في سنة 1963. في مدريد لم تجلس إسرائيل مع البلدان المجاورة فقط للتفاوض على السلام (أي مع سورية ومصر والأردن والفلسطينيين)، بل المرة الأولى التي تجلس فيها مع 98 بالمئة من البلدان العربية". وأوضح: "كانت دول مجلس التعاون الخليجي ممثلة بالأمين العام للمجلس وأنا، وكانت البلدان العربية المغاربية ممثلة بأمينها العام؛ وكان هناك ممثل عن الجامعة العربية،

بالإضافة إلى وزراء خارجية بلدان الطوق. كان من المهم أن نبدأ بمؤتمر سلام ينظر إلى توصّل المنطقة بأكملها إلى سلام في ما بينها وليس إلى توصّل الفرقاء المتحاربين فقط".
 لوحظ في انتقاد محادثات مدريد أن المؤتمر فقد فعاليته في تأمين أي تشريع ملموس للسلام، بغياب أي أهداف محدّدة أو غايات واضحة. غير أن ما تمّ على مدى الثلاثة أيام هو أن المؤتمر وضع أسس التقدّم وزرع بذور اتفاقات أو سلو سنة 1993. وعلى الرغم من أنه لم يتمّ التساهل مع حضور الفلسطينيين إلا نتيجة لتحريف القواعد، فإنّ حضورهم، إلى جانب التغطية الدولية للمحادثات، غير الصورة المدركة عن الفلسطينيين وبذر اعترافاً متنامياً بحقوق الفلسطينيين، وشرعية قضيتهم، وتفهماً أوضح للمخاوف والطموحات الفلسطينية.

على الرغم من أن ياسر عرفات لم يكن حاضراً شخصياً، فقد كان له تأثير خفي ومتسامح معه في أروقة مدريد، حيث قال أحد المعلقين: "هذا المؤتمر هو حتماً أكثر المؤتمرات التي حضرها إثارة للاهتمام، لا بسبب ما حدث على طاولة الاجتماعات، بل ما يحدث في الأروقة"¹⁰. فالجميع، بما في ذلك إسرائيل، كانوا على علم بسبل الفاكسات والمكالمات المتبادلة بين مدريد وتونس في كل فرصة متاحة، ومع ذلك سُمح باستمرار التصنّع ما جعل مدريد بداية أول حوار بناء، ولو عن بعد بين إسرائيل ومنظمة التحرير.

مع ذلك، كاد مؤتمر مدريد ينهار قبل أن يرشح أي شيء عن ذلك، قبل أن يجلس الإسرائيليون مع السوريين، وقبل أن يجلسوا مع الوفد اللبناني، وقبل أن يجلسوا مع الأردنيين، وقبل أن يبرز الفلسطينيون بالطبع في الوعي العالمي كشعب جريح يستحقّ اهتماماً عالمياً.

نجح جيمس بيكر، بعدما أعيته التكتيكات، والمطالب الإسرائيلية الدائمة بشأن خطط محادثات مدريد، في إقناع الرئيس الأميركي جورج بوش باللجوء إلى الضغط المالي لحلحلة موقف شامير المتشدّد. ففي خطوة لا سابق لها، في سبتمبر 1991، امتنع الرئيس بوش عن تقديم ضمانات للقروض إلى إسرائيل، وهي أموال تعود معظمها إلى برنامج توسيع الاستيطان. وقد نجحت الخطوة: أذعن شامير ووافق على حضور مدريد بالشروط التي أملاها بيكر¹¹.

في الحديث عن نتائج المؤتمر، قال الرئيس جورج إيتش دبليو بوش: "كان مناسبة تاريخية. فالإسرائيليون لم يجلسوا مع زعماء عرب قبل ذلك التاريخ، لقد كان جسراً

حقيقياً". وتابع بعد ذلك: "كانت فكرة الحصول على تأييد الخليج هي التالية: لن يكون نهاية الأمر، سنحاول التعامل مع المشكلة التي تزعج كل بلدان مجلس التعاون الخليجي، وهي الخلافات بين إسرائيل والدول العربية. أذكر عندما مشيت [على المسرح] مع غورباتشيف وأعجوبة جلوس العرب قبالة الإسرائيليين؛ أعني أنه حدث كبير، حدث هائل، وأتمنى لو أنهم استفادوا منه أكثر". لم يتردد بوش في التأكيد على مساعدة بندر على حث الدول العربية المترددة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات، قائلاً: "كان دور بندر مهماً جداً في التشجيع على الحضور"¹².

أيّد الدبلوماسي الذي يحظى بتقدير كبير والمستعرب السفير إدوارد جيرجيان* ما عزاه بوش إلى الأمير وقال: "لقد كان لي شرف العمل معه عندما كنت في إدارة بوش الأول. ويمكنني أن أقول لك إننا كنا نعتمد حقاً على بندر كأحد أهم اللاعبين في بناء سلام بين العرب وإسرائيل. ولا أعتقد أنه كان يمكن إنجاز مؤتمر مدريد للسلام، وهو لا يزال الإطار للسلام العربي الإسرائيلي حتى اليوم، من دون استغلال مواهبه الدبلوماسية الهائلة في إدخال الشركاء العرب إلى المعادلة"¹³.

في الفترة المؤدية إلى مؤتمر مدريد للسلام، كان على الملك فهد والرئيس مبارك وضع استراتيجية لإقناع الرئيس السوري بحضور المؤتمر. وقرّر الرئيس مبارك، ووافق الملك، على أن يعقد بندر اجتماعاً ثلاثياً: مصرياً سعودياً أميركياً يضم عمرو موسى، وبندر، وجيمس بيكر. وقد عُقد الاجتماع في مصر بغية تنسيق مواقف حكوماتهم بشأن خطة إقناع الأسد بإرسال وفد إلى مدريد.

غير أن عمرو موسى، وزير الخارجية المصري، كان معروفاً بحبّ الظهور. ويقول بندر: "بدأ يصعب الأمور علينا. ففيما كنا نحاول الوصول إلى جوهر الموضوع، أصرّ

(*) السفير إدوارد ب. جيرجيان، المدير المؤسس لمعهد جيمس بيكر الثالث للسياسة العامة في جامعة ريس، هو أحد ألمع الدبلوماسيين الأميركيين حيث امتد عمله طوال إدارات ثمانية رؤساء أميركيين. وهو من الخبراء البارزين في القضايا السياسية والأمنية والاقتصادية والدينية والإثنية المعقدة في الشرق الأوسط، وقد لعب أدواراً رئيسية في عملية السلام العربية الإسرائيلية، والائتلاف الذي قاده الولايات المتحدة ضد غزو صدام حسين للكويت، والمساعي الناجحة لإنهاء الحرب الأهلية في لبنان، وإطلاق الرهائن الأميركيين في لبنان، وإنشاء الترتيبات الأمنية الجماعية والثنائية في الخليج. وبناء على ذلك كان دائم الاتصال بالأمير بندر ويكن له احتراماً كبيراً.

على تقديم انتقادات قومية، فقد كان يريد أن يدوّن في سجله أنّه قال أشياء معينة".

قبل ذلك الاجتماع، علم الأمير كيون أنّ من المرجح أن يعتمد عمرو موسى موقفاً قومياً. وبما أنّ بيكر وبندر ينزلان في الفندق نفسه، فقد اجتمعا قبل مجيء عمرو موسى.

سأل بيكر الأمير: "هل تعتقد أنّ عمرو موسى سيحاول إلقاء محاضرة علينا بعد أن التقيت برئيسه؟".

ضحك بندر وقال: "عمرو موسى قادر على القيام بأي شيء، حتى إذا كان غير صحيح".

فسأل بيكر: "وهل يغيّر ذلك السياسة؟".

أجاب بندر: "لا. ما قاله لك الرئيس مبارك هو ما سيحدث. لكن يجب أن تتحلّى بالصبر وتعطي الفرصة لعمرو موسى ليقول ما يريد، وسيتفق معك في النهاية".
أبلغ الأمير بيكر أنّ عليه أن يكون مستعداً لتكتيكات عمرو موسى المعهودة، وأن يعدّ شيئاً للردّ عليه".

ضحك بندر وقال: "جلسنا في جناح بيكر، ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً بالطبع قبل أن يلقي علينا موسى نغمته المعهودة. وقدّم محاضرة طويلة لا علاقة لها بالموضوع، فهو يستمتع بهذه الأشياء".

كان يوجد ملف جلدي أمام بيكر، وفي منتصف الاجتماع أغلقه بقوة بطريقة مستعمدة وقال: "السيد وزير الخارجية، لم آتِ إلى هنا لأتفاوض معك. فقد اجتمعت برئيسك وأقرّ خطة الرئيس بوش والملك فهد. لن أجلس هنا وأستمع إلى الكثير من هذه الترهات. لا أستطيع أن أنشد السلام أكثر من العرب والإسرائيليين. لدي أشياء أخرى أقوم بها. شكراً جزيلاً لك على الاجتماع، أنا ذاهب".

كان بندر يعلم أنّ بيكر يقوم بالتمثيل، لكنّه واثق جداً من أنّ موسى لا يعرف ذلك. فجأة، اعترى موسى الخوف، إذ اعتقد أنّ بيكر اتفق مع رئيسه وربما غير رأيه الآن. لذا طلب موسى إمهاله بضع دقائق لكي يتحدث إلى الرئيس. بعد أن غادر موسى الغرفة، جلس بيكر مقهقهةً، وقال لبندر: "ما رأيك؟".

فقال بندر: "أعتقد أنّها ستنجح".

بعد بضع دقائق عاد عمرو موسى وأعلن: "بحث الأمر مع الرئيس وأقنعتنا أننا اتفقنا".

علّق بندر لاحقاً: "لا أعتقد أنه تحدّث إلى الرئيس مبارك، لكن كان عليه أن يحفظ ماء وجهه. وأصبح ما حدث طرفة بيني وبين بيكر: هل ستغلق الملف بقوة أم لا؟ إن ذلك يظهر برأيي أن جيمس بيكر رجل دولة عظيم. فلنكون رجل دولة يجب أن تُحسن التمثيل، وكان يتقنه".

أشارت وسائل الإعلام إلى دور بندر في إبقاء السوريين حول الطاولة وأفادت: "كان دور الأمير بندر في الكواليس محورياً في جعل المفاوضين يجلسون مع الإسرائيليين". ووصفت التقارير نفسها كيف قدّم الأمير إلى بيكر "أوراقاً قيّمة يلعبها" عندما تكشّفت العملية¹⁴. وامتدح أنه صديق مؤتمن لوزير الخارجية بيكر، وذو موهبة كبيرة في جسر المصوّة التي تفصل بين العرب والإسرائيليين. كما مارس بندر أيضاً ضغوطاً مالية كبيرة بالتهديد بذكاء بسحب المساعدة الاقتصادية لسورية البالغة 5 مليارات دولار ما لم تشارك سورية في المحادثات. وتمّ أيضاً كبح جماح الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية باحتمال استئناف الإعانات السعودية السخية التي قُطعت بعد وقوفهما إلى جانب صدام حسين في حرب الخليج. بل عرضت المملكة العربية السعودية على الاتحاد السوفياتي حوافز مالية تقدّر بنحو 2.5 مليار دولار¹⁵.

بعد تذليل كل الصعوبات، بدا أنه يمكن بدء المؤتمر. غير أن احتفال الافتتاح في 30 أكتوبر 1991، بحضور الرئيسين بوش وغورباتشيف، كاد أن يتعثّر. فعندما همّ بوش بافتتاح الاحتفالية مع غورباتشيف، وفيما كانت وسائل الإعلام العالمية تفرّج مستعدّة، انسحب بوش من المسرح وسأل أحد مساعديه: "أين الأمير بندر؟ هل حضر؟". لم يكن بندر حاضراً: فقد منعه الأمن من حضور المؤتمر، ومسؤولية ذلك تقع على الرئيس بوش.

عند الساعة الثانية مسن بعد منتصف يوم المؤتمر، تلقى بندر مكالمة من برنت سكوكروفت. كان بندر يعلم أن بوش وسكوكروفت ينامان باكراً - يأويان إلى الفراش في العاشرة عادة - لذا أثار توقيت المكالمة خوف بندر. لا بدّ أن أزمة قد وقعت.

قال سكوكروفت: "مرحباً بندر، هل يمكنك أن تأتي في الغد لمقابلة الرئيس؟". أجاب بندر: "طبعاً، ذلك يسرّني. سآتي بعد المؤتمر".

وردّ سكو كروفت: "لا، يريد أن يراك قبل أن يذهب إلى المؤتمر عند الساعة صباحاً".
كان بندر يكره اجتماعات الفطور لكنّه لا يستطيع أن يرفض دعوة الرئيس. لم
ينم في تلك الليلة بعد أن ساوره القلق بحدوث أزمة ما". وفي الصباح الباكر وصل إلى
السفارة الأميركية، وهو متلهّف لمعرفة سبب رغبة بوش في لقائه قبل المؤتمر. عندما
دخل، سأله بوش: "هل أيقظناك؟".

"لا، لم أكن قد أويت إلى الفراش بعد".

وبعد تبادل المجاملات، سأل بوش: "هل تعرف لماذا طلبت منك المجيء؟".

"لا". أجاب بندر.

فأوضح بوش: "أردت أن أشكرك على الجهود التي بذلتها في إعداد هذا المؤتمر،
وأردت أن أقوم بذلك شخصياً قبل أن نبدأ".

فوجئ بندر وأجاب: "ذلك لطف منك".

كان الرئيس بوش قد ربّب لالتقاط صورة رسمية له مع بندر، ثم دعا بندر إلى
الانضمام إليه في لقاء مع الصحافة. وفيما كانا يخرجان إلى الحديقة معاً على مرأى من
كل الصحفيين، سأله بوش: "هل ستأتي إلى المؤتمر؟".



جورج بوش يشكر بندر لجهوده قبل مؤتمر مدريد للسلام

أجاب بندر هازاً كتفيه: "لم أعد أريد ذلك".
"لماذا؟". سأل بوش.

"لأسباب أمنية. لقد تحوّلت مدريد إلى معسكر مسلّح ويجب أن تكون كل الوفود هناك قبل ساعة من حضور الراعيين الرئيسيين. أما وأتني الآن معك، فقد أبلغت أتني لا أستطيع الوصول إلى هناك في الوقت المناسب".
فقال الرئيس: "حاول أن تأتي".

غادر بوش بعد ذلك في موكبه الرئاسي. لكن كما توقّع بندر، أوضح له فريقه الأمني أن ليس في وسعه الذهاب إلى المؤتمر لأنّ كل شيء قد أغلق. لذا ركب بندر سيارته للعودة إلى الفندق. لكن في الطريق، غيّر موكبه مساره وتوجّه إلى المؤتمر. فقد قال ضابط أمن إسباني لبندر: "أمرتُ أن أصحبك إلى قاعة المؤتمر على الفور".
كان تعليق تلفزيون سي أن أن المباشر على المؤتمر يفيد: "بعد دقيقتين سيسير الرئيسان بوش وغورباتشيف من اتجاهين مختلفين إلى الباب، حيث يلتقيان هناك ثم يدخلان القاعة معاً ويجلسان على مقعديهما على المسرح". لكن لم يحدث شيء في الوقت المنتظر.

فقد خرج بوش خلف المسرح من جانبه من الممر وكان غورباتشيف يخرج من جانبه عندما التفت وسأل جيمس بيكر: "هل تعتقد أنّ بندر وصل؟".
أجاب بيكر: "لا أعلم". ثم تحقّق من الموظّفين الإسبان في البروتوكول فأكدوا له أنّه إذا لم يكن بندر هنا بالفعل، فلن يستطيع الدخول.

استدار بوش على الفور وتوجّه إلى غرفته. وعندما رأى غورباتشيف المرتبك ذلك عاد إلى غرفته أيضاً. وبالإشارة إلى هذا الموقف قال بوش: "هذا الرجل بذل أقصى ما يستطيع لانعقاد هذا المؤتمر، وسبب عدم وجوده هنا أتني طلبت منه مقابلي. لن أدخل إلى هناك وأفوّت هذا الحدث عليه. أريده هنا وإلا لن أدخل".

لذا اصطُحّب بندر إلى المؤتمر. وعندما دخل القاعة، قال بيرني شو من السي أن أن: "مهلاً، أحدهم قادم. من هو؟ يبدو أنّه الأمير بندر. نعم إنّه الأمير بندر، ما الذي يفعله؟ إنّه آخر القادمين. هذا يبيّن لكم الدور الذي تلعبه المملكة العربية السعودية".

لاحظ الأمير لاحقاً أنّ القاعة بأكملها وقفت عندما وصل. وفوجئ بندر لأنّه لم يكن في عداد المشاركين الرئيسيين على المسرح، فمقعده في القاعة الرئيسية لأنّه مجرد

عضو في وفد. كان أمين عام مجلس التعاون الخليجي عبد الله بشارة بين الحضور باعتباره الممثل الرسمي للمجلس، لكن كما أسرّ بندر لاحقاً: "كنت أدير الأمر كله". قال بندر: "عززت لفتة بوش الدور الذي لعبته في الإعداد للمؤتمر. لو كنت قدمت إلى هناك لأسباب بروتوكولية، فلماذا ينتظرونني؟ لم أكن رئيس دولة ولا وزير خارجية. لكن ذلك أثبت أهمية العمل الذي قمت به حتى ذلك الوقت". وفي إشارة مباشرة إلى علاقته ببوش، أضاف بندر: "يكشف لك ذلك أيضاً عن جوهر هذا الرجل وإخلاصه".

تابع بندر لعب دور المسهل والوسيط طوال المؤتمر. فبعد خطابات الافتتاح وقبل أن تبدأ جلسة العمل، أعلن الإسرائيليون أنهم لن يسمحوا لأحد أعضاء الوفد الفلسطيني بالحضور لأنه يضع الكوفية الفلسطينية على كتفيه. فسأل بندر الفلسطيني الذي استبعد: "ما المشكلة؟".

فأجابته: "الإسرائيليون يحاولون إذلالنا. إنهم لا يسمحون لنا حتى بارتداء زينا الوطني".

استشاط بندر غضباً. بعد كل ذلك العمل الشاقّ يتعرّض المؤتمر للخطر لأن أحدهم ارتدى شيئاً ما. فأبلغ دنيس روس*: "دنيس، هذا ما حدث وهذا موقفي. إذا لم يسمح للفلسطينيين بالدخول وهم يرتدون ما يشاؤون، فلن أدخل وسأوصي بانسحاب الوفود العربية كافة".

توجّه روس على الفور لمقابلة بيكر الذي قال: "اللجنة يا بندر، هذا نقاش سخيف. ما هم اللباس ومن يرتديه؟".

أجاب بندر: "أوافقك الرأي يا جيم. لكننا لسنا من يشتكي بل الإسرائيليون". التفت بيكر إلى روس وسأل: "ما رأيك يا دنيس؟".

أجاب روس: "أصرّ شامير على عدم دخول الإسرائيليين إذا ارتدى ذلك الشخص الكوفية".

(*) لعب السفير دنيس روس كمنسق خاص للشرق الأوسط (1988 - 2000) دوراً رئيسياً في التدخل الأميركي في عملية السلام في الشرق الأوسط. وساعد روس الإسرائيليين والفلسطينيين على التوصل إلى الاتفاقية المؤقتة في سنة 1995، وسهل معاهدة السلام الإسرائيلية الأردنية، وسعى لتحقيق تقارب بين إسرائيل وسورية.

قال بندر مبتسماً: "حسناً، إذا طلبت من الإسرائيليين أن يخلعوا قلنسواتهم، فسأطلب من ذلك الشخص خلع الكوفية وسأخلع غترتي أيضاً. وسنكون كلنا حاسري الرؤوس".

صاح بيكر: "اللعنة، لا يهمني من يرتدي ماذا. دعونا نتابع الاجتماع". وسرعان ما تدخل بيكر لدى الإسرائيليين وانتهت الأزمة. وقال أحد أعضاء الوفد الفلسطيني بعد ذلك: "لقد أنقذ بندر شرفنا وكرامتنا".

أدى مؤتمر مدريد إلى استقرار في العلاقة بين إسرائيل والدول العربية. وتابع بيكر إزالة المخاوف لمعرفة أن "مبادرة مؤتمر مدريد شكّلت الأساس للمفاوضات ووضعت الإطار الذي لا يزال يحظى بتقدير حتى اليوم"¹⁶.

وافق بندر على ذلك بالطبع، ولاحظ لاحقاً، "بعد مؤتمر مدريد للسلام، تحطمت الكثير من المحرمات. واتخذ العالم العربي خيار السلام الاستراتيجي"¹⁷. وبتشجيع المشاركة الأميركية في عملية السلام في الشرق الأوسط بنشاط، ودعم المبادرة صراحة، وإقناع الدول العربية الأخرى أن تحذو حذونا، كان في وسع بندر أن يدعي: "لم يكن مؤتمر مدريد لينجح لو لم نكن هناك"¹⁸. في تصريح عن مدريد بعد خمس سنوات، قال بندر مبرزاً قناعاته البراغماتية والعالمية: "لا يمكن أن يتحقق استقرار وسلام حقيقيان ودائمان في المنطقة من دون احترام كرامة ومستقبل كل شعوبه؛ مسلمين ومسيحيين ويهود". وختم بالمبدأ الذي يشكّل برأيه الأساس لأي حل للمشكلة الفلسطينية: "أولاً، لن يكون هناك حل يرضي الفلسطينيين إذا لم تقدّم ضمانات لأمن الشعب الإسرائيلي". وتوقّف هنيهة وتابع فاتحاً يديه: "ثانياً، لن يتحقق الأمن للشعب الإسرائيلي إذا لم تُلبّ التطلّعات الوطنيّة للشعب الفلسطيني. هذان هما الركبان الدائمان كيفما أخذت الشرق الأوسط وقلّبتة"¹⁹.

استضافت واشنطن مزيداً من المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية في ديسمبر 1991، بعد مضي أشهر على مؤتمر مدريد، لكن بعد عشر جولات من المباحثات المضنية، اختتمت تلك المحادثات من دون اتفاق. غير أنّه في أروقة مدريد، فيما كانت أعمال المؤتمر تمضي قدماً، وضع الإسرائيليون والفلسطينيون خطة سرية، من دون علم الأميركيين، للتفاوض على مسار مواز²⁰. فقد اتفق الإسرائيليون والفلسطينيون على إجراء مباحثات خاصة لاحقاً لاعتقادهم أنّ إطار مؤتمر مدريد الفضفاض لا يساعد

على تحقيق تقدّم حقيقي. ووافقت النرويج على التوسّط. ونتج عن ذلك إعلان مبادئ أوسلو.

في إعلان أوسلو، اعترف الجانبان بحقّ كل منهما بالوجود كشعب ضمن حدود إسرائيل والأراضي الفلسطينية. والتزم الفريقان بالتفاوض على تسوية دائمة، وتحسين العلاقات بين الشعبين. ومهد ذلك الطريق في نهاية المطاف إلى التوصل إلى معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في سنة 1995. مثل اتفاق أوسلو اختراقاً كبيراً في النزاع بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولم يكن من الممكن التوصل إليه من دون راغماتية الزعماء في كلا الجانبين²¹.

وضعت محادثات أوسلو شكلية مديرة جانباً لتسهيل التفاوض المباشر بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد أذهلت العالم، وبخاصة الولايات المتحدة، التي فوجئت بها تماماً. ففي أغسطس 1993، دُهِشت إدارة كلينتون الجديدة بالكشف عن هذا الاتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير، في أعقاب محادثات سرّية في النرويج²². وفي وقت لاحق أسرّ لي الدكتور سعيد الكرمي: "مع أنّ الإدارة الأميركية كانت متفائلة في البداية عن اجتماع أوسلو، فقد أبلغ الأمير بندر به منذ البداية وأبدى دعمه الكامل له".

بموجب إعلان أوسلو: توافق القوات الإسرائيلية على الانسحاب من مناطق محدّدة في قطاع غزة ومنطقة صغيرة حول أريحا، تمهيداً للانتخابات الفلسطينية. وفي المقابل تعهّد ياسر عرفات بتعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي يدعو إلى تدمير إسرائيل. وأخيراً، أعلن رئيس الوزراء إسحاق رابين عن نيّة إسرائيل بالسماح بتطبيع الحياة في الأراضي المحتلة. ولم يمض وقت طويل على إعادة الولايات المتحدة انخراطها في عملية السلام، حتى دعي العالم للتفرّج على المشهد بعيد الاحتمال للمصافحة بين ياسر عرفات وإسحاق رابين، والمحادثات بين الإسرائيليين والفلسطينيين لأول مرة.

أدى انخراط أميركا في اتفاقات أوسلو، إلى جانب دعمها الشديد لعملية السلام، إلى تغيير موقف ياسر عرفات على المسرح العالمي من إرهابي إلى سياسي بين ليلة وضحاها. فعندما سافر عرفات إلى الولايات المتحدة، كان السفير إدوارد جيرجيان في استقباله. وعندما نزل عرفات من الطائرة، صافح السفير عرفات. وابتسم جيرجيان عندما تذكّر ذلك، "كانت تلك المصافحة الشهيرة، أول مصافحة رسمية بين مسؤول

أمير كسي و عرفات على الأرض الأميركية". لكن، كان ثمة قلق خلف المصافحة من أن يحیی عرفات السفير بالمعانقة العربية التقليدية، التقبيل على الخدين. فقد كان جيرجيان يخشى من أن يعتقد كثير من الأميركيين أن مثل هذه التحيّة غير ملائمة. ولاعتقاد جيرجيان أن أي التباس أو إحراج أمام الصحافة يمكن أن يلقي بظله على أهمية قدوم عرفات، لذا لجأ إلى مساعدة بندر لضمان الالتزام بالبروتوكول واقتصار الترحيب الأولي على المصافحة. وقد ضمن تدخل بندر الدبلوماسي الحكيم مضي وصول عرفات من دون حوادث²³.

في أثناء زيارة عرفات الرسمية، وعلى مائدة عشاء رسمية في البيت الأبيض حضرها بندر أيضاً، هدأ الحديث قليلاً، وهو "أمر لا يطيقه الأمير بندر" كما لاحظ جيرجيان. فقال بندر لعرفات على حساب جيرجيان: "كيف تصنع عجة أرمنية".
بدا عرفات مشوشاً.

قال بندر: "أولاً تسرق بيضتين".

يذكر جيرجيان أن الجميع بدأوا بالضحك، "باستثناء عرفات الذي اعتقد أنني أهنت".

وضحك السفير من المأزق الذي وضع عرفات نفسه فيه وأوضح: "ها هو يحاول أن يظهر أفضل سلوك، كان الأمر مضحكاً جداً. ضحك الجميع. وبدأ عرفات حديثاً منفرداً استغرق خمس دقائق عن أهمية الأرمن بالنسبة إلى الفلسطينيين وأن هناك كثيراً من الأرمن الفلسطينيين البارزين. وطال حديثه من دون أن يفهم النكتة".

"في هذه الأثناء استرخى بندر في مقعده ونظر إليّ وغمزني"²⁴.

توجت اتفاقات أوسلو بالمصافحة التاريخية بين ياسر عرفات وإسحاق رابين في حديقة البيت الأبيض في 13 سبتمبر 1993. كانت المصافحة إقراراً رمزياً بالاعتراف السياسي الرسمي لكل من الأمتين بالأخرى، واعتراف عرفات بحق إسرائيل في الوجود. وقد امتدحها الرئيس كلينتون أنها "مناسبة تاريخية عظيمة". ودعاها ياسر عرفات "حدثاً تاريخياً يدرّس حقبة جديدة". ورأى فيها وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز "مدخلاً للسلام في الشرق الأوسط"²⁵. أخيراً ارتفعت الآمال في تحقيق تقدّم حقيقي. وكما في مدريد، كان بندر حاضراً في البيت الأبيض ليشهد هذه الخطوة المهمة نحو السلام وصافح إسحاق رابين بعد الاجتماع²⁶.



مصافحة عرفات ورايين في حديقة البيت الأبيض

مع أن مبادرة أوسلو تمت خارج إطار مؤتمر مدريد، فقد استند مسعياً السلام إلى شراري مجلس الأمن الدولي 242 و338، ولم يتم حل الكثير نظراً إلى الطبيعة الغامضة لوقف الأمم المتحدة. فتفسيرات القرار 242 المؤيدة للعرب لا تتوقع أقل من انسحاب إسرائيل التام من الضفة الغربية وغزة والأراضي المحتلة الأخرى. وأوحى التزام أوسلو بمعادلة "الأرض مقابل السلام" التي اعتمدها مؤتمر مدريد لمنظمة التحرير باحتمال قيام دولة فلسطينية. وعندما لم يتحقق ذلك، كانت آراء الفلسطينيين من الاتفاقات تشوبها الخيبة والاستياء. غير أن الصياغة الدقيقة للقرار 242 تنصّ عمداً على انسحاب إسرائيل من "أرض" مقارنة "بالأراضي" مقابل السلام والأمن. لكن بصرف النظر عن قسمة الأراضي، يبقى القراران 242 و338 جازمين بشأن الحاجة إلى حل سلمي متفاوض عليه، وهو ما سعت مدريد وأوسلو لمحاكاته. وتفيد النظرة المتفائلة أن المحادثات في كليهما جمعت الجانبين معاً على الرغم من أنّهما لم يسفرا عن حل دائم للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية. ويمكن الحديث عن كسب نصف المعركة.

مع ذلك، سرعان ما خبا الأمل الذي بثته هذه الجهود البراغمية من أجل السلام في مدريد وأوسلو على حدّ سواء. استمرّت خيبة أمل منظمة التحرير الفلسطينية من تسريحة المفاوضات، وواصلت إسرائيل احتلالها الأراضي الفلسطينية، ورفضت التعامل

مع عرفات أو البحث في الانسحاب ما لم يتخذ خطوات حاسمة لإنهاء الهجمات الفلسطينية العنيفة²⁷. ومرة أخرى تبين أن الأمل فجر كاذب.

عندما فاز الديمقراطيون بانتخابات العام 1992، تسلّم بيل كلينتون مهمة إحلال السلام في الشرق الأوسط من الرئيس جورج إيتش دبليو بوش. شعرت المملكة العربية السعودية بشدة بهزيمة بوش. فهو يحظى بتقدير كبير لدى آل سعود، ونشأت صداقة ناجحة وازداد التفاهم بينهما. وصعب على بندر، الذي تربطه صداقة وثيقة بأسرة بوش، تقبّل الهزيمة التي مني بها الجمهوريون. وخلال هذه الفترة المظلمة من الحياة المهنية، اقترب بندر المكتئب جداً من تقديم استقالته كسفير إلى الولايات المتحدة، ولم يبقه في منصبه إلا الإحساس العميق بالواجب تجاه بلده والملك.

شهدت ولايتنا الرئيس كلينتون فترة من عدم استقرار في عملية السلام في الشرق الأوسط تميّزت بفترات طويلة من الجمود الذي تقطعه بين الحين والآخر اندفاعات تاريخية نحو السلام. وكان عقد التسعينيات بالنسبة إلى بندر هادئاً نسبياً. وتوقع بعضهم أن يتقلّص مستوى قربه السابق من البيت الأبيض في عهد الجمهوريين، بفعل محاولات الديمقراطيين التعامل معه بتحفظ وبرود. لكن على الرغم من تخمين وسائل الإعلام، بقي قرب الأمير من البيت الأبيض أعلى بكثير من مستوى الاتصال والنفوذ المقبولين اللذين يتمتع بهما السفراء الآخرون. ومع ذلك كان بندر حساساً لتغيير المناخ السياسي واعترف بذلك بقوله: "أخذت أشعر بممل شديد"²⁸.

شهد نوفمبر 1996 انعقاد مؤتمر القاهرة الاقتصادي الذي استضافه الرئيس حسني مبارك وشاركت في رعايته الولايات المتحدة والاتحاد الروسي*. وأعاد إعلان القاهرة الذي نتج عن المؤتمر التأكيد على الالتزام بسلام دائم في الشرق الأوسط مع إشارة خاصة إلى النزاع الفلسطيني الإسرائيلي. ووافقت كل الأطراف على متابعة السعي للسلام عن طريق التفاوض والاستفادة من منجزات مدريد وأوسلو. ومن المؤسف أن هذا الجهد الموحد تبعته فترة سنتين ونصف من الجمود. مع ذلك واصلت إدارة كلينتون العمل على إحياء مسار السلام الفلسطيني الإسرائيلي. وفي أواسط أكتوبر 1998، عقد كلينتون قمة شرق أوسطية في واي ريفر بلانتيشن في ولاية ميرلند. ترأس الوفد الإسرائيلي رئيس الوزراء بنيامين نتياهو وترأس ياسر عرفات الجانب الفلسطيني.

(*) قدّمت اليابان والاتحاد الأوروبي وكندا دعماً أيضاً لمؤتمر القاهرة الاقتصادي.

ونتيجة للمفاوضات، تم توقيع مذكرة واي ريفر من قبل نتيهاو وعرفات في 23 أكتوبر 1998، وشهد عليها الرئيس كلينتون والملك حسين عاهل الأردن²⁹.

كانت مذكرة واي ريفر ترمي إلى إيضاح المسؤوليات المشتركة عن تنفيذ الاتفاق المؤقت بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة (أوسلو 2) الموقع في 28 سبتمبر 1995، بغية تمكين الفلسطينيين من التفاوض كطرف مستقل، من دون أن يحدّد ذلك الوضع النهائي لأي أراضٍ قد تتخلّى عنها إسرائيل إلى الفلسطينيين مقابل السلام والأمن. ودعا الاتفاق أيضاً إلى إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي في أنحاء من الضفة الغربية وغزة، وبالتالي تمكين الفلسطينيين من إجراء انتخابات حرة. غير أنّ اتفاق واي تخلّته كثير من مواطن الغموض بحيث قارنه بعض منتقديه بالجن السويصري، وتعرّض بعد التوقيع لانتهاكات فورية من الجانبين، وبدأت إسرائيل تملّص منه وتماطل في تنفيذه.

بيد أنّ بندر كان عازماً على الحفاظ على الضغط على إدارة كلينتون لمواصلة القيادة الأميركية عملية السلام واحترام أحكام مذكرة واي ريفر. وفي حديث إلى الصحافيين في أعقاب أحد الاجتماعات مع كلينتون في البيت الأبيض، أبلغ بندر وسائل الإعلام: "عبرنا عن قلقنا تجاه حساسية الموقف في الشرق الأوسط وخطورته في اللحظة الراهنة. الشرق الأوسط والعالم العربي يتطلعان إلى استمرار قيادة الرئيس الأميركي والولايات المتحدة لأنّ ذلك عنصر ضروري لإحلال السلام في منطقتنا"³⁰.

وعندما سئل بندر إذا كانت الإدارة تبدي اهتماماً كافياً لتدهور عملية السلام، قال إنّ الرئيس وإدارته استثمرا كثيراً من الجهد والمكانة بحيث إنّ الملامة على الوضع الحالي "تقع مباشرة على سلوك رئيس الوزراء نتيهاو الطائش. المسألة لا تتعلق أنه متشدّد أم غير متشدّد، لأنّ بيغن ورايين وشامير لم يكونوا متهاونين أيضاً". ولزيادة قوّة رسالته، ذكر بشكل لا لبس فيه، "أنّ رئيس الوزراء هذا فريد. إنّ سلوكه غير بناء بل طائش. وأعتقد أنّ الشعبين الإسرائيلي والعربي سيدفعان ثمناً باهظاً إذا لم يتوقّف هذا السلوك الطائش"³¹. كان قلق بندر توقعياً. ففي 20 ديسمبر 1998، علّقت الحكومة الإسرائيلية تنفيذ المذكرة.

أدى تعليق واي ريفر، إلى جانب تجميد المفاوضات بشأن التسوية النهائية، إلى نشوء وضع خطير في الشرق الأوسط. فقد واصلت إسرائيل نشاطها الاستيطاني في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فضلاً عن مصادرة الأراضي، وبناء ما يسمى الطرائق الالتفافية،



بندر وكلينتون، عمدت إدارة الرئيس إلى التعتيم عليه كثيراً

والإجراءات المتخذة ضد الفلسطينيين المقدسين، والحصار الاقتصادي³². وفي هذه الأثناء، بدأت وسائل الإعلام تشكك في جهود إدارة كلينتون. فذكر تقرير واشنطن عن شؤون الشرق الأوسط: "إن مراسم التوقيع المتزايدة، ثلاثة في البيت الأبيض، وأخرى في طابا وشرم الشيخ في مصر، لا تعدو أن تكون تكراراً للتعهدات غير المنجزة منذ التوقيع السابقة. وهذا كل ما تتطلع إليه إدارة كلينتون الآن في فرص المناسبات المصوّرة القادمة"³³.

على الرغم من تشكيك وسائل الإعلام، استضاف كلينتون قمة في كامب ديفيد في 11 يوليو 2000 - وهي مبادرة وصفها الدكتور هنري كيسنجر أنها "محكومة بالفشل". وفي تبرير رأيه قال: "كيف يمكن أن تضع مبادرة سلام في أواخر أيامك في الحكم؟ لقد كانت محاولة فاشلة من الرئيس كلينتون لإيجاد مكان له في التاريخ"³⁴. أياً تكن دوافع الرئيس، فقد تطابق تصميمه على إيجاد حل مع مسعى إيهود باراك للبقاء في السلطة، وحاجته إلى أن يعرض على الإسرائيليين فرصة تحقيق الأمن المنيع. وهكذا جدد توقيت القدر العرضي الحياة في السعي للسلام في الشرق الأوسط.

خلافاً لمبادرات السلام التي اتخذت في أوائل التسعينيات في مدريد وأوسلو، لم تكن أهمية قمة كامب ديفيد في الحاضرين حول الطاولة، وإتاما في العرض الذي قدم

عليها. فقد انتهز كلينتون وباراك فرصة السلام ووضعها ما يمكن أن يقال واحداً من أنصف صفقات السلام والأمن التي تعرض على الفلسطينيين وأكثرها قابلية للنجاح. ففي عرض كلينتون - باراك، ستشكّل دولة فلسطينية على 95 بالمئة من الضفة الغربية و100 بالمئة من قطاع غزة؛ وتفكّك المستوطنات الإسرائيلية باستثناء ثلاث مجاورة لإسرائيل؛ وتخضع القدس لسيادتين؛ ويُسمح بعودة عدد محدود من اللاجئين؛ وتُدفع حزمة تعويضات تبلغ 30 مليار دولار³⁵. ساد الترقّب واشتطن. فهذا هو السلام واحتمال الحل المواتي يلوحان في الأفق. ولم يسبق من قبل أن قدّمت حكومة إسرائيلية، مدعومة بقوة من واشنطن، مثل هذه التنازلات لصالح الفلسطينيين.

ألقي الرئيس كلينتون كل ما لديه في هذه المفاوضات. واجتمع منسّقه الخاص للشرق الأوسط مع المفاوض الفلسطيني أحمد قريع (أبو علاء) حرصاً منه على أن يدرك عرفات عواقب الرفض.

يذكر الدكتور سعيد الكرمي الإثارة والاهتمام اللذين سببهما هذا العرض، وأكد أنّه في الأيام الأخيرة لإدارة كلينتون، كان بندر يتحاور بانتظام مع عرفات ومساعديه بشأن الموافقة على الاتفاق. أخيراً أصبح لدينا احتمال حل قابل للحياة يوفر المستقبل والكرامة للشعبين. لذا شجّع بندر عرفات بحماسة ومن دون تحفّظ على قبول العرض³⁶.

في 2 يناير 2001، قبل ثلاثة أسابيع فقط من نهاية عهد كلينتون، استقبل بندر عرفات في قاعدة أندروز الجوية وراجع معه عرض باراك. وبعد ذلك قال له: "هل يمكن أن تحصل على اتفاق أفضل؟ هل تفضّل التفاوض مع شارون؟".

عندما أخذ عرفات يتذبذب، حدّره بندر قائلاً: "أرجو أن تتذكّر ما قلته لك. إذا خسرت هذه الفرصة، ستكون تلك جريمة. لديك خياران: إما أن تقبل العرض، وإما أن نذهب إلى الحرب"³⁷.

رفض عرفات العرض المقدّم في كامب ديفيد من دون تفسير أو تقديم عرض مقابل، فاختار الحرب.

في مسعى أخير، أرسل كلينتون أحد المسؤولين الذين لديهم علاقة جيدة مع عرفات للتحدّث معه مباشرة. قدّم المبعوث مناشدة تشوبها العاطفة، "أنجز الاتفاق، واحصل على دولة، وساعد شعبك، ولا تخسر أفضل فرصة تعرض على الفلسطينيين منذ سنة 1948".

أجاب عرفات ببساطة: "لا أستطيع"³⁸.

صُدم بندر بهذا الرفض وقال متألماً: "لقد أحرزني ذلك القرار؛ إنه جريمة بحق الفلسطينيين، بل بحق المنطقة بأسرها"³⁹.

لم يكن بندر الوحيد الذي نظر بيأس إلى رفض الصفقة من قبل عرفات؛ فقد حاول المصريون ثني عرفات عن موقفه لكنهم لم يفلحوا. واعترف أحد كبار مساعدي مبارك في حديث خاص: "كان على عرفات قبول الاتفاق كأساس للمفاوضات. علينا نحن العرب أن نتعلم كيفية التسوية"⁴⁰. تأمل كلينتون في سيرته الشخصية وفي عواقب رفض عرفات، قائلاً: "أنا سأذهب، وسيذهب روس. وسيخسر باراك الانتخابات القادمة أمام شارون. ولن يكون بوش راغباً في التدخل بعد كل ما بذلته وفشلت. وما زلت لا أستطيع أن أصدق كيف يمكن أن يرتكب عرفات مثل هذا الخطأ الجسيم"⁴¹.

عاد عرفات إلى فلسطين، وأطلق بعد أيام الانتفاضة الثانية. قُتل ثلاثة آلاف فلسطيني وألف إسرائيلي نتيجة لذلك. وكانت آثارها مأساوية على الفلسطينيين: انهيار الاقتصاد، وأغلقت المدارس، ودُمّرت البنية التحتية للبلد. وأصيب الإسرائيليون بالذهول. أما عرفات فدافع عن موقفه بقوله: "إذا فعلت ما تريدون فستصل حماس إلى السلطة في اليوم التالي"⁴².

بعد خمس سنوات على رفض العرض التاريخي بقيام دولة فلسطينية، توفي عرفات. ولم يعد إيهود باراك وبيل كلينتون في الحكم. جاء أرييل شارون، خليفة باراك، بعد تحوّل استثنائي ليقود حملة من أجل السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين قبل أن يسقط صريع سكتة دماغية قوية. وبقيت حماس.

في 26 يناير 2006، صوت الفلسطينيون بشكل كاسح لمصلحة حماس، رافضين فساد حركة فتح. وبالنظر إلى سجل حماس في المقاومة والتفجيرات، وبرنامجهما السياسي الذي ينكر حقّ دولة إسرائيل في الوجود، فإن احتمالات السلام في المنطقة وقيام دولة فلسطينية تبدو قائمة في الوقت الراهن.

توقّع جيمس بيكر ألا يتواصل جني ثمار مؤتمر مدريد للسلام إلا "عندما يوجد رئيس وزراء إسرائيلي يتطلّع إلى السلام وزعيم فلسطيني يخلف عرفات ويكون مستعداً للتفاوض بشكل صحيح للتوصل إلى سلام"⁴³. وفي متابعة لهذه المشاعر وتأمل متبصر

في فشل قمة كامب ديفيد، قال السير ريتشارد باول: "كانت إحدى أعظم الفرص العالمية الضائعة، لكن يمكنك أن تكون على يقين أن عرفات يفوّت الفرصة دائماً؛ فلا يمكن أن يكون عرفات إلا نفسه، أي زعيماً للمعارضة. إنه عاجز تماماً، إذا ما تمّ التوصل إلى تسوية للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية، سيفقد عرفات دوره على الفور". وتابع باول: "لقد خاب أمل بندر كثيراً في عرفات. إذا قدّمت لعرفات معظم ما يطلبه على طبق من فضة، فسيفرضه، إنه عاجز عن قبول أي شيء"⁴⁴.

تكرّر ذكر هذا الرأي كثيراً. ومؤخراً، كتب هندريك هيرزبرغ، "لا توجد لدى عرفات أو شارون الإرادة السياسية للتوصل إلى تسوية ضرورية"⁴⁵. غير أن هناك احتمال أن تكون المشكلة كامنة في التسوية. فكما اتضح في أثناء تعامل أميركا مع صدام حسين، وبخاصة في الفترة الممهّدة لحرب الخليج، غالباً ما كانت مساعي الغرب للتوسط عبر التنازلات والإرادة الطيبة تفسّر من قبل صدام على أنها ضعف في خصمه وسبب مثالي للتشبّث برأيه. ولعل هذا الاختلاف بين الفكرين العربي والغربي يفسّر رفض عرفات "العرض الذي لا يصدّق" الذي طُرح على الطاولة في كامب ديفيد. ربما رأى عرفات في التسوية التي طرحها إيهود باراك دليلاً على ضعف الإسرائيليين، فقدّر أن الوقت ملائم للهجوم بدلاً من التفاوض. ولعله كان واثقاً جداً من هذا الافتراض بحيث أدار ظهره لطاولة المفاوضات وأطلق الانتفاضة الثانية.

لاحظ بندر: "كانت جهود الرئيس كلينتون في وضع اتفاق إطاري بشأن فلسطين مدهشة". وامتدح كلينتون أيضاً بندر قائلاً: "لم يحاول بندر فقط حمل عرفات على قبول العرض، لقد قاد عرفات بندر إلى الاعتقاد أنه سيقبل العرض، لكن لا يعرف أحد منا ماذا حصل عندما غادر عرفات واشنطن آخر مرة". ويذكر الرئيس السابق، "قبل نحو ستة أسابيع على نهاية ولايتي، قلت لعرفات، سأحسن العرض المطروح عليك. وتوصّلنا إليه أخيراً في طابا؛ كان عرضاً جيداً منح عرفات 98 بالمئة مما أراد. وظننا أنه سيقبله لأنه قاد بندر إلى الاعتقاد أنه سيقبله، وقاد المغاربة إلى الاعتقاد أنه سيقبله، وأهميّة ذلك أن المغرب يرأس لجنة القدس"⁴⁶.

على الرغم من عمل كلينتون الشاق، استقل عرفات طائرته متوجّهاً إلى مصر، وعندما وصل إلى هناك، تراجع. هزّ كلينتون رأسه وتأمّل في ذلك، "أدلى الكثيرون بدلوهم في لماذا، أو من، أو ماذا وأنا لست واثقاً تماماً من أن أيّاً منهم يعرف. ربما

هناك العديد من الأسباب، وربما قرّروا أنّهم سيخسرون في الحالتين؛ يتخلّون عن حقّ العودة، ثم يهزم باراك وسيكون ذلك في الواقع بمثابة استفتاء على الاتفاق، فسيصابون بالخيبة لأنّهم قبلوا بالتسوية من دون الحصول على الفوائد".

لاحظ الرئيس أنّه كان في وسع باراك إقرار الحلّ في إسرائيل بدعم منه في ذلك الوقت. وخمّن أنّ في وسع باراك العودة والفوز بالانتخابات. وتابع: "حاولت إبلاغ عرفات بذلك. لقد تدنّى تأييد باراك إلى 38 بالمئة في استطلاعات الآراء، فقد كان يواصل التقدم من دون أن يحصل على شيء بالمقابل، لذا رأى الإسرائيليون أنّ من الأفضل لهم أن يأتي شارون إذا كانوا لن يحصلوا على السلام، وذلك أمر رهيب بالنسبة إلى كل المعنيين".

قال الرئيس: "حاول بندر جاهداً حمل عرفات على قبول الاتفاق. بل إنّّه تجاوز المطلوب بكثير". ورأى الرئيس أنّ المشكلة التي واجهته مع بعض الزعماء العرب أنّهم كانوا يبلغونه أنّهم يحدّثون عرفات على قبول الاتفاق، لكنّ عرفات لم يكن واثقاً من أنّهم سيقفون وراءه علناً، وكان يخشى أن ينتظروا ليعرفوا الاتجاه الذي ستهبّ منه الرياح. وشدّد كلينتون على أنّ "بندر كان رجل موقف. قال لعرفات، هذا أفضل عرض يمكنك أن تحصل عليه، وأنا أقبل به الآن لأنّه سيستغرق سنوات طويلة إذا لم تقبل".

يذكر كلينتون أنّه قال لعرفات، في مراجعة أخيرة للجهود التي بذلها لتحقيق نتيجة ناجحة لعملية السلام الجهيضة قبل مغادرته البيت الأبيض: "إذا لم تكن تريد أن تفعل ذلك، أخبرني، لأنني إذا كان الأمر كذلك سأتوجّه إلى كوريا الشمالية وأهني المشكلة التي لدينا هناك".

وأسرّ الرئيس، في نظرة إلى الأحداث بعد وقوعها، أنّه يتمنى لو ذهب إلى كوريا الشمالية بدلاً من مواصلة المحاولة مع عرفات إذ "كان الاتفاق يوشك أن يتم معهم [الكوريين]". غير أنّ كلينتون قرّر التثبّت بعملية السلام بعد أن قال له عرفات والدموع في عينيه، "بالله عليك لا تذهب، لا يمكنك أن تفعل ذلك".

في محاولة لتأمين وعد من عرفات أن يبرم الاتفاق، قال له الرئيس: "هل ستفعل ذلك؟".

"نعم"، أجاب عرفات.

وعلق كلينتون على عدم قبول عرفات بأي اتفاق لاحقاً، وقيامه بدلاً من ذلك بإطلاق الانتفاضة قائلاً بمرارة: "وتعلم البقية، سقط أربعة آلاف فلسطيني في الانتفاضة. لقد كانت مأساة".

وفي فكرة لاحقة متفائلة، أوحى كلينتون أن الفرصة ربما أتحت لعملية السلام بعد وفاة عرفات، "الأمر الجيد أننا نعرف ما هو الشكل الذي سيتخذه الاتفاق النهائي. نعلم أن علينا الذهاب إلى جنيف ونأخذ اتفاق طابا ونملأ الفراغات"⁴⁷.

لكن السانحة فقدت، وأغلق القدر تلك الكوة الصغيرة. لحص بندر أفكار العديدين في الكونغرس عندما قال عن عرفات: "كلما حاولنا شيئاً، فعل شيئاً معاكساً، إتني لا أثق بهذا الرجل، لقد كذب عليّ مرات عديدة"⁴⁸. وقال بندر لاحقاً إن انتقاد عرفات علناً في ذلك الوقت كان يضرّ بالقضية الفلسطينية. غير أن بندر ادّعى، في تعليق انتقادي على عدم موافقة عرفات على العرض الذي قدّمه باراك وكلينتون، أنه قال لعرفات على انفراد: "منذ سنة 1948، كلما كان لدينا شيء على الطاولة قلنا لا، لنعد ونقل نعم. وعندما نقول نعم، لا يعود مطروحاً على الطاولة. ويتعين علينا التعامل مع شيء أقل. ألم يكن الوقت لنقول نعم؟"⁴⁹.

لقد كانت خيبة أمل بندر من ياسر عرفات أعمق بكثير من انعدام الثقة، فقد حمّل الزعيم الفلسطيني المسؤولية المباشرة عن المقتلة التي تلت وإزهاق أرواح آلاف الفلسطينيين والإسرائيليين سدى. ففي حديث إلى إلسا وولش^(*) في سنة 2003، قال: "لم أتعاف في داخلي صراحة من حجم الفرصة التي فوّتت في يناير، قُتل ألف وستمئة فلسطيني حتى الآن وقُتل سبعمئة إسرائيلي. وفي اعتقادي ليس هناك ما يبرّر مقتل أي من هؤلاء الفلسطينيين والإسرائيليين"⁵⁰. لكن على الرغم من هذا الانتكاس الهائل، لم يتراجع تصميم بندر على إيجاد حل لعملية السلام. فقد قال: "لدي أنا وزوجتي ثمانية أولاد وحفيدان. ولا يمكنني أن أتصوّر أن يتخرّج حفيداي من المدرسة، أو يذهبوا إلى الجامعة ويسألاني، لماذا فشلت في حل هذه القضية يا جدي؟"⁵¹.

منذ رفض عرفات عرض كلينتون - باراك، تأمل العديد من الأشخاص في العواقب. فأثارت مقالة في صحيفة واشنطن تايمز السؤال، "إذا لم يقنع ذلك الجهد

(*) إلسا وولش مؤلفة وكاتبة في صحيفة ذا نيويورك ركر ومتزوجة ببوب وودوارد، المحلل السياسي والصحافي والكاتب المعروف.

السيد عرفات باختيار السلام، من الصعب أن يقنعه أقل من تدمير إسرائيل؟⁵². وفي الحديث عن رفض عرفات الاتفاق، رأى هنري كيسنجر، "أشكّ في أن الفلسطينيين يريدون التسوية، لن يرضيهم سوى تدمير إسرائيل". ومضى إلى القول إنه يفهم لماذا وصل إلى الفلسطينيين هذا الموقف المتشدد. وهذا الاعتراف بتفهم الموقف الفلسطيني كان بمثابة موقف مفاجئ من وزير خارجية يهودي سابق. غير أن كيسنجر علّق بشكل براغماتي، أنه كانت لدى منظمة التحرير الفلسطينية طموحات غير واقعية من ناحية الاتفاق مع إسرائيل، ملاحظاً أنه كانت لديهم توقّعات مثالية ولا شيء يعرضونه على الإسرائيليين في المقابل⁵³.

في مقابلة لاحقة، ألقى السفير مورفي مزيداً من الضوء على توقّعات كيسنجر القائمة بشأن القضية الإسرائيلية الفلسطينية. فأشار إلى أنه في حين قد يكون لدى كيسنجر تحفّظات بشأن رغبة الفلسطينيين في السلام، فإنّ ثمة حسنات لاعتقاده أنّ أفضل ما يمكن أن يؤمل به هو هدنة طويلة. وأوضح مورفي: "إنّه [كيسنجر] يقدم فرضية براغماتية وواقعية - على الرغم من أنّ الشيعين ربما لن يوقّعا على معاهدة سلام كاملة، فإنّ الهدنة طويلة الأجل كافية". وقال مورفي إنّ هدنة تمتدّ مئة عام ستكون لها قيمة حقيقة في أم الجراح العاطفية والبؤس اللذين يشعر بهما كل جانب، والعوامل التي تكبت جهود السلام. ورأى مورفي أنّ "السلام يتطلّب الكثير بسبب الإذلال والتاريخ القائم منذ سنة 1948". وفي ما يتعلّق بالهدنة الطويلة، قال مورفي: "لطالما اعتقد الإسرائيليون أنّ هذا التفكير خطر وأنهم لا يقبلون شيئاً يقل عن سلام تامّ وملزم". واستبعد مورفي أن يكون الطرفان يريدان تحقيق الأمن في ما يتعلّق بالسلام، ملاحظاً بسخرية، "إنهما لا يفكران بالطريقة نفسها، فأمن طرف واحد هو الذي يهم، إسرائيل". وعبر مورفي عن بعض التعاطف مع آراء كيسنجر، وخلص إلى أنّ مفهوم كيسنجر عما يمكن تحقيقه في الواقع - هدنة طويلة الأجل بدلاً من معاهدة سلام ملائمة - ليس سيئاً تماماً.

في محاولة أخيرة لتفسير رفض عرفات العرض الذي تقدّم به باراك، قال مورفي: "إنّه العقبول والموقف نفساهما اللذان اتخذهما الفلسطينيون في سنة 1948 من التقسيم. لا يمكن! لماذا نقسّم؟ إنهم عدد قليل على أرضنا، أيّاً تكن طريقة قدومهم، وتطلبون منا أن نقدّم لهم النسبة المئوية سر؟ وبعد ذلك جاءت الحرب وحصلوا [الإسرائيليون]

على النسبة المثوية س، ص، ز. لذا أعتقد أن هناك بعض الفلسطينيين الذين يناقشون حتى النهاية أن إسرائيل غير شرعية. لذا قد يكون من الأسهل القبول بسلام على المدى الطويل⁵⁴.

في ملاحظة شبيهة بمقارنة جهود بندر كصانع سلام بالبحث عن الكأس المقدسة، قال سكوكروفت بشكل لا لبس فيه: "أعتقد أن بندر لا يستطيع البتة إحراز تسوية سلمية، فهي ليست في متناوله". وأوضح: "لقد أمضى الأمير بندر سنوات عمله في المناورة بين المجموعات المتنازعة، ولا أعتقد أن عرفات يمكن أن يجلس ويوقع على شيء لا رجوع عنه". وهز رأسه مستسلماً وأضاف في فكرة لاحقة: "إذا أقنع الزعماء العرب عرفات بحيث يمكنه القول، أرغموني على ذلك، عندئذ أعتقد أننا سنحصل على سلام⁵⁵. غير أن وفاة عرفات استبعدت هذا الخيار.

لقد كان لدى بندر، باعتباره الشخص الذي لديه مصداقية كبيرة كعربي، وصانع سلام، ورجل دولة، وأفضل من يقنع عرفات بالموافقة على عرض كليتون - باراك، سبب وجيه كي يقسو في الحديث عن طبيعة عرفات. عندما رفض عرفات الاقتراحات، قال له بندر: "اسمعي، لن تكون هذه مأساة، بل ستكون جريمة إذا لم تفعل ذلك".

متأملاً في الفرصة الضائعة التي لا مثيل لها تقريباً، قال بندر: "ما زلت أعتقد أنه منذ 5/4 يناير، عندما عقدنا الاجتماع الأخير مع عرفات في واشنطن، ورفض الاقتراح، قبل أسبوعين من قيام كليتون بتسليم السلطة إلى بوش، لم يكن يتعين مقتل أي فلسطيني، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً، في الضفة الغربية وقطاع غزة منذ يناير 2001 حتى اليوم. وقد قُتل الكثير إذا كنت تقدر قيمة الحياة الإنسانية".

ولاحظ بندر، في تشبيهه بين دوره في وقف إطلاق النار في لبنان والخيار الذي واجه عرفات في كامب ديفيد: "قبل توصلنا أخيراً إلى اتفاق وقف إطلاق النار في لبنان، شهد ذلك البلد ما بين عشرة وخمسة عشر اتفاقاً لوقف إطلاق النار استمرت بعضها ساعتين أو أربعاً وعشرين ساعة أو أسبوعاً. وأذكر أن مراسلاً غربياً سألتني، ما جدوى وقف إطلاق النار في لبنان؟ لقد شهد لبنان العديد من اتفاقات وقف إطلاق النار ثم استؤنف القتال مجدداً وتواصل قتل الناس".

بدا على بندر الغضب حين تابع: "أغضبني ذلك المراسل كثيراً، فقلت له، لا أعرف جدواه بالنسبة إليك بل بالنسبة إلي. إذا أمكنني الحصول على وقف إطلاق نار

لمدة خمس دقائق ينقذ حياة واحد أو اثنين، فذلك كثير! وآمل أن يستمر هذا الوقف مدة كافية لإنقاذ أعداد أكبر بكثير من الأشخاص". وتابع الأمير: "لكن لا تنفوه بهذا الهراء عن جدوى وقف إطلاق النار إذا كان سينهار لاحقاً. كلما أتحت لك فرصة إنقاذ حياة الناس، يكون ذلك مجدياً. ولا يهمني إذا كان ذلك ينقذ شخصاً واحداً أو مئة أو ألفاً، لأنّ الناس لا يسقطون قتلى في أثناء وقف إطلاق النار".

وعندما تناول بندر رفض عرفات العرض الذي تقدّم به كليتون - باراك، اعترف بهدوء: "في ذلك السياق شعرت بألم شديد على الصعيدين العاطفي والفكري بطريقة لا يمكنني تصديقها. لو كنت زعيم القبيلة أو الأمة الفلانية، وأهتمّ لشعبي فعلاً، وعرض عليّ ما عرضه كليتون وباراك على عرفات، لكان يجب أن يكون لدي سبب وجيه جداً لأرفضه. وما زلت بعد مرور خمس سنوات لا أستطيع العثور على ذلك السبب".

عندما سئل بندر لماذا رفض عرفات، أجاب: "إذا أردت جواباً صادقاً استناداً إلى ما أعتقد، لا أعرف. لكن لا يسعني الحكم على عرفات استناداً إلى طريقة تفكيري، بل عليّ الحكم على عرفات استناداً إلى الطريقة التي أعتقد أنّه يفكر فيها". وأضاف بطريقة فلسفيّة: "أعتقد أنّ مشكلة عرفات الكبيرة هي أنّه لم يستطع إتمام الانتقال من القائد الثوري إلى رجل الدولة. وكلما وصل إلى تلك النقطة تراجع. الثوري هو شخص يقاتل من أجل الثورة. ورجل الدولة هو الشخص الذي يقول، الثورة انتهت الآن. أنا المسؤول وعليّ أن أنجز الانتقال من ثوري إلى زعيم عالمي".

وفي تكرار للتقييم نفسه، ولكن باستخدام أسلوب القيادة المختلفين للرئيسين المصريين عبد الناصر والسادات لإيضاح شخصية عرفات، أكّد بندر: "لم يستطع عرفات الانتقال من زعيم ميليشيا أو ثوري إلى رجل دولة. وأعتقد أنّ ذلك هو الفارق بين السادات وعبد الناصر. كان عبد الناصر القائد الثوري، وقد عجلّ في حرب سيناء على حسابات خاطئة، فأعطى العدوّ فرصة محاربتة في سنة 1967، وفقد جزءاً كبيراً من أرضه - سيناء - ولم يتمكّن من التوصل إلى كيفية استرجاعها بأن يكون رجل دولة. غير أنّ السادات عندما وصل إلى السلطة نظر في الوضع بأكمله وقال، عليّ أن أكون رجل دولة. فالطريقة الوحيدة لاستعادة هذه الأرض هي أن أكون رجل دولة. لا أستطيع استخدام مفردات عبد الناصر، وخطابه واتباع سلوكه، فقد فقد الأرض وأنا أريد استعادتها".

"لذا أصبح السادات رجل دولة، وبذلك استحدث بيئة لشنّ حرب هدفها تحريك المشهد السياسي ودفعه إلى الأمام، لا كسب حرب أو خسارتها. لذا أعدّ للحرب، وشنّها، ثم وافق على وقف إطلاق نار على الفور للمحافظة على مكاسبه التي كانت محدودة في واقع الحال. لكنّها كانت كبيرة من جهة أخرى لأنّها غيرت المعادلة. ثم مضى إلى طاولة المفاوضات ومن خلالها استرجع أرضه".

"لم يستطع عرفات تخطّي الحدّ الفاصل بين القائد الثوري ورجل الدولة، وبالتالي كان يتراجع كلما سنحت فرصة إحداث اختراق، لأنّها لا تدخل في عقلية. وإني أتوقّع من أبي مازن الذي أصبح الرئيس الفلسطيني الآن أن يكرّر ما حدث في مصر، إذا كان تقييمي دقيقاً. فعرفات هو عبد الناصر وأبو مازن هو السادات. وقد يفقد أبو مازن حياته في هذه العملية، مثلما حدث للسادات. لكن مع أنّه يفتقر إلى حضور عرفات وشعبية، فإنّه سينجز الدولة الفلسطينية في نهاية المطاف. وبصرف النظر عما تقوله عن صفات عرفات فإنّه لم يستطع تحقيقها، في حين أنّ أبا مازن سيحقّقها بصرف النظر عما تقوله عن أنّه يفتقر إلى الحضور". ومن المثير للاهتمام أنّ بندر عندما سئل إذا كان سيلعب دوراً في تلك العملية تجنّب القضية ببراعة بقوله: "دعونا ننتظر ونرى".

الفه

لم يك
والولا
في الـ
شديد

الرئيس
فريقه
القـ
التالـ
جو
حقبة

الر
ها
وقده

السفير الذي لا يقهر

"كانت شخصيته وشجاعته الأخلاقية ونزاهته في هذه القضية [انفجار الخبر] أقوى من كل الفاعلين الآخرين في هذا الموضوع بأكمله. قال لي، سأساعدك فيها وسنقوم بما هو صحيح هنا ولم يتراجع عن ذلك قط، مع أنه يعرض نفسه لخطر كبير كما أعتقد".

مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق لويس فريه

عندما خسر جورج إيتش دبليو بوش الانتخابات أمام بيل كلينتون في سنة 1992، لم يكن التغيير في المناخ السياسي خافياً لا في الدائرة السياسيّة والاجتماعية في واشنطن والولايات المتحدة فحسب، وإنما في العالم أجمع. ويمكن القول إن الرئيس بوش رمى، في السنوات المتقلّبة التي تلت حرب الخليج الأولى على الفور، بكرة سياسة خارجية شديدة التعقيد وغير مستقرّة إلى إدارة كلينتون فألقت بها على الفور.

كشف بندر عن شخصية الإدارة الجديدة في طرفة تعرض الكثير عن سنوات الرئيس بيل كلينتون الأولى في الحكم. فقد ذكر أن "من الأمور الأولى التي أعلن عنها فريقه أن الرئيس الجديد لن يلتقي أي زعيم أو مسؤول أجنبي لمدة شهرين". وكان القرار الذي اتخذته البيت الأبيض بإغلاق أبوابه أمام السياسة الخارجية في الشهرين التاليين لتسلّمه منصبه التزاماً بشعارات الحملة الديمقراطيّة واعتقاداً من كلينتون أن جورج إيتش دبليو بوش خسر الانتخابات بسبب إهماله السياسة الداخليّة. وبدأت حقبة كلينتون بالتركيز المتميّز على الذات.

نُسب الإعلان عن سياسة الإدارة الجديدة إلى فريق الرئيس بشكل متعمّد، لا الرئيس نفسه. وقد أظهر ذلك الاشتباه وجود فجوة بين الإدارة والرئيس كلينتون في هذه المرحلة المبكّرة، وبخاصّة من ناحية السياسة الدوليّة الحاسمة، نقطة ضعف محتملة وقدم رسالة سلبية إلى العالم الخارجي.

على الرغم من سياسة كلينتون الجديدة، قال بندر: "اتصل الرئيس كلينتون؛ كان قد سمع أنني قد أترك لأن بوش خسر الانتخابات، وأبلغته أن الأمر يتوقف على الملك فهد. وكان من الأمور التي قالها لي عندما كان رئيساً منتخبا، يجب أن أجمع بك فور وصولي إلى واشنطن لتحدث. قلت، عظيم لكنني كنت أعتقد أنها مجرد سياسة وكياسة. غير أن كلينتون أقسم اليمين في 20 يناير، وفي 25 يناير، أي بعد خمسة أيام على تسلّمه الرئاسة، تلقيت اتصالاً من أنطوني ليك، مستشار الأمن القومي الجديد، الذي قال لي، هل يمكنك المجيء غداً عند الساعة الحادية عشرة؟". على الرغم من إعلانات فريق كلينتون، بدا أن الرئيس الجديد عازم على تطوير صلاته خارج الولايات المتحدة.

عندما وصل بندر إلى البيت الأبيض وأبلغ أن الرئيس يريد الاجتماع به، دُهِش وروى كيف انتظر بصبر: "انتظرت عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، عشرين دقيقة؛ شاهدت أشخاصاً يتحركون جيئة وذهاباً؛ ثم أبلغت أن مستشاري الرئيس في الشؤون الداخلية يتناقشون مع الرئيس قائلين له، مهلاً، لا يمكنك الاجتماع به لأننا أحررنا العالم أنك لن تجتمع بأي ممثل أجنبي؛ الرئيس التركي هنا ولم تجتمع به. وقال كلينتون، لكنني وعدت الأمير بندر أن أجمع به واتصلنا به ليأتي للاجتماع بي. لا يمكنني إلا أن أجمع به". وأوضح بندر البراغماتي موقفه بالقول: "لذا عندما علمت ذلك، قلت، لم أطلب المجيء إلى هنا؛ أنتم طلبتم مني الحضور. إذا كان الرئيس لا يستطيع مقابلي، لكن لديه شيئاً يريد إطلاعي عليه، يمكنه إبلاغ مستشاره للأمن القومي ليطلعني عليه ثم أنصرف. ليس عندي مانع في ذلك. فقالوا، لا - نرجو منك الانتظار".

تابع بندر، "في النهاية جاؤوا بتسوية. طلبوا مني الوقوف على مقربة من حيث كنت أجلس. ثم دخل الرئيس وتصافحنا وقال مرحباً؛ وكان معه نائب الرئيس. انتحى بي كلينتون جانباً وتحدثنا بضع دقائق قبل أن يقول، لنحدّد موعداً آخر للاجتماع للتباحث في بعض الأمور". وذكر بندر: "فوجئت بوجود مصوّر معهم. التقطوا صورة لاجتماعنا وأرسلوا لي نسخة، لكن من دون تاريخ". وضحك قائلاً: "كان ذلك أمراً ذكياً من إدارة كلينتون، بحيث أضع التاريخ عليها بنفسني. ويظهر ذلك مقدار سياسة إدارة كلينتون وسلاستها". وأضاف: "تكشف أيضاً لك أن لدى

كلينتون حنكة سياسية فطرية كبيرة. أعتقد أن المحيطين به خذلوه عدة مرات، ولم يكونوا على قدر ذكائه".

عندما أبلغت بهذه القصة، سررت لشبهها بإحدى طرف بندر الأخرى، باستثناء أن الأدوار كانت منقلبة؛ ففي تلك المناسبة كان بيل كلينتون المنتظر. قبل سنوات، تلقى بندر مكالمة تبلغه أن حاكم ولاية أركنساس يريد المجيء للقائه. وأوضح أن ذلك كان في أوائل سنة 1990، وفي ذلك الوقت كان قد زار كل الولايات الثماني والأربعين باستثناء أركنساس، ولم يدر في خلده لماذا يريد حاكم أركنساس مقابله. أبلغ أن الحاكم كلينتون يريد التحدث عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة. غير أن بندر اضطر إلى إلغاء الاجتماع ثلاث مرات، الأولى قبل غزو الكويت. وفي المحاولة الثالثة للاجتماع، وصل كلينتون إلى السفارة في الواقع. غير أن بندر اضطر إلى المغادرة فجأة؛ فطلب كلينتون ببساطة المجيء لمقابلة بندر مجدداً. وذكر بندر: "لو كنت ذكياً في ذلك الوقت لفكرت، هذا الرجل لا يستسلم؛ ولأخبرني ذلك أنه سينجح سياسياً".

كانت علاقة بندر بالبيت الأبيض في عهد كلينتون تتسم ببعض الشذوذ. فقد اعترف الأمير علناً "إنني وكلينتون صديقان؛ ويمكنني الذهاب معه إلى السينما". وأوضح أيضاً أن هناك اختلافاً بين زيارات العمل والزيارات الشخصية؛ سواء أجمع بالربط في المكتب البيضاوي كسفير أم في مقره الشخصي كصديق. وما التصور أن بندر كان يزداد سأمًا في أثناء قيادة كلينتون إلا انعكاساً للإدارة وموقفها من السياسة الخارجية، وليس للرئيس نفسه. وعلى نحو ذلك، على الرغم من زعم وسائل الإعلام أن اتصال الأمير بالبيت الأبيض تقلص كثيراً في رئاسة كلينتون، أو ضعف كثيراً، فإن الواقع يبين أنه احتفظ بقدرة مدهشة على الوصول إليه.

مع ذلك، في حين أن بندر كانت تربطه بالفعل علاقة بالبيت الأبيض في عهد كلينتون، فإنه لا يمكن إنكار أنها لم تقترب البتة من الانسجام الذي كان يتمتع به مع الرئيس جورج بوش وفريقه. ويوضح ذلك السير ريتشارد إيفانز، الرئيس السابق لشركة بريتيش إيروسبيس بالقول: "لا أعتقد أن بندر كانت تربطه بإدارة كلينتون تلك الصداقة الحميمة التي ربطته ببوش". ولاحظ أن ذلك لا يرجع إلى وجود عداوة بين كلينتون والأمير، وإنما إلى أنه كان أقل تعاطفاً مع بعض الأفراد في الإدارة

الجديدة. ومن المثير للاهتمام أن السير ريتشارد يعتقد أيضاً أن وزارة الخارجية كانت تعمل في ظل إدارة كلينتون بشكل مختلف عن عملها في أثناء إدارة بوش الأول¹. في أثناء نقاش مع بتينا جيلبرت، سكرتيرة بندر الخاصة لسنوات عديدة، أكدت جيلبرت أيضاً أن قدرته على الوصول إلى البيت الأبيض كانت في ذروتها في أثناء إدارة جورج إيتش دبليو بوش، وكانت أكثر هدوءاً في عهد كلينتون². وسلّطت بديلة جيلبرت كسكرتيرة للأمير، شيري كوبر، الضوء على العلاقة بين بندر وكلينتون، عندما روت قصة ذكرها لها العديد من الدبلوماسيين السعوديين. قالت: "قدم الرئيس كلينتون، كان حاكم ولاية في ذلك الوقت، إلى السفارة بغية مقابلة بندر في أثناء الانتخابات التمهيدية؛ كان يريد تمويل مكتبة وجاء من دون موعد. سمعت أن الأمير سأل أحد مستشاريه، ما حظوظ هذا الرجل في الفوز بالترئاسة؟ وأبلغ، ليست له حظوظ البتة". ابتسمت شيري ابتسامة عريضة وتابعت: "لذا لم يحصل السيد كلينتون على مواعده ثم أصبح رئيساً". وخلصت: "أعتقد أنه لم ينسَ ذلك قط"³.

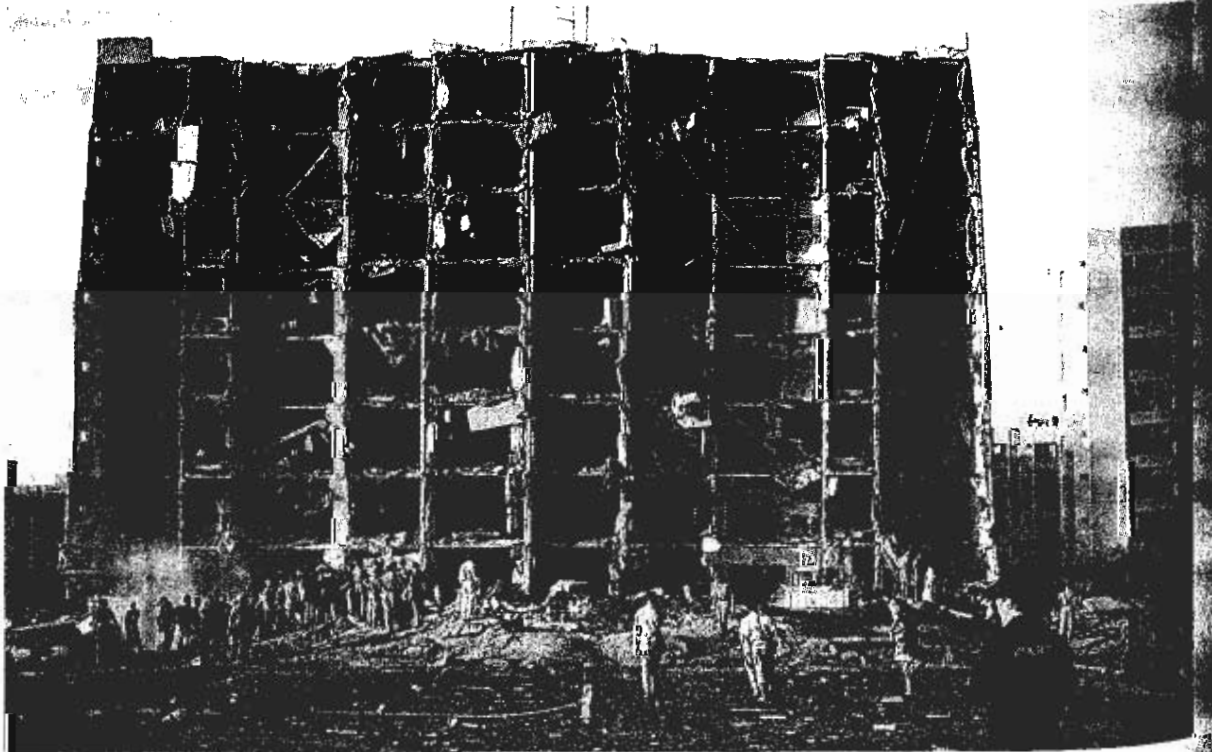
يتضح من تأملات بندر في حقبة كلينتون أن هناك انقساماً واضحاً بين كلينتون وحكومته، وهذا العامل هو الذي أثار مشكلة لدى بندر. فقد قيل إن بندر "أحبّ فنّ ربح المباريات في واشنطن ورأى أن بيل كلينتون نظيره الوحيد في ذلك"⁴. يتندّر جو رامسي، وهو صديق قديم لبندر وديمقراطي طوال حياته، على التشابه بين الرئيس الأميركي والأمير السعودي قائلاً: "كان يجب أن يكون وبيل كلينتون وثيقي الصلة مثل لصين؛ فهما متماثلان في أوجه عديدة. فبندر، على غرار كلينتون، يعتقد أنه إذا تحدّث مع أحدهم مدّة كافية، يستطيع أن يجذبه إلى وجهة نظره. وهو يناحر بذلك، وكذلك كلينتون". ولاحظ رامسي وهو يكتب ضحكته: "لعله لا يوجد حيز كبير يكفي الأنا عند الاثنين، لكن بخلاف ذلك كُنّا نعتقد أن ذلك يمكن أن يكون الزواج المثالي"⁵.

في حين أن السياسة الخارجية كانت أكثر هدوءاً في أثناء إدارة كلينتون، لكن لم تكن صامتة تماماً. فقبل الساعة العاشرة من مساء 25 يونيو 1996، لاحظ ثلاثة حراس متمرّكون على سطح مبنى أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية عربة صهريج تتوقّف إلى جانب سور الجمّع المرتفع. كان هذا الجمّع يضمّ ألفي عسكري أميركي وعسكريين من المملكة المتحدة وفرنسا يعملون على فرض منطقة حظر الطيران التي

ترعاها الأمم المتحدة في العراق ويعملون في قاعدة الملك عبد العزيز الجوية في المملكة. ثارت شكوكهم على الفور عندما شاهدوا رجلين يقفزان من الشاحنة ويستقلان سيارة ويتعدان بسرعة. وكانت المنطقة محدّدة بالفعل كهدف محتمل لهجوم إرهابي؛ فأدركوا بسرعة أنّ الصهريج قد يكون مفخخاً.

أرسل أحد الحراس تحذيراً باللاسلكي إلى القيادة الأمنية المركزية لسلاح الجوّ الأميركي⁶. وبدأوا بعد ذلك يطرقون على أبواب رجال سلاح الجوّ النائمين محاولين بشكل محموم إخلاء المبنى. وبعد أربع دقائق فقط، انفجرت الشاحنة المحمّلة بألفين وخمسمئة كيلوغرام من المتفجرات، ومعززة بقنبلة حارقة، بقوة شديدة جداً بحيث خلّفت حفرة قطرها خمس وثمانون قدماً وعمقها خمس وثلاثون قدماً. وسُمع صوت الانفجار على بعد عشرين ميلاً في البحرين. وأدى هذا الهجوم الإرهابي إلى مقتل تسعة عشر رجلاً من سلاح الجوّ الأميركي وجرح خمسمئة أميركي وسعودي⁷.

يتعدّى تفجير الخبر مسألة تشويه العدالة. فهو فكرة جادة أنّ الاعتداءات الإرهابية، المنتشرة في المجتمع اليوم، لم تظهر من لا شيء عندما تسلّم الرئيس بوش منصبه. فقد كان الاضطراب الشديد على شكل تعصّب ديني وسياسي، وإطار الهجمات الإرهابية المنظّمة والممولة، يجيشان تحت السطح في الشرق الأوسط في وجه



تم تدمير أبراج الخبر بقنبلة وزنها 2500 كيلوغرام

السياسة الخارجية الأميركية في التسعينيات. وقد تحدّث ريتش لوري عن هذا الواقع في كتابه **كلينتون والخبر**. "لو كان كلينتون يقظاً ضدّ الإرهاب بقدر ما يقول - وسلّم سياسة ممتازة لمكافحة الإرهاب إلى إدارة بوش الخرقاء والمهملّة - لاتضح ذلك في حالات مثل الخبر. بدلاً من ذلك، نظرت إدارة كلينتون عن عمد بالاتجاه الآخر في أعقاب تفجير الخبر وقدمت ما يشبه الاعتذار إلى مرتكب الهجوم"⁸.

غداة تفجير الخبر، ظهر الرئيس كلينتون على الملأ متعهداً "العمل على تقديم المسؤولين عن ذلك إلى العدالة"⁹. وأعلن أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي) سيكلف بالتحقيق في التفجير بالاشتراك مع السلطات السعودية وأنّه سيكون برئاسة مدير "الأف بي آي" لويس فريه. وكما يذكر فريه، كانت تعليمات كلينتون في الأيام الأولى للصدمة واضحة لا لبس فيها. "استخدم الرئيس العبارة التي أشرنا إليها أنا والأمير في الغالب لاحقاً، ألا نترك حجراً دون أن نقلبه. تلك كانت التعليمات"¹⁰.

أُرسل مئة وعشرون عميلاً "للأف بي آي" إلى المملكة على الفور. وتبعهم مباشرة فريه الذي تركت في نفسه المتفجّرة أثراً عميقاً ودائماً. وصف كيف زار المشهد المروّع بعد الهجوم: "راقبت عشرات عملاء الأف بي آي عاكفين على تمشيط الحطام فيما الحرارة تبلغ تسعاً وأربعين درجة مئوية، ويتعاملون مع البقايا البشرية لشباننا الشجعان باحترام بالغ. جرح أكثر من أربعمئة من رجال ونساء سلاح الجوّ في هذا الهجوم المدبّر بعناية، وقد شعرت بالتواضع أمام شجاعتهم وروحهم المعنوية. التقيت لاحقاً بأسر أبطالنا الذين سقطوا في الخبر ووعدهم أن نفعل كل ما هو ضروري لتقديم الإرهابيين أمام العدالة الأميركية. وكانت الشجاعة والكرامة اللتان جسدتكما هذه الأسر من أقوى التجارب التي شهدتها طوال خدمتي الممتدة ستة وعشرين عاماً"¹¹.

كان ما نتج عن هذه البداية العازمة معركة قاسية ثلاثية الأوجه بين المملكة العربية السعودية والأف بي آي وإدارة كلينتون، حيث اجتمعت السياسة والعلاقات العامّة والسياسة الخارجية لتقيد ما كان يجب أن يبقى مسألة قصاص وعدالة.

في يناير 1997، انتقدت المدعية العامّة الأميركية جانيت رينو المسؤولين السعوديين علناً لأنهم لا يتعاونون. وأبلغت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت بندر

بعبارات واضحة، "الولايات المتحدة تنتظر المساعدة التامة من المملكة العربية السعودية في هذه المسألة". ورداً على ذلك قال بندر إنّ المدعية العامة تتدخل في مسائل السياسة الخارجية، وردّت أولبرايت على ذلك بجفاء: "لا تخطئن يا سعادة السفير، الحكومة الأميركية موحّدة تماماً في هذه المسألة. جانيت رينو ولويس فريه مسؤولان عن التحقيق، ونحن نتظر تعاونكم التام في إنجاز التحقيق. انتهى"¹².

لم تكن وزيرة الخارجية تدرك أنّها تضيع وقتها سدى. فقد قال فريه الذي عمل مع القيادة السعودية عن كذب عن بندر ودوره في فتح الأبواب أمام التحقيق، "كانت شخصيته وشجاعته الأخلاقية ونزاهته في هذه القضية [انفجار الخبر] أقوى من كل الفاعلين الآخرين في هذا الموضوع بأكمله. قال لي، سأساعدك فيها وسنقوم بما هو صحيح هنا ولم يتراجع عن ذلك قط، مع أنّه يعرض نفسه لخطر كبير كما أعتقد"¹³.

في الحديث عن تفجير الخبر وقرار مساندة التحقيق الذي يتولاه "الأف بي آي"، أوضح بندر المنطق السعودي بعبارات ثقافية قائلاً: "لو كان الهجوم على منشأة سعودية، لغضبنا وتعاملنا معه بطريقة مختلفة. أما الهجوم على ضيوفنا، الموجودين هناك بناء على طلبنا، ويرتدون اللباس الرسمي - واللباس الرسمي يعني الكثير في المملكة العربية السعودية، فهو يمثل دولة ذات سيادة - فذلك يشبه ما كانت عليه الأمور قبل ألف سنة إذا قدم إليك أعرابي وطلب حمايتك ومنحتها له، ثم جاءت قبيلة أخرى وقتلته - ذلك سبب فوري للحرب - إنّها مسألة شرف. لذا غضبنا، وبالتالي أسقطنا مباشرة كل العوائق السياسية والقانونية التي يتمّ التفاوض بموجبها أسابيع على حدود التحقيق. لم نأبه بشأن من يشارك وما العمل وأين، كُنّا نريد فقط الوصول إلى من انتهك ضيافتنا وانتهك كرامتنا بالتعرّض لضيوفنا. هذا هو بيت القصيد".

كان إرسال "الأف بي آي" إلى المملكة السعودية مسألة خلافية. فموجب الإجراء الأميركي القياسي، يمنع قيام "الأف بي آي" من العمل خارج الولايات المتحدة من دون الحصول على موافقة وزارة الخارجية. غير أنّ بيان الرئيس العلني الفوري في أعقاب التفجير سمّى مدير "الأف بي آي" فريه مشرفاً على التحقيق مع المسؤولية الشخصية والسلطة على متابعة الأمر حتى النهاية.

على الرغم من التنسيق الوثيق بين السفارة الأميركية ووزارة الخارجية، فقد كان مستوى السلطة غير العادية الممنوحة "للأف بي آي" في هذه الحالة مصدر انزعاج

لوزارة الخارجية، إذا لم يكن شيئاً آخر. وباعتراف فريه نفسه: "كنا متقدمين جداً على عمل وكالات فرض القانون في الداخل، وحتى وكالاتنا الأمنية، في ظروف مماثلة". ولاحظ: "كانت وزارة الخارجية قلقة من هذا الأمر، ومن المهم أن نعمل معاً عن قرب، وهو ما فعلناه عبر السفارة هناك بالدرجة الأولى. لذا أعتقد أن الاحتكاك كان قليلاً مع وزارة الخارجية: لماذا يقوم "الأف بي آي" بهذا الدور؟ الجواب أن الرئيس أراد القيام بذلك ووافقت المملكة على السماح للمكتب بإجراء هذا التحقيق بالاشتراك مع المباحث السعودية.

من التحدّيات التي واجهت "الأف بي آي" في المملكة العربية السعودية تطوير علاقة عمل مع نظرائهم في المباحث السعودية. وأوضح فريه أنه لم تكن هناك في ذلك الوقت علاقات ملموسة بينهما، "كانت روما مقرّ ممثّل الأف بي آي الذي يتعامل معهم. وكان في كل عام يزور الرياض بضعة أيام ويلتقي بعض المسؤولين ويعود إلى روما، لذا لم تكن بيننا علاقة؛ لم يكن لدينا مكتب ارتباط هناك... وذلك خطأنا لا خطأهم"¹⁴. على الرغم من هذه البداية الضعيفة، فقد تعاون "الأف بي آي" مع المباحث بشكل وثيق وأقاموا علاقة عمل وطيدة. وساعد في هذه العملية وضع عملاء يتحدّثون العربية في المملكة وإرسال أفراد من المباحث إلى أميركا ليشهدوا رأساً أنشطة "الأف بي آي" في الطبّ الشرعي والمختبر.

كان فريه يقدر الثقافة العربية عالياً. ومن المعروف أن بندر كان يتهم على نظرة إدارة كلينتون الجاهلة للعالم العربي باعتباره "مجموعة من العربان الذين يعذبون الناس للحصول على اعتراف"¹⁵. لكنّ الأمير اكتشف لدى فريه آراء في السياسة الخارجية والحلفاء الشرق أوسطيين تنسجم مع آراء بوش وريغن، وذلك غير مفاجئ لأنّ فريه جمهوري يجاهر بانتمائه. أما فريه من ناحيته، فقد أظهر تقديراً كبيراً للنهج السعودي المنفتح تجاه المطالب التي قدّمها الأمير كيون، "اعتقدت أنّ من الوقاحة الافتراض أن نتولى الولاية القانونية على الفور ونرسل عملاءنا ليجوبوا في الشوارع لأنّ أميركياً قد قتل. فنحن لا نسمح البتة لأي بلد بالقيام بذلك هنا واعتقدت أنّ قيامهم بذلك أمر مهمّ حقاً. أقصد أنّهم كانوا يتعاونون معنا بصورة استثنائية، وأعتقد أنّ الأمير كيون ينظرون أحياناً إلى العالم بشكل مختلف قليلاً عما ينظر إليه الآخرون"¹⁶.

بالمقابل، كانت وسائل الإعلام الأميركية مختلفة بشدة عن فريه. فقد انتقدت المملكة العربية السعودية علناً في الصحف بسبب عدم تعاونها. فأعلنت صحيفة ناشيونال ريفيو أن "ردّ الفعل السعودي على كل هجوم إرهابي على الولايات المتحدة للمملكة علاقة به في السنوات الأخيرة كان مزيجاً من التحاشي، والغش، والعداء السلبي. لقد أحبطوا التحقيق الأميركي في تفجير أبراج الخبر في سنة 1996، لتغطية الدليل بالتأكيد على التورط الإيراني، أراد السعوديون الخؤول دون انتقام الولايات المتحدة من إيران، فيما المملكة تحاول التقرب من رجال الدين الإيرانيين" ¹⁷.

في ردّ على انتقاد وسائل الإعلام، استخدم فريه التشبيه التالي: "الانتقاد أنهم لم يكونوا متعاونين لا يقوم على أساس جيد، كما أبلغت العديد من الأشخاص، إذ في وضع مماثل، لنقل إنه حدث في إنكلترا ولنقل إن أميركيين قتلوا، سيكون لدينا بالتأكيد عميلان يجلسان في مكان ما من سكوتلند يارد. لكننا لن نخرج ونجري مقابلات، وفحوصات طبّ شرعي. لذا أعتقد أن المعيار الذي وضعوه [الصحافة] غير معقول وغير منصف" ¹⁸.

قبل عام على تفجير الخبر، في نوفمبر 1995، قُتل سبعة أشخاص، بمن فيهم خمسة أميركيين، في تفجير مركز تدريب الحرس الوطني السعودي في الرياض ¹⁹. اعتقلت السلطات السعودية أربعة رجال مسؤولين عن الهجوم اعترفوا أنهم نفذوه بإيحاء من أسامة بن لادن، وحاكمتهم وأعدمتهم. أثار ذلك ضجة في الصحافة الأميركية التي اتهمت السعوديين بتعمد قطع رؤوس هؤلاء الرجال قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من استجوابهم لتخريب التحقيق الأميركي ²⁰. وقد ظهر هذا الزعم مجدداً في أعقاب هجمات 9/11 عندما أشارت وسائل الإعلام بإصبع الاتهام إلى المملكة العربية السعودية. واتهمت المملكة باللامبالاة في مكافحة الإرهاب، وهي نقطة توضحها جملة غير صحيحة نقلتها صحيفة نيويورك تايمز أنها رفضت "السماح للأميركيين باستجواب المشبوهين بتفجير أبراج الخبر قبل قطع رؤوسهم" ²¹. وكان المدانسون بتنفيذ تفجير مركز الحرس الوطني هم الذين أعدموا، لا المشبوهين بتفجير الخبر. لكن كما يقول بندر في الغالب، يمكن أن تصبح الأكاذيب حقائق بسرعة عندما تنشرها وسائل الإعلام.



لويس فريه، الرئيس السابق
للأف بي أي

دعا فريه الذي درس الاستجواب الذي أجراه السعوديون لمؤلاء الرجال، ووصف إعدامهم "بالعدالة السريعة" موضحاً أن تفجير مركز تدريب الحرس الوطني هجوم محلي. وشدد على عدم وجود راعٍ أجنبي، لذا فهو شأن داخلي سعودي لا علاقة للقضاء الأميركي به. وخلص إلى أنه جريمة سعودية، نفذها سعوديون داخل المملكة العربية السعودية، وقتل فيها للأسف أفراد وزارة الدفاع الأميركية الذين يعملون مع الحرس الوطني السعودي. وأضاف: "على الرغم من أنه كانت

لدينا مصلحة في التحدث إليهم، فإنها لم تكن مصلحة تمنعهم من تنفيذ عدالتهم". وأوضح فريه أن الفارق الرئيسي بين تفجيري الخبر ومركز تدريب الحرس الوطني السعودي أن الأخير كان شأنًا داخلياً تماماً لا صلات أجنبية له أو راعياً خارجياً. أما تفجير الخبر فقد كان عملية إيرانية وهنا تكمن الصعوبة²².

شهد فريه لاحقاً أن "الأف بي أي" أقام "علاقة عمل فعّالة" مع السعوديين بعد تفجير أبراج الخبر في سنة 1996²³. كما أنه شهد إيجاباً أربع مرات على الأقل بشأن التعاون السعودي في أثناء تحقيق الخبر وألقى العديد من الكلمات التي أعاد فيها التأكيد على اعتقاده أن الدعم السعودي "كان استثنائياً حقاً ولا أعتقد أنهم حصلوا على الاعتراف الملائم بفضلهم".

عند تفصيل هذه التعليقات، لاحظ فريه، "ثمة أمران استثنائيان بشأن تعاون المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة. أولاً، اكتشاف تورط إيراني على مستوى عال جعل المملكة العربية السعودية معرضة لمخاطر الانتقام من أي إجراء متخذ ضد إيران أكثر من الولايات المتحدة. ثانياً، مقدار المساعدة التي وافق السعوديون على تقديمها، على الرغم من التهديد الإيراني - لقد وافقوا على القاعدة 15، وهي إجراء قانوني أميركي يتم بموجبه تسجيل الإفادات والأدلة التي يدلي بها الشهود في المملكة العربية السعودية، بحضور مدّعين أميركيين، ومحامي المتهم، وقاضي أميركي، وإعادة نقلها إلى الولايات المتحدة واستخدامها في أي محاكمة أميركية".

تعبّر ملاحظات فريه عن حجم هذه الموافقة. "كنت مدعياً لمدة اثني عشر عاماً، والمرّة الوحيدة التي أجريت ذلك بنجاح كانت قضية مخدّرات وافقت الحكومة السويسرية فيها على ذلك الإجراء. السعوديون تخطّوا التعاون كثيراً، كانوا عازمين على مساندة ادّعائنا". وتابع قائلاً إذا لم يكن ذلك مفاجئاً بحدّ ذاته، "فإنّه استثنائي أكثر لأنّهم بذلك يعرّضون أنفسهم وبلدهم لخطر شديد في ما يتعلّق بالإيرانيين". وأضاف فريه: "إنّني واثق من أنّك سمعت أنّ ذلك لم يكن هجوماً شنه حزب الله السعودي، لقد كان هجوماً موثّته ونفّذته القيادة العليا للحكومة الإيرانية من الخارج"²⁴. وعزّز ذلك الرأي لاحقاً عندما قال: "بإتاحة هؤلاء الشهود أمام الأف بي أي مباشرة، كان السعوديون يدركون أنّهم يساعدون على تقديم الدليل على أنّ مسؤولين إيرانيين كباراً في الحكومة الإيرانية مسؤولون عن هجوم الخبر. وعلى الرغم من هذه المسائل الحسّاسة جداً والمعقّدة، فقد وضع السعوديون مصالحهم جانباً لمساعدة الأف بي أي في الولايات المتحدة"²⁵.

على الرغم من المخاطر، لم يضعف التزام بندر بالعدالة في هذه القضية، وسارع فريه إلى الإقرار بدوره قائلاً: "رأينا أنّ تلك خطوة جريئة جداً أقدم عليها السعوديون وبندر على وجه الخصوص. كان بندر يكشف نفسه من الجانبين، كان يكشف نفسه أمام الإدارة [كلينتون] وأمام رؤسائه والعائلة، والسبب في ذلك، كما لا أزال أعتقد، أنّه رأى أنّ ذلك هو العمل الصحيح. وقال عدة مرات، لأنّه تحدّث، بصورة غير مباشرة، لكنّه تحدّث عبر أشخاص آخرين إلى العائلات ووعدهم أن يبدوا تعاوناً تاماً. وقد وفى بوعدّه. كان يعتبر الوعد الذي قطعه جاداً جداً وقد التزم به"²⁶.

تأكّدت جهود بندر لتحقيق العدالة عندما قال فريه: "كان بين الفينة والفينة يقام حاجز على الطريق أو تظهر عقبة قانونية، وهو أمر نتوقّعه بسبب الاختلافات الجلية بين نظامينا القانونيين والإجرائيين. وعلى الرغم من التحديات، كانت هذه المشاكل تحلّ دوماً بتدخّل الأمير بندر الشخصي ودعمه المتواصل للأف بي أي"²⁷. وأوضح ذلك بقوله: "بفضل تدخّل الأمير بندر، سُمح لعملاء "الأف بي أي" بالتوجّه إلى أحد السجون في المملكة وإجراء مقابلات وجاهية، من دون شهود سعوديين، مع مواطنين سعوديين ارتكبوا جريمة ضدّ الأميركيين في المملكة، وذلك أمر استثنائي بالنسبة إلي. كنّا بحاجة إلى الوصول مباشرة إلى هؤلاء الأشخاص لأنّ اعترافهم

وشهاداتهم حاسمة في دعم الادعاء²⁸. مع ذلك لم يُمنح أي عميل "للأف بي آي" مثل هذا الوصول غير المسبوق إلى مواطن سعودي محتجز، ومثل هذا الوصول يمكن أن يشوّه الادعاء بموجب الشريعة الإسلامية²⁹.

لم يكن ذلك الاختلاف الوحيد بين الردين الأميركي والسعودي على تفجير الخبر. فالتعهد الذي قطعه بندر قدمه كليتون أيضاً إلى الشعب الأميركي وعائلات القتلى. لكن، كانت هناك عقبة واحدة على الإدارة الأميركية تخطيطها في سعيها وراء العدالة في هذه القضية: التقدّم إلى القيادة السعودية بطلب رسمي للحصول على الأدلة. وذلك أمر حيوي كي يتمكن السعوديون من الوقوف في وجه إيران: إذا طلب الأميركيون المعلومات منهم بصورة رسمية، سيبدو ذلك أفضل بالنسبة إلى الإيرانيين من أن تتقدّم المملكة من تلقاء نفسها بالإشارة إلى أن إيران هي المنفذة. وأكد فريه: "أبلغني بندر والأمير نايف أن الإيرانيين يقفون خلف التفجير؛ أن الإيرانيين فعلوا ذلك". ووفقاً لفريه، كانوا يقولون إن لديهم شهوداً موقوفين يؤكدون ذلك. "أبلغونا أن في وسعنا الوصول إلى هؤلاء الشهود، لكن علينا أن نطلب ذلك وأن نكون جادين بشأن عواقب الحصول على المعلومات، والمفارقة أن آثارها المعاكسة على السعوديين أكبر من آثارها علينا".

ولاحظ فريه: "يقول الأميركيون إن أميركيين قد قتلوا، ولكن قتل العديد من السعوديين أيضاً، وفقدتم عائلاتكم. ما أثاره بندر في تلك الفترة، وأعتقد أنه طرحه بشكل أفضل من كثيرين غيره، هو، تعرف يا لويس أن الإيرانيين فعلوا ذلك، ونحن نعرف أن الإيرانيين فعلوه، وحكومتك تعرف ذلك، لذا فإننا ننظر لشركر ما الذي سنفعله جميعاً في هذا الصدد، وإذا قلنا إننا نعرف ما جرى هنا لكننا لن نتابعه، فإننا نرسل رسالة خطيرة جداً للدعاة في ذلك البلد. الأمر لا يتعلق بهذا الهجوم فحسب".

قال فريه: "كان بندر حكيماً وبارعاً جداً في تحليله عندما قال، الحكومة الإيرانية تمثل تهديداً للملك فهد - تهديداً عسكرياً على مقربة منا. وبإعطائكم الدليل الذي يتيح لكم ملاحقة الإيرانيين، فإننا نعرض أنفسنا لخطر كبير، سياسي وغير سياسي، بسبب ما فعلناه. غير أنكم إذا لم تردوا وتجاهلتم هذا التهديد، فإنكم تعرضون الجميع للخطر، لا السعوديين فحسب، وإنما الجميع. كان ذلك ذكياً حقاً، نظرة واسعة جداً، نظرة عالمية إلى الإرهاب"³⁰.

منذ البداية، أوضح السعوديون الأمر بجلاء: "سنبلغكم ونبلغ عملاء السيد فريه ونضع الدليل في متناولكم، لكن إذا أردتم هذا الدليل عليكم أن تطلبوه: وإذا طلبتموه سنقدمه لكم". أظهرت لغة جسد فريه إحباطه الشديد وهو يقول جازماً: "المشكلة الكبيرة التي واجهناها في تقديم هذه القضية لم تكن في الجانب السعودي؛ كانت في الجانب الأميركي، إذ لم نستطع حمل قيادتنا، الرئيس أو نائب الرئيس، على طلب الدليل".

وتابع فريه: "لم يطلبوا الدليل البتة، ولم نستطع حملهم على مساندة قضيتنا مع السعوديين، ولم تكن بحاجة إلى ضغط؛ كل ما كانت تحتاج إليه طلب أن يتاح الشهود أمام الأف بي آي. دوننا نقاطاً يبحثها الرئيس وأعطيناها إلى مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر. لكن ما سمعناه من بندر وآخرين أن هناك اجتماعاً مع ولي العهد، لكنهم لم يطلبوا رسمياً الوصول إلى هؤلاء الشهود، وذلك محبط جداً"³¹.

تجاهلت وسائل الإعلام الأميركية حكم فريه المهني إلى حد ما، وتابعت الإفادة عن أن "فريق الأف بي آي في المملكة العربية السعودية اشتكى من عدم إتاحة فرصة الوصول أمامه إلى الدليل السعودي الرئيسي"³²، وأغفلت أن الإدارة الأميركية هي التي حجبت الدليل عن "الأف بي آي" بصورة غير مباشرة.

نشأ الادعاء أن السعوديين يعيقون تحقيق الخبر عن سلسلة من البيانات الصحفية الصادرة عن البيت الأبيض والتي أعطت الانطباع أن الإدارة تقوم بكل ما تستطيع القيام به، ولكن عبّرت عن ذلك بلغة خاصة جداً. في الاقتباس التالي من مقالة إلسا والش، "قضية فريه الأخيرة"، عندما أجرت مقابلة مع ساندي بيرغر بشأن تفجير الخبر، التشديد من عندنا ويرمي إلى إبراز كيف أنهم لم يطلبوا الدليل البتة داخل هذه الصورة الوردية جداً للجهود الأميركية: "أبلغني ساندي بيرغر الذي أصبح مستشار الأمن القومي في إدارة كلينتون أن كلينتون كتب إلى الملك فهد والتقى بأخي الملك، ولي العهد الأمير عبد الله، في نيويورك، وحثهم شخصياً على التعاون. وأضاف بيرغر أن وزير الدفاع والخارجية قدّما مناشدة شخصية إلى القيادة السعودية"³³.

أقحم بندر في هذه اللعبة من التلاعب على الألفاظ. وكما أوضح فريه: "كان الأمير بندر في الوسط؛ فقد أبلغ ولي العهد أن الرئيس ونائب الرئيس سيتقدمان بذلك الطلب، وبعد ذلك اجتماعاً ولم يتقدّما به. إتني واثق من أن ولي العهد قال له، ما الذي

يجري هنا؟! "34. وقد أبدى الأمير انزعاجه من هذه المسألة بوضوح، ملمحاً إلى أن نفاق مساعدي كلنتون كان عقبة دائمة.

قال جورج تينت، مدير وكالة الاستخبارات الأميركية السابق، عن فريه: "في الخبر يمكنك أن ترى قيم فريه بوضوح"35. وقد كافح فريه في الواقع تحت عبء هذه النكسات. ولأنه يدرك عواقب التورط الإيراني في تفجير الخبر على السياسة الخارجية الأميركية، قال لساندي بيرغر: "إذا أردتنا أن نوقف هذا التحقيق إذ يجب علينا ألا نتدخل في السياسة، لا بأس في ذلك. الشيء الوحيد الذي استثمرته في هذا التحقيق أنكم طلبتم مني إجراء التحقيق وأبلغت العائلات أنني سأبذل كل ما أستطيع. إذا تغيرت الأمور الآن، فأنتي أتقبل ذلك، لكن عندئذ عليّ أن أتوجه إلى العائلات وأبلغهم أنني لم أعد أستطيع القيام بذلك... لن أبلغهم لماذا، لكن عليّ أن أبلغهم لأنني جلست معهم يومين وهم سيكون... وأبلغتهم أنني سأبذل كل ما في وسعي. الآن إذا تغير موقف الجانب الأميركي، فلا بأس، لكن عليكم أن تخبروني بذلك"36.

غير أنه لم يصدر أمر مباشر إلى فريه بإنهاء تحقيق الخبر ولاحظ بندر أنه كلما ذكر اسم فريه، اضطرب ساندي بيرغر، وأنه قال في وقت ما إن ليس لدى فريه أي حس سياسي وأنه، "لا يفقه شيئاً في السياسة الخارجية ويمكن أن يدفع الولايات المتحدة إلى الحرب"37.

كان بندر في تعاملاته مع ساندي يدرك جيداً حقل الألغام الذي يمثله تحقيق الخبر للسياسة الخارجية. ففي أثناء إحدى زيارات فريه المبكرة إلى المملكة، انتحى به بندر جانباً وقال له بصراحة: "لدينا الدليل، لكنني سأكون نزيهاً معك، إننا لا نريد متابعة الأمر من الناحية السياسية، لا نريد أن ننتهم بدفعكم نحو الحرب". كان الأمير يدرك بوضوح أن الأسلوب الشرطي في قضية الخبر يخاطر بحدّ ذاته بإحداث ضغط لتوجيه ضربة عسكرية، وكذلك كان البيت الأبيض الذي "غضب عندما تابع فريه الحقائق، وسو رئيس الجهاز الأول في مكافحة الإرهاب، وعمله يحتم عليه متابعة الحقائق"38.

بما أن مسؤولي البنتاغون كانوا يقولون من دون الكشف عن أسمائهم إن مجموعة من خارج المملكة أو حكومة أجنبية هي التي تقف وراء التفجير، وإنهم يحققون في علاقات العراق أو إيران بذلك، كان بيرغر حذراً من إقامة ارتباط مباشر بإيران، وبخاصة أن وزير الدفاع وليام بيري قال: "إذا تبين لنا أن هناك بلداً آخر كمصدر

للتفجير، فإنّ علينا الانتقام"³⁹. في 2 أغسطس 1996، ألمح بيري، في حديث إلى وسائل الإعلام، إلى تورّط إيراني في الهجوم وذكر أنّ حجم المتفجّرة وتعقيدها يدلان على وجود تورّط دولي في هذا الاعتداء⁴⁰. وباعتراف بيرغر نفسه: "كان بندر يسأل دائماً، أنخبروني ما الذي ستفعلونه بالمعلومات إذا شاركناكم بها"⁴¹. من الواضح أنّ السعوديين كانوا قلقين بشأن مدى تعطّش الأميركيين إلى العدالة وعواقب أن يتسرّب إلى العلن أنّ شخصيات بارزة في القيادة الإيرانية تقف وراء تفجير المنشأة الأميركية. لم يكن الوضع غير مألوف بالنسبة إلى الأمير بندر. ففي الفترة الممهّدة للحرب الخليج، عُهد إليه تحديد مدى العزم الأميركي قبل أن يوافق الملك فهد على السماح بمجيء قوات أميركية إلى المملكة العربية السعودية. فالمملكة لا يمكنها تحمّل إزعاج إيران، لا في ذلك الوقت ولا في شأن الخبر، من دون دعم أميركا مئة بالمئة. وكما أشار في إحدى المقابلات في معرض الحديث عن العديد من الهجمات التي نفّذت في المملكة العربية السعودية: "إنّهم لا يهاجمون الغربيين. إنّهم يهاجموننا لأننا أصدقاءكم"⁴². لكن في حين أنّ إدارة بوش وقفت بقوة خلف حلفائها السعوديين، فإنّ إدارة كلينتون أدارت ظهرها لهم.

عندما أحبط فريه، أخذ الأمور على عاتقه. ومن دون علم كلينتون المسبق⁴³، طلب من الرئيس السابق جورج إيتش دبليو بوش التدخل لدى السعوديين، ودبّر غداء في يوم سبت في منزل بندر في مكّين بين الرئيس السابق وولي العهد الأمير عبد الله. يذكر فريه الحدث وكلمات الرئيس السابق: "قال، يسعدني أن أقوم بذلك، لكنّه أضاف، هل سيوقعك ذلك في مشاكل؟ فأجبت، لا يهم، عليّ أن أتقدّم بهذا الطلب ولا يسعني التوجّه إلى أحد سواك للقيام به"⁴⁴.

يوم الاثنين الذي تلا هذا الغداء، دعا ولي العهد فريه، والسفير ويتش فاوولر، وديسل واطسون، رئيس مكافحة الإرهاب في "الأف بي آي"، إلى الاجتماع به في مكّين. هنا أوضح فريه مجدداً ما الذي كان يُطلب، مشدداً على أنّ "الأف بي آي" لم يكن بحاجة إلى المعلومات فحسب، وإنما إلى الموافقة السعودية على استخدامها كدليل أيضاً. أبلغ ولي العهد الأمير عبد الله: "إنّني أعتزم استخدام تلك المعلومات لتوجيه الاتهام إلى أشخاص، بمن فيهم أياً يكن من أستطيع توجيه الاتهام إليه في إيران، بالمسؤولية عن هذه الجرائم". ووفقاً لفريه، التفت ولي العهد إلى بندر وقال: "اتصل

بأخي واطلب منه أن يتيح للأف بي آي مقابلة هؤلاء الشهود⁴⁵. هكذا بعد سنتين من التقيد بالبيروقراطية، حصل "الأف بي آي" على ما عرضه السعوديون وحاولوا منحهم إياه منذ وقوع الهجوم.

نتيجة لهذا التعاون، وجهت وزارة العدل اتهاماً رسمياً في 22 يونيو 2001 لثلاثة عشر متهماً سعودياً بقتل تسعة عشر أميركياً في تفجير الخُبر⁴⁶. واشتمل الاتهام أيضاً على ما مجموعه ثلاث وثمانون إشارة إلى الحكومة الإيرانية⁴⁷. وكان ذلك اليوم نفسه آخر أيام لويس فريه كمدير لمكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي). وبعد أيام، انتهت فترة التقادم القانونية عن معظم التهم الجرمية.

كرّر بندر طوال التحقيق سؤال الإدارة إذا كانت تريد حقاً المعلومات التي يحتاج إليها فريه بشدة. وأوضح بندر عواقب الحصول على المعلومات وعدم فعل أي شيء بها بجلاء: يجب اتخاذ إجراء أو من الأفضل لجميع الأطراف عدم الكشف عن الأمر. لكن المفارقة أنّ وزارة الخارجية الأميركية كانت مشغولة في التودّد إلى إيران. وقد ظهرت رغبة إدارة كلينتون في إصلاح العلاقات مع إيران على شكل إشارات صغيرة واختلافات متكتّمة، ولكن يمكن تحديدها بوضوح في الخطاب واللغة الرسمية. كما أنّ الأميركيين قلّلوا أمام الرأي العام من شكوكهم أنّ إيران متورّطة في تفجير الخُبر⁴⁸.

من الإشارات القوية على لين الإدارة في تحقيق الخُبر ما اتضح عند حدوث حرق كبير في تحقيق "الأف بي آي" في مارس 1997. فقد أوقف الكنديون هاني الصايغ، وهو سعودي شيعي ومشتبه أنّه مراقب وفقاً لأقوال المحتجزين الآخرين في المملكة. حرص فريه على جلبه إلى واشنطن لاستجوابه باعتباره الحلقة البشرية الأولى في سلسلة قد تقود إلى المنفّذين. لكن في سبتمبر 1997، استبعدت وزارة العدل توجيه الاتهام، وذكرت رفض المتهم التعاون والافتقار إلى شهود الإثبات. وقد أفيد أنّ بندر أبلغ أحد معارفه أنّ البيت الأبيض تلقّى هذا التطوّر كأنّه "هدية من السماء"⁴⁹.

في سنة 1997 تزايد اقتناع السعوديين أنّ الإدارة تعمدت ترك التحقيق يسير على غير هدى فيما ركّزت جهودها على تحسين الروابط مع الحكومة المعتدلة في إيران، على الرغم من أنّ العداة لأميركا هو الموضوع الأساسي لحشد الجماهير بالنسبة إلى النظام الإيراني، وأنّ إيران تجاهلت العروض الأميركية بشكل متكرّر.

"يجب ألا يفلت الجبناء الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامي من العقاب"⁵⁰. كانت هذه كلمات الرئيس كلينتون فور معرفته بتفجير الخبر. وزُعم أيضاً أن "المهجوم على العسكريين الأميركيين في الخارج ليس مجرد جريمة. بل هو عمل حربي"⁵¹. مع ذلك، على الرغم من قوة هذه البيانات العلنية وتزايد الأدلة أن إيران هي الراعي الأجنبي لتفجير الخبر، فقد اختارت الإدارة الأميركية تخفيف التحذير من السفر إلى إيران، ورفع العقوبات عن شركات النفط الأجنبية العاملة في إيران، وأخيراً رفع إيران عن لائحة المصدرين الرئيسيين للمخدرات⁵².

شدّد بندر على الاختلاف بين الإدارات الجمهورية السابقة والموقف الواهم شديد التسييس لإدارة كلينتون. "لو كان جورج إيتش دبليو بوش أو ريغن رئيسين وأصراً، مثلما أصرّ فريق كلينتون، علينا لكشف كل أوراقنا بشأن كل ما لدينا، وإذا توفرّ الدليل الذي حصلوا عليه بشكل مستقل، لتمّ غزو إيران. إتني واثق من ذلك". في تقييم واضح لما حدث داخل البيت الأبيض في ذلك الوقت، لاحظ الأمير هـدّة: "أرادت إدارة كلينتون الربح في الجانبين. قلت، يمكننا وقف هذا التحقيق في مرحلة معيّنة وتولّي ما تبقى منه. لدينا أشخاص أمسكنا بهم، ولدينا أيضاً أشخاص نعتقد أنهم ضالعون لكنهم ليسوا في قبضتنا لأنهم فارّون، واستناداً إلى ما نعرفه الآن، سنقوم بمعاقبة من أمسكنا بهم وسنبحث عن الفارّين. وإذا ألقينا القبض عليهم، سنعرف حتماً من يقف خلف الأمر ثم سننخذ إجراءً سياسياً أو عسكرياً ونغلق القضية". لكن إدارة كلينتون لاذت بالصمت، باستثناء البيانات الصحفية بين الحين والآخر⁵³.

في أبريل 1999، أصدر الرئيس كلينتون بياناً يمدّ فيه يده إلى إيران بشكل صريح. كان ردّ فعل فريه على هذا التودّد لمهندسي تفجير الخبر متوقّعاً. هزّ رأسه وقال: "الرسالة التي نبعث بها إلى إيران هي أننا سنتسامح معهم على إرسال عملائهم، وهم عملاء قادرين ميدانياً، لأننا نريد علاقة أفضل بهم. لم يبدُ ذلك معقولاً بالنسبة إلي، ولا بالنسبة إلى بندر، لا من الناحية الأخلاقية أو الناحية السياسية. ومع ذلك، هذا ما كنّا نقاتل لأجله طوال تلك المدّة". وكان فريه يشير إلى اعتقاد "الأف بي آي"، مدعوماً بأدلة جيّدة، أن الإيرانيين كانوا يرسلون عملاء نشيطين لوزارة الاستخبارات والأمن إلى الولايات المتحدة بتعيينهم في مناصب اسمية كمدرّبين لفرق المصارعة

الإيرانية. وقد زُعم أنه طلب وقف أخذ بصمات هذه الفرق وتصويرها لأن الولايات المتحدة تريد تحسين العلاقات⁵⁴.

بعد سنتين، اقتنع فريه أن الإدارة تخلت عن كل مصالحها في التحقيق في انفجار الخبر. ويبدو أن الثابت الوحيد في تفجير الخبر هو السياسة الأميركية المائلة نحو طهران. ففي أثناء التحقيق، أجرى عملاء "الأف بي آي" مقابلات مع ثمانية مواطنين سعوديين حدّدت الحكومة السعودية أنهم منفذو التفجير. في الحديث عن هذه المقابلات، قال فريه: "اعترفوا بتواطئهم في هذا العمل، وكشفوا عن صلة مسؤولين إيرانيين كبار في تمويل الهجوم وتخطيطه". وأكد فريه أيضاً أن رواياتهم يؤيدها شهود وأدلة أخرى. أخيراً، أشار إلى أن المشبوهين سموا أيضاً أعضاء الوكالة العسكرية والإعلامية الذين ساعدوا في انتقاء الخبر كهدف، ودفَعوا تكاليف تدريب المجموعة والمتفجرات⁵⁵.

شعر بندر بالحزن من أن ردّ فعل ساندي بيرغر المفاجئ على المعلومات التي كشف عنها فريه أن هناك إصباعاً إيرانية على الزناد مؤشراً لا لبس فيه على كيفية تعامل الإدارة مع قضية الخبر. فهؤلاء المشبوهون لم يؤكّدوا تورّطهم في الهجوم

فحسب، بل وصفوا أيضاً كيف أمر الإيرانيون بالهجوم ودعموه ومولّوه⁵⁶. وقال بندر: "لقد شهدت أنا وفريه أسوأ سوء استغلال للسلطة! عندما كانوا يدفعون ويضغطون، ثم أعطيناهم ما يضغطون للحصول عليه، بدلاً من أن يهتّل ساندي بيرغر ويقول، لديكم المعلومات، ولديكم أداة التنفيذ، هيا بنا نردّ، قال، من يعلم بذلك أيضاً؟ فكّر في ذلك من ناحية تاريخية. من يعلم بذلك أيضاً؟ بعبارة أخرى، إذا لم يكن هناك أحد آخر يعلم به، أبق فمك مغلقاً. وما الذي نتحدّث عنه؟ إنها أرواح أميركية فُقدت. والسياسيون الأميركيون يقولون إننا نريد الانتقام من ذلك، أياً تكن النتائج!



ساندي بيرغر، مستشار الأمن القومي
خلال إدارة كلينتون

ويقولون لمن؟ لعائلات الذين قتلوا!". كيف يمكن التوفيق بين موقف البيت الأبيض وكلمات كلينتون عند تبليغه نبأ التفجير، "يجب ألا يفلت الجبناء الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامي من العقاب. دعوني أقول مجدداً: سناحقهم. فأمر كما تهتم لأبنائها"⁵⁷.

شدّد بندر على أن فريه كان غاضباً. وأوضح بندر منذ ذلك الحين بشكل لا لبس فيه أن بيرغر أراد من فريه الاحتفاظ بالمعلومات لنفسه، قائلاً ما معناه: "إذا لم يكن هناك أحد آخر يعلم بذلك [تورط الإيرانيين]، أبقِ فمك مغلقاً. وعلّق بندر أن ذلك يناقض تماماً ردّ فعل كلينتون الأول على التفجير. "كانت كلمات كلينتون المهدّدة، أيّاً تكن النتائج، لا يهمننا، الأمر لا يتعلّق بالسياسة. وعندما عُرفت ما هي النتائج، قالوا، من يعلم بذلك أيضاً؟". وعزّز بندر هذا التعليق بشكل متكرّر كما في مقابلة مع "السي أن أن"، عندما ذكر بوضوح: "انهارت الأمور لأننا عندما وصلنا إلى اللحظة الحرجة. عندما كانت واشنطن تقول لنا، أعطونا كل شيء أيّاً تكن النتائج، كنّا نقول لهم، ربما لن يعجبكم ما ستحصلون عليه! وأخيراً عندما اطلعوا على ما لدينا، أفلتوا الكرة وهذا هو حيث نحن الآن"⁵⁸.

إن الخوف من الإرهاب السائد جداً اليوم لم يخرج من كهف في أفغانستان في سنة 2001. فقد كان يجتمهر تحت السطح في الشرق الأوسط منذ مدة طويلة، وما تفجير الخبير سوى مؤشّر صارخ على هذا التهديد. في ذلك الوقت وصف أسامة ابن لادن قتل تسعة عشر أميركياً من سلاح الجوّ أنّه "جدير بالثناء". غير أنّه جرى تجاهل تفجير الخبير، وألقت وسائل الإعلام الأميركية اللوم في ذلك على عدم التعاون السعودي. وقال أحد الخبراء في الإرهاب: "قدّم تفجير الخبير المفاتيح التي فتحت عالم الإرهاب الجديد. فكل ما تحتاج إلى معرفته عن شبكة الإرهاب الجديدة، والتعاون بين كل الطوائف والفئات، وصعود التطرف في المملكة العربية السعودية - كان موجوداً في تلك القضية"⁵⁹.

قال فريه عن دور بندر في تحقيق الخبير، "كنت محظوظاً جداً لكسب ثقة وتعاون الأمير بندر بن سلطان الذي كان دوره حاسماً في تحقيق أهداف الأف بي أي من التحقيق في قضية الخبير. ونظراً إلى دعم بندر وجهوده الشخصية، تمكّن الأف بي أي من إقامة مكتب له في الرياض". وشدّد فريه: "وبناء على تلك العلاقة وملاحظاتي والأحكام التي كوّنتها في تلك الفترة، فإنّي أعتقد أن لدي وصفاً قوياً ودقيقاً جداً

وقدرة على وصف شخصيته وأهمية الدور الذي لعبه في تلك النتيجة. وأعتقد أنه كان محورياً في إحقاق العدالة وضمان بقاء العلاقات بين بلدينا في هذه المسألة على المسار الصحيح⁶⁰.

يتناقض المديح الوافر الذي أعده فريه على التعاون السعودي ودور بندر الصُّلب مع الاتهامات التي أوردتها كتاب **العصر المقدس للإرهاب** (*The Sacred Age of Terror*) لدانيال بنجامين وستيفن سايمون، وكلاهما عملاً لدى مستشار كلينتون للأمن القومي، ساندي بيرغر. فقد زعما أن بندر خدع فريه وأوهمه أن البيت الأبيض غير مهتم كثيراً في محاولات فريه المحمومة لحل تفجير أبراج الخُبر وضلل فريه مراراً. كما ادعى أن "قضية أبراج الخُبر فاقمت الحقد بين فريه وفريق الأمن القومي لدى كلينتون، ما أعاق جهود الحكومة لمكافحة الإرهاب"⁶¹. أخيراً، خلصا إلى أن الأمير كان يرمي من تضليل فريه إلى "بذر الشقاق بين الحكومة"، وأن هذا التضليل قاد فريه إلى الاستنتاج أن البيت الأبيض غير مهتم كثيراً بالقضية التي كان شديد الالتزام بها⁶².

من الناحية العملية، أصبح إضعاف التحقيق في أبراج الخُبر المثال الأوضح على انعدام الثقة الطويل والعداء المستحکم بين كلينتون وفريه، وهو عداء ذو جذور عميقة وصفها سندي بلومنتال في كتابه، **حروب كلينتون** (*The Clinton Wars*): "تعامل لويس فريه طوال سنوات مع البيت الأبيض كعدوه، وبدا أن عداء فريه ونوابه مستحکم بكلينتون"⁶³. وفي أثناء التحقيق، ظهرت العداوة بين البيت الأبيض و"الأف بي آي". وأفيد عن أن كراهية فريه للرئيس تحوّلت إلى صدع عميق وأن "عدم ثقته بالبيت الأبيض ازدادت قوة بحيث أعمته وجعلته عرضة للتلاعب به"⁶⁴. وقد نشأت تلك العداوة في جانب منها من دعم فريه الشخصي للمجلس المستقل للتحقيق في جمع أموال الحزب الديمقراطي في أعقاب فضيحة حملة كلينتون - غور المالية. ومن غير المفاجئ أن يفاد أن البيت الأبيض يكره "الأف بي آي" وكان فاتراً بشأن متابعة قضية الخُبر⁶⁵.

عندما أبلغت الرئيس كلينتون عن مزاعم فريه اللاذعة بشأن تعاون البيت الأبيض مع تحقيق الخُبر، صمت لحظة قبل أن يجيب بقوة: "هل رأيت ردّ دانيال بنجامين على ذلك، أعتقد أنه لدي هنا". ففي رسالة إلى محرّر صحيفة وول ستريت جورنال بشأن تفجير الخُبر والبيت الأبيض، رأى بنجامين أنه في ما يتعلّق بتفجير الخُبر وانتقاد فريه

الرئيس كلينتون والبيت الأبيض، شرع فريه في "قضية عداء شخصي تتصاعد ببطء" وأن مدير "الأف بي آي" السابق كان مخادعاً في الإيحاء أن إدارة كلينتون رفضت دعم الادعاء [على إيران كراعية لتفجير الخبر] والإشارة إلى أنه كان على الادعاء انتظار الإدارة الجديدة لتوجيه التهم الجرمية عن هذه الجرائم⁶⁶.

بعد ذلك شرع الرئيس كلينتون في دحض شخصي بارد ومتعمد لادعاءات فريه قائلاً: "طلبت شخصياً من ولي العهد السماح للأف بي آي بمقابلة المشبوهين. ولويس فريه كاذب". وضرب كلينتون الغاضب بقبضته على مكتبه. "إنه جمهوري متعصب من الجناح اليميني، وقد أفسد الأف بي آي. اتصل اثنان من أعوانه الكبار بالأف بي آي قبل 9/11 وقالوا، لدينا هنا عرب يقودون الطائرات ولا يتدربون على الإقلاع أو الهبوط، ولم يتم فعل شيء حيال ذلك في مقر قيادة الأف بي آي المركزي. كل ذلك موجود في الصحافة، هذه هي طريقة لويس فريه في تحريف الأمور [انتقاد]".

وقال كلينتون مؤكداً أن طريقة تعامل فريه معه عندما فاز الجمهوريون بالأغلبية في الكونغرس كانت بمثابة تكتيك تحويلي صرف، "لويس فريه هو أسوأ من عينته في منصب على الإطلاق ولا أصدق كل ما يقوله". وزعم الرئيس السابق أن فريه "تعرض لنقد شديد من الجمهوريين لأنهم لم يحلوا تفجير أطلنطا؛ وخسروا أموالاً نقدية كبيرة في عملية ضبط للمخدرات؛ وأفسدوا الكثير من الأشياء في مختبراتهم للطب الشرعي؛ ونسفوا تماماً بعض القضايا الكبرى الأخرى". وعلل كلينتون الآن أن فريه قرّر عندما فاز الجمهوريون اليمينيون في الكونغرس أن أفضل طريقة لنيل حظوة لديهم وإبعادهم عن مضايقته "هي مهاجمتي من خلال الأف بي آي وهو ما فعله. وما قاله لك ليس صحيحاً البتة!".

وأوضح كلينتون أن لا إدارته ولا إدارة بوش وجهت الاتهام إلى أي إيراني. وقد اعترف أن الإدارتين كانتا تعلمان أن الإيرانيين يدعمون حزب الله السعودي، وقال: "تخلص السعوديون من الأشخاص المتورطين في العمل. وأعتقد صراحة أنهم ربما كانوا مترددين في أن يصبح ذلك [الخبر] سبباً لحرب بين الولايات المتحدة وإيران. لكن، ليس صحيحاً أننا لم نحاول تسهيل ذلك التحقيق. وقد طلبت شخصياً من ولي العهد وهذا هو ردّ دانيال بنجامين على مقالة لويس فريه. لقد وضع بنجامين كتاباً عن

الإرهاب حظي بتقدير كبير، وكان أحد العاملين في قسم الإرهاب في إدارة الأمن القومي". ثم ناولني كلينتون نسخة من ردّ بنجامين وقال: "إنّ ما يقوله هنا هو الحقيقة. ويمكن أن تنسب إليّ كل ما يقوله هنا"⁶⁷.

بالعودة إلى إحباطات التحقيق في تفجير الخُبْر وجوره والطريقة التي عومل بها فريه من قبل رؤسائه السياسيين، لاحظ بندر بطريقة تهكمية أنّ كلينتون، الذي أعيقت تسميته الأولين لمدير الأف بي آي، انتقى فريه مديراً لذلك المكتب لأنّه اعتقد أنّ ذلك سيرضي الجمهوريين. "انتقاه لأسباب سياسية؛ وهو عميل سابق للأف بي آي عينه جورج إيتش دبليو بوش قاضياً. فبعد أن واجه مشكلة مع مرشحيه الأولين لإدارة الأف بي آي، فكّر في تعيين أحد يُظهر أن ليس لديه ما يخفيه. لم يبالي لويس فريه بالنتائج وكرهه كلينتون لأجل ذلك. في تحقيقي وايت ووتر ومونيكا لوينسكي، لم يبذل القاضي لويس فريه قصارى جهده للإساءة إلى بيل كلينتون، لكنّه استخدم نفوذه للتدخل في عملية التحقيق".

وقال بندر عن التحقيق: "كان مستشارو كلينتون يشيرون إليه بالقول، لا، علينا التطلّع إلى الكونغرس، والعائلات، والرأي العام، لكن ما أزعج فريه أكثر من أي شيء آخر هو أنّهم جعلوه يعدّ عائلات الذين قُتل أبناءهم بالأيدع حجراً من دون أن يقلبه، وأن يمضي حتى النهاية. وبعد ذلك أدرك أنّهم كانوا يكذبون عليه لأنّهم لا يريدون الذهاب بعيداً إلى ذلك الحدّ. إنّنا جميعاً أولاد كبار في السياسة، لكننا منحناهم الطريقة للتوقّف حيث وصلوا، قبل أن يتفاهم الأمر إلى أزمة عالمية خطيرة، فرفضوا". وفي اتّهام للألعاب التي مارسها فريق كلينتون قال الأمير: "أرادوا النجاح في الأمرين: أرادوا أن يظهروا كأنّهم مستعدّون للمضي قدماً حتى النهاية، لكن عندما تبيّن لهم العواقب، قالوا، إنّ لويس فريه مجنون! ليس لديه حسّ سياسي. لماذا يفعل ذلك؟ لم يكن هو الذي يفعل ذلك، بل هم الذين دفعوه لهذا الأمر".

وفي خلاصة رأيه عن كيفية تعامل إدارة كلينتون مع فريه قال بندر: "لقد استغلّوه. رأوا أنّ لديه مصداقية، وأنّه جمهوري، وكان قاضياً، وأنّه مدير الأف بي آي. لكنّهم استغلّوه قائلين، توجّه إلى العائلات وانظر إلى عيونكم مباشرة وقل، أبلغني الرئيس أنّنا سنمضي في متابعة هذه القضية حتى نصل إلى المجرمين أيّاً تكن النتائج". وختم بندر: "صدّق لويس ذلك ثم اكتشف أنّه يكذب على هؤلاء الأشخاص لأنّ

صانع القرار لم يكن يقصد ذلك. وهذا مصدر الصدام، شعر لويس بالألم لأنه استُغِلَّ. كان يعتقد أن مسؤولية الحكومة القسوى هي حماية شعبها". وما لم يتم قوله هو أن إدارة كلينتون فشلت في حماية الشعب الأميركي.

إن انحسار الأضواء عن بندر في واشنطن في حقبة كلينتون سمحت له بالشروع في اثنين من أعظم المنجزات الدبلوماسية في حياته المهنية: تقديم مفجّري (*) لوكربي، وتسهيل رفع عقوبات الأمم المتحدة عن ليبيا(**) في ما بعد، وهما إنجازان تحققاً على الرغم من شكوك الحكومتين الأميركية والبريطانية العميقة. امتدح عمل بندر في قضية لوكربي كتطبيق مثالي للدبلوماسية الخلاقية. فقد كان الأمير يسبح عكس تيارات المناخ السياسي التي حالت دون إحراز أي تقدّم خلال عشر سنوات وحقّق النجاح في مهمّة مخيفة تحاشاها العديد من رجال الدولة.

في سنة 1995، لجأ العقيد معمر القذافي إلى المملكة العربية السعودية للمساعدة في حل نزاع لوكربي الطويل، والعالق في طريق مسدود منذ سبع سنوات. أوضح رحاب مسعود، مفوض الشؤون السياسية في السفارة السعودية في واشنطن دي سي، ومرافق بندر في رحلاته العديدة الذي حضر كل الاجتماعات بين الأمير والفاعلين الأساسيين في مفاوضات لوكربي، أن مصالح المملكة العربية السعودية في مساعدة ليبيا تنبع من الإحباط من عدم إحراز تقدّم في القضية الفلسطينية، وأشار أن ولي العهد الأمير عبد الله كان قد تولّى للتوّ المقاليد بعد تعرّض أخيه الملك فهد لسلسلة من السكتات في سنة 1995. وعند الحديث عن الخلاف المستحکم بشأن لوكربي، لاحظ مسعود: "كان ذلك مدخلاً جديداً إلى القضايا العالمية. كانت الأمور سيئة جداً في عملية السلام في الشرق الأوسط. وكنا بحاجة إلى حلحلة شيء ما". لكنّه قال إنّ إحضار الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى طاولة المفاوضات لم يكن سهلاً. وأوضح أنّ إحجام الدولتين عن السعي للتوصّل إلى حل سببه الشواغل الداخلية

(*) في 21 ديسمبر 1988، بعيد السابعة بوضع دقائق، انفجرت قنبلة في البدن الأمامي لطائرة رحلة بانام 103 فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية الهادئة. وأدى ذلك الانفجار إلى مقتل متنين وسبعين شخصاً من عشرين بلداً، وفي وقت مبكر من التحقيقات اللاحقة، ربطت الأدلة عملي استخبارات ليبين بالتفجير.

(**) فرض مجلس الأمن الدولي عقوبات على ليبيا في سنة 1992 - حظراً على السفر وبعض قطع الغيار - للضغط على طرابلس كي تسلّم مشبوهين مطلوبين في تفجير لوكربي.

بالدرجة الأولى. فقد اعتقدت إدارة الرئيس كلينتون أن القضية خلافية ومن غير الحكمة التعامل معها فيما الانتخابات تلوح في الأفق، في حين أبلغ رئيس الوزراء البريطاني، جون ميجور، السعوديين أنه إذا انخرط في القضية فسوف يلتهمه جناح تاتشر في حزبه ويستخدم اليسار ذلك لإضعافه في الانتخابات القادمة⁶⁸. وعندما رأى السعوديون الواقع السياسي في واشنطن ولندن، لم يكن أمامهم من خيار سوى التراجع.

في سنة 1997، تغير المشهد السياسي في الغرب. في مايو 1997، أصبح زعيم حزب العمال طوني بلير رئيساً للوزراء وكان بيل كلينتون في بداية ولايته الثانية - والأخيرة. في تلك اللحظة وجدت المملكة العربية السعودية، كما يقول مسعود، الفرصة سانحة للتغلب على العقبات التي أعاقَت الجهود الأولى لإيجاد أرضية مشتركة. لكن المملكة كانت تدرك أيضاً أن حظوظها في المفاوضات ضعيفة في أحسن الأحوال. كانت المملكة العربية السعودية بحاجة إلى سلاح سرّي، شخص من طراز خاص ويتمتع بالمنعة السياسية. وأوضح مسعود: "وهل يوجد رمز أفضل من مانديلا؟ إنه تجسيد للمبادئ الأخلاقية"⁶⁹.

في أكتوبر 1997، في أثناء توقف في الطريق إلى اجتماع رؤساء الحكومات الذي سيعقد في أدنبره باسكتلندا - غير بعيد عن مكان انفجار الطائرة المنكوبة - توجه نلسون مانديلا إلى ليبيا في زيارة رسمية حظيت بتغطية إعلامية واسعة، مع ما يحمله ذلك من مخاطر إغضاب القوى الغربية⁷⁰.

عندما تحدّثت مع مانديلا عن الرحلة إلى ليبيا، ضحك ووصف كيف تمت الرحلة. في أعقاب الإعلان عن جولته المزمعة للقاء ببعض الأصدقاء القدامى، ومنهم القذافي وعرفات وكاسترو، نصحته واشنطن بقوة بعدم الذهاب. وقد شدّد على ذلك بإحساس مميّز بالفخر الممزوج بالكرامة في صوته قائلاً: "قالوا، لا تذهب إلى القذافي؛ إذا ذهبت إليه فستخذ إجراءات جارية ضدك. قلت، بإمكانكم القيام بذلك، إتني ذاهب إلى القذافي. الأمير كيون متعجرفون، كما تعلم، وذهبت ولم يحدث شيء"⁷¹.

في أثناء هذه الزيارة في سنة 1997 إلى طرابلس فاتح مانديلا القذافي بشأن تسويته المقترحة: إمكانية محاكمة المشتبه بهما في قضية لوكربي في بلد محايد. وفي مقابل تسليم الليبيين المشتبه بهما، أبلغ مانديلا القذافي أن الأمم المتحدة تدعو لإنهاء

العقوبات المفروضة على ليبيا. وكان مانديلا قد اقترح هذه التسوية بالفعل على الرئيس كلينتون ورئيس الوزراء طوني بلير، بدعم نظري من القذافي، وبعد ذلك تمكّن الزعيم الإفريقي الكبير من استخدام منبر محادثات أدنبره للحصول على دعم أوسع لمبادرته. وكحافز إضافي، قدّم مانديلا في طريق عودته من أدنبره إلى القذافي أعلى وسام تمنحه جنوب إفريقيا، وسام الرجاء الصالح المذهب، في 29 أكتوبر.

عندما قدّم مانديلا وسام الرجاء الصالح إلى العقيد القذافي، وفي أثناء امتداحه أيضاً أنّه "زعيم أخلاقي ضد الاضطهاد"، أسبغ على الزعيم الليبي سلطة أخلاقية، وبالتالي قدّم له الموقف المبدئي الذي يمكن أن يفاوض منه القذافي. وأكد جيكس جيروول لاحقاً أنّ ذلك كان جزءاً من استراتيجية مانديلا قائلاً: "الخطأ الذي يرتكبه العديدون بشأن القذافي، وحكومتنا منهم، أنّ من الأفضل جعله في صفك بدلاً من معاملته كشخص غريب الأطوار لا يفهم في السياسة. وقد أدرك مانديلا ذلك جيداً. ثمّة جانب ساذج في القذافي؛ فسياسته بأكملها تستند إلى هذه الشخصية الدونكيشوتية. لذا فإنّ منحه وساماً من قبل مانديلا يعني الكثير بالنسبة إليه. كان يثق بنا. والقيام بذلك يجعله يدرك أنّنا نحترمه، ولكن عليه أن يحافظ على كلمته معنا وأن نتصرّف بكرامة"⁷².



شكّل احترام معمر القذافي لمانديلا دفعاً حاسماً للتغلب على مازق لوكربي

غير أن الحصول على ثقة القذافي كان جزءاً فقط من استراتيجية مانديلا. فقد خاطب القذافي بقسوة مراراً، مطالباً أن يظهر احترامه للأمم المتحدة. ولاحظ مساعدو "الأخ الزعيم" أنه لم يُؤيخ البتة على هذا النحو من قبل، وذهلوا من قسوة مانديلا⁷³. غير أن القذافي، احتراماً لزميل ثوري نضج ليصبح رجل دولة يحترم العالم، تقبل الانتقاد بشجاعة.

كان من الواضح أن إدراك مانديلا الحاجة إلى احترام الخصم، وذلك شيء ورثه من زمن وجوده في السجن، يعني الحث على اتباع استراتيجية ذات أسس سياسية وأخلاقية سليمة في قضية لو كربي. وقد ساعد ذلك بدوره جهود بندر وجيروول التكتيكية، ما أدى إلى نهاية ناجحة لما اعتُبر مهمة مستحيلة حتى الآن.

بُعِدَ تقديم مانديلا وسام الرجاء الصالح إلى القذافي، أُطلق مساران دبلوماسيان توأمان أثمرتا في نهاية المطاف عن إنهاء استعصاء قضية لو كربي. فبناء على اقتراح من ولي العهد الأمير عبد الله، فاتح بندر الزعيم الجنوب إفريقي للتعبير عن حماسه للتسوية المقترحة وعرض المساعدة؛ فوافق مانديلا بسرعة. عندما أُجريت مقابلة مع جيروول بشأن لو كربي اعترف: "بدأنا المفاوضات بعد خطاب مانديلا في طرابلس. فقد فاتحنا السعوديون ليقولوا إنهم مهتمون، ورأينا أن من المفيد العمل معهم لأن السعوديين قريبون من الأمير كيين. ووجودهم يضيئ شيئاً من الراحة والاعتدال".

أوضح مسعود في تقييم حسنات هذا الزواج السياسي، "عند النظر إلى ذلك من وجهة نظر محلل سياسي، كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بحاجة إلى تغطية خاصرتهما اليسرى. وهنا تكمن قوة مانديلا. ونحن نوجد في يمين الوسط. لذا فكرنا أن في وسعنا في ما بيننا تقديم الدعم السياسي الذي يسمح للرئيس الأميركي فضلاً عن رئيس الوزراء البريطاني التعامل مع هذه القضية". فالمملكة تحمل الورقة العربية الإسلامية، ولمانديلا علاقات جيدة جداً مع بريطانيا، لذا كان التصور أنه بوجود بندر داخل الدائرة السياسية والاجتماعية في واشنطن، فإن هناك فرصة كبيرة لنجاح هذا المزيج السري⁷⁴.

بعد ذلك، كوّن جيروول وبندر فريقاً للقيام بسلسلة من الزيارات إلى ليبيا، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، والأمم المتحدة، وقد عُقدت محادثات سرية

على مدى خمسة عشر شهراً من دون أي إعلان. وعمل جيرول وبندر معاً على تجميع الترتيبات اللوجستية لاتفاق لوكربي. وفي مقابل رفع عقوبات الأمم المتحدة التي كانت تشلّ ليبيا في ذلك الوقت، تتم محاكمة المشتبه بهما، عبد الباسط علي المقراحي والأمين خليفة فحيمة وفقاً للقانون الاسكتلندي في محاكمة محايدة في هولندا.

في مارس 1998، زار الرئيس كلينتون الرئيس مانديلا (اسمه المفضل الآن ماديا*) في جوهانسبورغ. يذكر جيرول: "كان كلينتون في زيارة دولة هنا، وكان الأمير بندر في البلد أيضاً. اجتمع ماديا مع الرئيس كلينتون وأثار قضية لوكربي معه. وفي أثناء ذلك، دعونا بندر للانضمام إلى الاجتماع. ظننت أنّ من المهم أن يسمع كلينتون القصة الحقيقية كما هي. وقد فوجئ ماديا عندما اكتشف أنّ رئيس الولايات المتحدة لم يكن على اطلاع تامّ على الأمر بأكمله".



بندر ونلسون مانديلا

(*) يطلق على نلسون مانديلا اسم ماديا في جنوب إفريقيا. وهو لقب شرفي اعتمده الذكور القدامى في قبيلة مانديلا. لكن ثمة ماديا واحد بالنسبة إلى مواطني جنوب إفريقيا.

قال جيروول مبتسماً: "كاد مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر يصاب بنوبة قلبية لأنّ الرئيس يتحدّث في شيء لم يُطلع عليه من قبل"⁷⁵. وأيد مسعود رواية جيروول، وكان حاضراً أيضاً للاجتماع، وأكد لاحقاً أنّ الرئيس بدا غير مطلع على التقدّم الذي أحرز في مفاوضات لوكربي. وأوضح مسعود أنّه عند حصول الاجتماع، كانت ليبيا قد قدّمت بالفعل تعهداً خطياً بقبول المحاكمة بموجب القانون الاسكتلندي، ووافقت على سجن المتهمين في اسكتلندا إذا أُدينوا. وقال: "بل إنّ الرئيس لم يكن على علم أنّ لدينا هذه الالتزامات الخطيّة"⁷⁶.

يعتقد بندر أنّ ساندي بيرغر ربما لم يطلع الرئيس كلينتون على مبادرة مانديلا بشأن لوكربي حتى جاء اجتماع جنوب إفريقيا. فقد كشف سابقاً أنّه يعتقد أنّ فريق كلينتون لم يكن يخدم الرئيس جيّداً لأنّه يفرط في حماية رئيسه. وعندما قابلت كلينتون وسألته إذا لم يكن قد اطّلع على رسالة كتبها مانديلا إلى بيرغر قبل عدّة أشهر عن "اتفاق مبدئي" تمّ التوصل إليه مع القذافي ولم يتمّ الردّ عليها، تجنّب الرئيس السابق السؤال، فلم ينفِ ولم يؤكّد. وقال: "كان القذافي يريد إنهاء القضية، لكنّه كان في موقف حرج في ذلك الوقت لأنّ المطلوب تسليمهما إلى المحاكمة ينحدران من قبيلة مختلفة. لذا كان من الصعب عليه تسليمهما من دون أن يحدث بعض الأذى السياسي في ليبيا". وأوضح كلينتون أنّه أبلغ مانديلا رغبته في رفع العقوبات وتطبيع العلاقات مع ليبيا بعد حل لوكربي وقضية أسلحة الدمار الشامل. ولاحظ: "لكن لم تكن هناك طريقة يمكن أن تجدي، بصرف النظر عما يرغب في دفعه لتعويض الضحايا، من دون تسليم المتهمين إلى المحاكمة"⁷⁷.

ناشد مانديلا، كما قال، الرئيس كلينتون التصالح مع كوبا وإيران أيضاً. وأوضح مسعود لاحقاً: "كانت صورة أميركا في المنطقة تعاني من العقوبات الممتدة من البحر المتوسّط إلى خليج البنغال: لبنان وسوريا والعراق وإيران وباكستان والهند. وهناك عقوبات على ليبيا وعقوبات على السودان. قلنا لكلينتون: "بالله عليك، لا يمكن إدارة سياسة خارجية تعاقب الشعب يميناً ويساراً، ثم تنتظر لترى كيف تسير الأمور. عليك إشراك الناس؛ هذا هو مفهوم السياسة الخارجية بأكمله"⁷⁸. لم يتم الكشف عن ردّ فعل كلينتون، لكن سياسته الخارجية اتبعت أسلوباً أكثر إشراكاً في ما تبقى من ولايته.

كان التهديد الأكبر لنجاح اتفاق لوكربي مناخ الشك وانعدام الثقة القائم بين القذافي والغرب. فعلى الرغم من موافقة كلينتون وبلير والقذافي نظرياً على الشروط المقترحة، فإن أميركا وبريطانيا كانتا تشكّان في صدق الليبيين والتزامهم. وكان القذافي بدوره متردداً في المخاطرة بتسليم المشتبه بهما، اعتقاداً منه أن مساعي المفاوضات مؤامرة لتدمير ليبيا، واقتناعاً أن "الإمبرياليين" الغربيين سيتراجعون عن دورهم في الصفقة.

وخلال المفاوضات الطويلة، واجه جيروول وبندر العديد من المواقف الصعبة. قال جيروول: "لن أرغب في العيش في بلده؛ فلديه أفكار غريبة عن كيفية سير العالم". لكنه كان مقتنعاً أن لدى القذافي إحساساً قوياً بالكرامة والعزة. "كان يتصل في وقت متأخر من الليل ويسأل إذا كان يمكننا التحدّث مجدداً. لقد كان متعباً في هذه المسألة"⁷⁹.

في أثناء المفاوضات، طبّق كل طرف مواطن قوّته. كان نلسون مانديلا يطلع كلينتون وبلير على المسار، فيما انخرط بندر وجيروول في مهمة تهدئة القذافي كثير الشكوك والذي لا يمكن توقع موقفه في الغالب. وقد ظهر دليل على هذا التقلّب بصورة غير متوقّعة في أثناء مقابلة مع طوني إدواردز، الذي كان مسؤولاً عن مشروع السيامة. أوضح إدواردز كيف اتصل به بندر عصر أحد الأيام وخلال الحديث الذي دار لاحقاً قال: "أتعرف إلى أين أنا ذاهب غداً؟ إني ذاهب إلى ليبيا لمقابلة القذافي، القائد العظيم". وأوضح إدواردز: "أبلغني كل شيء عنه، ما يجب، وكيف لا يمكنك أن تعرف مزاجه، وماذا سيقول، أو ماذا سيفعل، وكيف يجب عليك أن تكون صبوراً جداً وتنتقي اللحظة المناسبة". وحاول في الواقع أن يجرب عليّ ما سيقوله له بشأن السبب الذي يدعوه إلى تسليم المشتبه بهما⁸⁰.

في هذه المرحلة، كانت طائرة بندر الخاصة تقوم بأشواط منتظمة حول العالم من جنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وتونس، وإلى ليبيا في مراحل لاحقة. وطوال هذا البرنامج كثير التطلّب، أثبت الرئيس مانديلا أنّه الشخص المحوري الذي أبقى الجميع حول طاولة المفاوضات. وفيما كنّا نناقش تكرّر زيارات بندر وجيروول إلى ليبيا ومنها، أوضح جيروول أنّه لم يكن في وسعك الطيران إلى ليبيا مباشرة بسبب العقوبات. وأنّه في معظم الأوقات كان يسافر إلى لندن أو الرياض أو جدة للقاء بندر، وكاننا يطيران معاً في طائرة الأمير إلى تونس، وبعد ذلك تكون بانتظارهما رحلة

تستغرق أربع أو خمس ساعات إلى طرابلس. وصاح قائلاً إنها "لم تكن رحلة مسلية"⁸¹.

أكد الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمير بندر، وكان يرافقه في رحلاته إلى ليبيا في أثناء مفاوضات لوكرسي، رواية جيروول عن المهمات الأولى عبر تونس. "كنا نركب حافلة - في رحلة تستغرق خمس ساعات إلى طرابلس - إذ لم تكن الطائرة تستطيع الهبوط في ليبيا في ذلك الوقت بسبب عقوبات الأمم المتحدة". وتابع فيصل: "وبعد ذلك كنا نقابل القذافي، لكن في بعض الأحيان كان يمرّ يومان قبل أن يقابلنا، وكان علينا أن ننتظر".

وتحدّث فيصل عن دور مانديلا: "كان جيكس يحضر الاجتماعات لكنّه لم يكن يتحدث كثيراً، كان يحضر كممثل لجنوب إفريقيا في المفاوضات. لكنّها كانت بحاجة إلى وزن، لذا كان لدينا الرئيس مانديلا، بسبب مكانته ولأنّه القائد الأكبر في العالم" وتابع فيصل: "إذا حاول القذافي التراجع عن شيء، كان مانديلا يتدخل، تعرف كم كان فصيحاً". وختتم بالقول: "تعرف كيف تكون الأمور مختلفة عندما يتحدث مانديلا مع القذافي. كان الأمير بندر مهذباً فعليه التحلّي بالدبلوماسية، لكنك تعرف مانديلا!"⁸².

في الحديث عن طول المفاوضات، قال جيروول إنّه يعتقد أنّه توجه إلى طرابلس برفقة بندر ما بين عشر وخمس عشرة مرة، وأوضح أنّ معظم الاجتماعات كانت تعقد في خيم. وفي إحدى المرات، كانت الخيمة منصوبة قرب بقايا مقرّه الرسمي الخالي منذ ضربته قبلة أميركية قبل عقد من الزمن. وقال جيروول: "يعمل العقيد بطرائق غريبة. كنا نصل إلى طرابلس ونلبث ننتظر وننتظر، وكنا نتناول أكواباً صغيرة من الشاي. وفجأة تصلنا رسالة أنّ علينا التوجّه إلى مطار طرابلس وأن نطير من هناك إلى مكان الاجتماع. لقد عقدنا عدة اجتماعات مع العقيد في عدة أماكن، ولأنّه كان يحملنا على السهر حتى ساعة متقدّمة من الليل، قال له بندر ذات مرة، علينا أن ننهي هذه المسألة؛ فقدومنا أنا وجيكس إلى هنا ليس مزحة"⁸³.

أيّد هذه الرواية الدكتور سعيد الكرمي الذي يذكر كيف أخذ القذافي حاشية بندر ذات مرة إلى مركز اجتماعات حرب: "كان المكان غير لائق، وقد أبقوا الحاشية تنتظر هناك ساعات قبل أن يأخذوها إلى خيمة في الصحراء عند العصر". وأضاف:

"كان من المفترض أن يغادروا في تلك الليلة، لكنّه طلب منهم البقاء لإنهاء الحوار، لذا اضطر الفريق إلى البقاء حتى اليوم التالي بالملابس نفسها"⁸⁴. وكشف فيصل أن الليبيين تعمّدوا وضع أجهزة تنصّت في غرفهم. "كانوا يستمعون إلى كل شيء؛ كان ذلك غير معقول البتة. كان في وسعك أن ترى أجهزة التنصّت. لذا كنت أنا ورحاب نخرج ونكتب أشياء مثل، لنغادر هذا المكان، لكن رحاب كان يقول بعد ذلك، عليك التحلّي بالدبلوماسية يا فيصل"⁸⁵.

قالت الأميرة ربما، ابنة بندر وزوجة فيصل: "كان فيصل سريع الغضب في ذلك الوقت، وعدم الصبر، وشديد الإقدام، أما الآن فلا شيء يزعجه"⁸⁶. وأكد فيصل: "لم أعد كذلك بسبب تأثير الأمير بندر في". وبالإشارة إلى المفاوضات الطويلة مع القذافي، ذكر فيصل: "كان هناك أكثر من عشر رحلات، لقد كانت عملية طويلة ومرهقة". ثم هزّ رأسه وقال عن القذافي: "تقنع الرجل ويوافق على شيء فنعود، ثم يغيّر رأيه. لذا نرجع لإقناعه، ليغيّر رأيه بعد ذلك مجدداً. لقد كان الأمر مزعجاً، لكنه [الأمير بندر] حقّق نتيجة في النهاية"⁸⁷.

لم تكن هذه العملية الصعبة مفاجئة. فغالباً ما وصف القذافي "الأخ القائد" أنّه مثالي ساذج. ويصفه جيروول أنّه "دونكيشوت غريب بعض الشيء"؛ ويقول آخرون أنّه زئبقي، وميلودرامي، وثوري شديد التديّن⁸⁸. مع ذلك أثار القذافي إعجاب بندر. "التفاوض معه مهمة صعبة، لكنّه يجبرك على احترامه لأنه يعرف ما الذي يتحدّث عنه. وهو يمتلك قدرة غير عادية على إثارة القضايا والتفاصيل التي قد لا تدور في خلدك، لتكتشف مقدار أهميتها بعد أن تبحثها. وهكذا حصل على التنازلات الأميركية والبريطانية التي ربما لم تكن ممكنة"⁸⁹.

تواصلت الدبلوماسية بين بندر وجيروول ومانديلا والقذافي مدّة ستة عشر شهراً، وعلى الرغم من تحفّظات القذافي، أبلغ مانديلا، الذي سافر إلى ليبيا خصيصاً للإعلان عن الاتفاق، العالم في 19 مارس 1999 أن ليبيا ستقدّم للأمم المتحدة تاريخاً ثابتاً لتسليم المشتبه بهما.

عند سرد الأحداث التي أحاطت بالنهاية العملية للاتفاق مع القذافي قال جيروول: "في يوم سفر ماديا إلى طرابلس، أعلن [القذافي] الاتفاق أمام شعبه بأسلوبه المعهود مستخدماً قصصاً رمزية من التوراة والقرآن وقال، لو طلب منا مانديلا أن نضحّي

بأولادنا لفعلنا ذلك، لأنّ الناس إذا لم يحافظوا على كلمتهم فإنّهم سيخذلون مانديلا وفهد. وأضاف بشكل مخيف، وسيقع ذلك على عاتقي بندر وجيكس!". وقال جيرويل: "جاء الاجتماع الأخير بعد التوصل إلى الاتفاق، فقد دعيت والأمير بندر إلى ليبيا لتكون هناك عند تسليم المشتبه بهما إلى الأمم المتحدة". وتابع: "مشينا معهما حتى الطائرة. لم يكن القذافي هناك. لديه اعتزاز كما تعلم، لذا من غير المتوقع أن يكون هناك. بعد ذلك انتقلنا عبر الطائرة إلى مكان في جنوب الصحراء حيث أمضينا ليلة ممتعة معه لاختتام المسألة بأكملها".

مع أنّ مانديلا يؤكّد أنّ جيرويل وبندر لعبا دورين رئيسيين في التفاوض على الحل، فقد حرص جيرويل على التشديد على أهمية العلاقة الشخصية بين مانديلا والقذافي. "كان الأمر بأكمله يتوقّف على ثقة القذافي بماديبا، ولم يكن ليتم شيء لولا ذلك". وأضاف: "كان الأمر صعباً جداً لأنّ القذافي لا يثق بالغرب بقدر عدم ثقة الغرب به، وكانت دائماً كلمة مانديلا؛ كنا نقول، يمكننا أن نؤكد لك أنّه إذا قال بلير لماديبا أنّه سيفعل كذا وكذا، فإنّه سيفعله".

لتأكيد هذه النقطة، حثّ جيرويل مانديلا قائلاً: "لقد تحدّثت بالفعل إلى شيراك وجورج بوش الأب، وميجور؛ وتذكر أنّك كنت تقول لي دائماً إنّ الجميع موافقون على



الأمير سلطان، ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، وبندر

إمكانية عقد محكمة في بلد ثالث، باستثناء ميغور الذي قال إن ذلك سيكون إهانة للنظام القانوني البريطاني⁹⁰. وتدخل مانديلا: "على الرغم من أن ميغور رجل ممتاز، فقد كان من المعارضين، لكننا أقنعناه أن على بريطانيا أن تكون السبّاقة في ذلك الوقت إلى تطبيع العلاقات مع القذافي. والشخص الآخر الذي بحثت المسألة معه هو الرئيس كلينتون لأنه قال لي، لا يمكنك أن تثق بالقذافي. فقلت، لا، ربما لا تستطيع أن تثق به. لقد تعاملت معه، ويمكنني أن أقول لك إنه عندما يقول شيئاً فإنّ لديه ما يكفي من المصداقية ليعرف أن التراجع عن ذلك يعني تدمير مصداقيته"⁹¹.

وحول إذا ما كان العقيد القذافي سيسلم بالفعل المشتبه بهما عندما يحين الوقت، أكد مانديلا للرئيس الأميركي شخصياً: "نعم ليس لدي أدنى شك في أنه سيسلمهما"، وردّ كلينتون على ذلك: "إذا كنت تعتقد ذلك، فسأدع الأمر لك"⁹².

وقد سلّم القذافي المشتبه بهما بالفعل، وفي سنة 1999، وجدت محكمة في هولندا، برئاسة قضاة اسكتلنديين، أن عبد الباسط علي محمد المقرّحي مذنب وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة لتفجير رحلة بانام 103 فوق لوكربي في سنة 1988. وأقرّت ليبيا بالمسؤولية عن الانفجار ووافقت على دفع 10 ملايين دولار كتعويض لذوي كل من الضحايا المتّين والسبعين.

وعن النتيجة قال بندر: "وضعت موافقة ليبيا على تسليم المشتبه بهما في قضية لوكربي حداً لفصل طويل ومؤلم عانى منه الشعب الليبي بالإضافة إلى أسر الضحايا"⁹³.

فتحت النهاية الناجحة لمفاوضات لوكربي حقبة جديدة في علاقات ليبيا بالغرب. وفي ديسمبر 2003، أعلنت ليبيا عن تخليها عن متابعة مساعيها النووية أو الكيميائية أو البيولوجية، وفتحت حدودها أمام التفتيش الدولي.

عندما تعمّقت في تدخّلات بندر الدبلوماسية في أثناء ولايتي كلينتون، اتضح لي أنّ تدفق المعلومات المتعلقة بالتطوّرات الدولية لم يكن مقيداً من جانب الإدارة فحسب، بل إنّ المعلومات كانت مقيدة داخل الإدارة نفسها. وقد أثّرت هذه الأسيجة الداخلية سلباً في العلاقات الخارجية، وقادت بندر إلى الاعتقاد، كما أفادت إلسا والش في صحيفة ذا نيويورك ركر، أنّ أعضاء فريق السياسة الخارجية الضعيف كانوا إما مسيّسين جداً وإما متعجرفين ثقافياً.

في السنوات الأخيرة من رئاسة كلينتون، بدأ النزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين عالقاً في طريق مسدود يسوده العنف والكآبة. وبما أن كلينتون كان يتوق إلى دفع محادثات السلام للحركة، فقد حوّل اهتمامه باتجاه سوريا. في يناير 2000، اجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك بوزير الخارجية السوري فاروق الشرع في شفرذتاون، وست فرجينيا، بدعوة من الرئيس كلينتون لحلّ الخلافات الحدودية بين إسرائيل وسوريا والعنف المتواصل في لبنان.

غير أنّ محادثات شفرذتاون لم تحرز أي تقدّم. فقد تقدّم باراك بمطالب رفضها السوريون، في حين أكّد الشرع أنّ النتيجة الوحيدة المقبولة هي انسحاب إسرائيل التام إلى حدود ما قبل 1967، ما سُمّي وديعة راين.

على الرغم من فشل محادثات شفرذتاون، كان كلينتون عازماً على جمع السوريين والإسرائيليين معاً مرّة أخيرة. غير أنّه طلب المساعدة هذه المرة.

يقول بندر: "تلقيت مكالمة في يوم جمعة في مارس 2000، وسئلت، هل يمكنك المجيء إلى البيت الأبيض غداً؟ الرئيس يريد الاجتماع بك".

استغرب بندر التوقيت المقترح في صباح يوم السبت، لكنّه وافق بسرعة. وبما أنّه سيعقد في المكتب البيضاوي - أي زيارة رسمية - سأل من سيكون حاضراً. وعندما علم أنّ بيرغر سيكون موجوداً، أبلغ بندر البيت الأبيض أنّ رحاب مسعود سيرافقه. وافق البيت الأبيض لكنّهم شدّدوا: "ترجو أن تبقي الأمر سرّاً، لا تبلغ وزارة الخارجية أو سواها".

فور وصول بندر، طلب منه كلينتون إيصال رسالة إلى الأسد. سأل بندر: "هل هي رسالة أقدمها كانطباع ما؟ أم رسالة منك إلى الأسد مباشرة؟".

قال كلينتون: "لا، منّي إليه".

ردّ بندر: "حسناً، لكن إذا كانت هذه الرسالة منك إليه مباشرة، أرجو أن تكرر الرسالة لأنني لا أريد أن أتصرّف باستقلالية. إذا كانت انطباعاً عاماً وعلي أن أوصله بطريقيّ فذلك شيء، أما إذا كانت منك إليه مباشرة، فسيبدو أنّها رحاب".

وهكذا دونّ مسعود رسالة كلينتون. ثم طلب بيرغر من بندر مجدداً: "لا تبلغ وزارة الخارجية".

غادر بندر إلى الرياض في تلك الليلة للتشاور مع ولي العهد الأمير عبد الله. كانت الرسالة التي سيسلمها مصممة لإقناع الرئيس حافظ الأسد بحضور اجتماع قمة في جنيف كمقدمة لخطة أوسع للسلام بين إسرائيل والدول العربية. وكانت الرسالة تفيد أنه إذا وافق الأسد على العودة إلى طاولة المفاوضات مرة أخرى، فسيضمن كلينتون انسحاب إسرائيل من مرتفعات الجولان حتى الحدود التي احتلت في حرب 1967. غير أنه قال إن موافقة باراك تستند إلى وقف العنف في جنوب لبنان. وكان اختيار بندر ليحمل الرسالة استراتيجياً بحد ذاته: لقد وافق إيهود باراك بالفعل سراً على ضلوع الأمير، والأسد معروف أنه يثق بالمملكة العربية السعودية، وخاصة ببندر.

عندما أثار بندر في أثناء اجتماعه مع الرئيس الأسد موضوع القتال في جنوب لبنان، ابتسم الأسد وقال إن في وسعهم الاهتمام لهذه المسألة⁹⁵. وبعدما فعل بندر ما طُلب منه، نقل موافقة الأسد على الشروط الأميركية إلى بيرغر، وعاد إلى واشنطن معتقداً أن عملية السلام ربما بدأت تحقق تقدماً في النهاية.

مع ذلك، لم يتم التوصل إلى اتفاق على الرغم من اجتماع دام ثلاث ساعات بين كلينتون والأسد في جنيف: فقد رفض الزعيم السوري اقتراحات كلينتون من دون تفكير. وانهارت المحادثات تماماً بحيث أوفد ولي العهد بندر للتحدث إلى الأسد، مخافة أن يعتقد أن السعوديين متواطئون بطريقة ما لتقويض الموقف السوري. وفي ذلك الاجتماع، علم بندر أن كلينتون استغله، وأن الرسالة التي سلمها بندر - ضمانة كلينتون أنه حصل على موافقة باراك على الانسحاب إلى ما حدود ما قبل 1967 - كانت مجرد حيلة لإرجاع السوريين إلى طاولة المفاوضات. ولم يضلّ كلينتون السوريين فحسب، بل خدع الإسرائيليين أيضاً بإيجائه أن الأسد مستعد للتفاوض، رغم علمه بموقف الأسد المتشدد.

قال الأسد لبندر: "كلينتون يعرف ماذا أريد. والله يعلم أنه يعلم ماذا أريد، لقد تحدثنا خمس عشرة مرة!".

وقال بندر بدوره بعد عودته من اجتماعه مع الأسد: "لتذهب هذه الإدارة إلى الجحيم". ومع ذلك، لم يكن بندر يعلم حتى ذلك الوقت مقدار انقطاع الاتصالات داخل أروقة الحكم الأميركي.



مادلين أولبرايت تحيي ولي العهد الأمير عبد الله
خلال زيارتها للمملكة

من المدهش أن وزيرة الخارجية أولبرايت لم تكن على علم البتة بمهمة الأمير السريّة إلى سوريا والرسالة التي طُلب منه تسليمها. ولم يكن المبعوث الخاص إلى الشرق الأوسط دنيس روس الذي تفاوض مع باراك لصالح أولبرايت على علم بها أيضاً. مع ذلك كتب روس في كتابه السلام المفقود، "طلبنا من الأمير بندر مقابلة الأسد وربما أساء الأسد فهم ما قاله بندر، أو أساء الأمير بندر فهم ما قلناه" 96.

عند قراءة رواية روس الثانوية عن اجتماع الأمير بكلينتون وبيغرغر، ردّ بندر بحدة: "ما هذا الهراء عن نحن [طلبنا]؟! لم يكن يعرف في ذلك الوقت أنّه طُلب مني القيام بذلك!".

بعد أيام على قمة جنيف، اجتمع بندر بأولبرايت التي كانت قد عادت لتوها من لندن لحضور عشاء في واشنطن. يذكر بندر: "خلال العشاء ضحكنا عندما قالت إنّها التقت باللورد ليفي، وهو ممن يجمعون الأموال لطوي بليز ومبعوثه الشخصي إلى الشرق الأوسط، عندما كانت في إنكلترا لإلقاء محاضرة. قال لها، إنّني أقيم حفل عشاء؛ وسيأتي الدوق فلان إلى العشاء، واللورد فلان، والوزير فلان، وأودّ أن تحضري يا معالي السيدة الوزيرة. أبلغتني مادلين وهي تضحك من قلبها، ظننت أنّه كريبه وأنّه يطرح الأسماء، لذا استمتعت عندما قلت له، آسفة جداً يا سعادة اللورد، لا أستطيع؛ لدي عشاء غداً مع أمير في واشنطن".

فيما تقدّم العشاء، انتقل الحديث إلى فشل محادثات جنيف التي حضرتهما أولبرايت. كانت منزعجة بوضوح من الأسد وأبلغت بندر أن الأسد كان يطلب باستمرار قبل المحادثات أن يعرف ما هو موقف باراك النهائي. وفي نهاية المطاف أرسل

دنيس روس لمعرفة ذلك. وأدرك بندر من تعليقات أولبرايت أن الأسد يحاول التأكيد مما إذا كان كلينتون نجح في الضغط على باراك للانسحاب من مرتفعات الجولان حتى حدود 4 يونيو 1967. هذا هو في النهاية ما عرف كلينتون أن الأسد يريد، وكان مضمون رسالته التي نقلها بندر إلى الرئيس السوري.

وكما أكد الأمير: "كان جوهر الرسالة التي نقلتها من كلينتون إلى الأسد قول كلينتون، إني أعرف ماذا تريد. وسأعمل مع باراك. وإذا حصلت من باراك على ما اعتقد أنك تحتاج إليه، فسأطلب عقد قمة بينك وبينني. لذا كان السرّ إما أن أتلقى مكالمة تقول، حسناً، لنعقد القمة، وسأطلب من السوريين الحضور، وإما أن تقول، لا داعي للقمة، دعونا نجري مزيداً من المحادثات. والرسالة التي حصلت عليها، لنعقد هذه القمة، وهو ما يعني بالنسبة إلى الأسد أن لدينا اتفاقاً. لذا جاء الأسد إلى جنيف معتقداً أنه توصل إلى اتفاق مع كلينتون".

لم يكن من الصعب الاستنتاج من أفعال الرئيس الأسد في جنيف أن العرض الأصلي لم يعد على الطاولة، بسبب فشل ما في المفاوضات بين باراك والولايات المتحدة. غير أن ما أذهل بندر أن أولبرايت كانت غافلة عن أن تعهدات صريحة من كلينتون قدّمت إلى الأسد كحافز له على حضور قمة جنيف.

وأوضحت الوزيرة أولبرايت أنه تقرّر إرسال روس إلى إسرائيل لتأمين موافقة باراك على الالتزام بوديعة راين. مع ذلك تبين لبندر أن أولبرايت لم تكن تعرف شيئاً عن مهمته في سوريا. وعندما أخبرها عن رحلته، أصيبت بصدمة تامة: "لقد كذب عليّ ساندي بيرغر اللعين. لأسلخنّ جلده!"، وصاحت: "لا أصدّق! أتعيّن أنك ذهبت لمقابلة الأسد؟".

أجاب بندر: "نعم".

ردّت أولبرايت: "ذلك يفسّر لي ردّ فعل الأسد". وفي إشارة إلى رفض الأسد التفاوض البتة، قالت: "كنت غاضبة جداً منه، لرده، ولأنّه خدع الرئيس".

اتصل بندر بروس في اليوم التالي ليوضح ما حصل في اجتماعه مع أولبرايت. وشدّد بندر أنّه بعد محادثاته مع أولبرايت وروس، أكّد الاثنان له أنّهما لم يفهما سبب فشل القمة إلا عندئذ.



رحاب مسعود خلال مؤتمر صحفي
في سفارة المملكة العربية السعودية
في واشنطن

وأكد رحاب مسعود، بوصفه كاتب الملاحظات في الاجتماع الذي تمّ مع كلينتون وبيرغر، أنّه دون ملاحظة فورية تؤكّد ضمان الرئيس الصريح أنّه يؤكّد أنّ باراك تعهّد بالموافقة على خطّ 4 يونيو 1967 - وديعة راين - التي أشار الرئيس كلينتون بأنّها "التزام راين غير المباشر"⁹⁷.

غير أنّ مجلة نيويورك ريفيو أوف آفأادت: "تحدّث ناطق باسم إدارة كلينتون عن أنّ كلينتون وبيرغر لا يذكران تحديداً الاجتماع الرسمي في المكتب البيضاوي، قائلاً، صحيح أنّنا طلبنا مساعدة بندر، لكن من غير الصحيح أنّ كلينتون قال أنّه يستطيع الحصول على حدود 1967"⁹⁸. بالمقابل، كان تقييم بندر لموقف الإدارة صريحاً: "قرّر فريق كلينتون

الاستفادة من الموقفين. فقالوا إنّهم حاولوا وإنّ الفشل بسبب الفريق الآخر؛ وأنا أقول إنّها فشلت لأنّهم لم ينسّقوا رسالتهم ولم تكن تلك المرّة الأولى".

عندما قابلت الرئيس كلينتون، سألته عن سبب حجب هذه المبادرة عن وزارة الخارجية، فأجاب: "لا أذكر ذلك. ربما يذكر ساندي وبندر ذلك، لكنني لا أذكره".

وفقاً لكلينتون، كان إخفاق اجتماع قمة جنيف مبتدلاً. فقد قال: "ما حدث حقاً هو أنّ التوقيت كان غير مناسب للجميع. كانت لدينا فرصة للتوصل إلى سلام في يناير 2000 عندما أراد باراك الاجتماع. فقد أملى الوقت وقرّر أنّه لن ينجز شيئاً مع عرفات وأراد أن ينتهي من سوريا أولاً". وكان الرئيس يشير إلى خطة باراك لتأمين السلام مع سوريا، وهي خطوة فسّرت على أنّها - إذا ما نجحت - نوع من عزل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، وكسب مزيد من الوقت ممّا يؤخّر تنفيذ اتفاقات أوسلو الأرض مقابل السلام التي حاولت إسرائيل تكراراً إعادة التفاوض عليها. وفي حين قدّم باراك وأولبرايت ضمانات للرئيس الأسد بوضع وديعة راين على الطاولة في محادثات يناير في شفرذتاون، وست فيرجينيا، فإنّ باراك تراجع عن ضمانته وأدخل تعديلات قوّضت محادثات السلام.



رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك

في ما يتعلق بهذه الأحداث، كان كلينتون شديد الانسقاد لباراك، وأوضح كيف أبلغه أنّ الوقت بدأ ينفد لأنّ الأسد لن يساعده. وكان كلينتون يعتقد أنّ الأسد لن يعرض خلافة ابنه للخطر. وعندما جاء باراك إلى شفرذتاون، كان يتعرض لضغوط كبيرة في إسرائيل. ولاحظ كلينتون: "قرّر [باراك] أنّ عليه البقاء هناك أسبوعاً من دون تقديم أي تنازلات، وتلك إهانة كبيرة للسوريين الذين وافقوا على المجيء في رمضان إلى هذه البلدة الباردة في وست فيرجينيا. وقد أساء الإسرائيليون التصرف. وفي جنيف عندما كان

باراك مستعداً في النهاية لتقديم ما رأيت فيه عرضاً مقنعاً جداً يمكن أن يؤدي إلى حل سريع، لم يبدِ الأسد رغبة في سماعه. لكنني رأيت في ذلك الوقت أنّ الخطأ يكمن في التوقيت أكثر من أي شيء آخر".

وفي محاولة أخيرة لتفسير المنطق الذي دفع الأسد للتراجع في قمة جنيف، أوضح كلينتون أنّ الأسد توفي بعد نحو عشرة أسابيع، ورأى أنّ الأسد كان يخشى أن يموت تاركاً اتفاق تسوية وحده يمتلك القوة الكافية لتنفيذه، فإنّ ابنه، بشار الأسد لن يستطيع تولي السلطة: "إذ إنّ الطائفة العلوية تشكّل أقلية وتعتمد على الجيش لدعمها. لقد كان ذلك مأساوياً حقاً إذ كان في وسعهما إنجاز ذلك الاتفاق لكنّ توقيتهما لم يكونا مناسبين"⁹⁹.

كان بندر أكثر تحديداً. قدّم كلينتون للأسد ضماناً لا لبس فيها أنّ باراك سيوافق على الانسحاب من كل الأرض السورية التي تحتفظ بها إسرائيل منذ سنة 1967 ثمّ فشل في التنفيذ.

بانسحاب جورج دبليو بوش في نوفمبر 2000، تفاعل بندر أنّ البيت الأبيض سيعود مجدداً إلى السياسة الخارجية الفاعلة. فقد كانت الإدارة المشكّلة من العديد من أعضاء حكومة جورج إيتش دبليو بوش تعد بتصويب العلاقة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. غير أنّ شخصية إدارة جورج دبليو بوش أثارت تحديات جديدة لبندر.

لا شك في أن العلاقة الأميركية السعودية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنفط والأمن، وأن لهذين العاملين تأثيراً ملازماً في السلام في الشرق الأوسط. وقد لعب بندر كمواطن يجمع بين الثقافتين دوراً أساسياً في مبادرات السلام المختلفة التي برزت في أثناء وجوده كسفير في الولايات المتحدة. لكن في أواخر أغسطس 2001، كان موقع الأمير سبباً في جعله مبعوثاً في واحد من أكثر الأحداث إثارة للتحدي في تاريخ العلاقات الأميركية السعودية.

رداً على اجتماعات بوش المتكررة مع أرييل شارون ورفضه الاجتماع بياسر عرفات، رفض ولي العهد الأمير عبد الله الطلبات المتكررة لزيارة البيت الأبيض. وفي مقابلة في يونيو 2001 مع صحيفة فايننشال تايمز، وبخ الأمير عبد الله إدارة بوش موحياً أن الدور الأميركي في حل أزمة الشرق الأوسط أصبح سلبياً جداً بحيث يتعين على المملكة العربية السعودية أن توفر القيادة¹⁰⁰.

كان الأمير عبد الله غاضباً من تصريح بوش أن "الإسرائيليين لن يتفاوضوا تحت التهديد الإرهابي، الأمر بهذه البساطة؛ وإذا كان الفلسطينيون مهتمين في الحوار، فلإني أحث السيد عرفات بقوة على بذل 100 بالمئة من الجهد... لوقف النشاط الإرهابي. وأعتقد أن في وسعه القيام بعمل أفضل في هذا الصدد"¹⁰¹.

فسر الأمير عبد الله هذه الملاحظات أنها تسامح مع إسرائيل والإدانة الظالمة للفلسطينيين. وتصاعد غضبه بعد مشاهدة الفيلم المخزن عن الإغارة الإسرائيلية على الضفة الغربية في 23 أغسطس الذي يظهر جندياً إسرائيلياً طارحاً امرأة فلسطينية على الأرض ويدوس بجزمته على رأسها.

كان رد فعل الأمير عبد الله عاطفياً وفورياً وحاداً. اتصل ببندر الذي كان في منزله في أسبن يشاهد التقرير المتلفز نفسه¹⁰². وطلب منه ولي العهد أن يسلم بنفسه رسالة تهديد من خمس وعشرين صفحة إلى الرئيس. وهي تفيد: "نحن نعتقد أن هناك قراراً استراتيجياً اتخذته الولايات المتحدة أن مصالحها الاستراتيجية في الشرق الأوسط تستند 100 بالمئة إلى شارون. ذلك من حق أميركا، لكن المملكة العربية السعودية لا يمكنها أن تقبل القرار. وابتداءً من اليوم أنتم من طريق وأنا في طريق كما يقولون. من الآن فصاعداً، سنحمي مصالحنا القومية بصرف النظر عن موقع المصالح الأميركية في المنطقة"¹⁰³.



كاشفيقن - جورج دبليو بوش وبندر

فاجأت رسالة الأمير عبد الله الإدارة الأميركية. فهي تهدد بتدمير الصداقة القيمة التي تربط بين أميركا والمملكة العربية السعودية، بسبب شعور الأمير عبد الله بعدم اهتمام أميركا في أسوأ الأحوال، وانحيازها إلى جانب إسرائيل في أحسنها. وهدد ولي العهد بقطع التعاون الأمني والمخابراتي مع الولايات المتحدة بالإضافة إلى إعادة النظر في الاتفاقات العسكرية. وكان التغيير في المناخ فورياً: عاد رئيس الأركان السعودي إلى الرياض بعد يوم واحد فقط من وصوله إلى واشنطن، ومن دون أن يلتقي أي مسؤول أميركي، وألغى أربعون ضابطاً سعودياً من ذوي الرتب الكبيرة رحلة إلى واشنطن أعدت للتباحث بشأن المراجعة السنوية للعلاقات العسكرية.

وعلى الفور رفضت دعوة موجهة إلى الأمير عبد الله لزيارة الولايات المتحدة. وقال الأمير تركي الفيصل (*) ببلاغة: "استحوذ ذلك على انتباههم" ¹⁰⁴. أُجبرت إدارة بوش على إعادة النظر بسرعة في نهجها تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط. وبلغ التصدع في العلاقات بين الإدارة الأميركية والمملكة العربية السعودية من الحدة بحيث أفادت صحيفة نيويورك تايمز أن الرئيس جورج بوش الأب - وهو يحظى بتقدير كبير لدى السعوديين - تحدث بنفسه مع الأمير عبد الله في محاولة لطمأنته أن ابنه، الرئيس، سيقوم بالعمل الصحيح لأن قلبه في المكان الصحيح" ¹⁰⁵.

خلال ست وثلاثين ساعة من تقديم رسالة الأمير عبد الله إلى بوش، عاد بندر إلى الرياض لتسليم رد بوش على ولي العهد، وهو رسالة من صفحتين تعد بالتحرك في

(*) السفير السعودي السابق في لندن والسفير السعودي الذي تلا الأمير بندر في الولايات المتحدة. وهو أيضاً شقيق زوجة الأمير بندر.

الشرق الأوسط¹⁰⁶. وكانت الرسالة تحتوي على ما يسعى له السعوديون بالضبط أي دليل على رئيس أميركي إنساني ذي نهج منصف تجاه الأزمة الإسرائيلية الفلسطينية. كما تعهدت الرسالة برؤية قابلة للتطبيق تدعم إقامة دولة فلسطينية وتشجب كل أعمال العنف ضدّ الإسرائيليين والفلسطينيين على حدّ سواء.

وقال مسؤولون سعوديون إنّ رسالة بوش تضمّنت الإعلان: "إنّني أرفض هذا التحيّز غير الأميركي وغير العادي الذي يكون فيه دم الطفل الإسرائيلي أعلى وأقدس من دم الطفل الفلسطيني. وأرفض القول أنّه عندما تقتل فلسطينياً يكون ذلك دفاعاً عن النفس؛ وعندما يقتل فلسطينياً إسرائيلياً يكون ذلك عملاً إرهابياً"¹⁰⁷.

كان وقع الرسالة مؤثراً جداً في قيادات المجتمع السعودي، وارتفعت مصداقية بوش داخل المملكة العربية السعودية. وفي قراءة بين السطور، كان بندر مقتنعاً أنّ موقف إدارة بوش في الرسالة إلى الأمير عبد الله لم يتطوّر في ست وثلاثين ساعة فحسب. وقال: "لا بدّ أنّ ذلك شيء كانت الإدارة تفكّر فيه، ولم تتشاركه مع أحد، وإنّما كانت تنتظر الوقت المناسب".

عرض الأمير عبد الله ردّ بوش على القادة العرب الآخرين، بمن فيهم الرئيسين المصري والسوري، والملك عبد الله، ودعا عرفات إلى الرياض لقراءة رسالة بوش. وتلقّى بندر تعليمات على الفور بإعادة بناء العلاقات الأميركية السعودية، وهي مهمة مرحّب بها بعد أن أمر بإيقاد النار تحت أصدقائه في واشنطن. وتذكر المصادر أنّه عندما قال المسؤولون للأمير، "لقد أخفتمونا"، ردّ ببراعة: "إلى الجحيم بكم، لقد أخفنا أنفسنا!".

حمل بندر معه من الرياض أيضاً أمل الأمير عبد الله أن يقول الرئيس علناً ما أورده في رسالته. وكان يتوقّع أن تتحوّل محتويات الرسالة إلى سياسة. وعلى سبيل طمأننة الرئيس إلى قوة رسالته ودعم العالم العربي للعاطفة التي أبدأها، أرسل أيضاً إلى واشنطن تعهداً مكتوباً من عرفات إرضاء لمطالب بوش لإحياء محادثات السلام.

ووفقاً لصحيفة واشنطن بوست، كان بندر سعيداً جداً وأعلن: "فجأة ساورني الإحساس نفسه الذي شعرت به عندما كنّا ذاهبين إلى مدريد، أنّنا سنشهد مبادرة كبيرة هنا يمكن أن تنقذنا جميعاً من أنفسنا، على الأغلب، ومن بعضنا بعضاً"¹⁰⁸.

بعد أيام، قاد محتطفون طائرتين وانقضا بهما على برنجي مركز التجارة العالمية في نيويورك.

قُتل 2,752 أميركياً، وماتت أيضاً فرصة إحلال السلام في الشرق الأوسط. فقد دُفنت كل الآمال في إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط تحت أنقاض البرجين. وعبر بندر عن حزنه: "لا أتصوّر أن هناك طريقة للإضرار بالإسلام أو بالمملكة العربية السعودية أكثر من ذلك".

9/11: الكارثة

﴿ سَأُصَلِّيهٖ سَقَرًا • وَمَا أُذْرِكُ مَا سَفَرًا •
لَا يُبْقِي وَلَا نَذْرًا • لَوَاسِمَةٌ لِلْبَشَرِ •
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

القرآن الكريم (المدثر: 26 - 30)

حقيقة: كان خمسة عشر شخصاً من التسعة عشر الذين نفذوا الهجمات المأساوية الشنيعة في 11 سبتمبر 2001 سعوديين.

وُضعت القوى المحركة الراسخة للعلاقات الدولية جانباً عندما وقعت الضربة إذ شعر الأميركيون بألم لا يزال ملموساً حتى اليوم. وفجأة أصبح بندر والمملكة العربية السعودية في قفص الاتهام، في مواجهة اتهامات وسائل الإعلام بضلوعهما المزعوم في هذه الجريمة المنكرة.

عند سماع نبأ الهجمات، أصيب بندر والسعوديون بصدمة. وكان ردّ فعلهم الأول أنه من غير المعقول أن يكون هناك أي سعودي بين الخاطفين التسعة عشر¹. وعندما تأكّدت الحقيقة الرهيبة، ردّت المملكة غير مصدّقة إمكانية تورّطهم في عمل إرهابي فظيع. بل إنّ السعوديين أشاروا إلى أنّ الخاطفين رجال من "الجنوب" ومن مجموعة قبلية ذات صلات قوية باليمن؛ وأنهم ليسوا "سعوديين صالحين"². وقد تمّ تجاهل هذا الدفاع غير المناسب باستهزاء.

غيّر السعوديون اتجاههم، وبعد أن تخلّوا عن المبادرة إلى الصحافة الغربية التي أصبحت فجأة معادية بشكل مفهوم، حاولوا الدفاع عن أنفسهم أمام الموجة تلو الموجة من الانتقادات. وحاول بندر تجنّب وسائل الإعلام فيما يضع استراتيجية للوقوف أمام التهديد المتنامي الذي يواجه العلاقات الأميركية السعودية. لكن، تواصل تعاضم مناخ عدم الثقة.

ومع تفجّر الاتهامات بالتواطؤ والملازمة في وسائل الإعلام، ألقى الضوء على التباعد الثقافي بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة. فتحدّثت مجلة تايم عن أنّ "غياب الديمقراطية وحرية التعبير، ومساواة المرأة، والتنوّع الديني في المملكة العربية السعودية لا يجعلها حليفاً محبوباً بالنسبة إلى الأميركيين"³. بل إنّ مؤيدي المملكة العربية السعودية كتبوا، "إنّه نظام سلطوي وهو ذو سجلّ سيئ في حقوق الإنسان. وليس فيه حرية دينية. ويعاقب المجرمين بتر أعضاءهم وقطع رؤوسهم. وتتعاون الحكومة أحياناً مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب وأحياناً لا تتعاون"⁴. وتركز الآن المناخ الملتهب في الولايات المتحدة، ورعب 9/11، والرغبة في الانتقام للثلاثة آلاف أميركي تقريباً الذين قتلوا، على مشاركة سعوديين في هذا الهجوم الفظيع.

أدى وجود خمسة عشر سعودياً بين المختطفين التسعة عشر إلى تصوير المملكة كمرتع للإرهاب، وطالب الرأي العام الأميركي بتقديم اعتذار. وقد وقع على عاتق بندر التعبير عن الغضب السعودي من هجوم القاعدة وتقديم التعازي إلى الذين فقدوا في هذا العمل الإرهابي الوحشي. كان صريحاً في إدانته حيث قال: "خلال عشرين

عاماً، لم أشهد حادثة أشدّ إيلاًماً وقبحاً في حياتي مقارنة بما حصل في 9/11. لقد كان 9/11 مأساة بكل المقاييس، لكنّه شرٌّ أيضاً"⁵. لكن سرعان ما ضاعت تعليقات بندر في خضمّ الإحساس الأميركي الواسع بالصدمة والرغبة في العقاب.

وسرعان ما تعمّق الاعتقاد في الولايات المتحدة أنّ على المملكة العربية السعودية الدفاع عن نفسها وأنّها كانت قانعة في التعامل مع التهديد الإرهابي، وأنّها لم تبذل ما فيه الكفاية. وحاولت دعوى قضائية رفعتها ستمئة عائلة من عائلات ضحايا 11 سبتمبر الربط بين أبرز شخصيتين في العائلة المالكة السعودية و9/11. ونصت الإقرارات



11 أيلول/سبتمبر 2001، برجاً مركز
التجارية العالمي

والشهادات الواردة في الدعوى القضائية على أن السعوديين دفعوا إلى ابن لادن في أعقاب الهجمات على القوات الأميركية في المملكة العربية السعودية، بما في ذلك تفجير الخبر. وفي لندن، زعمت صحيفة "صنداي تايمز" أن ذلك بلغ 300 مليون دولار "كأموال للحماية" دُفعت إلى شبكة أسامة بن لادن الإرهابية وحكومة طالبان في أفغانستان⁶.

في 13 سبتمبر 2001، بعد يومين فقط على وقوع الهجمات، دخّن الرئيس جورج دبليو بوش سيجاراً على شرفة ترومان في البيت الأبيض مع بندر. فثارت نائرة الصحافة وانتقدت بوش بعنف لأنه تحدّث مع سفير عربي. وكثرت التلميحات إلى وجود مؤامرة. وافترض معظمها أن موضوع النقاش على شرفة ترومان في تلك الليلة كان المغادرة الوشيكة لرحلات تقلّ 148 مواطناً سعودياً بعيد 9/11، وبعضهم من أفراد عائلة ابن لادن.

رفض بندر في وقت لاحق التخمين أنه بحث هذا الإخلاء مع الرئيس في تلك الليلة على شرفة ترومان. وفي مقابلة مع تيم روسيرت في برنامج هيت ذا برس، أوضح بندر أنه قدّم طلب إخلاء المواطنين السعوديين إلى "الأف بي آي" مباشرة. وعندما حصل على موافقته، اتصل بمنسّق مجلس الأمن القومي الخاص بمكافحة الإرهاب، ريتشارد كلارك، الذي قال: "ليس لدي أي مانع إذا كان الأف بي آي لا يمانع". وبالتالي أجز ذلك.

في حين أن هذه الخطوة السعودية قد تكون ذات نوايا طيبة، فقد فسّرت بسرعة لا على أنها غير حسّاسة فحسب، بل ربما تنطوي على جريمة تهريب إرهابيين محتملين يمكن أن تستجوبهم الأجهزة الأمنية. فبناء على طلب ولي العهد الأمير عبد الله تنظيم إخلاء أفراد عائلة ابن لادن، أثار بندر من دون قصد سلسلة من مزاعم المؤامرة الزائفة. أوضح بندر في تبرير إخلاء المواطنين السعوديين: "كان لدينا هؤلاء الأشخاص في السبلد، وكثير منهم من أقارب عائلة ابن لادن الذين يدرسون في المدارس، وبعضهم مراهقون، وبعضهم ملتحقون بالجامعات. طلبنا إذنًا من الأف بي آي. وكان هؤلاء الأشخاص مفرّقين في كل أنحاء أميركا، وخشينا في ظل الغضب العارم في ذلك الوقت أن يتعرّضوا للأذى. وكانت الطائرات الأخرى لمسؤولين سعوديين يمضون إجازاتهم. فقد كان عليهم جميعاً العودة إلى مراكزهم الرسمية في الوطن بعد وقوع هذه الكارثة"⁷.

رداً على تخمين الصحافة أن هذه الرحلات تشير بطريقة ما إلى مؤامرة معقدة بين بوش والسعوديين، قال بندر: "فكروا في الأمر بطريقة منطقية. أتظنون أننا في جمهورية من جمهوريات الموز، حيث يمكنني أن آخذ 148 مواطناً سعودياً وأضعهم في طائرة وأهربهم إلى الخارج من دون أن يعلم أحد؟". مع ذلك، فإن الصحافة لم تلق أي بالٍ لإنكاره.

في وقت لاحق وجد بندر الراحة في النتائج التي توصلت إليها لجنة 9/11 بشأن رحلات عائلة ابن لادن قائلاً: "لقد أصدرت لجنة 9/11 بياناً تقول فيه إن الأف بي أي خلص إلى أنه لم يسمح بمغادرة أحد على متن هذه الرحلات الست يريد الأف بي أي استجوابه بشأن هجمات 9/11، أو خلص الأف بي أي لاحقاً أنه كان متورطاً في الهجمات. وذكر البيان أيضاً أن مسؤولين أمنيين بالدرجة الأولى تفحصوا الرحلات السعودية، ولكن تفحصها الأف بي أي أيضاً للتثبت من أن الأشخاص المسافرين في هذه الرحلات لا يشكلون تهديداً للأمن القومي".

وأكد بندر: "لم يُسمح لأحد يريده الأف بي أي في ما يتعلق بالتحقيق في 9/11 بمغادرة البلد. المأساة أن لجنة 9/11 تقول ذلك، والأف بي أي يقول ذلك، ولا يزال هناك أشخاص يضعون كتباً تشير إلى أنهم هربوهم"⁸.

وتعزيزاً لهذه الرسالة، ذكر بندر في بيان صحفي كيف برأت اللجنة المملكة العربية السعودية: "وعلى الرغم من اتهامات كريغ أونغر، ومايكل مور، وغيرهما، فإن الأف بي أي يحقق في الرحلات الجوية التي تلت 9/11 وأعادت مواطنين سعوديين، بمن فيهم أفراد من عائلة ابن لادن، إلى الوطن، ولم يغادر أحد ذو صلات بالإرهاب على متن هذه الرحلات".

وواصل البيان الصحفي، "وفقاً للجنة 9/11: أولاً، لم نجد أي دليل على أن رحلات طيران مواطنين سعوديين، محلية أم دولية، جرت قبل إعادة فتح المجال الجوي الوطني في صباح 13 سبتمبر 2001. بل خلافاً لذلك، تمت كل الرحلات التي حددناها بعد إعادة فتح المجال الجوي. ثانياً، لم نجد أي دليل على وجود تدخل سياسي... لم يذكر أي من المسؤولين الذين استجوبناهم أي تدخل أو توجيه في هذه المسألة من أي مسؤول سياسي. ثالثاً، نعتقد أن الأف بي أي أجرى تفحصاً كافياً للمواطنين السعوديين



بندر ووزير الخارجية سعود الفيصل كنييان خلال مؤتمر صحفي في 19 أيلول/سبتمبر، 2001

الذين غادروا الولايات المتحدة على متن هذه الرحلات العارضة. وقد أعلنت الحكومة السعودية بطلبات الأف بي أي تحديد هوية المسافرين والتدقيق فيها مقابل مختلف مواعيد البيانات قبل مغادرة الرحلات ووافقت على ذلك. وتحقق ممثل إدارة الطيران المدني الذي يعمل في مركز عمليات الأف بي أي أن الأف بي أي على علم بهذه الرحلات للمواطنين السعوديين وتمكن من تفحص المسافرين قبل أن يسمح لهم بالمغادرة".

وشدد البيان الصحفي على أن "الأف بي أي استجوب كل الأشخاص الذين يهتّمونه على متن هذه الرحلات قبل مغادرتهم. وخلص إلى أنه لا يوجد أحد من المسافرين على صلة بهجمات 9/11 ولم يُعثر منذ ذلك الوقت على أي دليل لتغيير ما توصل إليه. وقد أكدت مراجعتنا للمواطنين السعوديين المعنيين أنه لم يغادر أحد ذو صلات معروفة بالإرهاب على متن هذه الرحلات"⁹.

أما بالنسبة إلى الحديث الذي دار بين بندر والرئيس، فقد أجاب الأمير أنه تماشياً مع العرف الدبلوماسي: "ما لم يعط رئيس الولايات المتحدة إذناً بالكشف عن مضمونه، وإلى أن يعطيه، فإني لا أستطيع أن أفعل ذلك"¹⁰.

تضررت أجواء العلاقات الأميركية السعودية بشدة. فقد كان امتداح المملكة العربية السعودية في الكابيتول هول يؤدي إلى النقد. وكما قال السفير فريمان عند التعليق على الوضع العام في الولايات المتحدة: "إن قول أي شيء لطيف عن المملكة العربية السعودية يستدعي التوبيخ. في حين أن قول أي شيء قاسٍ يكسب النقاط"¹¹. وكان تمجّم الكونغرس ووسائل الإعلام الأميركية على المملكة العربية السعودية، والتهجّم المقابل لقادة الرأي ووسائل الإعلام السعودية على الولايات المتحدة هداماً بطبيعة الحال. فقد أزعجت التقارير المبالغ فيها ومزاعم التآمر المتحيّزة كلا البلدين وساعدت المتطرفين¹². وساد التملل من المملكة العربية السعودية، والدافع لتحميلها المسؤولية عن الإرهاب في العالم أجمع، لا سيما أحداث 11 سبتمبر.

لاحظ السفير ريتشارد مورفي أن الهجمات أطلقت تياراً متواصلاً من الاتهامات ضدّ الرياض، عندما ظهر على السطح استياء واشنطن المضمّر منذ أمد طويل من المملكة العربية السعودية¹³.

لكن، في أعقاب إدانة بندر الرسمية للهجمات الإرهابية الفظيعة في 9/11، والبيان أن المملكة ليست غير متورّطة في هذه الهجمات فحسب، بل إنها ستفعل أيضاً كل ما يلزم لإلحاق الهزيمة بالقاعدة والإرهاب، صدر بيان من وزير الداخلية السعودية الأمير نايف. ادّعى الأمير نايف أن الصهاينة مسؤولون عن هجمات 9/11 الإرهابية قائلاً: "إننا نضع علامات استفهام كبيرة ونسأل من ارتكب أحداث 11 سبتمبر ومن استفاد من هذه الأحداث؟ أعتقد أن الصهاينة يقفون وراء هذه الهجمات"¹⁴. أغضب هذا الزعم المدهش الولايات المتحدة. وفي مقابلة عن 9/11، ذكر تيم روسيرت بندر أن ولي العهد الأمير عبد الله قال أيضاً عبر التلفزيون السعودي أن الصهاينة يقفون وراء الهجمات. فردّ بندر: "الصهاينة ليسوا وراءها. لقد هزّنا 9/11 من جذورنا. إنّه عمل شرّير نفّذه أشرار كانوا يستهدفون بلدكم لكنهم يستهدفون العلاقة بين بلدينا أيضاً". لكن الضرر وقع بالفعل.

تواصلت المزاعم بشأن التواطؤ السعودي في 9/11. هل ساند أعضاء من العائلة المالكة السعودية الهجوم الذي شنته القاعدة؟ هل دفعت المملكة العربية السعودية إلى القاعدة لحماية نفسها من الهجمات الإرهابية¹⁵؟ وهل تصل التبرّعات الخيرية داخل المملكة إلى الإرهابيين؟ وهل المدارس الإسلامية التي تموّلها المملكة العربية السعودية تعلم

ثقافة معادية لليهود وتوفّر أرضاً خصبة للإرهابيين؟ وهل تمتنع المملكة عن التعاون مع "السي آي أيه" و"الاف بي آي؟". كان فحوى التغطية الإعلامية ييثر رائحة بشعة من اللاتسامح الثقافي والديني.

سعى بندر بشكل متكرّر لإبعاد الإسلام عن أسامة بن لادن والقاعدة و9/11 قائلاً: "يمكنني أن أوكد لكم أن هؤلاء الأشرار التسعة عشر الذين ارتكبوا جريمة 9/11 لا يمثلون الإسلام"¹⁶. كما ردّ بندر بحدّة على الإيحاء بالتواطؤ السعودي في 11 سبتمبر بقوله: "إن فكرة قيام الحكومة السعودية بتمويل 11 سبتمبر أو تنظيمه أو حتى إنها كانت تعرف به حقودة وكاذبة بشكل صارخ"¹⁷. وذكر بندر أيضاً: "في 9 أو 10 سبتمبر 2001، كان الأشخاص الذين تسميهم المملكة العربية السعودية إرهابيين يُسمّون في الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية عموماً منشقين. وفي 12 سبتمبر 2001، سمّت الولايات المتحدة وأوروبا الأشخاص أنفسهم إرهابيين وسألنا، لماذا لا تفعلون شيئاً حيالهم؟"¹⁸. وفي توضيح متأخّر للتحديات التي تواجه السعوديين، سأل بندر: "أصبحت الأولوية: أين نركز؟ محاربة الإرهابيين، أو محاولة الإمساك بأموالهم، أو شرح موقفنا إلى الشعب الأميركي، إلى ما هنالك"¹⁹.

أعطيت نظريات المؤامرة مزيداً من الصدقية عندما أصدر الكونغرس تقريراً عن 9/11 يريّ المملكة العربية السعودية ويقول: "لم نعثر على أي دليل أن الحكومة العربية السعودية كمؤسسة، أو مسؤولين كبار داخل الحكومة السعودية، مولّوا القاعدة". لكن تمّ التعتيم على بعض صفحاته. وقال السيناتور بات روبرتس (جمهوري عن كانساس)، رئيس لجنة مجلس الشيوخ للاستخبارات، إن ثمانين وعشرين صفحة في تقرير من تسعمئة صفحة قد حرّرت لتجنّب إحراج المملكة العربية السعودية²⁰.

طلب بندر من البيت الأبيض الكشف عن محتوى هذه الصفحات بقوله: "أولاً انتقدتنا مصادر مغلقة. والآن نُنتقد بأوراق فارغة. فبعض الأشخاص يستخدمون ثمانين وعشرين صفحة مشطوبة من تقرير من تسعمئة صفحة للطعن في بلدنا وشعبنا. ليس لدى المملكة العربية السعودية ما تخفيه. ويمكننا التعامل مع الأسئلة في العلن، لكن لا يمكننا الردّ على أوراق فارغة"²¹.

اعتُقد أن لبّ الثماني والعشرين صفحة يبحث في الصلات بين الخمسة عشر خاطفاً سعودياً والحكومة السعودية وعملائها. وظنّ أنّ الصفحات ربما تشير إلى الدعم

المالي الذي أفيد أن الأمراء السعوديين الكبار قدّموه إلى ابن لادن من أواسط التسعينيات، التمويل الذي يزعم أنه ساهم إلى حدّ ما في اختيار القاعدة أهدافاً أميركية بدلاً من أهداف سعودية. واعتُقد أيضاً أنّ تلك الصفحات تحتوي على معلومات استخباراتية جُمعت سرّاً، ربما عبر جهاز استخبارات أجنبي آخر. وكشف المعلومات قد يعرّض العمليات المستمرة للخطر. واكتفى بوش في رفضه الكشف عن هذه المعلومات بالقول إنّ نشر هذه الصفحات "يساعد العدو"²².

ازدادت الشكوك بشأن المملكة الخليجية²³. وعندما كشفت وكالة الصحافة الفرنسية أنّ الأوراق السرية تتعلّق بالسياسة السعودية لدعم الأصولية، واللامبالاة تجاه شبكة القاعدة الإرهابية على الرغم من التنبيهات الأميركية، والإيجاء أنّ عمر بيومي، وهو شريك لاثنين من الخاطفين، قد يكون عميلاً حكومياً سعودياً، تلقت المملكة ضربة أخرى²⁴. مع ذلك أصرّ بندر على أنّ "القاعدة جماعة تسعى لتدمير المملكة العربية السعودية فضلاً عن الولايات المتحدة. فبأي منطق ندعم جماعة تحاول قتلنا؟"²⁵. وعلى الرغم من تبرئة المملكة في تقرير الكونغرس، فإنّ نظريات المؤامرة لم تختف.

قال أحد المسؤولين الأميركيين: "إنّه أمر مزعج حقاً. فهو لا يقول إنّ جهات أو مواطنين سعوديين متورطون في 9/11 فحسب، بل الحكومة [السعودية] أيضاً". ويبدو أنّ ذلك ما أكّده عادل الجبير، مستشار ولي العهد السعودي الأمير عبد الله للسياسة الخارجية^(*)، الذي قال في مقابلة إنّ هناك آلاف الأفراد في العائلة المالكة، ومع أنّ تحقيقاً حكومياً داخلياً كشف "أخطاء ارتكبها بعضهم"، فإنّ مثل هذه الأخطاء ليست جزءاً من أي مؤامرة حكومية بالتأكيد²⁶. وتقدّمت مجلّة نيو ريبابلك بذلك خطوة إلى الأمام مشيرة إلى أنّ الأوراق المشطوبة تُحمل "الصلات بين مخطّط خطف الطائرات ومستويات عالية جداً في العائلة المالكة السعودية". ونقلت أيضاً عن مسؤول لم تكشف عن اسمه قوله: "هناك الكثير في الصفحات الثماني والعشرين غير المال. الكل يطارد المؤسسات الخيرية. وعليك ملاحقة الصلات المباشرة بمستويات عالية في الحكومة السعودية. إنّنا لا نتحدّث عن عناصر مارقة، بل نتحدّث عن شبكة منسّقة تصل الخاطفين مباشرة بأماكن عديدة في الحكومة السعودية. وإذا عُرضت الأوراق

(*) عيّن مؤخراً سفيراً للمملكة العربية السعودية في واشنطن بعد استقالة الأمير تركي الفيصل من منصبه - المترجم.

الشماني والعشرون على الملأ فليس لدي أدنى شك في أن العلاقة بأكملها مع المملكة العربية السعودية ستتغير بين ليلة وضحاها"²⁷.

لكن تلك العلاقة تغيرت بالفعل. وكما قال بندر: "رأيت كل شيء قمت به طوال ثماني عشر سنة في هذا البلد ينهار أمام عيني"²⁸.

على الرغم من تبرئة لجنة 9/11 المكوّنة من الحزبين، استمرّ تردّد موجات الصدمة الناتجة عن هجمات القاعدة الإرهابية المروّعة التي دمّرت مركز التجارة العالمي في نيويورك، وأحدثت أضراراً في مبنى البنتاغون في واشنطن دي سي، وشكّلت وسائل الإعلام الأميركية مركزها محدثة عاصفة من المشاعر المناوئة للمملكة العربية السعودية. وقد زعم سايمور في عرض حظي بقراءة واسعة في مجلة نيويورك، مدعوماً بتسريبات من "مسؤول في الاستخبارات" لم يكشف عن اسمه، أن النظام السعودي "انتقل إلى الجانب المظلم"²⁹.

وفي صفحات الرأي في الصحف في كل أنحاء البلاد، ردّد مثقفون غاضبون اللازمة ذاتها³⁰. وأطلقت قصص عن وجود بندر على شرفة ترومان، والمؤامرات المتصوّرة من وجود صلات أعمال بين بوش والسعوديين، لا سيما مجموعة كارلايل^(*)، وخروج أفراد عائلة ابن لادن، موجة من الإدانات بشأن خيانة السعوديين في الحرب على الإرهاب³¹.

في فيلم "فرنهايت 9/11"، تطرّق مايكل مور إلى العلاقة بين بندر وعائلة بوش. وقد اشتّم من فيلم مور الذي تعرّض لقمع مفهوم قبل الحملة الانتخابية القادمة إثارة العواطف على غرار وسائل الإعلام. وقيل إن الرئيس بوش وصديقه بندر: "السفير المعروف في العائلة باسم بندر بوش، حاولا تغطية مدى التورّط السعودي في الإرهاب. لكن الحقيقة التي كشفها السيد مور هي أن السيد بوش... متورّط بعمق، مالياً وشخصياً، مع النخب الأجنبية، ومع السعوديين على وجه التحديد"³².

تكرّر تصوير علاقة بندر ببوش في وسائل الإعلام الأميركية أنها عقبة في وجه العدالة والحرب على الإرهاب. "ما دام آل بوش في الحكم، لن يستطيع أحد تسمية الأشياء بأسمائها. إن العائلة المالكة السعودية ترعى الإرهاب وتشره، ويجب وضع حدّ لذلك"³³.

(*) مجموعة كارلايل شركة عالمية خاصة. كان وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر كبير المحامين فيها، وجورج إيتش دبليو بوش من كبار مستشاريها منذ 9/11.

وفي الحملة الدعائية التي أعقبت الفيلم، أعلن مور أنه لم يكن يعترم صنع فيلم سياسي. غير أنه تخلّى عن حذره عندما أجرى معه مات لور مقابلة في برنامج "ديت لاين" على محطة "أن بي سي". فعندما سئل: "أليس هذا الفيلم هجوماً مباشراً على جورج دبليو بوش؟". اعترف مور ضاحكاً: "إذا عبّرت بتلك الطريقة، نعم إنه كذلك بالطبع".

في هذا الوقت سعى صوت عاقل منفرد للبروز وسط المناخ المعادي للمملكة العربية السعودية. ففي تبادل للرسائل الإلكترونية مع كريغ أونغر^(**)، المناوئ الملتزم لبوش، والمعادي لآل سعود، حاولت راشيل برونسون شرح خلفية الاجتماع بين الرئيس وبندر على شرفة ترومان بعد 9/11 مباشرة: "لنحرص على وضع الأمور في نصابها. كان اجتماع 9/13 مقرراً قبل 9/11. ففي صيف 2001، كانت الحكومتان السعودية والأميركية منهماكتين في نزاع صاخب بشأن سياسة بوش تجاه إسرائيل. وفي أغسطس 2001، هدّد ولي العهد السعودي بقطع العلاقات. وردّ بوش برسالة إلى ولي العهد يعبّر فيها عن اعتقاده بوجود حصول الفلسطينيين على دولة... وكان اجتماع 13 سبتمبر معداً للتحديث عن القضية الفلسطينية الإسرائيلية. وقد أهمل جدول الأعمال بطبيعة الحال بعد 9/11. فهناك مشاكل أكثر إلحاحاً للتحديث بشأنها"³⁴.

تلعب وسائل الإعلام دوراً هائلاً في التطوّرات على المسرح العالمي. فهي مسؤولة إلى حدّ كبير عن استغلال الفجوة الثقافية، والجهل وسوء الفهم الناتجين عنها بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة. وقد تأمل بندر في هذا الموقف المعقد بطريقة مرحة عندما قال: "إننا ثقافتان مختلفتان؛ الرئيس يوقع كلبه، فيتصدّر ذلك الأخبار في كل أنحاء أميركا. وفي المساء يجلّل الأمر، هل أوقعه عمداً؟ هل كان يمسك بأذنيه؟ هل ركله؟ ليست لدي مشكلة في ذلك. فأنا بعد عشرين عاماً أستمتع في الاستماع إلى هذه الأشياء". إن أسلوبه تقدم الأخبار مختلفان جداً في وسائل الإعلام الأميركية والسعودية. ففي حين تفحصت وسائل الإعلام الغربية التدابير التي

(**) في مقال، "إنقاذ السعوديين" في مجلة "فانتي فير" في أكتوبر 2003، انتقد غريغ أونغر بشدة ترحيل المواطنين السعوديين بعد 11 سبتمبر. وهو أيضاً مؤلف كتاب "آل بوش وآل سعود: العلاقة السرية بين أقوى عائلتين حاكميتين في العالم (House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship Between the World's Two Most Powerful Dynasties (New York: Scribner, 2004).

اتخذت في أعقاب 9/11 بتفصيل شديد، فإنه يتم الإفادة عن بنود شديدة الأهمية من الأخبار بطريقة عابرة في المملكة العربية السعودية ويمكن ألا تحظى بأي اهتمام في وسائل الإعلام الغربية. وأوضح بندر: "في المملكة العربية السعودية، هل أمسكنا بالخمسة بالمئة الذين ينفذون الأعمال السيئة، الخمسة بالمئة الفاسدين؟ نعم، انتهى النقاش، ولم يعد ذلك خيراً. لتتابع حياتنا؛ وليعاقب من تجب معاقبته، وليُعد إلى المجتمع من يعلن توبته. ما أقصد أن أقوله أننا نعبر عن أنفسنا بطرائق مختلفة".

يرز الخطر عندما تصبح وسائل الإعلام منحازة وتبدأ بتقديم التقارير عما تريد سماعها فقط. وقد علّق بندر المحبط على تأثير ذلك في بلده: "ما يثير غضبي هو أن رئيس الولايات المتحدة يقول، *إنهم أصدقاؤنا ويتعاونون معنا*. ويقول وزير الخارجية، ووزير الدفاع، ومستشارة الأمن القومي، ومدير السي آي آيه، ومدير الأف بي آي الشيء نفسه، ولا يشكّل ذلك خيراً. ويقول مسؤول كبير في الأف بي آي، *إنهم لا يتعاونون فيكون ذلك هو الخير*. فتسأل نفسك أحياناً، من الذي يدير هذه الحكومة اللعينة؟"³⁵

وقد أيد روبرت جوردان، السفير الأميركي في المملكة العربية السعودية، هذه الفكرة باختصار عندما عبّر عن إحباطه من وسائل الإعلام بقوله: "سئمت من الأخبار الأميركية المضلّة عن عدم التعاون السعودي في الحرب على الإرهاب". ووصف التقارير أنها غير صحيحة واتهم بعض المراسلين الأميركيين بالبحث عن كبش فداء³⁶. غير أن وسائل الإعلام حصلت على شيء آخر. فقد كشف أن الشيكات الموقّعة من قبل زوجة بندر، الأميرة هيفاء، والمسلمة كمعونة خيرية إلى أمّ أردنية لستة أطفال، ماجدة إبراهيم أحمد، قد صُرّفت في الواقع واستُخدمت لتمويل اثنين من إرهابيي 9/11، خالد المحضار ونواف الحزمي³⁷.

أثار الكشف عن هذه القنبلة صحباً. فهذا المال الذي كان يهدف إلى دفع تكاليف علاج حالة الغدّة الدرقية عند أحمد، حوّل في الظاهر إلى منظّم أنشطة القاعدة عمر البيومي عبر أسامة باسنان³⁸، الزوج السعودي للمستلمة المسماة. وقد أرسل بندر تكاليف العملية الابتدائية البالغة 15,000 دولار كمعونة في أبريل 1998، وغطّت هيفاء تكاليف متابعة المعالجة بشيكات بقيمة 2,000 دولار في الشهر ابتداء من نوفمبر 1999 وانتهاءً بمayo 2002³⁹. ولم يلتق بندر ولا زوجته بتلك المرأة قطّ.

قد يبدو من غير العادي بالنسبة إلى الغربيين أن تنتقل هذه المبالغ من يد إلى أخرى بطريقة اعتباطية. لكن كما أوضح أحد النقاد: "التبرّعات الخيرية للمحتاجين واجب على المسلمين ويخصّ عليها القرآن؛ وتتصدّق الأميرة هيفاء وزوجها بالكثير"⁴⁰. وأوضحت الأميرة هيفاء كمسلمة متديّنة: "يدعوننا ديننا إلى التصدّق على المحتاج، وهو من الأشياء التي لا يعلن عنها؛ فأنت تقدّم المساعدة فحسب، ويكتب لك ذلك"⁴¹.

قالت ميمي بورك، سكرتيرة السفارة السعودية في ذلك الوقت: "أقحمت هيفاء في الصحف، وكان ذلك فظيلاً"⁴². فهي أمّ لثمانية أولاد وجدّة لاثنتين، ولعلّها من أكثر الأهداف التي يمكن أن تتناولها الصحف تعرّضاً للانجراح. فخلافاً لشخصية زوجها الاجتماعية، كانت هيفاء تؤثر عدم حضور مادب العشاء الرسمية، وتتجنّب التصوير لأسباب ثقافية. وقد أفاد فيكتور شيلبي، محرّر صحيفة واشنطن ديلومات، أنّ المسؤولين السعوديين يطلبون تقليدياً ألا تصوّر صحيفته الأميرات في الأحداث العامّة⁴³.

صدمت الأميرة هيفاء بالأحداث العلنية جداً التي أحاطت بعملها الخيري، فأبلغت صحيفة نيويورك تايمز: "أقل ما يمكن أن أقوله هو أنني أغضب عندما يعتقد بعض الأشخاص أنني مرتبطة بالإرهابيين، فيما كان كل ما أريده هو تقديم بعض المساعدة لمن يحتاج إليها"⁴⁴. وكان لدى الأميرة هيفاء سبب وجيه لشعورها بالغضب. فقد أوضحت في أحد التصاريح: "إتني أجد الاتهامات أنني تبرّعت بالأموال إلى الإرهابيين فظيعة وغير مسؤولة البتة. لقد قُتل والدي، الملك فيصل، في عمل إرهابي. هذا وقت يجدر أن يجتمع فيه الناس معاً لمحاربة بلية الإرهاب لكي لا يعاني الآخرون من فقدان أحبائهم"⁴⁵.

على الرغم من احتجاجات الأميرة هيفاء، واصلت الصحافة عنادها وقسوتها. وفي إحدى فورات النقد اللاذع المعهودة، كتب مات ولش في صحيفة ناشيونال بوست الكندية، "إتني أسمى أوّل مرشّحين للطرد من البلد: الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي في الولايات المتحدة، وزوجته الأميرة هيفاء الفيصل"⁴⁶.

عن تألم الأميرة هيفاء من الحادثة، تذكر ميمي بورك: "كان من الصعب جداً اجتياز تلك السنة، لكنّها حافظت على المصالح الخيرية لمؤسسة موزاييك؛ لقد قلبت الأمور حقاً وجعلت منها منبراً عظيماً للشرق الأوسط بأكمله عقب 9/11". فالأميرة

هيفاء ترأس مؤسسة موزاييك التي أسستها زوجات السفراء العرب في سنة 1998. وهي تجمع الأموال لقضايا أميركية ودولية. وأضافت بورك: "احتشد الجميع خلفها وأظهروا دعمهم لها؛ وقد عني ذلك الكثير لها"⁴⁷. مع ذلك كان لهذا الأمر انعكاسات سلبية في الصحافة، عندما اكتشفت أن باربرا بوش وألما باول - وكلاهما صديقتان مقربتان من الأميرة هيفاء - اتصلتا وعبرتتا عن تأييدهما لها وتعاطفهما معها. فقد فسّرت هذه الأعمال التي تنم عن الصداقة في صحيفة نيويورك تايمز بهذه الطريقة: "غير أنّ أكثر عروض الإدارة إحراجاً جاء من الجانب النسائي"⁴⁸.

دافع كولن باول أيضاً علناً عن الأميرة هيفاء وزوجها قائلاً: "إنّهما صديقان قديمان لي، وأعتقد أنّ من المستبعد جداً أن يقدم الأمير بندر أو الأميرة هيفاء المال إلى أفراد أو منظمات تقوم بأنشطة إرهابية". وأضاف ملاحظة نبهة موجهة بوضوح إلى التغطية الكثيفة للصحافة: "أعتقد أنّه يجب النظر إلى هذه المسألة وسماع آراء كل الأطراف، ومعرفة ما هي المعلومات والأدلة قبل أن يسرع الأشخاص إلى استنتاج حدوث خطأ أم لا"⁴⁹. غير أنّ أحداً لم يكثرث لنصيحة باول، فعلى الرغم من تقرير صحيفة نيويورك تايمز في أواخر سنة 2002 أنّ الأف بي آي لم يجد أي دليل على أنّ المال ذهب إلى الخاطفين⁵⁰، وعلى الرغم من أنّ لجنة 9/11 برأت ساحة الأميرة هيفاء أيضاً بقولها إنّها لم تجد أي دليل على أنّها قدّمت المال "بصورة مباشرة أو غير مباشرة" إلى مؤامرة 11 سبتمبر⁵¹، فقد وقع الضرر بالفعل. كان الضرر الذي لحق بالعلاقات الأميركية السعودية حاداً. وغيّرت الدعاية السلبية الرأي العام الأميركي تماماً تجاه المملكة العربية السعودية. وأفادت صحيفة واشنطن بوست أنّ 54 بالمئة من الأميركيين ينظرون إلى المملكة العربية السعودية على أنّها دولة تدعم الإرهاب، مقارنة بنحو 35 بالمئة فقط لديهم اعتقاد مماثل عن سوريا، وهي دولة لا تزال على لائحة وزارة الخارجية للدول الداعمة للإرهاب منذ 29 ديسمبر 1979⁵². وأعلنت الصحيفة أيضاً أنّ مهاجمة السعوديين بلغت مرحلة مثيرة للسخرية، وكتبت أنّ ربط الأميرة هيفاء بإرهابي 9/11 كان "واهياً جداً ولا أساس له بحيث يعادل محاكاة ساخرة للذنب بالارتباط". ورأت بعد ذلك أنّ هذه الإثارة المحمومة ضدّ المملكة "ما هي إلا آخر مثال على ارتكاب الكونغرس والبيروقراطية الفيدرالية عملاً غير مسؤول، وقيام وسائل الإعلام بنشره ليس إلا"⁵³.

خلال جولة لإلقاء محاضرات تهدف إلى تقديم الآراء السعودية بشأن 11 سبتمبر، أكد بندر أن "مأساة وجريمة 9/11 كان لها هدف واحد: دقّ إسفين بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية"⁵⁴. وبعد ذلك بشهر، في أعقاب نشر تقرير لجنة 9/11، صرّح الأمير: "أكدت لجنة 9/11 ما كنّا نقوله طوال الوقت. لقد كشفت البيانات الواضحة لهذه اللجنة المستقلة المشكّلة من الحزبين زيف الخرافات التي نشرت الشكوك والمخاوف من المملكة العربية السعودية"⁵⁵.

أوجز السفير الأميركي السابق في المملكة العربية السعودية، تشاس دلبليو فريمان، ما تسرّعت وسائل الإعلام في استغلاله عندما قال: "ثمة انفصال كبير بين المزاج الشعبي والمصلحة القومية"⁵⁶. فدائرة النفوذ السعودي في الولايات المتحدة، وأفضل وصف لها هو التأثير الهرمي، الذي ازداد كثيراً وتضخّم في أثناء وجود بندر كسفير، كانت محدودة على العموم بالطبقات العليا من المجتمع الأميركي؛ أي أنّ التأثير كان من الأعلى إلى أسفل.

بعبارة أخرى: "تحتاج المملكة العربية السعودية إلى التأثير في القلّة التي تؤثر في الكثيرة، بدلاً من الحاجة إلى التأثير في الكثرة التي تستجيب لها القلّة"⁵⁷. أخذت هذه الملاحظة من استراتيجية جي كروفورد كوك المقترحة للعلاقات العامّة ووسائل الإعلام الخاصة بالمملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة الموضوعة قبل عدّة عقود، وهي الاستراتيجية التي اتبعها بندر بثقة في الأشهر التي أعقبت 9/11. وتعكس ملاحظات كوك بدقة طبيعة العلاقة السعودية الأميركية - الطاقة للأمن - التي تشمل الفاعلين فقط في السياسة الخارجية على العموم.

أدّى 9/11 إلى تحطيم هذا النظام الهرمي الهشّ. سحب البساط من تحت المملكة العربية السعودية وتحويل جهل الشعب الأميركي للمجتمع السعودي والدين الإسلامي، فضلاً عن صداقتها الطويلة مع القيادة الأميركية ضدها. لذا صار من المهمّ بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية الوصول إلى الشعب الأميركي، وشرح الطبيعة الحقيقية للإسلام والثقافة العربية، قبل أن تبدأ الصور النمطية الخطيرة بالإجابة عن العديد من الأسئلة التي أثارها هجمات 11 سبتمبر في الوعي العام.

هذه الأسئلة، إلى جانب عدم اتصال المملكة العربية السعودية سابقاً بالشعب الأميركي، فتحت الباب أمام تخمينات ووسائل الإعلام المقيّنة والخبثية في الغالب. وكما

أشار السفير تشاس فريمان: "نجح تشويه صورة المملكة العربية السعودية في أعين الرأي العام الأميركي... وقد تحقق ذلك لأن العلاقة السعودية الأميركية كانت ذات قاعدة ضيقة أساساً، وليست لديها وسائل إعلام جماهيرية أو بعد جماهيري واسع... وأخذ 9/11 هذه العلاقة ذات القاعدة الضيقة وفجأة جعل الشعب في كلا البلدين شديد الاهتمام لها"⁵⁸.

ولاحظ مارك بيرلمان في صحيفة ذا فوروارد أنه قبل 9/11، "كانت المملكة العربية السعودية معروفة أساساً كأحد الحلفاء العرب المعتدلين للولايات المتحدة ومصدرها الرئيسي للنفط. والآن تُصوّر على أنها مكان استيلاء الإرهابيين والقناة المالية للإرهاب الإسلامي"⁵⁹. ولاحظت صحيفة لوس أنجلوس تايمز أيضاً أن "المشرّعين ووسائل الإعلام شنّوا أشرس الهجمات [ضدّ السعوديين]، بما في ذلك الصفحات الافتتاحية في وول ستريت جورنال وواشنطن تايمز وويكلي ستاندرد، بالإضافة إلى أعمدة المعلقين البارزين من المحافظين الجدد مثل غافني وتشارلز كروثامر من واشنطن بوست، الذين تربطهم علاقات وثيقة بحزب الليكود الإسرائيلي الذي لطالما نظر إلى تحالف الرياض مع واشنطن بمثابة تهديد استراتيجي"⁶⁰. وقد ضخمت تعليقات الطرفين الصحفية المخاوف السعودية من وجود تلاعب متنامٍ وخطير في موقف العلاقات العامة في الولايات المتحدة لمصلحة إسرائيل. ومما لا شك فيه أن اللوبي الإسرائيلي استفاد من عواقب 9/11 المعادية للعرب والتي أذكتها وسائل الإعلام؛ فقد ضعف أكبر خصومها، اللوبي العربي، بشدّة في أعين الجمهور. وعانت العلاقة الأميركية السعودية من توتّر هائل.

في وجه هذه السلبية الشديدة التي تتردّد في كل الصحافة الأميركية، ومع الاعتقاد الذي يجيش منذ مدة طويلة في أوساط العرب أن وسائل الإعلام الأميركية تخضع لسيطرة الجالية اليهودية، ومثليها في المنظّمات الصحفية، أنتجت بذرة الاستياء هذه، نظرية مفادها أن اللوبي اليهودي ومؤيديه ينظمان هجوماً صاعقاً في وسائل الإعلام ضدّ المملكة العربية السعودية⁶¹. وشعر العديد من المسؤولين السعوديين أن "الجماعات المعادية للمملكة العربية السعودية وغيرهم ممن لديهم ارتباطات باللوبي الصهيوني في واشنطن يسعون لتأليب الرأي العام الأميركي على المملكة العربية السعودية والعرب والمسلمين"⁶².



السفير
ريتشارد مورفي

أوضح السفير الأميركي الأسبق في المملكة العربية السعودية ريتشارد مورفي كيف كانت الصحافة الأميركية تُحدث مناخاً من عدم الثقة داخل المملكة العربية السعودية، ويبرز مستوى الاستياء الذي يشعر به السعوديون من الهجوم المتواصل منذ هجمات 9/11. ورأى أنّ هذا الهجوم أكّد أسوأ مخاوفهم لأنهم مقتنعون تماماً من أنّ اليهود يسيطرون على وسائل الإعلام الغربية⁶³. أيا تكن الحقيقة، فقد أثبت 9/11 أنّه عامل مُحفّز لضعف سوء فهم الشريكين المختلفين جداً في العلاقة الأميركية السعودية.

وكما لاحظ بندر بجزن: "إنّ أخطر وأشر ما

في 9/11 هو أنّه لأول مرة يهزّ الثقة القائمة بين الشعبين السعودي والأميركي"⁶⁴. وعلّق الرئيس الأسبق جيمي كارتر على الشعور المتنامي في الولايات المتحدة أنّ "السعوديين ليسوا أهلاً للثقة كما كنّا نعتقد سابقاً في حماية أنفسهم وحمائتنا من تهديد الإرهاب. فلا يزال هناك في الواقع إحساس أنّ الحكومة السعودية تواصل بالسّرّ تمويل عناصر في المملكة العربية السعودية تدعم الجماعات الإرهابية"⁶⁵. بل إنّ الصحافة حمّنت أنّ السعوديين دفعوا إلى الجماعات الراديكالية لترك المملكة العربية السعودية وشأنها. وعندما بحث ذلك مع الدكتور هنري كيسنجر، تحدّث عن دور الصحافة المحوري في انعدام الثقة العامّ في العلاقات الأميركية السعودية. وأرجع جانباً كبيراً من ذلك القلق إلى المدارس الدينية المحافظة جداً، وتدفق الأموال السعودية التي وجدت طريقها إلى القاعدة؛ غير أنّه أقرّ أيضاً أنّ الحكومة السعودية قد أحكمت ضوابطها المالية كثيراً، وأنّ النظام السعودي يعمل على تصحيح القضايا الرئيسية. وأعرب كيسنجر عن اعتقاده أنّ السعوديين "يسعون بصدق لتحسين الأمور"⁶⁶.

عندما سئل بندر في مقابلة عن أموال الحماية السعودية المحتملة التي دُفعت إلى القاعدة، أجاب ببساطة: "إنّها قصة جذّابة. وأعتقد أنّها قصة ممتعة. لكنّها غير صحيحة". ومضى ليشرح بشكل واضح: "إنّها غير صحيحة لأننا لم نقلق البتة بشأن

تأثير هذه المنظّمات في بلدنا. ربما دفعنا إلى أشخاص لأسباب أخرى. على سبيل المثال، عندما نشبت مشاكل بين الفلسطينيين والأردنيين، ربما قلنا، خذوا هذا، وخذوا ذلك. فضّوا الاشتباك، وليترك كل منكما الآخر. وربما دفعنا إلى أشخاص آخرين ليتحوّلوا من ثورين إلى مواطنين جيّدين. لكننا لم ندفع البتة. بمعنى حماية نفسي؛ دعني وشأني⁶⁷.

وقد أصدر عادل الجبير بياناً يتناول الدور الذي يضطلع به آل سعود في الحرب على الإرهاب ويقول: "إننا لا نلاحق الإرهابيين فحسب، وإنما أيضاً نلاحق الأموال والعقلية اللتين تدعمهما أو تتغاضيان عن أعمالهم"⁶⁸. وكدليل على ذلك وعلى تأكيدات كيسنجر أنّ السعوديين يقومون بالفعل بعمل حاسم وفعال، أوقف آلاف الأئمّة الذين انتهكوا منع الدعوة إلى عدم التسامح عن العمل أو أحيّلوا إلى التدريب، كما طوّرت الكتب الدراسية والمناهج.

وفي مواجهة المزاعم المستمرة المتعلّقة بالتمويل السعودي للإرهاب، ذكر بندر محاوريه: "قبل سنة أو اثنتين، كانت المملكة العربية السعودية هي التي جاءت وخبطت على الطاولة في واشنطن قائلة، لقد تعقبنا أموالاً يفترض أنّها ذاهبة إلى الأعمال الخيرية، لكننا لا نعرف إلى أين تذهب. ويمكننا أن نتعقبها إلى أوروبا وسويسرا، لكن ما إن تصل إلى أميركا حتى نفقد أثرها. لكنهم قالوا لنا إنّهم لا يستطيعون التدقيق في هذه الحسابات. بموجب القانون"⁶⁹.

أحدث المناخ السائد منذ 9/11 ثورة في النهجين السعودي والأميركي في تعقب الأموال، ويتعاون البلدان معاً تعاوناً وثيقاً. وأكد موظّف في وزارة الخزانة الأميركية "أننا أنشأنا علاقة عمل وثيقة مع السعوديين للتعامل مع تمويل الإرهابيين على وجه الخصوص"^(*). بل لاحظ تقرير صادر عن الفريق الخاص للعمل المالي أنّ الأنظمة السعودية المطبّقة حديثاً للتشديد على إساءة استخدام الجمعيات الخيرية في المملكة "ربما تتجاوز ما هو معمول به في أي بلد في العالم"⁷⁰.

أكد جيمس بيكر هذا الشعور مشيراً إلى أنّه عمل مع السعوديين خلال أربع إدارات بصفات مختلفة، وشدّد على أنّ السعوديين "أصدقاء جيّدون لنا"، وحرص على إبراز الروابط القوية التي تكوّنت في أثناء حرب الخليج الأولى والدعم الذي لقيناه من

(*) خوان سي زارات، نائب مساعد الوزير، المكتب التنفيذي لتمويل الإرهابيين والجرائم المالية، وزارة الخزانة الأميركية.

المملكة العربية السعودية. ومع ذلك، وعلى ضوء النفور الذي أبداه الجمهور ووسائل الإعلام الأميركية تجاه المملكة في أعقاب 9/11، شدّد بيكر على أنّ السعوديين بحاجة إلى تحسين صورتهم العامة⁷¹.

وعندما سئل الرئيس الأسبق كارتر عن شعوره بشأن منحى العلاقات الأميركية السعودية في أعقاب أحداث 9/11 المرّوعة، قال بصراحة: "أعتقد أنّ العلاقة بين العائلة المالكة السعودية والحكومة الأميركية - أي مع الرئيس ونائب الرئيس ووزير الدفاع - جيّدة جداً". وتابع قائلاً: "أجد أنّ لدينا ولدى السعوديين سبباً مشتركاً ومبرّراً لمكافحة الإرهاب، لكنني أرى أيضاً أنّ بعض الإسلاميين المتشدّدين مرتبطون بالأعمال الإرهابية. وأنّ خمسة عشر من التسعة عشر الذين قاموا بهجمات 9/11 من المملكة العربية السعودية، وتلك حقيقة لا يزال يتذكّرها الكثير من المواطنين". وبعد إجمال المخاوف المشتركة التي برزت بعد 9/11، خلص الرئيس الأسبق: "لكنّ إحساسي الشخصي بالصدّاقة والولاء امتناناً للمملكة العربية السعودية لم يفتر"⁷².

في تيرئة المملكة العربية السعودية من الادّعاءات أنّها ساعدت على تمويل هجوم القاعدة، ذكر تقرير لجنة 9/11: "لم نجد أي دليل على أنّ الحكومة السعودية كمؤسسة أو مسؤولين سعوديين كباراً مولّوا المنظمة بشكل فردي"⁷³. يُعتبر زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، كعضو سابق في عائلة سعودية واسعة الثراء والنفوذ، السبب الأساسي للشكوك الأميركية في المملكة العربية السعودية. وغالباً ما تتغاضى الصحافة الأميركية عن أنّ هذا الرمز الدولي للكراهية وانعدام التسامح طُرد من المملكة في سنة 1991 لأنّ معتقداته الخلافية لم تكن موضع ترحاب أو قبول.

في سنة 1994، تيرّأت عائلة ابن لادن من أسامة قانونياً وسحبت منه الجنسية السعودية. وجُمّدت كل أصوله المالية في المملكة منذ ذلك التاريخ فما بعد. وكما أوضح بندر: "اجتمعت عائلته معه، فأبلغهم أنّهم جميعاً منتهكون للمقدّسات، وفاسدون، ... لذا تيرّأوا منه قانونياً، وعندما فعلوا ذلك، سحبت منه الحكومة الجنسية". إنّ عائلة ابن لادن لا تدعم أسامة بن لادن وكذلك المملكة. بل إنّهم يخجلون من إيديولوجيته المتعصّبة. ومع ذلك ثمة في الغرب رابط ملازم يفترض الذنب. لا يمكن إنكار وجود صلة بين أسامة بن لادن والعائلة المالكة السعودية في الماضي؛ غير أنّ ما لا يدركه الجمهور الأميركي هو أنّ الإدارة الأميركية كانت



أسامة بن لادن

متورّطة أيضاً مع هذا الشخص الذي أصبح زعيماً متطرفاً لاحقاً. وكما أوضح بندر في مقابلة مع برنامج فرونت لاين، "كان ابن لادن يأتي إلينا عندما كانت أميركا - وشدد على أميركا - تساعد عبر السي آي آيه والمملكة العربية السعودية، إخواننا المجاهدين في أفغانستان للتخلص من قوات الاتحاد السوفياتي العلمانية الشيوعية. فجاء أسامة بن لادن وقال، شكراً لكم، شكراً لأنكم أحضرتكم الأميركيين لمساعدتنا على التخلص من السوفيات العلمانيين الملحدين" ⁷⁴.

تمّ التغاضي عن أسامة بن لادن عندما كانت الشيوعية تعتبر أعظم الشرور. ولم يكن بالنسبة إلى

السعوديين أكثر من مسبّب للإحراج غير مرحب به. يقول بندر: "لم نعطه البتة الوزن الذي يعطيه إليه الجميع اليوم. كنّا نظنّ أنّه مجرد إزعاج، وأنّه مضرّ بصورة المملكة العربية السعودية والإسلام وعائلته. لم نكن نعتقد أنّه ابن لادن الذي يقوم بكل هذه الأشياء". لم يُشرّ لدي انطباعاً أنّه يمكن أن يكون قائداً لأي شيء. بل إتني في ذلك الوقت اعتقدت أنّه لا يستطيع أن يقود ثنائي بطّات في الشارع".

يحاول بندر في المقابلات إزالة الوهم لدى الجمهور الأميركي عن سلطة أسامة بن لادن وأتباعه في الشرق الأوسط بالقول: "أنتم تجعلون طول قامة هذا الرجل عشرين قدماً... لو كنت قوياً كقوة ابن لادن، ورسالتني قوية كقوة رسالة ابن لادن، وأتباعي كثيراً كأتباع ابن لادن، فلماذا أختبئ في كهف في أفغانستان؟ سأذهب إلى حيث يحسب لي حساب. سأتي إلى المملكة العربية السعودية، وأقود ثورة... وأجعل أتباعي يتولّون السلطة!" ⁷⁵.

أدى 11 سبتمبر إلى قيام أميركا بالطعن في ذلك البلد بدلاً من أن تقدّم إليه الدعم الذي يحتاج إليه لمقاتلة عدوّ مشترك. قبل 9/11، كانت المملكة العربية السعودية تتعرّض للهجوم بسبب سياسات حقوق الإنسان وحرية التعبير، وفي ذلك تعارض أشار إليه بندر بقوله: "يلغني بين الحين والآخر بعض المتذاكين في وسائل الإعلام هنا

[أميركا] أنكم لو تعطون فقط الناس حرية التعبير فلن يذهبوا ويفجروا الآخرين. يا أصدقائي، نحن لم نسمح لهؤلاء القوم بالتحدث لأننا نعرف ما سيقولون، وعندما سمعتموهم يتحدثون، كان 9/11 هو الجواب. لدينا سبب لمنع هؤلاء الأشخاص من التعبير عن آرائهم، لا نريد الأشخاص الذين يثون الحقد والعنف، لكي لا يعملوا أو يعمل بعض الأغرار بها"⁷⁶.

في حقبة ما بعد 9/11، اتضح بسرعة أن بطء الإصلاح في المملكة العربية السعودية لم يعد مقبولاً في واشنطن، وبخاصة في ضوء الموقف العام السلبي تجاه المملكة. وأكد السفير ريتشارد مورفي على أن السعوديين كانوا مترددين حتى بعد 9/11 في التعاون مع السلطات الأميركية، بل إنهم أصرّوا على إنكار وجود مشكلة إرهاب داخل المملكة العربية السعودية. وكانوا بطيئين في الاعتراف أن الإسلام الجهادي يشكل تهديداً. لكن تلقت المملكة ضربة أيقظتها⁷⁷.

لم تغيّر الحكومة السعودية سياستها بشكل جذري، وتوافق على مزيد من التعاون مع الولايات المتحدة إلا بعد وقوع هجوم انتحاري في 12 مايو 2003، حيث تم تفجير ثلاث سيارات مليئة بالمتفجرات في مجمع سكني في الرياض ما أدى إلى مقتل خمسة وثلاثين شخصاً وجرح مئتين. عندئذ، وبعد سنوات من التراخي والتعتيم، بدأ النظام السعودي يتحرك بقوة ضد الإرهاب. وفي اعتراف ملحوظ، قال أحد الشبان السعوديين: "لم يعن 9/11 شيئاً في المملكة العربية السعودية. وبعضهم لم يصدّق أن هناك أي سعودي متورّط فيه؛ واعتقد آخرون أنّها مؤامرة أو أن أميركا تستحق هذا العمل بسبب وقوفها إلى جانب إسرائيل. لقد كان 12 مايو بمثابة 9/11 لدينا. وكان علينا منذ ذلك الحين الإقرار أن القاعدة ليست خيلاً. إنّها هنا"⁷⁸. لقد هزّت تفجيرات 12 مايو الناس وأبعدتهم عن قناعاتهم⁷⁹. وأعلن ولي العهد الأمير عبد الله: "ليس هناك مكان للإرهاب". وتعهد بتدمير الجماعة المسؤولة عن ذلك⁸⁰.

في أعقاب تفجيرات مايو 2003، بدأ السعوديون أخيراً يتعاملون مع المجالات التي تثير المخاوف، واكتسبت الحرب على الإرهاب داخل المملكة زخماً جديداً. أقرّت المملكة العربية السعودية أن هناك سعوديين متورطين، وأنّه قد يكون للقاعدة خلايا في المملكة⁸¹. وبدأت قوات الأمن تطارد هذه الخلايا. وصُرف نحو ألفين من أشدّ رجال الدين تطرفاً، أو ألحقوا ببرامج إعادة تدريب. وبدأ القادة الدينيون يقولون إنّ القاعدة

تخالف التعاليم الإسلامية. وشدّدت المملكة أيضاً على تمويل الإرهابيين، وصارت الآن تمثل بصرامة لمعظم القوانين الدولية المتعلقة بالتمويل. وأغلقت المملكة بعض الجمعيات الخيرية المشبوهة، وجعلت التمويل خارج المملكة مخالفاً للقانون. وبدأت تتعاون مع "الأف بي آي"، و"السي آي أيه" بدرجة أكبر من ذي قبل⁸². وقد دفعت هذه المبادرات توماس ليبمان لأن يكتب: "من الواضح أن المملكة العربية السعودية أصبحت الآن مجتمعاً دينامياً. فهناك مزيد من النقاش. لقد تلقى السعوديون الرسالة بوجوب اتخاذ إجراءات صارمة. وأجري إصلاح كبير للمناهج الدراسية. وثمة مزيد من قنوات الانفتاح السياسي. ويعمل السعوديون مع العالم الخارجي. وازداد اطلاع الناس على المعلومات"⁸³.

قدّم بندر في سنة 2004 التحديد الحاسم للنهج السعودي تجاه الإرهاب. ففي بيان جريء وشديد الانتقاد عن الحرب على الإرهاب، عبّر عن توبيخ قاسٍ لبعض المسؤولين عن الأمن في المملكة العربية السعودية، وطالب بحرب شاملة على القاعدة. وفي مقالة قوية في صحيفة الوطن السعودية الإصلاحية، رأى بندر أنه لم تتمّ تعبئة المجتمع السعودي ولا الدولة لهذا النضال بشكل تام⁸⁴.

كتب بندر: "الحرب تعني... إنها حرب لا تعني الرقّة، بل القسوة". وحدّد الأمير العدو بوضوح قائلاً: "إذا تعاملنا معهم بتردد على أمل أنهم شبّان مسلمون مضللّون، وأنّ الحل هو دعوتهم إلى اتباع سواء السبيل، على أمل أن يثوبوا إلى رشدهم، فسنخسر هذه الحرب، وذلك يعني أن نخسر كل شيء أنجزته هذه الدولة وهذا الشعب في السنوات الستمئة السابقة". وبعد أن استبعد بصراحة الميل على أعلى مستويات العائلة المالكة السعودية إلى إلقاء اللوم في الهجمات الإرهابية على المملكة على جهات خارجية، طالب بندر: "كفى لوم الآخرين عندما يكمن السبب داخل صفوفنا!"⁸⁵.

كان البيان المتشدّد الذي أصدره بندر إرهاباً بحدوث تغيير في المملكة العربية السعودية، ليس أقلّه تعيينه من قبل الملك عبد الله في 16 أكتوبر 2005 أميناً عاماً لمجلس الأمن الوطني، برتبة وزير في الحكومة. ومجلس الأمن الوطني تفويض بتغطية الأمن الوطني للمملكة بأوسع معنى، لذا تحوّل مجلس الأمن الوطني الذي أعيدت هيكلته إلى أقوى هيئة لصناعة السياسات في المملكة⁸⁶. لم يكن في وسع بندر بصفته سفيراً سوى محاولة الردّ على الانتقادات الموجهة إلى المملكة في أعقاب 9/11؛ أما بصفته أميناً عاماً

لمجلس الأمن الوطني المسؤول عن السياسة الأمنية، ففي وسعه الآن المشاركة بشكل مباشر في التحوّل اللازم جداً للمملكة. ومن الممكن الآن أن يعجّل نفوذ بندر في تحقيق التغيّر الذي تحتاج إليه المملكة كثيراً.

مع ذلك، اتخذت وسائل الإعلام الأميركية موقفاً لامبالياً من التزام المملكة العربية السعودية في الحملة على القاعدة والإرهاب. فأشارت إلى أنها تساهلت حتى الآن في التسامح غير الرسمي مع القاعدة، ولاحظت أن "الرقابة الحكومية المتراخية على المؤسسات الخيرية والأموال التي ترسلها إلى الخارج تسمح بتدفق مبالغ كبيرة إلى تدريب الإرهابيين وعملياتهم. لقد تغاضى الحكّام السعوديون عن العمليات الإرهابية ما دامت موجهة خارج حدودهم". وخلصت صحيفة نيويورك تايمز إلى أن المملكة لم تبدأ إجراءاتها الصارمة ضدّ الخلايا الإرهابية داخل المملكة إلا "عندما وسّعت القاعدة أهدافها لتشمل مواقع وأشخاصاً داخل المملكة العربية السعودية نفسها"⁸⁷. مع ذلك، أصدر مجلس العلاقات الخارجية تقريراً يشير فيه إلى أن قوانين الحكومة السعودية الجديدة للرقابة على غسل الأموال والتبرّعات تلبّي المعايير الدولية في العديد من النواحي أو تتجاوزها⁸⁸.

ثمّة تغيّر حاصل في المملكة العربية السعودية، لكنّه بطيء بالضرورة لكي يجاري شعبها. وكما أوضح بندر: "إننا البلد الوحيد في العالم الذي تكون فيه الحكومة ريادية والشعب أكثر تحفظاً. ومعظم المشاكل التي نواجهها هي أننا نريد التقدّم إلى الأمام. لكننا لسنا متعجرفين جداً بحيث نعتقد أننا سنتقدّم إلى الأمام بصرف النظر عما يفكر فيه شعبنا"⁸⁹.

من الواضح أنّ هناك عناصر متطرّفة ضمن الفئة المتشدّدة المحافظة. يقول بندر موافقاً: "يوجد في المملكة العربية السعودية نوع خاصّ من المتطرّفين والمتعصّبين، وحتى المحرّضين على الكراهية. وهي ليست فريدة في ذلك... لكن الشكل المحلي للإفراط في المحافظة كان ولا يزال انعزالياً بطبيعته. وهمّه الرئيسي هو إبقاء المملكة خارج الحركة باتجاه الحداثّة التي يعتبرونها تهديداً للنقاء الأخلاقي للإسلام. وتعاليمهم ليست إيديولوجية القاعدة التوسّعية العالمية، بل إيديولوجية انعزالية ومناهضة للحداثّة"⁹⁰.

يجب عدم الخلط بين هذه الأقليّات والقاعدة التي تشكّل إيديولوجيتها تهديداً للمملكة العربية السعودية بقدر تهديدها للعالم الغربي. وقد سعى وزير الخارجية السعودي، الأمير سعود الفيصل، لشرح ذلك عندما قال: "يمكن إيجاز الإيديولوجية

التي تعتمدها القاعدة باعتقادها ببطلان شرعية كل حكومات البلدان الإسلامية، وبخاصة المملكة العربية السعودية، من أجل إعادة إنشاء الخلافة الإسلامية التي تكون القاعدة في طليعتها. ويدعو أحدث أشكال هذا المخطط إلى تدمير الدولة السعودية⁹¹.

يشير هذا الوضع الديني والسياسي المعقد في الشرق الأوسط دهشة العالم الغربي في الغالب. وقد أوضحت كارول ديفين مولين عدم اليقين عند العديد من الأميركيين عندما قالت: "يمثل الدين الإسلامي لغزاً لمعظم الأميركيين، وبخاصة في أعقاب الاعتداءات التي ارتكبتها الإسلاميون الراديكاليون. وهناك الكثير من البيانات التي تنشر وتضيف المزيد من الالتباس. هل الإسلام دين سلام كما يؤكد الرئيس بوش باستمرار، أو وعاء للعنف الجهادي؟"⁹².

لم تكن هجمات 9/11 الشيء الوحيد الذي قاد إلى التشكيك في الإسلام في وسائل الإعلام، وما صاحب ذلك من تمثيلات متضاربة ومسيئة في الغالب، بل ما نتج عنها من حرب على الإرهاب أيضاً. فقد صرّح مدير الأبحاث في مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية بصراحة: "تجري مساواة الحرب على الإرهاب بالحرب على الإسلام. وعلى الرغم من أن البيت الأبيض لا ينفك يشير إلى أن الحال ليست كذلك، فإن العديد من الذين يدعمونه لا يستطيعون التفكير في ذلك بطريقة أخرى"⁹³. ولا شك في أن المواقف الانعزالية والداعية إلى الحرب داخل الإدارة لا تساهم في التنقيف الإيجابي للشعب الأميركي في ما يتعلق بالمفاهيم غير الصحيحة الراهنة عن الإسلام.

من المهم أن يفهم الغرب أن المملكة العربية السعودية تدين بقيمتها المحافظة الثابتة إلى دورها كحافظ للإسلام. وإقراراً بهذا الدور، اتخذ الملك السعودي لقب خادم الحرمين الشريفين، لذا فإن هناك شعوراً حاداً بالسلبية الحالية المتولدة في الغرب تجاه الإسلام في المملكة العربية السعودية. وفي كلمة مؤثرة أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، رأى بندر أنه لم تحتطف الطائرات وحدها في 11 سبتمبر. "إني هنا لأبلغكم كسعودي فخور، وعربي فخور، ومؤمن شديد الإيمان بديني الإسلامي، لقد قرّر هؤلاء الأشخاص اختطاف دين عظيم ولن نسمح لهم أن ينجحوا في ذلك"⁹⁴.

إن أعمال القاعدة ومواقفها القتالية، ومعارضتها المعتقدات البديلة، تنتهك المقدّسات. وقد عبّر بندر عن ذلك ببساطة شديدة بقوله: "عندما يتحدث أشخاص [القاعدة] عن قدوم الكفار، ذلك انتهاك للمقدّسات لأن الإسلام يسمّيهم أهل كتاب.

وعليك أن تؤمن باليهودية والمسيحية. وأنا إذا لم أعترف، كمسلم، بالمسيحية أو اليهودية كدين من عند الله، وبأنبياء الله، فإني لا أعود مؤمناً بصورة تلقائية".

ويتابع بندر الدفاع عن دينه وعن سمعته التي شوّهتها القاعدة فيقول: "الحقيقة التي لا مرأى فيها هنا هي أنّ الإسلام دين صالح. إنّه دين السلام والتسامح... وما أقوله هو أنّك لا تستطيع الحكم على الإسلام أو العرب أو المملكة العربية السعودية من خلال ابن لادن أو خمسة عشر شخصاً، أو مئة شخص" ⁹⁵.

بُعِيد ردّ المملكة على هجمات 12 مايو، أطلق بندر حملة علاقات عامّة ضخمة تولّتها شركة كورفيس كميونيكيشن للعلاقات العامّة في واشنطن دي سي، وتركّزت هذه الحملة على موضوع "القيم التي نتقاسمها". وكانت إعلاناً تلفزيونياً بقيمة عدّة ملايين دولار عُرض في عشرين مدينة كبرى في كل أنحاء البلد، وكان أولها يحمل العنوان الرئيسي "أميركا، إننا حزينون معك" ⁹⁶. كما شارك بندر في سلسلة من المحاضرات التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة في كل أنحاء أميركا، وقد تناولت الموضوعات التي أثارها هجمات 9/11. وقد سمحت له أن يعترف للجمهور أنّ 9/11 أصابت السعوديين بصدمة شديدة. وقال: "يلزنا وقت طويل لنخرج من الصدمة" ⁹⁷. وأشار أيضاً إلى أنّ المملكة استجوبت أكثر من ألف شخص منذ 9/11، واعتقلت أكثر من خمسمئة مشبوه، ونجحت في تسلّم عدد من أعضاء القاعدة من بلدان أخرى ليوأجهاوا العدالة. وأكد أيضاً على تجميد الحسابات المصرفية للمشتبه بهم، وتطبيق أنظمة مصرفية صارمة، وخلص إلى أنّ "المملكة العربية السعودية لديها اليوم أقدس القوانين والأنظمة لمكافحة الإرهاب في العالم" ⁹⁸. وشدّد بندر على أنّ التعاون بين السلطات المالية والأجهزة الأمنية السعودية والأميركية قد تسارع، مضيفاً أنّ 9/11 كان عملاً شريراً نفذ لتدمير صورة وحقيقة دين عظيم. الإسلام دين عظيم، ونحن فخورون أن نكون مسلمين" ⁹⁹. وسلّط بندر الضوء أيضاً على التدابير المتخذة في المملكة للتعامل مع المخاوف بشأن مناهجها التربوية. وأشار إلى أنّ نسبة 85 بالمئة من المنهج لا تثير مشاكل، لكن أزيلت نسبة 10 بالمئة أي تلك التي تقف على الحدّ الفاصل، ونسبة 5 بالمئة غير المقبولة ¹⁰⁰.

في ظل هذا الجوّ الناتج عن 9/11 والمشحون جداً بالخوف والجهل، تبرز الأهمية الحيوية لحملة العلاقات العامّة السعودية الحالية التي تبلغ قيمتها عدّة ملايين من

الدولارات. وقد أوجز نيل بوش* بيأس مآزق العلاقات العامة السعودية في سنة 2002 عندما قال: "ينظر الرأي العام الأميركي إلى العرب كإرهابيين وكرجال صحراء. وأرجو أن يرى الأميركيون العرب والمسلمين كما أراهم. العرب يخسرون معركة العلاقات العامة في أميركا... والرأي العام يصيغ السياسة العامة بصورة دراماتيكية. وينطبق ذلك على الولايات المتحدة، وعلى هذا الجزء من العالم وعلى كل مكان"¹⁰¹.

في حديث إلى صحيفة "واشنطن تايمز" قال بندر: "أعتقد أن العلاقات السعودية مع الولايات المتحدة ستفشل أو تتواصل استناداً إلى مقدار نجاحنا في الوصول إلى الأميركيين في بيوتهم وقراهم. وإذا فشلنا هناك، فإن كل ما نفعله مع الكيان السياسي الأميركي والنخب، ومن حكومة إلى حكومة سيكون خارجاً عن الموضوع"¹⁰².

بعد مراقبة حملة العلاقات العامة، علّق المحللون: "لم يكن السعوديون يهتمون لصورته العامة في الخارج، لم يكن هناك ما يدعوهم للاهتمام بجديّة. فقد كانوا قادرين على عدم المبالاة بانتقادات سياساتهم الخارجية والمحلية بحصانة، لأنهم يعومون على ربع احتياطيّات العالم المعروفة من النفط"¹⁰³. لكن، مع هجوم وسائل الإعلام على المملكة العربية السعودية، والافتقار إلى قاعدة عريضة من التأييد للعلاقة الأميركية السعودية، لم يكن هناك تفهّم عامّ للمملكة. "فقد كانت المملكة في ذلك الوقت مجتمعاً مغلقاً إلى حدّ كبير"¹⁰⁴. وأدى الإخفاق في تثقيف الغرب عن تعقيدات الثقافة والدين في المملكة العربية السعودية، إلى جانب المضاعفات الجانبية لهجمات 9/11 إلى دفع السعوديين لإعادة تحسين صورتهم في العالم الغربي.

ونظراً إلى الانقسام الثقافي الشديد بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، فقد كان هجوم العلاقات العامة السعودية عملاً شاقاً منذ البداية. ويقول مايكل بتروزيلو، الشريك الإداري لشركة كورفيس كميونيكيشن، في ما يتعلّق بهذه المهمة المخيفة: "لديهم شيان في مصلحتهم. الأول إدارة بوش التي وضعت السعوديين خارج حدود الانتقاد. ثانياً، بندر السعودي غير السعودي"¹⁰⁵.

فسرّت رغبة السعوديين في الخصوصية، أو الابتعاد عن المديح العام، أو التويخ في الغرب، أنها دليل على أنّ هناك شيئاً يخفونه. وقد تناول بندر ابتعاد المملكة العربية

(* نيل بوش هو الأخ الأصغر للرئيس جورج دبليو بوش والحاكم جيب بوش. وهو رجل أعمال مقره تكساس.

السعودية عن وسائل الإعلام - وهو موقف واجهت أميركا صعوبات جمة في التكيف معه - وقال مستنقحاً: "أتذكرون الصومال؟ عندما نزل المارينز على الشاطئ التقى بهم طاقم من السي أن أن. تلك هي الثقافة. إذا كنا لا نتماشى مع تلك الثقافة، وكنتم لا تروننا نتماهى معها، أرجوكم لا تتركبوا الخطأ المميت أننا لا نفعل شيئاً. إننا نفعل الكثير" 106.

* * *

مع أن أحداث 9/11 المرعبة غيرت - ربما إلى الأبد - منحى العلاقات الأميركية السعودية، وقوّضت الجهود الدبلوماسية التي بذلها بندر في العقدين السابقين، فإن من تأثيراتها الملموسة ما ظهر في المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية الصعبة. فقبل 9/11 مباشرة، كان بندر منهمكاً في وضع صيغة سلام جديدة مع إدارة بوش يمكن أن تحدث تقدماً في عملية السلام المتوقّفة. كان بندر يعدّ في منزله في مكين للاجتماع المقرر مع بوش في 13 سبتمبر 2001، قانعاً أن المبادرة الجديدة يمكن أن تبتّ الأمل مجدداً في الشرق الأوسط. وشاهد الطائرتين تصطدمان بالبرجين التوأمين مباشرة على التلفاز.

أدّت هجمات 9/11 التي نفذتها القاعدة إلى حجب أي مبادرة سلام يمكن أن توقف الأعمال العدائية المتواصلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. فقد ركّزت إدارة بوش بشكل مفهوم على "الحرب على الإرهاب"، ووضع اهتمام الرئيس للسلام والأمن في الشرق الأوسط جانباً على الفور.

من الملام؟ من الذي يمكن أن تستهدفه أميركا رغبةً في الانتقام؟ بعد الحملة السريعة والناجحة في أفغانستان لإقصاء طالبان عن السلطة - على الرغم من عدم تمكّنها من القبض على أسامة بن لادن - أخذت إدارة بوش تبحث عن مزيد من الأجوبة. أشار البنتاغون، الذي لا يزال يشعر بالحساسية تجاه هجوم 9/11 على القلب التجاري والعسكري في أميركا، بإصبع الاتهام إلى العراق، مقتنعاً بأدلة ساقها مكتب الخطط الخاصة بإيحاء من المحافظين الجدد. وفي سنة 2003، شنت القوات العسكرية الأميركية والبريطانية حملة "الصدمة والرغبة" وأطيح بصدّام حسين عن السلطة.

مضت ثلاث سنوات، ولم تظهر المقاومة التي تلت الحرب العراقية أي إشارة إلى احتمال التراجع. وحدث بعض التحرك داخل الإدارة باتجاه حل الوضع الفلسطيني الإسرائيلي. غير أنه في نظر العديد من العرب، كان تحركاً بعيداً عن السلام والعدل.

فزيارة شارون إلى الولايات المتحدة في أبريل 2004 ودعم بوش خطته المثيرة للجدل، الداعية إلى الانسحاب الأحادي من قطاع غزة وأجزاء من الضفة الغربية، إلى جانب استبعاد الرئيس حق الفلسطينيين في العودة إلى الأراضي التي فقدوها في سنة 1948، أدت إلى ردود مختلطة، واستُقبلت بعدم تصديق شامل تقريباً في العالم العربي.

أفيد بجو من عدم التصديق أن رئيس الوزراء الإسرائيلي اجتمع ببوش في 14 أبريل 2004 و"خرج سعيداً جداً. ففي نهاية الاجتماع، حصل شارون على ضمانتين يرغب فيهما كثيراً، ولم يحلم والد بوش في منحهما قبل ثلاث عشرة سنة في مدريد". لقد وافق جورج دبليو بوش على عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى دولة فلسطينية جديدة، لا إلى ديارهم وأرضهم في إسرائيل؛ وذكر الرئيس أن هناك بعض المستوطنات التي يجب أن تبقى، على الرغم من السياسة الأميركية القديمة التي تعتبر أن هذه المستوطنات غير قانونية أو تشكل عقبة أمام السلام¹⁰⁷.

أحدثت أنباء إذعان بوش بركاناً من الصخب في الشرق الأوسط، وسعت إدارة بوش بسرعة لتخفيف مدى اتفاقها مع شارون. فطمأن وزير الخارجية باول، ووزير الخارجية الأردني مروان المعشر أن بوش لم يكن يملئ شروط تسوية سلمية نهائية، وأبلغ البيت الأبيض بندر أن "كل قضايا الوضع النهائي بين الفلسطينيين والإسرائيليين يجب أن تبقى بالضبط، قضايا الوضع النهائي، ويتمّ التفاوض عليها بين الطرفين"¹⁰⁸.

عندما سئل هنري كيسنجر عن رأيه بشأن خطوة بوش غير المتوقعة، أجاب: "إنّ اقتراح شارون خطوة بناءة إلى الأمام، ومعبر إلى تسوية في نهاية المطاف، وربما فرصة لسبع صيغة الأرض مقابل السلام في المستقبل، وهي الصيغة التي بحثت بجدية أولاً في مدريد، واستمدت من القرار 242"¹⁰⁹. وأكد كيسنجر على أن "الأمن هو القضية الجوهرية، وهو أمر لا يمكن إيجاد حل له بسهولة"¹¹⁰. وذلك هو الشعور الذي غالباً ما عبّر عنه بندر.

يقول برنت سكوكروفت: "ما حدث، لا سيما في أعقاب 9/11، هو أن شارون كان ماهراً جداً. فكلما بدا أن ثمة شيئاً سيئاً سيبدأ، أرسل المتشددون في الجانب الفلسطيني استخبارياً أو شيئاً ما. وبعد ذلك يتخذ شارون إجراءات صارمة ويدخل الأراضي الفلسطينية ويقول [للأمير كيين]، إتني أخوض حربكم؛ إتني أخوض الحرب على الإرهاب، وعليكم أن تساعدوني. فيقول الرئيس، حاضر".



رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون

واعترف سكو كروفوت أنه أبلغ كوندوليزا رايس في مناقشة معها: "إنكم تقومون بعمل المتطرفين يتحكمون بالعملية، لأنهم يستطيعون أن يتوقفوا ساعة يشاؤون، ولأنكم تستمعون إلى شارون وتسمحون له بالقول يجب الحصول على الأمن أولاً. إذا كان الأمن شرطاً مسبقاً، فلن تصلوا إلى أي مكان". ولاحظ بعناية: "لكن هذا ما كان يجري في الجوهر". لقد أقرّ بوش وفريقه مبادرة شارون.

لم يكن انتقاد سكو كروفوت لموقف الإدارة من مكائد شارون مقنعاً. فقد زعم أن موافقة بوش على اقتراح شارون كانت محرّجة، نظراً إلى أنه لم يستطع لاحقاً تأمين الموافقة عليها من حكومته. وسرعان ما ارتدّت مبادرة بوش من دون ذلك التأييد. وأكد سكو كروفوت بكآبة: "لكن الضرر قد وقع. لقد غيرنا موقفاً اتخذناه منذ خمسين عاماً: ألا نحكم على النتيجة مسبقاً"¹¹¹.

كان إحباط بندر من عدم تقدّم عملية السلام في أعقاب 11 سبتمبر واضحاً جداً. ففي إشارة مباشرة إلى تجدد العنف في الشرق الأوسط ومحاولات ولي العهد ضحّ زخم جديد في العملية في مزرعة كروفورد قبل شهر واحد فقط من 9/11، ذكر بندر: "عندما تتحرك عملية السلام، يكون هناك استعداد لقبول الكثير. لكن عندما تتوقف العملية، ويكون ذلك مقروناً بسلوك إسرائيلي مدلّ للفلسطينيين، ويرى الناس ذلك

فأراً جهاراً ولا يتخذ الأمير كيون موقفاً متعالياً، فإنّ كل ذلك يُحدث واقعاً قاسياً في الشارع. لكنّ الردّ هو وجوب التحرك" بل إنّه حتّ الولايات المتحدة بصراحة قائلاً: "إذا أفسد العرب الأمور، أبلغونا. وإذا أفسدتها إسرائيل، أبلغوها"¹¹².

حاول السفير ريتشارد مورفي شرح استياء السعوديين من البيت الأبيض قائلاً: "القضية الفلسطينية هي مفتاح فهم الإحباط السعودي. لقد صدموا فعلاً عندما قرّرت الإدارة الابتعاد عن القضية لأنّهم اعتقدوا أنّ بوش سيسير على خطى والده بالتأكيد. وأعرف أنّ فلسطين هي أولى أولويات ولي العهد الأمير عبد الله، بحيث تتقدّم كثيراً على العراق"¹¹³.

أقرّ الرئيس الأسبق كارتر - في مقابلي معه - بجهود بندر المستمرة بعيداً عن الأضواء لتعزيز السلام. وأبرز محاولاته الشخصية في كامب ديفيد لتأمين حل للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني وقال بفخر ظاهر: "الشهر القادم هو الذكرى السنوية الخامسة والعشرين للمعاهدة بين إسرائيل ومصر، ولم يتمّ انتهاك كلمة واحدة فيها البتة. إنّها لا تزال رمزاً لما يمكن عمله، لقد استنبطنا معالجة عادلة للفلسطينيين في الوقت نفسه". ولاحظ كارتر أنّ "شارون وبوش ألقياها في سلّة المهملات"¹¹⁴.

في تخمين في ما إذا كان بوش اتخذ شخصياً قرار الموافقة على اقتراح شارون وتغيير السياسة الأميركية القائمة في الشرق الأوسط قال السفير مورفي: "إنّ الرئيس الذي يقول بفخر، أنا لا أميز بلدّة! ويقول فريق البيت الأبيض إنّ إسرائيل لم تبد استعداداً قط في السنوات السبع والثلاثين منذ حرب الأيام الستة للانسحاب من مستوطناتها". وتابع مورفي بعدم تصديق واضح: "وها هو، أبو المستوطنات، الشخصية الأشدّ تصلّباً، يقول إنّه سيتخلّى عن غزة وبعض المستوطنات في الضفة الغربية. فكيف يمكن أن نقول لا لذلك؟!". غير أنّ مورفي أضاف بصراحة: "لا أصدّق شارون؛ أعتقد أنّ هذا الرجل وقف لمُدّة خمسين عاماً وراء أشياء أخرى، لكن هذا؟ أعلم أنّه تحدّث عن استعداده لتسويات مؤلمة، لكنّه وعد بإزالة البؤر الاستيطانية غير القانونية التي أنشئت منذ أن أصبح رئيساً للوزراء. ووعد بفعل ذلك قبل أكثر من سنة ولم يحدث شيء بعد. لذا فإنّني أتحمّض، تلطيفاً للقول، على ما قد يفعله"¹¹⁵.

من المفاجئ أنّ بندر كان متفائلاً بشأن موافقة بوش على خطة شارون المثيرة للجدل، وهي الانسحاب من غزة وأجزاء من الضفة الغربية، مع الاحتفاظ ببعض

المستوطنات فيها. وفي ردّ محسوب قال: "إتني متفائل. لا يمكنك أن تنظر إلى الكأس على أنها نصف فارغة؛ يجب أن تكون نصف ممتلئة. ماذا لدينا أيضاً؟ ما الخيارات الأخرى؟ أعني... هل نذهب إلى الحرب؟ لدينا ما يكفي من الأبرياء الذين يتعرّضون للأذى في كلا الجانبين. إذا غادر الإسرائيليون غزة، فسيكون ذلك أمراً مهماً في اعتقادي، لأنني أرحب بأي انسحاب يقوم به الإسرائيليون من الأراضي العربية المحتلة"¹¹⁶. ولاحظ أنه لا يزال هناك الكثير للتفاوض عليه. غير أن المفاوضات تلتقت ضربة بوفاة الرئيس عرفات، ومرض رئيس الوزراء شارون.

لوحظ قبل ستة أشهر من وفاة عرفات أن "السلام بين إسرائيل وجيرانها ممكن، وتثبت تجربة الأردن ذلك من دون شك. إنّ الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني بحاجة ماسة إلى زعماء فلسطينيين يفعلون ما رفض عرفات فعله مرات عدة، أي اتخاذ خطوات جريئة لإنهاء سفك الدماء المتواصل والأسى"¹¹⁷.

لا يمكن التشكيك في منجزات عرفات كقائد ثوري؛ لكن، مع تغيّر الأوقات - كما ربما يوضح رفضه اقتراح كلينتون - باراك - تراجعت قدرة عرفات كصانع سلام، والأهم من ذلك في مسائل الحكم اليومية لبلده. لقد أمدّ القضية الفلسطينية بقوة كبيرة كقائد ثوري. لكنّه لم يكن قادراً على أن يقدم الرعاية الصحية الأولية، أو الخدمات العامة، أو البنية التحتية العملية، أو الأسس لاقتصاد قابل للحياة. وبغيابه، وتحّت حزن الوطن، ووسط المخاوف من تسلّم المتشدّدين الفلسطينيين زمام الأمور، أفادت مجلة تايم: "هناك أيضاً بارقة أمل ضئيلة في العالم، الأمل في أن وفاة الزعيم الفلسطيني العنيد قد تقدّم فرصة لكسر الجمود في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني"¹¹⁸. يبدو أن احتمالات السلام تراجعت كثيراً بعد أن أصبحت حكومة حماس واقعاً في أعقاب الانتخابات الفلسطينية، ومجيء حكومة إسرائيلية ضعيفة في أعقاب تعرّض شارون لسكتة دماغية وسقوطه في سبات.

ليس من الواضح إذا كان الوضع الراهن الأخير سيؤذن بتراجع بطيء من جانب الرئيس الأميركي، يعكس موقفه السابق من النأي بنفسه عن التدخل في القضية الإسرائيلية الفلسطينية. فلا تزال ذكريات 9/11 ماثلة في الأذهان. ولا يزال تركيز إدارة بوش منصباً على "الحرب على الإرهاب"، والحاجة إلى فضّ الاشتباك في العراق لإعادة القوات الأميركية إلى الوطن. وبوجود حماس في السلطة في

فلسطين، ومحاولة محمود عباس بسط سلطته كرئيس، يبدو المجال محدوداً لإطلاق مبادرة جديدة.

إن احتمال السلام في فلسطين، من وجهة نظر بندر، في سبات مؤقت، لكن رغبته في إيجاد حل لم تفتقر. ومع اندلاع العنف بين حزب الله وإسرائيل وما ذاقته إسرائيل من أهوال الحرب في لبنان، ارتدى بندر عباءة صانع السلام بدوره الجديد كأمين عام لمجلس الأمن الوطني السعودي.

ففي اجتماع بندر مع وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في 23 يوليو 2006، قدّم إليها مناشدة جادة من الملك عبد الله لكي تلجم أميركا إسرائيل وتتوسّط وقفاً لإطلاق النار يحمي الأبرياء. وذلك بالنسبة إلى بندر يؤذن بتحدٍ جديد شديد التطلّب وحيوي، فيما ينخرط في مسعى دبلوماسي آخر لإحلال السلام في شرق أوسط على شفير نزاع شامل.

الأصدقاء وحاشية السفر

"إذا فعل المرء أفضل ما لديه، هل يعود هناك من شيء؟".

الجنرال جورج أس. باتون
(1885 - 1945)

في أثناء العمل كسفير ومبعوث للملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله، كان علي بندر احتمال برنامج سفر مرهق، يَحْتَمُّ السفر المتكرّر عبر الأطلسي بين المملكة العربية السعودية، وواشنطن، وكثير من الأماكن في العالم وفق ما تملّيه الأحداث. وقد تمكّن بندر من التعامل مع هذه التحديات بإحضار العائلة والأصدقاء معه على حدّ سواء. ولعب أفراد العائلة - لا سيما زوج ابنته الأمير فيصل وأخوه الأمير سلمان - دور المساند والداعم في سفرات الأمير الواسعة. وغالباً ما وجد ابنه خالد و فيصل نفسيهما يجوبان العالم من دون سابق إنذار. بل إنّ فهداً، الذي أخذ إجازة لمدة عام قبل التوجّه إلى كلية إيتون، رافق والده معظم تلك السنة، على الرغم من أنّه تحت وصاية طالب سابق من كلية إيتون يعدّه أكاديمياً لدخول الكلية.

غير أنّ أصدقاء بندر في السفر هم الذين مكّنوا الأمير من تحمّل ضغوط جدول المواعيد المحموم، واجتياز العالم بمختلف الاتجاهات. وقد وصفت كبرى بنات بندر، الأميرة لولو حاشية السفر، التي كانت تتكوّن حتى وقت قريب من فرد داتون وجو رامسي وبوب ليلاك وسعيد الكرمي وطارق الشواف وروب ديكون إليوت، أنّها "واحته الصغيرة. إنّهم مثل إخوانه. وهو قريب جداً منهم"¹.

وقالت جيري بييري، كسكرتيرة سابقة لبندر، عن هذه المجموعة: "إنّه يجب أن يحيط نفسه بمجموعة كاملة من الأشخاص الذين لديهم مواصفات عمل لا توضع البتة على الورق؛ نادي سفر للرجال"². وغالباً ما وُصفت هذه المجموعة أنّها "مجموعة سفر" بندر. وقد وُفّر هؤلاء الأصدقاء والمؤتمنون نقطة مرجعية دائمة شديدة القيمة

للأمير في أثناء رحلاته بعيداً عن البيت. وأكد ليلاك في تقييم قيمتهم بالنسبة إلى بندر، "بمجموعة السفر مصطلح جيد، لكنني أعتقد أن ذلك في حالة تمكّن كل واحد منا من السفر معه، الأهم من ذلك أنه يثق بنا. الثقة والولاء، من الصعب جداً التأكد من ذلك. على سبيل المثال، عندما يمضي وقتاً مع الصحفيين أو حتى رجال الأعمال أو الدبلوماسيين، عليه أن يكون حذراً".

وفي التأمّل في كيفية تمكّن حاشية السفر من إبقاء قدمي بندر على الأرض بمرور السنين، قال ليلاك: "أعتقد أنه يحاول استخدامنا كمجموعة من الأشخاص المطلعين جيداً الذين يستطيع استخدامهم كمجلس استطلاع ويثق بهم. يمكنه أن يطلق بعض بالونات الاختبار، ويدعنا نصوّب عليها. ولا توجد لدى أحد من المجموعة هواجس بشأن التصوير عليها. فليس علينا الإمساك عن إبداء الرأي بسبب موقعه كعضو في العائلة المالكة السعودية، وتقديم الاحترام الذي يظهره له بعض مواطنيه".

وتابع ليلاك: "كنا معه في كل أنواع المواقف، لذا لا نمانع في القول إن هذه ليست فكرة جيدة جداً، إنها هراء؛ هل فكّرت في الغاية منها؟". تكون هذه الانتقادات والآراء والملاحظات متاحة، وبخاصة من فرد داتون وجو رامسي. وكما لاحظ ليلاك: "لا سيما فرد الذي لديه إرث سياسي طويل. ليس لدى جو الخلفية السياسية نفسها مثل فرد، لكن منذ أن تقاعد من سلاح الجو، أصبح قارئاً نهماً، وأعتقد أنه تلميذ لفرد، لذا أصبح جو فطناً جداً ولا يُمسك عن إبداء رأيه. وييدي



الكولونيل في سلاح الجو الأميركي
جو رامسي

سعيد الكرمي مزيداً من الملاحظات عندما يتعلّق الأمر بما يحدث في العالم العربي، لكنّه يُمسك كثيراً ويترك فرد وجو يشرحان³. ولاحظ طارق الشوّاف عند الحديث عن حاشية السفر واستعداد المجموعة لتحديّ بندر في مختلف القضايا أن "هذا هو ما تحتاج إليه؛ أنت لا تحتاج إلى من يقول نعم. وفي أثناء عملي مع بندر، وهو لا علاقة له بالسياسة، غالباً ما كنت أختلف معه؛ وهذا يشكّل جزءاً من الاحترام الذي يكتنّه لي لأنه يعرف أنني أقول

الحقيقة. إنني أعرف عمّه، ولي العهد الأمير عبد الله، منذ مدّة طويلة كصديق، ولديه اقتباس يستخدمه دائماً: صديقك من صدّك لا من صدّك⁴.

تمت، جرى في فصول سابقة، تغطية علاقة ليلاك بالأمير. بدأ عمله مع بندر في أثناء إدخال طائرات أف - 5 إلى المملكة، والصراع لتأمين طائرات أواكس. لكن ما لم يظهر هو أنه كوميدي المجموعة. ففي أثناء تبادل التمنّيات في التجمّع التقليدي بمناسبة السنة الجديدة في أسبن، يقدّم ليلاك دائماً أداء يُحرج زوجته جان، عندما يقترح التمني التالي:

عندما تولي أيام التزلج وتُدبر،
وتبتعد عن هذه الدنيا وترحل،
أتمنى أن يدفنوك رأساً على عقب،
لكي يركلك هذا العالم اللجج^ك!

وبعد ذلك يقف بوب رأساً على عقب. لكن عند تحديد العلاقة بين بندر وبوب وجان، لا يوجد أفضل من كلمات الأمير الموجزة: "آل ليلاك؟ إنهم من العائلة حتماً!".

أقام جون رامسي، مدرّب بندر عندما ذهب إلى قاعدة لاكلاند لسلاح الجو،



علاقة صداقة سرعان ما توطّدت عراها عندما عُيّن في المملكة في سنة 1971. وعندما تقاعد من الخدمة العسكرية في سنة 1991، أصبح مستشاراً إدارياً. ولاحظ رامسي: "سرعان ما أصبحت السفارة [السعودية] زبوني الوحيد، إذ إنني أمضي الكثير من وقتي أجوب العالم مع بسندر". وعند الحديث عن صداقته مع الأمير على مرّ السنين، قال رامسي: "إنّه الشخص نفسه منذ أن التقيت به أول مرة حتى الآن. لقد نضج وازداد حكمة، لكنّه لا يزال هو نفسه، إلى حدّ كبير، ودوداً ويقظاً وكرماً ومحبّاً لرواية القصص وشخصيّة راجحة"⁶.

بوب ليلاك يؤدي دوراً على الثلج خلال حفلة رأس السنة في أسبن

من الأعضاء الآخرين في حاشية السفر الدكتور طارق الشواف. وهو رجل أعمال^(*) مقرّب جداً من بندر، ومعجب بإنكلترا ولديه بيوت في إنكلترا وأميركا والمملكة العربية السعودية. وقد وصفته لولو أنّه "شخصية مميّزة، ومتساهل، ورائع"⁷. التقى طارق وبندر لمدة وجيزة في سنة 1967 في فندق دورشستر في لندن في أثناء زيارة رسمية قام بها الملك فيصل. لكن في سنة 1978، دعي بندر إلى عشاء استضافه طارق في لوس أنجلوس. ويقول طارق الشواف: "وما زلنا أصدقاء منذ ذلك الوقت"⁸.

يروى بندر كيف دعاه الشواف إلى العشاء في لوس أنجلوس، إلى جانب مجموعة من السينمائيين المشهورين. بعد عشاء ممتاز، تناولوا الحلوى والقهوة وهمّوا بالرحيل. ويتابع بندر: "طلب طارق الحساب. نظر إلى الفاتورة ثم بدأ يبحث عن محفظته، وينقل يديه من جيب إلى آخر. لاحظت أنّه بدأ يشعر بالخوف. سألت إذا كان يريد أحد مزيداً من القهوة. لم يرد أحد القهوة، لذا طلب من النادل أن يحضر ماء".

أدرك بندر ورطة الشواف فاستأذن كأنه يريد الذهاب إلى الحمام، فدفع الحساب وعاد إلى الطاولة. وفي لحظة من التمثيل الإيمائي، أعاد الأمير تمثيل المشهد الفكاهي للشواف وهو يبحث يائساً في جيوبه، مرة بعد أخرى، محاولاً العثور على محفظته. وأوضح بندر أنّه والشواف كانا العربيين الوحيدين الجالسين إلى المائدة، لذا مال الشواف نحوه وقال بالعربية: "أيمكنني أن أزعجك؟". فسأل بندر: "بماذا يمكنني أن أخدمك؟".

قال الشواف: "لقد نسيت محفظتي. هل تمانع في دفع الحساب وسأعيد إليك المبلغ لاحقاً؟".

ردّ بندر متظاهراً عدم الفهم: "لكنك أنت من دعوتني، وأنا لم أدعك. اذهب ووقّع لدى النادي".

فأجاب الشواف: "لكنهم لا يقبلون توقيعني".

(*) طارق الشواف رئيس مجلس إدارة ومؤسس شركة الخدمات الاستشارية السعودية، وهي أقدم وأكبر شركة هندسة معمارية في المملكة العربية السعودية، حيث تضم أكثر من ستمئة موظف تقني وإداري. يوجد مقر الشركة الرئيسي في الرياض، ولديها مكاتب في الدمام وجدة، وفرعان في لندن ولوس أنجلوس. كما أنّها تقدّم خدمات هندسية لمختلف البلدان الإفريقية والآسيوية.

تابع بندر مازحاً: "لم أكن أعرف في ذلك الوقت لماذا؟ والآن أعرف لماذا لا يدفع البتة!".

واصل بندر مناكفة الشواف قائلاً: "إني آسف يا طارق، محفظتي ليست معي أيضاً".

في محاولة لإيجاد مخرج من هذه الورطة، طلب الشواف مزيداً من القهوة حتى صار على الجميع الرحيل في النهاية، لذا نهضوا للمغادرة. فنظر الشواف إلى النادل الذي قال له: "شكراً لكم على قدومكم".

أوضح بندر: "عندئذ فقط أدرك طارق أنّ الحساب قد دُفع! لكن، كانت تلك المرة الوحيدة التي اقترب فيها طارق من الدفع، ومنذ ذلك الحين لم يعد يقوم حتى بالمحاولة!"⁹.

وكمهندس، عمل طارق على مساعدة بندر في عدد من المشاريع، كما في سنة 1983 عندما طُلب منه تقدير تكاليف قصر في الرياض. اعتقد الشواف أنّ السعر مبالغ فيه، فاستدرج عروض خمس شركات أميركية، بما في ذلك الشركة التي قدّمت العرض الأصلي. وقد سرّ عندما تقدّمت تلك الشركة برقم أدنى بكثير من العرض الأصلي مقابل العمل نفسه. وفي وقت لاحق، عمل الشواف بصفته مدير التصميم في ذلك المشروع، مثلما فعل في منزل بندر في أسبن سنة 1978. وساعد أيضاً على إنشاء قصر الأمير في جدّة وبيته الريفي في غليمبتون.



الدكتور طارق الشواف،
صديق بندر المخلص

ومن الأصدقاء المقرّبين لبندر والمؤمنين لديه الدكتور سعيد الكرمي، الذي توفي في 6 يونيو 2005 في سنّ السابعة والستين. ولد الكرمي في عكا في فلسطين، وتعلّم في مدرسة العراق الثانوية في دمشق، والجامعة الأميركية في بيروت قبل الحصول على درجة دكتور في الطب من جامعة جورج تاون. وقد دعي إلى البقاء فيها كأستاذ، وبعد عام عاد إلى الأردن كاختصاصي في الجهاز البولي. عمل في الجيش الأردني برتبة رائد لمدة أربع سنوات، ورئيساً لقسم الجهاز البولي في مركز الملك

حسين الطبي. أنجز الكرمي أول زراعة لكلية في الأردن في سنة 1972، لكنّه شعر بالإحباط بعد خمس سنوات من انعدام التسهيلات فالتحق بجامعة ميرلند كأستاذ مساعد. وفي سنة 1979، أصبح سعيداً لطلب الجهاز البولي والجراحة في جامعة واشنطن، حيث أجرى أكثر من ستمئة عملية زراعة كلية في منطقة واشنطن. وسمّي أستاذاً متقاعداً في الجامعة في سنة 1995¹⁰.

التقى الكرمي ببندر أول مرة في سنة 1981، وأصبحا صديقين. غير أن الكرمي عانى من مشاكل صحية خطيرة في سنة 1994، في أعقاب عملية زراعة قلب، فتقاعد الكرمي عن ممارسة الطب وبدأ يرافق الأمير بشكل منتظم، ويقول عن ذلك: "كنت أسافر مع الأمير من قبل، لكن ليس كثيراً. لذا عندما تقاعدت عن ممارسة الطب، قال الأمير، هذا عظيم - يمكننا السفر معاً. ونحن نسافر معاً منذ ذلك الوقت وهو صديق عزيز"¹¹.

ومن الأشخاص الأذكياء الذين لديهم عقلية قانونية ثاقبة وموهبة طبيعية في التعامل مع الوسائل، وأحد أقرب أصدقاء بندر، فرد داتون. وقد توفي في 25 يونيو 2005 في سنّ الثانية والثمانين. كانت علاقته مع بندر عميقة وصادقة، وقد ساعد على تشكيل صورته وإبرازها؛ ولم يكن داتون يتورّع عن توجيه الانتقاد إذا لزم ذلك.

من التنويه الذي كُتب عن هذه الشخصية النافذة في واشنطن، ما وصفته صحيفة واشنطن بوست أنّه "لاعب البوكر المارق العابث الأصلع". وقد وُصف ذات يوم أنّه "فرد العرب"، وقد عمل كواحد ممن يمارسون الضغط بدأب بعيداً عن الأضواء كمضاعف للقوة يمهّد الطريق أمام الآخرين - لا سيما بندر - لكي يظهر على المسرح. لقد كان فرد داتون في الواقع السلاح السري للمملكة العربية السعودية في واشنطن.

أشارت صحيفة واشنطن بوست إلى مهنته العسكرية: "في أثناء الحرب العالمية الثانية، خدم في مشاة الجيش وجرح وأسر في معركة بلج. وقد مُنح لاحقاً وسام جرحى الحرب، والنجمة البرونزية. خدم لدى كبير المستشارين القانونيين في الجيش في أثناء الحرب الكورية، وكان مركزه في اليابان"¹². ويحمل داتون أيضاً أثر شظية قرب قلبه. تقول جيري بييري: "إنّه المفكّر في المجموعة من دون شك. ولعلّه يعرف بندر بقدر ما يعرفه الجميع"¹³.

يروى داتون: "كنت مساعداً خاصاً للرئيس جون أف. كنيدي، ثم عُينت وزيراً للعلاقات مع الكونغرس وبقيت في منصبتي حتى اغتيال كنيدي". وعمل داتون لاحقاً مع روبرت كنيدي، وعندما اغتيل، رجع إلى ممارسة المحاماة في كاليفورنيا. فطلب منه أحد عملائه، شركة موبيل أويل، التوجه إلى المملكة العربية السعودية ليعمل كمستشار قانوني للملك فيصل في الولايات المتحدة وإدارة العلاقات مع الكونغرس. فأصبح داتون المستشار الرئيسي للمملكة في واشنطن¹⁴. وبوفاة الدكتور الكرمي وفرد داتون، تغيرت طبيعة حاشية السفر ولم تعد كما كانت عليه.

كان أحدث عضو في حاشية السفر، روبرت ديكون إليوت. وهو زميل دراسة بندر في كلية كرانول ومقرّب جداً إليه. وكانت تلك العلاقة حميمة بحيث أصبح بندر بمثابة فرد من أفراد عائلة ديكون إليوت. بعد فترة من الخدمة في سلاح الجو الملكي، انضم ديكون إليوت إلى شركة بريتيش إيروسبيس في المملكة العربية السعودية في سنة 1985 كمدرّب طيران. غير أن الأمور لم تجر على ما يرام في حياته الشخصية عند عودته إلى المملكة المتحدة فوقع الطلاق بينه وبين زوجته.



روب ديكون إليوت

علم بندر بمحنة ديكون إليوت بطريقة ما واقتراح الالتقاء به. يقول ديكون إليوت الذي كان والداه بمثابة والدين بديلين لبندر في أثناء دراسته في كرانول: "تناولنا الغداء مع بندر، أنا وأمي وأبي. وقدم إلي زوجين من أزرار الأكمام. فنزعت زرّي كمّي قميصي - وهما هدية تلقيتها عند مغادرة سلاح الجو العماني - وقلت، لقد أعطيتني زرّي أكمام،

ففي إمكانك أن تأخذ هذين. وهو لا يزال يضعهما حتى اليوم". وعندما كانوا يهيمون بالذهاب، قال له بندر: "عندما تحصل على إجازتك (*) تعال لرؤيتي في أميركا". أسرّ لي ديكون إليوت: "كان ذلك جيّداً، لكن لم يكن لدي ثمن تذكرة الطائرة في ذلك الوقت. وعندما حان الوقت واتصلت به، أرسل سائقاً ومعه تذكرة سفر فانطلقت".

(*) كان ديكون إليوت يدرس للحصول على إجازة طيار نقل جوي في ذلك الوقت.

يقول ديكون عن تلك الرحلة الأولى: "بعد سبعة أو ثمانية أيام، جلست وبندر قرب بركة السباحة في أسبن، وأحضرت كل سجلات الطيران، وبيان سيرتي، ورسائل توصية، وغيرها... وتبادلنا حديثاً مؤثراً عن آخر عشر سنوات تقريباً، وعن تقلبات الحياة، وكان من الواضح أن أموري سيئة".

أشار بندر إلى كومة سجلات طيران ديكون إليوت ورسائله وقال: "ضع كل هذه الأشياء جانباً. لا أعتقد أننا سنحتاج إليها. لم لا نقوم ببعض الأعمال معاً؟".

أجاب ديكون إليوت: "ما هي؟".

فقال بندر: "دعنا أولاً نعطيك مقدّم أتعابك لتمكّن من تسديد مصاريفك ورعاية عائلتك، ثم نفكر في شيء".

وختم ديكون إليوت: "وهكذا تمّت الأمور". ومنذ ذلك الوقت انخرط في سلسلة من المشاريع على مرّ السنين، بما في ذلك مسؤوليته عن تجديد طائرة بندر الشخصية إيرباص 340 وإدارة الطواقم¹⁵.

غير أنّه في أعقاب ذلك اللقاء في أسبن، أدخل ديكون إليوت في حاشية السفر وهو يسافر الآن كثيراً مع الأمير.

في أثناء العمل الدبلوماسي، كوّن بندر العديد من الصداقات في كل أنحاء العالم. لكن لا تكتمل أي مراجعة لأصدقائه من دون ذكر علاقة خاصة تطوّرت في أثناء عمل الأمير في واشنطن، علاقته الودية مع عائلة بوش وجورج هيربرت واكر بوش على وجه الخصوص.

يستلخص قرب بندر من جورج بوش أيضاً في اللقب الذي يتكرّر إطلاقه عليه، "بندر بوش". ويعتقد أن أول من أطلق هذا اللقب الصحافي في صحيفة نيويورك تايمز وليام سافاير¹⁶ في مقالة نقدية نشرت في أثناء حرب الخليج الأولى¹⁷. يقدّم هذا المزج البسيط لاسمي بندر وجورج إيتش دبليو بوش تشخيصاً لغوياً مناسباً جداً لصداقتهما. غير أن الرئيس نفسه هو الذي تحدّث عن بندر بوش، مؤكّداً بالتالي على أنّه جزء من العائلة. يقول بوش: "إننا نحبه. ونسعد بوجوده معنا. إنّه اجتماعي وحيوي. وهو أشبه ما يكون بابن". وهذا القول العاطفي يبيّن بذاته¹⁸.

مع ذلك استخدمت وسائل الإعلام العلاقة القائمة بين بندر وعائلة بوش وأساءت استخدامها تبعاً للمناخ السياسي السائد. ففي أعقاب 9/11، قدّم تعبير بندر



بندر مع صديقيه المقربين
جورج وباربرا بوش

بوش في مقالات نقدية عن العائلتين الحاكميتين؛ عائلة بوش وآل سعود. وتدقق الخطاب المعادي للسعوديين بكثافة وسرعة من كتاب ومراسلين من أمثال روبرت بير، ومات ولش، وكريغ أونغر، ومايكل مور، ومورين داود، ومايكل إيزيكوف. وعلق وليام سافاير منتقداً العلاقة: "عندما يقول الأمير بندر اقضز، يسأل جورج بوش ما الارتفاع؟" ¹⁹.

وسعى بعض هؤلاء الصحافيين أيضاً لتحويل الموجب إلى سالب، مثل كريغ أونغر ومايكل مور.

وكما لاحظ توماس ليبمان رافضاً مزاعم أونغر ومور: "ليس من المفاجئ أن تكون عائلة حققت ثروتها من العمل في مجال النفط قريبة من السعوديين؛ ولم يكشف النقاب عن أي علاقة غير ملائمة على حدّ علمي" ²⁰.

وعن موضوع وسائل الإعلام ومحاولاتها التشهير ببندر والرئيسين، الأب والابن، ربما يكون من الملائم الاحتتام بكلمة أخيرة قالها جورج إيتش دبليو بوش وزوجته عن سلوك وسائل الإعلام. فعند بحث الانتقاد الدائم للعلاقة الوثيقة بين بندر وعائلات بوش، ذكر جورج إيتش دبليو بوش بصوت جازم لا يخفي غضبه: "عندما افتروا [وسائل الإعلام] على هيفاء، وإلحقوها بمزاعم جائزة تماماً، كالقول إنها إرهابية وما إلى هنالك، جهرت باربرا بصوتها وكذلك أنا. كان ذلك في وقت اعتُبر كل شيء سعودي مسيئاً، وكان ذلك ظلماً فاضحاً". وتابع الرئيس: "ولا تزال نيويورك تايمز تفعل ذلك وأنا أشعر بالغضب من طريقة معاملتها للمملكة العربية السعودية". وقد برزت على الفور العبارة التي استخدمها عن بندر في أول المقابلة، الولاء لطيار خلفي ²¹.

يعتقد السير ريتشارد إيفانز أن الفترة التي أمضاها جورج بوش نائباً للرئيس، في إدارة ريغن، كانت العامل، الحافز الابتدائي، في علاقة بندر - بوش. يقول بندر: "كنت أتناول الغداء مع جورج بوش كل شهر أو اثنين عندما كان نائباً للرئيس. كان مهتماً للسياسة الخارجية ورأي العالم الخارجي في ما يجري في أميركا؛ وأصبحنا صديقين مقربين. كانت تلك الأغذية طريقاً باتجاهين؛ يعرف مني ما يجري من وجهة نظري ومن منظور بلدي، وأعرف منه الكثير لأنني أكنّ له الكثير من التقدير".

أوضح إيفانز أنه عند تنصيب جورج إيتش دبليو بوش، كانت العلاقة وطيدة، وتواصل تطورها. ولاحظ أيضاً: "يمكنني القول إنه كان لبوش الأب تأثير رعوي تقريباً في بندر، أكثر من تأثير ريغن. ومن الصعب وصف ذلك. لقد أنشأ صداقة مع عائلة بوش بأكملها، لا مع بوش الأب فحسب"²².

أكد هنري كيسنجر أن "العلاقة الشخصية بين بندر وعائلة بوش قوية جداً. إنهم متقاربون جداً"²³. وقد عزز جو رامسي تعليقات كيسنجر. فعند الحديث عن لقب الأمير بندر بوش، أبلغني رامسي: "كنت وفرد داتون نتندر أن بندر متزوج من عائلة بوش؛ إنه من عائلة بوش قلباً وقالياً"²⁴.

أكد بوش أنه عندما كان نائباً للرئيس، تواصلت لقاءاته ببندر بعد اجتماعهما الأول. وأضاف: "أعجبت بالأمير بندر ووجدت أنه ممثل جيد جداً للرأي السعودي. ولطالما شعرت أنه على علاقة ممتازة بالملك فهد، ولدي الشعور نفسه تجاه علاقته [بالملك الحالي] عبد الله، تستنتج ذلك مباشرة منه". وبعدها تناول البعد السياسي لعلاقتهما، تابع بوش: "إنه صديق وهو يعرف بلدنا جيداً. ويعرف عيوبنا ومواطن قوتنا، وأنا واثق أنه يعكسها بدقة عندما ينقلها إلى حكومته"²⁵.

روى بندر طرفة توضح العلاقة الودية بينهما. "ذات يوم عندما كان جورج لا يزال نائباً للرئيس، اتصل بي وقال، ماذا لديك في الغد؟ قلت له، أيًا يكن ما سأفعله في الغد، أعتقد أنني لن أفعله بعد الآن. وأصبحت تلك الجملة هي العبارة التي استخدمها عندما أصبح رئيساً. عندما أتلقى منه اتصالاً يقول، ماذا لديك في الغد؟ أجب دائماً، أيًا يكن، لن أقوم به بعد الآن. في هذه المناسبة قال، لنذهب إلى صيد السمك. لذا جئت إلى البيت الأبيض واستقلنا مروحية. طرنا إلى الشواطئ الجنوبية في مريلند وتوجهنا إلى منزل صديق للانضمام إلى صديقه وزوجته وباربرا بوش".

اعترف بندر قائلاً: "صيد السمك ليس من هواياتي. فلدي حساسية على الأطعمة البحرية؛ ولا أحب صيد السمك، ولا أحب البحر كثيراً، لا سيما إذا كان عليّ أن أعمل؛ وهو يدفعني للعمل وللتصيد معه". ولاحظ بندر: "ما علق في ذهني عن تلك الزيارة، بعيداً عن أنني كنت الوحيد الذي تصيد سمكة في ذلك اليوم، هو أننا بعد أن جلسنا لتناول الغداء - وذلك يخبرك الكثير عن جورج إيتش دبليو بوش - قفز عن المائدة وأسرع مبتعداً. فوجئنا جميعاً، لكنّه سرعان ما عاد وجلس. سألته، هل كل

شيء على ما يرام؟ فقال، نعم، أردت فقط التأكد من أن الطعام قُدّم إلى رجال الأمن الذين يرافقونك".

وأكد بندر: "يخبرك ذلك الكثير عن هذا الرجل. فهذا هو نائب رئيس أميركا يتناول الغداء مع أمير عربي، وييدي اهتمامه لرجال الأمن، هل قُدّم إليهم الطعام؟ هل تتم العناية بهم؟ لقد أثار في ذلك كثيراً، وهو يرجع إلى الولاء".
وختم بندر: "اعتنِ برجالك يعتنوا بك".

روى بندر حادثة أخرى عن جورج إيتش دبليو بوش، حصلت سنة 1989، عندما تولّى بوش للتوّ منصبه كرئيس. أبلغه بندر أن الملك فهد يرغب في الزيارة. وفي أثناء اجتماعه بالرئيس بوش، قال بندر: "إننا نقيم معرضاً عن المملكة العربية السعودية في واشنطن، هل يمكننا أن ندرجه في زيارة الدولة؟". وافق بوش وعرض إذا جاء الملك فهد فسأحضر الافتتاح معه. أقيم المعرض الذي دعي "المملكة العربية السعودية: الأمس واليوم" (*) في مركز المؤتمرات في واشنطن دي سي، وعرضَ مصنوعات يدوية سعودية، وأزياء وطنية، وأدوات موسيقية، وقدم فيه راقصون رقصات تراثية. وقد عُرض بالفعل في لندن وباريس ومدريد وموسكو وفي العالم العربي. غير أن التخطيط للزيارة سرعان ما اضطرب بسبب الأحداث في الشرق الأوسط، وأرجئت زيارة الدولة. اتصل البيت الأبيض ببندر موضحاً أنه على الرغم من أن الرئيس وعد بحضور افتتاح المعرض، فإنه لن يكون من الملائم للرئيس الحضور إذا لم يتمكن الملك من القدوم.

قبل أسبوع من الافتتاح، تلقى بندر اتصالاً غير متوقّع من جون سنونو، كبير الموظفين، حيث قال: "مرحباً يا بندر. صديقك [الرئيس بوش] يسأل إذا قام بزيارة مفاجئة إلى المعرض، فهل يحدث ذلك صداعاً؟".

تبين أن الرئيس قال: "لقد وعدت بندر أن أذهب لحضور المعرض. والملك فهد لن يأتي، وسنرسل كوايل للافتتاح الرسمي. غير أنني أودّ الذهاب بشكل شخصي لأطلع على ما يعرضونه".

(*) أبلغت دانا روراباشر مجلس النواب بشأن المعرض في 24 يوليو 1989. وخلافاً للعديد من المعارض المصمّمة للترويج لتجارة، كان معرضاً ثقافياً لمساعدة الجمهور الأميركي على تفهم ثقافة المملكة وشعبها. وأقيم المعرض الذي بلغت مساحته مئة ألف قدم مربع في واشنطن بين 29 يوليو و20 أغسطس 1989.

فأجاب بندر: "أبلغه أنه على الرحب والسعة في أي وقت من هذا الأسبوع".
قال سنونو: "لم تفهم قصدي. إنه يتحدث عن الليلة".
أجاب بندر: "الليلة، أمهلني نصف ساعة".

أسرع بندر إلى مركز المؤتمرات، لكن عندما وصل كانت الفوضى تعم المكان. كان الحرس الرئاسي موجوداً هناك إذ وصل الرئيس بالفعل بصحبة برنت سكو كروفت وجون سنونو. أمضى بوش بعد ذلك نحو أربعين دقيقة متحوّلاً في المعرض برفقة بندر. يقول بندر: "يظهر لك ذلك قوّة العلاقة بيني وبين الرئيس جورج إيتش دبليو بوش. وبحلول أغسطس 1990 والغزو العراقي للكويت، أصبحت صلتنا وثيقة جداً".

أكدت الأميرة هيفاء قوّة علاقتهما مع عائلة بوش عندما قالت: "الحبة قائمة، ولا تفتري"²⁶. وعززت الأميرة لولو تعليقات والدتها: "عندما نزورهم، كأننا نزور عمّاً أو عمّة. أحب آل بوش، بصرف النظر عن أنّهم أصدقاء والدي". وتابعت الأميرة: "المسألة ليست مسألة مكانة معهم، إنّها مسألة من أنت كشخص، لا من أنت في هذا العالم. وإذا أحبوك، تعرف أنّهم يحبونك. وطريقة عمل عائلتهم وتفاعلها شبيهة جداً بطريقة عمل عائلتنا وتفاعلها، لأنّ لديهم والداً عظيمًا؛ لديهم كل قضايا السفر والعلاقات الاجتماعية والصورة العامة، لكنهم كعائلة يشكّلون وحدة لا يستطيع أحد اختراقها. ويقفون، بعضهم إلى جانب بعض، أيّاً يكن الأمر"²⁷.

من الناحية الاجتماعية، كان لبندر تأثير كبير في أسرة بوش على مرّ السنين. وتحدّث السيّد بوش بمحبة كبيرة عن زيارة بندر إلى كينبُورث، حيث "أحدث عاصفة". وروت كيف أعلن بندر أنّه سيطهو الغداء في اليوم التالي. نبّهته السيّد بوش: "لا يمكنك أن تفعل ذلك. إنّنا أسرة صغيرة جداً وقد تزعج العاملين، فهم حسّاسون بشأن الطهو". تغاضى بندر عن تنبيهاتها قائلاً: "لا، سأفعل ذلك". وأوضح الرئيس بوش: "الطاهي عندنا فلبيني كان يطهو لي في البيت الأبيض، إنه رجل رائع". لم ينزعج الطاهي أرييل البتة، بل انضمّ إلى اللهو في ذلك الصباح في المطبخ.

ضحكت السيّد بوش وهي تقول: "وما عرفته بعد ذلك أنّ الصباح بأكمله انقضى وبندر يدخن السيجار في المطبخ. وقد أحدث ذلك كثيراً من الإثارة لأنني لا أسمح لرئيس الولايات المتحدة - السابق أو الحالي - بالتدخين في المنزل! جلب معه كل شيء بما في ذلك القدور. وقد طهوا وضحكوا، كما لم يضحكوا من قبل".



جورج بوش يفاجئ بندر بزيارة غير منتظرة لمعرض "المملكة العربية السعودية: أمس واليوم"

وتابعت السيدة بوش: "طهوا الكثير وتم الإعلان عن غداء كبير وذهبنا. وكما قلت استمر الضحك ثلاث ساعات في المطبخ، وفي تلك الليلة عندما غادر قال، القدر والمقالي لكم"²⁸. في كتاب تأملات: الحياة بعد البيت الأبيض (*Reflections: Life after the White House*)، كتبت باربرا بوش عن الزيارة: "عندما حانت اللحظة الحاسمة، توجهنا إلى غرفة الطعام، إلى أكبر وجبة رأيتها في حياتي. لا يمكنني حقاً أن أذكر ما أكلنا، لكنه أعد الكثير بحيث أن نيل [ابنها] قدم بدعوة مني في المساء وحصل على قدور من الطعام، فأعاد تسخينها وقدمها إلى عشرة ضيوف. وبقي مزيد من الطعام". وظهر كل شيء في استدراك السيدة بوش عندما كتبت: "لبث بندر أربعاً وعشرين ساعة فقط لكنه كوّن صداقة مدى الحياة"²⁹.

ثمة العديد من النوادر المهمة التي تضيء الحقيقة على تلك الحملة الأخيرة. كان يتم تبادل الدعوات بشكل متكرر للاحتفال بمناسبات شخصية بين أسرتي بوش وبندر. غير أن واحدة على وجه الخصوص علقت في ذهن الرئيس وهي عندما سافرت ابنته إلى المملكة العربية السعودية كضييفة على بندر لحضور زفاف ابنته الأميرة ريماء. فقد

دعا بندر دوروثي بوش لتمثيل عائلة بوش، لأنّ السيّدة بوش لم تستطع القدوم. وفي تلك المناسبة، وجّه الدعوة إلى حفلة العروس إلى نحو ثلاثة آلاف أم وابنة هنّ صديقات العائلة. ويذكر الرئيس أنّه على الرغم من أنّ بندر استقبل كل هؤلاء الأصدقاء من العالم العربي والولايات المتحدة وأمّكنة أخرى، فقد "أدخلوا دورو في وسطهم وبقيت مع الأمير بندر؛ وقد اعتبرنا ذلك لفتة رائعة"³⁰.

لعلّ القصة الأوسع تداولاً عن الصداقة بين الأميرة هيفاء ودوروثي بوش هي الدعوة التي وجّهتها الأميرة إلى دوروثي وأبنائها في سنة 1990. كانت الأميرة هيفاء تعرف بأمر طلاق دوروثي ورجوعها إلى البيت الأبيض، وتعرف أيضاً أنّ الرئيس والسيّدة بوش سيقومان بتفقد القوات الأميركية في المملكة في مناسبة الشكر، قبيل تحرير الكويت. لذا دعت دوروثي بوش لتحتفل بمناسبة الشكر معها ومع عائلتها في مزرعة في فيرجينيا. وكان لتلك اللفتة الكريمة تجاه دوروثي تأثير كبير في جورج وباربرا بوش. فعندما وصل الرئيس إلى الرياض وشاهد بندر، عانقه، وانتحى به جانباً والتأثر بادّ عليه، وقال بعاطفة صادقة: "أنتم أناس طيّبون"³¹.

في السنوات الأربع التي أمضاها الرئيس بوش في الحكم، حظي باحترام كبير في المملكة. فقد وفرّ له كونه رجل نفط مصلحة مشتركة، لكنّ رؤيته المتوازنة في الشرق الأوسط، ونهجه الشخصي في القيادة سمحا له بتكوين صداقات في العالم العربي بسهولة. وكما كتب بوب وودوارد، شعر بندر أنّ لدى بوش رؤية متوازنة تجاه الشرق الأوسط، وأنّه لم يكن متعاطفاً مع إسرائيل ولا متمسكاً بمصالحها بشكل حصري³². وقد عزّز ذلك موقف الرئيس. غير أنّ الأهم من ذلك أنّه قاد القوات الأميركية إلى الدفاع عن المملكة في أزمة الخليج. ولكل تلك الأسباب - وغيرها - كان بندر يريد أن يفوز صديقه بولاية ثانية.

في 2 نوفمبر 1992، في الليلة التي شهدت ذروة السباق الانتخابي بين بوش وكلينتون، كان بندر محاطاً بأصدقائه، فردّ داتون، وجو رامسي، والدكتور سعيد الكرمي. جلس يشاهد النتائج بتفاؤل أعْمى على أمل أن يخرج بوش من السباق فائزاً. غير أنّ حاشية بندر ذات البصيرة السياسية كانت تدرك قبل وقت طويل أنّ الأوراق ستسقط.

قال رامسي: "كان بندر يؤيد بوش ولا مرء في ذلك. ولو كنت هناك في تلك الليلة في هيوستن، لبدا كل شيء واضحاً، حيث إن الجميع يعرفون أن بوش سيخسر. لكنّه كان متعلقاً بالأوهام"³³.

يذكر الكرّم الكرمي حماوة تلك الليلة: "كنا جميعاً نشاهد الانتخابات، واتصل بوش ببندر عند الساعة السادسة وقال، لا يبدو الأمر جيداً. فأجاب بندر، لا، يا سيادة الرئيس، انتظر قليلاً، ستكون الأمور أفضل". هزّ الكرّمي رأسه وقال: "لكن عندما ظهرت النتائج، سقطت الولاية تلو الأخرى"³⁴. اعترف داتون: "كان الأمر شاقاً عليه"³⁵.

في الساعات الأولى من 3 نوفمبر، عند الساعة 12:40 بعد منتصف الليل، وفيما كانت مشاعره مضطربة، كتب بندر رسالة تفيض بالمشاعر إلى صديقه جورج إيتش دبليو بوش.

لقد كنت نعم الصديق في السنوات الاثنتي عشرة الماضية، وأشعر بقوة صداقتنا بحيث أرى لزاماً عليّ أن أكتب إليك في هذا اليوم المهم في مسيرتك السياسية، وأشاركك في مشاعري كصديق مخلص ومعجب وشاهد منصف على التاريخ. وأياً تكن النتائج اليوم، فأنت إنسان شريف، وصديق مخلص، وقائد ذو منزلة تاريخية كان العالم محظوظاً جداً لأنك أمسكت بدفة القيادة في أثناء اللحظات التاريخية.

وتابع بندر رسالته المعبرة عن أفكاره الشخصية في صفحتين، وأشار إلى بطل تاريخي آخر، السير ونستون تشرشل، فكتب:

... لا تنسَ أن القائد العظيم في الحرب العالمية الثانية، ونستون تشرشل، خسر الانتخابات بعد شهرين من تحقيق الانتصار العظيم في الحرب العالمية الثانية، لكن ذلك لم يُنقص من عظّمته.

وختم بندر رسالته بقوله إنّه لا يزال يعتقد في قرارة نفسه أن الرئيس يمكن أن يتزع الفوز في الانتخابات، مضيفاً:

لكن إذا لم يحدث ذلك يا صديقي، فقد أصبت العظمة وأتطلع وعائلتي قدماً إلى رؤيتك وعائلتك في منزلنا الريفّي في أسبن قريباً، بصرف النظر عما يحدث اليوم. حظاً سعيداً وليباركك الله، وبارك عائلتك ووطنك العظيم³⁶.

كانت أفعال بندر وردود أفعاله في تلك الليلة المشؤومة فريدة إذ كما اعتقد جو رامسي بذكاء، "إنها المرة الوحيدة في علاقته مع بوش التي يسمح فيها أن يأتي حكمه السوي وفطرته في المرتبة الثانية بعد عواطفه. وذلك غير معهود عنه"³⁷.

كان كل أعضاء حاشية سفر الأمير في تلك الليلة في هيوستن يستطيعون أن يروا أن رغبة بندر في فوز جورج بوش تتجاوز مجرد تمثيل المصالح السعودية.

في كلمة وجهها جورج بوش عبر الراديو في 7 نوفمبر 1992، عن هزيمته في الانتخابات، بدأ بالإشارة إلى تشرشل، مثلما فعل بندر قبل ثلاثة أيام في رسالته إلى الرئيس. بدأ بالقول: "في سنة 1945، هُزم ونستون تشرشل في الانتخابات. فقال، لقد منحتُ وسام الإغفاء من الخدمة. وذلك هو الموقف نفسه تماماً الذي أجد فيه نفسي اليوم. وأعترف أنه ليس الموقف الذي كنت أفضله، لكنه حكم أحترمه"³⁸.

على الرغم من الموقف اللاسياسي، كان بندر مرتبطاً بشدة بمعسكر بوش على المستوى الشخصي وبالحزب الجمهوري، وهو موقف يشكل خطراً عليه كدبلوماسي ولا شك في أنه مَيَّز علاقته ببيل كلينتون. عند الحديث عن روابط الأمير بجورج إيتش دبليو بوش، لاحظ داتون: "كنت أعارض ذلك بشدة. كنت أقول في سنة 1992، وقال العديد من الأشخاص، جورج إيتش دبليو بوش سيخسر الانتخابات؛ وقد ربحها كلينتون. لكنّ بندر لم يشأ الإقرار بذلك؛ فقد كان إخلاصه ومحبته لجورج بوش قويين جداً"³⁹.

وأكد رامسي أنه وداتون كانا شديدي الانتقاد لولاء بندر لبوش وأنه قال للأمير بصراحة: "لقد كنت قادراً على الفصل بين عواطفك والعالم الواقعي، لكن ذلك كله خرج من النافذة عندما أحببت بوش"⁴⁰.

في أعقاب خسارة بوش أمام كلينتون، اجتمع بندر بالرئيس لاحقاً في كامب ديفيد حيث قال له: "سألني الملك فهد إذا كان هناك أي شيء يمكننا أن نفعله لك قبل أن تغادر منصبك".

أجاب بوش: "بندر، لو سألتني ذلك في اليوم التالي للانتخابات لقلت، اقطعوا العلاقات مع أميركا ولا تعملوا مع هذا الرئيس الجديد. لكن أحمد الله أنك تتحدث إليّ في ديسمبر".

في ذلك الوقت، كان بوش وبندر يتنزهان في الغابة. فقال بوش: "أبلغ صديقي الملك فهد أنه إذا كان هناك شيء أستطيع أن أطلبه، وأستطيع أن أضمن أنه سيفعله لي، أرجو أن تساعدوا هذا الرئيس الجديد. إنه شابّ وتعوزه الخبرة؛ إذا نجح نجحت أميركا، وإذا نجحت أميركا فذلك جيّد للمملكة العربية السعودية. وإذا فشل، فشلت أميركا، وإذا فشلت أميركا، فسيكون ذلك سيّئاً للمملكة".

قال بندر: "يا له من رجل". وروى أنه في تلك اللحظة سرت قشعريرة في جسده. "يا له من رجل استثنائي عظيم. إنه يطلب مني أن أساعد الرجل الذي هزمه بسبب القضية والمبادئ". وتابع بندر: "جورج إيتش دبليو بوش رجل يحافظ على الأخلاق القديمة، وعندما رويت تلك القصة أمام كلينتون بعدما أصبح رئيساً، تأثر كثيراً. وللتوّ حرص على أن يطلع موظفو الأمن القومي بوش على كل شيء طوال الوقت. ذلك يخبر الكثير عن الرجل، جورج إيتش دبليو بوش".

كانت مشاعر الكآبة اللاحقة التي أصابت بندر في أعقاب هزيمة بوش تنبع من الصداقة العميقة، والإخلاص الذي يشعر به كل منهما تجاه الآخر. وفي الحديث عن ذلك الوفاء قال الكرمي: "الإخلاص كل شيء بالنسبة إلى بندر، ولن ينسى الاستعداد الذي أبداه بوش الأب للمجيء ومساعدة المملكة العربية السعودية، أي الدفاع عن المملكة العربية السعودية سنة 1991. ويعرف بندر أن ذلك كان حقيقياً، وليس نابعاً من أي اعتبار جغرافي. والرابطة التي نشأت بين بندر وبوش في أثناء حشد القوّات استعداداً لحرب الخليج الأولى لا يمكن فصمها، على الأقل في عقل بندر"⁴¹.

في عشاء وداعي أقامه الرئيس بوش في البيت الأبيض قبل مغادرته، دعا عشرين شخصاً من أوثق أصدقائه. وكان بندر الأجنبي الوحيد من بين العشرين شخصاً. يروي بندر: "كنت في المملكة عندما تلقّيت اتصالاً ينقل لي رغبة الرئيس في التحدّث إلي، لذا اتصلت به من هناك. لم يكن يعرف أنني في المملكة؛ كان ذلك عند الثانية بعد منتصف الليل تقريباً حسب التوقيت السعودي، ونحو الساعة مساءً في واشنطن".

قال الرئيس: "مرحباً يا بندر".

قال بندر: "مرحباً يا سيادة الرئيس، كيف حالك؟".

قال بوش: "اسمع يا صديقي، ماذا لديك مساءً غد؟".

أجاب بندر: "أياً يكن، لن أقوم به بعد الآن".

قال بوش: "لقد دعوت غداً مجموعة صغيرة من الأصدقاء، سيأتي إلى العشاء لوداعي عشرون شخصاً فقط، وأحب أن تأتي إذا كنت تملك الوقت الكافي. وإذا كان لديك شيء آخر فلا تشغل بالك".

قال بندر: "لا، لا يا سيادة الرئيس، سأكون هناك".

الستقط بندر الهاتف على الفور واتصل بالملك فهد، الذي طلب منه التوجه إلى واشنطن الليلة لحضور العشاء.

ويذكر بندر: "بعد ثلاث ساعات، طرت إلى واشنطن، وتوجهت إلى البيت الأبيض مباشرة. في أثناء ذلك، أبلغ أحدهم الرئيس أنني كنت في المملكة العربية السعودية عندما اتصل بي، لذا تفاجأ عندما دخلت الغرفة. وضع يده على كتفي وقال، ظننت أنك في المملكة. قلت، كنت يا سيادة الرئيس".

بعد تناول العشاء في البيت الأبيض، أسرع بندر إلى بيته في واشنطن ليقول "مرحباً وإلى اللقاء" للأميرة هيفاء قبل العودة على الفور إلى المملكة العربية السعودية. كان بندر بوش يدعى دائماً إلى ذكرى الميلاد، والذكريات السنوية في منزل بوش. وقد أفيد أنه "عندما احتفل جورج الأب وباربرا بذكرى زواجهما الخمسين، كان [بندر] الشخص الوحيد الذي دعي في تلك الأمسية من خارج عائلة بوش"⁴².

ومؤخراً، في يونيو 2000، كان الأمير بين الضيوف في حفل ذكرى ميلاد باربرا بوش الخامس والسبعين الذي نظّمه زوجها في كينبُورت. كانت السيدة بوش تعلم أن عائلتها ستحضر - الأولاد الخمسة والأحفاد الأربعة عشر جميعاً - لكنها فوجئت عندما وجدت 185 ضيفاً من بينهم كولن باول وبندر⁴³. وعند الحديث عن ذكرى ميلاد باربرا بوش الثمانين الذي حضره بندر أيضاً، قالت ميمي بورك، سكرتيرة الأمير لسنوات عدة: "باربرا بوش من المعجبين الكبار بالأمير بندر. لقد كان حفلاً عائلياً أساساً، واعتبر بندر من العائلة"⁴⁴.

وحضر الأميران بندر وهيفاء، وابنتهما الأميرة لولو، أيضاً حفلاً نظّمه الرئيس جورج دبليو بوش في البيت الأبيض احتفالاً بذكرى زواج والدته ووالده الستين. كان حدثاً خاصاً، عشاء رسمياً في البيت الأبيض مع العائلة والزعماء الأجانب السابقين، والشخصيات الرئيسية في إدارته. كشفت التقارير الصحفية أن 130 ضيفاً دُعوا إلى الحفل من بينهم رئيس الوزراء الكندي السابق بريان ملروني ورئيس الوزراء البريطاني

السابق جون ميچور. غير أن التقارير الصحفية اللاحقة لم تلاحظ أنه عند وصول بندر مع الأميرة هيفاء وابنتهما الأميرة لولو، ارتدى الأمير قناعاً لمايكل مور أخرجه من تحت سترته التوكسيدو. وفي هذا التنكر غير المألوف، اعتذر بندر للرئيس قائلاً: "لن يستطيع الأمير بندر الجيء للأسف وطلب مني أن أحضر بدلاً منه". تردّد الضحك في الحفل. غير أنه لا يستطيع إلاّ صديق مقرب تنفيذ هذا المزاح نظراً إلى العداوة بين الرئيس ومايكل مور.

يتردّد صدى التدريب العسكري المنضبط الذي تلقاه بندر وجورج إيتش دبليو بوش في سنّ مبكرة، وخبرتهما في الطيران، وتفهمهما لقيمة الرفقة في صداقتهما، مع إحساسهما العميق بالولاء والعائلة والضيافة.

كوّن بندر في سنوات عمله كسفير صداقة وثيقة أخرى. فقد عرف كولن باول بندر منذ خمس وعشرين سنة. يقول عن ذلك: "التقينا في سنة 1979 عندما كنت عميداً شاباً أجول في المنطقة مع قائدي في ذلك الوقت. كنّا في الظهران في المملكة العربية السعودية مع مجموعة من الضباط السعوديين. فجأة فُتح الباب ودخل هذا الضابط السعودي في سلاح الجو، أعتقد أنه كان رائداً في ذلك الوقت، لكنّه بدا أعلى من رائد حيث إنّ الحاضرين وقفوا بهدوء عندما دخل. كان ذلك أول لقاء لي ببندر".

وتابع باول: "بعد ذلك بسنة، جاء إلى واشنطن، وتعرّفت إليه على أساس مهني لا على أساس شخصي... وكنا نلعب كرة المضرب معاً". ولم يستطع باول أن يقاوم إضافة: "ولم يكن لاعباً جيّداً جداً". وأوضح: "أصبحنا صديقين. ومرّت السنوات: وعدت إلى العمل مع كاسبار واينبيرغر سنة 1983. وكان بندر يوطّد مكانته ببطء باعتباره صلة الوصل الرئيسية مع الحكومة السعودية. وصرنا نتفاهم معاً".

وفي متابعة روايته عن تلك العلاقة، قال باول: "أصبحت نائب مستشار الأمن القومي سنة 1987، ثم مستشار الأمن القومي أواخر سنة 1987 ورئيس هيئة الأركان المشتركة أواخر سنة 1989. وكانت لدينا كثير من المغامرات في تلك السنوات"⁴⁵. في مكتب الأمير في الرياض، توجد صورة فوتوغرافية لباول بلباس القتال كتب عليها الجنرال: "إلى صديقي بندر. مع إعجابي ومع كل الذكريات الرائعة لمغامراتنا معاً. يلزم رجل ليعرف رجلاً". وشرح باول أن معظم الأميركيين يفهمون القول: "يلزم مهذار ليعرف مهذاراً". وبالإشارة إلى ذلك المثل، أوضح باول: "كنت أقول له، الأمر



الشريكان في لعبة المغرب
كولين باول وبندر

الرائع في شأن صداقتنا هو أنني أعرف يا بندر متى تكذب عليّ وأنت تعرف أنني أعرف أنك تكذب، والعكس صحيح. أنت تعرف متى أكذب عليك وأعرف أنك تعرف أنني أكذب. وكنا نضحك على ذلك". وتابع باول: "كنا معاً في كثير من الأمور، كممثلين متخصصين لحكومتينا، من دون أن ننسى ذلك، ولكن على المستوى الشخصي أيضاً"⁴⁶.

لا يوجد مؤشّر أفضل على الصداقة الوثيقة التي ربطت بين الأميرين بندر وهيفاء بكولن باول، من استضافتهما باول في حفل عشاء رسمي متألئ

في منزلهما الرائع في مكّين على شرف كولن باول، في أعقاب تقاعده كوزير للخارجية. حضر المأدبة ستون ضيفاً من أصدقاء بندر وباول، منهم ريتشارد أرميتاج^(*) وفرانك كارلوتشي^(**) وطوم كلانسي^(↓) وسام دونالدسون^(↓↓) وألان غرينسبان^(↓↓) ومجموعة من الشيوخ البارزين والمسؤولين في الحكومة والسفراء وزوجاتهم.

(*) نائب وزير الخارجية السابق (2001 - 2005)، ونائب مساعد وزير الدفاع لشؤون شرق آسيا والمحيط الهادئ (1981 - 1983).

(**) رئيس مجلس إدارة متقاعد حالياً، وسابقاً، رئيس مجلس إدارة مجموعة كارلايل (1993 - 2003)، ووزير الدفاع السابق (1987 - 1989). وكان أيضاً مستشار الأمن القومي للرئيس رونالد ريغن قبل توليه وزارة الدفاع.

↓ روائي حظي كتابه الأول "مطاردة أكتوبر الأحمر" بشهرة عالمية كبيرة وصور للسينما. ومنذ ذلك الحين كتب كلانسي العديد من الكتب الأكثر مبيعاً، وبعد انتهاء الحرب الباردة، تتركز رواياته وأبحاثه الأخيرة على الشرق الأوسط.

↓↓ سام دونالدسون مذيع ربط ثان في برنامج "برايم تايم لايف"، وعضو هيئة حوار منتظم في برنامج "ذيس ويك"، وصحافي إذاعي رئيسي.

↓↓ شغل آلان غرينسبان منصبه في 19 يونيو 2004 كرئيس لمجلس حكام نظام الاحتياطي الفيدرالي للمرة الخامسة. وقد تقلّد هذا المنصب أول مرة لشغل ولاية غير منتهية في المجلس في 11 أغسطس 1987. وأعيد تعيينه بعد ذلك في المجلس لمدة أربع عشرة سنة بدأت في 1 فبراير 1992 وانتهت في 31 يناير 2006. وهكذا خدم غرينسبان رئيساً لمجلس حكام نظام الاحتياطي الفيدرالي ثماني عشرة سنة وخمسة أشهر، وهي ثاني أطول مدة كرئيس لمجلس.

في أثناء العشاء الخاص والحميم، قدّم بندر شهادة بليغة على صداقته الوثيقة بكونه باول قائلاً بشكل مازح: "إنه الرجل الوحيد الذي أعرف، والمسؤول الوحيد في الحكومة الأميركية، الذي لديه أمير كسكرتير". وعندما هدا الضحك، أشار بندر: "لكي أظهر لكم كم يسيء استخدام سلطته، أجريت اليوم اجتماعين في الجوار هنا - في وزارة الخارجية والبيت الأبيض - وكان عليّ أن أسرع وأوجز في الحديث لكي أتوجه إلى منزله حاملاً مخطط الجلوس لكي يقول ما يجب عمله".

وتابع بندر: "أقول جاداً، لقد التقيت بكثير من الأشخاص في حياتي، كملوك، ورؤساء أحزاب شيوعية سابقين، ورؤساء، ورؤساء حكومات، وغيرهم، وقلة منهم أنظر إليهم باحترام كبير وإعجاب - وبقدر ما يؤمني أن أقول - وبمحبة أيضاً، مثلما أنظر إلى هذا الرجل العظيم. لقد شهدنا أوقاتاً جيّدة وأوقاتاً سيئة معاً. عندما تكون المغادرة سهلة هناك العديد من الأشخاص مثل كولن باول، ولكن عندما تكون قاسية، لا يوجد سوى القليل القليل منهم، ويا صديقي كولن، سنفتقدك، لكن الوقت عسير وأنت تعلم أننا سنعود إليك جميعاً من أجل النصح والتوجيه".

وفي امتداح هازل للدعم الذي قدّمته ألما باول إلى زوجها، قال بندر مناكفاً: "السبب الوحيد لنجاحنا أنا وكولن هو أننا تزوّجنا ممن أرفع مقاماً متناً؛ ونحن محظوظان جداً". وفي الملاحظات الختامية كشف بندر الطبيعة الحقيقية لإعجابه بباول وصداقته معه عندما قال: "يشرفني تكريم هذا الرجل العظيم والصديق العظيم. وأودّ تذكير الجميع أنّ النار تضيء الدفء على الجسم لكنّ الصداقة تغمر القلب بالدفء؛ ولقد غمرت قلوب كثير من الأشخاص في العالم بالدفء يا كولن"⁴⁷.

وفي الردّ، ذكر باول مضيفه أنّهما خدما معاً في ظل خمسة رؤساء منذ أن التقيا لأول مرة في قاعدة جوية في المملكة العربية السعودية سنة 1979، عندما دخل رائد شاب إلى اجتماع مرتدياً بذلة الطيران مع وشاحه الأحمر المعهود. "أصبحنا صديقين في ذلك اليوم، وهي صداقة استمرّت خمساً وعشرين سنة، في الأوقات الطيبة، وأوقات التحدي، وأوقات الفرص. وإنني أقدر صداقة لا تربطني بك وحدك، يا صديقي العزيز، بل ببلدك وقادة بلدك. إنّها علاقة صمدت أمام اختبار الزمن وعادت بالفائدة على بلدنا".

وتابع باول تنويهاً قائلاً: "إنّ جوهر علاقتنا ليس ما نفعله معاً. ولا أعتقد أنّي أغالي إذا قلت إنني وأنا والأمير مثل أخوين، وهكذا نحن منذ سنوات عديدة".



إلى صديقي بندر، مع إعجابي،
ومع كل الذكريات الرائعة لمغامراتنا معاً.
"يلزم رجل ليعرف رجلاً".

كان باول عازماً على ممارسة إحدى الألعاب، فذكر أنه أعطى الأمير صورة له لكي يعلقها في السفارة، لكنه أشار إلى أنها اختفت. وأوضح باول: "في سنة ليست بعيدة، قدّم إليّ بندر هدية، وكانت هدية جميلة انتظرتها بشغف لأنه قال إني سأعجب بها! وتبين أنها صورة لبندر في إطار فضي جميل، ولطالما فكّرت كيف سأردّ له الهدية؟".

في هذه اللحظة أدخل العاملون لدى الأمير صورة كبيرة لكون باول قدّمها إلى بندر قائلاً: "هذه الصورة بدلاً من الصورة المفقودة؛ ويجب أن تعلق في مكان يستطيع أن يرى بندر

أنها تنظر إليه لتذكره أنني ما زلت أراقبه"⁴⁸. وعندما هدأ الضحك، ذكر باول الحضور أن اليوم هو أيضاً ذكرى ميلاد الأمير وقدّم إليه تمثال بافالو برونزياً صغيراً رائعاً.

بعد العشاء قدّم ترفيه فنيّ في غرفة الاستقبال الرائعة، حيث أمتعت روبرتا فلاك الحضور بمجموعة من أعمالها الناجحة، بما في ذلك أحد أعمالها الذي وضعته خصيصاً لنلسون مانديلا. وبما أنها من الفنانين المعتادين في السهرات الاجتماعية التي يقيمها بندر، فقد نشأت صداقة بينهما. عندما سئلت فلاك كيف تجد بندر، أجابت على الفور: "أعتقد أنه الدبلوماسي البارِع على كل المستويات، الشخصية وسواها. إنه مستمع جيد. وهو أكثر من دبلوماسي، إنه يتحلّى بروح عالمية. وهو ليس فاتناً فحسب، لكن ثمة شيء يتوهّج في شخصيته. ومع الأمير بندر، ما تراه هو ما تحصل عليه". وتوقّفت فلاك لفترة وجيزة ثم أضافت: "إنه رائع وجذاب".

ثم أبرزت فلاك قدرة الأمير على جعل المرء يشعر أنه مهتمّ جداً لما يقول. وأكدت: "يمكن الاعتماد على الأمير أن يكون صادقاً ونزيهاً قدر المستطاع. وهو يتحلّى بالكرامة والاستقامة والذكاء. إنه رجل رائع، وأمير لديه القدرة على التواضع إلى أبعد الحدود. وهو يحب الحياة ويحب أبناءه، إنه والد صالح وجدّ صالح"⁴⁹.

يتمتع بندر بصداقات راسخة مع العديد من زعماء العالم، لكنّه يَكنّ تقديراً خاصاً لمارغريت تاتشر. كما أنّ صداقته مع الأمير تشارلز وثيقة جداً، وقد وجّه تشارلز دعوة شخصية إلى بندر لحضور زواجه من كاميللا باركر باولز في أبريل 2005⁵⁰. ويمكن تتبّع تلك الصداقة إلى تجربتهما في كرانول (كان تشارلز يتدرّب أيضاً في قاعدة سلاح الجو الملكي في كرانول) وانبهار تشارلز بالإسلام.

غير أنّ علاقة بندر بالرئيس السابق نلسون مانديلا خاصّة جداً بالفعل. إنهما قريان بشكل مدهش. وينظر بندر إلى مانديلا كمعلّم ورجل دولة من الطراز العالمي، في حين يرى مانديلا أن بندر يتحلّى بدفء، وذكاء، وإخلاص استثنائي. ولعل أفضل ما يوضح عمق العلاقة بينهما قرار مانديلا دعوة بندر إلى حضور زواجه من السيدة غراكا ماتشل يوم احتفاله بذكرى ميلاده الثمانين، وهو يوم امتلأت فيه بريتوريا برؤساء الدول الزائرين الذين لبّوا الدعوة إلى حضور حفل ذكرى ميلاده في وقت لاحق من تلك الليلة.

يذكر مانديلا: "عندما تزوّجت زوجتي واحتفلت بذكرى ميلادي الثمانين، دعوت بندر. كانت مجموعة منتقاة فحسب"⁵¹. في الواقع، كان الزواج شأنًا عائلياً، إذا استثنينا الرئيس مبيكي، ورئيس الأساقفة دزموند توتو، وبندر.

ويروي بندر: "تلقيت اتصالاً من مانديلا. كنّا في بريتوريا للاحتفال بذكرى ميلاده الثمانين، فقال، إذا لم يكن لديك ما يشغلك، أود أن تأتي في الصباح إلى القصر الرئاسي في بريتوريا. لدي اجتماع عائلي لأولادي وأحفادي".

وهكذا في صباح اليوم التالي توجه بندر إلى القصر وأمضى بعض الوقت مع مانديلا وعائلته.

وفي أثناء ذلك، انتحى مانديلا ببندر جانباً وسأله: "ما لديك بعد ظهر اليوم؟".

أجاب بندر: "لا شيء يا سيادة الرئيس، سأرتاح وأعدّ نفسي للحفل الكبير".

فقال مانديلا: "أعتقد أنّ في وسعك المحيء لنشرب الشاي معاً؟".

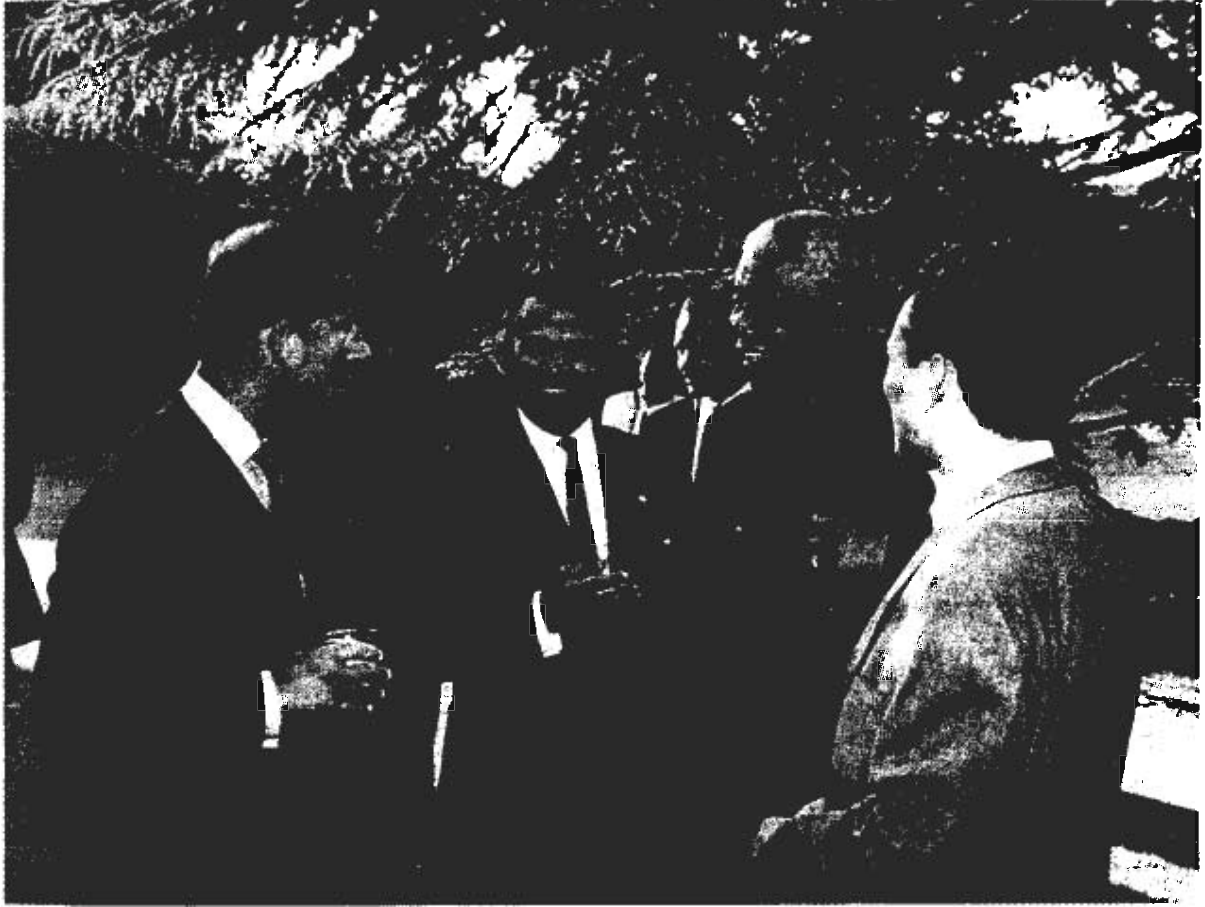
فكّر بندر: "ذلك لطف منه، لكن تكتنفه الغرابة. لقد شربت للتو الشاي معه

ومع أبنائه وأحفاده، وسأتناول العشاء معه في الحفل، فلماذا يريدني أن آتي لشرب

الشاي؟".

ولمّا لم يكن يرغب في رفض دعوة أو فرصة لتمضية الوقت مع مانديلا، سأله

بندر: "في أي وقت؟".



بندر مع اثنين من أقرب أصدقائه: نلسون مانديلا والأمير تشارلز في منزل بندر في غليمبتون بارك

أجاب مانديلا: "في الرابعة في جوهانسبرغ، في منزلي الخاص، لا القصر الرئاسي". قال بندر: "حسناً".

قال مانديلا فيما بندر يغادر: "أريد أن أخبرك شيئاً، بيني وبينك. لا تخبر أحداً، سأتزوج بعد ظهر اليوم".

صاح بندر: "ماذا؟! رائع! لكن هل الأمر صحيح؟".

"نعم، نعم، أجب مانديلا". ووجه الدعوة إلى بندر لحضور زواجه عصر ذلك اليوم.

وفيما كانا يخرجان، قال مانديلا: "أريدك أن تلتقي بأحدهم؛ سجاني. وهو رجل أبيض قادم للاحتفال بذكرى ميلادي الثمانين. لديه بعض الهدايا لي. دعنا نذهب ونرى".

قدّم السجان لمانديلا بعض الشامبو وصابون الحمام، من النوع نفسه الذي كان يهرّب به لمانديلا عندما كان في السجن. فكّر بندر في سرّه: "يا له من رجل، حتى سجانه جاء ليحتفل معه"⁵².

عندما عاد بندر إلى بريتوريا، قرّر أن يتوجّه إلى غرفته وألا يقابل أحداً، حتى لا يزلّ ويفشي سرّ زواج مانديلا. لكن بُعيد وصوله، تلقّى اتصالاً من مبيكي الذي أبلغه أنّه دعى إلى الشاي مع الرئيس في الرابعة عصراً. قال بندر: "حسناً، أراك عندئذ". لم يذكر شيئاً عن الزواج، ولا مبيكي الذي لم يكن على علم بالحفل المزمع.

في وقت لاحق من ذلك اليوم توجّه بندر إلى منزل مانديلا حيث كان هناك عشرة مراسلين ومصوّرين، يلتقطون صوراً لكل من يدخل البيت أو يخرج منه إذ اليوم ذكرى ميلاده. خرج مانديلا والسيدة ماتشل للقاءه وقدماه إلى العائلة. وكشف مانديلا أنّه قدّم إلى عائلتها ثلاثين بقرة كمهر.

لم يكن بندر يدرك أنّ حفل الزواج سيقصر على عدد صغير، "ظللت أنتظر بقية الضيوف لأنّ المدينة مليئة بالمشاهير من كل أنحاء العالم، ولم يأت أحد. انتظرت الشخصيات المهمّة، ولم يأت أحد. وانتظرت المسؤولين الآخرين في حكومته، لكن لم يأت أحد. كان هناك ثلاثون شخصاً على الأكثر. وكلّهم من عائلته أو عائلتها، ولم يكن هناك ضيوف غير توتو ومبيكي وأنا".

دُهِش بندر من الطبيعة الحصرية للجمع وذُهِل عندما عرف أنّ مانديلا دعا إماماً مسلماً، وقسيساً بروتستانتيّاً، وحاخاماً، وكاهنة هندوسية لإجراء مراسم الزواج. "كان الأمر سورالياً حقّاً، ولم أكن أعرف ماذا أفعل. فكّرت أنّه ربما كان يجدر بي عدم المجيء. لكن فجأة أدركت أنّني واحد من العائلة"⁵³.

ترأس القدّاس رئيس الكنيسة الميثودية، الأسقف مفومي داندالا، يساعده صديق مانديلا ومستودع أسرارهِ رئيس الأساقفة دزمووند توتو، الذي بارك الزواج. وذكر أحد المراسلين لاحقاً أنّ مانديلا ارتدى أحد قمصانه المميّزة، وأنّ السيدة ماتشل ارتدت فستاناً قطنياً طويلاً أبيض اللون ومطرّزاً بجيّد ذهبي. وفي نهاية الحفل، تبادل الزوجان السعيدان الخاتمين والقبلات، ثمّ باركهما الشيخ نذير محمد، رئيس مجلس القضاء الإسلامي، وكريشني ناناشاند، ممثّلة الدين الهندوسي، والحاخام الأكبر سيريل هاريس⁵⁴.

ويذكر بندر: "كنت واحداً من ثلاثين شاهداً. وقد تزوّج ماديا والسيدة ماتشل وفقاً للديانات الهندوسية والإسلامية والمسيحية واليهودية. وذلك أغرب حدث اجتماعي شخصي تاريخي أشهده في حياتي"⁵⁵.

عندما طلبت من مانديلا لاحقاً أن يؤكد زواجه وفقاً لأربع ديانات مختلفة، أجاب ببساطة: "ذلك صحيح، حرصت على ألا أستبعد أي ديانة كبرى لأن تلك طريقة لتوحيد البلد ووضع كل هذه الديانات على قدم المساواة"⁵⁶. كانت التفاتة شخصية غير عادية، لكن مانديلا كان فخوراً بالتسامح الديني الذي تبديه حكومته التي تضم عدة وزراء مسلمين، وكان مهتماً لشأن التوتر المتصاعد بين المسيحيين والمسلمين في جنوب إفريقيا. وهو يؤمن بشدة أن جنوب إفريقيا يمكنها أن تساعد في ردم الانقسام الديني في العالم اليوم⁵⁷.

في نهاية الحفل، التفت مانديلا إلى رئيس الأساقفة توتو وأشار إليه بابتسامة عريضة قائلاً: "هذا هو الرجل الذي دفعني للإقدام على ذلك. كنا سعيدين بالعيش معاً وأشعر أنني مسنّ على الزواج مجدداً. ولم تكن السيدة ماتشل ترغب في الزواج. غير أنك ألححت أنني قدوة تحتذى للشبان وأن عيشنا معاً يمكن أن يفهمه الكثيرون أنه عيش في الخطيئة. لذا علينا أن نلومه على زواجنا".

وقال مانديلا لبندر: "ظل هذا الرجل يلح عليّ ويلح قائلاً، أنت قدوة للشعب والشبان. إننا نبلغهم أننا مبتلون بالإيدز [في جنوب إفريقيا]، ويجب ألا تفعلوا شيئاً خارج الزواج. ماذا يسعنا أن نبلغهم عندما يقولون، انظروا إلى رئيسنا وبطلنا، إنه يقيم مع امرأته. لذا اضطررت إلى الزواج لأتخلص من إلحاحه"⁵⁸.

وعندما سُئل مانديلا لماذا دعا بندر إلى الانضمام إلى مثل هذا الزواج الحميم، أجاب: "إنني خارج التداول الآن، لكن كلما خطّطت لشيء كبير، يكون دائماً في البال. الأمير بندر صديقي"⁵⁹.

عندما كان بندر يغادر حفل الزواج قال: "أتمنح إذا أبلغت جلالة الملك وولي العهد بهذا الزواج؟".

أجاب مانديلا: "لا، على الإطلاق. يمكنك إبلاغهما الآن".

"وماذا إذا سألتني الصحافة؟".

قال مانديلا: "يمكنك تأكيده، لكننا لا نريد أن يتحدث أحد عن التفاصيل".

بعد أن ودّع بندر مانديلا، أراد العودة إلى بريتوريا للإعداد لحفل ذكرى ميلاد مانديلا في وقت لاحق من مساء اليوم نفسه. يذكر الأمير كم كان منهكاً عاطفياً وجسدياً ويريد الحصول على بعض النوم قبل حفل ذكرى الميلاد. عندما غادر بندر

بسيارته، حلّ ربطة العنق وأشعل سيجاره. "ظننت أنني أسير في حديقة حيوانات! فجأة أصبح هناك مئات المصورّين والمراسلين بدلاً من عشرة. بدا الأمر أشبه بأعمال الشغب. كان الجميع يدفعون كاميراتهم في وجهي. لقد انتظروا طيلة بعد الظهر والصورة الوحيدة التي حصلوا عليها صورتي".

بعد الهروب من شغب وسائل الإعلام عند مغادرة حفل زواج مانديلا، عاد بندر إلى الفندق. وفور وصوله رنّ الهاتف. يقول بندر: "أبلغت أنّ مدير السي أن أن يتصل من أطلنطا".

قال المدير: "سمعنا إشاعات عن أنّ الرئيس مانديلا تزوّج للتوّ، لكن لم يؤكّد أحد ذلك. وفهمنا أنّك كنت هناك، وشاهدك طاقمنا خارجاً من منزله؛ يمكنك أن تساعدنا، أرجوك؟".

قال بندر: "كيف سمعت الشائعات؟ عبر الهاتف؟".

ردّ مدير السي أن أن: "لا. الجميع يتزاحمون لتوكيد الخبر، لكن لا أحد يجروّ على قول شيء بشأن مانديلا. إنّنا بحاجة إلى تأكيد".

أجاب بندر: "نعم، أستطيع أن أوكّد لك أنّه تزوّج".

سأل مدير السي أن أن: "هل أنت مستعدّ للخروج على الهواء مع السي أن أن في خير عاجل؟". وعندما وافق بندر، قال: "سأرسل إليك طاقماً".

ردّ بندر: "لن أتحدّث على الهواء، ولن أتحدّث أمام الكاميرا".

"يا إلهي". قال المدير محبطاً. "يمكنك أن تتحدّث إلى مراسل عبر الهاتف؟".

أجاب بندر: "بالتأكيد، لكن لا يمكنني أن أقول سوى أنّي كنت هناك، وأنّه تزوّج، ومن تزوّج. لكن لا تسألني: من كان حاضراً، وما اسمائهم، وماذا حدث، وما إلى هنالك".

أجاب المدير: "لا بأس، أي شيء، لكن تحدّث إلينا أولاً أرجوك".

يذكر بندر أنّه شغلّ التلفزة على محطة السي أن أن ليجد عنواناً يفيد: "خير عاجل، الرئيس مانديلا تزوّج ولدينا توكيد خاص". وتابع أحد المراسلين: "كان الأمير بندر، السفير السعودي في الولايات المتحدة، وهو صديق مقربّ إلى مانديلا، من القلّة التي حضرت الزواج وقد وافق على التحدّث إلينا". وفيما الخطّ لا يزال مفتوحاً، سأل: "سموّ الأمير بندر، هل يمكنك أن تسمعني؟".

"نعم". أجاب بندر.

"هل الخبر صحيح؟".

"نعم، الرئيس مانديلا تزوّج عصر هذا اليوم. أرجو له ولعروسه الخير والسعادة.

إنّه يوم سعيد لأنّ ذكرى ميلاده وحفل زواجه في اليوم نفسه".

ثمّ سأل المراسل: "هل كنت حاضراً شخصياً؟".

أجاب بندر: "بالطبع كنت حاضراً، وكان هناك بعض الأصدقاء والعائلة".

وسأل المراسل: "كيف كانت العائلة؟".

قال بندر: "لا أستطيع أن أخبرك. إذا أراد الأصدقاء والعائلة التحدّث، فذلك

حقّهم لا حقّي".

تابع المراسل المحبّط: "سؤال أخير، ما عدد الأشخاص الذين حضروا؟".

"بين عشرين وثلاثين شخصاً".

"هذا العدد فقط؟".

"نعم".

"حسناً، ماذا تعرف عن الزواج؟".

ردّ بندر بفظاظة: "لي أن أعرف، ولك أن تكتشف ذلك بنفسك! إلى اللقاء"⁶⁰.

منذ أن أنشأ الرئيس السابق لجنوب إفريقيا مؤسّسة نلسون مانديلا سنة 1999،

عقد العديد من الاجتماعات، وأجرى الكثير من المكالمات الهاتفية مع زعماء العالم،

وسافر إلى العديد من بلدان العالم، وقد نظّمت ذلك كله سكرتيرته المخلصة زلدا لو

غرانج. وكان يسافر حتى عهد قريب بشكل متكرّر إلى بريطانيا والولايات المتحدة

والشرق الأوسط، وغالباً بطائرة الأمير بندر الخاصة⁶¹. وفي أثناء اجتماعي بنلسون

مانديلا وجيكس جيروول، ذكره جيكس أن طائرة بندر كانت متاحة له دائماً. فوافق

مانديلا بسرعة قائلاً: "ذلك صحيح جداً. لم يتردّد البتّة، وهو الذي يعرض في معظم

الأحيان؛ لا أعرف كيف يسمع عنا في بعض الأحيان ويتقدّم بعرضه"⁶².

أكّد جيمس بيكر هذا الكرم الذي يتحلّى به بندر وقال: "أحضر الأمير بندر

نلسون مانديلا إلى معهد رايس بطائرته الخاصة وحظيت تلك الزيارة بنجاح فريد"⁶³.

وفي تلك المناسبة، كان بندر يرافق مانديلا. وفيما كان يجيب عن أسئلة الحضور، سأله

فتى في الثانية عشرة "كيف يريد أن يُذكر، وماذا يوجد في قلبه؟". فأجاب مانديلا: "لا

أريد أن أذكر كملاك. أنا رجل عادي لدي مواطن ضعف، لست قديساً، ما لم تكن تعتقد أن القديس عاصي يواصل المحاولة⁶⁴.

خلافاً للعديد من طائرات المسؤولين التنفيذيين، نادراً ما تمكث طائرة بندر إيرباص 340 ذات الأربعة محركات على المدرج طويلاً. فهي تُستغل كثيراً، حيث تطير نحو ألف ساعة في السنة⁶⁵. ويُظهر فحص سجلات الطائرة الجوية أن المسافة السنوية التي تقطعها بالأميال تكفي لنقلها إلى القمر وإعادتها كل عام، فضلاً عن السفر حول الكرة الأرضية ثلاث مرات، وتستهلك هذه الرحلات ما يقرب من 1.8 مليون غالون من الوقود سنوياً. ويشمل سجل طيران الطائرة وجهات متنوعة مثل أغادير، وعمّان، وأنكوراج، وكيب تاون، والدار البيضاء، وهونولولو، وإسلام آباد، وريو دي جانيرو، وسانتا لوتشيا، وطرابلس، وكسيان.

تولّى روبرت ديكون إبيوت مسؤولية الإشراف على إعادة تجهيز طائرة بندر قبل أن يتسلمها. فقد أمضى اثني عشر شهراً يخطط بدقة لكل تفاصيل تصميم الطائرة. وهو جدول عمل طموح تمّ ضمن الموازنة المرصودة وفي الوقت المحدد. وفي لفته استعراضية، تمّ توقيت تسليم الطائرة في واشنطن بحيث يتطابق مع ذكرى ميلاد بندر في 2 مارس 1998⁶⁶.

وفي حين يتولّى روبرت ديكون إبيوت مسؤولية طائرة بندر وأطقمها، يتولّى ريتشي توماس تنظيم العمليات اليومية، وهو طيار موهوب ذو سجل طيران استثنائي. ويمكن القول إنه من أكثر القادة السابقين لفريق رد أرو خبرة، وهو فريق عرض للألعاب البهلوانية الجوية في سلاح الجو الملكي. وتحتاج الطائرة إلى طاقمين: أحدهما أميركي والآخر بريطاني، يعمل الطاقم شهراً ويرتاح شهراً. وكل الأطقم الأميركية من الطيارين السابقين في الفرقة 89 أو الطائرة الرئاسية⁶⁷.

شهدت طائرة بندر أيضاً العديد من الزوّار المميزين. يذكر طاهي الطائرة، هنري بوهوم: "ركب الرئيس جورج بوش الأب والسيدة بوش الطائرة في العديد من المناسبات، وكذلك وزير الخارجية بيكر وباول"⁶⁸. وعرضت علي كبيرة المضيفات جينا برستون صوراً فوتوغرافية التقطت من واشنطن إلى هيوستن. كان ضيوف بندر في الطائرة في تلك المناسبة يحضرون جنازة ريغن في كاتدرائية واشنطن الوطنية، وهم في طريقهم إلى هيوستن لحضور ذكرى ميلاد الرئيس بوش الثمانين. وأوضحت: "كان

لدينا الرئيس غورباتشيف، والرئيس بوش وزوجته، ووزير الخارجية بيكر وزوجته، والجنرال سكو كروفت، ومغني الأوبرا الأيرلندي رونان تينان، الذي أدى في الكنيسة في أثناء الجنازة"⁶⁹.

وقد زُيّنَت الطائرة بأشرطة التهئة، والرايات، والبالونات احتفاءً بذكرى ميلاد الرئيس بوش، وارتدى طاقم الطائرة بأكمله أزياء رعاية البقر في تلك المناسبة. وكانت الموسيقى من نوع الكونترتي (الريفية)، وضمت طاولة الغداء في مركزها كعكتي ذكرى ميلاد - كعكة كنموذج للبيت الأبيض بالشوكولا البيضاء، وأخرى على هيئة فيل الحزب الجمهوري بالشوكولا الداكنة - وقد أخذتهما السيدة بوش معها عندما وصلوا إلى هيوستن⁷⁰.

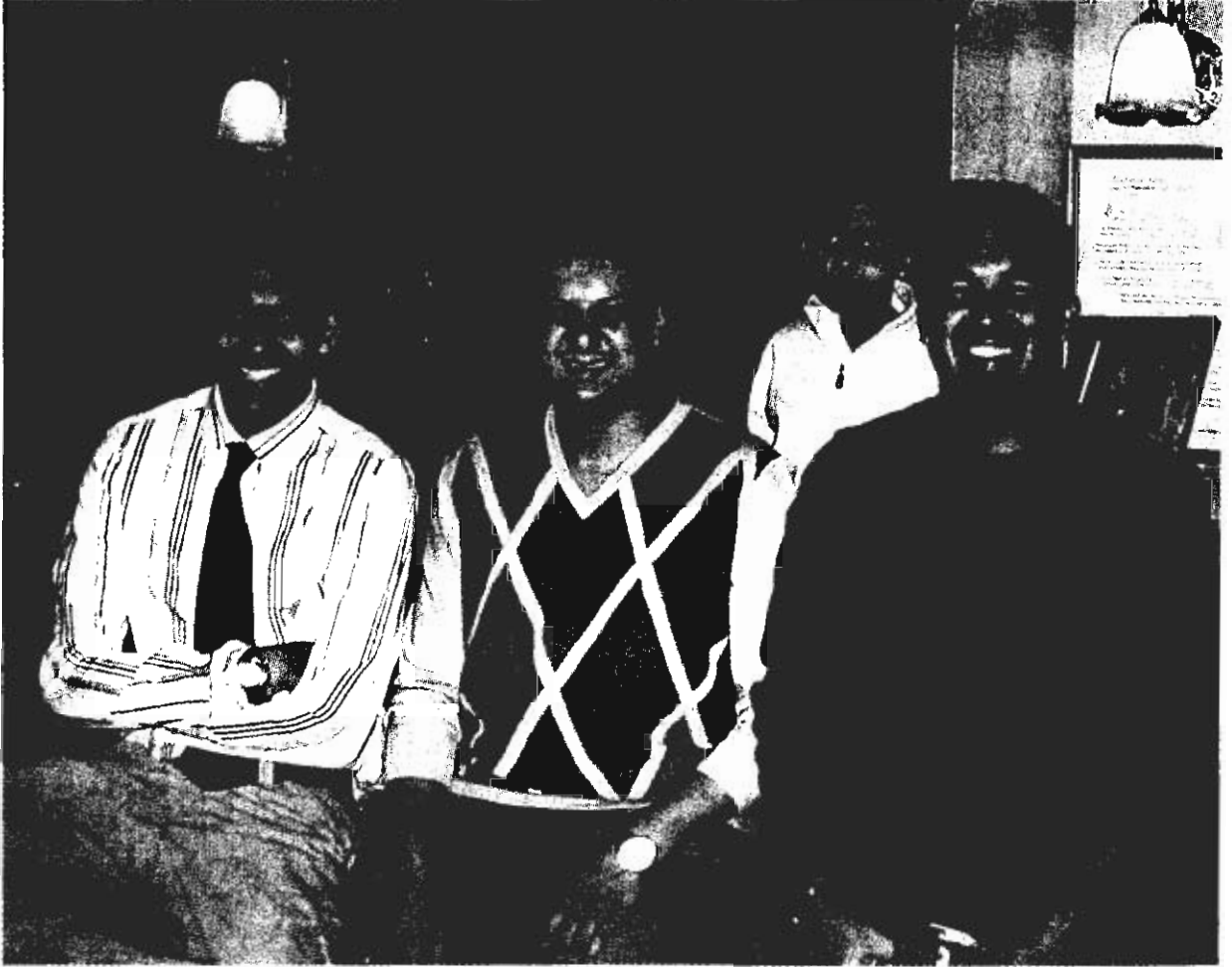
المزاح، والظرف، والميل إلى المرح أوجه دائمة الحضور في شخصية بندر. وثمة حادثة وقعت على متن الطائرة توضح تماماً حسن الفكاهة لديه.

الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمير بندر، يصاب بالتوتر في أثناء الطيران، ويكره عملية الإقلاع على وجه الخصوص. عند الإعداد للمغادرة في أثناء جولة للخطابة، تمّ إشعار أن الأمير بندر سيحضر. وبعد قليل حضر الحراس الشخصيون وغيرهم من الموظفين وعبروا المقصورة باتجاه الجزء الخلفي للطائرة.

أعلنت الضحكة الواسعة وكلمة الترحيب القلبية "مرحباً بالجميع" عن ظهور الأمير الاستثنائي في المقصورة. فحض الجميع واختلطت تعابير الترحيب وتراوحت بين، "مساء الخير يا صاحب السمو الملكي"، و"مرحباً بالأمير بندر"، وأخيراً الترحاب المؤلف، "مرحباً بالمعلم". غير أن الأمير بدلاً من أن يجلس في مقعده أعلن أنه سيتوجّه إلى مقابلة الطيار وتقدّم نحو حجرة القيادة، والتفت إلى ديكون إليوت وغمزته، قبل أن يخنفي عن الأنظار.

عندئذ أخذت الطائرة تتحرّك. وكالعادة، بدا فيصل خائفاً من الإقلاع الوشيك. وفيما درجت الطائرة على المدرج، اتضح التقدّم على الشاشة العملاقة عند القاطع الأمامي، إذ ثمة خمس أو ستّ كاميرات خارجية موضوعة في مواقع استراتيجية توفرّ مشاهد من جوانب الطائرة كافة. وفي نهاية المدرج، توقّفت الطائرة مؤقتاً استعداداً للإقلاع.

وفيما أعدّ الجميع أنفسهم لصخب المحرّكات المؤلف وحلّ المكابح، جاء إعلان غير متوقّع من كابتن الطائرة، الطيار آل تيرنر. قال بلهجته الإنكليزية الممتازة: "سيداتي



من اليسار إلى اليمين: ابنه فهد، صهره الأمير فيصل بن تركي، وابناه فيصل وعبد العزيز

سادتي، الأمير بندر سيتولّى القيادة حتى بلوغ الطائرة ارتفاع الطيران. استعدّوا للإقلاع. طاقم المقصورة، الرجاء الجلوس في أماكنكم". ولم تكذ تنتهي الرسالة حتى ارتفعت وتيرة المحرّكات، وأسرعت الطائرة على المدرج. بدا الرعب ظاهراً على وجه الأمير فيصل، وازداد قلقه عندما استجمعت الطائرة سرعتها.

جاء الآن إعلان آخر من حجرة القيادة، بثبات يا صاحب السمو، أبقِ الاتجاه إلى الأمام إلى أن أشير عليك بالموافقة. وتواصل التعليق من حجرة القيادة. تسعون عقدة، مئة عقدة، استعدّ للدوران، (توقّف مؤقت)، انعطف (ثم تنبيه) بثبات، هكذا، انتبه إلى جانبك الأيمن يا صاحب السمو، على مهل، ممتاز! تواصلت هذه التعليقات من حجرة القيادة فيما الطائرة ترتفع. امتقع لون الأمير فيصل المرتبك، وبدا واضحاً أنّه غير مستمتع بالتجربة.

في هذه اللحظة، ظهر وجه بندر بحيث في المقصورة. نظر باتجاه ديكون إليوت وغمز غمزة تأمرية فيما جلس على مقعده. وبدا واضحاً أنّه لم يكن يقود الطائرة.

انفجر جميع من في المقصورة بالضحك، وصفقوا مستمتعين بهذه المزحة. وظهرت علامات الارتياح على وجه فيصل. وعندما أدرك أنه كان ضحية مزحة بندر العملية، أطلق سيلاً من اللعنات بالعربية، لكن سرعان ما انفرجت أساريره وعاودت الابتسامة الظهور على وجهه. لقد أظهر بندر ميله إلى المرح، وهي خصلة غالباً ما أفادت عنها وسائل الإعلام كما في كتاب **القادة** عندما كتب بوب وودوارد: "كان الأمير سلساً وودوداً، وقد أثار في الدوائر السياسية والإعلامية بالسيجار والهدايا والدعوات والمعلومات والقصص المثيرة والمزحات العملية. وكان في وسعه أن يكون مرحاً وقاسياً على حدّ سواء"⁷¹.

في هذا الفصل الموجز لم أتمكن سوى من المرور بشكل عابر على صداقات بندر، أي العلاقات التي نسجها على مرّ أربعة عقود تقريباً، كطيار حربي أولاً وكدبلوماسي ورجل دولة لاحقاً. وهناك أيضاً العديد من أصدقاء الصبا مثل أحد أعضاء حاشيته الحالية، العميد فيصل الفقي، وهو شاعر موهوب وضابط في سلاح الجو، والمطرب السعودي العربي الشهير محمد عبدو. كما أن أعضاء حاشية سفر بندر، الذين قدّمت نبذة عنهم، لا يكونون سوى جزء صغير من رفاق السفر، إذ هناك الكثير من المؤتمنين السعوديين على أسراره والضباط والأطباء وأفراد العائلة الذين يسافرون معه.

إنّ من يمتلك حضور بندر الرابع، وكرم نفسه، واهتمامه الحقيقي للناس، يكسب الأصدقاء بسهولة من كل طبقات المجتمع ومشاربه. وقد تبين لي من كثير ممن قابلتهم، من موظفين ورجال دولة على حدّ سواء، أنّ من الأوجه المتكرّرة لبندر قدرته على جعل الجميع يشعرون أنّهم مميّزون، أيّاً كان موقفهم. لكن إخلاصه الذي لا يتذبذب، ممزوجاً بحسه الفكاهي، لا يجعله صديقاً عظيماً لمن يعرفونه فحسب، وإتّما يجعله هذا دبلوماسياً بارعاً أيضاً.

الحياة الخاصة بالأمير بندر

"حبّ العائلة أعظم نعمة في الحياة"

مجهول

العناصر الأكثر أهمية في الحياة بالنسبة إلى بندر هي المملكة العربية السعودية، وعائلته، ودينه، وكلها متشابكة.

في ديسمبر 1972، تزوّج بندر بالأميرة هيفاء، ابنة عاهل المملكة العربية السعودية الملك فيصل. وقد أوضحت الأميرة هيفاء كيف التقيا قائلة: "كان بندر مع أخي في كرانول. وكان أخي يحدّثني عنه، ويحدّثه عنّي؛ وذلك في سنة 1966. ومنذ ذلك الوقت شعرت لسبب أو لآخر أنّه الرجل الذي سأتروّجه، ولا أعرف لماذا حقاً. أعتقد أنّك عندما تلتقي بشخص ما، إما أن تنسجم معه وإما لا تنسجم، وبدا أنّنا منسجمان تماماً".

أسندت هيفاء قرارها جزئياً الزواج ببندر إلى معرفتها بأبيه. وقد أوضحت: "كان والده يرافق والدي دائماً، ويسافر معه ويأتي إلى منزلنا. ربما لأنّه يشبه والده في ضحكته، وحسن الفكاهة لديه، ولطفه، وذكائه. كما أنّه كثير السفر وأنا كذلك، وهكذا حدث التوافق. لا أستطيع القول إنّ الأمر يعود إلى شيء واحد، لكن، حدث التوافق".

تمّ الزواج وفقاً للتقاليد في منزل والد العروس، قصر الملك فيصل. وعلى الرغم من أنّ الحدث كان رائعاً، فقد أكّدت الأميرة حصول العديد من الزيجات في ذلك اليوم. وأوضحت: "كان هناك في الواقع خمسة عرسان وخمس عرائس". وبعد الزواج أقيم حفل كبير، حفل للنساء يأتي خلاله العريس وقسم من عائلته لأخذ العروس. وتذكر الأميرة هيفاء، "كانت العادة أن تُقضى الليلة الأولى في قصر الملك، وفي اليوم التالي، الذي يسمّى التحوال، تغادر العروس مع زوجها لقضاء شهر العسل. وقد بدأنا

رحلتنا بسويسرا". وتابعت الأميرة، "ثم انتقلنا إلى فرنسا، وأخيراً إلى تونس. وعندما عدنا إلى المملكة وإلى القاعدة الجوية التي عيّن فيها بندر في الظهران، كنت حاملاً بابنتي لولو"¹.

للأمير بندر والأميرة هيفاء ثمانية أبناء وبنات: ولدت لولو في سبتمبر 1973، وربما في يونيو 1975، وخالد في يوليو 1977، وفيصل في أكتوبر 1980، ونورا في سبتمبر 1984، وفهد في يوليو 1987، وحصّة في أبريل 1993، وأخيراً عبد العزيز في أغسطس 1994. وأوضح الأمير فيصل، "يسمى الأربعة الكبار الأصليين لأنهم ترعرعوا معاً عندما كان والدي في سلاح الجوّ في المملكة، وفي الولايات المتحدة بين الحين والآخر، قبل أن ينتقل إلى واشنطن دي سي، لذا شهدنا كلا الجانبين في والدي. والأربعة الصغار يسمّون البدلاء. فقد نشأوا في واشنطن دي سي عندما كان سفيراً، لذا فإننا [الأصليون] سعوديون أكثر، وهم [البدلاء] أميركيون أكثر. مع ذلك نحن جميعاً سعوديون جداً مع اختلافات صغيرة"².



بندر مسترخياً مع أبنائه خالد وفيصل وفهد في مزرعة العائلة في مريند

مع ذلك لا يُعرف على نطاق واسع أن للأميرين بندر وهيفاء مجموعة ثالثة من الأبناء، إذ "تكفلا" اثنتين أخريين. سلمى ابنة أحد العاملين لدى بندر وقد توفيت أمها فيما كانت تعمل لدى بندر، وتوفي والدها أيضاً بعد أن "تكفلها" بندر. طلب أقاربها من بندر العناية بها، وأصبحت فرداً من العائلة منذ ذلك الحين. و"تكفل" أيضاً جان غارسيا لكي تتمكن من الزواج ببوب ليلاك عندما كان يخدم في المملكة العربية السعودية.

تزوج جان وبوب في مايو 1976، لكن زواجهما لم يكن عادياً. تم الزواج الاستثنائي في المملكة، وكان حدثاً قلماً شهده زوجان مسيحيان. اقترح بندر أن يتزوجا في منزله في الخبر. لكن، لكي يتم الزواج، كان على الأمير أن يصبح وصياً قانونياً عليها.

أوضح بوب ليلاك: "ثمة قواعد يجب اتباعها في المملكة لكي يتم الزواج وفقاً للشريعة. فعقد الزواج اتفاق يتم بين والد العروس والعريس. ولكي تتزوج جان، يجب أن يكون والدها أو الوصي القانوني عليها في المملكة. لكن والدها كان في كاليفورنيا. لذا لكي يتم الزواج، وهو ما أراده بندر وكذلك نحن، اتبعنا إجراء قانونياً أصبح بموجب بندر وصياً عليها".



بندر مع ابنته المتبنية جان غارسيا وهي تطعم بوب ليلاك خلال حفل زفافهما

وتابع ليلاك: "من الناحية التقنية، أصبح لدى بندر شكل من أشكال الوكالة المحدودة التي تمكنه من تقديمها للزواج بي".

حصل الزوجان على وكالة من والد جان في كاليفورنيا يجعل فيها بندر وصياً قانونياً على جان، وحملت الوثيقة توقيع وزير الخارجية الأميركي الدكتور هنري كيسنجر، وصدقت عليها الحكومتان الأميركية والسعودية. وعندئذ أصبح في وسعهما أن يطلبوا من القاضي توثيق عقد الزواج بين بوب ليلاك وبندر بوصفه وكيلًا عن جان. نعم يقول ليلاك: "كان العقد بيني وبين بندر".

ارتدى ليلاك الثوب السعودي ودفع إلى العروس مهراً معجّله عشرة ريالات، قدّمها إلى بندر كوكيل قانوني عن جان لإتمام هذا القسم من عملية الزواج³. وأضاف ليلاك مبتمساً: "كما نصّ العقد على أن مؤجل المهر يبلغ عشرة ريالات أيضاً. أي أنني أستطيع الخروج من هذا الزواج بدفع عشرة ريالات فقط"⁴.

عند الحديث عن مكانة جان في العائلة أكدت ربما: "بما أن والدي "تكفل" جان، فهي، قانونياً، أختي الكبيرة. وقد أصبحت هذه نكتة في العائلة إذ كلما أجرى والدي اتفاقاً، أو اشترك في مشروع جديد، أبلغنا أن ذلك سيكون جزءاً من ميراث جان". وعلى نحو مماثل، تذكر ربما أنه كلما أساء أحد الأطفال السلوك، كان بندر يقول: "سأبلغ أختك الكبرى".

وكشفت ربما وهي تصف أبناء الأميرين بندر وهيفاء: "لولو، الكبرى، هي الفنانة في العائلة، واختصاصها الرسم التجريدي؛ كما أنها مصورة فوتوغرافية بارعة. عندما كنا أصغر سناً كانت شقيقتي لولو أكثر إبداعاً، وكنت أكثر بلادة. درست وقرأت وأحببت المتاحف، لكن لم تكن لدي موهبة فنية. ولطالما اهتمت لعلم الآثار. وأدرك الآن أنني خلّاقة بطرائق مختلفة، حيث أنظر إلى الأشياء بطريقة غير تقليدية". ووصفت ربما نفسها أنها "ابنة أبيها" وهو ما لم تدركه إلا عندما تزوّجت. وتذكر شقيقتها الكبرى لولو أنه في أثناء حفل زفاف ربما على الأمير فيصل، علّق والدها متعمداً جناحي سلاح الجو الملكي على فستانها. وكان لذلك أهمية شخصية كبيرة للأمير بندر، إذ أكد لاحقاً أنه اعتبر لحظة تعليق جناحي سلاح الجو على صدره أحد الأحداث الخطيرة في حياته. وتكرار المناسبة بتعليق شعار سلاح الجو الملكي السعودي على فستان ابنته هو العلامة القصوى على موافقته. وتعتزّ ربما بهذين الجناحين كرمز على قوة الرابطة بين الوالد وابنته.

يلبي خالد الأختين الكبيرين في العائلة، وترى ربما أنه على صورة والدها. تقول ربما: "خالد شبيهه بوالدي عندما كان شاباً". ومع أن شخصيتيهما مختلفتان، فإن حضوره وجاذبيته يطغيان على الحديث تماماً، مثل والده. لديه ميل طبيعي إلى السلطة، وهو ذكي وفاتن. عُيّن خالد مؤخراً رئيساً لمجلس إدارة شركة دايم بونج لويد للهندسة، وهي مشروع مشترك مع الشركة الهندية بونج لويد، وستعمل في الهندسة وشراء المشاريع وإنشائها في قطاع الهيدروكربون والطاقة والكيمياء والماء والصرف الصحي؛ البنية التحتية المدنية والمشاريع الصناعية في المملكة العربية السعودية⁵.

قارنت ربما بين الأخوين خالد وفيصل وشخصيتي ستار وورز، C3PO وR2D2. قالت: "إنهما دائماً الاختلاف، لكنهما أفضل صديقين. التحق خالد بإيتون، ثم بأكسفورد، وأخيراً بساندهيرست، لذا فإنه الوحيد الذي يمتلك لكنة إنكليزية نموذجية. إنه يمثل الجانب الأكثر جدية في والدي، في حين أن فيصل يمثل الجانب الأميركي في والدي، وهو من المؤيدين المتحمسين جداً لفريق دالاس كاوبويز⁶. ولأن بندر من عشاق فريق كاوبويز، فقد طليت طائرته الإيرباص 340 بلوني الكاوبويز الأزرق والفضي. وقد حفز شغف بندر رئيس فريق كاوبويز، جيرى جونز، على القول: "يكنّ لاعبونا احتراماً كبيراً للأمير بندر منذ ست عشرة سنة، وربما يعتقدون أنه يمتلك الفريق"⁷. بل نقل عن بندر قوله: "إنني مشجّع الفريق الدولي رقم واحد"⁸.



بندر مع ابنه خالد وفيصل خلال مباراة دالاس كاوبويز

علّق موقع فريق دالاس كاوبويز، على الإنترنت، على زيارة قام بها بندر لغرفة ملابس الفريق والقبض على صدام حسين قائلاً: "كم كان من الملائم للأمير بندر، سفير المملكة العربية السعودية ومشجّع الكاوبويز، أن يدخل غرفة ملابس الفريق مع جيري جونز ويقول مفتوناً بتلك اللحظة، قبضنا على صدام في الصباح، وفزنا على فريق ريدسكنز بعد الظهر. يا له من يوم عظيم!⁹ ويوضح الأمير فيصل بن بندر ما الذي حفز اهتمامه بكرة القدم الأميركية قائلاً: "عندما كنت صغيراً جداً، كان والدي يأخذني معه إلى مباريات فريق كاوبويز. وكنا نشاهد الكاوبويز على التلفزيون. كان أول فريق نعرفه. لكن عندما كبرنا ازداد نجاحهم، وبالتالي صرت أحبهم من تلقاء نفسي. الآن، أول ما تشاهده عندما تدخل شقتي مقام كبير لفريق كاوبويز. لدي نظارات، بل لدي زجاجات كوكا كولا لكل بطولة (سوبر بولز) فزنا بها في السبعينيات والتسعينيات وعليها خوذة صغيرة"¹⁰.

عن المجموعة الثانية من أولاد بندر، "البدلاء"، تقول ريماء: "نورا ذكية جداً جداً باستعمال الكلمات. إنها كاتبة وشاعرة". وفهد رياضي متحمّس، واعترفت أنه يحب الكتابة أيضاً ككتابة قصص الخيال العلمي القصيرة، وأوضح بندر مع ذلك أنه مثل نورا يحب أن يعبر عن نفسه بالشعر.

وقال بندر عن موهبة فهد الشعرية: "أثأثر كثيراً عندما يلقي فهد قصيدة ما. غير أنّ الطيار الحربي في داخلي، والعربي في داخلي، والرجولة في داخلي، تحول دون أن أعبر عن مشاعري وأشعر بالحزن حيال ذلك. وقد كتب فهد قصيدة بعد مشاهدته الحرب في العراق على التلفزيون. أخبرتني عنها هيفاء". وطلب بندر لاحقاً من فهد إلقاء القصيدة، وعندما فرغ فهد، فكر بندر، "يا الله، هذا الرجل أكثر نضجاً من كل زعماء العالم". وأوضح بندر: "كان فهد يتكلّم عن الحرب بمعناها غير السياسي، إنه ليس مع الحرب ولا ضدها، وليس مع صدام. كل ما كان يعبر عنه - وهي قصيدة جميلة أشعر بالألم كلما تذكّرتها - هو لماذا ندفع ثمن حماقات الكبار؟ إنها قوية جداً".

نجح فهد في امتحان الدخول إلى إيتون، وأظهر اهتماماً قوياً للعمارة منذ أن التحق بالمدرسة سنة 2004، وهو أمر أظهر فيه والده موهبة كبيرة. وسيدرس العمارة في الجامعة البريطانية.

يقدّر حصّة وعبد العزيز، أصغر الأبناء، كل الأشياء التي يستمتع بها الشبان الصغار: الرياضة، واستخدام الحاسوب، والمطالعة.

كان غياب بندر المتكرّر لمتابعة المهامّ الدبلوماسية في أثناء عمله كسفير يحتمّ على الأميرة هيفاء أن تعمل بمثابة السند للأسرة. في سنوات الزواج الأولى، كانت حياة الأميرين بندر وهيفاء حياة عائلية نموذجية إلى حدّ ما، إذا استثنينا قيود سلاح الجو، حيث يذهب بندر إلى العمل في الصباح ويعود في المساء، وغالباً ما يكون غير مشغول في عطلات نهاية الأسبوع. تقول ربما عن تلك السنوات: "عندما كان طياراً حربياً، كان يعود إلى البيت وينعزل عن العمل. لم يكن لديه شيء يحمله معه إلى البيت. لذا كنا نقيم حفلات شواء في عطلة نهاية الأسبوع، ونسبح، ونشاهد كرة القدم معاً. وعندما يكون في إجازة، يتعد عن العمل إذ ليس في استطاعته الطيران عندما يكون معنا"¹¹.

أمّن بقاء هيفاء معظم الوقت مع العائلة في مكّين، فيرجينيا، طوال عقدين قبل أن يستقيل بندر من عمله كسفير، الاستقرار لا للأبناء فحسب، وإثماً لبندر أيضاً. فقد كان يكتفي بتحمّل أعباء احتياجات المملكة العربية السعودية التي لا تنقطع، ورحلاته المتكرّرة والطويلة إلى المملكة، مرتاحاً من عدم تحمّل مزيد من الأعباء من البيت، لعلمه أنّ الأميرة هيفاء موجودة مع العائلة. وقد امتدحت ليندا وير، مديرة قصر بندر في المغرب، الأميرين بندر وهيفاء على التوازن العائلي الذي حقّقه قائلة: "لقد أنجزا عملاً مدهشاً جداً مع أبنائهما"¹².

برز الإحساس بالتوازن، على الرغم من متطلّبات عمل بندر، في أثناء عشاء عائلي عادي في واشنطن في سنة 2003. رنّ الهاتف وأجاب بندر. رفع بصره عن الهاتف وطلب من أبنائه الكبار توضيب حقائبهم لأنهم "ذاهبون إلى المملكة العربية السعودية في الغد". فقالوا حاضر فحسب، كما لو أنّ ذلك حدث متكرّر. سأل أحد الضيوف الأميرة هيفاء إذا كانت ستذهب أيضاً. فأجابت على الفور أنّ الصغار في المدرسة وهم بحاجة إلى بقائها في واشنطن. وقد شدّدت جيري بييري، سكرتيرة الأميرة هيفاء، على أنّ الأميرة "تكمّل الأمير بندر بطريقة غير عادية" ثم كشفت عن السعادة التي تغمرها كلما عاد بندر من رحلة في الخارج¹³.

الرحلات المتكرّرة بين الشرق والغرب، والخبرة كطيار حربي - تدرب في المملكة المتحدة والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية - مكّنتا الأمير بندر من

اكتساب القدرة على الانغماس في كل ثقافة بسهولة مذهشة. وقد شدّت ابنته ربما على براعته في الانتقال من العالم السعودي إلى العالم الغربي بسلاسة شديدة قائلة: "إنّه يعمل بشكل ممتاز في كل منهما"¹⁴.

لكن على الرغم من جهود الأميرين بندر وهيفاء في الحفاظ على عائلة مستقرّة، أينما كانوا موجودين، وبصرف النظر عن نداءات الواجب التي تدعو بندر، وما ينتج عنها من غياب على مرّ السنين، فقد حظيت العائلة بنصيحتها من المعاناة. ففيما كان الأولاد مقيمين مع الأميرة هيفاء في منزل العائلة في جدّة، وقع حادث سيارة مروّع مع نورا وفهد.

تروي الأميرة الحادثة: "كان فهد في الرابعة من العمر، وقد تعرّض لحادث رهيب عندما اصطدمت سيارة ستيشن بسيّارتهما. نجا الطفلان، لكنّ المرّبتين والسائق قتلوا. أصيب فهد بكسور في فخذه وجروح في خدّه؛ وأصيبت نورا بارتجاج بسيط وجروح في وجهها عند حاجبيها، لكنّهما كانا بخير والحمد لله. كان ذلك حدثاً كبيراً لكلينا، حيث كدنا نفقد الطفلين".

أوضحت الأميرة هيفاء أنّ بندر كان في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، فيما كانت هي تزور والدتها في المملكة في شهر رمضان. ووقع الحادث قبيل الإفطار. قالت الأميرة: "كان السائق الآخر مستعجلاً للوصول إلى حيث يريد لأنّه صائم، وكان الطفلان ذاهبين إلى القصر الذي تقيم فيه والدتي. فاصطدم بهم. وأمضى فهد عشرة أيام في المستشفى"¹⁵.

ذكر بندر تلك الحادثة قائلاً: "كان وقتاً عصيباً. توفيت المرّبة بعد أن نقلت الطفلين إلى الرصيف حرصاً على سلامتهما. ثم جلست وماتت". وأوضح بندر والانفعال باد عليه: "كنت في واشنطن، تلقّيت اتصالاً من الأميرة تخبرني فيه أنّ الصغيرين تعرّضوا لحادث سيارة، لكن الأمر ليس خطيراً. وقالت إنّهما بخير، لذا طلبت منها أن تبقىني على اطلاع. وكنت أعتزم التحدّث إليهما بأسرع ما يمكنني لأبقى مطلعاً على الموقف. ثم اتصل بي أخي ليخبرني أنّهما بخير، ففكرت، لم يتصل بي إذا كانا بخير؟ عندئذ شعرت بالقلق. لذا قلت له، لا تعبت معي، أنا لست طفلاً؛ هل توفّياً؟ إذا كان كذلك أخبرني الآن. كانت لدي شكوكي، وازداد إحساسي بالقلق، لذا قرّرت التوجّه إلى جدّة على الفور".

وتابع بندر: "عندما وصلت إلى هناك، توجهت إلى المستشفى على الفور. وعندما دخلت، كانا في الغرفة نفسها يضحكان ويمرحان، فشعرت بالراحة، وعندئذ أبلغتني هيفاء أن الثلاثة الآخرين توفوا. لو كنت عرفت ذلك لاعتقدت أنهما ماتا أيضاً. شعرت بصدمة قوية، وهزني أنهما كانا قريين من الموت".

أوضحت الأميرة هيفاء لبندر أن المارة نقلتا الطفلين إلى مستشفى عسكري ولم يعرف أحد من هما. ثم قالت له الأميرة: "الطبيب يريد أن يسلم عليك، وهو يتطلع إلى اللقاء بك".

قال الطبيب السعودي الشاب للأمير: "هل تذكرني؟".

أجاب بندر: "بصراحة، لا، لا أذكرك، لكن زوجتي تقول إنك اهتمت للطفلين. شكراً جزيلاً لك على ما فعلت".

اتخذت القصة بعداً جديداً عندما شرح الطبيب: "إني أنتظر هذه المناسبة منذ زمن طويل". ثم أبلغ بندر كيف أنه كان من الطلاب الذين بعثتهم الحكومة للدراسة في أميركا. وعندما أنهى دراسته كجراح تجميلي، طلبت الجامعة منه أن يتابع مقرراً إضافياً لتعزيز مهاراته. لذا كتب إلى الملحق التربوي السعودي طالباً السماح له بالبقاء سنة إضافية يعود بعدها إلى المملكة العربية السعودية. أبلغ الطبيب الشاب بتعذر ذلك بسبب البيروقراطية التقليدية. ومع أنه تابع ملاحقة قضيته بالتردد على السفارة، لكنه لم يحقق أي تقدم.

وقبل بضعة أيام من عودته إلى الوطن، اقترح عليه بعض الأصدقاء الكتابة إلى السفير السعودي، وهو ما فعله. ويذكر بندر: "في يوم مغادرته إلى المطار، تلقى اتصالاً من مكنتي يُفيد أنني وافقت على التمديد. لذا أكمل المقرر، لكنني لم ألتق به. غير أنني عندما التقيت به، كان يقوم بالعناية بطفلي". أذهلت المصادفة الأمير بندر. ولاحظ الطبيب ببساطة: "إني مدين لك بالكثير بحيث أسعدني جداً تمكنتي من مساعدتك".

فور تولي الأمير بندر دوره الدبلوماسي في واشنطن، عهد إليه الملك فهد بالعديد من المهام كمبعوث له، وغالباً إلى الرؤساء الأميركيين وزعماء العالم الآخرين. وتسارعت فترات غيابه عن البيت. وأعاقت متطلبات الواجب منح بندر الوقت الذي كان يتمنى أن يخصصه لعائلته. في أثناء حديث فيما الأمير لا يزال سفيراً، لاحظت

ربما: "في عمله الآن، ليس لديه رفاهية العودة إلى المنزل والارتياح. إنه عمل متواصل أربعاً وعشرين ساعة، لذا عندما يتمكن من توفير الوقت والجهد لنا، نقدر ذلك كثيراً. لا أعتقد أن الأربعة الصغار حصلوا على الفرص نفسها التي حصل عليها الأربعة الكبار، لكنه يدرك ذلك في العلاقة التي يكوّنها معهم، ويفرد لهم بعض الوقت، وذلك أمر عظيم لأنه كثير المشاغل. ومن الممتع مشاهدته طليقاً معهم"¹⁶.

غير أن بندر يستخدم المرح أيضاً في تربية أبنائه. وتؤكد ربما مبتسمة: "إنه لا يأخذ نفسه على محمل الجدّ، وكلّما تجاوزنا الحدّ يقول، من تظنون أنفسكم؟ ارجعوا عشر خطوات إلى الوراء وفكروا في الأمر. يجعلني ذلك أضحك ويعيد كل شيء إلى نصابه". من الواضح أن بندر يحاول دائماً وضع الضوابط أمام أبنائه وإعادةهم إلى الواقع، مثلما تفعل معه حاشية السفر.

ويسلّط الأمير فيصل الضوء على استخدام والده المرح قائلاً: "إنّ قسماً كبيراً من علاقتنا به له علاقة بالمرح، إنّه دائم المزاح معنا. حتى عندما كنا صغاراً، كان هناك القليل من المرح في كل شيء. وإذا كنّا في مأزق، حوّل الأمر دائماً إلى مزاح". ومن الأمثلة التي يذكرها فيصل: "أذكر أنني كسرت أنفي في أثناء ممارسة لعبة الحائط* عندما كنت في إيتون. كان هناك من يحاول دفعي عندما ضربني أحدهم بمرفقه على أنفي وكسره. أذكر أنني توتّرت لأنني لا أخبر أمي البتة أنني تأذيت لأنها تصاب بالذعر".

وأوضح فيصل الفارق بين أمّه وأبيه قائلاً: "أذكر أنّ أمي عرفت بالأمر وأمضت ساعة تكلمني عبر الهاتف". غير أنّ الاتصال بالأمير بندر كان مختلفاً جداً. ضحك فيصل وهو يتحدث: "تلقيت اتصالاً لمدة دقيقتين من والدي، وقد هوّن ذلك الأمر كثيراً".

اتصل بندر بابنه وقال: "سمعت أنّك كسرت أنفك".

"نعم يا سيّدي". أجاب فيصل.

"هل أنت بخير". سأل بندر.

"نعم". قال فيصل.

(* نوع من كرة القدم التي تمارس في إيتون إزاء حائط منحني على ملعب ضيق.

سأل بندر: "كيف كسرتَه؟".
أبلغه فيصل قصة لعبة الحائط.
سأل بندر: "هل كُسر أنفه؟".
"ليس بعد". أجاب فيصل.
"جيد". قال بندر.

وذكر فيصل ضاحكاً: "انتهت المكالمة، لكنها أتاحت لي فرصة الضحك وتجاوز الأمر".

قبل استقالة بندر من عمله كسفير، كان يتحدث كثيراً عن أنه لم يتمكن من تمضية المزيد من الوقت مع العائلة. وعندما قلت إن أبناءه يدركون متطلبات عمله تماماً، قال: "ذلك يجعل الأمر أسوأ وأشدّ إيلاماً، إنه الولاء". وكان ردّ الأميرة هيفاء على ما هو مطلوب من بندر وغيابه المتكرر شديد الصلابة: "أنا فخورة جداً به، والأولاد فخورون ومعجبون جداً به، لأنهم يعرفون ما الذي يقوم به. وعلى الرغم من أنه يمضي وقتاً طويلاً بعيداً عنهم، فإنهم يقدرّون أن ذلك هو عمله ولم يثر غيابه أي مشكلة قط"¹⁷. في الواقع، تكيّفت العائلة جيّداً مع جدول مواعيد بندر الحافل، لكن عندما يكون في البيت، فإنه يسعى جاهداً لتكون حياة العائلة طبيعية.

تقدّم إحدى الليالي في مكّين إطلالة على هذه الحياة الطبيعية. الهاتف يرنّ كل خمس



بندر مع حفيدته سارة

أو عشر دقائق، وبين الحين والآخر تُقدّم إلى بندر بحرص مجموعة من المستندات والملاحظات والأوراق التي يحضرها رئيس الخدم على صينية فضيَّة. فيقرأها ويستوعبها فيما يتابع الحديث ويجري مكالمات هاتفية. ويراقب نحو ست قنوات إخبارية - سعودية وأميركية وعربية - ويتابع حصّة التي تشكو من أن أحداً لم يأكل من الطعام الذي أعدته مع المريية. ويقفز تركي، حفيده، عليه بعدما قال له بندر: "تعال أيها الشقي". وهو لا يزال يراقب حاسوبه المحمول. وكما قال فيصل: "يمكن أن يتحدث مع الملك الآن، ثم يدخل ابن أختي أو ابنتها الغرفة فيصبح مثل الولد مجدداً"¹⁸.

وفي اعتراف بالضغط الملقاة على الأمير، والمتطلبات التي لا تتوقف وتفرض عبئاً ثقيلاً تفاقمه الحاجة إلى التعامل مع يوم العمل في الرياض فضلاً عن واشنطن، قالت ريمًا: "عندما كنا أصغر سنًا كان المرح غير مقصود، أما الآن فأعتقد أنه يدرك أكثر متى تكون اللحظة خاصة. ويرجع ذلك إلى كل الأشياء التي يعرفها والدي ويتعامل معها طوال الليل. وهو لا ينقل إلينا عبئها، بل يقيه لنفسه. وفي حين أن الأربعة الأول يلاحظون ذلك، فإنّ البدلاء لا يرون الأمر بالطريقة نفسها دائماً. لكنّه يحاول إيجاد الوقت للأربعة الصغار متى كان ذلك ممكناً، على الرغم من أن هناك الكثير من الشواغل التي تستحوذ على تفكيره".

على الرغم من كبر العائلة، فإنّ ريمًا توضح أنّ والدها لا يزال يتعامل معهم كأفراد. في ما يتعلق بالمدرسة، يحبّ فهد ولولو أن يُسألًا ماذا فعلا في المدرسة، في حين أنّ الأولاد الآخرين يعلمون أنّ في وسعهم مفاصلته في أي وقت إذا كان الأمر ضرورياً، لكنّ بندر لا يسألهم عن المدرسة. وتقول ريمًا: "بعد إجراء امتحان ما لا يقول، كيف فعلت؟ بل يعود إليك أمر إخباره. لكن والدي لا يلحّان في السؤال، يجب أن تحصل على هذه الدرجات، أو يجب أن تفعل هذا أو ذاك. بل يقول والدي، كل ما أطلبه منكم هو النجاح، وإذا فعلتم ذلك وكنتم راضين فإنني راضٍ. وإذا كنتم راضين وحصلمت على درجة أ، فذلك يرضيني. لكنني لن أقوم بعملكم ولن أقود حياتكم، لذا الخيار عائد إليكم. لم يكن هناك أي ضغط"¹⁹.

عندما سألت ما هي التطلعات التي لديهما لأبنائهما، قالت الأميرة هيفاء:



بندر يؤدي الصلاة

"أعتقد، أن يحبّوا ما يقومون به، وأن يبرعوا فيه، وأن يكونوا سعداء بما يفعلون. وأظنّ أنّهم لن يتميّزوا ويبرعوا إذا فرضت تطلعاتك عليهم". وبعد ذلك عرضت الأميرة هيفاء فلسفتها في الحياة في ما يتعلق بتربية أبنائها: "هناك ثلاثة أمور مهمة: الاحترام، أي احترام الأطفال لوالديهما، أو احترام الوالدين لأطفالهما، والانضباط، يجب أن يكون هناك انضباط في حياة عائلتك. والأمر الثالث المهمّ هو الدين. إذا لم تكن تحشى شيئاً في الحياة سوى

الله، يكون لديك انضباط. وإذا لم تكن تخشى الله، فأنت لا تخشى شيئاً، ولن تحسب حساب شيء»²⁰.

تعلّق هيفاء على أهمية الدين الإسلامي في أسرة بندر. إنّه يحيط بكل شيء. تقول ريماء: "ما أقدره في أبي، لا سيما عندما يتعلّق الأمر بالدين، أن إيمانه قوي، لكنّه لا يفرضه علينا". وتوضح ريماء أنّه غالباً ما يقول لأبنائه: "لكم دينكم ولكم حياتكم، ما أقدمه إليكم هو المهارات والتقنيات التي أعرفها وهذا كل شيء".

شهدت هذا التأثير في الشهور الأولى بعد إقامي على كتابة السيرة الذاتية للأمير بندر. ففي نهاية سنة 2003، دعيت وزوجتي ويندي إلى إفطار مع بندر وعائلته في شهر رمضان. عند وصولنا إلى مكّين، توجّهنا إلى الغرفة المغربية، هي غرفة كبيرة مستطيلة رائعة مزينة بأسلوب المجلس العربي التقليدي، بمقاعد المنجدة التي تواجه مركز الغرفة وجدرانها نصف المبلّطة بالفسيّفاء.

عندما دخلنا الغرفة، لاحظت بعض الأشخاص في الناحية المزججة المجاورة، ورأيت بندر يقرأ لولديه فهد وعبد العزيز. وفيما كنت أنتظر، جلت بنظري إلى الصور الفوتوغرافية العديدة للعائلة الموضوعة على الطاولات في صدر الغرفة. وقد برزت من بينها صورة الأمير سلطان والد الأمير بندر، لكن كانت هناك أيضاً صورة موقّعة من الرئيس جورج دبليو إيتش بوش، وباربرا بوش، والرئيس جورج بوش، ولورا بوش.

بعد قليل دخلت الأميرة هيفاء الغرفة ورحّبت بنا. بدت مرتاحة وأنيقة بالزي السعودي التقليدي، وقد أخبرت ويندي أنّها ترتديه في واشنطن خلال شهر رمضان. وأوضحت الأميرة أنّ الأمير يتلو القرآن، وهو أمر يجب أن يؤدّيه كل يوم ما أمكنه ذلك في شهر رمضان. وبعد ذلك رافقتنا الأميرة إلى مقعدينا، ووضع أحد الخدم صينية تحتوي على التمر وكوبين من الماء وكوبين من العصير وفنجانين زجاجيين من القهوة العربية التقليدية، المنكّهة بحبوب الهال، على إحدى الطاولات أمامنا استعداداً للإفطار.

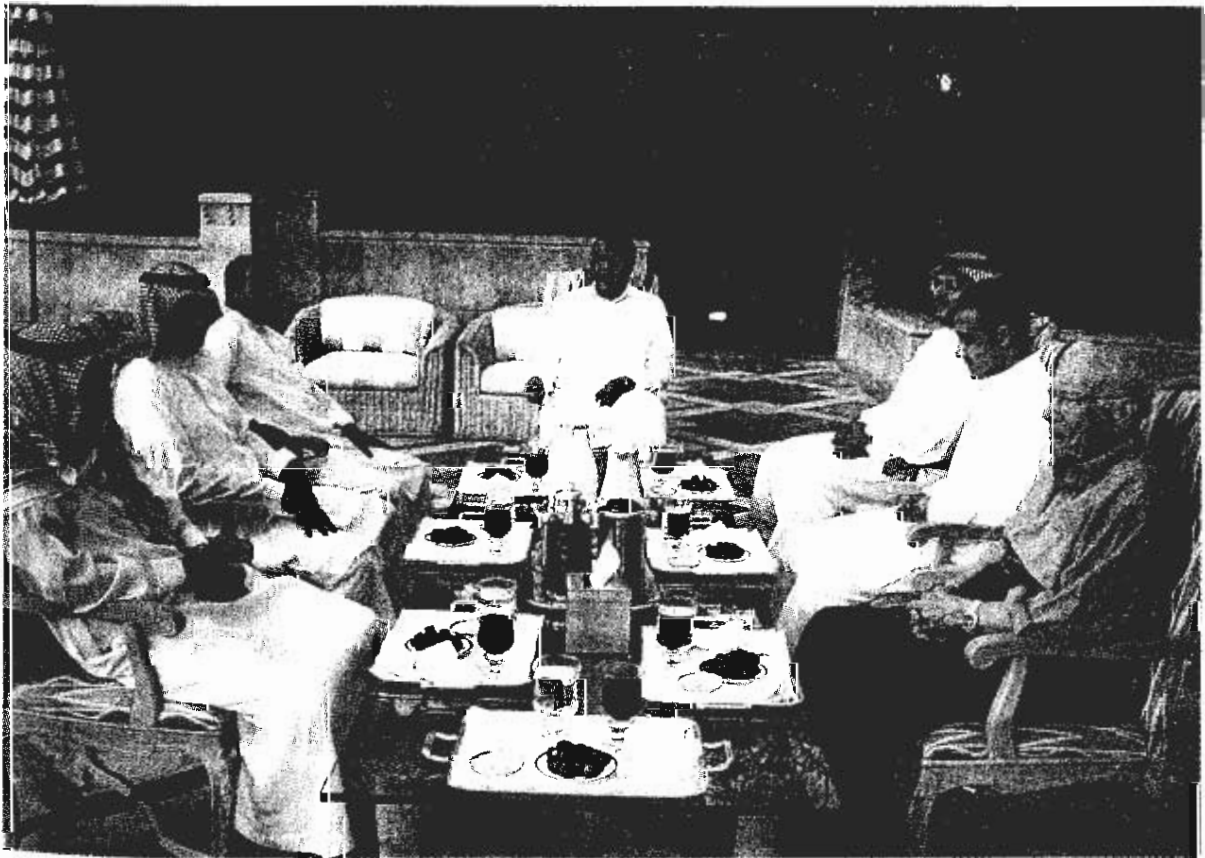
انضمت أنا وويندي إلى الأميرة هيفاء في الجانب الأيمن من الغرفة عندما دخلنا، لكنّها أوضحت أنّ عليّ أن أنضمّ إلى الأمير بندر في الجهة المقابلة من الغرفة عندما يأتي، حيث يجلس الرجال. وبعد بضع دقائق دخل بندر الغرفة، أشرق وجهه وارتسمت على محياه ابتسامة عريضة عندما رأنا. وسرعان ما تحوّلت المصافحة إلى عناق وانتقلنا إلى مكاننا الملائم. وانضمّ إلينا كل الأولاد في هذا الاجتماع العائلي.

يكفي القول إننا تبادلنا المحاملات إلى أن ذكر فهد الجائع والده أن الوقت قد حان للإفطار. وأكدت الأميرة هيفاء أن موعد الإفطار قد حان بالفعل، فدعى الأمير الجميع للبدء بتناول الطعام. وبدأ الجميع بالتمر والمشروبات.

بعد ذلك أخذني بندر جانباً وأراني المصاحف الموضوعة على الطاولة في الغرفة المزججة حيث كان يتلو لولديه. وأشار إلى سجادات الصلاة وأوضح أنه كان يؤمّ بهم الصلاة.

وعندما توجهنا لنعلم إلى بقية العائلة في الأسفل، أمسك بندر بكتفي وقال: "إنّ تمكّني من تلاوة القرآن الكريم بهذه الطريقة في شهر رمضان يعوّض عن الأوقات التي أغيب فيها لمتابعة الواجبات الرسمية؛ إنه وقت مميّز جداً يزيد من حلاوته أنّي لم أتمكّن من فعل ذلك مع والدي". بدا التأثير في صوته جلياً، واتضح أنّ بندر يعتزّ بهذا الوقت المميّز مع أولاده.

تركت الضغوط آثارها في بندر على مرّ السنين. وبالنظر إلى إنجازاته على المسرح العالمي، يمكن أن يُعزى ميله إلى الكتابة - الذي يعترف به - إلى نجاحه، لإنجاز أكثر مما



إفطار شهر رمضان مع (مع عقارب الساعة من اليسار) الأمير محمد، طارق شواف، الجنرال شاتري، د. مجيد، ابنه الأمير خالد، وفرد داتون

هو مطلوب. غير أن هناك عوامل، منها عمليات الظهر الجراحية العديدة التي تحملها في أعقاب حادثه الطيران سنة 1977. ففي السنين التالية، كانت مشاكل الظهر تعاود الظهور مسببة الألم والقلق في آن معاً. وكلما مضت سنة ازدادت حاله سوءاً، إلى أن شخّص مستشار في تقويم العظم وجود تكلّس في العمود الفقري يضغط على الأعصاب ويسبب له الآلام المبرّحة. وفي أعقاب عملية اشتملت على تفتيت النماءات العظمية المحيطة بالأعصاب، وهو إجراء دقيق وخطر للغاية، أفاد الجراح أن الأعصاب سرعان ما استعادت لون العافية المائل إلى الزهري بدلاً من الرمادي.

في هذه الفترة بالذات شهد بندر أول حالة اكتئاب شديد، وهي حالة اعترف أنه ظنّ سابقاً أنها تعود إلى ضعف الشخصية. وفي إحدى الحالات الكبرى لبث في غرفته مدة أسبوعين قبل أن يتمكن من إخراج نفسه من حالة الاكتئاب. وعانى بندر من حالة أخرى سنة 1995 بعد السكنة التي أصابت الملك فهد، راعيه منذ مدة طويلة وصديقه. يذكر بندر كيف أن الملك كلّفه قبل خمس عشرة دقيقة من إصابته بالسكنة بالاجتماع بجون ميجور وبيبل كلينتون. وفي التعليق على تلك السكنة، وعجّز الملك في ما بعد، قال بندر إنه لم يعد يملك الطاقة على العمل أو الرغبة في ذلك. أراد أن يختلي بنفسه، لكنّه يدرك أن لديه واجبات تجاه بلده. ومع ذلك لم يستطع تجنّب الاكتئاب الحادّ الذي عانى منه نتيجة لذلك²¹.

غير أن بندر طلب مشورة اختصاصي هذه المرّة وتعافى بالتوجّه إلى أسبن في إجازة قصيرة مع عائلته. بعيد الوصول إلى هناك، جمع بندر زوجته وأبناءه وصارحهم بحقيقة مشكلته، وأبلغهم أنه بحاجة إلى مساعدتهم. كان ذلك الاعتراف شاقاً على بندر، لكنّه خرج معافى ومتجدّد النشاط بعد إجازة لمدة شهرين في غليمبتون ومرآكش.

عند الحديث عن الميول الاكتئابية عند الأمير بندر، أوحى الأميرة لولو أن دائرة أصدقاء بندر - حاشية السفر - كانت بمثابة ترياق فعّال من "سودائه" (*). وتعليقاً على الضغوط التي شهدتها الأميرة، قالت لولو: "أعتقد أنه كان عليه أن يكون بعيداً بسبب

(*) لم يُعرف صراع ونستون تشرشل مع الكآبة إلا بعد وفاته، عندما كشف عن ذلك طبيبه الشخصي، لورد موران. وقد أشار تشرشل إلى هذه النوبات بالسوداء (black dog). وثمة مقولة مقنعة توحي أن سوداء تشرشل والميول الاكتئابية للعديد من العظماء، مثل تولستوي ولوثر، ربما ألهمت إنجازاتهم الكبيرة.

طبيعة عمله، أو يعتقد أن عليه الابتعاد". وفي إشارة غير مباشرة إلى اكتئاب بندر، قالت لولو: "يقولون إنه يلزم ندفة ثلج واحدة لإحداث انهيار ثلجي"²².

كانت لولو تلمّح إلى المعلومات شديدة الحساسية التي تعرض على بندر، وغالباً ما يكون عليه مواجهة المشاكل التي يجب أن يجد لها حلاً، ولا يستطيع أن يتشاركها مع أحد. وباعتماد الأسلوب الدبلوماسي السعودي التقليدي - العمل بعيداً عن الأضواء - ازداد الضغط، ويمكن أن تسبّب "ندفة الثلج الإضافية" أحياناً دخول بندر في حالة من اليأس وانعدام الثقة بالنفس. ويقول ابنه فيصل معترفاً بضعف أبيه: "يصعب علينا ذلك في كثير من الأحيان لأننا نعرف متى يكون غير سعيد، عندما يكون هناك خلل ما، ونعرف أنه لا يستطيع التحدّث عنه، لذا لا نسأل"²³.

لم تغفل وسائل الإعلام عن حالات الاكتئاب التي تصيب بندر. وقد أفيد في أواخر سنة 2002 أنه في أعقاب 9/11، بعد الانهيار الفعلي لكل ما عمل لأجله في واشنطن في العقدين الماضيين، "لم يكن من المستغرب أن يتعد الأمير عن الأضواء في السنة الماضية. وتفيد الشائعات في الرياض أنه يعاني من اكتئاب، وأنه أمضى شهوراً بعيداً عن واشنطن"²⁴.

تناول كولن باول، كصديق مقرب، اكتئاب بندر وشعوره بانعدام الأمن عندما أكّد: "إنّه عميق الجذور ولا يمكن تغييره. لديه خوف شديد من الموت. وقد شهدت حالتين مرضيتين ألفتنا به". وضخّم باول تعليقاته قائلاً: "إنّه يلاحقه. ولا أعرف إذا كان اكتئاباً مزمناً ذا طبيعة طبيّة، أم تقلّبات في المزاج بسبب الأحداث، مقابل الاكتئاب السريري أو الطبي". وعند الحديث عن العوامل التي يعتقد أنّها تفسّر شخصية بندر وميله إلى الاكتئاب، أضاف باول: "إنّها الموت وانعدام الأمن ومكانته في العائلة". وعندما لاحظت أنّ شبح الاكتئاب ظهر بعد حادثة الطيران ومشكلة ظهره، ردّ باول: "لقد ألحّت عليه مشكلة ظهره لسنوات؛ ثم خضع لعملية منذ فترة غير بعيدة، ولم يخبرني عندما سألتها عنها".

قيل إنّه لو لم يصبح الأمير بندر طياراً حربياً أو مبعوثاً ملكياً، لبرع كمعماري. يوافق على ذلك من دون شروط طارق الشواف، وهو مهندس محترف عمل في بناء العديد من منازل الأمير. وكان جو رامسي، وهو من الأصدقاء المقربين، جاداً عندما قال: "لقد فوّت بندر النداء. كان يجدر به أن يكون معمارياً أو بناء بيوت"²⁵. منذ

البيت الأول المتواضع المكوّن من غرفة نوم واحدة الذي بناه بندر عندما كان طياراً حربياً في الظهران، إلى القصور المنيقة التي يمتلكها الآن، اهتمّ بشكل شخصي لتصميم كل منها وبنائها. فهو يتحمّس لمخطّطات المعمارين، ويستطيع أن يتصوّر المباني الناتجة. وكما يذكر حلاقه جون فلترى (*): "لدي شغف بالعمارة، والأمير بندر أيضاً". وروى فلترى بعد ذلك أنّ بندر، عندما علم باهتمامه للعمارة، أخرج مخطّطات قصر يعتزم تشييده في المملكة وبحثها معه مدّة أربع ساعات²⁶.

يملك بندر منازل فخمة في كل أنحاء العالم، وهي وحدها تستحقّ كتاباً. ويقدم تصميم كل من المنازل نظرة عميقة إلى خلفيته الثقافية الهجينة، وهي تجسّد موهبته العالمية وإحاطته المدهشة بالتفاصيل كافة. يمزج كل منزل المناظر القائمة ويستخدم موادّ وأساليب بناء محلية. وبالتالي لديه بيت ريفي خشبي، مزرعة هلا، في أسبن؛ وقصور عربية في الرياض وجدة ومرّاكش والرباط؛ ومنزل ريفي فخم في غلیمبتون في أكسفوردشير.

أعجب جورج وباربرا بوش بالعناية في ترميم المنزل الرئيسي في غلیمبتون بارك حيث تمّ تعليم كل حجر ليعاد وضعه في مكانه الصحيح في أثناء التجديد²⁷. وذكر بيتر براون، مدير العقار، أنّ "إعادة إنشاء المنزل كانت عملاً كبيراً جداً، وأشرف على تفكيك المنزل حجراً حجراً للتثبيت من إعادة استخدام أكبر قدر ممكن من المواد الأصلية، بما في ذلك جملونات السقف، عند إعادة بنائه"²⁸.

لكن نهج بندر تجاه شراء غلیمبتون وإعادة إنشائها يقدم نظرة عميقة عن طبيعته. عندما قابلت الرئيس السابق بوش وزوجته، روت السيدة بوش قصة إقدام بندر على شراء غلیمبتون قائلة: "عندما اشتراها، ثار الكثير من الانتقاد مثل، لا نريد عربياً ونحو ذلك. لذا فإنّ أول ما أقدم عليه هو إصلاح القرية بأكملها". وأضاف الرئيس بوش: "اشترى القرية وأصلح بيوت الجميع". وتابعت السيّدّة بوش: "عهد إلى كل العاطلين عن العمل بأعمال السمكرة وبناء السقوف والكهرباء، فوفّر لهم الأعمال وأصلح منازلهم، لذا عندما جاءت الصحف البريطانية وسألت، ما رأيكم أنّ أميراً عربياً اشتراكم؟ أجابوا، نعتقد أنّه عظيم"²⁹.

(*) يقص جون فلترى شعر الأمير في كل أنحاء العالم منذ وصوله إلى واشنطن دي سي. وقد قصّ شعره في الخامسة صباح اليوم الذي أصبح فيه بندر سفيراً ولا يزال يقصّه منذ ذلك الوقت.

تتميّز كل بيوت بندر بالضخامة بحيث تتسع لثمانية أبناء ومرّياتهم وابنته "بالكفالة"، وللضيوف - تبلغ مساحة البيت الرئيسي في أسبن نحو خمسة ألف وخمسمئة قدم مربع [5500 متر مربع تقريباً] - لكن البيوت ليست متطفلة. فالطرق الريفية الخاصة الواسعة تخفي وراءها غليمبتون بارك وأسبن، في حين أن قصره في الرياض وجدة موجودان خلف جدران مرتفعة سميكة تضمن الخصوصية وتعزّز الأمن. عقاراته الواسعة منسّقة بشكل رائع ومزروعة في الغالب. ثمة نحو ألف وخمسمئة شجرة نخيل في الرياض؛ وبساتين تضمّ العديد من الفاكهة المدارية في قصره في مرّاكش؛ وأغنام وماشية عالية الجودة، ومنزل للصيد ونحو ستة عشر ألف طائر تدرّج في غليمبتون بارك وأرضه التي تبلغ مساحتها ألفين وخمسمئة أكر.

قال بيتر براون: "في أحد مواسم الصيد في غليمبتون، دعا الأمير بندر الرئيس بوش الأب الذي كانت ترافقه حراسة كبيرة". وتابع والسرور باد عليه: "بعد البدء بالصيد، أصاب الرئيس بوش طائراً فهوى نحو الحراسة فانتشرت كما يجب. وعلّق بندر مازحاً أمام الرئيس، *إتني أشكك في برودة حراستك الأمنية تحت النيران*"³⁰. التحول مشياً في أراضي أي من بيوت الأمير قد يقود إلى أمر غير متوقع؛ بناء غير مُجد أو غريب. فقد بنى بندر، على سبيل المثال، منزلاً من الطين في أرض قصره في الرياض ليذكر نفسه بجذوره. وهو نسخة طبق الأصل عن الكوخ الذي عاش فيه في أثناء



معتزل بندر في أكسفوردشير في غليمبتون بارك

نشأته، على الرغم من أن هذا المنزل مليء بالأدوات العصرية إلى جانب المزايا التقليدية. وقد بني على الطريقة العربية التقليدية، حيث يبدو من مظهره أنه مبني من الطين والقش. وتوجد في مدخله الكبير سجاجدات عربية تقليدية، تمتد إلى غرفة الاستقبال الرئيسية المؤثثة على طريقة المجالس التقليدية. وتشرف هذه الغرفة على بركة وأرض محاطتين بجدران يوجد فيها خيمة بدوية. وقد نزل فيها الأمير تشارلز وكاميللا، دوقة كورنول، في أبريل 2006 في أثناء زيارتهما إلى المملكة العربية السعودية.

غير أن المنزل الطيني يحتوي على مفاجأة. تقول باربرا بوش: "يضمّ غرفة على شكل قاعات الكابوي إلى جانب مسرح حديث كبير يماثل كثيراً بساطة البيت نفسه"³¹. هنا يستطيع بندر أن يستمتع بالأفلام السينمائية القديمة التي يحبّها، على الرغم من أن الاسترخاء هنا لا يمكن أن يكون تاماً. فأمام كرسيه مباشرة في وسط المسرح، توجد ست شاشات تلفزة، موضوعة בזوايا على مستوى الأرض خلف صفّ المقاعد أمامه، تعرض الأخبار العاجلة من الغرب والشرق على حدّ سواء.

وصف روبرت ديكون إلبوت مبنى غريباً آخر، بيتاً ريفياً مسقوفاً بالقشّ قرب البحيرة في أرض غليمبتون بارك. وذكر أن والديه كانا يعيشان قبل سنوات عديدة في بيت ريفي قرب أندوفر، وهو منزل تردّد عليه الأمير كثيراً خلال أيام الدراسة. كان منزلهم أبيض صغيراً مسقوفاً بقشّ تقليدي. قال ديكون إلبوت: "أخبرني بندر، سيكون لدي واحد من هذه المنازل في حديقتي ذات يوم". وقال ديكون إلبوت إن الأمير اتصل به عندما كان يجدد غليمبتون بارك وقال: "هل يمكنك أن ترسل إلي صورة عن بيت وايت روز؟". ففعل ديكون إلبوت ذلك. "وبعد ذلك علمت ببناء بيت ريفي صغير قرب البحيرة في غليمبتون، وهو صورة طبق الأصل عن منزل والدي"³².

يذكر جيمس بيكر زيارة قام بها لمنزل بندر في أسبن حيث شيّد الأمير بناءً مستطيلاً بعيداً عن المنزل الرئيسي، بناءً غريباً آخر. كان البناء مفروشاً بمجموعة واسعة من تحف الهنود والكابوي الأصلية، ويحمل اسم "كوخ الدب" المناسب، إذ يوجد داخل الباب مباشرة دبّ أسمر اصطاده بندر بنفسه. وقال بيكر مازحاً: "أبلغته أنه ربما طلب تقييده قبل أن يطلق عليه النار، وأنه كان في المطاردة مدعوماً باثني عشر رجلاً أمن مسلّحين بالرشاشات والأسلحة الفردية". وتابع: "دعوت الأمير إلى مزرعتي في تكساس، وطرنا فوقه لكي تُتاح له فرصة رؤيتها بشكل ملائم". غير أن بندر قال

عندما طارا فوقها: "يبدو أنه بيت صغير". ابتسم بيكر عندما ذكر أنه أصغر قليلاً من كوخ الدب الذي يشكّل مجرد إضافة صغيرة إلى عقار بندر في أسبن³³. وقد كتب بيكر مازحاً في كتاب ضيوف بندر: "إنّ مزرعتك الصغيرة الرائعة والمتواضعة تذكرني بكونخا في وايومنغ! شكراً على تمضية وقت ممتع"³⁴.

وفي كتاب الضيوف نفسه، كتب بيل ريتشاردسون، وزير الطاقة الأميركي الأسبق: "شكراً على:

مساعدتك في أسعار النفط.

- ضيافتك في أعظم عقار في العالم.

- صداقتك للولايات المتحدة".

ومن المداخل العديدة في كتاب الضيوف في كوخ الدب، استخرجت مدخل الرئيس جيمي كارتر الذي كتب: "لقد كانت زيارة عظيمة أخرى. التزلج، والجمال، وكرم الضيافة، والسرور الذي أدخلته على عائلتنا. شكراً مرة أخرى". بعد مرور مدة طويلة على مغادرة كارتر البيت الأبيض، عرف بندر أن الرئيس الأسبق وزوجته اتخذتا هواية التزلج. وقد اعترف إليّ كارتر: "لم أشاهد مزاج الثلج حتى بلغت الثانية والستين من العمر، عندما بدأت بالتزلج. ثم بعث لي بندر أن لديه منزلاً للتزلج في أسبن".



بندر صائد الدببة

بعد ذلك بثلاث سنوات، أخذ كارتر عائلته بأكملها إلى أسبن، وأقاموا في منزل التزلج لدى بندر. ويقول بندر عن زيارته: "كنا جالسين حول مائدة الفطور ذات مرة، وكان معي أحفادي الصغار الذين يحبون التزلج". وضحك عندما قال: "كل جد يتوق دائماً إلى تعابير الحب من أحفاده". وأوضح الرئيس الأسبق كيف أن مزرعة بندر مجهزة جيداً بأجهزة الألعاب الفيديوية وشاشات التلفزة الكبيرة، هي جنة للأطفال. ثم روى حواراً مع أحد أحفاده، جيريمي.

قال جيريمي: "هل ستموت ذات يوم؟".

أجاب كارتر: "الموت مكتوب على الجميع، لكن أرجو أن يكون ذلك في وقت بعيد في المستقبل".

وضحك الرئيس كارتر واعترف: "لقد كانت ضربة لغروري الذاتي نوعاً ما"³⁵. يحظى الأمن المحيط ببندر وعائلته وبيوته بأهمية فائقة، إذ تعرّض لعدة محاولات اغتيال على مر السنين. وقد علّق بندر في ما يشبه التوكيد غير المبالي على محاولة اغتياله في لندن في أواخر السبعينيات: "أذكرها لأنّ المرّة الأولى لا تنسى، أما المرات الأخرى فلم تعلق في ذاكرتي". وأوضح الأمير أنّه في أثناء قيادته السيارة سنة 1978 أو 1979، "نظرت ووجدت تلك السيارة إلى جانبي، وكان فيها رجل يصوّب مسدساً نحوي!". وكرّر بندر مصدوماً: "عليّ!". وتابع قائلاً: "وأنت لا تتصرّف آلياً، بل تفكّر، لماذا يصوّب أحدهم مسدساً نحوك؟ لذا انحنيت بشكل غريزي. وعندما نظرت كان قد توارى، وظننت أنّه خيّل إليّ! لكن كان هناك ثقب الرصاصة التي دخلت من أحد جانبي السيارة وخرجت من الجانب الآخر. لذا قلت للسائق، انعطف واسلك الاتجاه الآخر، ولأنّه إنكليزي أصيل، قال، معذرة يا سيدي؟ فقلت، لا تعتذر بل انعطف! ففعل ونقلني إلى مكان آخر".

ونتيجة لذلك، تضمّ بيوت بندر مجموعة من التدابير الأمنية الحديثة التي تحول دون دخول الزوّار غير المرحب بهم.

عند تصميم الحيز الداخلي للبيوت، يحرص بندر دائماً على راحة عائلته وأصدقائه وزوّاره الآخرين. وقد وضع على مرّ السنين صيغة ملائمة بحيث توجد عناصر مشتركة في كل بيت. تميّز القاعات الرسمية التي يُستقبل فيها أعضاء العائلة المالكة والدبلوماسيون والضيوف المميّزون بالزخرفة الغنية. فثمة غرفة صينية في قصر الرياض

ملئية بالكنوز التي تضمّ الخزف والمنحوتات وحاجباً خشبياً ضخماً منقوشاً من خشب الورد. والمجلس الرئيسي هنا جميل، مزين باللونين الكحلي والأبيض، وتفتش أرضه سجادة من الحرير.

يوجد في كل بيت قاعة واسعة غير رسمية لتسليّة العائلة والأصدقاء. وتضمّ هذه عادة بركة سباحة داخلية وتقع في طبقة سفلية بعيداً عن القاعات الرسمية. وثمة منطقة جلوس دائماً في أحد طرفيها، وجدار يضمّ شاشات تلفزة وأجهزة موسيقية عالية التقنية، وفي كل غرفة طعام تشكّل جزءاً لا يتجزأ منها. ويتبع مقرّ إقامة السفير في واشنطن، الذي أخلاه بندر، والقصر في جدة، هذا التصميم، وغليمبتون بارك شبيه به. ويتيح الحيّز الضخم للأولاد، والأحفاد، والمربيات، والأصدقاء، والموظفين التحرك بحرية، أو الاسترخاء في أماكن مختلفة من دون تطفل أحد على الآخر.

يستمتع بندر بالرفقة، وكثيراً ما تنضمّ حاشية السفر إليه في المساء، وكذلك أفراد عائلته. لذا جرى التفكير ملياً في استيعاب ضيوفه الكثر، إما داخل البيت الرئيسي أو القصر، وإما في الفيلات الفخمة المقامة على الأرض المحيطة. تقول ربما: "والذي معماري محبّط. فما من مبنى كامل قطّ لأنّه ينظر دائماً في طرائق تحسينه ليعث على الراحة أكثر، عن طريق تهدم الجدران وما شابه. وهو يعيد البناء على الدوام ويضيف مزيداً من الأشياء. وغايته دائماً منح الآخرين مزيداً من الراحة. وأنا أجد ذلك رائعاً حقاً. إنّه يفعل ذلك من أجل الآخرين دائماً، وغالباً ما أشعر بإغراء القول، *افعل ذلك لنفسك، انسَ أمرنا جميعاً وافعله لنفسك*"³⁶.

يمكن القول إنّ بندر فعل ذلك بالضبط في غليمبتون بارك. فثمة جوّ مميّز من الرجولة في هذا القصر الإنكليزي. قاعة الدخول الكبيرة مليئة بالتحف واللوحات التي تعود إلى حقبة مختلفة. لكن المذهل جداً مجموعة الأسلحة - الغدّارات والسيوف والخنجر والرماح - الموزّعة في تناظر تامّ على كل جدران "قاعة الدرج"³⁷. وقد أوضح بيتر براون، مدير العقار: "لطالما رغب الأمير بندر في أن يكون غليمبتون بيتاً رجولياً. هناك مجموعة الأسلحة داخل القاعة الرئيسية، التي تضمّ أسلحة نارية مقلّدة. ومن غرائب القانون أن الأسلحة النارية القديمة لا تتطلب شهادات، في حين أنّ النسخ المقلّدة تتطلب شهادات، حتى تلك التي لا تعمل. غير أنّ ذلك لم يُكتشف إلا بعد أن عُرض فائض الأسلحة [من غليمبتون] للبيع في مزاد علني في لندن، وبدأت الشرطة

تحقق في مصدر هذه الأسلحة غير القانونية³⁸. واضطر براون لاحقاً إلى إرسال كل الأسلحة المشتراة للقاعة الرئيسية إلى بيرمنغهام لتأكيد أنها لا تعمل، وهو عمل كبير نظراً إلى ترسانة الأسلحة المعلقة في البهو الرئيسي في غليمبتون.

أيما كان الأمير بندر في العالم، فهو يحب أن يختلط بالمجتمع المحلي. وهو يستمتع على وجه الخصوص بأخذ الأصدقاء والعائلة إلى المطاعم المجاورة. ومن المطاعم الصغيرة المفضلة في واشنطن "بكنغ غورمييه إن" الكائن في مركز تسوق غير متميز في نورث فيرجينيا. وفي أكسفوردشير، يحب بندر ارتياد مطعم هندي صغير في قرية محلية، وفي إحدى المناسبات عندما زاره جورج إيتش دبليو بوش في جدة، أخذه بندر إلى مطعم بيتزا محلي.

يتميز الأمير بندر بالجود والكرم، وليس أدلّ على ذلك من تبرّعاته السخية إلى المؤسسات والجمعيات الخيرية والأفراد. هناك التبرّعات الكبيرة التي تظهر في العلق، مثل تمويله شراء جهاز تصوير مقطعي محسوب لمستشفى أسبن فالي بكلفة مليون دولار، ووحدة للإصابات والرضوض في المستشفى نفسه. وعند الحديث عن مركز الإصابات والرضوض، قال وليام جوردان الثالث، محامي بندر في أسبن في كولورادو، "اتصلوا بي من المستشفى وقالوا، إنّ غرفة الحوادث لدينا غير مناسبة البتة، وقد أجرى جراحنا بحثاً بشأنها وعلينا تحديث التجهيزات بتكلفة تبلغ 350,000 دولار. هل يستطيع الأمير المساهمة في هذا المبلغ؟ قلت، سأتحادث إليه".

وصف جوردان ردّ بندر على طلب المساهمة عندما عرضه عليه. قال بندر: "ما المبلغ الذي يريدون جمعه؟".

أجاب جوردان: "الغرفة بأكملها والتجهيزات الحديثة تكلف 350,000 دولار".

قال بندر من دون تردد: "اشتر كل شيء".

وتابع جوردان: "وهكذا اشترى كل شيء، وعندما تذهب إلى المستشفى اليوم، تجد اسمه على أعلى المجلس الشرفي. وإذا توجهت إلى غرفة الطوارئ، وبجانها غرفة الحوادث، تجد لوحة لم يطلبها البتة، لكنّه اشترى الغرفة بأكملها". واعترف جوردان: "لو كان المبلغ 1,350,000 دولار، لقال، اشتر كل شيء"³⁹.

غير أنّ تلك اللفتة ليست سوى مثال على كرم بندر في أسبن. ومن الأنشطة التي يدعمها ولا تحظى بإعلان كبير تقدم إجازات في أسبن للأطفال الذين يعانون من

السرطان. كما يدعم أيضاً جمعية خيرية أخرى للأطفال الذين يعانون من السرطان تدعى سيلفر لينغ، تديرها لاعبة التنس المتقاعدة أندريا جاغر⁴⁰.

يقول ريك دين، الرئيس الحالي لمؤسسة "أسبن ماوتن رسكيو"، وزوجته لندن، وهي متطوعة أيضاً: "الأمير بندر رجل مدهش. ولولا مساعدته لما كانت ماوتن رسكيو قادرة على العمل"⁴¹. وثمة كثير من الأمثلة على كرم بندر وسخائه، مثل جمعية المحاربين القدامى والعيادة التابعة لها في أسبن، تقديراً للدور الأميركي في حرب الخليج الأولى. وبالتالي ليس من المفاجئ أن تكتب صحيفة أسبن ديلي نيوز أن "جهود الأمير بندر بن سلطان الخيرية ذات جذور عميقة في أسبن. ولا مجال للنقاش في تبرّعات بندر السخية للجمعيات والمؤسسات الخيرية في أسبن"⁴².

يقول بيتر جاي، وهو سفير بريطاني سابق في واشنطن، إن بندر وافق بطريقة مماثلة على دعم جامعة أكسفورد بروكس في إنكلترا. فقد كان جاي يحاول جمع الأموال لتطوير الجامعة بإنشاء كلية الصحة والرعاية الاجتماعية. وهي مصممة للتركيز على كل المهارات الداعمة للرعاية الصحية مثل الممرضات والقابلات (الدايات) والمعالجين الفيزيائيين، واختصاصي رعاية المصابين بالسرطان.

يروى جاي: "أوضحت أنني أبحث عن محسن كبير. فتطوّع الأمير بندر على الفور بتقديم مليون ونصف المليون جنيه لتعليم الرعاية بمرضى السرطان. وبعد ذلك تحركنا بسرعة لإتمام التفاصيل وقُضي الأمر!"⁴³. وفي بيان صحفي، أفادت الجامعة أن مساهمة الأمير بندر، وهي الأكبر التي تقدّم إلى الجامعة، مولت "كرسي صاحب السمو الملكي الأمير سلطان للرعاية بالسرطان" في كلية أكسفورد بروكس للصحة والرعاية الاجتماعية، وقد سُمّي كذلك تكريماً لوالد الأمير بندر⁴⁴.

ومن تبرّعات بندر الأخرى في العالم الأكاديمي قيامه بتمويل كرسيين في جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور، ميرلند، واحد للدراسات الدولية والآخر للدراسات البيئية.

يكنُّ بندر تقديراً كبيراً لسلاح الجو الملكي على التدريب الذي تلقاه في كرانول، في تلك الفترة التكوينية من حياته، لذلك قدّم تبرّعاً سخياً بعد ذلك بعدة سنوات. يذكر السير ريتشارد جونز، مارشال سلاح الجو والقيّم على قلعة وندسور ورئيس مجلس أمناء متحف سلاح الجو الملكي، هندون في لندن: "قبل خمس أو ست سنوات،

وضع مجلس أمناء المتحف رؤية للمستقبل. وهي تشمل إنشاء حظيرة طائرات كبيرة جديدة تدعى معالم على طريق الطيران تسجل مئة عام من الطيران العسكري". وأوضح جونز: "توجهنا إلى صندوق هيرتيج لوتري لكن كان عليك أن تجمع قسماً من المال بنفسك، وكان ذلك تحدياً كبيراً". هنا تابع القصة طوني إدواردز، وهو عضو في مجلس الأمناء أيضاً وقد التقى ببندر في أثناء برنامج اليمامة تورنيديو. فأطلع الأمير بندر على مشروع المتحف وقال: "أيمكنك أن ترشدني إلى أين يمكن أن أتوجه بحثاً عن المال لدعم متحف سلاح الجو؟".

بعد أن تحدّثا عن عدد من الأشخاص، قال بندر: "لم تطلب منّي. ماذا عني؟ ما الذي يلزم للبدء؟".

أجاب إدواردز: "يلزم نحو ثلاثمئة وخمسين ألفاً".

اعترف إدواردز: "كان هناك جدال إن كان المطلوب ثلاثمئة وخمسين ألف دولار أو جنيه، وتم ترتيب زيارة للأمير إلى المتحف. تبين أن المطلوب ثلاثمئة وخمسون ألف جنيه وهو المبلغ الذي بُدئ به المشروع. ثم دخل رعاة آخرون من الكويت والشرق الأوسط. لذا جمعنا نحو 1.1 مليون جنيه، وقدم صندوق اللوتري مبلغاً مماثلاً ومضى المشروع".

وقال إدواردز: "لو لم يقدم بندر ذلك المبلغ لما تم البدء بالمشروع. يا له من كرم!"⁴⁵.

لكن، مع أن كرم بندر بتقديم المال حائمي، فإن احترام الأمير للقريين منه ورعايته لهم يكشفان عن تعاطفه الحقيقي مع الآخرين. وكل الأمثلة على كرمه تتم بهدوء من دون أن يعرف بها أحد.

ذكرت ميمي بورك، إحدى سكرتيرات الأمير، أنها التقت قبل عدّة سنوات بسكرتيرة سفير بلد إفريقي، فقالت لها: "أتذكرين عندما أصبح سفير عميداً للسلك الدبلوماسي؟". كان بلده فقيراً جداً ولم يكن في وسعه تحمّل أعباء واجبات عميد السلك، فأرسلوا رسائل إلى كل السفراء، مع ما يترتب على ذلك من إحراج، يقولون فيها: "هلا تتبرعون من فضلكم بمئتي دولار لمساعدتنا على القيام بهذا العمل؟".

قدّمت بورك الطلب إلى بندر فقال: "ميمي، دعينا ندفع عن السنة كلها. لن أرسل شيكاً بمئتي دولار فقط إلى هذا الرجل". وقالت بورك إن بندر كتب رسالة رقيقة إلى السفير يقول فيها: "مبروك لأنك أصبحت عميد السلك الدبلوماسي وهذه

مساھمي". بعد عشر سنوات، عندما التقت ميمي بتلك السكرتيرة مجدداً، قالت: "بكيينا جميعاً عندما تسلّمنا الشيك، كان أفضل صنيع يُقدّم عليه أحد. فقد خفف كثيراً من الضغط كوننا بلداً فقيراً نحظى بهذا المنصب ونريد أداء عملنا على أكمل وجه. لقد قدّم إلينا الأمير المبلغ بأكمله وسهّل عملنا كثيراً".

وختمت بورك: "لم يحصل على أي اعتراف بالفضل على ذلك، ولم يعلم أحد به. لكن، لدي قصص كثيرة مثل هذه"⁴⁶.

عندما علم جون فلترى، حلاق الأمير، أنني أقوم بكتابة سيرة حياة الأمير بندر، أصرّ على أن أجري مقابلة معه، وقال لي بصوت مثقل بالعاطفة: "هذا الرجل غير معقول! إنّه يأخذني معه في أسفاره، إنني حلاق عادي صغير، أيمكنك أن تتخيّل ذلك؟ لقد سافرت معه إلى سويسرا، وكاليفورنيا عدّة مرّات، وهاواي، والمملكة العربية السعودية، وإفريقيا... إلى كل مكان".

وقال فلترى: "أريد أن أخبرك عن عظمة هذا الرجل. إنني أمارس هذا العمل منذ مدة طويلة، وبدأت أملّ منه، لذا فكّرت في أن أبيع. على كل حال، لم أقم بالأمر الصحيح وتعرّضت للاحتيال وانتهى بي الأمر بخالي الوفاض. لم أبلغ الأمير بذلك، لكنني قلت إنني أحاول أن أبدأ عملاً جديداً".

تابع فلترى: "بعد يومين تلقّيت اتصالاً من بنك ريغز، وأبلغني أحدهم أنّ الأمير بندر يريد من البنك أن يقرضني المال وأنّه يقف خلفي. وكان الأمير يريد أن يعطيني 300,000 دولار لأبدأ. لم أستخدم المال، لكنّ، فكّر في الأمر، أنا حلاق صغير من الشارع، فكّر في مقدار سموّ ذلك، في الثقة الكبيرة التي محضني إياها. سأذكر دائماً أنّه عرض عليّ تلك المساعدة"⁴⁷.

لكن الأمير لا يمنح المحيطين به الدعم المالي فحسب. بل يمنحهم الإحساس بالاهتمام والرعاية. وقد اتضح ذلك عندما نزلت ضيفاً في قصره في مراكش. روت لي مديرة القصر، ليندا وير، حادثة توضح طريقة اهتمامه بجلاء.

ذكرت وير أنّ ابنتها الصغرى، صوفي، انضمت إليها في مراكش بعد أن أجرت عملية جراحية كبيرة لسرطان في عنق الرحم، لكن كان عليها العودة لتجري جراحة أخرى. وقالت وير: "عندما يصل [الأمير بندر]، كان يسأل عنها دائماً. لم تكن موجودة عندما جاء، وعندما لم يقل شيئاً، لم أفتحه بالأمر".



حلاق بندر، جون فلترى

بعد نصف ساعة تقريباً، رنّ الهاتف في غرفة المؤونة وقال بندر لوير: "كيف حال ابنتك يا لين؟". أجابت وير: "في الواقع يا صاحب السموّ، سافرت صوفي إلى بريطانيا أمس لأنها تعاني من مشكلة صحية صغيرة، لكنّها ستعود بعد أسبوع".

سأل بندر: "ما المشكلة؟". أجابت ليندا: "إنّها مصابة بسرطان في عنق الرحم، لكنّها تراجع جرّاحاً شهيراً، ونعتقد، إن شاء الله، أنّها ستكون المعالجة الأخيرة".

ساد صمت مؤقت قبل أن يقول الأمير: "أريدها أن تحصل على رأي طبيّ آخر". أجابت وير: "ذلك لطف كبير منك يا صاحب السموّ. إنّها ذاهبة بمفردها وقد رتبنا الأمر".

قاطعها الأمير: "لا، أريدها أن تحصل على رأي طبيّ آخر". وقالت وير: "كم كان ذلك لطيفاً. إنّهُ رجل شديد الاهتمام. أن يتصل بي ويسألني عنها، وأن يتذكّر أن صوفي غير موجودة! ذلك مميّز جداً"⁴⁸. وأجرى بندر الترتيبات اللازمة للحصول على الرأي الآخر.

في مثال آخر على مراعاة الأمير للآخرين واهتمامه لهم، تحدّث أحد العاملين في فريق بندر، الذي يسافر كثيراً مع الأمير، عن كرمه، وحضوره الأسر. أوضح أنّه بينما كان مسافراً مع بندر، علم العميد، قبيل وصولهم إلى هيوستن قادمين من واشنطن، أنّ أمه المقيمة في جدة مريضة جداً، أصيبت بعدد من السكتات. أبلغ العميد الأمير بالوضع وطلب منه السماح له بالتوجّه إلى المملكة العربية السعودية فور وصولهم إلى هيوستن.

سأل بندر: "كيف تنوي التوجّه إلى جدة؟".

أوضح العميد أنّ عليه ركوب العديد من الطائرات، وأنّ الطريق الأسرع يعني العودة إلى واشنطن، وركوب طائرة إلى لندن، وطائرة أخرى إلى القاهرة، ثم طائرة إلى جدة. ونظراً إلى خطورة الموقف، استبعد الأمير هذه الخيارات، وأجرى ترتيبات أخرى على عجل.

ركب العميد الطائرة التالية إلى واشنطن من هيوستن، حيث تمت مرافقته إلى رحلة على متن طيران "بريتيش إير وايز" إلى لندن. وعندما وصل إلى مطار هيثرو، نُقل إلى مروحية أقلته إلى مطار ستانستيد مباشرة، وكانت هناك طائرة خاصة جاهزة لنقله على الفور إلى جدة. وختم العميد: "كان ذلك مثلاً فقط على إنسانية الأمير بندر". وأكد أنه لم يُفرد بهذه المعاملة: "إنها الطريقة التي يرعى بها الأمير بندر العاملين معه"⁴⁹.

أكد العديد من العاملين مع بندر هذه الملاحظة التي أدلى بها العميد، لكنني سمعت ذلك أيضاً من الدكتور سعيد الكرمي الذي قال عن طبع الأمير: "إنه دائم التهذيب مع الجميع. وخلال أربع وعشرين سنة، لم أشاهد بندر يوبّخ أياً من العاملين أو يرفع صوته في وجههم في أي وقت"⁵⁰.

وقدّم مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق لويس فريه تقيماً ثاقباً للأمير عندما قال: "تعلمت أن تقييم الأشخاص في السلطة يتم وفقاً لطريقة تعاملهم مع موظفيهم. ومن الأشياء التي ألاحظها - ربما لأنني كنت عميلاً سرياً قبل عدّة سنوات - ومن طرائق الحكم على الناس، لا سيما الذين لديهم سلطة، النظر إلى كيفية تعاملهم مع من يعمل لديهم. وعندما أريد أن أعرف أي شيء عن أحد في واشنطن لا أعرفه، أسأل عملائي، تحدّثوا إلى المحيطين به بالتفصيل وأبلغوني أي نوع من الأشخاص هو، وكان يأتيني الخبر أنه رجل جيّد، يراعي الآخرين، لطيف، مغفّل، رهيب، لثيم".

وبالعودة الآن إلى بندر، تابع فريه: "إنها قاعدة عامة سريعة جداً. وسيخبرك عملائي الذين تعاملوا معه الأمر نفسه. إنّه يعتني دائماً باحتياجات حرسه الأمني أولاً، وأعتقد أن ذلك يدلّ على شخصيته"⁵¹.

وفي إيضاح آخر لاهتمام بندر لأصدقائه وإخلاصه لهم، عندما فقد نلسون مانديلا ابنه ماكغاثو بالإيدز في يناير 2005، كشف عن ذلك بشجاعة أمام العالم. لم يتصل بندر بمانديلا ويقدم له تعازيه فحسب، بل شعر أيضاً أنّ عليه أن يقدمها شخصياً. وفي أثناء زيارته، قال نلسون مانديلا مبتسماً إلى الأمير الذي يسند به، "لقد شرفني وأسعدني العمل معك ولك. وأعتبر نفسي محظوظاً لأنني صديقك". وقال مانديلا مازحاً إنّه كان في حضرة أهمّ رجل في العالم عندما كان بصحبة بندر. وردّ بندر التحية بقوله: "الرئيس يحظى باحترام وتقدير عاليين. إنّه ليس زعيم إفريقيا فحسب، وإنّما العالم بأكمله"⁵².

هذه اللفتة الرائعة هي في الواقع إثبات على الحكمة التي يردّها بندر: "كل أصدقائي مخلصون لي لأنني مخلص لهم"⁵³.

ومن الأمثلة المدهشة على رغبة بندر في مساندة الآخرين الأقل حظاً منه رعايته المالية لمشروع لايف سايكل رينجر في جنوب إفريقيا. بعد التطوير ونجاح التجارب في زيمبابوي، طورَ منظم الأعمال البريطاني مايك نورمان عربة إسعاف مكوّنة من درّاجة نارية ومركبة جانبية كبديل سهل الصيانة وعالي المردودية بالنسبة إلى التكاليف للمركبات رباعية الدفع، ويمكن أن تساعد المجتمعات الريفية في بلدان العالم الثالث. لفت روبرت ديكون إليوت نظر بندر إلى هذا المشروع، فأدرك إمكاناته على الفور وعرض دعمه الكامل ورعايته له. وأيد نلسون مانديلا أيضاً الفوائد الإنسانية للمشروع وأصبح راعيه المشارك.

يوجد لدى شركة إنتاج رينجر الآن مصنع في قرية كنغ وليام في جنوب إفريقيا ووحدة بحث وتطوير في إنكلترا. وهي تنتج، بالإضافة إلى عربات الإسعاف المكوّنة من درّاجة نارية ومركبة جانبية، أجهزة تنقية متحرّكة للماء، ودور سينما متحرّكة لتثقيف المناطق الريفية عن فيروس الإيدز. ويمكن القول إنّه بفضل إنسانية بندر ومنتجات رينجر، تحسّنت نوعية حياة العديد من الأشخاص في أنحاء العالم الثالث.

وقد أبلغني الرئيس كارتر قصة أخرى غير معروفة كثيراً عن كرم بندر. قال كارتر: "في كل عام أصنع شيئاً لكي يبيعه مركز كارتر في مزاد علني. أنا ماهر في النجارة فأصنع الأثاث. وفي إحدى السنوات نقشت مجموعة شطرنج، وصنعت علبة من خشب الكرز. بطّنتها زوجتي بالمخمل، وفيها مكان يتسع لكل قطع الشطرنج. لذا قدّمتها إلى مركز كارتر لبيعها في مزاد علني، وزايد بندر على تلك المجموعة. دفع 141,000 دولار مقابل مجموعة شطرنج! وهكذا فإنّه يمتلك اليوم إحدى مجموعات الشطرنج التي صنعتها، والوحيدة التي بعته!"

وختم كارتر: "لعلّها الوحيدة التي نقشتها رئيس سابق بيديه"⁵⁴.

تحدّث جورج إيتش دبليو بوش أيضاً عن أعمال الأمير الخيرية فقال: "يكثر بندر من عمل الخير. ومن السهل جداً المحاولة معه بسبب ثرائه الواسع. لذا أعتقد أنّ من المهمّ أن يُنظر إليه كشخص يرغب في مساندة الجمعيات الخيرية، وأن يكون ممن أدعوهم منارات في مساعدة الآخرين. إنّ لديه دفئاً شخصياً وقلباً كريماً". وأكدت

السيدة بوش: "إنه يتعفف عن ذكر محاسنه تواضعاً، لكن يجب أن يعرف العالم عن كرمه"55.

غير أن بندر يلاحظ عندما يتحدث عن أعماله الخيرية أن وسائل الإعلام تقدّم انطباعاً خاطئاً عن سجلّه الخيري. ففي حين أنّ الصحافة الغربية غالباً ما تورد أخباراً عن تبرّعاته الخيرية في الغرب، فإنّ بندر يؤكد أنّه في مقابل كل دولار يتبرّع به في الغرب، يقدّم عشرة دولارات دعماً للمشاريع الخيرية في العالم العربي.

يقول بندر في محاولة لتقدم الأسباب الكامنة وراء أعماله الخيرية: "عندما تمتلك كل شيء، فإنّ أرفع ما يمكن أن تصل إليه في الحياة هو أن تمدّ يد العطاء إلى الآخرين. هذه هي أسمى المراتب، أن تتمكّن من تقديم العطاء إلى الآخرين"56.

بندر:

الكشف عن اللغز

لا يهَمّ مقدار ضيق الباب،
وما العقوبات الواردة في لفافة الورق،
إنني سيّد مصيري،
وأنا القِيم على روعي.¹

"إنفكتوس"، وليام إيرنست هنلي
(1849 - 1903)

عندما سألت نلسون مانديلا إذا كانت إنفكتوس من القصائد المفضّلة لديه،
أجاب عليّ الفور: "هذا صحيح... إنني أحب تلك القصيدة كثيراً، لكنني لم أعد
أذكرها بدقّة". ثم ألقى مانديلا الأبيات الأربعة الواردة أعلاه، مشدّداً على البيتين
الآخيرين، اللذين كرّهما².

وعند التأمل في متطلّبات جدول الأعمال القاسي كسفير ومبعوث للملك وولي
العهد، غالباً ما كان بندر يعبر عن رغبته أيضاً في أن يصبح سيّد مصيره وأن يخصّص
بعض الوقت لنفسه. وتساءل: "أليس رائعاً أن أكون متسكّماً على الشاطئ لأمضي
أثني عشر شهراً مع نفسي وعائلي؟". وقد استخدم الدكتور سعيد الكرمي العبارة
نفسها في أوائل سنة 2004 عندما تساءلت عمّا يمكن أن يرغب بندر في عمله لاحقاً.

من الواضح أنّ بندر كان يرنو إلى التحرّر من ضغوط العمل الدبلوماسي
المتواصل. ومع أنّه كان يمتلك سلطة كبيرة في أثناء عمله طوال عقدين كسفير، فإنّ
هذه السلطة لم تكن من دون تكلفة، فقد كان مجبراً على التضحية بحريّته الشخصية.
وقد عبّر فرانسيس بيكون عن ذلك ببلاغة شديدة: "من المستغرب الرغبة في السعي
وراء السلطة وفقد الحرية"³.

يستطيع المرء أن يفهم لماذا كان يُحسَد قرار نلسون مانديلا الشجاع بالتخلي عن منصبه بعد ولاية واحدة، وسعيه بعد ذلك للابتعاد عن الحياة العامة. وغالباً ما صَفَّق الأمير لذلك القرار. ومع اتضاح رغبة بندر المتزايدة في الابتعاد عن الدور الذي شغله منذ أكثر من عقدين، أصبح جلياً أيضاً في أوائل سنة 2004 أنه سيُقدم عاجلاً أم آجلاً على خطوة نلسون مانديلا الجريئة، وهي الابتعاد عن الأضواء والدخول في عالمه الخاص وتذوق طعم الحرية الذي قد يحمله التقاعد معه. ومع أن هذا الهروب قد يكون مؤقّتاً، فإنّه سيمنحه فترة استراحة يتحرّر فيها من الضغوط والتحديات التي رافقت دوره المنهك.

تعزّز هذا التقدير في لقاء ثنائي آخر مع الأمير بندر - قرابة الساعة الثالثة بعد منتصف الليل - عندما تحوّل النقاش فجأة من العموميات إلى جوانب السلطة. فقال بندر من دون أي تنبيه: "المال لا يعطي السلطة، لكنّ السلطة يمكن أن تعطيك كل المال الذي تريد في هذا العالم. لكن، إذا كانت لديك السلطة ولا تمارسها، فإنّها تكون عديمة الجدوى. وإذا افترضت أن لديك السلطة، لذا يمكنك ممارستها، لكنك لم تمارسها بطريقة تمكّنك من حماية حريتك، فما فائدة السلطة؟ يمكنك أن ترضي الجميع باستثناء نفسك".

ولاحظ أنّ هذه "المسألة المعقّدة هنا تصبح واجباً. لديك السلطة لأن تكون حراً، ويمكنك أن تمارس حريتك لأنك تملك المال، ثم تتدخل الواجبات ولا يجديك الأمران شيئاً. فبصرف النظر عما تمتلكه من سلطة ومال، عندما يكون لديك إحساس بالواجب، تبدأ بالتضحية بما لا يضحّي به الآخرون، الذين ليس لديهم قدر ما لديك من سلطة ومال، لكنهم يريدون حماية حريتهم". وكانت هناك إشارة انتقاد لبعض أترابه السعوديين عندما قال: "ويرجع ذلك إلى حقيقتين بسيطتين: ليس هناك شيء حرّ ولا شيء يأتي بالاختيار".

يشعر بندر بإحساس ملزم بالواجب تجاه المملكة العربية السعودية، وهو إحساس يعبر عنه بندر بوضوح بقوله: "إنني مقتنع أنني أدّيت واجبي... مضاعفاً!". ثم طرح السؤال التقرييري التالي: "يسأل الناس، هل أحببت في يوم من الأيام؟ نعم أحببت. وحبّي أولاً وأخيراً هو للمملكة العربية السعودية. وقد تعلّمت على مرّ السنين أنّه عبء ثقيل جداً. المشكلة هي أنّك عندما تحب، لا تفكّر كما يلي: هل ينصفني الحبيب

أم لا؟ وهل يحسن إلي أم لا؟ إنه حبّ غير مشروط. لكنك تصل إلى مرحلة تقول عندها، إلى متى؟".

وفي تأمله في ما يمكن أن يحمله له المستقبل قال: "إذا بقيت فذلك لأن هناك شيئاً أستطيع القيام به، وأصارك القول إني لا أتصوّر الآن ما قد يكون مهماً جداً وحيوياً جداً لبلدي، بحيث لا يستطيعون فعله من دوني. وعندئذ عليّ أن أفعله. لكن يجب أن أكون مقتنعاً بذلك"⁴.

وأوضح بندر أنّه إذا أخذ على عاتقه مثل هذا الالتزام، فيجب أن يترك له مجالاً لكي يخصّص بعض الوقت لعائلته. وبهذا المعنى يمكن القول إنّّه وصل إلى نقطة تحوّل في حياته، وأصبح عازماً على تحديد أهداف شخصية واضحة تقيم تسوية بين دوره كأب وزوج، وإخلاصه الدائم للواجب واحتياجات المملكة التي يجب. بل إنني شعرت أنّ بندر تحدّث بالفعل عن رغبته الشخصية إلى الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله، والأمير سلطان. وبدا واضحاً أنّ بندر يقف على قمة تغيير ما، على تحوّل قد يشهد تحلّيه عن قلب مسرح الأحداث في الدبلوماسية العالمية.

برز إحساس بندر العميق بالواجب مجدداً في أثناء المقابلة التي أجريتها مع حلاقه، جون فلتري. "إنّه يتحدّث إلي بعفوية، حيث نكون بمفردنا. ويدور الحديث حول الأشياء التي يرتاح الناس عادة إلى التحدّث عنها مع حلاقيهم. أقول له طوال الوقت، أنت الأمير، لكنك عامل مُجد". وتابع فلتري بعد استغراقه في التفكير قائلاً: "من غيره يذهب إلى المملكة العربية السعودية ويعود في يوم واحد؟ لا أحد يريد تلك الحياة! إنّّه شديد الإخلاص لبلده وعمله؛ ولا يأخذ إجازة قط. إنّّه يعمل طوال الوقت". وختم فلتري بملاحظة تحدث صدى في النفس: "إنني أذهب إلى لندن معه وأمضي وقتاً ممتعاً، لكنّه يعمل. من العامل المُجد الآن!"⁵.

بالعودة إلى التأمّلات في السلطة والمال قال بندر: "يعتقد الناس أنّه كلما ازداد المرء قوة وثراء، ازدادت قدرته على الانتقاء والاختيار. وحقيقة الأمر أنّ خياراتك تصبح محدودة أكثر إذ ينتظر منك أن تفعل أموراً عدة. ويأتي كل ذلك كجزء من الصفقة. يمكنك بالطبع أن تصبح مثل هوارد هيز وتحبس نفسك في أعلى فندق، أو يمكنك أن تصبح مثل بيل غيتس وتقرّر أن تستأجر طائرة عندما تسافر لا أن تمتلك واحدة، أو يمكنك أن تكون ثرياً ذا ميول اجتماعية وترغب في إظهار كل شيء. لكن

ما يعتدّ به هو كيف يمكنك أن تمزج كل هذه الأشياء معاً، المال والحرية والأصدقاء القدامى ونمط الحياة... إنها معادلة معقدة".

وتابع قائلاً: "أعرف أنني لا أريد أن يكون الأمر مختلفاً عما هو عليه. فسيكون من المضجر أن أعيش حياة تقليدية أو أن أسلك الطريق السهل". وتوقّف هنيهة مجدداً قبل أن يقول: "من الممتع أن تتمكّن من الجلوس في البيت الأبيض ويكون لك دور في القرارات الحاسمة، لكنني أستمتع أيضاً بالاجتماع مع أصدقاء الدفعة 96 في أسبن".

"صحيح أيضاً، عندما تأخذ الجانب الآخر من المعادلة، أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة. وكلما ازدادت سلطة، ازدادت صعوبة عمل المكابح عليك. بعبارة أخرى، عليك أن تجدّ في تشغيل المكابح لتوقف إغراء الحصول على مزيد من السلطة". ويرى بندر أن السلطة مخدّر؛ لكن ما يثير التناقض الظاهري أن اعترافه بإغراء السلطة يقدم إليه الترياق. وعندما تأملت كلمات بندر والتشابهات بينه وبين ميكيافيلي، تذكّرت لاحقاً أن القانون الأخلاقي الوحيد الذي يتبعه أي أمير ميكيافيلي هو الحصول على السلطة والاحتفاظ بها وتوسيعها، وأن ليس من حدود تقف في وجه تحقيق ذلك الهدف⁶. هل يكون ذلك مفتاحاً لفهم شخصية بندر؟

اتضحّت إحدى المعالجات لهذا النقص في شخصية بندر عندما تحدّثت عن دائرة أصدقائه، الأشخاص القريبين منه والمستعدين لتثبيت قدميه على الأرض وحقن جوّ من الواقعية في حياته. وعند الحديث عن هؤلاء الأصدقاء قال: "السؤال هو، هل كان استقبائي لهم قدراً أم تخطيطاً؟". وقد أجاب نفسه على الفور قائلاً: "إنني بحاجة إليهم إذ كلما ارتفعت ازدادت سلطتك وقلّت فرص سماعك هذه الأشياء".

توقّف التخمين بشأن مستقبل بندر منذ مدة طويلة عند تقاعده ثم تعيينه لاحقاً كأمين عام لمجلس الأمن الوطني السعودي، لكنّه كان شائعاً في أكتوبر 2004. ففي الأشهر التي أعقبت حوارتي مع بندر في الرياض، وفي مسعى لاكتشاف الحقيقة بشأن مستقبله، طرحت السؤال تكراراً على أصدقائه وزملائه: "ماذا يلي؟". وفي أحد هذه الحوارات، رأى الدكتور سعيد الكرمي أنّه "ربما يسعى للهرب من الإجهاد المتواصل الذي يفرضه عليه دوره الحالي. إنّه يخضع للكثير من الإجهاد. فعليه أن يواجه ضغوطاً لا تليّن في دوره الحالي يوماً⁸". لكنّه أقرّ أنّه إذا ما حدث ذلك، فقد يتولّى دور مستشار لولي العهد أو وزير الخارجية؛ أو حتى دور وزير من دون حقيبة؛ مبعوث

خاصّ. وخلافاً لكلام الدكتور الكرمني المنتقى بعناية، كان الأمير فيصل بن تركي أكثر صراحة بقوله: "دعني أصرحك القول، لقد أصبح منصب السفير إلى الولايات المتحدة صغيراً جداً عليه. ولطالما فعل أكثر من ذلك، لكنّه يحتاج إلى فعله في إطار عمل آخر. أعني أنّ عشرين عاماً في عمل واحد فترة طويلة جداً"⁹.

عندما سألت الكرمني عما إذا كانت عملية اختيار خليفة للأمير كسفير في واشنطن قد بدأت بالفعل، لم يتحدث عن بديل إذا ما تنحّى بندر أو استدعي إلى المملكة "الولايات المتحدة هي الشيء الأهم بالنسبة إلى المملكة في هذه المرحلة. وما دام ذلك المنصب مهماً فسيبقى بندر". بدا واضحاً أنّ الكرمني لم يكن يتوقّع أي تغيير في دور الأمير في المستقبل القريب. ولدعم هذا الاستنتاج، تابع بحكمة: "لا يزال الشرق الأوسط في حالة فوضى، ولا يزال العراق في فوضى، وما زلنا لا نعرف إلى أين نحن ماضون، وما زالت المشكلة الإسرائيلية العربية من دون حل، ولا يزال لديه الكثير من العمل"¹⁰.

وعندما سألت برنت سكوكروفت عما يشعر أنّ بندر سيفعله بعد عمله الطويل كسفير إلى الولايات المتحدة أجاب: "أتوقّع أن يدخل الحكومة إذا ما استُحدث منصب ما. إنّهُ السفير الوحيد الذي اضطلع بذلك الدور؛ أما أسلافه جميعاً فكانوا دبلوماسيين عاديين. وهو فريد بهذا المعنى"¹¹. وردّد الدكتور هنري كيسنجر هذا الرأي. فقد لاحظ أنّ صلوات بندر في واشنطن ليست فريدة فحسب وعلاقته بعائلة بوش ليست خاصة جداً فحسب، بل "هناك حاجة إليه في دوره كسفير في الوقت الحاضر، في أعقاب 9/11. ولا أستطيع أن أعرف من يمكن أن يحلّ محله. وأعتقد أنّ بندر أفضل المرشّحين للاستمرار في ذلك الدور في السنوات القليلة القادمة". وعلّل ذلك بقوله إنّ لبندر كثيراً من الصلات مع الحكومة في خمس إدارات بحيث يصعب استبداله¹².

وفي تقدير متباين عما أورده سكوكروفت وكيسنجر، قال لويس فريه: "الدور الذي أراه فيه، إذا لم يصبح الملك، وهو ما يجب كثيرون هنا أن يروه؛ كم سيكون قائداً تقدّماً وذكياً ومتنوّراً، هو أن يصبح شبيهاً بمانديلا. أي أن يصبح رجل دولة كبيراً يستطيع التدخّل والمساعدة في إصلاح أوضاع صعبة جداً قد تخرج عن السيطرة بسهولة"¹³. ومن الآراء الأخرى بشأن مستقبل بندر ما قدّمه الرئيس السابق بيل

كلينتون عندما قال: "أعتقد أنه يفهم العالمين اللذين عاش فيهما بقدر ما يفهمهما كل من أعرف، ويدرك ما يحفظ التوازن بينهما، وذلك عمله كدبلوماسي. وعندما لا يعود دبلوماسياً، عليه التفكير في كيفية تغيير الأمور...". وقد ألمح كلينتون إلى الحاجة إلى إدخال تغيير في المملكة، فقال لبندر: "لقد أنعمت الحياة عليك وشهدت الكثير، لكنك لا تزال شاباً. أعتقد أن عليك أن تمضي وقتاً طويلاً في التفكير في شأن ما تعتقد أن المملكة العربية السعودية يجب أن تكون عليه بعد عشرين سنة، وما يجب أن يكون عليه الشرق الأوسط، وما يجب عمله لكي يصبح كذلك، فما من نظام يبقى ساكناً إلى الأبد"¹⁴.

رأى كولن باول أن عودة بندر المحتملة إلى المملكة يمكن أن تنطوي على احتمال أن يشغل دوراً شبيهاً بدور مستشار الأمن القومي. فقد قال: "إن سبب خروجه يمثل هذه الفكرة أن هذا الدور لا يتطلب إدارة جهاز بيروقراطي أو منظمة ما. فهو يفضل عملاً بلا حقيبة. وعمل مستشار الأمن الوطني عمل ينطوي على شيء من التحرك بخفة"¹⁵.

رأى السفير ريتشارد مورفي أنه على الرغم من أن بندر اضطلع بمسؤولية أوسع بكثير كسفير جوال للملك فهد، ولاحقاً لولي العهد الأمير عبد الله، فقد وافق على أنه لا يستطيع مواصلة أداء الدور الحالي كسفير إلى أجل غير محدد. لكنّه عزّز ملاحظات باول عن تولّي بندر منصب مستشار للأمن الوطني. "في الثمانينيات، كان بندر صريحاً جداً بشأن إنشاء مجلس للأمن القومي، وأنه سيكون مستشار الأمن الوطني في الرياض. بل كان لديه رسم لطاولة مجلس الأمن القومي وللكراسي، لذا فقد فكر في هذا الأمر. لكن ذلك لم يحدث. وقد قلت لبعض أعضاء العائلة المالكة، إنني لا أفهم كيف تعملون، كيف تنفذ القرارات التي يتخذها الملك أو ولي العهد، من الذي يتابعها؟ ما الهيكلية الموجودة هناك؟ وعلى حدّ علمي، على الرغم من وجود مجالس اقتصادية عليا، ومجلس أعلى هنا ومجلس أعلى هناك، فإنه لا يوجد شيء يعمل كهيئة تنسيقية، كشرطي على الهيكل الحكومي. في إحدى المراحل، كان ذلك هو الحل، وكان يحاول طرحه وأعتقد أنه وجد نفسه في ذلك الدور"¹⁶. وكانت كلمات مورفي بمثابة توقع.

ازدادت قناعتي أن بندر يحاول التقاعد كسفير، مع ذلك أقنعت أن ذلك سيكون فترة لاسترداد العافية فحسب. فثمة مؤشرات قوية على أن عليه العودة في النهاية إلى المملكة والاضطلاع بدور جديد، على الرغم من رغبته في توازن أفضل بين العمل

والحياة. فإحساسه بالواجب قوي جداً. وبعد مراجعة تعليقات مراقبين آخرين لبندر، توصلت إلى قناعة أن ملاحظة ريتشارد مورفي عن تولي الأمير نوعاً من مهمة مستشار الأمن الوطني قد تكون أقرب إلى الهدف. وذلك ينسجم مع اقتراح باول منصباً من دون حقيبة، ربما يشمل دوره كمبعوث لولي العهد.

في الإجابة عن سؤال "إلى أين تراه ذاهباً؟". قال الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمير بندر: "بصراحة، إنه أحد أبرز السياسيين في العالم. وأعتقد أن بندر سيكون مفيداً أكثر في المملكة في هذه المرحلة بسبب ما طرأ عليها من تحديث". وحرص فيصل على التشديد على قدرة الأمير على قيادة عملية التغيير في المملكة العربية السعودية. وتابع بقناعة: "يجب أن يكون هناك بسبب نفوذه. ويجب أن يكون هناك بسبب العلاقة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة؛ وليس من الضروري له أن يكون هنا [واشنطن]". ورأى أن عودة بندر إلى المملكة لن تضرّ بعلاقاته في واشنطن، لكنه خلص إلى أن انتقاله إلى المملكة العربية السعودية ضروري. فهو يعتبر أن لدى بندر القدرة على مساعدة المملكة الآن، وفي إمكانه تقديم مساهمة فريدة إلى تطوّر بلده في المستقبل. وفي ملاحظة تنبيهية، أشار فيصل إلى أن بندر يعي في دعوته إلى تحديث المملكة الدروس المستفادة من سقوط سلطة الشاه في إيران، أو "اتباع خطى الأتراك". وشدد فيصل مجدداً على وجوب أن يكون بندر هناك، "كمستشار خاص لولي العهد، أو كمستشار للأمن الوطني لدى ولي العهد، أو في منصب يستطيع من خلاله تقديم المشورة".

النقطة الأساسية في مقولة الأمير فيصل هي أن بندر بتوليّه دور مستشار، يمكنه أن يكون في واشنطن ذات يوم للاجتماع بالرئيس وتقديم رسالة، لكن يمكنه العودة بسرعة إلى المملكة للعمل مع ولي العهد، وليكون على اتصال مباشر معه في معظم الأوقات. وختم فيصل: "إنهم يعلمون أن الأمير بندر مهم جداً بالنسبة إليهم، لا بسبب أميركا وما إلى هنالك، بل بسبب ما فعله لبلده، وخبرته ومعرفته. وسيقدم إليهم النصح من أجل خير المملكة العربية السعودية".

هذه الأمثلة عن المشاكل الكامنة التي تواجهها المملكة قدّمت إلى الأمام تقييم الأمير فيصل الوجيه بشأن الحاجة إلى بندر للمساعدة عندما قال: "إنها بحاجة إلى تحديث"¹⁷. وأقرّ طارق الشواف على نحو مماثل أن الأمير وصل إلى نقطة تحوّل في

حياته. "أعتقد أنّ انتخاب بوش شكّل نهاية جميلة ورائعة لجانب الولايات المتحدة في حياته، لكنّ التحدي الكبير القادم ربما يكون الأكبر في حياته، لأنّهم لن يسمحوا له بالوصول إلى حيث يحلم".

وتابع الشواف: "عندما يرجع إلى المملكة الآن، لن تصبح السياسة الخارجية الأميركية هي التحدي، بل التحدي هو تفسير ما يجب أن نفعله في بلدنا. وهو لا يتعلّق فقط بالحديث عن البلد، حتى إذا تناولناه من وجهة نظر أنانية جداً، إنّهُ يتعلّق بالعائلة المالكة ومكانتها، ثم بالبلد". وتابع الشواف شرحه فيما أنا كلي آذان صاغية: "لا يمكننا المتابعة على هذه الحال، هناك مشاكل ويجب أن يحدث، وسيحدث، تغيير جذري"¹⁸.

ردّد كولن باول كلام الشواف قائلاً: "المملكة تحتاج إلى تغيير، وقد تحدّثت مع بندر عن ذلك كثيراً".

لم يكن لإعادة انتخاب جورج دبليو بوش في نوفمبر 2004، واستمرار إدارة الحزب الجمهوري تأثير كبير في توقيت مغادرة بندر واشنطن. لكن المؤشّرات على فترة من التغيّر الدراماتيكي في حياة بندر ازدادت قوة. وصار هناك توقّع حقيقي أنّ اتخاذ قرار كبير قد يكون وشيكاً.

في أوائل ديسمبر 2004، ظهر دليل آخر على نية بندر في أثناء حوار في منزله في غلیمبتون. قال: "هذه هي المشكلة الآن في العمل مع زعماء العالم. لم يعودوا كباراً أو نابضين بالحياة كما كانوا من قبل. الأمر مضجر، إنّهم يفكّرون في الأشياء التكتيكية اليومية، وغابت الرؤية الكبيرة". وتابع بألم: "كان القادة قادة حقيقيين في تلك الأيام".

عندما انتقل بندر في تأملاته إلى التركيز على الركود الشخصي المؤلم قال: "عندما تصبح هناك، وتفعل هذا وتقول ذلك - أسوأ ما يمكن أن يحدث لأحد في أي عمل أو مهنة أن يتوقّف عن الشعور بالإثارة أو الإعجاب أو المفاجأة - يحين وقت الانتقال إلى عمل شيء آخر. وإذا كنت لا تزال تشعر بالإثارة والمفاجأة، فلا بأس في الاستمرار.

عندما زار ولي العهد الأمير عبد الله كروفورد في أبريل 2005، تزايد وضوح العلامات على أنّ بندر يسعى للهروب من متطلّبات منصبه. وعندما تحدّثت مع بعض

العاملين لدى الأمير في منزله في مكّين، أسروا أنّ الأغراض الشخصية يجري توضيها، وأبدوا قلقهم من أنّ الأمير قد يغادر. وعندما التقى مايكل بتروزيللو من شركة كورفيس كوميونيكيشن بالأمير بندر في مكّين، ذكر: "عندما رأيت أنّ كل صور عائلته واللوحات قد نزعّت، قلت له، أرجو يا صاحب السموّ أن تكون في صدد تغيير الديكور!".

بعد ذلك بوقت قصير، وصل بندر وعائلته إلى غليمبتون في إجازة صيفية في الظاهر. لكنني اكتشفت أنّ ولديه الصغيرين التحقا بمدارس محلية في منطقة غليمبتون. مع ذلك لم يظهر أي إعلان رسمي في المملكة العربية السعودية يؤكّد تقاعده. وأسّر بندر إلى أصدقائه أنّه عقد سلسلة من الاجتماعات مع ولي العهد، وتلا النقاش تبادل التحيات والحديث عن العائلة والأصدقاء والعموميات، قبل أن يدخل في صلب الموضوع. ظنّ ولي العهد ومستشاروه أنّ بندر يحاول المناورة للحصول على دور كبير في الحكومة بدلاً من الاستقالة والتقاعد.

صدر إعلان رسمي عن وزارة الخارجية في 20 أبريل 2005 يؤكّد أنّ خادم الحرمين قبل طلب بندر إعفائه من واجباته لأسباب خاصة. وأبرز ذلك البيان الرسمي أيضاً خدمة الأمير المميزة التي دامت أكثر من خمس وعشرين سنة، وأظهر فيها كفاءة استثنائية وقدم خدمات جلّى إلى الملك وبلده²⁰. وأكّد أيضاً أنّ خليفة بندر سيكون الأمير تركي بن فيصل، شقيق زوجته، الذي كان سفير المملكة إلى لندن في السنوات الثلاث الماضية. وقبل أن يتولى منصب السفير إلى لندن، ترأس الأمير تركي المخابرات السعودية مدة عشرين عاماً. وفي تعليق على الأسلوب الشخصي لكل منهما، أفيد بشكل ملائم أنّه "إذا كان بندر هو جيمس بوند السعودي، فإنّ تركي هو جورج سمايلي المملكة [بشهرة جون لو كير]"²¹.

ويذكر بعض أوثق أصدقاء بندر أنّه عندما كان يتناول العشاء مع الأمير تركي ابن ناصر، في أثناء التفاوض مع ولي العهد، ساد المرح عندما لاحظ تركي ضاحكاً من استقالة بندر: "يجب أن تدخل كتاب غينس للأرقام القياسية. لم يستقل أحد في المملكة العربية السعودية من قبل. فإما أن يعاد تعيينهم وإما أن يموتوا في منصبهم وإما أن يفصلوا!". لا شك في أنّ عدم تصديق الدوافع من وراء استقالة بندر لم يكن بيناً داخل المملكة فحسب، بل حفز أيضاً الكثير من التخمين في وسائل الإعلام.

ظهر ردّ الفعل على الأخبار في واشنطن على الفور. فقد أصدر البيت الأبيض بياناً وصف بندر أنه "داعية لا يكلّ للروابط الوثيقة، والعلاقات الدافئة، والتفاهم المتبادل" بين البلدين، وأنّ الظرف والمرح يتيمان حكيمته²². في غضون ذلك خمنت الصحافة بشأن الأسباب المحتملة لمغادرته. بعضها ألمح إلى ضعف الصحة والاكنتاب، في حين رأت صحف أخرى أنها مناورة سياسية، وقيل إنّه أمل في أن يصبح وزير الاستخبارات، وهو منصب تولاه الأمير تركي بن فيصل مدة طويلة²³.

قبل أن يستقيل بندر، تحدّث غير مرّة عن ندمه لأنّه لم يتمكن من تمضية وقت أطول مع عائلته. وعندما لوحظ أن أبناءه يتفهّمون تماماً المطالب التي يتحمّل أعباءها، قال بندر: "ذلك يزيد الأمر سوءاً ويجعله أشدّ إيلاماً، إنّه الولاء. لا أريد أن أمنحهم وقتي عندما أصبح في الثمانين من العمر، حيث يضطرون إلى حملي من مكان إلى آخر. أريد أن أمنحهم بعض الوقت الأساسي عندما أكون موجوداً لأجلهم مثلما كانوا موجودين لأجلي طوال كل تلك السنوات".

على الرغم من توفقه إلى فترة من الراحة من الميدان السياسي لتمضية مزيد من الوقت مع عائلته، فقد بدا أنّه من الصعب التصديق أن يكون مثل هذا الهدف قابلاً للتحقيق، بينما عمل العائلة هو السياسة، ووالده هو ولي العهد. فالأدلة على الافتراض أن بندر سيعود في نهاية المطاف إلى خدمة بلده، حتى إذا لم يعترف بذلك بنفسه، تتبع من تعليقاته إلى حدّ ما. فقد قال: "من دون تبجّح، هناك أشياء لا يستطيع أحد في هذا البلد القيام بها سواي. وهنا تكمن الخطورة؛ فصنّاع القرار يعرفون الوتر الحساس لدي. وهؤلاء الأشخاص يعرفون أنّه إذا كانت هناك حاجة ملحة إليّ، لأداء عمل شديد الأهمية للمملكة العربية السعودية، فسيتمّغلب عندئذ إحساسي بالواجب. وسأكون هناك في قرارة نفسي، مهما حاولت أن أنكر ذلك". لذا حتى بعد تحلّي بندر عن دوره كسفير إلى الولايات المتحدة، يمكن العودة إليه بين الحين والآخر لأداء مهمّات ضرورية للمملكة العربية السعودية. واعترف: "أعرف أنّي لا أستطيع أن أقول لا، وعلى الرغم من أنّي أستطيع تبريرها فإنّني لن أفعل ذلك"²⁴.

أقرّ الشواف أن بندر يحنّ إلى السيطرة على مصيره، والتقاعد مثل مانديلا، فقد اعترف أنّه "لا يستطيع، فالمملكة العربية السعودية ليست جنوب إفريقيا. كما أن لديه مشكلة كبرى؛ فهو لا يستطيع أن يقول لا للأمير عبد الله أو للأمير سلطان"²⁵.

لم يكد يمضي شهران على الإعلان الرسمي عن استقالته حتى عيّن بندر أميناً عاماً لمجلس الأمن الوطني، وهو منصب يدعو إلى لعب دور كبير في مستقبل المملكة العربية السعودية.

غالباً ما حاولت الصحافة الغربية أن تنسب إلى بندر خصائص الشخصيات التاريخية في تحليل شخصيته، متبّعة أوجه الشبه التي تراها قائمة بين الأمير وشخصيات مثل ونستون تشرشل، وتاليران، وغاتسبي، وميكيافيلي، وتوماس إدوارد لورنس، وإلى حدّ أقل رونالد ريغن ونلسون مانديلا. ثمة شيء من الحقيقة في كل من هذه المزاعم، مع ذلك فإنّها جميعاً أقنعة مناسبة في نهاية المطاف. لكنّها ليست انعكاسات دقيقة لشخصيته الحقيقية.

إنّ العوامل التي تجعل بندر ما هو عليه اليوم هي المفاتيح لفهم اللغز. وبالعودة إلى الوراء، توصلت إلى الاستنتاج أنّ انعدام الأمن الذي تطوّر لدى الأمير في صغره، دفعه لأن ينشد إنجاز أكثر مما هو مطلوب. كما أنّ تعدّد النساء اللواتي كان لهنّ تأثير في نشأته ساعد على تشكيل شخصيته، ومنحه منظوراً مميّزاً. فقد طوّرت هذه التأثيرات النسائية في الأمير عقلية مميّزة، ومنحته شعوراً حدسياً صقل موهبته الرائعة والقاطعة في تقييم الأشخاص والمشاكل.

إنّ معلوماتي الشخصية عن بندر في أثناء الوقت الذي أمضيناه معاً في كلية سلاح الجو الملكي في كرانول في سنّ الشباب، إلى جانب تعلق الأمير العاطفي الصريح بتلك الفترة التكوينية من حياته، والولاء الشديد للأصدقاء العديدين الذين اكتسبهم في أثناء التدريب العسكري، تقنعني أنّ تشكيل رجل الدولة البارِع الذي هو عليه اليوم يدين بالكثير إلى تلك التجربة الغنية. فقد غرست القيم والمعايير والانضباط في تلميذ الضابط الذي كان عازماً على إثبات نفسه بمفرده.

مع ذلك فإنّني مقتنع بأنّ سرّ كشف لغز بندر، على الرغم من أنّ شخصيته ميالة إلى الغرب، يكمن في تراثه الوطني.

تشكّل المملكة العربية السعودية تناقضاً استثنائياً في العالم الحديث، وتجسّد شخصية بندر الممغزة. فكلاهما منجذبان إلى التحديث الغربي والتقاليد الدينية الشرقية. ومع ذلك فإنّ هذا الانقسام يجعل الثقافة البدوية السعودية دائمة التغيّر، وتمتلك انسيابية رائعة. وبدلاً من أن تكون هذه الانسيابية تناقضاً مقيماً، يمكن القول

إنّها نعمة مباركة لمن يعيش في منطقة هي موطن الديانات السماوية الثلاث، والعديد من الأعراق والمعتقدات السياسية والمصالح الاقتصادية.

إنّ بندر دبلوماسي بدوي بالمعنى الحقيقي، دائم التنقل في كل أنحاء العالم، وعائم بين التقاليد التي ينتمي إليها والثقافة الغربية التي يعمل فيها. وعند الحكم عليه من المنظورين الغربي والشرقي، فإنّه يقع بشكل خادع في منطقة فاصلة بين الثقافتين. ومع ذلك هنا تكمن مواهبه البدوية الحقيقية، وإيمانه الصادق، والعائلة المحبّة، ودائرة الأصدقاء التي تشكّل واحة السفر الخاصة به.

قدّم الأمير بنفسه نظرة شخصية ثاقبة إلى قدرة بندر على الارتفاع فوق الانقسام الثقافي العربي/الغربي، عندما لاحظ في إشارة بارعة على قدرته على تجاوز الثقافات، "هذا هو الفرق. أعتقد أنّ قلة قليلة من الأشخاص تستطيع الانتقال من ذلك الوضع إلى هذا وتدخل كليهما وتخرج منهما بارتياح".

وقال بندر: "أشعر بارتياح وأنا أضع ربطة العنق البيضاء وأرتدي البذلة بقدر ما أشعر بالارتياح وأنا أرتدي الزي السعودي". لكنّه أضاف بسرعة: "إنّه ليس بالأمر السهل. لا أعرف كيف، لكنني حققت ذلك وأشعر بالارتياح له". وتابع معتمداً نظرة فلسفية: "ما الذي يتطلّب ذلك، المجموع الكلي لحيااتي؟ ليس هناك شيء واحد أحدث ذلك، بل المجموع الكلي. وأنا أوّمن حقاً، كما كان ينقل كنيدي، بعض الأشخاص يرون الأشياء كما هي ويسألون لماذا، وأنا أتخيّل الأشياء وأسأل لم لا؟".

على الرغم من قدرة بندر على الانسلاخ بين الشرق والغرب بسهولة غير مقصودة، فإنّه لا يزال عليه المحافظة على الاتصال بالواقع. ويوضح وجود أصدقائه كيف يحافظ الأمير على الاتصال بالعالم الحقيقي. وعن هؤلاء الأصدقاء يقول: "أعتقد أنّه كلما قلّ مثل هؤلاء الأشخاص المحيطين بمن يمتلك السلطة، ازداد ميله إلى ارتكاب الأخطاء. فأنت تحتاج إلى من ينزلك إلى أرض الواقع ويقول، هل تعلم؟ كان ذلك الأداء عظيماً لكنك أغفلت هذا الأمر، وأخطأت في ذلك. ستفاجأ كم يساهم ذلك في نجاح المرء لأنّ الناس سيعجبون بأدائك، وبمقدار العملية والواقعية اللتين تميّز بهما أو كيفية تعاملك مع الوضع"²⁶.

وكما قال فرد داتون: "إنّه لا يدفع لي لأقول نعم"²⁷.

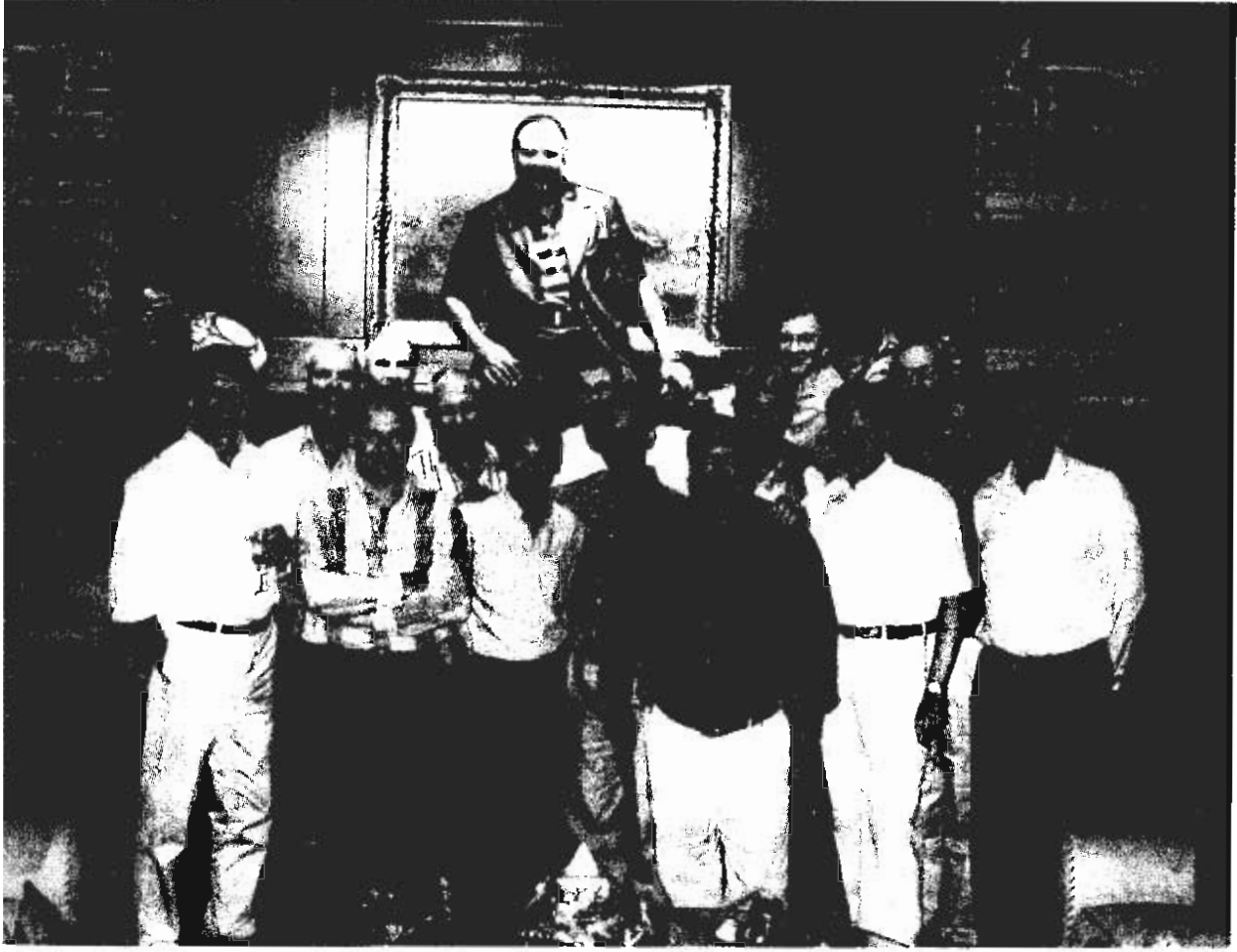
كنت شاهداً على الأهمية التي يوليها بندر لأصدقائه لا سيما زملاؤه القدامى منذ أيام كرانول، وذلك في أثناء لم شمل أعد له بندر في مزرعته في أسبن. فقد فوجئ الستة عشر شخصاً الذين حضروا الاجتماع بمقدار دفء الأمير. فعلى امتداد عطلة نهاية الأسبوع، أعد بندر العديد من الأنشطة وأظهر كرم ضيافة رائعاً. وفي نهاية تلك الرحلة احترنا كيف يمكننا أن نظهر له تقديرنا فاشتركتنا معاً في شراء قطعة أصيلة من الفن الهندي الأهلي - قناع هندي من صنع أحد أحفاد الزعيم سينغ بل - وقدمناها إلى بندر في الليلة الأخيرة.

تأثر بندر كثيراً بهذه الالتفاتة، فعلق رده في ذهني عندما قال: "لم يكن ذلك ضرورياً حقاً، ليتكم تعرفون مقدار ما تعنيه لي...". هنا تلاشى صوته تأثراً، وفي تلك اللحظة، ساد إحساس ملموس بالرضى. لقد شعر بندر باسترخاء تام وهو محاط بأصدقائه القدامى، ومتحرر من الضغوط اليومية التي كان يواجهها في ذلك الوقت. فهنا يوجد أصدقاء يحبونه ويعرفونه لما كان عليه، لا لموقعه السياسي.

عند التحدث في لم الشمل عن الإحساس العميق، والعاطفة التي يكتنّها لزملائه في كرانول، بدا بعض المرح في صوت بندر وهو يتساءل كيف يمكنه أن يشعر بالارتياح مع زملائه في كرانول بعد كل تلك السنين، ومع ذلك يتعامل بسهولة مع عالم الدبلوماسية المليء بالغرور. ففي بيئة يُعامل فيها الأمير كنظير، يحظى بقليل من البروتوكول الواجب بسبب مكانته ويخاطب دائماً بلقب بن، وهو اللقب الذي مُنح له في كرانول. وفي العالم "الحقيقي" يُعامل باحترام جمّ وفقاً للبروتوكول، ويمتلك سلطة عظيمة. وفي تحليل لنفسه قال بندر: "يجب أن يكون هناك شيء صلب داخلك وأن تكون مرتاحاً مع نفسك. وإذا لم تكن تشعر بالراحة في داخلك فلا يمكنك إدخال التغييرات؛ الانتقال السريع المطلوب في دوري الحالي".

وللتعبير عن هذه النقطة بمزيد من الوضوح، لجأ بندر إلى رواية إحدى الطرف. "هناك شخص يدعى جورج شولتر. كان مسؤولاً عن المكتب العام في عهد نيكسون، وهو منصب غير حكومي. وكان أستاذاً للاقتصاد في شيكاغو، وفي نهاية عهد نيكسون، أصبح وزيراً للعمل".

تدفقت الآن الكلمات بسرعة عندما تابع بندر بدأب.



بندر يستضيف لم شمل كرانول، في منزله في أسبن

"خسر فورد الانتخابات وعاد شولتز إلى القطاع الخاص. وانتهى به الأمر إلى رئاسة شركة بكتل، وهي شركة ضخمة. عند التعامل مع المملكة العربية السعودية، كان يتعامل مع الحكومة ومع أرامكو، ونسج صداقة عظيمة مع السيد سليمان العليان (*). وقد بدأ العليان كسائق شاحنة في أرامكو، لكنه كان ذكياً وأصبح غنياً جداً. كان شولتز والعليان يقضيان الإجازة معاً ويصطحبان زوجتيهما. وعندما كان شولتز يقصد المملكة للعمل، ينزل عند العليان، وعندما كان العليان يتوجه إلى سان فرانسيسكو، يقيم عند شولتز. أعني أن الزوجتين كانتا كالأختين وكانا [أي العليان وشولتز]

(*) توفي سليمان صالح العليان في 4 يوليو 2002 في الولايات المتحدة. على الرغم من أنه أمضى أكثر من خمس وخمسين سنة في بناء شركات في المملكة، فإنه عمل كجسر بين الولايات المتحدة والعالم العربي، لا سيما عندما تتعرض العلاقات الأميركية السعودية للتحدي والاختبار. وقيل إن العليان كان مواطناً سعودياً فخوراً، لكنه ارتبط في حياته بصداقته لأميركا. وكان ملتزماً بدوام العلاقة الأميركية السعودية بقدر ما كان ملتزماً بالمحافظة على روابطه الشخصية والتجارية وعلاقاته مع شركائه وأصدقائه الأميركيين. لم يكن دبلوماسياً محترفاً لكنه كان رجل دولة، رجلاً يدرك العلاقات التي تعود بالخير العميم ويقدرها ويعمل على تقويتها.

كالأخوين. ولا يمكن أن تكون العلاقة أوثق من ذلك. في سنة 1982، أصبح شولتز وزيراً للخارجية. كان العليان في نيويورك عندما أعلن عن ذلك، لذا التقط الهاتف واتصل بصديقه".

"مرحباً يا جورج، كيف حالك؟". قال العليان.

"مرحباً سيّد عليان". وشدّد الأمير لم يقل سليمان بل سيد عليان.

ذهل العليان باللهجة الرسمية التي اتخذها ردّ شولتز، فقال له: "تهانينا. إذا كان

لدينا الوقت فسأعرج على واشنطن وأقدم إليك وإلى بوني تهنئتي".

"في الحقيقة كنت سأتصل بك لكي تأتي لرؤيتي". أجاب شولتز. "لم لا تأتي إلى

المنزل بعد ظهر غد؟".

قال العليان: "حسناً، أراك لاحقاً".

توجّه العليان إلى منزل شولتز حيث التقت الزوجتان كالأختين، فتعانقتا

وقبّلت إحداهما الأخرى. لكنّ شولتز كان جافياً وبعيداً. وظنّ العليان أنّه ربما كان

منحرف المزاج. وجلس الجميع لتناول الشاي والبسكويت، لكنّ شولتز لم يظهر أي

دفع.

وفيما كان العليان وزوجته يتهيّئان للرحيل، خاطب شولتز العليان باسمه الأول

سليمان. وكانت المرّة الوحيدة التي يناديه باسمه الأول طوال تلك الليلة.

قال شولتز: "إننا أصدقاء منذ مدة طويلة. لكنني أقدر كثيراً، كبادرة صداقة، ألا

تتصل بي في البيت أو في المكتب، ما دمت وزيراً للخارجية".

ران صمت محرج. وقال العليان مذهولاً: "ما هذا الهراء الذي تتحدّث عنه؟".

عندئذ نهضت السيدة شولتز وغادرت الغرفة.

وسأل العليان: "هل تمزح يا جورج؟".

فأجاب شولتز: "لا، لا أمزح. ومن الآن فصاعداً أنا وزير الخارجية لا جورج".

فقال العليان بعد صمت طويل: "أتعرف يا جورج؟ لا تشرفني مصافحتك. وأنا

خارج. في إمكانك أن تذهب إلى الجحيم".

وبعد أن غادر على الفور، اتصل العليان ببندر من سيارته؛ وكان يفترض أن

يتوجّه إلى المطار لكنّه غير طريقه وسأل إذا كان في وسعه الجيء للاجتماع به بدلاً من

ذلك. وأوضح بندر: "لذا فإني أخبرك بشيء علمته من أحد المشاركين مباشرة".

سأل العليان بندر: "ماذا تستنتج من ذلك؟".
فقال بندر: "إنها ليست إشارة طيبة. وإني سعيد لأنك أخبرتني لنستعدّ لهذا
الخصيس".

وفي نهاية قصة شولتز قال بندر: "هذا هو الفارق بين البشر. سئل جورج بوش
الأب عندما كان رئيساً، هل صحيح أنّ الأمير بندر يعتبر عضواً في حكومتك؟ فقال
جورج بوش، غير صحيح على الإطلاق، لكنّ الأمير بندر صديق عزيز من بلد صديق
ولا أنجمل من دعوته صديقي. انتهى النقاش". وتابع بندر: "مع جورج بوش، نجم عن
صداقتنا ثمن سياسي كبير. كان يسعدني، وأنا أفهم السياسة، لو قال فقط، إنه ليس
عضواً في حكومتي؛ ذلك أمر خاطئ. انتهى النقاش. لم يكن عليه أن يخطو تلك
الخطوة الإضافية. فلماذا فعل ذلك؟ الإخلاص! إذا أظهرت الإخلاص، يمكنك أن
توقعه. لكن، لا تطلبه إذا كنت غير راغب في تقديمه. الإخلاص طريق باتجاهين. ولا
يقتصر وجوده عندما تكون الأمور على ما يرام. فما يعتدّ به وقوفك إلى جانب
أحدهم عندما لا تسير الأمور على ما يرام".

يتسم الأمير بندر بذكاء حادّ، ودهاء ويتقن حيك الخطط. مع ذلك لديه إخلاص
لعائلته، وأصدقائه، وآل سعود، ودينه، وبلده. وقد استخدم مجموعة مواهبه - ظرفه،
وشخصيته المحبّبة، وحضوره الطاغي، وثقته بنفسه، وشخصيته القوية - في أثناء خدمته
المملكة كسفيرها إلى واشنطن، يدفعه في ذلك إحساسه بانعدام الأمن ورغبته في خدمة
الملك. واكتسب بندر الحكمة عبر عقود من التركيز على دوره كدبلوماسي، ولعب
على لوحة مفاتيح السلطة بشكل مثير للإعجاب سعيًا وراء النجاح.

كما فصلنا في الفصل الخامس، بعد أن أبلغ بندر وزير الخارجية جورج شولتز أنّه
ذاهب إلى الصين للمساعدة في وقف تدفق الأسلحة على إيران سنة 1985، أشرف
على "أجراً مغامرة تمويهية تقدم عليها السياسة الخارجية السعودية في ذلك العقد".
وعندما كان في بيجنغ لإجراء محادثات في الظاهر بشأن الحدّ من الأسلحة وشراء
الأسلحة التي تريد الصين بيعها إلى إيران، انسلّ للتفاوض على شراء أكبر الصواريخ
البالستية وسيطة المدى في الشرق الأوسط. وقد زُعم ببلاغة: "هذا هو بندر الشرقي
الذي ينفذ دبلوماسية ملكه السرية ويأمل في ألا يمسك به الأميركيون. وهو الأمير
نفسه الذي أقنع البيت الأبيض في عهد ريغن بتشارك معلومات الأقمار الاصطناعية

الاستخبارية الحساسة مع العراق، وهي عملية بدأت في غرفة الجلوس في بيت بندر في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، والأمير نفسه الذي أجبر على التوجه إلى وزارة الخارجية في سنة 1986، والاعتذار عن نقل حكومته قنابل تزن ألفي باوند باعتبارها سهوة²⁸.

كانت الحقيقة مختلفة جداً... لإقناع العراق بالقيام بمزيد من عمليات القصف في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، فوضت إدارة ريفن المملكة العربية السعودية سرّاً بنقل القنابل الأميركية إلى العراق وشجعت السعوديين على تزويد صدام بطائرات مقاتلة بريطانية أيضاً. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر وفقاً لتقارير سرية، نقلت المملكة العربية السعودية ألفاً وخمسمئة قنبلة زنة ألفي باوند إلى العراق. وتبين أن نقل الأسلحة ينتهك قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، وهو قانون فيدرالي يمنع البلد المتلقي من نقل الذخائر أميركية المصدر إلى بلد ثالث من دون إذن خطي من الولايات المتحدة. وعندما تجري مثل أعمال النقل هذه، يتطلب القانون نفسه أن يبلغ الرئيس الكونغرس على الفور. وبالاعتراف بالسهو، حمى الأمير في الواقع عملية للسي آي آيه، وبالتالي كسب مزيداً من الأصدقاء في واشنطن، ليس أقلهم مدير السي آي آيه بيل كيسي²⁹.

من المهم الإشارة إلى التباين القائم بين تطبيق المعايير الأخلاقية على فرد مقابل تطبيق المعايير الأخلاقية على دولة أو أمة. وكما عبّر عن ذلك ألكسندر هاملتون: "إن القاعدة الأخلاقية لا تطبق بشكل دقيق على الدول مثلما تطبق على الأفراد... فملايين الأشخاص الحاضرين والأجيال المستقبلية معنيون بالتدابير الحالية لحكومة ما، في حين أن نتائج العمل الشخصي الذي يؤديه الفرد تنتهي مع نهاية حياته"³⁰. وقد تبين أن بندر يعتقد بهذا النمط من التفكير عندما قال: "إنني أميل إلى ألكسندر هاملتون أكثر من ميلي إلى الديمقراطي الجفرسوني"³¹.

شرح ماكيافيلي بالكتاب الكلاسيكي لهذا النوع من الفلسفة السياسية عندما كتب الأمير. وقد رأى أنه "عندما تتوقف سلامة البلد على اتخاذ قرار، يجب ألا يُسمح بغلبة أي اعتبارات تتعلق بالعدل أو الظلم، أو الإنسانية أو القسوة، أو المجد أو العار"³². وفي كتاب شبح ولسون (Wilson Ghost)، يرى روبرت مكنمارا وجيمس بلايت أن ميكيافيلي لن يشعر بالتوجس بقدر ما شعر به ترومان حيال استخدام القنبلة الذرية، وهي مقولة تستند إلى أن حجم الأرواح البشرية التي أنقذت أكبر من تلك التي سقطت نتيجة هذا العمل التدميري³³.

اتفق أنني عثرت عَرَضاً على بحث قدّمه بندر لنيل شهادة الماجستير في جامعة جونز هوبكنز في بالتيمور، ماريلند. وفي هذه الرسالة، يعتنق بندر نظرية ميكيافيلي، ويتوقّف بشكل خاص عند وجهة النظر الأخلاقية، أو الافتقار إليها، وييدي تقبله لفكرة أن الأعمال التي تنفّذ للصالح العام لا يمكن أن تخضع للمساءلة وفقاً للمقياس الأخلاقي. وليس هناك دليل أوضح على ذلك مما اختار الأمير الشاب أن يبدأ به رسالته:

"عليه (الأمير) ألا يفكر قط في سوء السمعة الذي سيلحق به جراء هذه الآثام التي من دونها يمكن أن ينقذ الدولة بصعوبة. فإذا فكر المرء في كل ما هو حسن، فسيجد أن اتباع شيء يبدو صالحاً يجرّ عليه الخراب، واتباع شيء آخر، يبدو أثماً، يجلب له الأمن والرخاء".

ميكيافيلي³⁴.

يمكن أن يظهر تأييد بندر أسلوب ميكيافيلي في الدبلوماسية، في عمله لأكثر من عقدين من الزمن، كرجل دولة يهتم لخير البشر. فبتقبّل أن من واجبات رجل الدولة الأساسية التي لا تنزعزع، حماية منعة دولته وأمنها وسلطتها، أقرّ بندر أن القوة اللازمة للاضطلاع بهذه المهمة توجد في القدرة على اتخاذ القرار البراغماتي، بصرف النظر عن صعوبة الظروف، وتنفيذه.

إنّ إيمان بندر أنّ القيام بما هو ضروري لتحقيق النتيجة المنشودة للصالح العام، ينبع من تفهّم ما الذي يحرك القائمين بالسلطة. وفي إشارة إلى الادعاءات والمجاملات في السياسة الدولية كتب بندر: "إنّ مثل هذه الافتراضات بتجاوز الأخلاق ما هي إلا واجبات تحجب الوصفات الميكيافيلية للبقاء"³⁵.

مع ذلك فقد كتب بندر المتفائل أولاً والبراغماتي ثانياً: "إنّ الحجم المخيف للسلطة الحديثة نفسها، ربما يفرض القانون الأخلاقي الذي يتجاوز الأهداف الضيقة لأي دولة. وقد نقلت الظروف الموضوعية لأي حياة دولية حديثة هذا الموضوع بعيداً جداً عن البروج العاجية للمجتمع الأكاديمي"³⁶.

طرحت سؤالاً في بداية هذا الكتاب: "هل الأمير بندر رجل سلام؟ رجل مبادئ، وضمير، وصواب أخلاقي؟". أعتقد أنّه رجل سلام حقاً. غير أنني سألت أيضاً هل يجب تصويره بمثابة "أمير ميكيافيلي، أمير يفتقر إلى الأخلاق السياسية، تحكمه النفعية

فقط، رجل يمكن القول إنه عجل بحدوث حرب الخليج الأولى وسهّل جهود بوش الاستباقية وغزو العراق؟".

من المحيّر أنّ الجواب يجب أن يكون نعم. وربما يمكن إيضاح ذلك على أفضل نحو في تسلسل الأحداث التي حرّكها قبيل الانتخابات الرئاسية في نوفمبر 2004.

كنت ضيفاً في عشاء غير رسمي دعا إليه بندر في 28 أغسطس 2004 في غليمبتون. وكان بندر وضيوفه يشاهدون حصول كيلبي هولمز على ميداليته الأولمبية الثانية في سباق الألف وخمسمئة متر على شاشة تلفزة ضخمة. تضم غرفة وسائل الإعلام لدى الأمير شاشة رئيسية على كل من جانبيها شاشتان صغيرتان. وكانت الشاشات الصغيرة تعرض قنوات إخبارية أميركية وعربية، وفجأة لفت انتباه بندر خبر على محطة سي أن أن الإخبارية. وكشف الخبر أنّ الأف بي أي يحقق إذا ما كان لاري فرانكلين، وهو موظف متوسّط في البنتاغون، قد زوّد إسرائيل، عبر أيباك، بتوجيه رئاسي بشأن السياسة الأميركية تجاه إيران³⁷.

كشفت تفتيش مكتب فرانكلين ومنزله من قبل عملاء الأف بي أي عن وجود ثلاث وثمانين وثيقة تحمل تصنيف سري جداً، وسري وتمتدّ على ثلاثة عقود. أوقف فرانكلين على الفور ثم خضع لضغوط للعمل كمخبر "للأف بي أي" على أيباك، دعماً لتحقيق سابق. وفي النهاية اتهم وأدين بإفشاء معلومات سرية جداً إلى موظفين في أيباك، وحُكِم عليه بالسجن لمدة اثني عشر عاماً وسبعة أشهر.



لاري فرانكلين

وتبيّن أنّ الأف بي أي يحقق في تسريبات استخباراتية إلى إسرائيل مصدرها البنتاغون منذ سنة 2001³⁸. وسرعان ما اتضح أنّ التحقيق بأمر فرانكلين، أيباك، إسرائيل لا يتعلّق بقضية تجسّس فحسب.

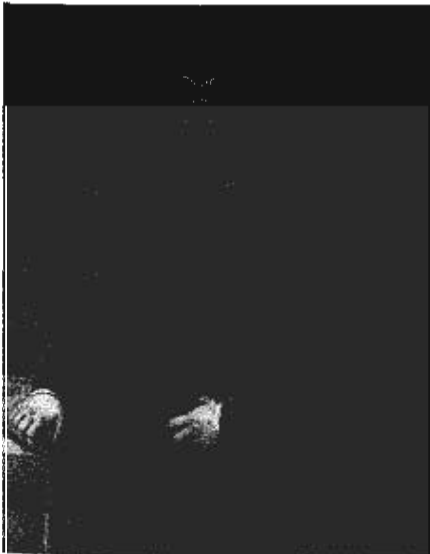
وفيما كان بندر يشاهد التغطية الإخبارية لقضية فرانكلين، ازداد انتعاشه ونشاطه. وعندما أنكر الناطق باسم السفارة الإسرائيلية

المزاعم عن تورط إسرائيل أنها "عارية عن الصحة تماماً ومسيئة"، ضحك بندر وقال: "سيقولون ذلك، أليس كذلك؟".

تابع تقرير سي أن أن: "وقد صدر بيان عن أيباك الليلة ينكر بشدة أن يكون قد لعب أي دور في أي نوع من التجسس. إننا نأخذ مسؤوليتنا كمواطنين أميركيين على محمل الجد. ولن نتغاضى ولو لثانية واحدة عن أي انتهاك للقانون الأميركي أو نتسامح معه". وقد رفض بندر ذلك الرد: "فلتكن كلماتك ناعمة وحلوة لأنك لا تعرف متى ستضطر إلى ابتلاعها".

نظراً إلى أن مؤتمر الحزب الجمهوري كان بعد بضعة أيام، تابع المراسل: "بدا مسؤولو الاستخبارات منزعجين لأن هذا الأمر تسرب، كما أنهم يشتبهون بدوافع سياسية محتملة؛ ويعتقدون أن أحدهم ربما يحاول إحراج الإدارة عشية مؤتمر الحزب الجمهوري".

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه بندر. وبدا ذلك محيراً بالنظر إلى الضرر المحتمل الذي يمكن أن يسببه هذا الخبر للرئيس بوش. وعندما سئل إذا كان قلقاً بشأن السقوط السياسي للرئيس، أجاب بندر أنه يمكن أن يكون مفيداً في الواقع. أوضح بندر أن توقيت التسريب قد يكون مضرراً بالديمقراطيين إذ قد تعتقد وسائل الإعلام أنه خبر مسرب من قبلهم، ومصممٌ لصرف الأنظار عن مؤتمر الحزب الجمهوري. لكن، بدا واضحاً أن بندر مسرور من احتمال إجراء تحقيق معقد يمكن أن يعيق قدرة أيباك على العمل ويحدث المخاوف بشأن ارتباطاته بالحكومة الإسرائيلية.



ميكيفيلي

كان واضحاً أن دوغلاس فيث، المسؤول عن فرانكلين، وبول وولفويتز، نائب وزير الدفاع، قد يتعرّضان للنقد بسبب أنشطة فرانكلين، سواء أكان لهما علاقة بذلك أم لا. واحتمال إضعاف هذين الشخصين، ومن المعروف أن كليهما من المحافظين الجدد المؤيدين لإسرائيل، سيعزز مصالح بندر ويؤدي إلى حدوث تغييرات في الإدارة الجمهورية التالية، بافتراض إعادة انتخاب الرئيس بوش.

فيما كان الضيوف يتناولون العشاء، سأل بندر بهدوء: "ترى من أين تسرّب ذلك الخبز؟". وبعد ذلك قدّم أحد الضيوف على العشاء، محرّر صحيفة "الحياة" وأسبوعية "الوسط" الصادرتين في لندن، وكلاهما ملك لوالده الأمير سلطان وأخيه الأمير خالد.

بدا واضحاً من تعليقات بندر أنّه كان يعرف بأمر التحقيقات التي يجريها الأف بي أي قبل وقت طويل من ظهور الخبر. هل كان بندر يلمّح إلى أنّه المصدر؟ وهل تعمّد بندر بذر قصة فرانكلين للإضرار بأبياك، وتعجيل حدوث خضّة في البنتاغون، وربما مساعدة الرئيس بوش في حملته الانتخابية؟ بدا الأمر كذلك. فقلت: "ربما كانت المقارنة التي عقدهما بينك وبين ميكيافيلي دقيقة في النهاية".

هزّ بندر كتفيه وقال: "إتني لا أحسن تهجئة اسم ميكيافيلي"³⁹.

لكن إذا كان بندر مصدر التسريب، فلا بد من وجود سبب آخر خلفه، فهو لن يقدم على تعريض احتمالات فوز الرئيس بوش للضرر.

لكن بندر خبير في لعب الشطرنج. وشدّد الدكتور سعيد الكرمي على قوّة التحليل عند بندر بقوله: "لديه الصبر والقدرة على قلب قضية في ذهنه، كأنّه يمارس لعبة شطرنج، محاولاً توقّع الخطوة التي يجب أن يخطوها بعد ثلاثين نقلة من الآن"⁴⁰.

عزّزت هذه الآراء الشكّ أنّ بندر قد يكون مهندس التسريب المتعلّق بتحقيق الأف بي أي مع فرانكلين. وقد أشار إلى أنّه قد يكون للتحقيق تأثير في توازن القوة داخل إدارة جورج دبليو بوش، وفي المتشدّدين داخل البنتاغون، وفي عملية السلام الفلسطينية، وفي نفوذ إسرائيل وأبياك في السياسة الخارجية الأميركية. وهي تغييرات يمكن أن تعمل لصالحه، وبالتالي لصالح المملكة العربية السعودية.

لقد كان بندر غاضباً من انقلاب سياسة الرئيس بوش الخارجية المفاجئة تجاه عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية. فقد نتج عن زيارة شارون إلى واشنطن صدور بيان قوي يدعم سياسة الانسحاب الأحادي، بما في ذلك الموافقة على "الجدار الأمني" المثير للخلاف، ورفض حقّ عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم.

وفيما تكشّفت قصة فرانكلين وأصبحت متداولة علناً، كذلك انكشف الصراع على السلطة بين المحافظين الجدد في الإدارة الأميركية الموجودين في البنتاغون، وبين مجلس الأمن القومي والتقليديين في السي أيه ووزارة الخارجية⁴¹. فقد كان وزير الخارجية كولن باول ونائبه، ريتشارد أرميتاج، ينفران من المحافظين الجدد في البنتاغون

الذين تفوقوا على باول المعتدل في حرب العراق، وزُعم أنّهم أمسكوا بزمام الأمور بنجاح في عملية السلام في الشرق الأوسط والسياسة الخارجية في أعقاب 9/11⁴². لا يمكن إنكار أنّ التحقيق وضع فرانكلين ورؤساءه من المحافظين الجدد وسط دوامة من الخلافات. ومن المعقول أن يكون بندر حريصاً على الإضرار بهؤلاء المسؤولين أو إزاحتهم.

فبافتراض انتصار الجمهوريين - وهو ما كان بندر ينتظره - يمكن توقع إجراء تغييرات بعيد ظهور نتيجة الانتخابات، وربما تمكّنت وزارة الخارجية البراغمية من استعادة السيطرة السياسية الخارجية الأميركية على الشرق الأوسط، وهي نتيجة يصفق لها بندر. وغالباً ما عبّر بندر في مجالس خاصة عن الإحباط من أنّ عصبة المحافظين الجدد كانت تفسد دائماً جهود تحقيق تسوية عادلة للمشكلة الفلسطينية في إدارة جورج دبليو بوش الأولى.

أما بالنسبة إلى أيباك، فمن المعروف عموماً في الكونغرس أنّ أيباك هي قوة الضغط الأبرز في الولايات المتحدة. وتسبق فعالية المجموعة أيّ مجموعات عمل سياسية أخرى بسنوات ضوئية، وقد تكرّر نزاع بندر مع هذه المجموعة خلال تولّيه منصبه. سارت الانتخابات لمصلحة بوش، كما أمل الأمير، ولم يتضرّر الرئيس من التسريب. غير أنّ الضرر الذي لحق بمصالح إسرائيل كان بيّناً. فقد دعت العصبة المناهضة للذم، وهي منظمة يهودية بارزة مؤيدة لإسرائيل، لتعيين مدعٍ خاص لتحرّي التسريبات التي حدثت في التحقيق الذي يجريه الأف بي آي لأنها تلوّث صورة إسرائيل⁴³. كما أثار التسريب مؤقتاً في التعاون الاستخباراتي بين الولايات المتحدة وإسرائيل. فقد عملت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بشكل وثيق مع السي آي آيه وغيرها من هيئات الاستخبارات الأميركية منذ عقود، وقدمت معلومات قيّمة عن الإرهاب الدولي. وكانت قضية بولارد سنة 1985 قد أدت إلى انقطاع مؤقت في ذلك التعاون⁴⁴؛ وفي أعقاب حادثة فرانكلين، أوردت بعض المصادر أنّ الولايات المتحدة بدأت مجدداً تحدياً من تبادل المعلومات الاستخبارية مع إسرائيل⁴⁵.

شهد العاملون في إدارة بوش تغييرات مهمة في وزارة الدفاع، على الرغم من الضربة التي تلقوها برحيل وزير الخارجية المعتدل كولن باول. ففي أعقاب تسرب أخبار التحقيق الذي امتدّ لسنتين، خرج اثنان من أكبر المحافظين الجدد، غادر بول



ستيف روزن

وولفويتز ليرأس البنك الدولي، وتقاعد دوغلاس فيث⁴⁶.

وماذا عن ستيف روزن وكيث وايزمان من أيباك؟ في أثناء وضع هذا الكتاب، يواجه الاثنان محاكمة في سبتمبر 2006، حيث تحاكمها وزارة العدل بموجب قانون التجسس في حقبة الحرب العالمية الأولى - وهو قانون نادر الاستعمال وغامض النص يحظر توزيع معلومات دفاعية قومية سرية⁴⁷. كما أنه بإبعاد روزن ووايزمان، لم تتمكن أيباك من النأي بنفسها عنهما⁴⁸.

وقد أفيد أنهما سيقولان إن نشاطهما التجسسي المزعوم

ليس عملية شريرة نفذها بشكل مستقل عن أيباك، لكنها كانت معروفة من رؤسائهما وتحظى بموافقتهما⁴⁹. وإذا نجح روزن ووايزمان في ربط أيباك بأنشطتهما، وإذا أُديننا، فسيفتح ذلك احتمالاً لا يلقي الترحاب في إجراء تحقيق فيدرالي أوسع بكثير في دور أيباك في مساعدة السلوك الإجرامي والتحريض عليه. ولا شك في أن ذلك يتجاوز كثيراً ما قد يكون بندر توقعه عندما شرع في موضوع التسريب⁵⁰.

في محاولة ظاهرة لكي تنأى أيباك بنفسها عن أي أعمال تغضب الأف بي آي وإدارة بوش، أوردت وسائل الإعلام الإسرائيلية أن أيباك كبحت مسعى الضغط الذي يقوم لمصلحة إسرائيل⁵¹. كما أنها استخدمت مسؤولين سابقين في وزارة الدفاع يعملون الآن لدى شركة محاماة في واشنطن، هاوري محدودة المسؤولية، تقدم المشورة لمنظمات الضغط وتراجع ممارساتها.

لا يمكن أن يكون تأثير التسريب أفضل مما هو عليه بالنسبة إلى بندر. فما بدأ كمحاكمة تجسس على نطاق ضيق أو هن اللوبي القوي جداً المؤيد لإسرائيل، والذي أثر في اتجاه السياسة الأميركية في الشرق الأوسط منذ عقود.

يبدو أنه كان لدى بندر جدول أعمال أوسع بكثير وأكثر طموحاً عندما رفع الغطاء عما برز كأكبر عملية تجسس إسرائيلية على الولايات المتحدة منذ توقيف بولارد في نوفمبر 1985. تذكرت ما قالته الأميرة لولو عن بندر: "أعتقد أن ما ينسأه الجميع هو أن والدي لا يفعل شيئاً عرضاً، لا شيء"⁵².

لقد نجح بندر في الدفع قدماً بالعديد من القضايا في جدول أعماله؛ كتأمين فوز الجمهوريين لصالح آل بوش في الانتخابات الرئاسية الأميركية، والإضرار بموقف أيباك القوي، وخفض نفوذ المحافظين الجدد، وغرس بذور الشك وانعدام الثقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

ربما يكون استخدام بندر الصحافة في الماضي الإثبات الأخير على مهندس تسريب فرانكلين. فقد سرّب بندر سنة 1991 إلى محرّر صحيفة "صنداي تايمز"، أندرو نيل، رسالة الرئيس جورج إيتش دبليو بوش إلى صدام حسين لضمان عدم انسحاب صدام حسين من الكويت، وبالتالي ذهاب أميركا إلى الحرب. وقد نجح في ذلك أيضاً.

وعلى نحو مماثل، قرّر تسريب المعلومات إلى محطة سي بي أس عبر صحيفة عربية في لندن يملكها والده وأخوه، وقد التقيت برئيس تحريرها على العشاء في غليمبتون. وهو في الواقع عمل كاد الأمير يعترف به في غليمبتون عندما قال عرضاً: "من المفيد في بعض الأحيان أن يكون لديك مصدر صديق في وسائل الإعلام".

استناداً إلى الأدلة التي اكتشفت منذ ملاحظاته الأولية بشأن قضية فرانكلين، واعترافه اللاحق، فلا مجال للشك في أن بندر هو مصدر تسريب قصة فرانكلين.

بعد إيضاح مزايا بندر الميكيفيلية برواية معاصرة، فإني أعتقد مع ذلك أن في وسعنا أن نفصل بندر الاستقامة والنزاهة عن أمير دبلوماسية المكر والظلّ غير الأخلاقي، والأخير هو القناع الذي يضطر إلى اعتماده لتنفيذ دوره كدبلوماسي ومبعوث لصالح المملكة العربية السعودية. والأول يعترف بجوهر الرجل ذي الضمير، والمبادئ النبيلة، والإنسانية، والتواضع الذي يعتقد أن دوره، وقدره، السعي من أجل قضية السلام، وبذل ما في وسعه في عالم يمزقه النزاع والاضطراب.

إنّ حياته رواية يمتزج فيها الخيال بالواقع. ولعل أروع ما فيها ارتقاءه من غياهب النسيان النسبي داخل العائلة المالكة السعودية ليصبح واحداً من أقوى اللاعبين على المسرح السياسي العالمي.

مع ذلك يتجنّب بندر الاعتراف علناً بعمله، قانعاً أن يُعرّف أنّه حقق النجاح.

رددت ذلك زوجته الأميرة هيفاء بقولها: "لا أعتقد أنه يبحث عن التقدير بالمعنى الواسع للكلمة. وأعتقد أن التقدير الذي يحظى به بالفعل هو إنجاز عمله بشكل جيد جداً". وأوضحت بعد ذلك: "إنه رجل إنجاز أكثر من أي شيء آخر. وإذا أدى عمله على أفضل وجه، فإن ذلك تقدير عظيم لنفسه وهو لا يبحث عن أي مكافأة. إنه لا يبالي إذا لم يحظَ بالتقدير، ولم يحصل على مكافأة. المهم بالنسبة إليه أن يتقن عمله، وينجح في أداء ما يُطلب منه"⁵³.

وباستعارة عبارة تي إي لورنس، بندر رجل يحلم وعيناه مفتوحتان، ويعمل من دون كلل خلف ستار من السرية، ويحكمه إحساس عميق بالمسؤولية والرغبة في "أن يحدث تأثيراً". كما أن الأمير في التزامه الدقيق بتطبيق فريضة الزكاة، لا يتطلع إلى تقدير لقاء ما يقوم به. وعلى الرغم من إغفال جهوده إلى حد كبير كصانع سلام، فإنه قانع أنه حقق غرضه.

بعد التحدّث إلى نظراء الأمير، وعائلته، ومن يعملون معه عن قرب أو لديه، توصّلت إلى قناعة أنه غالباً ما يستخدم حسّه الفكاهي كقناع يخفي وراءه الألم الذي يشعر به بسبب ضياع الفرص، كما هي الحال في استمرار فشل عملية السلام الإسرائيلي الفلسطيني. وغالباً ما ضعفت رغبة بندر في الاستمرار، بفعل الضغوط الهائلة التي يشعر بها، وعدم قدرته على تشارك العبء بسبب الحساسية المفرطة للعمل الذي يقوم به. وقد أصبح من الصعب عليه بشكل متزايد إخفاء الإرهاق الذي أصابه، إلى أن تقاعد سنة 2005.

لكن ما قاله صديق بندر، طارق الشواف، يعبر بفصاحة شديدة عن الرجل الذي يدعى بندر بن سلطان. ففي تعليق أخير على الحاجة إلى إدخال تغيير في المملكة العربية السعودية، وفي إشارة إلى الاحترام الذي يحظى به بندر، ذكر الشواف أنه قدّم قبل عدة سنوات إلى بندر، وكان في ذلك الوقت في مستشفى في الظهران يعالج من المشكلة التي يعاني منها في ظهره، كتاباً عن العائلة المالكة وحكم الإسلام. وقد كتب الشواف إهداء على الجانب الداخلي من غلاف الكتاب. وبعد سنوات عديدة شاهد الشواف الكتاب في مكتبة بندر في الرياض. وفي ما يلي نص الإهداء: "إلى الأمير بندر، أمير رجائنا. لأن بلدنا يقع في الشرق الأوسط، فإن هناك كثيراً من المشاكل التي تواجهه. وأنا أعتقد أنك ستفعل شيئاً حيالها ذات يوم".

أوضح الشوّاف: "كان بندر قومياً عربياً ثابتاً حتى حرب الخليج التي زعزعت إيمانه بالقومية العربية. وهو لا يزال قومياً الآن ولكن بطريقة مختلفة. وإني سعيد جداً لأنّ الكتاب لا يزال هناك، ولأني سأظهره له ذات يوم. فهو لا يزال أمير رجائنا. ونحن في بلدنا وفي العالم العربي ككل بحاجة إلى الأمل، وهو أملنا"⁵⁴.

حياة جديدة

"إننا نسعى وراء السلام لأننا نعلم أن السلام هو مناخ الحرية"

دوايت دي ايزنهاور (1953 - 1961)

أصرّ بندر على أن دوره الجديد كأمين عام لمجلس الأمن القومي في 16 أكتوبر 2005 كان أبعد شيء عن تفكيره عندما توجه مع عائلته إلى غليمبتون لمدة ثلاثة أشهر. وعندما سئل إذا كان ذلك أثر في عائلته، اعترف بندر بصراحة: "بشكل سيئ. يمكنك أن تعبت بكل شيء باستثناء حياة عائلتك. والدليل على أنني كنت جاداً عندما تركت، وأنه لم تكن لدي أي فكرة عن أنني سأعود عما قريب - ولم أكن أرغب في هذا العمل - أنني استقررت في إنكلترا. سجلنا أولادنا في مدرسة في إنكلترا. ولن نقدم على تسجيل أولادنا في مدرسة ونحن نعرف أننا سننتقل عما قريب إلى المملكة العربية السعودية. وقد بدأت أفكر كيف أشغل نفسي؟ ربما بالقراءة، وربما بالكتابة، والسفر مع العائلة". كانت العائلة لا تزال تفرغ حقائبها عندما أجرى الملك عبد الله المكالمة التي غيرت حياة بندر؛ العودة إلى الواجب.

ضحك بندر عندما تذكر أنه بعد ذلك بعدة أشهر، بعد أن عادت العائلة إلى المملكة، قال ابنه الصغير عبد العزيز، وقد التحق بثلاثة مدارس في ثلاثة أشهر، واشنطن، وإنكلترا، والمملكة العربية السعودية للأميرة هيفاء: "ما خطب والدي؟ لماذا لا يستطيع المحافظة على عمل؟".

أصبح الأمير بعد توليه منصبه الجديد أحد أقوى الشخصيات في المملكة العربية السعودية، حيث نقلت الصحافة السعودية عن مصادر مطلعة أن مجلس الأمن الوطني سيتمتع بسلطات واسعة، بما في ذلك حق إعلان حالة الطوارئ والحرب، وتفحص الأجهزة الأمنية، والتعامل مع الفساد وإهمال الواجب العام¹. وصف بندر مجلس الأمن الوطني أنه "مزيج من الأمن الوطني، والمجلس الاقتصادي الوطني، والأمن الداخلي".

وتشمل سلطات المجلس الجديد الإشراف المباشر على الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والإعلامية والدولية لضمان الأمن الوطني الشامل للبلد². يتوقع من مجلس الأمن الوطني السعودي الجديد أن يحدّد بدقة كل المصادر المحتملة للتهديدات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تواجه المملكة الآن وفي المستقبل. وتعقيباً على الدور الجديد، قال بندر: "إنّه صعب ويستحوذ على الفكر تماماً. فكما يقولون لا راحة للشقي". هناك خطّ سياسي دقيق يجب سلوكه في التعامل مع الكثير من الوزارات والهيئات السعودية، وقد شدّد بندر أمام مجايليه بشأن مجلس الأمن الوطني أن دوره لا يشكّل تهديداً، وإّتما يهدف إلى التنسيق والمتابعة لضمان تنفيذ السياسات. غير أنّ سلطة بندر سلطة عليا، فهو يتحدّث نيابة عن جلالة الملك.

مع تعيين بندر، حدثت تغيّرات في علاقة المملكة بالعالم الخارجي. ففي 11 ديسمبر 2005، ولم يكّد بعد يمضي شهران على تعيينه أميناً عاماً، انضمت المملكة إلى منظمة التجارة العالمية. وقد كان بندر في دوره السابق كسفير ناشطاً في إقناع الإدارات المتعاقبة بدعم المملكة في تقدّمها لعضوية منظمة التجارة العالمية. وعمل أيضاً مع رئيس الوزراء البريطاني طوني بليز وحكومته، لا سيما عندما أصبح بليز رئيساً للاتحاد الأوروبي، وبالتالي يستطيع التأثير في دعم انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية في أوساط الدول الأوروبية الأخرى الأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

وفي أعقاب تعيين بندر أميناً عاماً لمجلس الأمن الوطني، بعد إعادة هيكلته كجزء من حملة المملكة على الإرهاب*، سرعان ما انغمس بندر في الدبلوماسية المكوكية مجدداً. وتوسّط بندر بنجاح بين الأميركيين والفرنسيين (الرئيس جاك شيراك) والسوريين واللبنانيين والأمم المتحدة (كوفي أنان) وغيرهم من الأطراف المعنية.

ومن أولى مهمّاته محاولة حل الاستعصاء القائم بين الأمم المتحدة وسورية بشأن التحقيق في اغتيال رفيق الحريري بتفجير ضخم في فبراير 2005. لاحظ بندر، "كان الحريري صديقاً مقرباً جداً وقد عملنا معاً طوال الوقت منذ سنة 1983. وقد تألّمت كثيراً وتأدّيت من الطريقة التي اغتيل فيها".

(* الملك عبد الله هو رئيس مجلس الأمن الوطني، وولي العهد الأمير سلطان نائب الرئيس. والأعضاء الآخرون هم: نائب قائد الحرس الوطني، ووزيرا الداخلية والخارجية ورئيس الاستخبارات العامة.

ردّ أمين مجلس الأمن الدولي على هذا العمل الفظيع في 7 أبريل 2005، بالقرار 1595، بإنشاء لجنة تحقيق دولية. غير أنّه عندما أشار فريق التحقيق التابع للأمم المتحدة بأصابع الاتهام إلى بعض المسؤولين الأمنيين اللبنانيين، جرى اعتقالهم على الفور في لبنان، لكن، رفضت الحكومة وصول الأمم المتحدة إلى مسؤوليها. ولم تتراجع إلا بضغط شديد من مجلس الأمن الدولي. فسُمح لرئيس لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة، ميليس، في نهاية المطاف باستجواب المسؤولين المشتبه بضلوعهم في مقتل الحريري. غير أنّه تبين أن هذه الاستجابات غير ناجحة في سورية، فطلب ميليس أن يعاد استجوابهم في لبنان.

أوضح بندر: "قال السوريون إنّ ذلك إهانة"³. ولم يشأ اللبنانيون تحمّل المسؤولية، إذا ما تعرّض المسؤولون السوريون لأي أذى، إذ كانوا قلقين أنّهم سيلامون على ذلك ما يؤدي إلى حرب مع سورية. وأكد بندر: "أردت أن يُستجوبوا فحسب. لم أكن أهتم لمكان الاستجواب. لذا تقدّمنا باقتراح أن يتمّ الاستجواب خارج المنطقة". وقد اقترحت جنيف وبيّنا، وكلف الملك عبد الله بندر بإقناع الرئيس بشار الأسد "بحكمة ذلك" إذ من مصلحة سورية ألا تقام أي دعوى⁴. ونجح بندر في الحصول على موافقة الأسد. وأجري الاستجواب في فيينا.

ذكر بندر: "ما من أحد كان يمكنه أن يفعل ذلك سوى المملكة العربية السعودية، إذ رفض السوريون الاستماع إلى أحد غيرها. وقد سهّل ذلك علاقتي بوالد الأسد".

عندما سئل بندر إذا كان الرئيس متورطاً شخصياً باغتيال الحريري قال: "هناك سؤال، كيف يمكن أن تقع مثل هذه العملية الكبيرة في نظام شديد المركزية من دون علم الأسد، أو تفويضه، أو معرفته بالأمر لاحقاً؟ لكن تمّ الاتفاق - لا تتدخلوا بشأن الأسد - واعملوا فقط مع المسؤولين السوريين الذين كانت لديهم صلات وثيقة بالقيادة الأمنيين اللبنانيين، ودعوا الأمور تسير". ورأى بندر أنّه إذا أُدين هؤلاء المسؤولون، تصبح المسألة عندئذ، "كيف يمكن أن يقدم هؤلاء المسؤولون الكبار على ذلك من دون علم الأسد؟". وتابع بندر بشكل براغماتي: "وإذا لم يدانوا، يكون الأسد بريئاً". وختم بندر أنّه إذا أُدين المسؤولون الأمنيون السوريون، تصبح المسألة خطيرة بسبب مناصبهم العالية.

في حين أنّ مهمّة بندر كمبعوث للملك عبد الله لكسر الجمود في تحقيق الأمم المتحدة في اغتيال الحريري، حجت دوره كأمين عام لمجلس الأمن الوطني في الأشهر الأولى من تسلّمه المنصب، فإنّه كان مع ذلك منغمساً تماماً في إنشاء البنية التحتية اللازمة لدعم عمله الجديد. غير أنّ مسؤولية بندر تُخبر بحدوث تغيير.

في 7 و8 ديسمبر، اجتمع قادة منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في المملكة. وفي ختام القمة أصدروا إعلاناً حظي بردّ إيجابى على العموم من البيت الأبيض الذي رحّب "بالبيان القيّم الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بخصوص الحرب على الإرهاب والتطرّف. وقد أدان الإعلان الإرهاب، وشدّد على ضرورة تجريم كل جوانب الإرهاب، بما في ذلك تمويله، ورفض أي تبرير للقتل المتعمّد للمدنيين الأبرياء. كما أدان إعلان منظمة المؤتمر الإسلامي التطرّف، ودعا إلى وضع مناهج مدرسية "تقوي قيم التفهّم والتسامح والحوار والتعددية"⁵.

أعلنت القمة أيضاً سياسة عالمية تدعو إلى التسامح الديني والاعتدال والتعايش السلمي للمسلمين البالغ عددهم 1.7 مليار نسمة داخل العالم الإسلامي وخارجه. وقد كانت بصمات بندر في هذا الإعلان واضحة، حيث تردّد صدى بيانه الجريء عن الحاجة إلى شنّ حرب شاملة على الإرهاب عندما كان سفيراً في واشنطن، وعلى الإرهابيين الناشئين داخل المملكة العربية السعودية أيضاً. كما أنّ النص المتعلّق بالمناهج المدرسية يحمل شيئاً من تسامح بندر الثقافي ومواقفه الداعية إلى التفاهم بين الأديان.

وفي قمة مجلس التعاون الخليجي في ديسمبر 2005 - سمّيت قمة فهد تكريماً للملك الراحل فهد - ظهر تأثير بندر عندما أمّى قادة المجلس قمتهم بالدعوة إلى إخلاء الشرق الأوسط من الأسلحة النووية. فوسط الضغط الدولي المتنامي على إيران بشأن برنامجها النووي، حثّ الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الرحمن العطية طهران على إبقاء المنطقة خالية من الأسلحة النووية⁶.

من الواضح أنّ بندر، باعتباره مهندس برنامج الإمامة في أواسط الثمانينيات، حصل على الرضى الشخصي في الأشهر القليلة الأولى له في منصبه عندما وافق على قيام المملكة العربية السعودية بشراء المقاتلة الأوروبية المعروفة باسم تايفون. وقال بندر: "تمّ الاتفاق في زيارة قام بها طوني بلير لولي العهد الأمير عبد الله. غير أنّ عليّ - في دوري كأمين عام - التحقّق من أنّها منسجمة مع السياسة الدفاعية. وكان عليّ أنّ

أضع موافقتي عليها". أوضح بندر أنه قيم البدائل. كان سلاح الجو الملكي السعودي قد رفض الطائرة الفرنسية رافايل، لذا، فإن الخيار الوحيد هو طائرة أف - 35 الأميركية (المقاتلة الضاربة الشبح والأسرع من الصوت أف - 35 من إنتاج لوكهيد مارتن، وتسمى لايتنغ 2)، وطائرة أف - 22 رابتور (مقاتلة سلاح الجو الأميركي المتفوقة من الجيل القادم). غير أن بندر استبعد أف - 22 لأن "الولايات المتحدة لن تبيعها لأحد، إذ إنها الطائرة الأحدث". بالمقابل فإن تأخر برنامج إنتاج أف - 35 واختبارها، ولأنها طائرة بمحرك واحد، جعل سلاح الجو الملكي السعودي يستبعد هذا الخيار لأنه اشترط أصلاً طائرة بمحركين. وهكذا تثبت بندر بسرعة من أن طائرة تايفون - المحدثّة لتوفير قدرة ضاربة - هي الخيار العملي الوحيد، وأجاز شراءها بموجب برنامج اليمامة. وأوضح بندر أيضاً أن السياسة السعودية تقضي بالشراء من عدد من الدول لكي لا تخضع المملكة للقيود المطبقة على الطائرات، كما كانت الحال في الغالب مع الطائرات الأميركية.

ومن الأنشطة الأخرى التي تفتح آفاقاً جديدة يلعب فيها بندر دوراً، إنشاء مدينة الملك عبد الله الاقتصادية. وهي مشروع اقتصادي يكلف 26 مليار دولار ويقع على البحر الأحمر، على بعد نحو 50 كيلومتراً إلى الشمال من جدة. وقد صمّم هذا المشروع العملاق الذي بدأت أعمال الإنشاء فيه في 21 ديسمبر 2005 لتوسيع الاقتصاد، واستحداث فرص العمل، وتحفيز الاستثمار الأجنبي، والتجارة العالمية والصناعة.

ومن التهديدات الأشدّ إنذاراً بالسوء للمنطقة رغبة إيران في الحصول على القدرة النووية، وهي ما أبرزته قمة مجلس التعاون الخليجي. وقد بلغت هذه الرغبة مرحلة الأزمة في أوائل سنة 2006، وحفزت جولة أخرى من دبلوماسية بندر المكوكية بطلب من الملك عبد الله.

يعتقد العديد من الأشخاص أن إيران تسعى لتطوير أسلحة نووية، وأن رفضها الكشف عن تفاصيل برنامجها النووي يؤدي إلى التهديد بتوجيه ضربة عسكرية إلى منشآتها النووية، تشتتها إسرائيل أو الولايات المتحدة. وخوفاً من أن يحدث ذلك الإجراء العسكري الأميركي ضدّ إيران الفوضى في المنطقة، طلبت المملكة العربية السعودية من روسيا عرقلة أي رهان أميركي على تأمين تغطية من الأمم المتحدة لشنّ

أي هجوم. واجتمع بندر بوزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف في موسكو في 4 أبريل، حيث "حثّ روسيا على العمل لمنع اعتماد مجلس الأمن الدولي قراراً يمكن أن تستخدمه الولايات المتحدة كتبرير لشنّ هجوم عسكري لضرب المنشآت النووية الإيرانية"⁷.

وفي وقت لاحق زار الأمين العام لمجلس الأمن القومي الإيراني، علي لاريجاني، المملكة العربية السعودية في 12 أبريل 2006، حيث استضافه بندر - نظيره السعودي - لبحث العلاقات الثنائية وآخر التطوّرات في المنطقة، لا سيما الوضع في لبنان⁸. وبعد اجتماع لاريجاني ببندر، توجه لاريجاني إلى الصين وروسيا وواشنطن ولندن وباريس في مسعى لتنفيذ احتقان الوضع. وقد رأى بندر أنّ القدر تدخل هنا لوضعه في مركز الأزمة الدولية، حيث يلعب دور الوسيط، وهو دور برع فيه. وقد زار بندر واشنطن للاجتماع بوزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، وبعد هذه الزيارة اتخذت الولايات المتحدة موقفاً أقلّ عدائية، متراجعة عن الخيارات العسكرية، ومشددة على الرغبة في التوصل إلى حل دبلوماسي مع إيران. لكن بتفاقم الوضع في لبنان لارتباط سلاح حزب الله بإيران، فإنّ الوضع المعقد يشكّل اختباراً دبلوماسياً هائلاً لبندر.

عندما سئل إذا كان يعتقد أنّ التطمينات الإيرانية أنّهم لا يسعون لتطوير أسلحة نووية صادقة، أجاب بطريقة براغماتية: "ليس لهيئة المحلفين دور هنا". لكنّه ختم بالقول: "المنطقة لا تحتمل مواجهة عسكرية أخرى". وربما كانت تلك كلمات توقعية، حيث بدأت الأزمة اللبنانية تخرج عن السيطرة.

مع اندلاع العنف في الشرق الأوسط في أعقاب اختطاف حزب الله جنديين من جنود الجيش الإسرائيلي في 12 يوليو 2006، وإطلاق مئات من صواريخ الكاتيوشا على إسرائيل التي ردّت بقصف جوي وبري وبحري واسع على لبنان، فإنّ احتمالات حدوث نزاع أوسع تبدو واقعية وتندّر بالشروع. وعندما اجتمعت ببندر على غداء متأخّر في 14 يوليو 2006، بدا عليه التوجّس من تقارير وسائل الإعلام عن الهجمات الجوية الإسرائيلية على المناطق التي يسيطر عليها حزب الله في بيروت، وعلى البنية التحتية اللبنانية - الجسور والمنشآت النفطية، ومحطات توليد الكهرباء، ومطار بيروت الدولي. وردّاً على ذلك، أعلن زعيم حزب الله، الشيخ حسن نصر الله "حرباً مفتوحة"

على إسرائيل. وفي لحظة شعور أنّ هذا الوضع مرّ مع بندر من قبل، بدت الأمور كأنّها تعود إلى بيروت الخاضعة للمعاملة الوحشية سنة 1983 عندما نجح في التفاوض على وقف لإطلاق النار في أثناء الحرب الأهلية.

يزعم الآن أنّ حزب الله ربما يمتلك عشرة آلاف صاروخ زوّدته بها سورية. لكن، جاءت بعد ذلك تقارير عن هجوم شنّه حزب الله على سفينة حربية إسرائيلية كانت قبالة شواطئ بيروت؛ وادّعى الجيش الإسرائيلي أنّ السفينة ضربت بصاروخ سي 802 موجّه بالرادار زوّدته إيران إلى حزب الله. وتحدّث العميد في الجيش الإسرائيلي إيدو نحوستان متشائماً: "إننا نرى في هذا الهجوم بصمات واضحة جداً على التدخل الإيراني"⁹. وتخشى إسرائيل من استخدام الصواريخ الإيرانية الصنع من طراز زلزال، التي يقدر أنّ مداها يفوق مئتي كيلومتر، ما يسمح لحزب الله باستهداف تل أبيب¹⁰. كما زُعم أنّ الجيش الإسرائيلي دمرّ أحد صواريخ زلزال بينما كان حزب الله يعدّ لإطلاقه¹¹.

في اجتماع مجموعة الثمانية في سان بطرسبورغ، قال الرئيس بوش: "إنني أدعو سورية إلى ممارسة نفوذها على حزب الله". واتهم السفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة إيران وسورية بتنسيق الهجمات التي يشنّها حزب الله، وحدّر من أنّهما "تلعبان بالنار"¹². وفي ردّ على ذلك دعا السفير السوري في لندن، في مقابلة مع البي بي سي، حزب الله إلى وقف إطلاق الصواريخ على إسرائيل¹³.

مع ذلك فإنّ شبح وقوع نزاع إقليمي واسع النطاق يرفض أن يتلاشى، حيث يهدّد اجتماع الأحداث بجرّ سورية وإيران والولايات المتحدة. وإلى جانب اغتيال الحريري وتسليح سورية لحزب الله، أفادت صحيفة واشنطن بوست، "الرئيس محمود أحمددي نجاد يعرف ما يريد: الأسلحة النووية، ووسائل إطلاقها، وقمع الحرية في الداخل، ونشر الإرهاب في الخارج"¹⁴.

عندما لوحظ أنّ الأزمة الحالية تعود إلى الإرث الذي خلفه عرفات في أعقاب رفضه عرض كلنتون/باراك للسلام في كامب ديفيد، هزّ بندر رأسه بالموافقة وقال: "لقد كانت جريمة".

وفي تقييم متشائم للوضع الذي رأى أنّه بدأ يخرج عن السيطرة، قال بندر بأسف: "لقد أخذت الفرص تتلاشى. هناك الكثير من اللاعبين. القوى الكبرى لاعبة، والفلسطينيون منقسمون، والإسرائيليون منقسمون بين المتشدّدين ومن يسعون للسلام

عن طريق المفاوضات، وثمة قيادة جديدة في إسرائيل. لقد أصبح البحث عن السلام شديد التعقيد". لكن، لا يمكن عدم تصوّر عودته إلى دوره كصانع سلام عما قريب. فهو القائل: "لا يمكنني أن أتصوّر عندما يتخرّج أحفادي من المدرسة أو يلتحقون بالجامعة ويسألونني، لماذا فشلت في حلّ هذه المسألة يا جدّي؟".

ربما ليس على المملكة العربية السعودية وحدها أن تعتبر بندر "أمير رجائنا". فالشرق الأوسط بأكمله بحاجة إلى مهاراته، كدبلوماسي ووسيط على حدّ سواء. فقد يبدو بندر في بعض الأحيان صوت العقل الوحيد الذي ينشد سماعه في صخب الفوضى.

الهوامش

المقدمة

1. خطاب ألقاه الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في بيرمنغهام، ألباما، 26 سبتمبر 2003.
2. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
3. مقابلة مع وزير الخارجية السابق كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
4. Bob Woodward. *Plan of Attack*. New York: Simon & Schuster, 2004
5. *Chambers Concise Dictionary*. London: Chambers Harrap Publishers Ltd., 1997
6. مقابلة مع لويس جاي. فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولونغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
7. Matt Welsh. "Is Bandar Bush Above the Law?" *National Post*, April 19, 2003
8. Robert Baer. *Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude*. New York: Crown Publishers, 2003: 63
9. Cynthia Dettelbach. "Saudi Ambassador's City Club Talk Sheds Little Light." *Cleveland Jewish News*, December 2, 2003
10. Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia's Man in Washington." *New York Times*, June 7, 1992

1. من هو الأمير بندر؟

1. T. E. Lawrence. *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph*. New York: Anchor, 1991
2. مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
3. مقابلة مع الأميرة ربما ابنة بندر في مكليين، 19 فبراير و9 مارس 2004.
4. انظر الهامش رقم 2.
5. المصدر نفسه.
6. David B. Ottaway. "Been There, Done That: One of the Great Cold Warriors Faces Dawn of a New Era." *Washington Post*, July 21, 1996
7. مقابلة مع الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز في مكليين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
8. Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington's Indispensable, Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003
9. انظر الهامش 2.
10. انظر الهامش 6.
11. مقابلة مع الجنرال فيصل المفقي في مراكش، 26 يونيو 2004.
12. المصدر نفسه.

13. انظر الهامش 8.
14. مقابلة مع الرقيب كن آدامز في ليسنغهام، لنكولنشاير، 14 يناير 2004.
15. مقابلة مع جون وترفول في برايتون، ساسكس، 26 فبراير 2004.
16. مقابلة مع مارتن شوري في لنكولن، 2 ديسمبر 2003.
17. انظر الهامش 14.
18. المصدر نفسه.
19. انظر الهامش 15.
20. مقابلة مع السيدة غريث إليوت في سانت ليونارد أون سي، ساسكس، 18 يناير 2005.
21. الفريق الجوي ديكون إليوت (1914 - 1997).
22. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، مايو 2004.
23. انظر الهامش 20 أعلاه.
24. انظر الهامش 22 أعلاه.
25. تقرير كلية كرانول التابعة لسلاح الجو الملكي، 1968 - تلميذ الضابط الطيار بندر ابن سلطان.
26. مقابلة عبر الهاتف مع العميد الجوي ويلسون ميتكاف، المملكة المتحدة، الملحق العسكري، موسكو، 12 فبراير 2004.
27. تقرير مقرر دراسي في كلية كرانول عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان أعدّه المدرب الرقيب كن آدامز.
28. انظر الهامش 15.
29. تقرير مقرر دراسي في كلية كرانول عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان أعدّه مدرب الطيران الملازم الطيار طوني يول.
30. مقابلة مع مارشال الجو السير ريتشارد جونز، 12 يناير 2004.
31. تقرير التخرج من كلية سلاح الجو الملكي عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان، 1969.

2. الأمير طيار حربي

1. مقابلة مع مارشال الجو السير ريتشارد جونز، 12 يناير 2004.
2. مقابلة مع العقيد كيث فيلبس في أسبن، 31 ديسمبر 2004.
3. مقابلة مع فهد المحقاني في واشنطن دي سي، 4 نوفمبر 2004.
4. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس 2004.
5. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية، هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.
6. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
7. كلمة الأمير بندر أمام جنرال داينمكس، فورت ورث ديفيجن، 31 مارس 1989.
8. انظر الهامش 6.
9. انظر الهامش 2.
10. انظر الهامش 6.
11. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.

12. انظر الهامش 6.
13. James Perry Stevenson. *McDonnell Douglas F-15 Eagle*. Fallbrook, Calif.: Aero Publishers, 1978.
14. Seth P. Tillman. *The United States in the Middle East: Interest and Obstacles*. Bloomington: Indiana University Press, 1982: 99.
15. كانت جداول الحيازة ستأخر من دون بيع طائرات أف - 15 إلى المملكة العربية السعودية. انظر Mitchell Geoffrey Bard. *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence, on United States Middle East Policy*. New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 1991: 37.
16. المصدر نفسه، ص. 45.
17. المصدر نفسه، ص. 46.
18. "The Tornados in the Desert: A Flying Piano with Resonance." *The Economist*, July 16, 1988.
19. Stephen N. Connor. Questions and Comments on the President's Authorization of U.S. Sale of F-15 Planes for the Defense of Saudi Arabia: Pending before the U.S. Congress. Maryland. 1978.
20. (عنوان المقالة غير معروف). *Washington Post*, April 21, 1978.
21. Speech by President Jimmy Carter, May 5, 1978. State Department Bulletin, July 1978: 20.
22. Bard, p. 45.
23. State Department Bulletin, April 1978: 22.
24. Bard, p. 37.
25. انظر الهامش 14.
26. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
27. Bard, p. 35.
28. Saudi Arabia in the 1980's: Foreign Policy, Security and Oil. Washington D.C.: The Brookings Institution, 1981: 18.
29. David Howard Goldberg and Bernard K. Johnpoll. *Foreign Policy and Ethnic Interest Groups: American and Canadian Jews Lobby for Israel*. New York: Greenwood Press, 1990: 65.
30. Hoag Levins. *Arab Reach: The Secret War against Israel*. New York: Doubleday, 1983: 10.
31. انظر الهامش 26.
32. كلمة بندر أمام ماكدونل دوغلاس، 9 يناير 1989.
33. انظر الهامش 26.
34. المصدر نفسه.
35. المصدر نفسه.
36. Patrick E. Tyler. "Double Exposure." *New York Times*, June 7, 1992.

37. المصدر نفسه.
38. Tillman, p. 100.
39. *New York Times*, May 8, 1978 (عنوان المقالة غير معروف).
40. Tillman, p. 101.
41. المصدر نفسه، ص. 101.
42. Bard, p. 45.
43. U.S. Congress. Congressional Record—Senate S 7833 May 19, 1978; U.S. Senate. Proceedings in Closed Session. Monday, May 15, 1978, 2:04 p.m. to 4:27 p.m.
44. مؤتمر الرئيس، التقرير السنوي (السنة المنتهية في 31 مارس 1979): 5.
45. Levins, p. 13.

3. رأس جبل الجليد

1. Nicholas Laham. *Selling AWACS to Saudi Arabia: The Reagan Administration and the Balancing of America's Competing Interests in the Middle East*. Westport, Conn: Praeger, 2002: 90.
2. George Crile. *Charlie Wilson's War*. New York: Atlantic Monthly Press, 2003: 236-237.
3. Peter Schweizer. *Victory: The Reagan Administration's Secret Strategy That Hastened the Collapse of the Soviet Union*. New York: Atlantic Monthly Press, 1996: 26.
4. Hedrick Smith. *The Power Game: How Washington Works*. New York: Random House, 1988: 219.
5. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس، 2004.
6. Steven Emerson. *The American House of Saud: The Secret Petrodollar Connection*. New York: Franklin Watts, 1985: 176.
7. Rachel Bronson. "The U.S.-Saudi Love Affair Predates Bush." *Los Angeles Times*. July 9, 2004.
8. Bernard Gwertzman. "U.S. Decides to Sell Equipment to Saudis to Bolster F-15 Jets." *New York Times*, March 7, 1981.
9. Nadav Safran. *Saudi Arabia: The Ceaseless Quest for Security*. Ithaca and London: Cornell University Press, 1988: 437.
10. انظر الهامش 5.
11. انظر الهامش 7.
12. Rachel Bronson. "Recall, Reagan had Riyadh to Thank." *Daily Star*, June 19, 2004.
13. Schweizer, R 50-51.
14. Mitchell Geoffrey Bard. *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence in United States Middle East Policy*. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers. 1991: 103.
15. انظر الهامش 6.
16. Laham, p. 13.
17. Smith, p.220.

18. مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
19. المصدر نفسه.
20. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
21. Howard Blum. *The Gold of Exodus: The Discovery of the True Mount Sinai*. New York: Pocket Books, 1999: 13
22. Safcan, p. 436
23. "A Fighter Pilot Turned Negotiator." *Time*, October 10, 1983
24. انظر الهامش 18.
25. المصدر نفسه.
26. Emerson, p. 195
27. William D. Hartung. *And Weapons For All*. New York: HarperCollins, 1994: 97
28. كلمة الأمير بندر أمام الجنرال داينمكس، فورت وورث ديفيجن، 31 مارس 1989.
29. David E. Long. *The United States and Saudi Arabia: Ambivalent Allies*. Boulder and London: Westview Press, 1985: 65
30. انظر الهامش 5.
31. Laurence I. Barrett. *Gambling with History: Reagan in the White House*. New York: Doubleday, 1983: 267
32. Ronald Reagan. *An American Life*. New York: Simon & Schuster, 1990
33. Lou Cannon. *President Reagan: The Role of a Lifetime*. New York: Simon & Schuster, 1991: 393
34. Laham, p. 128
35. Public Papers of Presidents of the United States: Ronald Reagan 1981. Washington, D.C.: United States Government Printing Office: 867
36. Donnie Radcliffe. *Ambassador with the Royal Touch*. Donnie Radcliffe. *Washington Post*, February 16, 1984
37. Smith, p. 221
38. Seth P. Tillman. *The United States in the Middle East: Interests and Obstacles*. Bloomington: Indiana University Press, 1982: 52
39. انظر الهامش 27.
40. انظر الهامش 5.
41. انظر الهامش 31.
42. المصدر نفسه، ص 231.
43. Smith, p. 231
44. Howard M. Sachar. *A History of the Jews in America*. New York: Vintage. 1993
45. ملاحظات تلت اجتماعاً مع مسؤولين سابقين في الأمن القومي بشأن بيع طائرات أواكس وغيرها من المعدات الدفاعية إلى المملكة العربية السعودية. إدارة المحفوظات والسجلات الوطنية الأمريكية، 5 أكتوبر 1981.
46. Barrett, p. 275
47. المصدر نفسه.
48. "The Arming of Saudi Arabia." Transcript of *Frontline*, February 16, 1993

49. المصدر نفسه.
50. Smith, p. 222.
51. المصدر نفسه، ص. 221.
52. Barrett, p. 445.
53. Charles McC. Mathias Jr. "Ethnic Groups and Foreign Policy." *Foreign Affairs*, Summer 1981, p. 60.
54. Blum, 14-15.
55. Barrett, p. 276.
56. S.CON.RES.35: A concurrent resolution expressing the objection of the Congress to the proposed sale of certain defense articles, together with associated spare parts and equipment and related defense services, to the kingdom of Saudi Arabia. Sponsor: Sen Packwood, Bob [OR] Introduced September 17, 1981. S.CON.RES.37: A concurrent resolution disapproving the proposed sales to Saudi Arabia of E-3A Airborne Warning and Control System (AWACS) aircraft, conformal fuel tanks for F-15 aircraft, AIM-9L Sidewinder missiles, and Boeing 707 aerial refueling aircraft. Sponsor: Sen Packwood, Bob [OR]. Introduced October 1, 1981.
57. نقاش مع نائب وزير الخارجية الأمير كي ريتشارد أرميتاج في مكين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.
58. انظر الهامش 5.
59. انظر الهامش 18.
60. David Howard Goldberg and Bernard K. Johnpoll. *Foreign Policy and Ethnic Interest Groups: American and Canadian Jews Lobby for Israel*. New York: Greenwood Press, 1990: 73.
61. انظر الهامش 18.
62. Smith, pp. 216-217.
63. Kathleen Christison. "Blind Spots: Official U.S. Myths about the Middle East." *Journal of Palestine Studies*, Winter 1988, p. 50.
64. المصدر نفسه، ص. 124.
65. New York Times, December 2, 1982 (عنوان المقالة غير معروف).
66. U.S. Congress. Congressional Record-Senate, Robert Byrd, January 4, 1992.
67. Donald Neff. *Fallen Pillars: U.S. Policy towards Palestine and Israel Since 1945*. Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1995: 185.
68. انظر الهامش 5.
69. مقابلة مع العقيد كيث فيلبس في أسبن، 31 ديسمبر 2004.
70. Smith, p. 601.
71. تجدر الإشارة إلى أن الأمير بندر يكتب أيضاً رسائل شخصية عندما تكون القضايا عزيزة عليه. "عند الثانية بعد منتصف الليل، لم يستطع [الأمير بندر] النوم فكتب رسالة إلى بوش عبر فيها عن امتنانه له لإنقاذ بلده. كتب، أنت صديقي مدى الحياة وأحد أفراد العائلة. انظر Elsa Walsh. "The Prince." *The New Yorker*, March 24, 2003, p. 52.
72. Roulah Khalaf. "The Prince Whose Fairytale Went Sour." *Financial Times*, November 29, 2002.

- James A. Baker III. *The Politics of Diplomacy—Revolution, War and Peace* 1989- .73
.1992. New York: G. P. Putnam' s Sons, 1995
- David Plotz. "Saudi Ambassador Prince Bandar: Why Washington' s Smoothest .74
.Diplomat Is Falling from Favor." *Slate*, October 24, 2001
- .75 حوار مع الأمير بندر في لم تشمل الدفعة 96 في أسبن، أغسطس 2002.
- .76 موقع أكاديمية الإنجازات على الإنترنت، www.achievement.org/autodoc/page/pow0pro-1.
- 4. سنوات المكيدة**
- Midge Decter. *Rumsfeld: A Personal Portrait*. New York: HarperCollins, 2003: 93 .1
- Bob Woodward. *Veil: The Secret Wars of the CIA 1981-1987*. London: Simon & .2
.Schuster Ltd., 1987: 397-398
- Peter W. Wilson and Douglas F. Graham. *Saudi Arabia—The Coming Storm*. New .3
.York M.E. Sharpe, 1994: 325-326
- Holly Sklar. *Washington's War on Nicaragua*. Cambridge, Mass.: South End Press, .4
.1988: 325
- Lolly Weymouth. "A Prince Who Would Make Peace; Saudi Arabia's Bandar .5
.Worries about American-Israeli Ties." *Washington Post*, December 4, 1983
- Donnie Radcliffe. "Ambassador with the Royal Touch." *Washington Post*. February .6
.16, 1984
- .7 "A Fighter Pilot Turned Negotiator." *Time*, October 10, 1983
- .8 انظر الهامش 6.
- Andrew E. Busch. "Ronald Reagan and the Defeat of the Soviet Empire." .9
.Presidential Studies Quarterly, March 27, 1997
- Peter Schweizer. *Victory: The Reagan Administration's Secret Strategy That .10
.Hastened the Collapse of the Soviet Union*. Atlantic Monthly Press, 1996: 28
- Steve Coll. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, .11
.from the Soviet Invasion to September 10, 2001*. New York: Penguin Press, 2004: 97
- .12 Rachel Bronson. "Recall, Reagan Had Riyadh to Thank." *Daily Star*, June 19, 2004
- Ambassador Charles W. Freeman. "A Relationship in Transition—and Then 9/11." .13
.Saudi-American Forum Interview
- William E. Pemberton. *Exit with Honor: The Life and Presidency of Ronald .14
.Reagan*. New York: M. E. Sharpe, 1998
- Lou Cannon. *President Reagan: The Role of a Lifetime*. New York: PublicAffairs, .15
.2000: 384
- .16 تقرير لجان الكونغرس التي تحقق في قضية إيران - كونترا، ص. 38.
- Lawrence E. Walsh. *Firewall: The Iran-Contra Conspiracy and Cover-Up*. New .17
.York: W.W. Norton, 1997: 19
- .18 Cannon, p. 385
- Oliver L. North and William Novak *Under Fire: An American Story*. New York .19
.Harper-Collins, 1991: 242
- .20 Robert McFarlane, North Trial Testimony, March 13, 1989, p. 3933 انظر أيضاً
- Theodore Draper. *A Very Thin Line: The Iran-Contra Affairs*. New York: Hill and
.Wang, 1991: 81

21. محاضر نـزعت عنها صفة السرية لمجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي، 25 يونيو 1984.
22. Memorandum for the Record from Sporkin, June 26, 1984, ALV 035917; and Lawrence E. Walsh. Final Report of the Independent Counsel for Iran/Contra Matters. Washington, D.C., August 4, 1993.
23. Cynthia J. Arnson. Crossroads: Congress, the President, and Central America, 1976-1993. University Park: Pennsylvania State University Press, 1993: 174. انظر أيضاً محاضر نـزعت عنها صفة السرية لمجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي، 25 يونيو 1984، ص. 14.
24. Richard Reeves. President Reagan: The Triumph of Imagination. New York: Simon & Schuster, 2005: 221.
25. President's Special Review Board. The Tower Commission Report. New York: Bantam Books and Times Books, 1987: 458-459; and McFarlane hearings, p. 17. ووفقاً لمصدر سعودي (وأكد الأمير بندر لي ذلك) لم "يعرض" ماكفرلين المال بل التمسه. انظر David Hoffman and Bob Woodward. "McFarlane Said to Solicit Contra Aid from Saudis." *Washington Post*, May 14, 1987.
26. Walsh, *Final Report*.
27. Draper, p. _____.
28. Cannon, p. 335.
29. William M. LeoGrande. Our Own Backyard: The United States in Central America, 1977-1992. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998.
30. Robert McFarlane, Select Committees Testimony, May 11, 1987, p. 38-39; and McFarlane, North Trial Testimony, March 13, 1989, p. 4203-4204.
31. McFarlane, North Trial Testimony, March 10, 1989, p. 3933.
32. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج نايت ووتش على تلفزيون سي بي أس نيوز.
33. Cannon, p. 636.
34. Sklar, p. 227.
35. Lee Michael Katz. "Prince Charming." *The Washingtonian*, November 2000.
36. Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia's Man in Washington." *New York Times*, June 7, 1992.
37. من لائحة التهم الموجهة إلى كاسير واينبرغر.
38. Walsh, *Firewall*, pp. 391-392.
39. المصدر نفسه، ص 389.
40. انظر الهامش 32.
41. Jim Lobe. "The Bewilderment of Prince Bandar." *Asia Times*, November 29, 2002.
42. Hala Jaber. *Hezbollah*. New York: Columbia University Press, 1997: 69.
43. Woodward, pp. 394-398.
44. Howard Blum. *The Gold of Exodus: The Discovery of the True Mount Sinai*. New York: Pocket Books, 1999: 151-153.
45. Sklar, p. 226.

- William Blum. "Ronald Reagan' s Legacy: Eight Years of CIA Covert Action." .46
.Covert Action Quarterly, Winter 1990
.47 انظر الهامش 42.
- Thomas Powers. "Intelligence Wars: American Secret History from Hitler to Al- .48
.Qaeda." *New York Review of Books*, December 2002, pp. 276-277
- Frontline*: "Target America." October 4, .49
مقابلة مع بوب وودوارد أجراها بيل مويرز. .2001
- Paul Lashmar and Patrick Fitzgerald. "The Saudi Cesspit." *New Statesman & .50*
Society, December 1, 1996. 51. Woodward, p. 96
- .52 مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
.53 Woodward, p. 97
- .54 انظر الهامش 52.
.55 المصدر نفسه.
- Michael Kilian. "Nancy Reagan Noted for Style, Understated Influence." *Chicago .56*
Tribune, July 6, 2004
- Nancy Reagan. *My Turn: The Memoirs of Nancy Reagan*. New York: Random .57
House, 1989:60
- .58 المصدر نفسه، ص. 61.
- .59 Julie Wolf. "Nancy Reagan." Public Broadcasting Service, PBS Online
- Dr. Peter David Beter. Audio Letter ® No. 76.Washington D.C.: Audio Books, .60
.Inc., June 30, 1982
- .61 المصدر نفسه.
- .62 Sam Donaldson. ABC Evening News, June 25, 1982
- Lolly Weymouth. "A Prince Who Would Make Peace; Saudi Arabia' s Bandar .63
.Worries about American-Israeli Ties." *Washington Post*, December 4, 1983
- "The Power Behind the Throne: A Wife' s Tale." *U.S. News & World Report*, July, .64
.20, 1992
- .65 Walsh, p. ____
- .66 انظر الهامش 7.

5. بندر تاجر سلاح

- .1 كلمة الأمير بندر أمام ماكدونل دوغلاس، 9 يناير 1989.
- .2 المصدر نفسه.
- Farhang Rajaei. *The Iran-Iraq War: The Politics of Aggression*. Gainesville: .3
University of Florida Press, 1993: 200
- .4 مقابلة مع لورد باول بايزووتر في كوين آنز غيت، لندن، 26 مايو 2004.
- .5 مقابلة مع طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة مبيعات الصادرات الدفاعية البريطانية في نادي سلاح الجو الملكي، بيكاديلي، لندن، 15 أكتوبر 2004.
- .6 مقابلة مع السير ريتشارد إيفانز، رئيس شركة برتيش إيروسبيس سيستمز، لندن، 10 فبراير 2004.

- David E. Long. *The United States and Saudi Arabia: Ambivalent Allies*. Boulder .7
 .and London: Westview Press, 1985: 45
- .8 المصدر نفسه، ص 46.
- .9 انظر الهامش 6.
- The Observer* (London), May 10, 1992; "Saudi Arabia: Princes Fight It Out." .10
Indigo Intelligence Newsletter, October 6, 1994; and Anthony Sampson, "Arms and
 . the Middle Men." *Times Newspapers*. October 12, 1994
- Anthony H Cordesman. *Saudi Arabia: Guarding the Desert Kingdom*. Boulder and .11
 .London: Westview Press, 1997: 157
- .12 *Flight*, December 8, 1984
- .13 انظر الهامش 5.
- .14 *The Observer* (London), March 19, 1989
- Saudi Prince May Sign £3bn Arms Contract Next Week. **The Times** (London), .15
 .September 9, 1985, p. 8
- Chrissie Hirst. "The Arabian Connection: The UK Arms Trade to Saudi Arabia." .16
 Campaign Against Arms Trade (CAAT) website: [www.caat.org.uk/publicaitons/
 .countries/saudi-arabia.php](http://www.caat.org.uk/publicaitons/countries/saudi-arabia.php)
- .17 انظر الهامش 1.
- .18 انظر الهامش 16.
- Julie Flint. "Massive Saudi Weapons Deal Draws Unwanted Attention to BAe .19
 .Systems." *Daily Star* (Lebanon), December 9, 2003
- "Tornado Rip-Off: Adam Raphael Investigates Britain' s Biggest-ever Arms Deal .20
 .and the Middlemen Who Fixed It." *The Observer* (London), March 19, 1989, p. 9
- .21 *The Economist*, July 16, 1988
- Nick Cohen. "The Curse of Black Gold" *The New Statesman* June و .22 انظر الهامش 19
 .2, 2003, p. 25ff
- .23 *The Independent* (London), March 12, 1992, and June 24, 1997
- .24 انظر الهامش 16.
- .25 انظر الهامش 10.
- .26 انظر الهامش 5.
- .27 .Royal Decree No. M/14, 1997; Council of Ministers Resolution No.1275, 17.9.75
- David Leigh and Rob Evans. "Arms Firm' s £ 60m Slush Fund." *The Guardian* .28
 .(London), May 4, 2004
- .29 انظر الهامش 19.
- .30 انظر الهامش 11.
- .31 انظر الهامش 5.
- W. Seth Carus and Edward N. Luttwak. *Ballistic Missiles in the Third World: .32
 .Threat and Response*. New York: Praeger. 1990
- Yitzhak Shichor. *East Wind over Arabia: Origins and Implications of the Sino- .33
 Saudi Missile Deal*. Los Angeles: Center for Chinese Studies, University of
 .California Press, 1989: 26

34. مقابلة مع الأمير بندر، *CBS News Nightwatch*.
35. William Safire. "Those Chinese Missiles." *New York Times*, February 23, 1989; .U.S. Congress. Congressional Record, 101st Cong., 1st Sess., 1989, p. S5448
36. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 7 أبريل 2006.
37. James Mann. *About Face: A History of America's Curious Relationship with China, from Nixon to Clinton*. New York: Alfred A. Knopf, 1999: 169-170
38. *The Independent* (London), April 2, 1988 (عنوان المقالة غير معروف).
39. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
40. Mark Erickson Daryl, Joseph E. Goldberg, Stephen H. Gotowicki, et al. *An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict*. Westport, Conn.: Greenwood, 1996: 119
41. Susanne Hoerber Rudolph. *Transnational Religion and Fading States*. Boulder and London: Westview Press, 1997
42. Charles J. Hanlet. "Where Are the Saudis' Missiles? Saudis' Missiles Drop from Sight." Associated Press, May 12, 1997
43. مقابلة مع الأمير بندر بن سلطان في "Saudis Withheld Missiles to Spare Civilians." *Washington Times*, June 10, 1991, p. 3
44. Jim Hoagland. "The Turtle Snaps Back." *Washington Post*. April 13, 1988, p. 2
45. المصدر نفسه.
46. مقابلة مع الأمير بندر أجراها تشارلي روز على *CBS News Nightwatch*
47. Shichor, p. 30
48. "Saudi CSS-2 Missiles Now Operational." *Flight International*, June 12, 1990, pp. 12-13
49. R. Bates Gill. *Chinese Arms Transfers: Purposes, Patterns, and Prospects in the New World Order*. Westport, Conn: Praeger 1992: 114
50. Shichor, p. 41
51. الأمير بندر في مقابلة مع جون ماكلولن في برنامج "وجهاً لوجه" (*One on One*).
52. Youssef M. Ibrahim. "Saudis Reaffirm a Right to Vary Arms Dealings." *New York Times*. July 28, 1988
53. "Saudis Warn Iran They May Use Chinese Missiles." *New York Times*, April 28, 1988, p. 1
54. Bill Gertz. "Saudis Withheld Missile to Spare Civilians." *Washington Times*, June 10, 1991, p. A4
55. Akaki Dvali. *Will Saudi Arabia Acquire Nuclear Weapons?* Monterey, Calif.: Center for Nonproliferation Studies, 2004
6. نظام عالمي جديد
1. Report of Congressional Committee Investigating the Iran-Contra Affair. Washington D.C.: Government Printing Office, 1987: Vol. 1, Appendix A
2. Robert Parry. "Missing U.S.-Iraq History." December 16, 2003. www.change-links.org/missingfacts1.htm

R.P.H. King. *The United Nations and the Iran-Iraq War, 1980-1986*. New York: .3
.Ford Foundation.1987: 19-20

7. الخليج ينفجر

1. Dennis Menos. *Arms over Diplomacy: Reflections on the Persian Gulf War*. Westport, Conn.: Praeger, 1992: 3
2. مقابلة مع الجنرال برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
3. George Bush and Brent Scowcroft. *A World Transformed*. New York: Alfred A. .3
.Knopf, 1998:325
4. Gregory Crane. *Thucydides and the Ancient Simplicity: The Limits of Political .4
.Realism*. Los Angeles: University of California Press, 1998
5. مقابلة مع لورد تشارلز باول في كوين آنز غيت، لندن، 6 مايو 2004.
6. المصدر نفسه.
7. انظر الهامش 2.
8. .George Crile. *My Enemy's Enemy*. New York: Grove/Atlantic, 2003: 236
9. William Head and Earl H. Tilford. *The Eagle in the Desert: Looking Back on U.S. .9
.Involvement in the Persian Gulf War*. Westport, Conn.: Praeger, 1996: 39
10. انظر الهامش 2.
11. "April Glaspie-Saddam Hussein Conversation 1990: Excerpts from Iraqi Document .11
.on Meeting with U.S. Envoy." *New York Times International*, September 23, 1990
12. .Dan Goodgame. "1990: The Two George Bushes." *Time*, January 2, 1990
13. Robert Parry. "Saddam's 'Green Light'; October Surprise X-Files" (Part 5). The .13
.Consortium, www.consortiumnews.com/archive/xfile5.html
14. William Blum. *Killing Hope: U.S. Military and CIA Interventions since World War .14
II*. Munroe, Me: Common Courage Press. 2004; Sartre. "The Dubious U.S. State
Department: State Department Running as Usual Purge the Ranks, Change the
.Policy." *Rense.com*, October 12, 2003
15. Michael R. Gordon and General Bernard E. Trainor. *The General's War*. New .15
.York: Little, Brown and Co./Bay Back Books, 1995: 26
16. المصدر نفسه، ص. 22 - 23.
17. David B. Ottaway. "Been There, Done That: One of the Great Cold Warriors Faces .17
.Yawn of a New Era." *Washington Post*, July 21, 1996
18. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
19. Roxanne Roberts. "The Saudi Envoy's Supersonic Diplomatic Course." .19
.Washington Post, August 16, 1990
20. مقابلة مع الأمير بندر أجزاها روجر مود.
21. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج John McLaughlin's *One on One*, PBS
22. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج Larry King Live, CNN
23. James A. Blackwell Jr, Michael J. Mazarr, and Don M. Snider. *Desert Storm: The .23
.Gulf War and What We Learned*. Boulder and London: Westview Press. 1993: 29

- Karl Von Vorys. *American Foreign Policy: Consensus at Home, Leadership .24*
 .Abroad. Praeger, Westport, Conn.: 1997: 55
- Turi Munthe. *The Saddam Hussein Reader*. New York: Thunders Mouth Press, .25
 .2002:227-228
- Bob Woodward. *The Commanders*. New York: Touchstone/Simon & Schuster, .26
 .1991: 202
- Kenneth Pollack. *The Threatening Storm: The Case for Invading Iraq*. New York: .27
 .Random House. 2002: 31
- . Woodward, p. 204 .28
- .المصدر نفسه، ص 239. .29
- .30 مقابلة مع ضابط الصف سمير بن فهد بن تركي في الدار البيضاء، 21 أبريل 2005.
- .31 انظر الهامش 19.
- .32 انظر الهامش 21.
- Daniel Pipes. *The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy*. New York: St. .33
 .Martin's Press, 1998: 354
- .34 *New York Times*. February 27, 1991 (عنوان المقالة غير معروف).
- .35 .Carter Center Briefing. "Crisis in the Gulf," segment one, 23:17
- .36 .المصدر نفسه.
- .37 .Bush and Scowcroft, p. 305
- .38 .المصدر نفسه، ص 320.
- Michael Watkins. *Breakthrough International Negotiation: How Great Negotiators .39*
 Transformed the World's Toughest Post-Cold War Conflicts. San Francisco:
 .Jossey-Bass, 2001: 187
- Paul Aarts. "The New Oil Order: Built on Sand?" *Arab Studies Quarterly* 16(2):1; .40
 .1994
- Mary McGory. "A Christmas Card from Prince Bandar." *Washington Post*, .41
 .December 16,1990, P. K.01
- Brian Whitaker. "Saddam: Serpent in the Garden of Eden." *The Guardian* .42
Unlimited. January 12, 2001; Lindsey Hilsum. "Cartoons and Oil." *The New*
Statesman, February 13, 2006
- .43 انظر الهامش 35.
- .44 انظر الهامش 22.
- HRH General Khaled bin Sultan and Patrick Seale. *Desert Warrior: A Personal .45*
View of the Gulf War by the Joint Force Commander. New York: HarperCollins,
 .1995: 27
- .46 انظر الهامش 2.
- .47 .المصدر نفسه.
- Michael A. Palmer. *Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role .48*
 .in the Persian Gulf, 1883-1992. New York: Touchstone Books, 1999: 117
- Randall M. Miller and Steve A. Yetiv. *The Persian Gulf Crisis*. Westport, Conn.: .49
 Greenwood Press, 1997: 13; Bob Woodward. *The Commanders*. New York:

- Touchstone Books/Simon & Schuster, 1991: 240; Richard L. Russell. A Saudi
.Nuclear Option?" *Survival* 43(2): 70; 2001
.50 انظر الهامش 2.
- Colin Powell with Joseph E. Persico. *Colin Powell—A Soldier's Way: An* .51
.Autobiography. London: Hutchinson, 1995: 465
- Gary R. Hess. Presidential Decisions for War: Korea, Vietnam, and the Persian Gulf .52
(The American Moment). Baltimore: John Hopkins University Press, 2001: 166
.53 Gordon and Trainor, p. 40
.54 انظر الهامش 2.
- Judith Miller. "Saudis Tell of Iraq Hot-Line Drama." *New York Times*, October 4, .55
.Palmer, p. 168 .56 .1990, p. A15
- Crisis in the Persian Gulf Region: U.S. Policy Options and Implications. U.S. .57
.Congress, Senate, SASC, S. Hrg. 101-1071, sess. 101/2, p. 645; Palmer, p. 168
.58 Woodward, p. 240
- Dr. Nasser Rachid and Dr. Esber Shaheen. *Saudi Arabia and the Gulf War*. .59
.International Institute of Technology, 1992: 172
.60 Amatzia Baram. *Iraq's Road to War*. London: Palgrave MacMillan, 1996
.61 Gordon and Trainor, p. 49
.62 انظر الهامش 21
- .63 Bush and Scowcroft, p. 374
.64 المصدر نفسه، ص 374
.65 CNN News, August 5, 1990
- Daniel Pipes. "The Scandal of U.S.-Saudi Relations." *The National Interest*, Winter .66
.2002
- General H. Norman Schwarzkopf and Peter Petre. *It Doesn't Take a Hero*. New .67
.York: Linda Grey/Bantam Books, 1992: 277
.68 المصدر نفسه، ص. 389
- .69 Schwarzkopf and Petre, pp. 302-306
- Peter W. Wilson and Douglas F. Graham. *Saudi Arabia—The Coming Storm*. New .70
.York: M.E. Sharpe, 1994: 112-113
.71 Schwarzkopf and Petre, pp. 304-305
- .72 مقابلة مع الأمير بندر في برنامج ABC News *Nightline* by Ted Koppel
.73 المصدر نفسه.
- .74 انظر الهامش 2.
- .75 انظر الهامش 5.
- .76 مقابلة مع السير ريتشارد إيفانز، رئيس مجلس إدارة شركة برتيش إيروسبيس سيستمز، في
لندن، 10 فبراير 2004.
- Margaret Thatcher. *The Downing Street Years*. New York: HarperCollins, 1995: .77
.820
.78 انظر الهامش 2.
- .79 انظر الهامش 76.

- James Addison Baker and Thomas M. Defrank. *The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace 1989-1992*. New York: Putnam, 1995: 290 .80
- .81 انظر الهامش 76.
- .82 انظر الهامش 2.
- "Challenges to Security in Southwest Asia." Speech by Prince Bandar bin Sultan, .83
.Tampa, Florida, May 20, 1993
- .bin Sultan and Seale, p. 24 .84
- .Wilson and Graham, p. ____ .85
- .86 انظر الهامش 21.
- .Murrey Marder. "Operation Washington Shield." *Nieman Reports* 1999; 53(4): 57 .87
- Thomas A. McCain and Leonard Shyles. *The 1,000 Hour War: Communication in the Gulf*. Westport, Conn.: Greenwood Press. 1994: 39 .88
- .89 مقابلة مع الأمير بندر في برنامج *CBS News Nightwatch*
- Anthony Lewis. "To See Ourselves: The Failings of the Press in the Gulf War." .90
.New York Times, May 6, 1991, p. A15
- .91 انظر الهامش 87.
- .92 Bush and Scowcroft, p. 439 .92
- .93 انظر الهامش 22.
- .94 The World Today: Crisis in the Gulf, CNN, 1990 .94
- Judith Miller. *God has Ninety Nine Names: Reporting from a Militant Middle East*. .95
.New York: Touchstone Books, 1997: 520
- .Wilson and Graham, p. 115 .96
- Prince Bandar bin Sultan al-Saud. "An Open Letter to King Hussein." *Washington Post*, September 26, 1990, p. A25 .97
- .98 انظر الهامش 21.
- .99 مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.
- .100 Bush and Scowcroft, p. 373 .100
- .Gary A. Donaldson. *America at War since 1945*. New York: Praeger 1996: 165 .101
- .102 Bush and Scowcroft, p. 427 .102
- .103 المصدر نفسه ص 389.
- .104 المصدر نفسه ص 401.
- .105 انظر الهامش 18.
- .106 المصدر نفسه.
- .107 Bush and Scowcroft, pp. 414-415 .107
- .Baker and Defrank, p. 354 .108
- Donald Kagan. *While America Sleeps: Self Delusion, Military Weakness, and the Threat to Peace Today*. New York: St. Martin's Griffin, 2001: 252 .109
- .Donaldson, p. 164 .110
- .Bush and Scowcroft, p. 420 .111
- .112 انظر الهامش 110.

- .113. انظر الهامش 111.
- .114. Woodward, p. 370.
- .115. Baker and Defrank, p. 372.
- .116. Schwarzkopf and Petre, p. 408.
- .117. المصدر نفسه، ص. 417 - 418.
- .118. Baker and Defrank, p. 386.
- .119. Gordon and Trainor, p. ____.
- .120. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
- .121. Wilson and Graham, pp. 115-116.
- .122. كلمة بندر أمام منتدى اتحاد سلاح الجو في فندق وستفورد ريجنسي، 10 يونيو 1992.
- .123. bin Sultan and Seale, p. 161.
- .124. George Bush. "A Nation Blessed: Persian Gulf War as Turning Point in US Military History." *Naval War College Review*, Autumn 2001. Commencement address delivered on June 15, 2001, to the Naval War College graduating class of 2001.
- .125. Sarah Graham-Brown. *Sanctioning Saddam: The Politics of Intervention in Iraq*. London: I.B. Tauris. 1999: 3.
- .126. Gordon and Trainor, p. ____.
- .127. انظر الهامش 124.
- .128. انظر الهامش 35.
- .129. انظر الهامش 124.
- .130. انظر الهامش 126.
- .131. انظر الهامش 124.
- .132. انظر الهامش 76.
- .133. George H.W. Bush Presidential Library.
- .134. James Baker. *The Gulf War: An In-Depth Examination of the 1990-91 Persian Gulf Crisis*. Oral History: The Decision Makers. *Frontline*.
- .135. مقابلة عبر الهاتف مع أندرو نيل في 21 مارس 2006.

8. السلام في الشرق الأوسط

- .1. "Saudi Prince Says the Kingdom is at a Crossroads." *The Daily Star* (Lebanon), May 21, 2004.
- .2. رسالة ضمانات وزير الخارجية جيمس بيكر إلى الفلسطينيين، 18 أكتوبر 1991. أعيدت طباعتها في William B. Quandt. *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict since 1967*. New York and Berkeley: The Brookings Institution & University of California Press, 1993: 50.
- .3. Robert O. Freedman. *The Middle East and the Peace Process: The Impact of the Oslo Accords*. Gainesville: University Press of Florida, 1998: 376.
- .4. مقابلة مع الجنرال برنت سكوكرافت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.

5. Abdulaziz Bashir and Stephen Wright. "Saudi Arabia: Foreign Policy after the Gulf War." *Middle East Policy* I (1): 112; 1992
6. Thomas L. Friedman. *From Beirut to Jerusalem*. New York: Anchor, 1990: 536
7. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.
8. George Bush and Brent Scowcroft. *A World Transformed*. New York: Alfred A. Knopf, 1998:490
9. Kathleen Christison. *Perceptions of Palestine: Their Influence on Middle East Policy*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1999: 243
10. Friedman, p. 537
11. Said K. Aburish. *Arafat: From Defender to Dictator*. New York: Bloomsbury USA, 1999:p. 240
12. مقابلة مع الرئيس الأسبق جورج إيتش دبليو بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
13. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.
14. Mark Matthews. "Envoy' s Madrid Role Shows Saudi' s Diplomatic Muscle." *Baltimore Sun*, November 5, 1991
15. Frank Greve. "The Politic Prince." *Philadelphia Inquirer*, November 8, 1991
16. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
17. كلمة محاضرة للأمير بندر بن سلطان، مجلس رجال الأعمال الأميركيين السعوديين، واشنطن دي سي، 2 أكتوبر 1996.
18. المصدر نفسه.
19. ملاحظات أدلى بها الأمير بندر بن سلطان أمام مؤتمر العمدة، واشنطن دي سي، 22 يناير 2003.
20. Munther J. Haddadin. "Water in the Middle East Peace Process." *The Geographical Journal* 168 (4): 324; 2002
21. Herbert C. Kelman. "Building a Sustainable Peace: The Limits of Pragmatism in the Israeli-Palestinian Negotiations." *Peace and Conflict* 5 (2): 101; 1999
22. Jacinta Sanders. "Honest Brokers? American and Norwegian Facilitation of Israeli-Palestinian Negotiations." *Arab Studies Quarterly* 21 (2): 1999
23. مقابلة مع السفير إدوارد جيرجيان في جامعة رايس في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
24. المصدر نفسه.
25. Daniel Pipes. "Why Oslo' s Hopes Turned to Dust." *The New York Post*, September 9, 2003
26. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.
27. John T. Rourke and Mark A. Boyer. "Palestinians: A Nation without a State." In *World Politics: International Politics on the World Stage*. New York: McGraw-Hill, 2002: 105
28. Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Saudi Leader' s Anger Revealed Shaky Ties; Bush' s Response Eased a Deep Rift on Mideast Policy; Then Came September 11." *Washington Post*, February 10, 2002, p. A.01
29. Sami G. Hajjar. "The Israel-Syria Track." *Middle East Policy* VI (3) 112; 1999
30. ملاحظات الأمير بندر على اجتماع في البيت الأبيض مع الرئيس كلينتون، 7 نوفمبر 1998.
31. المصدر نفسه.

- "Israel Continuing Settlement Activities, Evading Wye River Memorandum, Palestine Observer Tells General Assembly Special Session." Science Blog. .GA/9542, February 5, 1999 .32
- Richard H. Curtiss. "Both Parties Now Are Waiting to Assign the Blame for Failure of the Middle East Peace Process. *Washington Report on Middle East Affairs*, .December 1999 .33
34. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
- "Showstopper on Arafat: Prompting Reflections on Palestinian Leadership." .35
.American Students for Israel, September 28, 2003
36. انظر الهامش 7.
- .Alan Dershowitz. *The Case for Israel*. Hoboken, N.J.: John Wiley & Sons, 2003: 117 .37
- Barry Rubin and Judith Colp Rubin *Yasir Arafat: A Political Biography*. New .38
.York: Oxford University Press, 2003: 185
- Steve Berley. "Dual Anniversaries of Accord and Strife Point to Path of Hope." *San .39*
Francisco Chronicle, July 25, 2004
- .Rubin and Rubin, p. 200 .40
- .Bill Clinton. *My Life*: New York: Alfred A Knopf, 2004: 938 .41
- Fares Al-Braizat. "Muslims and Democracy: An Empirical Critique of Fukuyama's .42
Culturalist Approach." *International Journal of Comparative Sociology*, 2002;
- .Fareed Zakaria. "How to Save the Arab World." *Newsweek*, December 24, 2001
43. انظر الهامش 16.
44. مقابلة مع لورد بايزووتر تشارلز باول في كوين آنز غيت، لندن، 26 مايو 2004.
- .Hendrick Hertzberg. "Fade from Black." *The New Yorker*, December 17, 2001 .45
46. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.
47. المصدر نفسه.
48. انظر الهامش 7.
49. انظر الهامش 40.
- "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington's Indispensable .50
Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003
51. انظر الهامش 19.
- .J.D. Hayworth. "Bandar's Delusions." *Washington Times*, April 14, 2002, p. B05 .52
53. انظر الهامش 34.
54. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
55. انظر الهامش 4.

9. الأمير الذي لا يقهر

1. مقابلة مع السير ريتشارد إيفانز، رئيس مجلس إدارة شركة برتيش إيروسبيس سيستمز، في لندن، 10 فبراير 2004.
2. مقابلة مع بتينا جيلبرت، سكرتيرة الأمير بندر 1982 - 1999، في واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.

3. مقابلة مع شيري كوبر، سكرتيرة الأمير بندر، في واشنطن دي سي، 4 سبتمبر 2004.
4. Elsa Walsh. "Louis Freeh's Last Case." *The New Yorker*, May 14, 2001.
5. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
6. Gerald Posner. *Why America Slept: The Failure to Prevent 9/11*. New York: Random House, 2003; 107.
7. Louis J. Freeh. "Remember Khobar Towers: Nineteen American Heroes Still Await American Justice." *Wall Street Journal*, May 20, 2003.
8. Rich Lowrie. "Clinton & Khobar: One of the Keys to Understanding the War over the War on Terrorism." *National Online Review*, November 3, 2003.
9. انظر الهامش 4.
10. مقابلة مع لويس فريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، 1993 - 2001 في واشنطن، دلوير، 11 مارس 2004.
11. انظر الهامش 10.
12. Thomas Blood. *Madam Secretary: A Biography of Madeleine Albright*. New York: St. Martin's Press, 1997: 106.
13. انظر الهامش 10.
14. المصدر نفسه.
15. انظر الهامش 4.
16. انظر الهامش 10.
17. Richard Lowry. "America's Unspecial Relationship: A Cold Look at the Saudis." *National Review*, February 25, 2002.
18. انظر الهامش 10.
19. Josh Pollack. "Anti-Americanism in Contemporary Saudi Arabia." *Middle East Review of International Affairs (MERIA)*, December 2003.
20. Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Oil for Security Fueled Close Ties: But Major Differences Led to Tensions." *Washington Post*, February 11, 2002; p. A01.
21. "Looking for Answers." Transcript of a Frontline Interview with Martin Smith and Lowell Bergman. *New York Times*, October 9, 2002.
22. انظر الهامش 10.
23. "Furious Saudis Reject U.S. 9/11 Claims Agencies." *Guardian Unlimited*, July 25, 2003.
24. انظر الهامش 10.
25. "Louis Freeh Praises Saudi Cooperation on Khobar Investigation." *PR Newswire*, October 9, 2002.
26. انظر الهامش 10.
27. انظر الهامش 25.
28. انظر الهامش 10.
29. انظر الهامش 25.
30. انظر الهامش 10.

31. المصدر نفسه.
32. انظر الهامش 4.
33. المصدر نفسه.
34. انظر الهامش 10.
35. انظر الهامش 4.
36. انظر الهامش 10.
37. انظر الهامش 4.
38. المصدر نفسه.
- Bruce Maddy-Weitzman. *Middle East Contemporary Survey: 1996*, volume 20. 39
.Boulder and London: Westview Press, 1998: 583
- Alfred B. Prados. "CRS Issue Brief 93113: Saudi Arabia: Post-War Issues and U.S. 40
.Relations." Foreign Affairs and National Defense Division, December 2, 1996
41. انظر الهامش 4.
42. نسخة عن مقابلة الأمير بندر مع ديفيد برينكلي في برنامج ABC's This Week, July 7, 1996
43. Cynthia Grenier. "The Last Case of Louis Freeh." *WorldNetDaily*, May 21, 2001
44. انظر الهامش 10.
45. انظر الهامش 4.
- Ronald Kessler. *The Bureau: The Secret History of the FBI*. New York: St. 46
.Martin's Press, 2002
- William A. Mayer. "Not Home Freeh—Clinton and the Khobar Towers 47
.Investigation." E&P PipelineNews.org, October 12, 2005
- Thomas Lippman. *Madeleine Albright and the New American Diplomacy*. Boulder 48
.and London: Westview Press, 179
49. انظر الهامش 4.
- "Freeh Links Iran to Khobar Bombing." www.CabalofDoom.com, December 19, 50
.2003
51. انظر الهامش 8.
52. انظر الهامش 50.
53. U.S. Department of State daily press briefing by James P. Ruben, March 31, 1998
54. انظر الهامش 10.
55. المصدر نفسه.
56. انظر الهامش 47.
57. انظر الهامش 8.
58. مقابلة مع الأمير بندر بن سلطان أجراها أندرسون كوبر، سي أن أن، 14 مايو 2003.
59. انظر الهامش 25.
60. انظر الهامش 60.
- David Johnston and Thom Shanker. "Saudis Sought to Divide Clinton Team over 61
'96 Bombing, Aides Say." *New York Times*, October 2, 2002

62. Carl Limbacher. "Saudis Misled FBI Chief Freeh, Clinton Aides Say." .FreeRepublic.com, October 1, 2002
63. Sidney Blumenthal. *The Clinton Wars*. New York: Viking Press, 2003: 663
64. Daniel Benjamin and Steven Simon. *The Age of Sacred Terror*. New York: .Random House, 2002: 301
65. انظر الهامش 8.
66. Daniel Benjamin. Letters to the Editor: Khobar Bombing and the Clinton White .House. Wall Street Journal, May 27, 2003
67. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.
68. Lyn Boyd-Judson. *Foreign Policy Analysis* "Strategic Moral Diplomacy: Mandela, .Qaddafi, and the Lockerbie Negotiations." 1: 73-97; 2005
69. المصدر نفسه.
70. Ray Hartley "The Turning of Gaddafi." *Sunday Times* (South Africa), April 11, 1999
71. مقابلة مع نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
72. مقابلة مع البروفيسور جيروول في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
73. انظر الهامش 68.
74. المصدر نفسه.
75. انظر الهامش 72.
76. انظر الهامش 68.
77. انظر الهامش 67.
78. انظر الهامش 68.
79. المصدر نفسه.
80. مقابلة مع طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة الصادرات الدفاعية، المملكة المتحدة، في نادي سلاح الجو الملكي، بيكاديلي، 15 أكتوبر 2004.
81. انظر الهامش 72.
82. مقابلة مع الأمير فيصل بن تركي في مكين، فيرجينيا، 4 مارس 2004.
83. انظر الهامش 72.
84. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، ميرلند، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
85. انظر الهامش 82.
86. مقابلة مع الأميرة ريم بنت بندر في مكين، فيرجينيا، 19 فبراير و9 مارس 2004.
87. انظر الهامش 82.
88. انظر الهامش 68.
89. الشرق الأوسط (لندن)، 4 سبتمبر 1998 (عنوان المقالة غير معروف).
90. انظر الهامش 72.
91. انظر الهامش 71.
92. انظر الهامش 70.
93. خطاب الأمير بندر بن سلطان أمام مجلس رجال الأعمال الأميركي السعودي، واشنطن دي سي، 2 أكتوبر 1996.

- Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington's .94
 .Indispensable Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003
 .المصدر نفسه. 95
- Dennis Ross. *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East .96
 .Peace*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2004
- .Bill Clinton. *My Life*. New York: Alfred A Knopf, 2004: 883 .97
 .98 انظر الهامش 94
 .99 انظر الهامش 67
 .100 انظر الهامش 16
- Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Saudi Leader's Anger Revealed Shaky .101
 Ties; Bush's Response Eased a Deep Rift on Mideast Policy; Then Came Sept.
 .11." *Washington Post*, February 10, 2002, p. A01
- David Farber. "Saudi/U.S. Relations on a Razor Edge." *Washington Post*, February .102
 .10, 2002
 .103 انظر الهامش 101
- "Saudi Prince Says the Kingdom Is at a Crossroads." *The Daily Star* (Lebanon), .104
 .May 21, 2004
- "The Bush Royal Family and the Saudi Royal Family Could Hardly Be Closer." .105
 .*Foreign Relations*, January 24, 2002
- .James Heartfield. "A House of Cards." *Spiked*, May 14, 2003 .106
 .107 انظر الهامش 101
 .108 المصدر نفسه.
- 10. 9/11 الكارثة**
- "Remembering Hume Horan (1934-2004). Extract from Hume Horan, 'Saudi .1
 Arabia: A Successful Anomaly (So Far),' The American Enterprise." *Middle East
 .Quarterly*, Fall 2004, pp. 32-35
- "U.S.-Saudi Anti-terror Cooperation on the Rise: An Interview with Ambassador .2
 .Richard W. Murphy." Saudi-U.S. Relations Information Service, May 3, 2004
- .Tony Karon. "Person of the Week: Adel al-Jubeir." *Time*, December 5, 2002 .3
- .Richard Cohen. "Saudi Switcheroo." *Washington Post*, November 28, 2002, p. A47 .4
- .5 ملاحظات الأمير بندر بن سلطان أمام مؤتمر العمدة، واشنطن دي سي، 22 يناير 2003.
- Amrith Mago. "Saudis Paid Off Osama bin Laden and 9/11 Terrorists." *Jewish .6
 .Institute for National Security Affairs* (JINSA) Online, September 6, 2002
- "Issues in Context: Prince Bandar Meets the Press." *Saudi-U.S. Relations .7
 .Information Service*, April 26, 2004
- .8 المصدر نفسه.
- .9 "Saudi Arabia in 9-11 Commission Report." *PRNewswire*, July 22, 2004
- .10 انظر الهامش 7
- Ahmad Faruqui. "Scapegoating Saudi Arabia for 9/11." *The Daily Times*, .11
 .(Pakistan), December 16, 2003

- Anthony H. Cordesman. "Ten Reasons for Reforging the U.S. and Saudi .12
Relationship." Saudi-American Forum, February 1, 2004
- Khaled Dawoud. "Squeezing Saudi Arabia." *Al-Ahram Weekly Online*, December .13
.24, 2003
14. نسخة عن مقابلة مع الأمير نايف، وزير الداخلية في المملكة العربية السعودية، السياسة
(الكويت)، 29 نوفمبر 2002.
- Mark Steyn. "Bought-Off as We' re Destroyed." *The Spectator*, November 28, .15
.2002
16. انظر الهامش 5.
- "Furious Saudis Reject US 9/11 Claims." *Guardian Unlimited* (London), July 25, .17
.2003
- "U.S.-Saudi Relations: In Transition?" Address by Prince Bandar to the World .18
.Affairs Council, Los Angeles, September 22, 2003
- "Prince Bandar Ibn Sultan: We Were Telling You They Were Terrorists and the .19
.West Was Calling Them Dissidents." *Ain-Al-Yaqeen*, October 3, 2003
20. "Bandar Hits 9/11 Report." *Washington Times*, July 29, 2003, p. A14
21. انظر الهامش 17.
- Simon Henderson. "The September 11 Congressional Report: A Sea Change in .22
U.S.-Saudi Relations?" The Washington Institute for Near East Policy, July 30,
.2003
23. "9/11 Probe Clears Saudi Arabia." BBC News, June 17, 2004
- "Bush Administration Censors 28 Pages on Saudi Arabia' s Role from 9/11 .24
.Report." *Agence France-Presse*, July 25, 2003
25. انظر الهامش 20.
- Josh Meyer. "Classified 9/11 Material Implicates Saudi Government, Officials .26
.Say." *Los Angeles Times*, August 2, 2003
27. John B. Judis and Spencer Ackerman. 28 Pages. *New Republic*, January 8, 2003
28. مقابلة مع الأمير بندر أجزتها *Los Angeles Times*, September 24, 2003
- Seymour M. Hersh. "King' s Ransom: How Vulnerable are the Saudi Royals." *The .29
.New Yorker*, October 22, 2001
- Evan Thomas and Christopher Dickey. "The Saudi Game." *Newsweek*, November .30
.19, 2001
31. Jim Lobe. "The Bewilderment of Prince Bandar." *Asia Times*, November 29, 2002
- Paul Krugman. "Michael Moore' s Public Service." ABS/CBS Interactive, July 2, .32
.2004
- Bill Gallagher. "Saudi Connections to Bushes Make Action Highly Unlikely." .33
.Niagara Falls Reporter, January 22, 2002
34. تبادل للرسائل عبر البريد الإلكتروني بين راشيل برونسون وكريغ أونغر. الموضوع: 9/11 آخر
الهجوم على العراق، 8 يوليو 2004.
35. انظر الهامش 18.
36. James Morrison. "Defending the Saudis." *Washington Times*, February 12, 2002

- Jerry Seper. "Princess' s Cash Went to Al Qaeda 'Advance Man.'" *Washington Times*, November 26, 2002 .37
- .Craig Unger. "Saving the Saudis." *Vanity Fair*, October 2003 .38
- Patrick E. Tyler. "Explaining Gift, Saudi Envoy Voices Pain for Strained Ties." *New York Times*, November 27, 2002 .39
- Robert Baer. *Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude*. New York: Crown, 2003: 62-68 .40
- Patrick E. Tyler. "Explaining Gift, Saudi Envoy Voices Pain for Strained Ties." *New York Times*, November 27, 2002 .41
- .42 مقابلة مع ميمي بورك، سكرتيرة الأمير بندر الخاصة، في واشنطن دي سي، 29 يناير 2004.
- Elizabeth Wolfe. "Weathering Criticism, Saudi Ambassador' s Wife Questions Own Charitable History." *Detroit News*, November 28, 2002 .43
- "Saudi-U.S. Ties Sorely Tested as U.S. Fails to Dampen Media Sniping." *IslamOnline & News Agencies*, November 27, 2002 .44
- .45 انظر الهامش 42.
- .Matt Welsh. "Is Bandar Bush Above the Law?" *National Post*, April 19, 2003 .46
- .47 مقابلة مع ميمي بورك، سكرتيرة الأمير بندر الخاصة، في واشنطن دي سي، 29 يناير 2004.
- Daniel Pipes. "Government for Sale (to the Saudis)." *New York Post*, December 3, 2002 .48
- .49 انظر الهامش 43.
- Timothy L. O' Brien. "Inquiry at Bank Looks at Accounts of Diplomats." *New York Times*, April 2, 2004 .50
- Ken Guggenheim. "Commission Finds No Evidence of Saudi Funding of Sept. 11 Hijackers." *San Diego Union Tribune*, June 16, 2004 .51
- Washington Post*, "Saudis Seen as Supporting Terror, Poll Shows." February 26, 2002; Joseph A. Kechichian. "Testing the Saudi 'Will to Power' : Challenges Confronting Prince Abdallah." *Middle East Policy Council Journal*, Winter 2003 .52
- .53 المصدر نفسه.
- .54 كلمة ألقاها الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في بيرمنغهام ألباما، 26 سبتمبر 2003.
- "Facts about Saudi Arabia in 9/11 Commission Report." *PRNewswire*, July 22, 2004 .55
- "A Relationship in Transition—and Then 9/11." Saudi-American Forum interview, Ambassador Chas W. Freeman .56
- J. Crawford Cook. "A Program for 1980 and Beyond." Cook, Ruef, Spann & Weiser, Inc., November 1, 1979 .57
- .58 انظر الهامش 55.
- .59 انظر الهامش 61.
- .60 انظر الهامش 26.
- Marc Perelman. "Defensive Saudis Lash Out at 'Zionist' and U.S. Critics." *Forward*, December 28, 2001 .61
- .62 انظر الهامش 37.

63. انظر الهامش 67.
64. انظر الهامش 18.
65. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر في أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
66. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
67. Lowell Bergman. Transcript of *Frontline* interview: Saudi Time Bomb?, November 15, 2001.
68. .AboutSaudiArabia.net, March 17, 2004.
69. انظر الهامش 18.
70. انظر الهامش 67.
71. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
72. انظر الهامش 64.
73. The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks upon the United States. New York and London: W.W. Norton & Company, 2004.
74. Prince Bandar bin Sultan. *Frontline* interview with Lowell Bergman, September 2001.
75. المصدر نفسه.
76. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.
77. انظر الهامش 13.
78. Fareed Zakaria. "The Saudi Trap: A Trip through the Kingdom Reveals What Really Needs to Be Done in the War on Terror." *Newsweek*, June 28, 2003.
79. انظر الهامش 13.
80. انظر الهامش 1.
81. "U.S.-Saudi Anti-terror Cooperation on the Rise: An interview with Ambassador Richard W. Murphy." Council on Foreign Relations, April 23, 2004.
82. "U.S.-Saudi Relations: Transcript of an Online Discussion with Rachel Bronson." *Washington Post*, June 21, 2004.
83. "U.S.-Saudi Relations: A Glass Half Empty, Or Half Full? An Interview with Thomas Lippman." Saudi-U.S. Relations Information Service, August 26, 2004.
84. "A Diplomat's Call for War." *Washington Post*, June 6, 2004, p. B04.
85. Tony Karon. "Saudis Wrestle with Qaeda Demons." *Time*, June 16, 2004.
86. Judith Apter Klinghoffer. "Prince Bandar Is the New Saudi NSC Secretary." University, October 21, 2005. George Mason.
87. "Saudis in Terror's Shadow." Editorial. *New York Times*, June 28, 2004.
88. انظر الهامش 77.
89. انظر الهامش 73.
90. ملاحظات وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل أمام هيئة السياسة الخارجية، ومجلس رجال الأعمال الأميركي السعودي، 26 أبريل 2004.
91. المصدر نفسه.

- Carol Devine-Molin. "Understanding the Roots of Militant Islam." *GOPUSA News*, .92
.November 25, 2002
- Mary Beth Sheridan. "Bias against Muslims up 70%: Radio Talk Shows, Iraq War .93
among Reasons, Study Finds." *Washington Post*, May 3, 2004. p. A12
.94 انظر الهامش 75.
.95 انظر الهامش 73.
- Jihane Ayed. "Saudi Arabia: Friends of America." [http://nw08.american.edu](http://nw08.american.edu/~zaharna/jihanesite/index.html) .96
./~zaharna/jihanesite/index.html, April 30, 2004
.97 انظر الهامش 7.
.98 انظر الهامش 17.
- Damian Guevara. "Saudi Envoy Visits Cleveland, Defends His Country' s .99
.Leaders." *The Plain Dealer* (Cleveland), December 16, 2003
.100 انظر الهامشين 7 و 18.
- Jake Tapper. "Neil Bush Says Arab P.R Machine Not as Good as Israel' s." .101
.Salon.com, January 24, 2002
- "Saudi Arabia Lacks Commercial Appeal as Stations Reject Ads." *Washington* .102
.Times, April 30, 2002
.103 المصدر نفسه.
.104 انظر الهامش 55.
- Roger Franklin. "Saudis Spin Like a Well-Oiled Machine." *The Age* (Melbourne), .105
.June 23, 2002
.106 انظر الهامش 18.
- Michael Brown. "Bush Embraces Sharon' s Vision." *Middle East International* .107
.Magazine, April 29, 2004
- "Bush May Offer Jordan' s King Assurances on Mideast." Reuters, April 27, .108
.2004
- The White House: A National Security Strategy for a New Century. October 1998: .109
.52
.110 انظر الهامش 65.
- .111 مقابلة مع الجنرال برنت سكو كروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
- Patrick E. Tyler. "A Nation Challenged: The Family; Fearing Harm, bin Laden .112
Kin Fled From U.S." *New York Times*, September 30, 2001
.113 انظر الهامش 60.
.114 انظر الهامش 64.
- .115 مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
- Olivier Knox. "Prince Bandar Denies Oil-Price Deal To Help Bush." *Middle East* .116
.Online, April 22, 2004
- Steve Berley. "Dual Anniversaries of Accord and Strife Point to Path of Hope." .117
.San Francisco Chronicle, July 25, 2004
.118 "Yasser Arafat 1929-2004." *Time*, November 22, 2004, p. 38

11. الأصدقاء وحاشية السفر

1. مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكليين فيرجينيا، 18 فبراير 2004
2. مقابلة مع جيري بييري، سكرتيرة الأميرة هيفاء، في واشنطن دي سي، 9 مارس 2004.
3. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس 2004.
4. اجتماع مع طارق الشواف في غليمبتون، 1 ديسمبر 2004.
5. انظر الهامش 3.
6. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
7. انظر الهامش 1.
8. مقابلة مع طارق الشواف في الطريق من مراكش إلى لندن، 5 نوفمبر 2003.
9. المصدر نفسه
10. Yvonne Shinhoster Lamb. "Transplant Specialist Said Karmi, 67, Dies." *Washington Post*, June 11, 2005
11. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشفي تشيس، مريلند، 11 مارس 2004.
12. Patricia Sullivan. "Frederick Dutton Dies; Power Broker, Presidential Aide." *Washington Post*, June 26, 2005, p. C10
13. انظر الهامش 2.
14. مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
15. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، 11 مايو 2004.
16. Lee Michael Katz. "Prince Charming." *The Washingtonian*, November, 2000
17. William Safire. "Bandarbush" (Essay). *New York Times*, April 20, 1992
18. مقابلة مع الرئيس جورج إيتش ديليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
19. انظر الهامش 17.
20. Thomas W. Lippman. "Outlook: The Fall of the House of Saud?" Online discussion *at WashingtonPost.com*, June 14, 2004
21. انظر الهامش 18.
22. مقابلة مع السير ريتشارد إيفانز، رئيس مجلس إدارة شركة برتيش إيروسبيس سيستمز، في لندن، 10 فبراير 2004.
23. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
24. انظر الهامش 6.
25. انظر الهامش 18.
26. مقابلة مع الأميرة هيفاء ابنة فيصل بن عبد العزيز في مكليين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
27. انظر الهامش 1.
28. انظر الهامش 18.
29. Barbara Bush. *Reflections: Life after the White House*. New York: Scribner 2003: 233-234
30. انظر الهامش 18.

31. Evan Thomas and Christopher Dickey. "The Saudi Game." *Newsweek*, November 19, 2001.
32. Bob Woodward. *The Commanders*. New York: Touchstone/Simon & Schuster, 1991.
33. انظر الهامش 6.
34. انظر الهامش 11.
35. انظر الهامش 14.
36. رسالة من الأمير بندر إلى جورج إيتش دبليو بوش، كتبت في 3 نوفمبر 1992.
37. انظر الهامش 6.
38. Transcript of an address delivered by President Bush, as recorded by News Transcripts Inc., Washington, D.C., November 7, ____.
39. انظر الهامش 14.
40. انظر الهامش 6.
41. انظر الهامش 11.
42. Robert Baer. *Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude*. New York: Crown, 2003: 62-68.
43. Helen Thomas. *Thanks for the Memories, Mr. President: Wit and Wisdom from the Front Row at the White House*. New York: Scribner, 2003.
44. مقابلة مع ميمي بورك، السكرتيرة الخاصة للأمير بندر، في واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
45. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
46. المصدر نفسه.
47. كلمة الأمير بندر في حفل عشاء بمناسبة تقاعد وزير الخارجية كولن باول في مكلين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.
48. كلمة وزير الخارجية كولن باول في حفل عشاء في مكلين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.
49. مقابلة مع روبرتا فلاك في نيويورك، 5 مايو 2004.
50. Sarah Lyall. "Charles and Camilla, Married at Last." *New York Times*, April 10, 2005.
51. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
52. مقابلة مع الأمير بندر في غليمبتون، أكسفوردشير، في نوفمبر 2003.
53. المصدر نفسه.
54. "Married." *Sunday Times* (South Africa), July 19, 1998.
55. انظر الهامش 52.
56. انظر الهامش 51.
57. "Mandela at 85." *The Observer*, July 6, 2003.
58. انظر الهامش 52.
59. انظر الهامش 51.
60. انظر الهامش 52.
61. انظر الهامش 57.

62. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا والبروفسور جيكس جيروول في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
63. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
64. Transcript of Nelson Mandela address, "The Issue of Conflict Resolution," at Rice University, Houston, October 26, 2002
65. مقابلة مع ريتشي توماس في مطار دولز، فيرجينيا، 29 يناير 2004
66. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت، 6 أكتوبر 2003.
67. انظر الهامش 65.
68. مقابلة مع هنري بوهم، الطباخ في طائرة الأمير بندر إيرباص أ 340، في مراكش، المغرب، 25 يونيو 2004.
69. مقابلة مع جينا برستون، المضيفة الأولى في طائرة الأمير بندر، في مراكش، المغرب، 25 يونيو 2004.
70. انظر الهامش 68.
71. Woodward, p. 200.

12. الحياة الشخصية للأمير بندر

1. مقابلة مع الأميرة هيفاء ابنة فيصل بن عبد العزيز في مكليين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
2. مقابلة مع الأمير فيصل بن بندر في مكليين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
3. مقابلة مع جان ليلاك في بالم سبرينغز، كاليفورنيا، 12 ديسمبر 2003.
4. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في بالم سبرينغز، كاليفورنيا، 12 ديسمبر 2003.
5. "Punj Lloyd, S Arabian Prince Deal." *Business Standard* (Mumbai), May 15, 2006
6. المصدر نفسه.
7. مقابلة مع جيري جونز، مالك فريق دالاس كاوبويز، في دالاس، تكساس، 28 أبريل 2005.
8. William Gildea. "Saudi Prince Bandar Has Cowboy Spirit." *Washington Post*, June 20, 1994
9. Mickey Spagnola. "Balancing Things Out." *DallasCowboys.com*, December 15, 2003
10. انظر الهامش 2.
11. مقابلة مع الأميرة ريماء ابنة بندر في مكليين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
12. مقابلة مع ليندا وير في مراكش، المغرب، 26 يونيو 2004.
13. مقابلة مع جيري بييري، السكرتيرة الخاصة للأميرة هيفاء، في مكاتب مؤسسة موزايك، مكليين، فيرجينيا، 9 مارس 2004.
14. مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكليين، فيرجينيا، 18 فبراير 2004.
15. انظر الهامش 1.
16. انظر الهامش 11.
17. انظر الهامش 1.
18. انظر الهامش 2.

19. انظر الهامش 11.
20. انظر الهامش 1.
21. مقابلة مع الأمير بندر في الرياض، 13 نوفمبر 2004.
22. انظر الهامش 14.
23. انظر الهامش 2.
24. Roulah Khalaf. "The Prince Whose Fairytale Went Sour." *Financial Times*, November 29, 2002.
25. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
26. مقابلة مع جون فلتر، حلاق الأمير بندر، في مكليين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
27. مقابلة مع الرئيس جورج إيتش ديليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
28. مقابلة مع العقيد روبرت براون في غليمبتون، أكسفوردشير، 4 نوفمبر 2003.
29. انظر الهامش 27.
30. انظر الهامش 28.
31. انظر الهامش 27.
32. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، 11 مايو 2004.
33. مقابلة وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
34. مدخل كتبه وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر الثالث في كتاب الضيوف في بير كاين، أسبن، كولورادو.
35. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
36. مقابلة مع الأميرة ريماء بنت بندر في مكليين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
37. John Martin Robinson. *Glympton Park Estate: A History*. Chichester: Phillimore & Co. Ltd., 1998.
38. انظر الهامش 28.
39. مقابلة مع ويلي جوردان في غليمبتون بارك، أكسفوردشير، 23 نوفمبر 2004.
40. Alex Markels. "Winners: A Kid Champion Champions Kids." *Tennis Magazine*, 1994.
41. مقابلة مع ريك ولاندون دين في تي ليزي 7 رانش، أسبن، كولورادو، 31 ديسمبر 2005.
42. Rick Carroll. "Prince with Aspen Ties in Delicate Situation in Terrorism War." *Aspen Daily News*, October 18, 2001.
43. مقابلة مع بيتر جاي، السفير البريطاني السابق في واشنطن، 14 ديسمبر 2004.
44. Oxford Brookes University press release, January 21, 2005.
45. مقابلة مع طوني إدواردز رئيس هيئة المبيعات الدفاعية في نادي سلاح الجو الملكي، بيكاديلي، لندن، 15 أكتوبر 2005.
46. مقابلة مع ميمي بورك في واشنطن دي سي، 29 يناير و17 فبراير 2004.
47. انظر الهامش 26.
48. مقابلة مع ليندا وير في قصر العزيزية، مراكش، المغرب، 29 يونيو 2004.

49. مقابلتان مع الجنرال أصيل "Gen. Aseel" في سفارة المملكة العربية السعودية، واشنطن دي سي، 11/10 مارس 2004.
50. مقابلتان مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير و 11 مارس 2004.
51. مقابلة مع لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولونغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
52. Nalisha Kalideen. "Sympathetic Saudi Ambassador Visits Mandela." *The Star* (South Africa), January 18, 2005.
53. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، 13 مايو 2004.
54. انظر الهامش 35.
55. مقابلة مع الرئيس جورج إيتش ديليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
56. انظر الهامش 13.

13. الكشف عن اللغز

1. من القصيدة المفضلة لدى نلسون مانديلا، "إنفكتوس".
2. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
3. Francis Bacon, *Essays II, Of Great Place*.
4. مقابلة مع الأمير بندر في الرياض، 13 أكتوبر 2004.
5. مقابلة مع جون فلتر، حلاق الأمير بندر، في مكليين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
6. Niccolo Machiavelli. *The Prince*. New York: Oxford University Press, 1998: 145.
7. انظر الهامش 7.
8. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي، تشيفي تشيس، مريلند، 11 مارس 2004.
9. مقابلة مع الأمير فيصل بن بندر في مكليين، فيرجينيا، 9 مارس 2004.
10. انظر الهامش 8.
11. مقابلة مع برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
12. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
13. مقابلة مع لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولونغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
14. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.
15. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
16. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
17. انظر الهامش 9.
18. اجتماع مع طارق الشواف في مكليين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
19. انظر الهامش 15.
20. Foreign Ministry Issues Official Statement. SPA. Riyadh, July 20, 2005.
21. John R. Bradley. "Why the Saudi Envoy Really Went Home." *Asia Times*, July 29, 2005.

- James Morrison. "Bandar Resigns." Embassy Row. *Washington Times*, July 21, 2005. .22
- Paul Richter. "Saudi Ambassador to U.S. Resigns." *Los Angeles Times*, July 20, 2005. .23
- .24 انظر الهامش 4.
- .25 انظر الهامش 18.
- .26 انظر الهامش 4.
- .27 غداء مع فرد داتون في واشنطن دي سي، 14 سبتمبر 2004.
- Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia's Man in Washington." *New York Times*, June 7, 1992. .28
- Murray Waas and Craig Unger. "Annals of Government—How the U.S. Armed .29
.Iraq." *The New Yorker*, November 2, 1992
- Stanley Hoffman. *Duties Beyond Borders: On the Limits and Possibilities of .30
Ethical International Politics*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1982: 18
- Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington's .31
.Indispensable Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003
- Niccolo Machiavelli. *Discourses*, Part 3. New York: Modern Library. 1950: 528; .32
.Hoffman, p. 24
- Robert S. McNamara and James G. Blight. *Wilson's Ghost*. New York: Public .33
.Affairs, 2001:39
- Niccolo Machiavelli. *The Prince*. Angelo M. Codevilla. Yale University Press. .34
.1997. Chapter 15, Pg. 58
- .Bandar bin Sultan. "National Power and Morality." January 5, 1980 .35
.المصدر نفسه. .36
- "FBI Probes Pentagon Spy Case." CBS Broadcasting Inc. August 27, 2004 .37
- Tom Barry. "Douglas Feith: Portrait of a neo-conservative." *Antiwar.com*, .38
.September 15, 2004
- .39 حديث على العشاء مع الأمير بندر في غليمبتون، أكسفوردشير، 28 أغسطس 2004.
- .40 مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي، تشيفي تشيس، مريلند، 27 فبراير 2004.
- Allen Ruff. "AIPACGate and Washington Infighting: Israel's U.S. Spy Den." .41
.Against the Current. Volume XIX, Number 5, November/December 2004
- .Robert Scheer. "Israel's Albatross: US Neocons." *The Nation*. August 31, 2004 .42
- .James Petras. "Them or Us: AIPAC on Trial." *CounterPunch*. January 7, 2006 .43
- Bill Gertz. "Pentagon Aide Draws Scrutiny from FBI." *The Washington Times*. .44
.August 28, 2004
- .The Franklin/AIPAC Spy Case Page. JonathanPollard.Org. October 4, 2004 .45
- "Controversial Feith leaving Pentagon Post." *The Washington Times*. January 26, .46
.2005
- .Michael Isikoff. "At Issue: Classified Leaks." *Newsweek*. March 20, 2006 .47
- Caroline Glick. "Our World: Trial of American Jewry." *The Jerusalem Post*. .48
.January 31, 2006
- .Michael Saba. Pollard in Perspective." *Washington Report*, July 14, 1986, 12 .49

- .50 James Petras. "Them or Us: AIPAC on Trial." *CounterPunch*. January 7, 2006
- .51 Jeffrey Goldberg. "Real Insiders. A pro-Israel lobby and an F.B.I. انظر الهامش 48؛
".Sting." *The New Yorker*. July 4, 2005
- .52 مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكليين، فيرجينيا، 18 فبراير 2004.

14. حياة جديدة

- .1 Sayed Rashid Husain, "Saudi NSC to Have Extensive Powers." Dawn, Kerachi, Pakistan, October 20, 2005
- .2 Dr. Ali Alyami and Micha van Waesberghe. "New NSC: Saudi Royals Vie for Power." The Centre for Democracy & Human Rights in Saudi Arabia, October 24, 2005
- .3 Leila Hatoum. "Mehlis, Daoudi Finalize Plans to Question Syrian Officials. Identity of five Headed for Vienna Shrouded in Secrecy." *Daly Star*, Lebanon, November 28, 2005
- .4 Jihad el Khazen. "King Abdullah: We Intervened to Reach the Vienna-Exit upon Assad's Insistence." *Al-Hayat*, November 29, 2005
- .5 بيان بشأن إعلان مؤتمر قمة منظمة المؤتمر الإسلامي صادر عن مكتب الحافة في البيت الأبيض، 12 ديسمبر 2005.
- .6 Sayed Qamar Hasan. "GCC Calls for Nuclear-Free Middle East." *Arab News*, Abu Dhabi, December 20 2005
- .7 "Riyadh Seeks Russian Help to Prevent US Strike on Tehran." (AFP) *Khaleej Times*, UAE, April 11, 2006
- .8 "Ranking Iranian Official Visits Saudi Arabia Later Saturday." Qatar News Agency, July 15, 2006
- .9 Greg Myre. "Israel Widens Scope of Attacks Across Lebanon." *New York Times*, July 16, 2006
- .10 Amos Harel. "IDF Concerned Missiles Could Hit Central Israel." *Haaretz*, Tel Aviv, July 17, 2006
- .11 Yuval Azoulay, Amos Harel and Yoav Stern. "Eleven Wounded When Haifa Building Collapses Following Rocket Strike." *Haaretz Service and Agencies*, July 17, 2006
- .12 Nicholas Kralev. "Iran, Syria Called Playing With Fire." *Washington Times*, July 14, 2006
- .13 Associated Press. "Syria Calls for Hezbollah Cease Fire." *Jerusalem Post*, July 14, 2006
- .14 Richard Perle. "Why Did Bush Blink on Iran? (Ask Condi)." *Washington Post*, June 25, 2006